ألكسندر دوما

كونت مونت كريستو

III

مكتبة ٦٩٢

ترجمة : محمّد آيت حنّا

التنوير

إلى

ماري

رسول السلام

ألكسندر دوما

كونت مونت كريستو

المجلد الثالث

الكتاب: كونت مونت كريستو، المجلد الثالث

تأليف: ألكسندر دوما

ترجمة: محمّد آيت حنا

عدد الصفحات: 544 صفحة

الترقيم الدولي: 3-151-472-614-978

الطبعة الأولى: 2021

الترجمة الكاملة لرواية
Le Comte de Monte Cristo
Alexandre Dumas

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية فارس قاسم (سارة بنما) - الطابق السفلي
هاتف: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة 2- شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي
هاتف: 002022795557

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.daraltanweer.com

ألكسندر دوما

مكتبة | 692
سُر مَن قرأ

كونت مونت كريستو

المجلد الثالث

ترجمة : محمّد آيت حنّا



77

هايدي

ما كادت جيادُ الكونت تستدير مع زاوية الشّارع، حتّى التفت ألبير إلى الكونت مُطلقًا ضحكةً ضاجّةً لدرجة أنّها لا يمكن إلا أنّ تكون ضربًا من التصنّع.

قال: - حسنًا، أسألك سؤال الملك شارل التّاسع لكاترين آل مِديتشي، بعد مذبحة سان بارتولوميه: كيف بدت لك تأديتي لدوري؟

بادله الكونت السؤال بسؤال: - دورك بخصوص ماذا؟

- بخصوص إدخال منافسي إلى بيت السيّد دانغلار؟

- أيّ منافس؟

- اللعنة! أيّ منافس؟ المشمول برعاياتك، السيّد أندريا كافالكاني!

- أوه! كفاك دعاباتٍ سيئة يا فيكونت؛ إنّي لا أرعى البتّة السيد كافالكانتي، أو على الأقلّ لا أرعاه لدى السيّد دانغلار.

- وكنت لألومك على ذلك لو أنّ الشّابَ كان بحاجة إلى من يرعاه، ولكن لحسن حظّي لا حاجة به إلى ذلك.

- كيف! أتظنُّ أنّه كان يتودّد إلى الآنسة أوجيني؟

- أجيبك: كان ينظر بعيني ولهانٍ، ويطلق زفرات عاشق؛ إنّه يصبو إلى يد الكريمة يوجيني[1]. أرأيت، لقد نظّمت للتوّ بيتًا شعريًا! بشرفي، ليس الخطأ خطأِي. لكن لا يهمّ، أكرّر وأعيد: إنّه يصبو إلى يد الكريمة يوجيني.

---

(1) الجملة في الأصل الفرنسي من مقطعين ينتهي كلّ منهما بالقافية نفسها.

– فيم يهمّ ذلك، إذا كانوا لا يفكّرون إلا فيك؟

– لا تقل هذا، يا عزيزي الكونت، إنّما يُنكّلُ بيَ من الجانبين.

– كيف من الجانبين؟

– قطعًا، الآنسة يوجيني بالكاد ردّت عليّ؛ والآنسة دارميلي، صديقة سرّها، لم تردّ على تحيّتي بالمرّة.

قال مونت كريستو: – أجل، لكنّ الأب يحبّك.

– هو؟ بالعكس، لقد طعن قلبي ألف طعنة؛ صحيحٌ أنّها طعناتٌ تراجيدية، طعنات تخدمُ ما أردتُه، لكنّه كان يحسبها طعناتٍ حقًّا.

– إنّ الغيرة تدلّ على الحبّ.

– أجل، لكنّني لا أغار.

– هو يغار.

– يغارُ ممّن. من دُبراي؟

– كلاّ، منك.

– منّي؟ أقسم لك أنّه منذ ثمانية أيّام أغلق بابَ بيته في وجهي.

– إنّك مخطئ، يا عزيزي الفيكونت.

– ما حجّتك؟

– تريد حجّة؟

– نعم.

– إنّي مكلّف بأن أسأل السيّد الكونت مورسيرف، أن يقوم بخطوةٍ ملموسة وحاسمة تجاه البارون.

– من كلّفك؟

– البارون نفسه.

قال ألبير بكلّ التودّد الذي يحسنه: – أوه! وأنت لن تفعل ذلك يا عزيزي الكونت، أليس كذلك؟

– أنت مخطئ يا ألبير، ما دمت قد وعدت بأن أفعله، فسأفعله.

قال ألبير متحسّرًا: – يبدو أنّك مصرٌّ على تزويجي.

– أصرّ على أن أكون خيّرًا مع الجميع؛ لكن، أين دُبراي؟ منذ مدّة ما عدتُ أراه في منزل البارون.

– ثمّة شنآن.

– بينه وبين السيّدة البارونة.

– كلاّ، بينه وبين السيّد البارون.

– هل لاحظ إذًا شيئًا؟

– آه! يا لها من دعابة!

سأله الكونت بسذاجة جذّابة: – أتظنّ أنّه كان يشكّ في الأمر؟

– أوه! لكن من أي بلد أتيت أنت يا سيّدي الكونت؟

– من الكونغو، إن لم تكن تعرف.

– ليس بالمكان البعيد بما يكفي.

– فهل أعرف أزواجكم الباريسيّين؟

– إه! إنّ الأزواج يتشابهون في كلّ مكانٍ يا سيّدي الكونت؛ يكفي أن تدرس فردًا واحدًا في أيّ بلدٍ، لكي تعرف النّوعَ بأكمله.

أعاد الكونت السّؤال متصنّعًا السّذاجة مجدّدًا: – ما سبب الشّنآن إذًا بين دانغلار ودُبراي؟ كانا يبدوان متفاهمين غاية التّفاهم.

– آه! ها نحن أولاء نقتحم منطقة ألغاز إيزيس، وأنا لستُ مطّلعًا عليها. حين يصير السيّد كافالكانتي الابن فردًا من العائلة، سَلهُ هذه الأمور.

توقّفت العربة.

قال مونت كريستو: – ها نحن قد وصلنا؛ والسّاعة لم تتعدّ بعدُ العاشرة والنّصف، فلتصعد إذًا.

– بكلّ سرور.

– عربتي ستقلّك عند عودتك.

- لا حاجة إلى ذلك يا سيّدي، لا بدّ أنّ حوذيَّ لقد لحق بنا.

قال مونت كريستو وهو يقفز إلى الأرض: - هوذا قد ظهر.

دخلا معًا إلى المنزل؛ كان الصالون مضاءً، ودلفا إليه.

قال مونت كريستو: - أعدَّ لنا شايًا يا باتيستان.

خرج باتيستان من دون أن يتفوّه بكلمة. وما هي إلا برهة حتى عاد بصينيّة جاهزة، صينيّة بدت كأنّها، مثل قطع السّحر، خرجت من الأرض.

قال مورسيرف: - الحقّ أقول يا عزيزي الكونت، إنّ ما يثير إعجابي فيك، ليس ثروتَك، إذ قد يكون ثمّة من يفوقك غنىً؛ وليس حصافة عقلك، فبومارشيه لم يكن يفوقك حصافةً، ولكنّه كان يساويكَ؛ وإنّما الطّريقة التي تتمّ بها خدمتُك، من دون أن يُنبَس بكلمةٍ واحدة، تُنفّذُ أوامركَ في دقيقة، لا بل في ثانية، كأنّما يُخمّنُ ما تريدُه من الطّريقة التي ترنّ بها الجرسَ؛ وكأنّما ما تشتهيه كان جاهزًا على الدّوام ينتظرك.

- ما تقوله ينطوي على جزء من الصّواب. عاداتي معروفة. بالإمكان أن أريك مثالًا: ألا ترغب في أن تقوم بشيءٍ ما بينما تشرب الشّايَ؟

- أشتهي أن أدخّنَ، بحقّ السّماء.

دنا مونت كريستو من الجرس وقرعه مرّةً. وفي غضون ثانية فُتح بابٌ خاصٌ، وبرز منه علي حاملًا جبقين محشوين بتبغ لاذقاني فاخر.

قال مورسيرف: - عجيب!

- كلاّ، الأمرُ بسيطٌ غاية البساطة. إنّ عليًا يعرف أنّني بالعادة، حين أحتسي الشّاي أو القهوة، أدخّنُ التّبغَ. ويعرفُ أنّني طلبتُ شايًا، ويعرفُ أنّك أتيت معي؛ يسمعني أناديه، يتساءلُ ما الأمر، وبما أنّه من بلادٍ تفرض أصول الضّيافة فيها تقديم الغليون، فإنّه بدلًا من أن يأتيني بواحدٍ، يأتينا باثنين.

- قطعًا، هو تفسيرٌ ممكنٌ من بين تفسيراتٍ أخرى ممكنة؛ لكن هذا لا يمنع من أنّك وحدَك... أوه! لكن، ما الذي أسمَعه؟

ثمّ إنّ مورسيرف مال على بابٍ يتناهى منه بالفعل صوتٌ يشبه رنين قيثارة.

- أنت منذورٌ للموسيقى هذا المساء يا عزيزي الفيكونت؛ أفلتت من بيانو الآنسة دانغلار لتسقط في حبائل أوتار آلة هايدي.

- هايدي! يا له من اسم جميل! ثمّة إذًا بالفعل من النّساء من تحمل اسم هايدي، خارج قصائد اللورد بايرون؟

- بالتّأكيد؛ إنّ اسمَ هايدي نادرٌ في فرنسا، لكنّه رائجٌ في ألبانيا وإيبيروس؛ إنّ معناه أقرب ما يكون إلى العفّة والطّهارة والبراءة؛ هو أشبه ما يكون باسم تعميدٍ، على حدّ تعبير الباريسيّين.

قال ألبير: - أوه! ما ألطف هذا! لكَم أودّ أن أرى الفرنسيّات يُسمّين الآنسة طيبة، الآنسة صمت، الآنسة محبّة مسيحية! قل لي، ماذا لو أنّ الآنسة دانغلار، بدلًا من كلير-ماري أوجيني، كان اسمُها طهارة -عفّة- براءة دانغلار؟ اللعنة، أيّ أثرٍ سيكون لاسمها في إعلان زواج!

- أيّها الأحمق! لا تمزح بصوتٍ عالٍ، فقد تسمعك هايدي!

- وهل ستغضب؟

أجاب الكونت بنبرته الهازئة: - كلّا.

سأله ألبير: - أهِي شخصٌ طيّب؟

- لا تصدر عن طيبةٍ، وإنّما عن واجب. إنّ الجارية لا تغضبُ من سيّدها.

- لا تمزح أنت أيضًا! هل لا يزال ثمّة في عصرنا هذا جوارٍ؟

- بلا ريب، ما دامت هايدي جاريتي.

- الحقّ أنّك لا تفعل شيئًا مثلما يفعله غيرك، ولا تشبه غيرك في شيء. جارية السيّد كونت مونت كريستو! أيّ مكانةٍ هي في فرنسا. بالطّريقة التي تحرّك بها الذّهب، أستطيع أن أقول إنّها مكانةٌ تكلّف مائة ألف قطعةٍ ذهبيّة في السّنة.

- مائة ألف قطعة ذهبيّة! لقد كانت الصبيّة المسكينة تملك أكثر من هذا. لقد أتت إلى هذا العالم، فوجدت نفسها ترقد على ثروة تبدو إزاءها كنوز ألف ليلة وليلة لا شيء!

- هي إذًا بالفعل أميرة؟

- نعم، الحقُّ ما قلتَه، لا بل كانت إحدى أعظم أميرات بلادها.

- ذاك ما ظننتُه. لكن كيف لأميرةٍ عظيمةً أن تصير جاريةً؟

- كيف صار دينيسيوس، طاغية سرقوسة، معلّمًا في مدرسة؟ إنّها صروف الحرب يا عزيزي، ونزواتُ الحظّ.

- وهل اسمُها [الحقيقيّ] سرٌّ؟

- سرٌّ على الجميع يا عزيزي الفيكونت، لكنه ليس كذلك بالنّسبة إليك أنت الذي تُعتبر من أصدقائي؛ بالإضافة إلى كونك ستكتمّ السرّ إن وعدتَ بكتمانه؛ أليس كذلك؟

- أوه! بلى وشرفي!

- أتعرفُ حكاية باشا يوانينا؟

- حكاية علي باشا ألباني؟ أعرفُها قطعًا، ما دام أبي قد كوّن ثروته في خدمته.

- صحيح، لقد نسيت هذا.

- وإذًا، ما علاقة هايدي بعلي ألباني؟

- باختصار، إنّها ابنتُه.

- ماذا تقول! ابنة علي باشا؟

- نعم، ابنته من الجميلة فاسليكي.

- وهي جاريتك؟

- أوه، يا إلهي! أجل.

- وكيف صار هذا؟

- اشتريتُها ذات يومٍ مررتُ فيه من سوق القسطنطينية.

- إنّه لأمرٌ مذهل! معك يا سيّدي الكونت، لا يحيا المرء، وإنّما يحلم. والآن، أصغي إليّ، سأسألك أمرًا غايةً في الطّيش.

- قُل.

- بما أنّك تخرج معها، وبما أنّك تصطحبها إلى الأوبرا...

- وبعد؟

- هل لي أن أتجرّأ فأسألك أمرًا؟

- لك أن تسألَ ما شئتَ يا عزيزي.

- حسنًا، أريدك أن تقدّمني إلى أميرتك.

- بكلّ سرور، لكن بشرطين اثنين.

- أقبلهما مسبقًا.

- أوّلهما ألاّ تخبر أحدًا بهذه المقابلة.

- حسنًا (ومدّ مورسيرف يده). أقسم على ذلك.

- أمّا الشّرط الثاني، فهو ألّا تخبرها بأنّ والدك قد خدم عند والدها.

- أقسم على ذلك أيضًا.

- حسنًا، ستتذكّر هذين القسَمين يا فيكونت، أليس كذلك؟

- أوه! بلى.

- حسنًا أعرفُ أنّك رجلُ صدقٍ.

قرع الكونت الجرس مرّةً أخرى، فظهر علي.

قال الكونت لعليّ: - أعلم هايدي بأنّي آتٍ لاحتساء القهوة عندها، وأبلغها أنّني أطلب إذنها في أن أقدّم لها صديقًا.

انحنى علي ثمّ خرج.

- أخبرك إذًا عزيزي الفيكونت أنّ لا مجال للأسئلة المباشرة؛ فإن أردت شيئًا، سَلني إيّاهُ وسوف أسألها أنا عنه.

- اتّفقنا.

ظهر علي للمرّة الثالثة، وأمسك البوابة مرفوعةً كي يبيّن لسيّده وضيفه أنّ بوسعهما المرور.

قال مونت كريستو: - لندخل.

خلَّل ألبير شعره بيده، ثمّ سرّح شاربه، وأخذ الكونت قبّعته، ولبس قفّازيه، وتقدّمَ ألبيرَ إلى الجناح الذي كان يحرسُه عليٌّ، كخطّ دفاع متقدّم، وتحميه، ككتيبة، الخادماتُ الفرنسيات الثلاث اللواتي يشتغلنَ تحتً إمرة ميرتو.

كانت هايدي تنتظرُ في أولى القاعات، أي الصّالون، بعينين واسعتين، زادتهما الدّهشةُ وسعًا؛ إذ كانت تلكم المرّة الأولى التي يدخل عليها المخدعَ رجلٌ آخرُ غير الكونت مونت كريستو؛ كانت تجلس على أريكة، في ركنٍ من أركان الغرفة، وقد طوت قدميها تحتها، فصار مجلسُها كعشٍّ مبنيٍّ منَ أقمشة الحرير المخطّطة والمطرّزة، من أفخر وأغلى ما يجود به الشّرق. قربها، كانت الآلة الموسيقية التي وشت بها أصواتُها؛ فكانت مليحة في منظرها ذاك. وإذ لمحت مونت كريستو قامت وعلى شفتيها تلك الابتسامة المزدوجة، ابتسامة العاشقة والطّفلة في آنٍ، الابتسامة التي لا يحسنُها سواها؛ تقدّم إليها مونت كريستو ومدّ إليها يده، فطبعت عليها شفتيها، على عادتها.

وكان ألبير قد ظلّ قرب الباب، مأخوذًا بفتنة ذاك الجمال الغريب الذي لم يسبق أن رأى له مثيلًا، وما كان ليعرفه في فرنسا.

قالت الشّابة مخاطبةً مونت كريستو بلسان الرّومايك: - بمن أتيتني؛ بأخ، أم صديق أم أحد معارفك فقط، أم لعلّه عدوّ؟

أجابها مونت كريستو باللّغة نفسها: - صديق.

- واسمُه؟

- الكونت ألبير؛ وهو الشّابُ نفسه الذي خلّصته من يد العصابة في روما.

- وبأيّ لغةٍ تريدني أن أكلّمه؟

استدار الكونت مونت كريستو صوبَ ألبير وسأله: - هل تفهم اليونانية الحديثة؟

أجابَ ألبير: - وا أسفًا يا سيّدي الكونت، لست أعرف حتّى اليونانية القديمة؛ أبدًا لم يحظَ هوميروس وأفلاطون بتلميذٍ أفقر منّي علمًا، لا بل وقد أقول حتّى أشدَّ منّي غطرسةً.

قالت هايدي مبيّنةً أنّها أدركت سؤال مونت كريستو وجوابَ ألبير: - حسنًا إذًا، سأتكلّمُ بالفرنسية والإيطالية، إن شاء لي سيّدي أن أتكلّم.

فكّر مونت كريستو لحظةً ثمّ قال: - ستتحدّثين بالإيطالية.

ثمّ استدار نحو ألبير وأضاف: - مؤسفٌ أنّك لا تفهم اليونانية الحديثة ولا القديمة، وهما اللّغتان اللّتان تتكلّمهما هايدي بفصاحة مبهرةٍ؛ ستضطرّ الصبيّة المسكينة إذًا إلى أن تكلّمك بالإيطالية، ممّا قد يمنحك انطباعًا خاطئًا عنها.

ثمّ أشار إلى هايدي إشارةً.

قالت الشّابةُ بلهجةٍ توسكانيّة ممتازة، وبتلك النّبرة الرّومانية العذبة التي تجعل لغة دانتي رنّانة رنينَ لغةَ هوميروس: - أهلًا وسهلًا بضيف سيّدي ومولاي؛ يا عليّ! أحضر القهوة والغليون!

وأشارت هايدي بيدها إلى ألبير، أن اقترِب، بينما ينسحب علي لينفّذ أوامر سيّدته الشّابة.

أشار مونت كريستو لألبير باتّجاه مقعدَيْن مطويَّين، فذهب كلّ منهما يلتمس مقعده ليقرّبه ممّا يشبه طاولةً تتوسّطُها نرجيلة، وتملأها الزّهور الطّبيعية، والرّسوم وألبومات الموسيقى.

عاد عليّ حاملًا القهوة والجبق؛ أمّا السيّد باتيستان فقد كان هذا الجزء من المنزل محرَّمًا عليه.

دفعَ ألبير الغليون الذي قدّمه إليه النوبيّ.

قال مونت كريستو: - أوه! خُذه، خُذه! إنّ هايدي متحضّرةٌ قدر تحضّر أيّ فرنسية؛ إنّ التّبغ الهافاني يزعجها لأنّها لا تحبُّ الرّوائح الكريهة؛ أمّا التبغ الشرقيّ فعطرٌ، كما تعلم.

خرج عليّ. وكانت فناجينُ القهوة جاهزةً؛ فقط تمّت إضافة سكريّة لألبير؛ بينما مونت كريستو وهايدي فكانا يحتسيان المشروب العربيّ على طريقة العرب، أي من دون سكّر. مدّت هايدي يدها وتناولت بأطراف أصابعها الوردية الدّقيقة الفنجان المصنوع من الخزف الياباني، فحملته إلى شفتيها بتلك المتعة البريئة التي يشربُ أو يأكلُ بها طفلٌ شيئًا يحبُّه.

وفي الوقت نفسه دخلت امرأتان تحملان صينيّتين أخريين عليهما كؤوسٌ وأشربةٌ، وضعتاهما على طاولتين صغيرتين أعدّتا لهذا الغرض.

قال ألبير: - مضيفي الكريم، وأنت يا سينيورا، اغفرا لي دهشتي. إنّي مذهولٌ كلّ الذّهول، وهذا طبيعيّ؛ إذ ها أنا ذا ألاقي الشّرقَ، الشّرق الحقَّ؛ ليس الشّرق الذي رأيتُه وإنّما الذي حلمتُ به في قلب باريس؛ قبل قليل سمعت قطارات الشّرق تتحرّكُ، وأجراس باعة الليمونادا تجلجل؛ يا سنيورا! لو أنّي فقط كنت أتقن اليونانية، لكان حديثي معك، مضافًا إلى هذه الأجواء الخيالية، سيشكّلان بالنّسبة إليّ سهرةً لن أنساها ما حييتُ!

قالت هايدي بهدوء: - إنّي أتقن الإيطالية بما يكفي لأتحدّث معك يا سيّدي؛ وإن كنتَ تحبُّ الشّرق فسأفعل وُسع جهدي لأيسّرَ لك لُقياهُ هنا.

توجّه ألبير بالسّؤال إلى مونت كريستو بصوتٍ خافت: - فيمَ يسعني الحديث؟

- لك أن تتحدّث في ما شئت: بلادها، سنّي شبابها، ذكرياتها؛ أو إن كنت تفضّل، تحدّث عن روما أو نابولي أو فلورنسا.

قال ألبير: - أوه! أيّ خسارةٍ هي أن يجد المرء نفسَه أمام يونانيّة، فيحدّثها فيما يمكن أن يحدّث فيه أيّ باريسيّة. دعنا نتحدّث عن الشّرق.

- افعل ذلك يا عزيزي ألبير، فلا أحَبّ إلى قلبها من ذاك الحديث.

استدار ألبير ناحية هايدي، وسألها: - كم كان سنّ السِنيورا حينَ تركت اليونان؟

أجابته: - خمس سنوات.

- وهل لا تزالين تذكرين وطنك؟

- حين أغمض عينيّ أستعيد كلّ ما سبق أن رأيتُه. ثمّة ضربان من النّظر: نظرُ الجسد ونظرُ النّفس. قد يعرض لنظر الجسد أن ينسى، لكنّ نظر النّفس يتذكَر أبدًا.

- وما الزّمنُ الأقدم الذي تستطيعين تذكّرهُ؟

- كنت بالكاد أتعلّمُ المشيَ؛ أمّي، المسمّاة فاسيليكي (وفاسيليكي معناها الملكيّة، أضافت الفتاة رافعةً عينيها) تأخذني من يدي، وكلانا، محجَّبتان، بعدما وضعنا كلّ ما نملكه من ذهب في قعر صرّةٍ، نذهب للتّسول من أجل الأسرى، فنقول: «من يرحم الفقير يقرض الربّ، وعن معروفه يجازيه[1]». ثمّ حين تمتلئ صرّتُنا، نعود أدراجنا إلى القصر، ومن دون أن نخبر والدي بشيء، نرسل كلّ تلك النّقود التي جاد بها علينا النّاس، معتقدين أنّهم يجودون على فقيرتين، إلى رئيس الدّير الذي يوزّعه على الأسرى.

- وكم كان عمرك إذّاك؟

أجابت هايدي: - ثلاث سنواتٍ.

- تذكرين إذًا كلّ ما حدث في محيطك مذ كنت في الثالثة من عمرك؟

- أذكر كلّ شيء.

قال مورسيرف لمونت كريستو همسًا: - سيّدي الكونت، ينبغي أن تسمح للسينيورا بأن تحكي لنا شيئًا من قصّة حياتها؛ لقد منعتني من أن أذكر أمامها ما كان من أمر والدي، لكنّها قد تُخبرني بنفسها عنه؛ وليس لك أن تتخيّل مقدار السّعادة التي قد أصيبُها إن أنا سمعت اسمَه ينطق من هذا الفم الجميل.

---

(1) الإصحاح التّاسع عشر.

استدار مونت كريستو شطر هايدي، وبإيماءةٍ من حاجبه تعلمها أن تولي بالغ عنايتها لما سيشير عليها به، قال لها باليونانية:

«Πατροξμενατην, μηδεονομπροδοτουχαιπροδοσιανειπεη μιν»[1].

أطلقت هايدي زفرةً طويلةً، وكدّرت صفاءَ جبينها غمامةٌ سوداءُ.

سأله مورسيرف بصوتٍ خافت: - ماذا قلت لها؟

- أخبرتُها أنّك صديقٌ، وأنّ لا شيء تخفيه عنك.

قال ألبير: - ذكراك الأولى إذًا، تلك السياحةُ القديمة في سبيل الأسرى. فما ذكراك غيرها؟

- ذكراي الأخرى؟ أراني في ظلّ أشجار الجمّيز، قرب بحيرة ما زلت ألمح صفحتها الرّاجفة عبر أوراق الأشجار؛ مستندًا إلى أعتق الأشجار وأورقها كان أبي يجلس على وسائد، وأنا، الطّفلة الواهنة، وأمّي جالستين عند قدميه؛ كنت ألاعبُ لحيتَه البيضاء المرخاة على صدره والخنجرَ ذا القبضة الألماسية الموضوع في حزامه؛ ثمّ، بين الفينة والأخرى كان يأتيه ألبانيٌّ يخبره كلماتٍ لا أعيرُها اهتمامًا، فيجيبه بنبرة الصّوت نفسها دائمًا: «اقتلوه!» أو: «اعتقوه!».

قال ألبير: - إنّه لأمرٌ عجيبٌ أن يسمع المرء كلماتٍ كهذه تخرج من فم فتاةٍ خارج خشبة المسرح، فتاةٍ تقول: إنّ ما تحكيه ليس من بنات خيالها. ثمّ، مع هذا الأفق الشّعريّ، ومع هذه الذكرى البعيدة العجيبة، كيف تجدين فرنسا؟

أجابته هايدي: - أظنّ أنّ فرنسا بلدٌ جميلٌ؛ لكنّي أراها كذلك، لأنّي أراها بعين امرأةٍ؛ أمّا بلادي التي لم أرَها إلا بعين الطّفلة، فلا أستعيدها إلا مغلّفةً بضبابٍ منيرٍ أو معتمٍ، بحسب ما تجعل منه عيني: فإمّا وطنًا رفيقًا، وإمّا أرضَ عذاباتٍ مرّة.

---

(1) حرفيًا: فلتحكِي لنا مصيرَ أبيك، لكن من دون ذكر اسم الخائن ولا الخيانة.

قال الشّابُ منساقًا رغمًا عنه إلى غواية الابتذال: - كيف تألّمت؟

أدارت هايدي عينيها صوب مونت كريستو الذي همس إليها بإشارةٍ خفيّة: -Ειπε[1].

- لا شيءَ يشكّلُ عمقَ الرّوح أكثر ممّا تفعل الذّكرياتُ الأولى، وباستثناء الاثنتين اللّتين ذكرتهما لك، كلّ ذكريات صبايَ كانت حزينةً.

قال ألبير: - تحدّثي، تحدّثي يا سينيورا، أقسم لك أنّي أصغي إليك بسعادة لا توصف.

ابتسمت هايدي بحزن.

قالت: - هل تريد إذًا أن انتقل إلى الحديث عن ذكرياتي الأخرى؟

أجابها ألبير: - أتوسّل إليك أن تفعلي.

- حسنًا، كان عمري أربع سنواتٍ حين أيقظتني أمّي ذات مساءٍ. وكنّا في قصرنا بيوانينا؛ أخذتني من فوق الوسائد التي كنت أرقد عليها، ولمّا فتحتُ عينيّ رأيتُ عينيها غارقتين في دموعٍ غزيرة. حملتني من دون أن تقول شيئًا. وإذ رأيتُ دموع عينيها أوشكتُ أن أبكيَ بدوري. قالت لي «اصمتي!»، وكثيرًا ما كنت، على شاكلة كلّ الأطفال، أواصل البكاء رغم وعيد الأمّ؛ لكن هذه المرّة كان في صوت أمّي المسكينة نبرةُ رعبٍ أخرستني على الفور. حملتني على عجل. ورأيتنا إذّاك ننزلُ سلّمًا واسعًا؛ أمامنا كلّ وصيفات أمّي يحملن صناديقَ، وأكياسًا، وأشياء زينة، ومجوهراتٍ، وصرر ذهبٍ، ينزلن السلّم نفسه، أو بالأحرى يركضن عليه. وخلف النّساء حرسٌ مؤلّفٌ من عشرين رجلًا، مسلّحين ببنادق طويلة ومسدّساتٍ، ويرتدون ذاك الزيّ الذي صرتُم تعرفونَه في فرنسا منذ أن عادت اليونانُ أمّةً. (أضافت هايدي وهي تهزّ رأسها، وقد شحبَ وجهُها لمجرّد الذكرى) صدّقني، كان ثمّة شيءٌ رهيبٌ في صفّ العبيد

(1) احكِ.

والنّساء المثقلين بالنّعاس، أو أقلّه كذلك صوّرت ليَ نفسي، أنا التي أرى الآخرين نيامًا لأنّي أوقظت إيقاظًا سيئًا. على السلّم كانت تركض ظلالٌ هائلةٌ تجعلها أنوارُ القناديل ترتجفُ في الأقبية. قال صوتٌ من أقصى الرّواق: «فلنسرع!»، ولهذا الصّوت انحنى الجميع، كالرّيح إذ تمرُّ على حقلٍ فتنحني لمرورها سنابلُه. أمّا أنا، فارتعدتُ لذاك الصّوت. كانَ الصّوتُ صوتَ أبي. كان يمشي في الخلف، مرتديًا ملابسَه الرّائعة، وحاملًا بندقيّته التي أهداهُ إيّاها إمبراطوركم؛ ومستندًا إلى سليم، خادمه الأثير، كان يدفعنا أمامه كقطيع شارد. (رفعت رأسها وواصلت الكلام) أبي كان رجلًا شهيرًا، رجلًا تعرفه أوروبا بأكملها باسم علي الألباني، باشا يوانينا، رجلٌ ارتجفت أمامه تركيّا.

ومن دون أن يدري لفعله سببًا، ارتجفَ ألبير وهو يسمع هذه الكلمات تُنطق بنبرة من الرّفعة والكرامة بمكان؛ بدا له أنّ ثمّة شيئًا مُظلمًا ومرعبًا يلمع في عينيّ الشّابة وهي تثير، مثلَ بيثونيسا[1] تستدعي طيفًا، ذكرى الرّجلِ الدمويّ الذي صيّرَه موتُه الرّهيبُ مهولًا في عيون أوروبا المعاصرة.

واصلت هايدي حكيها: «ثمّ ما لبث المسيرُ أن توقّفَ؛ كنا قد بلغنا نهاية السلّمِ، وضفّةَ البحيرة. ضمّتني أمّي إلى صدرها المضطرب، ورأيتُ على بعد خطوتين إلى الخلف والدي يجول الأرجاء بعينين قلقتين. أمامَنا تمتدُّ أربع درجاتٍ رخامية، وأسفل الدّرجة الأخيرة يترنّحُ قاربٌ. ومن موقعنا كانت تُرى كتلةٌ سوداءُ تنتصبُ وسط البحيرة؛ كان ذاك البرج المائي الذي نقصده. وبدا لي البرج، ربّما بباعثٍ من العتمة، بعيدًا بمسافةٍ كبيرة. نزلنا القارب. أتذكّرُ أنّ المجاديف لم تكن تثير أيّ ضجيج وهي تلامس

---

(1) إحدى راهبات الإله أبولو في الميثولوجيا الإغريقية.

المياهَ؛ وقد مددت رأسي لأراها. كانت مغلّفة بأحزمة جنودنا الباليكار[1]. لم يكن القارب يضمُّ، بالإضافة إلى المجدّفين، إلا نساءً، وأبي، وأميّ، وسليم، وأنا. وظلّ الجنود الباليكار على ضفّة البحيرة، جاثين على الدّرجة الأخيرة، جاعلين من أنفسهم متراسًا تحسّبًا لأن نكون ملاحقين. وكان قاربنا يجري كالرّيح. سألتُ أمّي:

- لمَ يسير قاربنا بهذه السّرعة؟، فأجابتني:

-صمتًا يا طفلتي! نسير كذلك لأنّنا هاربون!. لم أفهم: لمَ والدي يفرُّ، وهو القويّ فوق الجميع، وهو الذي يفرُّ منه بالعادة الجميعُ، وهو الذي اتّخذ لنفسه شعارًا: «يكرهونني، إذًا هم يخافونَني»؟ والحالُ أنّ ما كان أبي يفعله في البحيرة هو الفرار. وقد قال لي فيما بعد إنّ الحامية العسكرية بقصر يوانينا، وقد أعياها طولُ الخدمة...».

وهنا ألقت هايدي نظرتها المعبّرة على مونت كريستو الذي لم تكن عيناه تفارقان عينيها، فواصلت الشّابةُ الحديث ببطءٍ، كمن يخترع كلامًا أو يحذفه.

قال ألبير الذي كان يولي الحكاية أكبر اهتمام: - تقولين يا سينيورا، إنّ الحامية العسكرية بقصر يوانينا، وقد أعياها طولُ الخدمة...

- تحالفت مع الصّدر الأعظم خورشيد باشا الذي أرسلَه السّلطان العثماني لعزل أبي؛ إذّاك قرّر والدي أن ينسحب، بعدما أوفد إلى السّلطان ضابطًا إفرنجيًا يثق فيه كلّ الثّقة، إلى المأوى الذي كان قد جهّزهُ لنفسه منذ زمن طويل، وأسماهُ كاتافيجيو، أي الملجأ.

سألها ألبيرُ: - وهذا الضّابطُ، هل تذكرين اسمَه يا سينيورا؟

تبادل مونت كريستو والشّابة نظرةً خاطفة، لم يتنبّه إليها مورسيرف.

قالت: - كلّا، لا أتذكّر؛ لكن لَعلّي أتذكّر لاحقًا فأقولُ.

(1) الجنود اليونان الذين حاربوا تركيا زمن حرب الاستقلال.

كاد ألبير ينطق اسمَ والده، وإذا بمونت كريستو يرفع إلى شفتيه سبابته إشارةً إلى وجوب لزوم الصّمت، فتذكّر الشّابُ القسم الذي قطعه على نفسه ولاذ بالصّمت.

«باتّجاه البرج كنّا نبحرُ إذن. طابقٌ أرضيّ مزيّنٌ بالأرابيسك، تعوم شرفاتُه في الماء، وطابقٌ علويٌّ يشرف على البحيرة، ذلكم كلّ ما كان يشفُّ عنه البرجُ. لكن تحت الطّابق الأرضيّ، يمتدّ في أغوار الجزيرة نفقٌ، مغارةٌ واسعةٌ اقتُدت إليها أنا وأمّي وجوارينا؛ وفي المغارة رُصّ في كتلة واحدة ستّون ألف كيس ومائتا برميل؛ الأكياس حوَت خمسةً وعشرين مليون قطعة ذهبية، وفي البراميل ثلاثونَ ألف رطلًا من البارود. قرب البراميل ظلَّ سليم، مقرّبُ أبي، الذي سبق أن ذكرته لك؛ كان يحرس المكان ليلًا ونهارًا، ساهرًا وفي يده رمحٌ يلمع على سنّه فتيلٌ أُشعلَ؛ كانت الأوامرُ أن يفجّرَ كلّ شيء، البرج، والحرس، والنّساء، والذهب، ما إن يتلّقى إشارة من أبي. وأذكر أنّ جوارينا، وقد اطّلعن على الخطر المجاور، كنّ يقضين الأيامَ والليالي في الصّلاة والبكاء والأنين. أمّا أنا، فما زلت إلى اليوم أرى الجندي الشّاب ذا السحنة الشّاحبة والعينين السّوداوين؛ ويوم يأتيني ملك الموت ليقبض روحي، فإنّي متأكّدة من أنّه سيأتي في هيئة سليم. لا أستطيع أن أحدّد كم بقينا من الزّمن كذلك: ففي تلك الفترة من عمري، ما كنت أدرك كنهَ الزّمن؛ أحيانًا، ولكن نادرًا، كان أبي ينادينا، أنا وأمّي، فنصعد عنده إلى شرفة القصر؛ وكانت تلك ساعات متعتي، أنا التي ما كنت أرى في القبو إلا ظلالًا تئنُّ، وحربةَ سليم ذات الفتيل المشتعل. جالسًا أمامَ فتحة كبيرة، كان والدي يرمق أغوار الأفق بنظرةٍ مظلمة، سابرًا كلّ نقطةٍ سوداء تلوح في صفحة البحيرة؛ بينما أمّي، نصف مضطجعة قربه، تتكئ برأسها على كتفه، وأنا ألعبُ عند قدميه، متأمّلةً، بدهشةِ الطّفولةِ التي تكبّرُ الأشياءَ، قممَ جبال بيندوس التي تنتصب في الأفق، وقلاع يوانينا التي تنبثق بيضاء مدبّبة من وسط مياه البحيرة المزرقّة، وحزم الخُضرة السوداء الهائلة،

المعلّقة كأشناتٍ على صخور الجبلِ، والتي تبدو من بعيد كطحالب، بينما من قريبٍ هي أشجارُ تنّوب هائلةٌ وآس ضخمة. وذات صباح أرسل والدي يطلبُنا، وجدناهُ هادئًا بماً يكفي، لكنّ شاحبًا أكثر من العادةً. قال:

– صبرًا يا فاسيليكي، اليوم ينتهي كلّ شيء؛ اليوم يصل فرمان الأستاذ، فيتقرّرُ مصيري. إن كان العفوُ كليًا، فسنعود إلى يوانينا عودة المظفّرين؛ أمّا إن كان الخبرُ شؤمًا، فسنفرُّ هذه اللّيلة.

قالت أمّي – وماذا إن لم يتركونا نفرُّ؟

أجابها عليّ باسمًا: – أوه! فلتطمئنّي، سيكون جوابُنا سليمًا وحربته. هم يريدون لي الموتَ، لكن شرط ألّا يموتوا معي.

«لم تكن أمّي تجيب إلا بزفراتٍ على تطمينات أبي غير النّابعة من قلبه. وظلّت تُعدُّ له الماء المثلّج الذي ما انفكّ يشربه في كلّ وقتٍ وحين، إذ مذ لُذنا بالبرج أصابته حمّىً حارقة؛ وكانت تعطّر لحيته البيضاء وتشعل له الجبق الذي كان يعرض له أحيانًا أن يتابع، لساعاتٍ طويلة، بعينين شاردتين، دخانَه يتبدّدُ في الجوّ. وعلى حين غرّة ندّت عنه حركةٌ مباغتة انقبضتُ لها أنا رعبًا. ثمّ، من دون أن ينزاح نظره عن النّقطة التي تجذب انتباهه، طلب منظارَه. فمدّته إليه أمّي وقد صارت أكثر شحوبًا من الجبس الذي تتّكئ عليه. ثمّ رأيتُ يدَ والدي ترتجفُ. غمغم: «قاربٌ! اثنان! ثلاثة! أربعة»، ثمّ قامَ فتناول أسلحته، وعبّأ، كما أذكر، المسدّسات بالبارود. قال لأمّي، ورعدةٌ ظاهرةٌ تجتاحه:

– فاسيليكي، هي ذي اللحظة التي ستقرّرُ مصيرَنا، بعد نصف ساعةٍ سنعرف جوابَ الإمبراطور المعظّم، فانزلي أنت وهايدي إلى القبو.

قالت فاسيليكي: – لا أريد أن أتركك؛ فإن متَّ يا سيّدي، أريد أن أموت معك.

صاح والدي: – اذهبي قربَ سليم!

همست أمّي، طائعةً وخانعةً كأنّما استسلمت لقدوم الموت: – وداعًا يا سيّدي!

قال والدي لجُنده الباليكار: - رافقوا فاسيليكي!

أمّا أنا، التي غفلوا عن وجودي، فركضتُ إليه ومددت ذراعيّ إليه؛ فلمّا رآني مال عليّ وطبع شفتيه على جبيني. آه! لقد كانت تلك القبلة آخر قُبلِه، ولا يزالُ أثرها على جبيني إلى اليوم.

وبينما ننزل، لمحنا خلَال تعريشات الشّرفة القواربَ وحجمُها ما انفكّ يتعاظمُ وسط البحيرة، ولم تعد تبدو كنقطٍ سوداءَ، وإنّما اتّخذت هيئةَ طيورٍ تمسحُ سطحَ اللُّجج.

وأثناء ذلك، كان في البرج عشرون جنديًا قعودًا عند قدمَي والدي، متوارين خلف الجذوع، يراقبون بأعين دمويّة وصول المراكب، ممسكين بنادقهم المطعّمة باللؤلؤ والفضّة، جاهزةً، وخراطيش شتّى متناثرة على الأرضية الخشب؛ وكان والدي ينظر إلى ساعته ويذرع المكان قلقًا؛ ذاك ما أثار انتباهي حين تركتُ والدي بعد آخر قبلةٍ قبّلَنيها.

عبرنا أنا وأمّي الممرّ الأرضيّ. كان سليم لا يزالُ في موقعه، وابتسم لنا بحزن. التمسنا وسائد من الجانب الآخر للمغارة، ثمّ عدنا نجلس بجانب سليم. في لحظات الخطر الدّاهم، تلتمس القلوبُ الخُلّصُ بعضها بعضًا، ومع أنّي كنت لا أزالُ طفلةً، إلا أنّي كنت أستشعر غريزيًا أنّ مصيبةً ماحقةً تحلّقُ فوق رؤوسنا.

كثيرًا ما قُصَّت على مسامع ألبير حكايةُ اللّحظات الأخيرة من حياة وزير يوانينا؛ ولم يكن يسمعها من فم والده الذي لم يكن يثيرها قطّ، وإنّما من أفواه أجانبَ؛ كما قرأ رواياتٍ مختلفةً في موته؛ غير أنّ هذه القصّة، وقد صارت حيّة متجسّدة في شخص الصبيّة وصوتها، هذه النّبرة الحيّة وهذه المرثية الأليمة، كانت جميعًا تفعمه في آنٍ بفتنةٍ ورعبٍ لا يوصفان.

وحين توقّفت هايدي لحظةً عن السّرد، مأخوذةً بذكرياتها المرعبة؛ انحنى جبينها على يدها، كما تنحني زهرةٌ في يومٍ عاصف؛ وبدا أنّ عينيها

الشّاردتين لا تزالان تريان في الأفق جبال بيندوس ومياه بحيرة يوانينا الزرقاءَ، تلك المرآة السّحرية التي تعكس اللوحة المظلمة التي تشكّلها هي.

وكان مونت كريستو ينظر إليها بتعبير اهتمام وشفقةٍ لا سبيل إلى وصفه.

قال الكونت مونت كريستو بلسانٍ رومايك: -واصلي يا بنيّتي.

رفعت هايدي جبهتها، كأنّما كلمات مونت كريستو الرّنانة قد استلّتها من حُلم، واستأنفت الحكي: كانت السّاعة الرّابعة مساءً؛ لكن على الرّغم من أنّ النّهار كان في الخارج مشرقًا وصافيًا، إلا أنّنا نحن كُنّا غارقين في ظلمات القبو. ضوءٌ واحدٌ كان يلمع في المغارة، مثل نجمةٍ ترتجف في قعر سماءٍ سوداء: كان ذلكم فتيل سليم.

«أمّي كانت مسيحيةً. وكانت تصلّي. أمّا سليم، فظلّ بين الفينة والأخرى يردّد هاتين الكلمتين: «الله أكبر!». على أنّ أمّي كانت لا تزال تضمر بعض الأمل. ذلك أنّها حين نزلت حسِبت أنّها قد رأت الإفرنجيَّ الذي كان قد أوفِدَ إلى القسطنطينية، والذي كان أبي يضع فيه كلّ ثقته إذ كان مبلغ علمه أنّ جنود السّلطان الفرنسيّين هم بالعموم كرامٌ وكرماء. فتقدّمت خطواتٍ إلى السلّم وأخذت تتسمّع.

قالت: - إنّهم يقتربون؛ عسى أن يحملوا إلينا السّلام والحياةَ.

قال لها سليم بصوته الشّديد العذوبة والكبرياء: - ما الذي تخشينَه يا فاسيليكي؟ إن لم يأتوا حاملين السّلام، فسوف نذيقهم الموتَ.

ثمّ أوقد شعلة حربته بحركةٍ بدا فيها أشبه بديونيزيوسَ اليونان البائدة.

أمّا أنا، الطفلة السّاذجة، فقد أخافتني تلك الشّجاعة التي ألفيتُها شرسةً وطائشة، وخشيت تلك الميتة المرعبة وسطَ الغبار والحريق. وكان الإحساسُ نفسُه يراود أمّي، إذ شعرت بها ترتجفُ.

صحتُ: - يا إلهي! يا إلهي، يا أمّي! هل سنموت؟

ولنبرة صوتي تضاعف بكاء الجواري وصلواتهنّ.

قالت فاسيليكي: - طفلتي، ليحفظك الربُّ من وقتٍ آتٍ تطلبين فيه هذه الميتة التي تخشينَها اليومَ!

ثمّ أضافت بصوتٍ خفيض: - سليم، بماذا أمر السيّدُ؟

- إن أرسلَ ليَ خنجرَه، فمعنى ذلك أنّ السّلطان رفض العفو عنه، وفي تلك الحال سأضرم النّارَ؛ أمّا إن أرسل لي خاتمه، فمعنى ذلك أنّ السّلطان عفا عنه، وإذّاك سوف أسلّمُ البارودَ.

استأنفت أمّي: - أيّها الصّديق، حين يأتي أمرُ السّلطانِ؛ إن كان المرسول الخنجرَ، بدلًا من أن تقتلنا معًا بهذه الطّريقة المرعبة التي نخشاها، فسوف نمدّ إليك رقبتينا، فتنحرنا بالخنجر.

أجابها سليم بهدوء: - نعم يا فاسيليكي.

فجأةً سمعنا صياحًا عظيمًا؛ فأنصتنا. كانت تلكم صيحات فرح؛ كان جنودنا الباليكار يهتفون باسم الجنديّ الفرنجيّ الذي أوفده والديَ إلى السّلطان؛ كان واضحًا أنّه عادَ بالخبر من عند الإم ر المعظّم؛ وأنّ الإمبراطور ردّ بالقبول.

قال مورسيرف محاولًا حثّ ذاكرة الرّاوية على التذكّر: - ولا تذكرين اسمَه؟

أومأ إليها مونت كريستو بإشارة، فأجابت: - لا أتذكّرُه.

ثمّ واصلت السّردَ: «تضاعفَ الضّجيج؛ وتناهى إلينا وقع خطواتٍ تزدادُ قربًا؛ كانوا ينزلون درجات القبو. فأعدّ سليم حربتَه. ثمّ ما لبث أن ظهر شبحٌ في الغسق المزرقّ الذي تشكّله أشعّةُ النّهار المتسلّلة حتّى مدخل القبو.

صاح سليم: - من أنت؟ وأيًّا تكن، توقّف ولا تزد خطوةً.

صاح الشّبح: - تعظّمَ اسمُ السّلطان! الوزيرُ عليّ مشمولٌ بعفوه؛ والأمرُ ألّا تحفظَ حياتُه فحسب، وإنّما أن تردَّ إليه أمواله وأملاكه.

أطلقت أمّي صيحة فرح وضمّتني إلى صدرها.

وصاح به سليم إذ رآهُ يتأهّب لأن يخرج: - مكانك! تعرفُ أنّي يلزمني خاتمٌ حجّةً.

قالت أمّي: «الحقُّ قولُك». ثمّ إنّها جثت على ركبتيها ورفعتني بيديها تجاه السّماء، كأنّما أرادت، وهي تصلّي للرّب لأجلي، أن تقرّبني منه».

وللمرّة الثانية تتوقّف هايدي مندحرةً إزاء انفعالٍ أسالَ العرقَ من جبينها الشّاحب، وبدا أنّ صوتها المختنق عاجزٌ عن تجاوز حنجرتها المتيبّسة.

صبّ لها مونت كريستو بعض الماء المثلّج في كأسٍ، وقدّمه إليها قائلًا بعذوبة فيها طيفُ أمرٍ:

- تشجّعي يا بنيّتي!

مسحت هايدي عينيها وجبهتها ثمّ واصلت:

«أثناء ذلك كانت عيوننا قد ألِفَت الظلامَ، واستطاعت أن تميّز رسول الباشا: كان صديقًا. وقد عرفه سليم، لكنّ الشّابَ الشّهمَ لم يكن يعرف إلا شيئًا واحدًا: الطّاعة!

قال: - باسم من أتيت؟

- إنّي آتٍ باسم مولانا علي ألباني.

- إذا ما كنت آتيًا من قبل عليّ، فإنّك لا شكّ تعرف ما ينبغي أن تحمله إليّ معك؟

- أجل، وإنّي أحمل إليك خاتمَه.

في الوقت نفسه رفع يده فوق رأسه؛ لكنّه كان بعيدًا ولم يكن المكانُ مضاءً بما يكفي ليتمكّن سليم من تمييز ما يعرضه عليه.

قال سليم: - إنّي لا أرى ما تحملُه.

فردّ الرّسول: - اقترب أو أقتربُ أنا.

- لا أنا ولا أنت؛ ضع الشّيء الذي تريني إيّاهُ في الموضع حيث أنت، تحتَ شعاع هذا الضوء، وانسحب إلى الوراء كي أستطيعَ رؤيته.

قال الرّسول: - لك ما شئتَ.

ثمَّ انسحب بعدما وضع الحجّةَ في المكان المعلوم.

كان قلبانا يخفقان بعنفٍ. ذلك أنّ الشّيء كان يبدو لنا بالفعل خاتمًا. غير أنّنا لا ندري ما إذا كان حقًّا خاتمَ أبي.

اقتربَ سليم من فتحة الممرّ، حاملًا في يده فتيله المشتعل، وانحنى يلتقطُ العلامةَ.

صاح وهو يقبّلُ الخاتمَ: «إنّه خاتمُ مولايَ!».

ثمّ رمى بالفتيل أرضا وداس عليه بقدمه فأطفأه.

«صاح الرّسول صيحة فرحٍ وصفّق بيديه. وكانت تلك إشارة دخل على إثرها أربعةٌ من جنود الصّدر الأعظم خورشيد، وسقط سليم تحت طعناتِ خناجرَ خمسةٍ؛ كلّ واحدٍ من الرّجال طعنَ طعنَته. منتشين بجريمتهم، وإن لم يزايلهم شحوبُ الخوف، سارع الجنود يتلمّسون المغارة باحثين في كلّ مكانٍ عن نارٍ، فتدحرجوا على أكياس الذّهب.

«أثناء ذلك أخذتني أمّي بين ذراعيها، وبمهارةٍ، وثبت عبر المنعرجات التي كنّا وحدنا نعرفُها، حتّى بلغت درجًا يمتدّ من البرج، يسوده صخبٌ مرعبٌ. وكانت القاعات السّفلى عامرةٌ كلّها بمن يرتدون شوادر[1] خورشيد، أي أعداءنا. وفي اللّحظة التي كانت فيها أمّي على وشك أن تدفع البابَ الصّغير، سمعنا صوت الباشا الرّهيبَ المتوعّدَ.

«ألصقت أمّي أذنها بين فتحات الخشبات، وبالصّدفة كانت ثمّة فتحة أمامي، فنظرتُ منها. ورأيت أبي يقول لرجالٍ يمسكون ورقةً مكتوبة بحروف ذهبيّة: - ماذا تريدون؟

أجابه أحدهم: - ما نريده هو أن نبلغك إرادة معاليه. هل ترى هذا الفرمان؟

---

(1) جمع شادور، وهو زيٌّ يرتديه بعض مسلمي آسيا خاصّة.

أجاب والدي: - إنّي أراه.

- حسنًا إذًا، اقرأه؛ إنّه يطلبُ رأسَك.

«أطلق أبي ضحكةً أشدّ رعبًا من تهديد؛ ولم يكد ينهي ضحكه حتّى انطلقت من مسدّسه طلقتان فأردت رجلين. فقام جنود الباليكار، الذين كانوا راقدين ووجوههم إلى الأرض، وشرعوا في إطلاق النّار؛ امتلأت الحجرة بالضّجيج واللّهب والدّخان. وفي اللحظة نفسها انطلقت النّيران من الجانب المقابل، فأتت الرّصاصات تخترق الخشب حولنا.

«يا الله! كم كان جميلًا، كم كان عظيمًا، الوزير علي ألباني، أبي، وهو وسط الرّصاص، سيفه في قبضة يده، ووجهه أسود من البارود! وأعداؤه يفرّون!

أخذ يصيح: - سليم! يا سليم! يا حارس النّار، قُم بواجبك!

أجابه صوتٌ بدا كأنّما يخرج من أعماق البرج: - سليم مات! وأنت يا سيّدي قد هلكت!

«وفي اللحظة نفسها سُمع صوتُ انفجارٍ أصمّ، وتناثرت الأرضية الخشبية مزقًا حول والدي. كان جنود الشادور يطلقون الرّصاص عبر الأرضية الخشبية. سقط ثلاثةُ جنودٍ باليكار أو أربعةٌ، وقد أصابتهم طلقات من أسفل إلى أعلى، مخترقةً أجسادهم كلّها.

«زأر أبي، وغرز أصابعه عبر الفتحات التي أحدثها الرّصاص، واقتلع الأرضية الخشبية بأكملها. لكن، في الآن نفسه، انطلقت عشرون طلقةً ناريةً، واندفع اللّهبُ، كأنّما من فوهة بركانٍ، فبلع السّتائر والتهمها. ووسط تلك الجلبة، وسط الصراخ الرّهيب، طلقتان أكثر وضوحًا من غيرهما، وصيحتان مفجعتان أكثر من كلّ الصّيحات، جمّدتني رعبًا. تانك الطّلقتان كانتا قد أصابتا والدي في مقتل، وكان هو من أطلق الصّيحتين. ومع ذلك ظلّ واقفًا، متشبّثًا بنافذةٍ. دفعت أمّي الباب كي تهرع إليه فتموت معه، لكنّ الباب كان مغلقًا من الدّاخل.

«حوله كان الجنود الباليكار يعانون تشنّجات النّزع؛ اثنان أو ثلاثةٌ ممّن كانوا غير مصابين، أو مصابين إصاباتٍ خفيفة، اندفعوا عبر النّوافذ. وفي اللّحظة نفسها انهارت الأرضية الخشب. هوى والدي على إحدى ركبتيه؛ وفي اللحظة نفسها امتدّت إليه عشرون يدًا، بسيوفها ومسدّساتها وخناجرها؛ عشرون يدًا عالجت رجلًا مفردًا بعشرين ضربة؛ وكان أن اختفى والدي في دوامةٍ من نارٍ، أجّجتها وحوشٌ تزأر، كأنّما الجحيمُ قد انفتحت تحت قدميه.

شعرتُ بنفسي أهوي أرضًا. وكانت تلك أمّي التي انهارت مغشيًا عليها».

أرخت هايدي يديها وأطلقت زفرةً، وهي تنظرُ إلى الكونت مونت كريستو كأنّما تسأله عمّا إذا كان راضيًا عن طاعتها.

قام الكونت، ودنا منها، ثمّ أمسك بيدها وقال لها: – ارتاحي يا بنيّتي العزيزة، وتصبّري بالإيمان بإلهٍ لا بدّ أن يُعاقبُ الخونة.

قال ألبير وقد هاله شحوبُ هايدي: – هي ذي حكايةٌ مرعبةٌ يا سيّدي الكونت. وإنّي لألوم نفسي الآن على فضولي القاسي.

أجابه مونت كريستو: – لا بأس. (ثمّ وضع يده على رأس الصبيّة، وأضاف) إنّ هايدي امرأةٌ شجاعة، ولعلّها وجدت بعضًا من العزاء في سرد قصّة آلامها.

قالت الفتاة بحدّة: – لأنّ آلامي يا سيّدي، تذكّرني بأفضالك.

نظر إليها ألبير بفضول، لأنّها لم تكن حتّى تلك اللّحظة قد قصّت عليه ما ينتظره أكثر من أي شيء، وهوخبر اتّصالها بالكونت مونت كريستو وكيف صارت جارية لديه.

رأت هايدي في عيني الكونت وألبير نفس الرّغبة في المواصلة، فواصلت:

حين استعادت أمّي وعيها، كنّا أمام الصّدر الأعظم.

قالت: - اقتلوني، واحفظوا شرفَ أرملة عليّ.
قال خورشيد: - ليس أنا من ينبغي أن تطلبي منه ذلك.
- وممّن؟
- من مولاك الجديد.
- ومن هو؟
- هوَذا.

(واصلت الفتاة الحكي بغضبٍ كئيب) وأشار خورشيد إلى أحد الرّجال الذين ساهموا أكبر المساهمةً في قتل والدي.
سألها ألبير: - وإذّاك صرتما ملكًا لذاك الرّجل؟
أجابته هايدي: - كلّا؛ لم يجرؤ على الاحتفاظ بنا؛ باعنا إلى تجّار عبيد، كانوا يقصدون القسطنطينية. فعبرنا اليونان، ووصلنا، ونحن في حال الموت، إلى الباب الإمبراطوري، وقد ازدحم به الفضوليون الذين صاروا يوسعون لنا الطّريق لكي نمرّ؛ وإذا بأمّي فجأة تتبع اتّجاه أعينهم، فتطلق صيحة وتهوي وهي تشير إلى رأس معلّق على الباب.
على الباب كان مكتوبًا: «هذا رأسُ عليٍّ ألباني، باشا يوانينا». حاولتُ باكيةً أن أوقف والدتي، لكنّها كانت قد ماتت!
أُخذتُ إلى البازار؛ فاشتراني ثريّ أرميني، وربّاني وأقام لي معلّمين، وحين بلغتُ الثالثة عشرة من عمري باعني إلى السّلطان محمود».
تدخّل مونت كريستو قائلًا: - ومن عند السّلطان محمود، اشتريتُها، مثلما أسلفت لك يا ألبير، نظيرَ زمرّدة شبيهة بتلك التي أضع فيها أقراص الحشيش.
قالت هايدي وهي تقبّل يد مونت كريستو: - آه! ما أطيبك وأعظمك يا سيّدي، وما أسعدني بأن أكون في ملكك!
ظلّ ألبير مذهولًا ممّا سمعه.
قال له الكونت: - فلتُنهِ فنجانَ قهوتك؛ لقد انتهت الحكاية!

78

مراسلنا من يوانينا

خرج فرانز من مكتب نوارتييه مترنّحًا شاردًا، إلى درجة أنّ فالانتين نفسها أشفقت عليه. وفيلفور، الذي لم يستطع أن ينطق إلا كلماتٍ لا رابط بينها، فرّ إلى غرفته، وأتته بعد ساعتين الرّسالة الآتية:

بعد ما انكشف هذا الصّباح، لا ينبغي أن يتصوّر السيّد نوارتييه دو فيلفور إمكان ارتباطٍ بين أسرته وأسرة السيّد فرانز ديبيناي.

إنّ السيّد فرانز ديبيناي لا يطيق التفكير في أنّ السيّد دو فيلفور، الذي بدا على اطّلاع بالحوادث التي حُكيت هذا الصّباح، قد كتمها عنه.

وأيّما شخص قيّضَ له في تلك اللحظة أن يرى رجل القضاء، لم يكن ليشكّ في أنّه لم يكن يتوقّع الضربةَ التي قصمت ظهرَه؛ فالواقع أنّ الرّجل لم يتصوّر يومًا أباه قادرًا على أن يدفع بالصّراحة، أو بالأحرى القسوة، إلى درجة حكي قصّة مماثلة. صحيح أنّ السيّد نوارتييه، وهو الذي قلّما يحفل برأي ابنه، لم يهتم قطّ بـأن يبيّن للسيّد فيلفور ما حدث، فكان أن ظنّ وكيل الملك على الدّوام أنّ الجنرال دو كيسنل، أو البارون ديبيناي، على حسب هوى المتكّلم المخيّر بين مناداته باسمه أو بالاسم الذي ارتضاه لنفسه؛ قلنا ظلّ فيلفور يحسب أنّ الجنرال قد مات غيلةً وليس في مبارزة شريفة. والرّسالة القاسية التي بعث بها شابٌ كان حتّى تلك اللحظة شديد الاحترام، كانت قاتلة بالنّسبة إلى كبرياء رجلٍ من طينة فيلفور.

وما إن دخل مكتبه حتّى دخلت عليه زوجته. لقد أدهش خروج فرانز،

بعدما دعاه نوارتييه، الجميعَ، إلى درجة أنّ وضعية السيّدة دو فيلفور، وقد بقيت بمفردها مع الموثّق والشّهود، ما انفكّت تزداد انزعاجًا. فكان أن أخذت السيّدة دو فيلفور المبادرة، وخرجت قائلةً إنّها ذاهبة لتقصّي الأخبار.

اكتفى السيّد دو فيلفور بأن قال إنّه على إثر مكاشفةٍ بينه وبين السيّد نوارتييه والسيّد ديبيناي، أُلغيَ زواجُ فالانتين. وكان من الصّعب نقل هذا الكلام إلى المنتظرين؛ لذا اكتفت بالقول، حين عادت، إنّه على إثر وعكة ألمّت بالسيد نوارتييه تقرّر تأجيل العقد أيامًا.

وقد أتى وقع الخبر، على كذبه، فريدًا كلّ الفرادة من حيث إنّ مضمونه أتى مماثلًا لفاجعتين تعرّضت لهما العائلة مؤخّرًا؛ حتّى إنّ الحضور تبادلوا نظراتٍ دهشة، وانصرفوا من دون أن يعلّقوا بكلمة.

أثناء ذلك، سعيدةً ومرعوبةً في آنٍ، قبّلت فالانتين وشكرت الشّيخ الواهن الذي كسر للتوّ، وبضربةٍ واحدة، قيدًا كان يغلّ عنقها، قيدًا ما حسبته ينكسر؛ ثمّ استأذنت أن تذهب إلى غرفتها كي ترتاح، فأعطاها نوارتييه الإذن بنظرةٍ من عينيه.

على أنّها بدلًا من أن تذهب إلى غرفتها، ما إن خرجت حتى سلكت طريق البهو، وخرجت من الباب الصّغير وانطلقت إلى الحديقة. وسط كلّ الحوادث المتعاقبة المتراكمة بعضها فوق بعض، صار ثمّة رعبٌ صامتٌ يعصر قلبها. كانت تترقّب أن يظهر، في لحظةٍ ما، موريل شاحبًا متوعّدًا كما فعل الليرد رافينسوود في عقد زواج لوسي دو لامرمور[1].

والحال أنّ ذهابها إلى السياج أتى بالفعل في وقته؛ ذاك أنّ ماكسيميليان، وقد شكّ فيما سيحدث حين رأى فرانز يغادر المقبرة برفقة

(1) إحالة على رواية والتر سكوت عروس لامرمور. والليرد: لقبٌ اسكتلنديّ يماثل لقب لورد الإنجليزي.

السيّد دو فيلفور، تبعه؛ ثمّ إذ رآه يدخلُ ثمّ يخرج، ثمّ يدخل من جديد برفقة ألبير وشاتو رونو، قطعت نفسه الشكّ باليقين. فكان أن هرع إلى مخبأِه بالسّياج، وظلّ متأهّبًا لأيّ حدثٍ يحدث، متيقّنًا من أنّ فالانتين سوف تستغلّ أوّل فرصةٍ تلوح لها كي تفرّ إليه.

ولم يخطئ التّقدير؛ فما لبثت عينه، الملصقة بين الخشبات، أن لمحت الصبيّة قادمةً صوب السياج من دون أن تتّخذ الاحتياطات التي اعتادت أن تتّخذها.

قالت فالانتين: - نجونا!

ردّد موريل وراءها غير قادرٍ على التّصديق في إمكان سعادةٍ كتلك: نجونا! نجونا بفضل من؟

- بفضل جدّي. آه! عليك أن تحبّه يا موريل.

أقسم موريل أن يحبّ الشّيخ بكلّ كيانه، ولم يكن قسمه هذا يكلّفه شيئًا، إذ الواقع أنّه في تلك اللّحظة ما كان يحبّ نوارتييه كصديقٍ أو كأبٍ فحسب، وإنّما كان يبجّلُه كما يبجّلُ إلهٌ.

سألها موريل: - لكن كيف حدث ما حدث؟ أيّ وسيلة توسّل بها؟

فتحت فالانتين فاها لتحكي؛ لكنّها ما لبثت أن فكّرت أنّ خلف ما وقع سرًّا رهيبًا، سرًّا لا يمسّ جدّها وحده.

قالت: - لاحقًا أقصُّ عليك كلّ ما وقع.

- لكن متى؟

- حين أصير زوجتك.

كان قولها ذاك يصبو إلى تحويل مجرى الحديث صوب موضوع يجعل موريل طيّعًا؛ وقد اقتنع بأنّ ما سمعه منها حتّى تلك اللّحظة كافٍ. غير أنّه لم يوافق على الانسحاب إلا بعد أن وعدته فالانتين بأن تلتقيه في اليوم التالي. كان كلّ شيء قد تبدّل في عينيّ البنت، فقد صارت اليوم تؤمن في إمكان زواجها من ماكسيميليان، بقدر ما كانت تؤمن قبل ساعةٍ في حتمية زواجها من فرانز.

أثناء ذلك كانت السيّدة فيلفور قد صعدت عند نوارتييه. ونظر إليها الشّيخُ بتلك النّظرة القاتمة القاسية التي دأب على استقبالها بها.

قالت: - سيّدي، لستُ بحاجةٍ إلى إخبارك أنّ زواج فالانتين قد أُلغيَ، ما دامَ القرار قد اتُخذ هنا.

ظلّ نوارتييه جامدًا. وواصلت هي الحديث: - لكن، ما أودّ أن تعرفه يا سيّدي، هو أنّني كنت دائمًا ضدّ هذا الزّواج الذي تقرّر ضدًا من إرادتي.

أخذ نوارتييه ينظر إلى زوجه ابنه نظرةَ من ينتظر تفسيرًا.

وأكملت: - لكن، الآن وقد ألغي الزّواج الذي كنت أعرف أنّه يثير نفورك؛ فقد أتيت أطلب منك ما لا يمكن أن يطلبه لا ابنك ولا حفيدتك.

استفسرت عينا نوارتييه عن طلبها.

قالت: - لقد أتيت أرجوك يا سيّدي؛ بوصفي الوحيدة التي يمكنها أن ترجوك، ما دام لن يطالني شيءٌ من الأمر؛ أتيتُ أرجوك أن تمنح حفيدتك، ليس رضاك، فأنا أعرف أنّها تحوز ذلك؛ وإنّما أن تمنحها ثروتك.

ظلّت عينا نوارتييه تتساءلان لوهلةٍ غير مصدّقتين: كان يبحث بالطّبع عن دواعٍ لهذا الطّلب، لكنّه لم يجدها.

قالتً السيّدة دو فيلفور: - هل لي أن أرجو في أن تكون نياتك موافقةً لما طلبته منك؟

أشار لها نوارتييه: - نعم.

- في هذه الحال سأنسحبُ قريرة العين ومدينةً لك يا سيّدي.

ثمّ حيّت الرّجل وانسحبت.

ثمّ إنّ السيّد نوارتييه، ما إن حل اليوم التالي، حتّى طلب الموثّقَ، فمُزّقت الوصيّة القديمة؛ وكُتبت وصيّةٌ جديدةٌ تؤول بموجبها أملاكُ السيّد نوارتييه كلّها إلى حفيدته فالانتين، شرط أن لا يُفرَّق بينهما.

وانطلق بعضهم إلى حساب ما ستصير إليه ثروة الآنسة فيلفور، وريثة

الماركيز والماركيزة دو سان مران؛ وخلصوا إلى أنّها، وقد نالت رضا جدّها نوارتييه، ستصير ذات يوم مالكة ما يدرّ ثلاثمائة ألف جنيه.

وبينما كانت الزّيجة في بيتٍ آل فيلفور تُلغى، استقبل دانغلار زيارةً من الكونت مورسيرف. وحتّى يؤكّد الكونت لدانغلار جديّة زيارته، ارتدى زيّه العسكريّ، زيّ الملازم الأوّل، وزيّنه بنياشينه كلِّها، وطُلب أفضل جياده. وعلى ذلك النّحو قصد شارع رصيف أنتان، وأُعلِمَ بحضوره دانغلار الذي كان يقوم بإحصائه الشّهري. ومنذ مدّة لم يعد وقتُ الإحصاء الشّهريّ، بالوقت المناسب لكي تجد المصرفيّ رائقَ المزاج. لذا، ما إن رأى صديقَه القديمَ، حتّى اتّخذ دانغلار هيئته المهيبة وجلس بكامل أريحيّته في مقعده. أمّا مورسيرف، المتصلّب بطبعه، فقد اتّخذ على خلاف العادة هيئةً ضاحكة مرحة؛ وإذ كان شبه متأكّد من أنّ انفتاحه ذاك سيلقى قبولًا حسنًا، فقد ذهب مباشرة إلى بيت القصيد، فقال من دون مقدّمات: - سيّدي البارون، ها أنا ذا قد أتيت إليك. منذ مدّة طويلةٍ ونحن ندور حول ما قطعناه على أنفسنا فيما مضى...

وكان مورسيرف ينتظر، وهو ينطق تلك الكلمات، أن يرى أسارير المصرفيّ تنفرج، إذ كان يُرجع كلاحة وجهه إلى صمته هو؛ لكن العكس هو الذي وقع، إذ صارت السّحنةُ أشدّ تصلّبًا وبرودًا، وهو الأمر الذي كان يبدو مستحيلًا. وذاك ما جعل مورسيرف يتوقّف في منتصف عبارته.

تساءل دانغلار، وكأنّما يبحث في ذهنه عبثًا عمّا يقصده الجنرال: - عن أيّ عهد تتحدّث يا سيّدي؟

قال الكونت: - أوه! إنّك تحبُّ الشّكليات يا عزيزي، فها أنت تذكّرني بأنّ العرسَ ينبغي أن يستوفيَ طقوسه كلّها. حسنا! فلتغفر لي إذًا. ليس لي إلا ولدٌ واحدٌ، وما دامت هذه المرّة الأولى التي أفكّر فيها بتزويجه، لذا أنا ما أزالُ أتمرّنُ: حسنًا، سأنفّذ ما عليَّ تنفيذه.

ثمّ إنّ مورسيرف وقفَ، راسمًا على شفتيه ابتسامةً قسرًا؛ وانحنى

انحناءةً بالغةً أمام دانغلار قائلًا: - سيّدي البارون، أتشرّفُ بأن أطلب يد الآنسة يوجيني دانغلار، كريمتكم، لابني الفيكونت ألبير دو مورسيرف.

غير أنّ دانغلار، بدلًا من أن يستقبل كلمات مورسيرف بسعادة، مثلما تخيّل الجنرال، قطّب حاجبيه، ومن دون أن يكلّف نفسه عناء أن يدعو الكونت الواقفَ إلى الجلوس، قال: - سيّدي الكونت، قبل أن أجيبك، أحتاج أنا أيضًا مهلةً لأفكّر.

صاح مورسيرف ودهشته ما انفكّت تتعاظمُ: - تفكّر! أوَلم يكن لديك ما يكفي من الوقت لتفكّر طيلة السنوات الثماني التي مضت مُذ تحدّثنا في أمر الزّواج أوّل مرّة؟

- سيّدي الكونت، كلّ يوم تحدث أشياء تجعلنا نرى أنّ الأشياء التي كنّا نحسبُ أنفسنا قد فكّرنا فيها، تحتاجُ منّا إعادة تفكير.

سأله مورسيرف: - ماذا تقصد؟ ما عدتُ أفهمك.

- أريد أن أقول إنّه منذ خمسة عشر يومًا جدّت أمور...

- عفوًا يا سيّدي، هذه ليست مزحةً؟

- كيف يكون مثل هذا الأمر مزحة؟

- أجل، لنوضّح الأمور توضيحًا قاطعًا إذًا.

- لستُ أطلب غير ذلك.

- لقد رأيتَ السيّدَ مونت كريستو!

أجابه وهو يحرّك ياقته: - إنّي كثيرًا ما أراه؛ هو صديق!

- طيّب، في إحدى المّرات التي قابلتَه فيها مؤخّرًا، كنتَ قد أخبرتَه أنّني أبدو غير مبالٍ بهذا الزّواج، أو غير حازم في أمره!

- صحيح.

- حسنًا إذًا، ها أنا ذا أمامك، وأقول إنّني لست لا مباليًا ولا أنا غير حازم؛ وها أنت ترى بنفسك، إذ أتيت أسألك الوفاء بعهدك.

لم يحر دانغلار جوابًا.

استأنف مورسيرف الكلامَ: هل غيّرتَ رأيك بهذه السّرعة، أم تراك لم تطلب مقابلتي إلا لكي تهينني؟

أدرك دانغلار أنّه إن واصل الحديث بنفس النّبرة التي بدأه بها، فإنّ الأمور ستنقلب ضدّه.

قال: - سيّدي الكونت، لعلّك محقٌّ في اندهاشك ممّا أبديه من تحفّظ، وأنا أفهم ذلك، وثق بي إنّه لأمرٌ يحزنني أنا في المقام الأوّل؛ صدّقني، إنّ ما استُجدَّ قد فرضته عليّ ظروفٌ قاهرة.

قال الكونت: - هي كلماتٌ في الهواء يا سيّدي العزيز، كلماتٌ قد يصدّقها أيّ كان؛ لكنّ الكونت مورسيرف ليس أيّا كان؛ وحين يأتي رجلٌ مثله ليذكّر رجلًا آخر بما عليه من عهدٍ، فيخلف هذا الرّجل عهده، فإنّ للكونت مورسيرف كلّ الحقّ في المطالبة بسبب مقنع لإخلاف العهد.

كان دانغلار جبانًا، لكنّه لم يشأ أن يظهر كذلك لقد لدغته النبرةُ التّي اتّخذها مورسيرف.

قال: - إنّ الحجّة البيّنة ليست ما ينقصني.

- ما الذي تقصده؟

- أقصد أنّ لديّ حجّة مقنعةً، لكن يصعب عليّ الإفصاح عنها.

قال مورسيرف: - لكنّك تدرك مع ذلك أنّي أرتاب في تحفّظك؛ وثمّة شيء، على أيّ حالٍ، يبدو لي واضحًا: إنّك ترفض مصاهرتي.

قال دانغلار: - كلّا، إنّما فقط أعلّق قراري.

- لكنّي أحسبك لا تبلغ حدّ الاعتقاد في أنّي أقبل أن أكون رهنَ نزواتك، إلى الدّرجة التي تجعلني أنتظر في ركني هادئًا حتّى تمنّ عليّ مرّةً أخرى بعطفك؟

- إذًا يا سيّدي، إن لم يكن بوسعك الانتظار، فلنعتبر أنّ مشاريعنا لم تتوافق.

عضّ الكونت على شفتيه حتّى أدماهما، لكي يكبح نفسه من أن

تنفجر متّبعةً ما يمليه عليها مزاجه الحامي سريع الغضب، موقنًا أنّ في ظلّ ملابساتٍ كهذه سيكون هو السّخيف. وكان بالفعل قد شرع في الانسحاب، حتّى إنّه بلغ باب الصّالون، وإذا به يغيّر رأيه فجأةً ويعود على عقبيه.

وكانت قد عبرت جبينه غمامةٌ، فخلّفت به، بدلًا من كبريائه المطعون، أثرَ قلقٍ مبهم.

قالَ: - مهلًا يا عزيزي دانغلار، نحن نعرف بعضنا منذ سنين طويلة، وبالتّالي يفترض أنّنا ندين بعضنا لبعضٍ بقدر من الصّراحة. إنّك مدين لي بتفسير، أريد أن أعرف أيّ حدثٍ مشؤوم جعل ابني يفقد مكانته عندك.

أجاب دانغلار وهو يغيّر من نبرته إذ لاحظ مَيْل مورسيرف إلى اللّين:

- لا يتعلّق الأمر بشخص الفيكونت، هو ذا كلّ ما أستطيع أن أقوله يا سيّدي الكونت.

سأله مورسيرف بصوتٍ مختنقٍ وقد اكتسى جبينه شحوبًا:

- وبشخص من يتعلّق إذًا؟

حدّق دانغلار في ضيفه بنظرةٍ واثقة أكثر ممّا دأب أن يفعل.

قال: - اعفني، من زيادة الشّرح.

رجَّت مورسيرف رعدةٌ عصبيّةٌ، هي ولا شكّ نتيجةُ غضبٍ موصول.

أجابَ باذلًا جهدًا كبيرًا في الضّغط على نفسه: - من حقّي، وإنّي مصرٌّ على أن تقدّم لي تفسيرًا؛ هل لديك ما تلوم عليه السيّدة دو مورسيرف؟ هل لأنّنا ليس لدينا ما يكفي من أملاك؟ هل آرائي مخالفةٌ لآرائك...

قال دانغلار: - لا شيء ممّا ذكرته يا سيّدي؛ وإلا لما كان لي عذرٌ، إذ كنت على علم بكلّ ذلك ساعة اتّفاقنا. كلّا، لا تتعب نفسك في البحث، إنّي لأحسّ بالخجل إذ أدفعك إلى فحص هذه الأمور؛ لنبقَ عند هذه النّقطة. لنمسك العصا من الوسط، ولنقل إنّ ما بيننا لا هو بالقطيعة ولا بالالتزام. لا شيء يفرض علينا الاستعجال، يا إلهي! ابنتي

لا تزال في السّابعة عشرة من عمرها، وابنُك في الحادية والعشرين. أثناء انتظارنا، سيسير الزّمان؛ سيجرُّ في طريقه الحوادثَ؛ وإنّ الحوادث التي تبدو بالأمس مبهمةً، قد تصير غدًا واضحة. وأحيانًا تسقطُ، بين عشيّة وضحاها، أشدُّ الافتراءات قساوةً.

صاح مورسيرف مستشيطًا: - تقول افتراءات، يا سيّدي! هل يُفترى عليّ أنا!

- سيّدي الكونت، لقد قلت لك دعنا من الشّرح.

- وإذًا يا سيّدي، ينبغي أن أتقبّل صامتًا هذا الرّفض؟

- هذا الرّفض مؤلم بالنسبة إليّ أنا على وجه التّخصيص. بلى، إنّه أشدّ إيلامًا بالنّسبة إليّ ممّا هو بالنّسبة إليك، لأنّي كنت أعوّلُ على نيل شرف مصاهرتك، ولأنّ فسخ خطوبةٍ يؤذي دائمًا الخطيبةَ أكثر ممّا يؤذي الخطيب.

قال مورسيرف: - حسنًا يا سيّدي، لنقفل هذا الموضوع.

ثمّ إنّه غادر وهو يلوي قفّازيه بعنفٍ.

وبعدما خرج الضيف لاحظ دانغلار أنّ مورسيرف لم يجرؤ ولا مرّةً على التساؤل عمّا إذا كان هو السببَ الذي جعل البارون يغيّر رأيه.

ومساءً كان له حديثٌ مطوّلٌ مع العديد من الأصدقاء، وكان السيّد كافالكانتي، الذي ظلّ أكثر الوقت في صالون السيّدات، آخر المغادرينَ من بيت المصرفيّ.

وفي اليوم التّالي، ما إن استيقظ دانغلار حتّى طلب الجرائد، فحملت إليه على الفور. استبعد ثلاث جرائد أو أربعًا، ثمّ اختار جريدة الأمبريـال، الجريدة التي بوشان رئيسُ تحريرها.

مزّق المظروف بسرعةٍ متعجّلًا فتحَه بعصبية، ومرّ باستخفاف على الصّفحة الأولى، منتقلًا إلى صفحة الحوادث، متوقّفًا بابتسامته الماكرة على عنوانٍ يبدأ بهذه العبارة: «مراسلنا من يوانينا».

قال لنفسه بعدما فرغ من القراءة: «حسنًا، هوذا مقالٌ قصير حول الكولونيل فرنان، من شأنه، على الأرجح، أن يعفيني من كلّ شرح للكونت مورسيرف».

وفي اللّحظة نفسها، أي مع دقّات السّاعة التاسعة صباحًا بالضّبط، كان ألبير دو مورسيرف، مرتديًا بدلةً سوداءَ، مزرّرةً بشكلٍ رسميّ، سريع المشية موجز الكلام، قد حضر إلى منزل الشانزيليزيه.

قال البواب: - إنّ سيّدي الكونت قد خرج منذ نصف ساعة تقريبًا.

سأله مورسيرف: - هل اصطحب معه باتيستان؟

- كلاّ يا سيّدي الفيكونت.

- نادي على باتيستان، أرغب في الحديث إليه.

ذهب البواب يطلب الخادم، وما هي إلا لحظةٌ حتّى عاد برفقته.

قال ألبير: - صديقي، أسألك العفو عن تطفّلي، لكنّي أردتُ أن أسألك أنت بنفسك عمّا إذا كان سيّدك قد خرج بالفعل.

أجابه باتيستان: - أجل يا سيّدي.

- حتّى بالنّسبة إليَّ أنا؟

- إنّي أعلم كم يسعد سيّدي باستقبالكم، وإنّي لأحتاط كلّ الاحتياط من وضعكم في سلّةٍ واحدةٍ وعامّةَ النّاس.

- أنت محقٌّ، إنّ عندي موضوعًا خطيرًا أطرقُه معه. هل تظنُّ أنّه سيتأخّرُ في العودة؟

- كلاّ، لأنّه طلب منّي إعداد الطعام في العاشرة.

- حسنًا، سأقوم بجولةٍ في الشانزيليزيه، وفي العاشرة أكون هنا؛ فإن عاد السيّد الكونت قبلي، أخبره رجائي في أن ينتظرني.

- سأحرص على ذلك يا سيّدي، كن على يقين.

ترك ألبير عند باب الكونت عربةَ الرّاكب الواحد التي كان قد أتى بها، وذهب يتجوّل راجلًا. وإذ مرّ من أمام ممشى الأرامل، خيّل إليه أنّه يرى

أحصنة الكونت متوقّفةً أمام ملعب رماية غوسيه؛ فكان أن اقترب، فتيقّن من الأحصنة، وبعدها الحوذيّ.

سأل مورسيرف الحوذيَّ: - هل السيّد الكونت في ملعب الرّماية؟

أجابه الحوذيّ: - نعم يا سيّدي.

والحال أنّ عدة طلقات منتظمة كانت تُسمع منذ أن توقّف مورسيرف ناحية الملعب.

دخل. في الحديقة الصّغيرة كان يقفُ الغلام.

قال: - عذرًا، هلاّ تكرّم سيّدي الفيكونت بالانتظار لحظةً.

تساءل ألبير دهشًا من توقيفه وهو أحد روّاد المكان: - لمَ يا فيليب؟

- لأنّ الشّخص الذي يتمرّنُ الآن، قد حجزَ المكان بأكمله لنفسه وحده، ولا يحبذ أبدًا أن يرمي أمام أحد.

- ولا حتّى أمامك أنت يا فيليب؟

- ها أنت ذا تراني يا سيّدي عند الباب.

- ومن يعبئ له مسدّساته؟

- خادمه.

- رجلٌ نوبيٌّ؟

- رجلٌ زنجيّ.

- هو ذاك.

- أتعرف إذًا هذا السيّد؟

- لقد أتيت بحثًا عنه؛ إنّه صديقي.

- أوه! هذه إذًا مسألةٌ أخرى؛ سأدخل لأعلمه.

ثمّ دخل فيليب إلى الكوخ الخشبيّ مدفوعًا بفضوله. وما هي إلا ثانية حتّى ظهر مونت كريستو عند العتبة.

قال ألبير: - آسفٌ لأنّي تبعتك حتّى هنا يا سيّدي الكونت؛ لكنّي أريد أن أوضّح بدءًا أنّ فضولي هو ما قادني إلى هنا، وليس رجالك. لقد

ذهبت إلى منزلك، فقيل لي إنّك خرجت تتنزّه وإنّك ستعود في العاشرة. فانطلقت أتنزّه بدوري منتظرًا العاشرةَ، وبينما أجول لمحت خيولك وعربتك.

- ما تقوله الآن يبعثّ فيّ الأمل بأنّك أتيت تطلبني للغداء.

- كلّا، شكرًا، ليس هذا وقت الغداء؛ ربّما نتغدّى لاحقًا معًا، لكن مع رفقةٍ سيّئة؛ اللعنة!

- ما الذي تقوله بحقّ الشّيطان؟

- عزيزي، سوف أبارزُ اليوم.

- أنت؟ لكن لمَ؟

- لكي أبارزَ.

- أجل، فهمت، لكن لأيّ سبب؟ إنّنا نتبارز لأسباب شتّى كما تعلم.

- أبارز لشرفي.

- آه! هذا أمرٌ جدّيّ إذًا.

- جدّيٌ، إلى درجة أنّني أتيت أسألك معروفًا.

- أيّ معروف؟

- أن تكون شاهدي.

- المسألة إذًا خطيرة؛ لنغلق الموضوع هنا، وتعال نتباحث بالأمر في بيتي. علي، هاتِ ماءً!

شمّر الكونت عن كمّيه، ثمّ انتقل إلى الرّدهة الصّغيرة التي تتقدّم ملعب الرّماية، والتي اعتاد الرّماة أن يغسلوا أيديهم فيها.

قال فيليب بصوتٍ خفيض: - ادخُل إذًا يا سيّدي الفيكونت، سترى شيئًا عجبًا.

دخل مورسيرف. بدلًا من أهداف رمايةٍ كانت ثمّة أوراقُ لعب ملصقةٌ على ألواح. ومن بعيدٍ ظنّها مورسيرف أوراق لعبٍ كاملةً، إذ كانت كلّها موجودةً من الآس إلى العشرة.

قال ألبير: - آه! آه! هل كنت تلعبُ لعبة البيكيه[1]؟

أجابه الكونت: - كلّا، كنت أصنع ورق لعبٍ.

- كيف؟

- ما تراه هنا هو أوراق آس واثنين، لكنّ رصاصاتي جعلت منها أوراق ثلاثة وخمسة وسبعة وثمانية وتسعة وعشرة.

دنا ألبير من الأوراق.

وبالفعل، كانت الرّصاصات، بخطوط مضبوطة تمامًا ومسافات متساويةٍ على نحوٍ مثاليّ، قد حلّت محلّ الرّموز الغائبة وثقبت الأوراق في المواضع التي كان يفترض أن تُرسَم فيها. وفي طريقه إلى الألواح كان مورسيرف قد التقط بعض طيور الخطّاف التي جعلها حظّها العاثر تمرّ في مرمى رصاص الكونت، فقُتلت.

قال مورسيرف: - اللعنة!

أجابه الكونت وهو يمسح يديه بمنشفةٍ حملها إليه عليّ: - ما العمل يا سيّدي الفيكونت؟ ينبغي أن أشغل أوقات عطالتي. لكن تعال، أنا أنتظرك.

صعدا معًا إلى عربة مونت كريستو، وما هي إلا لحظاتٌ حتّى أوصلتهما إلى باب الرّقم 30.

اقتاد مونت كريستو مورسيرف إلى مكتبه، وأشار له إلى كرسيّ. جلسا معًا.

قال الكونت: - لنتكلّم الآن على راحتنا.

- أنت ترى أنّني هادئ تمامًا.

- من تريد مبارزتَه؟

- بوشان.

---

(1) بيكيه (أو بيكيت في بعض اللّغات) لعبة ورق فرنسية الأصل، من أقدم الألعاب المعروفة، ترد أحيانا تحت مسمّى لعبة «المائة»، كذلك ذكرها رابليه في نصوصه.

- تبارز أحد أصدقائك!

- الأصدقاء هم من نبارزهم دائمًا.

- على الأقل لديك سبب مقنع؟

- عندي سبب.

- ماذا فعل بك؟

- في إحدى صحف أمس... لكن، هاك اقرأ بنفسك.

مدّ ألبير الجريدة إلى مونت كريستو، فقرأ فيها:

مراسلنا من يوانينا: نمت إلى علمنا واقعةٌ ظلّت حتّى هذه اللّحظة مجهولةً؛ إنّ القلاع التي كانت تحمي المدينةَ قد سُلّمت إلى الأتراك من طرف ضابطٍ فرنسيّ كان محلّ ثقة الوزير علي ألباني، واسمُه فرنان.

سأله مونت كريستو: - وما الذي تراه صادمًا في هذا المقال؟

- كيف! ما الذي أراه صادمًا؟

- نعم. ما شأنك أنت في أن تسلّم قلاعُ يوانينا من طرف ضابطٍ فرنسيّ يدعى فرنان؟

- شأني أنّ والدي الكونت دو مورسيرف عُمِّدَ باسم فرنان؟

- وهل كان والدك في خدمة علي باشا؟

- الواقع أنّه كان يحارب في سبيل استقلال اليونان؛ وهنا موضع الافتراء.

- آه! لنحكّم العقل يا عزيزي الفيكونت.

- لست أطلب غير ذلك.

- قل لي: من ذا الذي بحقّ الشّيطان يعرف أنّ اسم والدك عند ولادته فرنان، ويهتمّ الآنَ بحوادث يوانينا التي سقطت ما بين سنتَي 1822 و1823، على ما أعتقد؟

- هنا بالضّبط مناط الغدر. لقد تُرِك الوقتُ يمرّ على الواقعة، ثمّ اليومَ تُخرَج الحوادث المنسية لتُجعل فضيحةً قد تشوّه مقامًا عاليًا. حسنًا، إنّي

أنا وريث اسم أبي، لا أريد أن تتلطّخ سمعتي بأدنى شبهة. سوف أبعث إلى بوشان الذي نُشر المقال في جريدته، بشاهدَين، وسوف يتراجع عمّا كتبه.

- لن يتراجع بوشان عن شيء.

- وإذًا سنتبارز.

- كلّا، لن تتبارزا، إذ سيجيبُ متحجّجًا بأنّ الجيش اليوناني كان يضمّ خمسين ضابطًا ممّن يحملون اسمَ فرنان.

- سنتبارز رغم هذا الجواب. آه! لشدّ ما أودّ لو يختفي هذا الأمر... والدي، الجنديّ النّبيل، والرّجل ذو السيرة اللامعة...

- أو بإمكانه أن يقول: إنّ لدينا من الحجج الرّاسخة ما يكفي للاعتقاد في أنّ فرنان المعلوم لا علاقة له بالكونت دو مورسيرف الذي عمّد هو أيضًا باسم فرنان.

- يلزمني تراجعٌ واضحٌ وتامٌّ؛ لن أكتفيَ البتّة بغير ذلك!

- وسوف تبعث إليه بشاهديك؟

- أجل.

- إنّك مخطئ.

- هذا يعني أنّك ترفض أن تسدي إليّ الخدمة التي طلبتُها منك.

- آه! إنّك تعلم وجهة نظري في المبارزات؛ لقد أطلعتك عليها بروما، ألا تذكر؟

- ومع ذلك ألفيتك هذا الصّباح تمارس نشاطًا لا ينسجمُ البتّة مع هذه القناعة.

- لأنّه كما تعلم يا صديقي العزيز، لا ينبغي أن يكون الإنسان قاطعًا أبدًا. حين يعيش المرء وسط مجانين، ينبغي أن يتمرّن تحسّبًا للحماقة، فقد يعرض لمتهوّرٍ، لا يعدم سببًا لاستفزازي مثلما لم تعدم أنت السبب لاستفزاز بوشان، قلت قد يعرض لمتهوّر أن ينبري لمواجهتي عند أوّل

سخافةٍ تلوح له، أو قد يرسل إليّ شهوده، أو يشتمني على الملأ. وإذًا، سيكون لزامًا عليّ أن أقتل ذاك المتهوّر.

– تقرّ إذًا أنّك أنت نفسك قد تتبارز؟

– قطعًا!

– وإذًا لِمَ تريد منّي أنا ألّا أتبارز؟

– لم أقل قطّ إنّك لا ينبغي ألّا تتبارز بالمرّة؛ أقول فقط إنّ المبارزة أمرٌ خطير يتطلّبُ من المرء عميقَ تفكير.

– هل فكّر هو قبل أن يسبّ والدي؟

– إن لم يكن فكّر في ذلك، واعترف لك بالأمر، فلا ينبغي أن تلومه.

– أوه! يا سيّدي الكونت، إنّك مفرطٌ في التّساهل!

– وأنت مفرطٌ في الشدّة. حسنًا، افترضُ... أصغِ إليّ جيّدًا: افترض... لكن لا ينبغي أن تغضب ممّا أقوله!

– أنا مُصغٍ إليك.

– افترض أنّ الكلام الذي قيل صدقٌ...

– لا ينبغي لابنٍ أن يوافق على افتراضٍ يمسّ شرف أبيه.

– نحنُ، يا إلهي، في زمنٍ تُقبل فيه الكثير من الأشياء!

– وهنا تحديدًا مَعطَبُ العصر.

– وهل تدّعي لهذا المعطب إصلاحًا؟

– أجل، حيثما كان يمسّني شخصيًا.

– أوه يا إلهي! أيّ شدّةٍ تبديها يا عزيزي!

– هكذا أنا.

– ألا تقبل النّصح الطّيب؟

– كلاّ، أقبله حين يأتيني من صديق.

– وإذًا إن كنت تعتبرني صديقًا حقًّا، فنصيحتي أن تتقصّى الأمرَ قبل أن تبعث بشاهدَيك إلى بوشان.

- أستقصي الأمر ممّن؟
- من هايدي على سبيل المثال.
- ما الفائدة من إقحام امرأةٍ في هذا الأمر؟ فيمَ عساها تفيد؟
- يمكنها أن تخبرك مثلًا بأنّ والدك لا علاقة له بهزيمة والدها أو موته، أو أن توضّح لك ملابسات ما وقع إن كان والدك، لسوء حظّه...
- لقد سبق أن أخبرتك يا سيّدي الكونت أنّني لا يمكن أن أقبل افتراضًا مماثلًا.
- أترفض إذًا هذه الوسيلة؟
- أرفضها.
- بإطلاق؟
- بإطلاق!
- نصيحةٌ أخيرةٌ إذًا.
- هات، ولتكن الأخيرة.
- ألا ترغب في النّصيحة؟
- بلى، إنّي لأطلبها منك.
- لا ترسل أيّ شاهدٍ إلى بوشان.
- ماذا تقصد؟
- اذهب فقابله بنفسك.
- ما تقوله مخالفٌ لكلّ الأعراف.
- إنّ قضيّتك تشذّ عن كلّ الأعراف.
- وما الدّاعي لأن أذهب بنفسي؟ أخبرني.
- لأنّ القضيّة بهذا الشّكل ستبقى بينك وبين بوشان.
- أوضح!
- قطعًا، إن كان بوشان يريد أن يتراجع، فلتترك له مساحةً للتعبير عن حسن نيّته. فإن رفض التّراجع، فسيكون آنئذ فقط لزامًا إطلاع غريبين على سرّكما.

– لن يكونا غريبين، وإنّما صديقين.
– أصدقاء اليوم، أعداء الغد.
– أوه! مثلًا!
– الشّاهد على ما أقوله بوشان.
– وإذًا...
– وإذًا أنصحك بتوخّي الحذر.
– تعتقد إذًا أنّ عليّ أن أذهب لمواجهة بوشان بنفسي؟
– نعم.
– بمفردي؟
– بمفردك. حين نريد أن ننتزع شيئًا ما من كرامة شخصٍ، ينبغي أن نسعى ما أمكن إلى أن نحفظ له كرامته.
– أعتقد أنّك على حقّ.
– آه! إنّ هذا لممّا يبهجُ النّفس!
– سأذهب بمفردي.
– اذهب بمفردك إذًا؛ وإن كان الأفضل ألّا تذهب بالمرّة.
– مستحيل.
– اذهب إذًا، ففي جميع الأحوال هذا أفضل ممّا كنتَ عازمًا على فعله.
– في هذه الحال، لنرَ، ماذا إذا اضطررت رغم كلّ احتياطاتي ومساعيَّ إلى خوض نزال، هل ستقبل أن تكون أحد شاهديّ؟

قال الكونت بنبرةٍ مهيبة: – عزيزي الفيكونت، لقد رأيت بلا شكّ، ما أبنت عنه من إخلاص لك في كلّ وقتٍ وحين؛ غير أنّ الخدمة التي تطلبها منّي الآن تقع خارج نطاق دائرة ما يمكنني أن أقدّمه إليك.
– لماذا؟
– لعلّك تعرفُ السّبب يومًا ما.

- لكن، في انتظار أن أعرف؟
- أطلب منك أن تغضّ الطّرف عن سرّي.
- حسنًا، سوف أتّخذ شاهدين لي فرانز وشاتو رونو.
- خذ فرانز وشاتو رونو شاهدَين لك، لا أمثلَ من ذلك اختيارًا.
- لكن، إن تقرّر النّزالُ، هل ستلقّنني دروسًا في المسايفة والرّماية؟
- كلّا، ذاك أيضًا أمرٌ مستحيلٌ.
- يالك من رجلٍ فريدٍ! حسنًا! أنت لا تريد أن تتورّط في أيّ شيء من هذا؟
- مطلقًا!
- حسنًا، لنغلق هذا الموضوع. وداعًا يا سيّدي الكونت.
- وداعًا يا فيكونت.
أخذ مورسيرف قبّعته وخرج.
وبالباب ركب عربته، ثم، كاظمًا غيظه ما أمكنه، قصدَ الجريدة حيث بوشان.
كان بوشان في مكتب مظلم ومغبر على عادة مكاتب الجرائد. أُعلم بقدوم ألبير دو مورسيرفً. وتكرّر الإعلامُ مرّتين؛ ثمّ، غير متيّقن بعد، صاحَ: - ادخُل!
ظهر ألبير. بدت على بوشان أمارات التعجّب وهو يرى صديقه يجتاز حزم الورق ويتخطّى بقدمٍ غير متمرّسةٍ أكوام الجرائد المختلفة الأحجام، المتناثرة ليس على الأرضية الخشب وإنّما على بساط مكتبه الأحمر.
قال مادًّا يده إلى الشّاب: - من هنا، من هنا يا صديقي؛ ما الذي أتى بك بحقّ الشّيطان؟ هل أضعت الطّريق على شاكلة عقلة الأصبع، أم تراك أتيت تنعم عليّ بدعوة غداء؟ جد لك كرسيًا؛ اُنظُر، هناك، قرب نبتة الغرنوقيّ التي وحدها لا تزال تذكّرنا بأنّ ثمّة في عالم الورق أوراقًا ليست من ورَق.

قال ألبير: - عن جريدتك أتيت أحدّثك يا بوشان.
- أنت يا مورسيرف؟ ماذا تطلب؟
- أطلب تصويب خبرٍ.
- أنت، تطلب تصويب خبر؟ بخصوص ماذا يا ألبير؟ لكن رجاءً، اجلس!
أجاب ألبير شاكرًا مرّة أخرى، مرفقًا إجابته هذه المرّة بإيماءة خفيفة من رأسه.
- تفضّل، أفصح عمّا تريد.
- أطلب تعديل خبرِ واقعةٍ تمسّ شرف فردٍ من عائلتي.
قال بوشان دهشًا: - ماذا تقول! أي واقعة؟ غير ممكن!
- الواقعة التي أُرسلت لكم من يوانينا.
- من يوانينا؟
- أجل، من يوانينا. يبدو أنّك تجهل سبب قدومي؟
صاح بوشان: - بشرفي... باتيست! هات نسخةً من عدد أمس!
- لا حاجة إلى ذلك، لقد أتيتك بنسختي.
قرأ بوشان مغمغمًا: «مراسلنا من يوانينا، إلخ...».
وحين فرغ من القراءة قال مورسيرف: - تُدرك أنّ الأمر خطيرٌ؟
سأله الصحافيّ: - وهل الضابط المقصود من أقاربك؟
أجاب ألبير وقد احمرَّ حنقًا: - أجل.
قال بوشان بلُطفٍ: - حسنًا إذًا، ما الذي بوسعي أن أفعله لإرضائك.
- أريد منكم أن تنفوا الخبر يا عزيزي بوشان.
أخذ بوشان يحدّق في ألبير بنظرةٍ تعكس أنّه يوليه بالغ الاهتمام.
قال: - إنّ الأمر سيجرّنا إلى حديث طويل؛ لأنّ نفي خبر من الأخبار هو دائمًا أمرٌ خطير. اجلس؛ سوف أعيد قراءة هذه الأسطر الثلاثة أو الأربعة.

جلس ألبير، وأخذ بوشان يقرأ الأسطر التي يدينها صديقه باهتمام أكثر من المرّة الأولى. ثم قال ألبير بصرامةٍ، لا بل بقسوةٍ: – وإذًا ها أنت ذا ترى أنّ فردًا من عائلتي قد أهينَ في جريدتكم، وإنّي أطالب بتراجعٍ عن الخبر.

– تريد...

– أجل، أريد!

– اسمح لي بأن أنبّهك يا سيّدي الفيكونت إلى أنّك لست في موقف تفاوض.

أجاب الشّاب وهو يقف: – لا أريد أن أكون كذلك، إنّي أسعى إلى نفي خبر نشرتموه أمس، وسأبلُغ مرادي. (ثمّ أضاف زامًّا شفتيه وهو يرى بوشان يرفع رأسه المتغطرس) أحسب أنكّ صديقي بما يكفي لكي تدرك مدى العناد الذي أبديه في مثل هذه الملابسات.

– بلى أنا صديقك يا مورسيرف، لكنّك ستنتهي إلى جعلي أنسى ذلك إن واصلت إطلاق مثل الكلام الذي قلتَه قبل قليل... لكن مهلًا، لنتجنّب الخصام، أو على الأقلّ لنؤجّله... أنت قلق، غاضب، مستشاط... أخبرني، من هذا القريب الذي يسمّى فرنان؟

قال ألبير: – هو ليس إلا والدي؛ السيّد فرنان مونديغو، كونت مورسيرف، الجنديّ سابقًا، الذي خاض عشرين معركةً، واليومَ يرادُ أن تُغطّى ندوبه الكريمة بالوحل النّجس المأخوذ من المستنقع.

قال بوشان: – هو والدك؟ الأمر مختلفٌ إذًا؛ إنّي لأتفهّم غضبك يا عزيزي ألبير... لنقرأ المقالَ مرّةً أخرى...

ثمّ قرأ المقال مجدّدًا، متوقّفا هذه المرّة على كلّ كلمة.

قال: – لكن، أين ترى أنّ فرنان المذكور بالجريدة هو والدك؟

– لا أراه، وأعلم علم اليقين أنّه ليس هو؛ لكنّ آخرين سيرونَه. لهذا أريد أن يتمّ تكذيبُ الخبر.

لحظةَ نطقَ مورسيرف كلمة «أريد» رفع إليه بوشان عينيه، ثمّ ما لبث أن أنزلهما فورًا، وظلّ لوهلةٍ متفكّرًا. بينما كرّر ألبير الكلام بغضبٍ متعاظم وإن ظلّ مُركِّزًا: – سوف تنفي الخبر، أليس كذلك يا بوشان؟

أجاَب بوشان: – نعم.

قال ألبير: – خيرٌ وبركة!

– لكنّي سأفعل ذلك حين أتيقّنُ من أنّ الخبر كاذب.

– كيف!

– أجل، يبدو أنّ الأمر يستحقّ أن يوضّح، وسأحرص على توضيحه.

قال ألبير وقد خرج تمامًا عن طورِه: – لكن ما الذي تريد أن توضّحه في كلّ هذا يا سيّدي؟ إن كنت تؤمن أنّ المعنيّ بالأمر ليس والدي، فلتقُلها مباشرةً؛ أمّا إن كنت تعتقد بأنّه هو فاشرح لي أسباب اعتقادك هذا!

نظر بوشان إلى ألبير وعلى شفتيه تلك الابتسامة المميِّزةُ له، الابتسامة التي تستطيع اتّخاذ تلوينات كلّ الانفعالات. واستطردَ:

– سيّدي، بما أنّك تسألني أسباب رأيي، فالأحرى لك أن تبحث الأمرَ، قبل أن تأتي إلى هنا لتحدّثني عن الصّداقة وكلّ تلك المسائل غير المجدية التي صبرتُ على سماعها نصفَ ساعةٍ بأكملها. فهل هذا هو الملعبُ الذي سنسيرُ عليه معًا ابتداءً من الآن؟

– أجل، إن لم تُكذّب الافتراء الدّنيء!

– مهلًا! لا تهديدات رجاءً يا سيّدي ألبير مونديغو، فيكونت مورسيرف؛ أعدائي لا يهدّدونني، بله أصدقائي. تريدني إذًا أن أكذّب الواقعة التي تمسّ الكولونيل فرنان، الواقعة التي أقسم بشرفي أنّ لا يد لي في نشرها؟

أجاب ألبير وقد بدأ رأسه يتوه: – أجل، أريد!

واصل بوشان بالهدوء نفسه: – وإلّا فالنّزالُ مآلُنا؟

أجاب ألبير رافعًا صوته: - أجل!

- حسنًا، إليك جوابي يا سيّدي العزيز: هذا الخبر لم يُنشر على يدي، ولا علم لي به؛ لكنّك بما فعلته أثرت انتباهي إلى الواقعة، ولا يستطيع ذهني منها فكاكًا؛ سيبقى الخبر إذًا عالقًا بنفسي إلى أن يُكذَّبَ أو يتأكّدَ.

قال ألبير وهو يقف: - سيّدي، أتشرّفُ إذًا بأن أبعث إليك بشاهديَّ، ومعهما تبتّ في شأن المكان والأسلحة.

- حسنًا.

- ومساء اليوم رجاءً، أو غدًا صباحًا على أبعد تقدير، لقاؤنا.

- كلّا! كلّا! سأكون في المضمار حين يأزفُ الوقتُ، وفي رأيي (ومن حقّي أن أبديَ رأيي ما دمتُ أنّا المدعُوُّ للنّزال) لم تحن ساعةُ المواجهة بعدُ. أعلم أنّك بارعٌ في المسايفة، بينما مستوايَ فيها متوسّطٌ؛ وأعلم أنّك تصيبُ ثلاثة أهدافٍ من ستّة، وهو تقريبًا نفس قدْرِ إجادتي الرّمايةَ؛ أعرف أنّ نزالًا بيننا سيكون نزالًا جديًّا لأنّك شابٌّ شجاعٌ، و... أنا كذلك. لا أريد إذًا أن أقتلك، أو أن أُقتل على يديك بغير سبب وجيهٍ. إنّه دوري أنا الآنَ في طرح الأسئلة، وسوف أطرحها بـ-صـ-ر-ا-مـ-ة:

هل أنت مصرٌّ على هذا التّكذيب لدرجة أن تقتلني في سبيله، حتّى وإن كنتُ أقول وأعيد وأؤكّد وأقسم بشرفي أنّ لا علم لي بالواقعة؛ حتّى وإن كان يستحيل على أيّ كان أن يتعرّف على الكونت دو مورسيرف تحت اسم فرنان؟

- أنا مصرٌّ كلّ الإصرار.

- حسنًا يا سيّدي، إنّي موافقٌ على أن نذبح بعضنا بعضًا؛ لكنّي أريد مهلةَ ثلاثة أسابيعَ؛ وبعد ثلاثة أسابيع سآتي إليك فإمّا أن أقول: أنت محقٌّ، والخبرُ كاذبٌ، وسأعمل على تكذيبه؛ وإمّا يكون الخبر صِدقًا، فأخرج سيفي من غمده أو مسدّساتي من علبتها، بحسب مشيئتك.

صاح ألبير: - ثلاثة أسابيع! لكنّ ثلاثة أسابيع هي ثلاثة قرون يتلطّخ طيلتها شرفي!

- لو ظللتَ صديقي، لقلتُ لك صبرًا جميلًا؛ لكن بما أنّك عدوّي فأقول: فيمَ يهمّني أنا ذلك يا سيّدي!

قال مورسيرف: - حسنًا إذًا، موعدنا بعد ثلاثة أسابيع. لكن لتضع ببالك أنّ بعد ثلاثة أسابيع لن يكون ثمّة من إمكانٍ للتّأجيل أو ذريعةٌ للاحتجاج بها...

قال بوشان وهو يقوم من كرسيه بدوره: - سيّدي ألبير دو مورسيرف، لا أستطيع أن ألقي بك من النّافذة إلا بعد ثلاثة أسابيع، أي بعد نحو أربعة وعشرين يومًا، كما أنّك لا تستطيع قتلي إلا حين يحين هذا الموعد؛ نحن الآن في التّاسع والعشرين من شهر أغسطس، موعدنا إذًا الواحد والعشرون من شهر سبتمبر. إلى ذلك الحين، خذ منّي نصيحة جنتلمان: لنتجنّب وضع أنفسنا في وضعية كلبين مقيّدين يتنابحان عن بُعد.

ثمّ إنّ بوشان، بعدما حيّا الشّابَ بحدّةٍ، أدار له ظهرَه وانطلق إلى أشغال مطبعته.

صبَّ ألبير غضبه في حزمة جرائد انهالَ عليها بضرباتٍ من عصاه؛ ثمّ انصرف، وهو يلتفت في طريقه مرّتين أو ثلاثًا باتّجاه المطبعة.

وبينما كان ألبير يجلد مقدّمة عربته، بعدما جلد قبلَها الأوراق المسوَّدة البريئة التي لا حيلة لها أمامه، لمح وهو يقطع النّهجَ، السيّدَ موريل مارًا من أمام الحمامات الصّينية، رافعًا أنفه، متيقّظَ العينين، فاتحًا ذراعيه؛ وكان قادمًا من ناحية باب سان مارتان ومتّجهًا صوبَ المادلين.

قال ألبير متنهّدًا: «آه! هوذا رجلٌ سعيدٌ!»

وبالصّدفة لم يكن ألبير مخطئًا.

79

شرابُ اللّيمون

الحالُ أنّ موريل كانَ حقًّا سعيدًا.

كان نوارتييه قد أرسلَ في طلبه، وكان مستعجلًا الذهابَ لمعرفة السّبب، حتّى إنّه لم يركب العربةَ، واضعًا ثقته في سرعة قدميه أكثر ممّا يثق في حصانٍ؛ وهكذا انطلق ركضًا من شارع مِسلاي متّجهًا إلى ضاحية سان أونوريه.

كان موريل يمشي بخطواتٍ رياضيٍّ، والمسكين باروا يتبعه بقدر ما تسمح به إمكاناته؛ فموريل شابٌّ في الحادية والثلاثين من عمره، بينما باروا شيخٌ في السّتين؛ موريل منتش بالحُبّ، وباروا ظمآن من شدّة الحرّ. فكان الرّجلان، اللّذان فرّقهما السنُّ والباعثُ، يشبهانِ ضلعين من أضلع المثلث، يفترقان عند القاعدة ليتلاقيا في القمّة. والقمّةُ المقصودة هي نوارتييه الذي أرسل في طلب موريل، واستعجلَه المجيءَ، فاتّبع الشّابُ التعليمات حرفيًا، لسوء حظّ باروا.

وحين وصلا، لم يكن موريل حتّى متقطّع الأنفاس: فالحبُّ يَهبُ المرءَ أجنحةً. أمّا باروا، الذي انقطع رجاؤه في الحبِّ منذ زمنٍ، فقد كان يلهثُ.

أدخل الخادمُ المسنُّ موريلَ عبر الباب الخاصّ، وأغلق باب المكتب خلفه، ثمّ ما لبث أن سُمع صوت حفيف ثوبٍ على الأرضية الخشب معلنًا قدوم فالانتين.

كانت فالانتين جميلةً في ثوب الحِداد.

أخذ الحُلم يصير عذبًا إلى درجة أنّ موريل كاد ينسى أمر نوارتييه؛ لكن ما لبث الكرسيّ المتحرّك أن صرَّ على الأرضية الخشب، ودخل الشّيخ.

استقبل نوارتييه بنظرةٍ طيّبةٍ عبارات الشّكر التي انهال بها عليه موريل، لتدخّله الحاسم الذي أنقذهما هو وفالانتين من اليأس. ثمّ انصرفت نظرة موريل إلى استثارة الشّابة الجالسة بعيدًا في خجلٍ وصمتٍ تنتظر أن تُستحثَّ على الكلام.

نظر إليها نوارتييه بدوره؛ فسألته: - هل عليّ إذًا أن أقول ما كلّفتني به؟

أشار لها نوارتييه: - نعم.

فقالت للشّاب الذي كان يلتهمها بعينيه: - سيّدي موريل، إنّ لدى جدّي نوارتييه الكثير ممّا يودّ قوله لك، لدرجة أنّه قضى ثلاثة أيامٍ يخبرني به. واليوم بعث إليك كي أخبرك بما يودّ قوله؛ وسوف أخبرك إذًا، ما دام قد اختارني له ترجُمانًا، من دون أن أغيّر في قصده كلمةً.

أجابها موريل: - أوه! إنّي أُصغي إليك نافدَ الصّبر، فتحدّثي يا آنسة!

خفضت فالانتين عينيها. وبدا ذلك فألًا حسنًا بالنّسبة إلى موريل. ذاك أنّ فالانتين لم تعتد إبداء الضّعف إلا حيثما تكون سعيدةً.

قالت: - إنّ أبي نوارتييه يرغب في ترك هذا المنزل، وقد كلّف باروا بالبحث عن محلٍّ مناسبٍ له.

قال موريل: - وأنتِ يا آنستي، أنت العزيزة على السيّد نوارتييه، والضّرورية في حياته؟

استأنفت الشّابةُ الكلام: - أنا لن أُفارق جدّي البتّةَ؛ إنّها مسألةٌ اتّفقنا عليها أنا وهو. مسكني سيكون بجوار مسكنه. فإمّا أن يوافق السيّد دو فيلفور على ذهابي للعيش بجوار جدّي نوارتييه، وإمّا أن يرفض. في الحالة الأولى، سوف أنتقل على الفور؛ أمّا في الثانية فسأنتظر بلوغ سنٍّ

الرّشد القانونية، وهو ما سيحدث بعد ثمانية عشر شهرًا. وإذّاك سأكون حرّةً، وستكون لي ثروةٌ مستقلّةٌ، و...

قاطعها موريل- و..؟

- وآنذاك، بموافقة جدّي، سأفي بالوعد الذي قطعتُه لك.

نطقت فالانتين الكلمات الأخيرة بصوتٍ خفيضٍ إلى درجة أنّ موريل ما كان ليسمعها لو لا تلهّفه عليها. وواصلت الشّابةُ موجّهةً الكلام إلى نوارتييه: - أليست رغبتُك ما عبّرتُ عنه يا جدّي؟

أشار الشّيخُ: - بلى.

أضافت فالانتين: - وما إن أصير عند جدّي حتّى يصير بوسع السيّد موريل أن يأتي لزيارتي ببيت حاميَّ الطيّب والشّهم. فإن بدت هذه الرّابطة التي شكّلها قلبانا، لربّما جهلًا أو نزوةً، مواتيةً وواعدةً بحياة سعيدة (إذ يقال، واأسفًا! إنّ القلوب التي تتّقد بمقارعة الصعاب، تبرُد وتنطفئُ في حال الاطمئنان!)؛ أقول إن بدت مواتية يصير بإمكان السيّد موريل أن يخطبني من نفسي، وسوف أنتظره.

صاح موريل ونفسُه تهفو إلى أن يركع أمام نو كما يُركع أمام إله، وأمام فالانتين كما يُركع أمامَ ملاكٍ: - أوه! أيّ خيرٍ فعلتُه في حياتي لأستحقَّ نظيرَه كلّ هذه السّعادة؟

واصلت الصبيّةُ بصوتها العذب والحازم: - حتّى هذه اللّحظة قد احترمنا الأعرافَ، وسنحترم إرادة والدينا، ما دامت إرادتهما لا تسعى إلى تفريقنا إلى الأبد؛ هي كلمة واحدة إذًا، وإنّي لأكرّرها لأنّها تختصر كلّ شيء: سننتظر!

قال موريل: - وأقسم لكم أن أضطلع بالتّضحيات التي تفرضها هذه الكلمة، ليس بحزم فقط، وإنّما بسعادة.

واصلت فالانتين بنظرةٍ عذبةٍ على قلب ماكسيميليان: - وعليه، ينبغي أن تزيد من الحذر يا صديقي، لا تسئ إلى سُمعة من غدت تنظر إلى نفسها اعتبارًا من اليوم منذورةً لأن تحمل اسمك بطهارةٍ ونُبل.

شدّ موريل بيده على قلبه. بينما نوارتييه ينظر إليهما بحنانٍ. أمّا باروا، الواقف أقصى الحجرة، مثل رجلٍ لا يُخفى عنه شيء، فقد ظلَّ يبتسم ماسحًا قطرات العرق الكبيرة النازلة من جبهته الصلعاء.

قالت فالانتين: - أوه! يا إلهي، كم هو حرّان باروا الطّيبُ.

قال باروا: - آه! هذا لأنّي ركضت بأشدّ ما يكون الركضُ يا آنسة، لكن ينبغي أن أعترف بأنّ السيّد موريل قد ركض أسرع منّي.

أشار نوارتييه بعينيه إلى صينية وُضعت عليها قارورةُ شراب ليمون وكأسٌ. وما كان ناقصًا من مشروبٍ في القارورة، كانَ قد شربه نوارتييه نصفَ ساعةٍ قبل ذلك.

قالت فالانتين: - تفضّل يا باروا الطيّب، أرى عينيك معلّقتين بالقارورة.

قال باروا: - الحقّ أنّي أموت عطشًا، وسيسعدني أن أشرب كأسَ ليمون في صحتك.

- فلتشرب إذًا، وعُد بعد لحظةٍ.

أخذ باروا الصينيّة، وما كاد يستدير في الرّواق حتّى صار بالإمكان رؤيتُه، عبر الباب الذي نسيَ إغلاقَه، وهو يميل برأسه إلى الوراء ليعُبّ الكأس التي ملأتها له فالانتين.

كانت فالانتين وموريل يودّعان بعضهما بعضًا في حضور نوارتييه، وتردّدت رنّةُ جرسٍ في درج فيلفور معلنةً زيارةَ ضيف.

نظرت فالانتين إلى السّاعة.

قالت: - السّاعة منتصفُ النّهار، واليوم سبت، لا بدّ أنّه الطّبيب يا جدّي.

أشار نوارتييه إشارةً موافقةً.

- سيأتي إلى هنا، وينبغي إذًا أن ينصرف السيّد موريل، أليس هذا ما تودّ قولَه يا جدي؟

أجاب الشّيخُ: - نعم.
فنادت فالانتين: - باروا! تعال يا باروا!
وسُمع صوتُ الخادم المسنِّ يجيبُ: - قادمٌ يا آنسة.
قالت فالانتين لموريل: - سيصحبك باروا حتّى الباب؛ والآن، لا تنسَ يا سيّدي الضّابط أمرًا مهمًّا: جدّي ينصحك بأن لا تقدم على فعل يكون فيه دمار سعادتنا.
قال موريل: - لقد وعدتُ بأن أنتظر، وسأنتظر.
في تلك اللّحظة دخل باروا.
سألته فالانتين: - من الطّارق؟
أجاب باروا مترنّحًا: - سيدي الدّكتور دافرينيي.
سألته فالانتين: - ماذا بك يا باروا؟
لم يُحر الشّيخُ جوابًا؛ أخذ يحدّق في سيّده بعينين ذاهلتين، باحثًا بيده المتصلّبة عمّا يسند به جسدَه.
صاح موريل: - انتبه ستسقط!
والحالُ أنّ الاضطراب الذي أخذ بباروا ما انفكّ يتعاظمُ درجاتٍ؛ كانت ملامحه، التي غيّرتها تشنّجات عضلاتِ الوجه، تنبئُ بنوبة عصبيّة كأشدّ ما تكون النّوباتُ.
وإذ رأى نوارتييه باروا مضطربًا على ذاك النّحو، صار يضاعفُ من تلك النّظرات التي يرتسمُ فيها كلّ ما يعتمل في نفس الرّجل من هواجس حارقة وبالكاد تُستشفُّ.
خطا باروا خطواتٍ تُجاه سيّده.
قال: - آه! يا إلهي! ما الذي حلّ بي؟.. إنّي أتألم.. ما عُدت أرى شيئًا! جمجمتي يخترقُها ألفُ لهيبٍ. أوه! لا تلمسوني، لا تلمسوني!
والحالُ أنّ عينيه صارتا زائغتين وشاحبتين، ورأسُه انقلب إلى الخلف، بينما باقي جسده يتصلّبُ.

مرعوبةً، أطلقت فالانتين صرخةً؛ أخذها موريل بين ذراعيه كأنّما يحميها من خطرٍ مجهول. وصاحت بصوتٍ مختنق: - سيّدي دافرينيي! سيّدي دافرينيي! إلينا! النّجدة!

دار باروا حول نفسه، تراجع ثلاث خطواتٍ إلى الخلف، ترنّح، ثمّ أتى يسقط عند قدميّ نوارتييه، وضغط بيده على ركبته صائحًا: - سيّدي! يا سيّدي الطيّب!

وفي تلك اللحظة ظهر فيلفور عند عتبة الغرفة، إذ أثاره ضجيج الصيحات. عندها ترك موريل فالانتين وهي نصف مغشيٍّ عليها، وقفز متراجعًا إلى الخلف، متواريًا في أقصى الغرفة خلف ستار.

شاحبًا، كأنّما واجه ثعبانًا، رمى فيلفور المحتضرَ المسكينَ بنظرةٍ جامدة.

وكان نوارتييه يغلي رعبًا ونفادَ صبر؛ روحه تحلّقُ ساعية إلى إنقاذ العجوز المسكين، الذي هو صديقٌ له أكثر ممّا هو خادمٌ.

على جبين باروا كان يرتسمُ صراعُ الحياة والموت، بانتفاخ العروق، وانقباض بعض العضلات التي لا تزال حيّةً حول العينين. بوجهٍ مضطربٍ، وعينين داميتين، وعنقٍ ملتوٍ إلى الخلف، كان المسكين ينتفض ضاربًا الأرضية الخشب بيديه، بينما قدماه المتصلّبتان تبدوان كأنّما تتمدّدان بدلًا من أن تنثنيان. ثمّ صعد إلى شفتيه زبدٌ خفيف، وصار يلهثُ متوجّعًا.

مذهولًا، ظلّ فيلفور يحدّق في اللّوحة التي ترتسم أمامَه، والتي شدّت انتباهه بالكامل منذ أن خطا داخل الغرفة، فلم يرَ موريل. وبعد لحظةِ تأمّل صامتٍ، بدا فيها وجهه شاحبًا وشعره ينتصب مقشعرًا، صاح وهو ينطلق جهة الباب: - دكتور! يا دكتور! تعال! تعال!

صاحت فالانتين مناديةً زوجةَ أبيها، مصطدمةً بحواشي الدرج:

- سيّدتي! سيّدتي! تعالي! تعالي بسرعة وهات معك قارورة الملح!

أتى صوتُ السيّدة دو فيلفور الرنّان الحازم متسائلًا: - ما الخطبُ؟

- أوه! تعالي! تعالي!

صاح فيلفور: - لكن أين الدكتور؟ أين هو؟

نزلت السيّدة دو فيلفور ببطء؛ كان صوتُ طقطقة الخشب يُسمع تحت قدميها. بيدٍ تحملُ المنديل الذي كانت تمسح به وجهها، وفي يدها الأخرى قارورة ملح إنجليزي.

وإذ بلغت البابَ كانتْ نظرتُها الأولى من نصيب نوارتييه الذي كان وجهه، إن ضربنا صفحًا عن الانفعال الطبيعيّ الذي يفرضه الظّرفُ، يعكس صحّة متّزنة؛ وكانت النّظرةُ الثانية من نصيب المحتضر، فشحبت المرأةُ، وظلّت عيناها تتقافزان، إن جاز التّعبير، بين الخادم والسيّد.

- لكن بحقّ السّماء يا سيّدتي، أين الدّكتور؟ لقد دخل عندك. هي كما ترين سكتةٌ دماغية، وبوسعنا أن نتجنّبها إن صفدنا دمه.

راوغت السيّدة دو فيلفور السّؤالَ بسؤالٍ: - هل أكل منذ وقتٍ يسير؟

قالت فالانتين: - سيّدتي، هو لم يأكل بعد، لكن صباح اليوم أرسله جدّي لقضاء حاجةٍ له، فركض كثيرًا، وحين عاد اكتفى بشرب كأس ليمون.

قالت السيّدة دو فيلفور: - آه! لمَ لم يتناول خمرًا؟ إنّ شراب الليمون سيئ.

- كان شرابُ الليمون هنا طوع يده، في قارورة جدّي؛ وقد كان المسكين باروا عطِشًا فشربَ أوّل شيءٍ طالَه.

انتفضت السيّدة دو فيلفور. وأحاطها نوارتييه بنظرته العميقة.

قالت: - إنّ رقبتَه شديدة القصر!

قال فيلفور: - سيّدتي، أسألك أين السيّد دافرينيي؛ أجيبي بحقّ السّماء!

أجابت بعدما أعيتها الحيلة في تجنّب الجواب: - إنّه في غرفة إدوارد المريض بعض الشّيء.

انطلق فيلفور يطلب الطبيبَ بنفسه.

قالت السيّدةُ وهي تمدّ إلى فالانتين قارورة الملح: - هاك! ستتمكّنُ لا محالة من إنقاذه. سأصعد إلى غرفتي، إذ لا أستطيع تحمّل منظر الدّم.

ثمّ لحقت بزوجها. وخرج موريل من مكمنه الذي لم يلحظه فيه أحدٌ لفرط انشغالهم.

قالت فالانتين: - ارحل سريعًا يا ماكسيميليان، وانتظر حتّى أتّصل بك. هيّا!

استفسر موريل من نوارتييه بإشارة، فأشار له الشّيخ، الذي حافظ على هدوء أعصابه، أن انصرِف.

شدّ بيد فالانتين على قلبه، ثمّ خرج عبر الرّواق السريّ.

وفي الآن نفسه، وعبر الباب المقابل، دخل فيلفور والدّكتور.

كان باروا قد بدأ يستعيد وعيَه: النّوبة فاتته، وكلامه عاد متحشرجًا، واستطاع النّهوض على إحدى ركبتيه.

حمل دافرينيي وفيلفور الشّيخ باروا ووضعاه على كرسيّ مديد.

سأل فيلفور الطّبيبَ: - بمَ تأمرُ يا دكتور؟

- إليّ بماءٍ وشيء من الإثير؛ هل عندكم منه في المنزل؟

- أجل.

- وأرسلوا على وجه السّرعة في طلب زيت صمغ الصّنوبر ومادة مقيِّئة.

قال فيلفور: - هيّا!

- والآن ليخرج الجميع.

سألته فالانتين باستحياء: - أنا أيضًا يا دكتور؟

أجابها بصلابةٍ: - نعم، أنت على وجه التخصيص يا آنسة.

نظرت فالانتين إلى السيّد دافرينيي بدهشة، ثمّ قبّلت السيّد نوارتييه وانصرفت. وخلفها أقفل الدكتور البابَ بهيئةٍ حزينة.

- لاحظ يا دكتور، لاحظ، هو ذا يستعيد وعيَه؛ لقد كانت مجرّد نوبةٍ بسيطة.

ابتسم السيّد دافرينيي بهيئة حزينة، ثمّ سأل الشّيخَ: - كيف تشعر الآن يا باروا؟

- أفضل بقليل يا سيّدي.

- هل تستطيع أن تشرب كأس الماء والإثير هذا؟

- سوف أحاول، فقط لا تلمسني.

- لم؟

- لأنّه يبدو لي أنّك إن لمستني، ولو بطرف إصبعك ستعاودني النّوبة.

- اشرب إذًا!

تناول باروا الكأس، وقرّبها من شفتيه المزرقّتين وأفرغ نصفها تقريبًا في جوفه.

سأله الطّبيب: - أين تحسّ بالألم؟

- في جسمي بأكمله؛ أشعر بتشنّجات فظيعة.

- هل تعاني عيناك حالات انبهار؟

- نعم.

- طنين في الأذنين؟

- نعم.

- متّى أصابك ذلك؟

- منذ قليل.

- من دون سابق إنذار؟

- كالصّاعقة.

- لم تكن تشعر بشيء أمس أو أوّل من أمس؟

- لا شيء.

- وما كنت تعاني نعاسًا أو ارتخاءً؟

- كلّا.
- ماذا أكلتَ اليوم؟
- لم آكل شيئًا؛ فقط شربتُ كأسَ ليمون من قارورة سيّدي، لا غير.
ثمّ أومأ باروا بإشارة من رأسه ليعيّنَ نوارتييه الذي كان يتابع المشهد الرّهيب من كرسيّه من غير أن يفلت ولا حركة أو كلمة.
سأل الدّكتور بعنفٍ: - أين مشروب اللّيمون هذا؟
- في القارورة بالأسفل.
- أين بالأسفل؟
سأله فيلفور: - هل تريدني أن أذهب للبحث عنها يا دكتور؟
- كلّا، ابقَ هنا واحرص على أن يشرب المريض ما تبقّى من كأس الماء هذه.
- وشراب الليمون...
- سأبحث عنه بنفسي.
قفز دافرينيي، ففتح البابَ، ثمّ انطلق على درج الخدم، موشكًا في طريقه أن يدهس السيّدة دو فيلفور التي كانت نازلة بدورها إلى المطبخ.
أطلقت صيحةً. لكنّ دافرينيي لم ينتبه حتّى إليها؛ إذ كان مأخوذًا بفكرةٍ واحدة فقط، فقفز الدرجات الأربع أو الخمس الأخيرة، وهرع إلى المطبخ، ووجد على صينية القارورة الفارغة ثلاثة أرباعها.
انقضَّ عليها كما ينقضُّ النّسر على فريسته.
ثمّ عاد يصعدُ لاهثًا إلى الطّابق الأرضيّ، ودخل الغرفة. وصعدت السيّدة دو فيلفور ببطء الدرج المفضيَ إلى غرفتها.
سأل دافرينيي: - هل هذه القارورة هي التي كانت هنا؟
- أجل يا سيّدي الطبيب.
- وهذا المشروب هو نفسه المشروب الذي شربت منه؟
- أظنّ ذلك.

- أيّ طَعم وجدتَ له؟

- طعمًا مُرًّا.

صبّ الطّبيب قطراتٍ من الشّراب في راحة كفّه، ثمّ امتصّها بشفتيه، وبعدما أدارها في فمه، على عمَلِ من يتذوّقُ النّبيذَ، بصق السّائل في المدفأة.

قال: - إنّه المشروب فعلًا. وهل شربت منه أنت أيضًا يا سيّد نوارتييه؟

أشار الشّيخُ: - نعم.

- ووجدتُ له المذاقَ المرَّ نفسَه؟

- أجل.

صاح باروا: - آه! يا سيّدي الدّكتور! ها النّوبة تعاودني! رحمتك يا ربّي!

هرع الطّبيب إلى المريض.

- سيّدي فيلفور، اذهب فانظر هل وصل السائل المقيّئ؟

انطلق فيلفور صائحًا: -السائل المقيئ! السائل المقيّئ! هل أحضرتموه؟

لم يُجب أحد. الرّعبُ الأشدُ كان باسطًا يديه على المنزل.

قال الطّبيب وهو يجيل بصره حواليه: - لو وجدتُ وسيلةً لأنفخ الهواء في رئتيه، فلربّما جنّبته الاختناقَ. لكن، لا شيء! لا شيء!

قال باروا: - آه يا سيّدي! هل ستتركني أموت هكذا، من دون أن تمدّ لي يد العون؟ آه إنّي أموت يا إلهي! إنّي أموت!

صاح الطّبيب: - يراع! يراع!

ثمّ لمح يراعًا على الطّاولة. حاول أن يحشر اليراع في فم المريض الذي كان يحاول عبثًا أن يتقيّأ؛ لكنّ المريض كان يشدّ فكّيه بقوّة بحيث لم يستطع اليراع المرور. لقد كان باروا يعاني نوبةً عصبيةً أشدّ وطأةً من الأولى. سقط عن الكرسيّ الممدود، وصار يتلوّى على الأرضيّة الخشب.

تركه الطّبيب فريسة النّوبة التي لم يكن يملك إزاءها حيلةً، وانتقل إلى نوارتييه.

قال بسرعةٍ وصوتٍ خفيضٍ: - كيف تشعر؟ أأنت بحالٍ جيّدة؟

- نعم.

- معدتك خفيفة أم ثقيلة؟ خفيفة؟

- نعم.

- نفس ما كنت تحسّ به حين كنت أعطيك تلك الحبّة كلّ يوم أحد؟

- نعم.

- هل باروا هو من صنع لك شراب الليمون؟

- نعم.

- هل أنت من دعاه إلى شربه؟

- لا.

- هو السيّدُ فيلفور إذًا؟

- لا.

- السيّدة؟

- لا.

- الآنسة فالانتين؟

- نعم.

استرعت انتباه الطّبيب زفرةٌ أطلقها باروا، مع تثاؤبٍ قعقعت له عظامُ فكّيه، فترك الطّبيبُ نوارتييه وهرع إلى المريض.

سأل الطّبيب: - باروا، هل تستطيع الكلام؟

تمتم باروا عباراتٍ غير مفهومة.

- حاول، ابذل جهدًا ياصديقي.

فتح باروا عينيه الدّاميتين.

- من صنع شراب الليمون؟

- أنا.
- هل حملته إلى سيّدك ما إن صنعتَه؟
- لا.
- تركتَه في مكانٍ ما إذًا؟
- تركته في المكتب، إذ كانوا ينادونني.
- ومن الذي حمله إلى هنا؟
- الآنسة فالانتين.
ضرب دافرينيي على جبهته.
غمغم: - آه! يا إلهي! آه! يا إلهي!
صاح باروا شاعرًا باقتراب نوبةٍ ثالثة: - دكتور! دكتور!
صاح الطّبيب: - ألم تأتوا بعد بالسّائل المقيّئ؟
قال فيلفور وهو يدخل: - ها كأسٌ منه جاهزةٌ.
- من جهّزها؟
- صبّيُ الصيدلية وقد أتى معي.
- اشرب.
- لا أستطيع يا دكتور، لقد فات الوقت؛ حنجرتي تضيقُ، أنا أختنق. آه! قلبي! آه! رأسي... آه! أيّ جحيم هذا..! هل سيطول عذابي هذا؟
قال الطّبيب: - كلّا، كلّا يا صديقي، قريبًا لن تحسَّ بأيّ ألمٍ.
صاح الشقيّ: - أفهمك! يا إلهي! يا إلهي! ارأف بحالي!
ثمّ أطلق صيحةً وسقط منقلبًا إلى الخلف، كأنّما ضربته صاعقةٌ.
وضع دافرينيي يدًا على قلبه، وقرّب كأسًا من شفتيه.
سأل فيلفور: - والآن؟
- اذهب إلى المطبخ وقل لهم أن يحضّروا شرابَ البنفسج.
نزل فيلفور على الفور.
قال الطّبيب: - لا تخف يا سيّدي نوارتييه سوف أحمل المريض إلى غرفة أخرى لفصده. والحقّ أنّ هذه النّوبات مشهدٌ فظيعٌ.

ثمّ إنّ الطّبيب حمل المريض من تحت ذراعيه وأخذه إلى غرفةٍ مجاورة؛ لكن ما لبث أن عاد فورًا لأخذ ما بقيَ من شرابِ الليمون.

أغلق نوارتييه عينه اليمنى.

- فالانتين، أليس كذلك؟ تريد فالانتين؟ سوف أستدعيها؟

صعد فيلفور مجدّدًا، فصادف الطّبيب في الرّواق.

سأله: - والآن؟

قال دافرينيي: - تعال. (ثمّ أخذه إلى الغرفة).

سألَ وكيل الملك: - ألا يزال فاقدًا الوعي؟

- لقد مات.

تراجع فيلفور ثلاث خطواتٍ إلى الوراء وضمّ يديه فوق رأسه في حركة رثاءٍ ملتبسة، وقال هو ينظر إلى الجثّة: - مات هكذا، بغتةً؟

- نعم بغتةً، أليس كذلك؟ لكن لا ينبغي لهذا الأمر أن يذهلك، فعلى النّحو نفسه قضى السيّدُ والسيّدة دو سان مِران. إنّ المرء يموتُ بغتةً في منزلك يا سيّد فيلفور!

صاح القاضي بنبرة رعب وفزع: - ماذا! هل انتهيت إلى هذه الفكرة؟

قال دافرينيي بنبرة جدّيةٍ: - دومًا يا سيّدي، دومًا! الخاطرةُ لم تفارقني لحظةً، ولكي تتيقّن من أنّني لم أخطئ هذه المرّة، أصغِ إليّ جيّدًا يا سيّد فيلفور.

أخذ فيلفور يرتعد رغمًا عنه.

فأضاف الطبيب: - ثمّة سمٌّ يقتلُ من دون أن يخلّف أثرًا. وهذا السّمّ أعرفُه حقّ المعرفة: لقد درستُ أعراضَه كلّها، وكلّ الظّواهر النّاتجة عنه. هذا السمُّ شخّصتُه منذ قليل عند المسكين باروا، كما شخّصتُه قبلًا لدى السيّدة دو سان مِران. هذا السمُّ، ثمّة طريقةٌ لكشف حضوره. إنّه يعيد إلى ورق عبّاد الشّمس المحمرّ بالأسيد زُرقتَه، ويصبغ بالأخضر شرابَ البنفسج. ليس لدينا ورق عباد الشّمس، لكن ها قد أتوني بشراب البنفسج الذي طلبتُه.

وبالفعل سُمع وقع خطواتٍ بالرّدهة، ففتح الطّبيبُ البابَ، واستلم من يد الخادمة إنّاءً في قعره مقدارُ ثلاث ملاعق من شراب البنفسج، ثمّ أغلق البابَ.

قال موجّهًا كلامه إلى وكيل الملك الذي كان قلبه يدّق بعنفٍ حتّى ليكادُ يُسمَعُ: - انظُر! في هذا الإناء يوجد شرابُ البنفسج، وفي القارورة ما تبقّى من شراب اللّيمون الذي شرب بعضَه السيّد نوارتييه وباروا. إذا ما كان شراب اللّيمون خالصًا من السّمّ، سيحفظ شراب البنفسج لونَه؛ أمّا إن كان مسمومًا فسيتحوّل لونُ الشّراب إلى الأخضر. انظُر!

صبَّ الطّبيب قطراتٍ من شراب الليمون في الإناء، فبدت على الفور غمامةٌ تتشكّل في قعره، غيمةٌ اتّخذت بدايةً تلوينًا أزرقَ، ثمّ تحوّلت إلى لون الياقوت، وبعدَه لون حجر الأوبال، ثمّ منه إلى لون الزمرّد؛ وإذ وصل إلى هذا اللّون الأخير ثبتَ فيه، إن جاز التعبير؛ لم تترك التجربة ذرّةً من شكّ.

قال دافرينيي: - لقد سُمّمَ الشقيُّ باروا؛ الآن أستطيع أن أعلنها أمام النّاس وأمام الربّ.

لم يحر فيلفور جوابًا، وإنّما رفع ذراعيه إلى السّماء، وفتح عينين شاحبتين، وتهاوى في الأريكة مغشيًا عليه.

80

الاتّهام

ما لبث الطّبيبُ أن انتحى جانبًا برجل القضاء الذي كان يبدو بمثابة جثّةٍ ثانية في الغرفة الجنائزية.

صاح فيلفور: - آه! إنّ الموت يقيم ببيتي!

أجابه الطبيب: - بل قلُ الجريمةُ تقيمُ ببيتك.

صاح فيلفور: - سيّدي دافرينيي! لا أستطيع أن أعبّر لك عن كلّ ما يختلج فيّ اللّحظةَ؛ إنّه الرّعب، إنّه الألم، إنّه الجنون.

أجابه الطّبيب: -أجل، لكنّي أحسب أنّ وقت الفعل قد حانَ؛ أحسب أنّ علينا أن نضعَ حدًا لتيار الموت الجارف هذا. أمّا عن نفسي، فلا أحسبني قادرًا على أن أحمل أكثر هذه الأسرار! عليّ أن أخرجها على الفور طلبًا لقصاص المجتمع والضحايا.

أجال فيلفور حواليه نظرةً مظلمةً.

غمغم: - في هذا المنزل! في هذا المنزل!

قال دافرينيي: - هيّا، كن رجلًا، يا ممثلّ السلطة؛ أظهر تضحيةً مُثلى وشرِّف مركزَك.

- كلامك يصيبني بالرّجفة يا دكتور: تضحية!

- نعم، قصدت الكلمة.

- أنت تشكّ إذًا في أحد؟

- لا أشكّ في أحد؛ إنّ الموت يدقّ بابك، ثمّ يدخل، ويتقدّم، ليس أعمى وإنّما بذكاء، من غرفةٍ إلى أخرى. وأنا إنّما أقفو أثره، أرسم طريقَه،

أتبنّى حكمة القدامى؛ أتلمّس طريقي؛ لأنّ صداقتي لعائلتك وتقديري لك هما بمثابة عصابة مضاعفة تغطي عينيّ؛ وإذًا...

- أوه! تكلّم، تكلّم يا دكتور، كلامك يشجّعني.

- يا سيّدي، لديك في بيتك، وربمّا في أسرتك، واحدٌ من تلك الظّواهر التي يشهدها كلّ قرنٍ. أن توجد لوكيستا وأغريبينا[1] في زمانٍ واحدٍ، لهُوَ الاستثناء الذي يؤكّد الضّراوة التي عمل بها القدر على الإطاحة بالإمبراطورية الرومانية التي لطّختها الجرائمُ؛ برونِهوت وفريديغوند[2] هما نتيجة جُهدٍ مضنٍ اضطلعت به حضارةٌ في لحظةِ نشوئها، جهد كان الإنسان يتعلّم فيه السّيطرة على العقل، حتّى وإن كانت النّتيجة الذّهاب إلى الظّلمات. والحقُّ أنّ كل النّسوة اللاتي ذكرتهنَّ كنّ شاباتٍ وجميلات. كان لا يزال يُرى على جبينهنّ تورّدُ زهرة البراءة التي نراها على جبين المذنبة ببيتك.

أطلق فيلفور صيحةً شابكًا يديه، ناظرًا إلى الطّبيب نظرةً مستعطفةً. لكنّ الطّبيب واصل كلامه بلا شفقة: - ابحث عن المستفيد من الجريمة، تقول القاعدةُ القانونية...

صاح فيلفور: - دكتور! وا أسفًا! لكم أخطأت العدالة في حقّ الأبرياء بسبب مثل هذه العبارات! لا أدري حقًا، لكن يبدو لي أنّ هذه الجريمة...

- آه! أخيرًا أقررتَ بأنّ الجريمة واقعةٌ.

- أجل أقرّ بذلك، ما العمل؟ لا سبيل إلا إلى الإقرار، لكن دعني أكمل. يبدو لي أنّ الجريمة واقعةٌ عليّ أنا وحدي، وليس على الضحايا. إنّي أرى كارثةً تترصّدني خلف كلّ هذه المصائب الغريبة.

---

(1) أغريبينا، أخت الإمبراطور كاليغولا ووالدة الأمبراطور نيرون، اشتُهرت بدمويّتها وقسوتها؛ ولوكيستا اشتهرت بالتّسميم واستعانت بها أغريبينا في جرائمها.

(2) ملكتان من سلالة الميروفينجيين الفرنكيين الذين حكموا الأقاليم المقابلة لفرنسا ما بين القرنين الخامس والثامن.

غمغم دافرينيي: - يا لك أيّها الإنسان! أنت الأشدّ أنانية من بين كلّ الحيوانات؛ والأكثر ذاتية من بين كلّ المخلوقات، الكائنُ الذي يعتقد دائمًا بأنّ لأجله وحده تدور الأرض وتضيء الشّمس ويحصد الموتُ الأرواح؛ نملةٌ تلعنُ الرّبَ من أعلى عشبةٍ! وأولئك الذين فقدوا أرواحهم، ماذا عنهم؟ ألم يخسروا شيئًا؟ السيّد والسيّدة دو سان مِران، والسيّد نوارتييه؟

- السيّد نوارتييه! ماذا تقصد؟

- طبعًا! هل تعتقد أنّ المقصود بالقتل كان هو هذا الخادم المسكين؟ كلّا، كلّا. لقد ماتَ بدلًا من شخصٍ آخر، تمامًا كما حدث مع بولونيوس في مسرحية شكسبير. كان نوارتييه هو المفروض أن يشرب عصير الليمون؛ ووفق منطق الأشياء، نوارتييه هو من شربها؛ أمّا الرّجل الآخر، فلم يشربها إلا عرَضًا؛ وحتّى إن كان باروا هو من مات، فإنّ ذلك لا يمنع من أنّ نوارتييه هو من كان يفترض أن يموت.

- لكن، كيف لم يقضِ والدي حتفه؟

- لقد سبق أن أخبرتكَ بالسّبب ذات مساءٍ عقب وفاة السيّدة دو سان مِران؛ لأنّ جسمه قد تآلف مع السمّ؛ لأنّ الجرعة التي لا تكاد تساوي شيئًا بالنّسبة إلى جسده، تكون قاتلةً بالنّسبة إلى غيره؛ ولأنّ لا أحد، بما في ذلك القاتل، يعرف أنّي أعالج شلل السيّد نوارتييه منذ سنةٍ بالبروسين، بينما لا يجهل القاتل أنّ البروسين سمٌّ قاتل.

قال فيلفور شادًا قبضتيه: - يا إلهي! يا إلهي!

- لنتبع طريق القاتل؛ لقد قتل أوّلًا السيّد دو سان مِران.

- آه! يا دكتور!

- أقسم على ذلك؛ إنّ الأعراض التي وُصفت لي تتوافق تمامًا مع ما رأيتُه بعينيَّ.

كفّ فيلفور عن المقاومة وأطلق حشرجةً.

كرّر الدّكتور كلامَه: - لقد قتلَ القاتلُ السيّد دو سان مِران، وقتلَ السيّدة دو سان مِران، والنّتيجة: ميراثٌ مضاعفٌ يُجتنى.

مسح فيلفور العرق الذي يرشح به جبينه.

- أصغِ إليّ جيّدًا.

غمغمَ فيلفور: - واأسفًا ذاك ما أفعله! لا تفوتني أيّ كلمة، أيّ كلمة!

واصل الطّبيب بصوته الذي انعدمت فيه الشّفقة: - السيّد نوارتييه، السيّد نوارتييه عدّل وصيّتَه مؤخّرًا، وما كاد يلغي الوصية الأولى ويضع بدلًا منها ثانية حتّى أتى الدّورُ عليه، فسُمّمَ خشيةَ أن يضع وصيّةً ثالثة. لقد عدّل وصيّته أوّل أمس على ما أعتقد؛ وكما ترى فإنّ القاتل لا يضيّع وقتًا.

- أوه! الرّحمة يا سيّد دافرينيي.

- لا مجال للرّحمة يا سيّدي؛ إنّ للطبِّ رسالةً مقدّسةً على الأرض، ولتأدية رسالته تلك تحديدًا صعد حتّى أصول الحياة، وغاص حتّى ظلمات الموت. حين تُرتكبُ الجريمة، ويشيح الربُّ بنظره عن المجرم، يصير من واجب الطبّ قولُ: هوَذا!

همس فيلفور: - الرّحمة لابنتي، يا سيّدي.

- ها أنت ترى أنّك أنت نفسك من عيّنتَ اسمها، أنت والدها!

- الرّحمة لفالانتين! اسمع، الأمرُ مستحيل. أفضّلُ أن أتّهم نفسي على أن أتّهمها. إنّ فالانتين قلبٌ من ألماس، زنبقةٌ من براءةٍ!

- لا رحمة يا سيّدي وكيل الملك، وجه الجريمة سافرٌ. إنّ الآنسة دو فيلفور قد عبّأت بنفسها الدّواء الذي أرسلناه إلى السيّد دو سان مِران، والنّتيجة: مات السيّدُ دو سان مِران؛ الآنسة دو فليفور هي من أعد منقوع الأعشاب للسيّدة دو سان مِران، والنّتيجة: ماتت السيّدة دو سان مِران؛ الآنسة دو فيلفور أخذت من يد باروا القارورة التي اعتاد أن يشربها الشيّخ كلّ صباح، والنّتيجة: بمعجزةٍ أفلت الشّيخ من الموت. إنّ الآنسة

دو فيلفور هي المذنبة! هي المُسمِّمةُ! سيّدي وكيل الملك إنّي أبلّغ عن الآنسة فيلفور، فقُم بواجبك.

- دكتور، لن أقاوم بعدُ، لن أدافع أكثر، إنّي أصدّقك، لكن عطفك رجاءً، أنقذ حياتي وشرفي!

استطرد الطّبيب بحزمٍ ما انفكّ يتعاظمُ: - سيّدي فيلفور، ثمّة وضعياتٌ أتجاوز فيها كلّ حدود الحماقة البشرية. لو أنّ ابنتك ارتكبت جريمةً واحدةً فقط، وشرعت تحضّرُ للثانية، فاكتشفتُ أمرَها، لكنتُ قلت لك: أنذرها، عاقبها، لتُمضِ ما تبقى من حياتها في محبسٍ أو دير، تصلّي وتبكي. ولو أنّها ارتكبتَ جريمةً ثانية، لقلتُ لك: سيّدي فيلفور هاك سمًّا لا ترياق له، سمٌ خاطفٌ كالفكر، سريعٌ كالبرق، قاتل كالصّاعقة، أعطِها هذا السمّ موصيًا الربّ بروحها، وأنقذ شرفك وأيام حياتك، لأنّك أنت التالي على اللائحة. وإنّي لأراها تتقدم صوب سريرك بابتساماتها المنافقة، وعظاتِها العذبة! ويلك يا سيّدي فيلفور إن لم تكن البادئ إلى الضّرب! هو ذا ما كنت لأقوله لك لو أنّها قتلت اثنين فقط؛ لكنّها كانت شاهدة على احتضار ثلاثة، تأمّلت النّزع ثلاث مرّات، جثت بجانب ثلاثة جثامين. إلى الجلاّد بالمُسمِّمة! إلى الجلاد! أتتكلّم عن شرفك! افعل ما أقولُه وستضمن الخلودَ!

تهاوى فيلفور على ركبتيه.

قال: - أصغي إليّ: أنا لا أملك هذه الشّجاعة التي تبديها أنت، والتي ما كنتَ لتبديها لو أنّ المذنبةَ كانت ابنتك مادلين بدلًا من ابنتي فالانتين.

شحب الطّبيب.

- دكتور، كلّ ابن حوّاء إلا ووُلد ليشقى ويموت؛ لذلك سوف أشقى يا دكتور، وأنتظر الموتَ.

- احترس يا سيّد فيلفور، سيبطئ عنك.. هذا الموتُ؛ ولن تراه يقترب إلا بعد أن يضرب أباكَ، وزوجتكَ، وربّما ابنَك.

مختنقًا أمسكَ فيلفور بذراع الطّبيب.

صاح: - أصغ إليّ! لمُني كما شئت... ابنتي ليست مذنبة... خذني إلى المحكمة، وسَأظلّ أردّد: «ابنتي ليست مذنبة»، لا جريمة في بيتي، أتسمع، لا أريد أن تكون ببيتي جريمةٌ؛ ذاك أنّ الجريمة حين تدخُل بيتًا، فهي كالموت، لا تدخله بمفردها. اسمع، ما همّك أنت أن أموت مغتالًا؟... هل أنت صديقي؟ هل أنت إنسان؟ هل لديك قلبٌ؟ كلّا، أنت طبيبٌ...! وأنا أقول لك: كلّا، ابنتي لن تُساق إلى الجلاّد... آه! يا لها من فكرةٍ تفترسني، فكرةٍ تدفعني إلى شقّ صدري بأظافري!... وماذا إن كنتَ مخطئًا في تقديرك يا دكتور! ماذا لو أنّ القاتل كان أحدًا آخر غير ابنتي! ما الحلُّ إن أتيتك ذات يوم قائلًا: أيّها القاتل، لقد تسببت في موت ابنتي! أنا مسيحيٌّ يا سيّدي، ومع ذلك، لو حدث هذا الأمرُ سأقتل نفسي!

قال الطّبيب بعد لحظة صمت: - حسنًا سوف أنتظرُ.

نظر إليه فيلفور كأنّما لا يزال يشكّ في كلامه.

أضاف السيّد دافريني بصوتٍ بطيءٍ ومهيب: - لكن لو سقط أحد أفراد عائلتك مريضًا، أو أحسستَ أنت نفسك بالمرض، فلا تطلبني، لأنّي لن آتي مرّة أخرى. أوافق على أن أشاركك هذا السرّ الخطير، لكنّي لا أريد أن يتبعني العار والنّدم حتّى بيتي فينموان ويتعاظمان فيثقلان ضميري، مثلما سينمو الجرمُ والشؤمُ ويتعاظمان في بيتك.

- هكذا إذًا تتخلّى عنّي يا دكتور؟

- نعم، لأنّي لا أريد أن أتبعك أبعدَ، فأنا أقف عند عتبة المقصلة. ولابد أن تكشف الأيامُ عمّا يُنهي هذه المأساة. وداعًا.

- دكتور، أتوسّل إليك!

- كلّ الفظاعات التي تدنّس فكري تجعل بيتك بغيضًا ومميتًا. وداعًا يا سيّدي.

- كلمة، كلمة واحدة فقط يا دكتور! ترحلُ وتسلمني إلى فظاعة الوضع، الفظاعة التي زدتها أنت بما صرّحت لي به. لكن، قل لي ما نحنُ

فاعلون مع الموت المفاجئ والفوريّ الذي اختطف الخادم المسكين؟

قال السيّد دافرينيي: - أنت محقٌّ، خذني إليه.

خرج الدكتور في المقدّمة، ولحق به السيّد دو فيلفور؛ كان الخدم القلقون يملأون الأروقة والسلالم التي يفترض أن يمرّ منها الطّبيب.

قال دافرينيي لفيلفور بصوت عالٍ متقصّدًا أن يسمعه الجميع:

- سيّدي، لقد كان المسكين باروا كثير الخمول في السنوات الأخيرة؛ فبعدما كان يعشق أن يجوب مع سيّده، بالخيل أو العربة، ربوع أوروبا بأكملها، انتهى به المطاف إلى أن قتل نفسه في العمل الرتيب حول كرسيّ متحرّك. لقد ثقُل دمه. صار منحنيًا، ورقبته سمينة وقصيرة، لذا أصابته ذبحةٌ مباغتة، وقد أُرسل في طلبي بعد فوات الأوان. (وأضاف بصوت هامس) بالمناسبة، احرص على التخلّص من إناء شراب البنفسج.

ثم إنّ الطّبيب، من دون أن يصافح السيّد فيلفور، ومن دون أن يتردّد لحظةً فيما قاله، خرجَ تشيّعُه دموع سكّان المنزل وأنّاتُهم.

وفي اليوم نفسه، اجتمع كلّ خدم السيّد دو فيلفور في المطبخ، وبعدما تحدّثوا طويلًا، أتوا إلى الآنسة فالانتين فطلبوا منها إذنَ التسريح من العمل. ولم يثنهم عن قرارهم أيّ إلحاح في الطّلب، ولا أيّ زيادة في الأجر؛ وكلّما قيل لهم قولٌ، أجابوا: «نريد أن نرحل عن المنزل. إنّ الموت مقيمٌ فيه».

وكان أن رحلوا رغم كلّ التّوسّلات، مؤكّدين أنّهم آسفون على ترك بيت سادةٍ طيّبين، خاصّة الآنسة فالانتين التي كانت دائمًا غاية في الطّيبة والخير واللّطف. ولكلامهم ذاك نظرَ فيلفور إلى فالانتين. كانت تبكي. ما أغربه من أمر! وعبر المشاعر التي أكّدتها في نفسه دموعُها، نظرَ أيضًا إلى السيّدة دو فيلفور، فخيّل إليه أنّه قد لمح على شفتيها الدقيقتين طيف ابتسامةٍ عابرةٍ وغامضة، مثل تلك الشّهُب التي نراها تنزلق، كئيبةً، بين غمامتين، على صفحة سماءٍ عاصفٍ.

81

غرفة الخبّاز المتقاعد

مساءَ اليومِ نفسه الذي خرج فيه مورسيرف من عند دانغلار، يتلبّسُه غضبٌ ومهانةٌ مفهومان قياسًا إلى البرود الذي عامله به المصرفيّ، دخل السيّدُ أندريا كافالكانتي، مجعّدَ الشعر ملمّعَه، شاربُه صقيل، وقفّازان أبيضان يغطّيان أصابعه؛ قلنا دخل إلى باحة بيت المصرفيّ، واقفًا تقريبًا على عربته السياحية[1].

وبعد عشر دقائق من الحديث في الصالون، تمكّن من سحب دانغلار إلى فتحة نافذة، وهناك، بعد مقدّمة رصينةٍ، بسط أمامه كلّ المنعطفات التي عرفتها حياته منذ سفر والده النّبيل.

لقد ألفى، على زعمه، منذ سفر والده، في عائلة المصرفيّ التي قبلت أن تستضيفه كابنٍ لها، كلَّ ضمانات السّعادة التي ينبغي لكلّ رجل أن يلتمسها قبل التماسه رغبات الهوى، أمّا الهوى نفسُه فقد وجده لسعده في عيني الآنسة دانغلار.

كان دانغلار يصغي إليه بعميق الانتباه، إذ كان منذ يومين أو ثلاثة يترقّبُ أن يفصح له الشّاب بهذا الكلام؛ وها قد حصل، فاتّسعت عيناه بقدر ما كانتا قد ضاقتا واسودّتا وهو يصغي إلى مورسيرف.

على أنّه لم يشأ أن يقبل كلام الشّاب من غير أن يبدي له بعض الملاحظات التي يفرضها عليه حسنُ الوعي.

قال: - سيّدي أندريا، ألا ترى نفسك أصغر سنًّا من أن تفكّر في الزّواج!

(1) عربة صغيرة لا تصلح للأسفار الطويلة وإنّما للتنزّه وسط المدينة.

أجاب كافالكانتي: - كلّا يا سيّدي، أو هذا ما أراه على الأقلّ. إنّ عليّة القوم في إيطاليا يتزوّجون في سنٍّ مبكّرة على العموم. وهو عرفٌ منطقيّ. الحياةُ من الحظّ بحيث ينبغي أن نغنم منها فرص السّعادة ما إن تلوح أمامنا.

قال دانغلار: - والآن يا سيّدي، لو أنّ طلبك هذا لقيَ، فرَضًا، القبولَ عند زوجتي وابنتي، مع من سنناقشُ التّفاصيل؟ إنّها لعمري مفاوضاتٌ مهمّةٌ، ووحدهم الآباء يستطيعون خوضها بما يضمن سعادة أبنائهم.

- سيّدي، إنّ والدي رجلٌ حكيم، كلّه حصافةٌ وتبصّرٌ. لقد وضع في حسبانه إمكان أن أبديَ الرّغبة في الإقامة بفرنسا: ترك لي، مع الأوراق التي تثبت هويّتي، رسالةً يشير فيها إلى أنّي في حال قمت باختيار موفّق، فسيضمن لي إيرادًا سنويًا مائةً وخمسينَ ألف جنيه أستلمها منذ لحظة زواجي. وهو، إن أصبتُ الحكمَ، ربعُ إيرادات والدي.

قال دانغلار: - لطالما كانت نيّتي أن أعطي ابنتي ساعةَ زواجها خمسمائة ألف فرنك؛ ثمّ إنّها هي وريثتي الوحيدة.

قال أندريا: - وإذًا ها أنت ترى، إنّ الأمور كلّها ستكون على أفضل ما يرام، هذا طبعًا إن لم يقابَل طلبي بالرّفض من طرف البارونة دانغلار أو الآنسة يوجيني. سنحتكم على إيرادات تقدّر بمائة وخمسة وسبعين ألف جنيهٍ. ولنفترض أنّ الماركيز بدلًا من أن يعطيني الإيراد، أعطاني رأسماله (ليس الأمر بالسّهل، أعلم ذلك، لكنّه يظلّ ممكنًا)، سوف تستثمر لنا المليونين أو الثلاثة، وإنّ مليونين أو ثلاثة حين توضع بين يدين ماهرتين يكون بوسعها أن تجنيَ عشرةً بالمائة فوائدَ.

قال المصرفيّ: - أنا لا أقبل النقود إلا مقابل فائدة أربعة بالمائة، بل أحيانًا ثلاثة ونصف. لكن لصهري أعطي خمسة بالمائة، وسوف نقتسم الأرباحَ.

قال كافالكانتي: - ممتازٌ إذًا يا حمايَ. تاركا نفسه ينساق إلى سوقيّته

التي كانت تفلت منه، من حين إلى آخر، رغم كلّ ما يبذله من جهدٍ لإخفائها تحت طلاء الأرستقراطية الذي كان يدهن به نفسه.

لكنّه ما لبث أن تمالك نفسه: - أوه! عفوًا يا سيّدي، ها أنت ذا ترى أنّ الرّجاء وحده كافٍ ليفقدني صوابي، فما بالك بالواقع!

قال دانغلار الذي لم يكن يلاحظ من جهته كيف أنّ الحوار الخالي في ابتدائه من كلّ مصلحةٍ قد صار ينحو نحوَ ترتيب المصالح: - لكن، لا بدّ أنّ ثمّة حصّةً من ميراثك لن يرفض والدك إعطاءك إيّاها؟

سأله الشّابُ: - أيّ حصّةٍ؟

- حصّتك من ميراث والدتك.

- طبعًا، ميراثي من والدتي ليونورا كورسيناري.

- وبكم يقدّر هذا الميراث؟

- الحقّ أقول لك يا سيّدي، لم يسبق لي أن شغلت بالي بحساب المبلغ، لكنّي أقدّره بمليونين على الأقلّ.

شعر دانغلار بذاك الاختناق السّعيد الذي يحسّ به الطّمّاع الذي يعثر على كنز ضائع، أو الرّجلُ الموشك على الغرق الذي يحسُّ تحت قدميه صلابة الأرض بدلًا من الفراغ الذي كان سيغمره.

قال أندريا محيّيًا المصرفيَّ باحترام بالغ: - هل لي أن آملَ...

أجابه دانغلار: - لك أن تأمل، وثقْ أنّه ما لم يأتِ من جهتك ما يعوق سير المسألة فاعتبرها قُضيَت. (ثمّ أضاف مفكّرًا) لكن كيف أنّ الكونت مونت كريستو، الذي يعتبر راعيك في هذا العالم الباريسي، لم يأتِ معك؟

احمرّ وجه أندريا حمرةً لا تكاد تُرى، وقال: - لقد أتيت من بيت الكونت، إنّه بلا ريب إنسانٌ لطيفٌ، لكنّ له طبعًا مميّزًا جدًا؛ لقد أثنى على اختياري، لا بلِ قال إنّه لا يعتقد بأنّ والدي سيتردّد لحظةً في إعطائي رأسالمال بدلًا من الإيراد؛ ووعدني بأن يعينني على التأثير في

والدي ليوافقني في هوايَ؛ لكنّه قال في المقابل إنّه لم يسبق أن وعدني، ولن يعدني، بأن يتّخذ على عاتقه مسؤولية التّقدّم بطلب زواج. لكن إحقاقًا للحقّ، قد تلطّف وأضافَ أنّه يباركني إذ يرى أنّ الارتباطَ الذي نحن عازمون عليه سيكون سعيدًا ومتوافقًا. عدا ذلك، وإن لم يكن يريد أن يقوم بأيّ خطوةٍ رسميّة، إلا أنّه يترك لنفسه إمكان أن يجيبك حين تسأله.

- آه! حسنٌ إذًا.

قال أندريا بأشدّ ابتساماته جاذبيّةً: - والآن ها قد فرغتُ من الحديث إلى صهري، وسأنتقل الآن للحديث إلى المصرفيّ.

قال دانغلار ضاحكًا: - ما الذي تريده منه؟

- بعد غدٍ هو موعد استلامي مبلغًا يناهز أربعة آلاف فرنكٍ من عندك؛ لكنّ الكونت قد أدرك أنّ الشّهر الذي نستعد لدخوله قد يجرُّ معه مصاريف لا يكفيها المبلغ الزّهيد الذي أستلمه منك أنّا الشّاب، لذا هاك قسيمةً بعشرين ألف فرنكٍ لا أقول أعطانيها الكونت، وإنّما منحني إيّاها. إنّها موقّعة بيده، كما ترى؛ فهل يناسبك الأمر؟

قال دانغلار وهو يدسّ القسيمة في جيبه: - هات حتّى قسيمةً بمليون فرنكٍ مثل هذه، وسوف آخذها من عندك. أخبرني بالوقت الذي يناسبك غدًا وسيمرُّ عليك مساعدي حاملًا وصلًا بقيمة أربعةٍ وعشرين ألف فرنك.

- ليمرّ عليّ في العاشرة صباحًا، كلّما أبكرنا كلّما كان أفضل؛ فأنا أريد غدًا أن أذهب إلى الرّيف.

- ليكن إذًا، العاشرة صباحًا، أما زلت تقيم بفندق الأمراء؟

- أجل.

وفي اليوم التالي، وبدقّة توقيت تشرِّفُ المصرفيَّ، كان المبلغ عند الشّاب الذي خرج بالفعل تاركًا لكادروس مائتي فرنك. وكانت غاية

أندريا من الخروج أساسًا تفادي صديقه الخطير؛ لذا عاد مساءً في وقتٍ متأخّر. لكن ما كاد يضع قدمه على بلاط ردهة الفندق، حتّى ألفى نفسه أمام عامل الاستقبالات الذي كان ينتظره ممسكًا قبّعته بيده.

قال له العامل: - سيّدي لقد أتى ذاك الرّجل.

سأله أندريا باستخفافٍ كأنّما نسي أمر الرّجل الذي، على خلاف ما يظهره، كان يذكره جيّدًا: - أيّ رجلٍ؟

- الرّجل الذي تركت له تلك المِنحة يا صاحب السّعادة.

قال أندريا: - آه! نعم تقصد خادم والدي سابقًا. حسنًا، هل أعطيته المائتي فرنك التي تركتها له؟

- أجل يا صاحب السّعادة، فعلت كما طلبت منّي.

كان أندريا قد جعل نفسه يُلقَّبُ بصاحب السّعادة.

واصل عامل الاستقبال: - لكنّه، رفض استلامها.

شحب وجه أندريا، لكن بما أنّ المكان كان معتمًا، لم يلحظ أحدٌ شحوبَه.

قال بصوتٍ متأثّر بعض الشّيء: - كيف لم يُرد أخذها؟

- لا، لم يرد أخذها! قال إنّه يريد أن يتحدّث إليك يا صاحب السّعادة. أجبته أنّك خرجت؛ فألحّ. لكن في نهاية المطاف بدا أنّه اقتنع، وسلّمني لك هذه الرّسالة التي أتى بها مختومةً جاهزة.

قال أندريا: - هات لأرى.

قرأ الرّسالة على ضوء فانوس عربته:

«تعرف أين أقيم؛ أنتظرك غدًا عند السّاعة التّاسعة صباحًا».

فحص أندريا الختم ليتأكّد ممّا إذا كان قد فُضَّ أو أنّ عيونًا فضوليّةً تمكّنت من النّفاذ إلى فحوى الرّسالة؛ لكنّ الرّسالة كانت مطوية بعنايةٍ بحيث كان من يريد قراءتها مضطرًا إلى فضّ الختم؛ والحال أنّ الختم لم يمسَّ.

قال: - حسنًا، يا للرّجل المسكين! إنّه لمخلوق رائع.

ثمّ ترك عامل الاستقبال مسمّرًا إزاء تلك الكلمات، لا يدري بما يعجبُ أكثرَ: بكلمات السيّد الشّاب أم بكلمات الخادم المسنّ؟

قال أندريا لخادمه: - فكّ الخيل بسرعةٍ، ثمّ اصعد إليّ.

وبقفزتين صار في غرفته، حيث أحرق رسالةَ كادروس حتّى صارت رمادًا. وكان على وشك إتمام المهمّة حين دخل عليه الخادم.

قال أندريا: - إنّ طولَك نفسُ طولي يا بيير.

أجابه الخادم: - نعم، لي هذا الشّرف يا سيّدي.

- لابد أنّك استلمت كسوةً جديدة أمس؟

- نعم، سيّدي.

- أنا مضطرٌّ للتعامل مع طفيليّ لا أريده أن يعرف شيئًا عن وضعي أو لقبي. أعرني كسوتك وأعطني أوراقك، حتّى أتمكّن، إن اقتضى الأمر، من أن أنام في نُزل.

نفّذ بيير الأمرَ.

خمس دقائق بعد ذلك غادر أندريا الفندق، متنكّرًا تمامًا، من دون أن يتعرّف عليه أحد، فامتطى عربته وطلب التوجّه إلى نزل الحصان الأحمر بحي بيكبوس.

وفي اليوم التالي غادر نزل الحصان الأحمر، مثلما كان قد غادر من قبل فندقه، أي من دون أن ينتبه لأمره أحد، فنزل ضاحية سان أنطوان، فسلك النهج حتّى بلغ شارع مينيل مونتان، ثمّ توقّف عند باب المنزل الثالث من جهة الشّمال، وبحث عمّن يمكن أن يمدّه بمعلوماتٍ في غياب البوّاب.

سألته الفاكِهانيّة في الجهة المقابلة: - عمّ تبحثُ يا بنيّ؟

أجابها أندريا: - أبحث عن السيّد بايتان، من فضلك يا أمّاه.

- تقصد خبّازًا متقاعدًا؟

- هو بعينه.

- أقصى السّاحة، يسارًا، عند البيت الثالث.

سلك أندريا الطّريق كما عيّنتها له السيّدة، وعند باب البيت الثالث وجد قائمة أرنب[1]، هزّها بشعور سيئٍ ارتجّ له الجرس.

ثانية بعد ذلك ظهر وجه كادروس من الفتحة المنشأة في الباب.

قال: - أوه، إنّك دقيقُ المواعيد.

ثمّ فتح الأقفال.

صاح أندريا وهو يدخل: - اللعنة! ورمى بقبّعة الكسوة التي كان يرتديها، وإذ أخفق في جعلها تستقرّ بالكرسي الذي رما بها نحوَه، فقد سقطت أرضًا ولفّت على محيطها قاطعةً محيط الغرفة.

قال كادروس: - لا تغضب يا صغيري! ألا ترى أنّني قد فكّرت فيك، أنظُر إلى الطّيّبات التي سنتناولها في إفطارنا. كلّها أشياءٌ تحبّها يا عرش الهواء[2]!

والحالُ أنّ أندريا شمّ، بينما يتنفّس، رائحة طبيخ لا تخلو نكهاته اللاذعة من فتنةٍ بالنّسبة إلى معدة الجائع؛ يتعلّق الأمر بخليط الدّهون الطّريّة والثوم، علامةِ المطبخ البروفانسالي من الدّرجة الثانية؛ كانت الوجبةُ إذًا سَمَكًا معدًّا على طريقة الغراتان ثمّ مرشوشًا بالنّكهة الحرّيف، نكهة جوزة الطّيب والقرنفل. وكان كلّ ذلك ينبعث من صحنين مقعَّرَين على كلّ منهما غطاء، موضوعين على فُرنَين، ومرجلٍ يغلي في موقد صَهْر.

وفي الغرفة المجاورة لمح أندريا طاولةً نظيفةً بما يكفي، تزيّنها أدواتُ مائدةٍ لشخصين؛ وقنينتي نبيذ مختومتين، إحداهما بالأخضر والثانية

---

(1) كانوا قديمًا يصنعون من قوائم الأرنب مقابض معلّقةً تُطرق بها الأبواب.

(2) شتيمة بروفانسالية قديمة.

بالأصفر؛ وكميّةٌ معقولة من شراب ماء الحياة في دورق؛ ومقدونيةُ[1] فواكه على ورقة ملفوفٍ كبيرةٍ، معروضةٌ بفنيّة على طبق خزف.

قال كادروس: - ما رأيك يا صغيري؟ أرأيت كيف تضوع الرّائحة! آه! اللعنة! لعلمك، كنتُ طبّاخًا ماهرًا هناك! أتذكرُ كيف كنتَ تلعقُ أصابعك من لذّة طهوي؟ وأنت أوّلُ من ذاقَ الصلصات التي كنت أعدّها، ولم تكن تنفر منها على حدّ ظنّي.

ثمّ انطلق كادروس إلى تقشير بصلةٍ أخرى.

قال أندريا بانفعالٍ: - طيب، طيّب؛ اللعنة، ليأخذك الشّيطانُ، هل أتيت بي إلى هنا فقط كي آكل معك؟

قال كادروس بنبرةٍ مهيبة: - كلّا، لكنّنا سنتحدّث ونحن نأكل؛ ثمّ، ألا تجدُ سعادةً في رؤية صديقك مرّةً أخرى يا جاحد؟ أمّا أنا فأبكي فرحًا.

وبالفعل كان كادروس يذرف الدّموع، غير أنّه كان من الصّعب الفصل فيما إذا كانت تلك الدموع من أثر الفرح أم من تأثير البصل على الغدّة الدّمعية لربِّ النُزل سابقًا بجسر غار.

قال أندريا: - صه أيّها المنافق؛ أتدّعي أنك تحبّني؟

- أجل، أحبّك، أو ليأخذني الشّيطانُ؛ أعلم أنّها نقطةُ ضعفٍ، أعلم ذلك حقّ العلم، لكن ما بيدي حيلة.

- لكن ذلك لم يمنعك من استقدامي منتويًا الغدرَ.

قال كادروس وهو يمسح سكّينه الطّويلة على الطّاولة: - ماذا تقول! لو لم أكن أحبّك، هل كنتُ لأتحمّل الحياةَ المزرية التي تفرضها عليّ؟ وانظُر إلى نفسكَ، أنتَ تضع على ظهرك لباسَ خادمك، لديك إذًا خادمٌ؛ أمّا أنا فلا أحد يخدمني، مُجبرٌ أنا على تقشير خُضري بنفسي. تزدري

(1) خليط من الخضر أو الفواكه المقطّعة في شكل مربّعاتٍ صغيرة، ظهر في المطبخ الفرنسيّ إبّان القرن الثامن عشر، ويُرجَع اسمه إلى مقدونيا المعروفة بتنوّع الإثنيات.

طبخي، لأنّك بتَّ تتعشّى إلى مائدة فندق الأمراء أو مقهى باريس. حسنًا، أنا أيضًا أستطيع أن أحصّلَ خادمًا؛ أنا أيضًا أستطيع الحصول على تلبيرية[1]؛ أنا أيضًا أستطيع أن أتعشّى حيثُ شئتُ. لكن، لمَ أمنعُ نفسي من ذلك؟ لكي لا أُحزن صغيري بينيديتو. هيّا، اعترف على الأقلّ بأنّي أستطيع ذلك.

وقد أكملَت معنى الجملة نظرةٌ بيّنةٌ من كادروس.

قال أندريا: - طيب، لنسلّم بأنّك تحبّني. لمَ دعوتني إذًا إلى الغداء؟

- لكي أراك يا صغير.

- لكي تراني؟ ما نفع ذلك ونحنُ قد وضّحنا مسبقًا شروطنا كلَّها؟

- يا عزيزي، هل ثمّة وصيّةٌ بلا بنود ملحقة؟ لكن فلتجلس لنأكل، ولنبدأ بهذا السّردين الذي وضعتُه على أوراق الكَرمِ لأجلك، يا شرّير. آه! إنّك تنظرُ إلى غرفتي، وكراسي القشّ الأربعة، وصوري ذات الإطارات التي يساوي كلّ منها ثلاثة فرنكاتٍ. اللعنة! ماذا تنتظرُ، نحن هنا لسنا في فندق الأمراء.

- ها أنت ذا قد صرت تتأفّف من حياتك الآن؛ لم تعد سعيدًا، أنت الذي لم تكن تطلب من الدّنيا إلا حياةَ خبّازٍ متقاعدٍ.

أطلق كادروس زفرةً.

وأضاف الشاب: - ما قولك إذًا؟ لقد شهدتَ حلمك يتحقّقُ.

- حسنًا أقول إنّه حلمٌ؛ إنّ خبّازًا متقاعدًا يا عزيزي بينيديتو لرجلٌ غنيٌّ، رجلٌ لديه إيراداتٌ.

- اللعنة! بالطّبع لديك إيرادات.

- أنا؟

- طبعًا، ما دُمت أحمل إليك المائتي فرنك.

---

(1) عربةٌ خفيفة ذاتُ عجلتين.

هزّ كادروس كتفيه.

قال: - إنّه لأمرٌ مخز، أن يأخذ المرء نقودًا لم تعطَهُ بطيب خاطر، نقودًا سريعة الزّوال، نقودًا قد أفقدُها من الغد. ألا ترى أنّي مضطرٌّ إلى أنْ أدَّخر من النّقود تحسبًا لئلّا يستمرَّ رخاؤك. إنّ الغنى يا صاحبي متقلّبٌ، كما كان يقول واعظُ الكتيبة. أعرف أنّك في رخاءٍ عظيم، أيّها الوغد؛ سوف تتزوّج ابنةَ دانغلار.

- ماذا! ابنة دانغلار؟

- بالتّأكيد، ابنة دانغلار! ألا ينبغي أن أقول البارون دانغلار؟ إنّ ذلك كقولي الكونت بينيديتو، فدانغلار أيضًا كان صديقًا لي فيما مضى؛ وإن لم تخنه الذّاكرة، فينبغي أن يدعوني إلى زفافك... ما دام قد حضر زفافي أنا... أجل، حضر زفافي أنا! في ذاك الزّمن لم يكن الرّجلُ متغطرسًا كما هو اليوم؛ كان مجرّد محاسب صغير عند موريل الطيّب. لطالما تعشّيت معه والكونت دو مورسيرف... ها أنت ذا ترى أنّ لي معارفَ قيّمةً، ولو أنّي حرصت قليلًا على العناية بها، فلربّما التقينا أنا وأنت في الصالونات نفسها.

- إنّ حسَدك يصوّرُ لك خيالاتٍ ورديّة يا كادروس.

- حسنًا يا بينيديتويَ. لربّما يأتي يومٌ أرتدي فيه أنا أيضًا ملابس الأحد وأقول عند بوابة عربات: «خُذ الرّسن!»، في انتظار ذلك اليوم، هيّا اجلس لنأكل.

وأعطى كادروس المثال بنفسه إذ بدأ يأكل بشهيّةٍ كبيرة، وهو يمتدح كلّ طبقٍ يضعه أمام ضيفه. وبدا أن الضّيف أيضًا قد انفتحت شهيّته إذ فتح قنينة، وانقضّ على طبق البويابيس[1] وعلى سمك القدّ المنسّم بالثوم والزيت.

---

(1) طبق بروفانسالي، يعتبر من الأطباق الدّالة على المطبخ المارسيلي، قوامه حساء السّمك وقطع الخبز بالثوم.

قال كادروس: - آه! يبدو أنّك يا شريكي قد بدأت تستعيد ألفتك بطبيخ طاهيك القديم.

أجابَ أندريا، الذي كان يبدو أنّ شهيّته قد طغت، وهو الشّابُ القويّ، على كلّ ما سواها: - بلى!

- وهل تجدُ الأكل طيّبًا يا نذل؟

- جدًا، لدرجة أنّي لا أفهم كيف لرجلٍ يعدُّ ويأكل مثل هذا الطّعام الشّهي أن يشتكي من الحياة!

- لأنّ سعادتي كلّها تنغّصها فكرةٌ واحدةٌ.

- أيّ فكرة.

- فكرة أنّني أعيش على حساب صديقٍ، أنا الذي طالما كسبتُ عيشي بشرفٍ.

أجابه أندريا: - آه! لا تشغل بالك بهذا! إنّ لي من النّقود ما يكفينا معًا!

- كلّا، الحقّ أقول، وأنت حرٌّ في أن تصدّق أو تكذّبَ: عند نهاية كلّ شهرٍ، ينتابني النّدم.

- مسكين يا كادروس الطّيب!

- إلى درجةٍ أنّني لم أرد أن أستلم أمس المائتي فرنك.

- أجل، كنت تريد أن نتحدّث؛ لكن أتسمّي هذا ندمًا!

- النّدم الحقّ؛ ثمّ أتتني فكرةٌ.

ارتجف أندريا؛ دومًا ما كانت أفكار كادروس ترجّفه.

واصل كادروس الكلام: - إنّه لأمرٌ بائسٌ، كما ترى، أن ينتظر الإنسانُ على الدّوام نهاية الشّهر.

أجاب أندريا متفلسفًا: - إيه! ألا تمضي الحياةُ كلّها في الانتظار؟ وأنا نفسي، هل أفعل غير ذلك؟ أنا أنتظرُ صابرًا، أليس كذلك؟

- بلى، لأنّك بدلًا من أن تنتظر مائتي فرنكٍ حقيرة، تنتظرُ خمسة

آلاف أو ستّة، أو ربّما عشرة، أو حتّى اثني عشر؛ ذاك أنّك لصٌّ خبير. هناك، كان طوع يدك دومًا حصّالاتُ نقود أو صناديق حلوى تسرقها من صديقك المسكين كادروس. لحسن الحظّ كان الصّديقُ كادروس يتمتّع بحاسّة شمّ قويّة.

قال أندريا: - ها أنت ذا سوف تبدأ مرّةً أخرى في استعادة الماضي والحديث عنه مرّةً تلو أخرى، مثلما تفعل دائمًا! لكن أسألك: ما نفع استرجاع كلّ هذا؟

- آه! أنت في العشرين من عمرك، وتستطيع أن تنسى الماضي؛ أمّا أنا ففي الخمسين، وأنا مضطرٌّ لتذكّره. لكن، لنعد إلى الأعمال فهي الأهمّ.

- أجل.

- أردتُ القول إنّي لو كنت في مكانك...

- وإذًا؟

- سأنجزُ...

- كيف! ستنجز...

- أجل، سوف أطلب دفعةً مسبقة، دفعة ستّة أشهر، لأنّي أريد أن أصير مؤهّلًا وأشتري مزرعة؛ ثمّ حين أحصل على الدّفعة، أفرُّ.

قال أندريا: - ربّما ليست فكرةً سيّئة هذه!

قال كادروس: - عزيزي، كُل من طبيخي، واتبع نصائحي؛ لن تجد أفضل منها سواء دينيًا أم أخلاقيًا.

- حسنًا، لمَ لا تتبع أنت نفسك النّصيحة التي تسديها إليّ؟ لم لا تطلب دفعةً مسبقة، دفعة ستّة أشهر أو حتّى سنةً كاملةً؛ وتنسحب إلى بروكسيل؟ وهناك تظهر بمظهر معسرٍ ما زال يمارس وظيفته، بدلًا من مظهر خبّازٍ متقاعد: هذا أفضل.

- لكن، كيف تريدني بحقّ الشّيطان أن أعتزل بألفٍ ومائتي فرنكٍ؟

قال أندريا: - آه يا كادروس! كم أنت متطلّبٌ! منذ شهرين فقط، كنت تموت جوعًا.

قال كادروس وهو يكشف عن أسنانه كقردٍ يضحك أو نمر يزأر: - إنّ الشّهية تأتينا بينما نأكل! (وأضافَ وهو يقضم قطعة خبز بأسنانه القوية النّاصعة البياض رغم سنّه المتقدّمة) ثمّ إنّي قد وضعتُ خطّةً.

كانت خطط كادروس ترعبُ أندريا، أكثر ممّا تفعلُ أفكارُه؛ فالأفكار لم تكن إلا بذرةً، أمّا الخطط فهي التنفيذُ.

قال: - هات خطّتك، لا بدّ أنّها خطّةٌ بديعة!

- وما المانع؟ الخطّة التي فررنا بها من مؤسّسة السيّد شوز، من الذي وضعها، أخبرني! أنا من وضعها على ما أظنُّ؛ ويبدو لي أنّها لم تكن خطّةً فاشلةً، ما دمنا ها هنا الآن!

أجابه أندريا: - لا أختلف معك، من حين إلى آخر تبدي خططًا جيّدة؛ لكن، هيّا لنرَ خطّتك.

استأنف كادروس الكلام: - حسنًا، ماذا لو أنّك كنت تستطيع، من دون أن تصرف فلسًا، جعلي أحصل على نحو خمسة عشر ألف فرنكٍ... كلّا، خمسة عشر ألف فرنكٍ لا تكفي، لا أستطيع أن أصير رجلًا شريفًا بأقلّ من ثلاثين ألفًا؟

أجاب أندريا بجفاء: - كلّا، لا أستطيع.

قال كادروس ببرود وهدوء: - يبدو أنّك لم تفهم المقصود؛ لقد قلت لك: من دون أن تصرفَ فلسًا.

- أتريدني أن أسرقَ، فأتسبّب في خرابِ مصلحتي ومصلحتك أنت أيضًا، ويعيدوننا إلى هناك.

قال كادروس: - أوه! أنا! سيّانٌ عندي أن يعيدوني أو يتركوني؛ أنا رجلٌ غريب الحال، يعرض لي أن أشتاق إلى الرّفاق؛ ليس مثلك أنت الذي لا تودّ أن تراهم مرّة أخرى أبدًا!

وهذه المرّة لم يرتجف أندريا فقط، وإنّما شحُب. وقال: - احترس من الخطأ يا كادروس.

- اطمئنّ يا صغيري بينيديتو، لكن أشر عليّ بطريقة أكسب بها الثلاثين ألف فرنكٍ من دون أن تتدخّل أنت بالأمر؛ وهذا كلّ ما في الأمر!

قال أندريا: - حسنًا، سوف أرى، سوف أبحث.

- لكن، في انتظار ذلك سترفع قيمة الشّهرية التي تمنحني إيّاها إلى خمسمائة فرنك، إنّ لي هوسًا، وأريد أن أغنم!

قال أندريا: - طيّب، لك الخمسمائة التي طلبتَها؛ لكن اعلم أنّها ثقيلةٌ عليّ يا عزيزي كادروس... أنت تفرط في الاستغلال!

- لا مشكلة، ما دمت تنهل من صناديق لا قرار لها.

وكأنّما أندريا كان ينتظر أن يثير رفيقه هذه النّقطة، إذ لمعت عينه ببريق خاطفٍ، ما لبث، والحقّ يقال، أن انطفأ.

قال: - هذه الحقيقةُ، وإنّ راعيَّ لممتازٌ بالنّسبة إليَّ.

- وهذا الرّاعي إذًا، يخصّص لك شهريًا مبلغ...

- خمسة آلاف فرنك.

- آلافُ الفرنكات التي تخصّني منها ببضع مئات؛ الحقّ أنّ اللّقطاء وحدهم يصيبون حظًا؛ خمسة آلاف فرنك في الشّهر... ما الذي يمكن للمرء، بحقّ الشّيطان، أن يفعله بكلّ هذا المبلغ؟

- يا إلهي! إنّ المبلغ سريعًا ما يُنفقُ؛ لذا أنا مثلك أودّ أن أحصل على رأسمالٍ.

- رأسمال... أجل... أفهمك، الجميع يريدون الحصول على رأسمال.

- والحالُ أنّي أنا سأحصل عليه.

- ومن ذا الذي سيعطيكَهُ؟ أميرُكَ؟

- نعم أميري؛ لكن للأسف، ينبغي أن أنتظر.

سأله كادروس: - أن تنتظر ماذا؟

- موتَه.

- موتَ أميرك؟

- أجل.

- لمَ؟

- لأنّه ضمّنَ اسمي وصيّتَه.

- حقًّا؟

- كلمة شرف!

- أوصى لك بكم؟

- بخمسمائة ألف.

- لا شيء غير ذلك؛ شكرًا للقليل.

- الواقع ما قلت لك.

- أنت تمزح! هذا غير ممكن.

- كادروس، أنت صديقي؟

- وهل في ذلك شكّ! صديقك في الحياة والموت.

- حسنًا، سوف أخبرك بسرّ.

- قُل.

- لكن أنصت إليّ.

- بحقّ السّماء! سأصغي أخرسَ كسمكة شبوط.

- حسنًا، أحسب...

توقّف أندريا مجيلًا بصره حواليه.

- تحسبُ؟... اللعنة، لا داعي للخوف! نحن بمفردنا.

- أحسب أنّي عثرت على أبي.

- عثرت على أبيك الحقيقي؟

- أجل.

- ليس الأب كافالكانتي؟

- كلاّ، فالأب كافالكانتي قد رحل؛ أقصدُ الأب الحقيقي كما قلتَ.

- وهذا الأب هو...

- هو يا كادروس، الكونت مونت كريستو.

- باه!

- أجل؛ ها أنت ذا ترى كيف يصير كلّ شيءٍ مفهومًا؛ إنّه لا يقدر أن يخبرني بالحقيقة بأعلى صوته، لكنّه يوصلها لي عن طريق السيّد كافالكانتي الذي يحصل على خمسين ألف فرنك نظير هذه المهمّة.

- خمسون ألف فرنك ليكون أباكَ! أنا كنت لأقبل بنصف المبلغ، بعشرين ألفًا حتّى، أو بخمسة عشر ألفًا! كيف لم تفكّر بي؟

- وهل خطّطتُ أنا للأمر، لقد حدث كلّ ما حدث حين كنّا في المكان المعلوم.

- آه! صحيح. وتقول إنّه قد ضمّن اسمكَ وصيّتَه...؟

- أوصى لي بخمسمائة ألف جنيه.

- أمتيقّنٌ أنت؟

- لقد أرانيها؛ وليس هذا كلّ شيء.

- ثمّة ملحقٌ بالوصية، مثلما قلتُ قبل قليل!

- على الأرجح.

- وفي هذا الملحق...؟

- يعترفُ بي.

قال كادروس وهو يلفّ في الهواء صحنًا يمسكه بين يديه: - أوه! يا للأب الطّيّب، يا للأب الشّهم، يا للأب الشّريف!

- هوَذا! قُل إذًا إنّي ما زلتُ أخفي عنك أسرارًا!

- كلاّ، وإنّي أتشرّفُ بثقتك فيَّ. ووالدك الأمير؟ هل هو رجلٌ غنيّ؟ فاحش الثراء؟

- أعتقد ذلك. إلى درجة أنّه لا يعرف مقدار ثروته.

- أيُعقل؟

- اللعنة! إنّي لأرى ذلك بنفسي حين أزوره في بيته. ذاك اليومُ، مثلًا، أتاه ساعي المصرف بخمسين ألف فرنكٍ في حقيبة بحجم مئزرك؛ وأمس أتاه مصرفيٌّ بمائة ألف فرنك ذهبًا.

كان كادروس مبهورًا؛ كانت كلمات الشّاب تبدو في أذنه كأنّما لها وقع المعدن، ويخيّلُ إليه أنّه يسمع انصباب شلّالاتٍ من اللويسيّات.

صاح بشيءٍ من السّذاجة: - وهل تذهبُ إلى هذا المنزل؟

- متى ما شئتُ.

ظلّ كادروس متفكّرًا لحظةً. وكان واضحًا أنّه يقلّب في ذهنه بعض الخواطر العميقة.

ثمّ فجأة صاح: - لكم أودّ أن أملك كلّ ذلك! كم سيكون ذلك رائعًا!

قال أندريا: - الحقُّ أنّه رائع!

- أليس يسكنُ في جادة الشانزيليزيه؟

- الرقم ثلاثون.

قال كادروسٍ: - آه! الرّقم ثلاثون.

- أجل، منزلٌ جميل منعزل بين باحةٍ وحديقة، لن تميّزَ غيرَه هناكَ.

- ممكن؛ لكن ليس خارج المنزل ما يهمّني، وإنّما داخله: الأثاث الرّائع! ما الذي يمكن أن يضمّهُ المنزلُ؟

- هل سبق أن زرتَ قصر تويلري؟

- كلّا.

- إنّ منزلَ الكونت أجمل منه.

- قل يا أندريا، سيكون من المربح إذًا أن ينحنيَ المرء حين يُسقط هذا المونت كريستو الطّيبُ صرّةَ نقوده؟

أجابَ أندريا: - أوه! يا إلهي! لا حاجة إلى انتظار تلك اللحظة، إنّ النّقود في هذا المنزل في كلّ مكانٍ، كالثمار في بستانٍ.

- عليك إذًا أن تصطحبني معك يومًا ما.

- وأصطحبك بأيّ صفة؟

- أنت محقّ؛ لكنّ كلامك جعل ريقي يتحلّبُ؛ عليّ أن أرى هذا مهما كلّفني الأمرُ؛ وسوف أجد طريقةً.

- لا للحماقات يا كادروس!

سوف أقدّم نفسي بصفتي غاسل أرضياتٍ.

- الزّرابي تملأ المكانَ هناك.

- أوه! سأكتفي إذًا بزيارة المكان في خيالي.

- ثق بي: لا أفضل من ذلك.

- احرص على الأقلّ أن تصف لي المكان بحيث أدركه.

- كيف تريدني أن أفعل...؟

-- لا أيسر من هذا. هل المنزل كبير؟

- ليس بالكبير ولا بالصّغير.

- وكيف هو توزيعه؟

- اللعنة! يلزمني حبرٌ وورقٌ لأضع تصميمًا.

أجاب كادروس بسرعةٍ وهو يقصد منضدة قديمةً فيأتي منها بورقة بيضاء ومحبرةٍ ويراع: - ها ما طلبتَه! ضع لي تصميمًا بكلّ ذلك يا بنيّ.

تناول أندريا الورق وعلى شفتيه ابتسامةٌ لا تكادُ تُلمح، وشرع يرسمُ.

- المنزل كما أخبرتك يقع بين باحةٍ وحديقة؛ هكذا!

ثمّ خطّ أندريا رسمَ الحديقة والباحة والمنزل.

- هل الجدرانُ عالية؟

- كلّا، ثمانٍ إلى عشر أقدامٍ على أعلى تقدير.

قال كادروس: - قلّة حذرٍ.

- في الباحة أشجار برتقالٍ، وأرضيات معشوشبة، وقطعٌ مزهرة.

- ولا فخاخ للذّئاب؟

- كلّا.

- والإسطبلاتُ؟
- من جانبي السّياج، هنا حيثُ ترى.
واصل أندريا رسمَ تصميمه.
قال كادروس: - لنلقِ نظرةً على الطّابق الأرضيّ.
- في الطّابق الأرضيّ، غرفة الطّعام، وصالونان، وصالة بلياردو، ودرجٌ في الرّواق، ودرجٌ صغيرٌ ملتوٍ.
- نوافذ..؟
- نوافذُ رائعةٌ، جميلة جدًّا، ومن الوُسع بحيث أحسبُ أنّ باستطاعة رجلٍ بحجمك أن ينفذ منها.
- ما الحاجة، بحقّ الشّيطان، إلى درج حين تكون ثمة نوافذُ مماثلة؟
- إنّها الرّفاهية!
- والسّتائر؟
- نعم ثمّة ستائر، لكنّها لا تستخدم أبدًا؛ فريدٌ هو هذا الكونت الذي يرغب في رؤية السّماء حتّى في الليل.
- والخدم، أين ينامون؟
- آه! إنّ لهم منزلهم الخاصَّ؛ مأوى جميلٌ لعلمك، عن اليمين وأنت داخلٌ؛ يضمّ هذا المأوى مجموعة من الغرف المخصّصة للخدم، وفي كلّ غرفةٍ جرسٌ مخصوص لكلّ خادم.
- آه! اللعنة! أجراس!
- ماذا تقول؟
- أنا؟ لا شيء، أقول فقط إنّ الأجراسَ تكلّف الكثير من المال. وأتساءلُ فيمَ تنفع هذه الأجراس؟
- فيما مضى كانَ ثمّة كلبٌ يحرس الحديقة ليلًا، لكنّه أُخذ إلى منزل أوتوي، حيثُ كنتَ قد أتيتَ، هل تذكره؟
- نعم.

- أمس فقط قلت له، إنّها قلّةُ حذرٍ منك يا سيّدي الكونت، فحينما تذهبَ إلى منزل أوتوي وتأخذ الخدم معك، يظلّ المنزل هنا بلا حارس!

- وهل أجابك؟

- بعد أيامِ هناءةٍ، لا بدّ من أن تُسرقَ.

- ما كان جوابُه؟

- قال: حسنًا، فيمَ يهمّ أن أُسرَقَ؟

- هل ثمّة خزنةٌ آليةٌ يا أندريا؟

- كيف؟

- خزنةٌ توقع اللّص فيما يشبه الشّبكة، وتعزفُ لحنًا. قيل لي إنّ شيئًا مماثلًا عُرض في المعرض السّابق.

- ثمّة ببساطة خزنةٌ من خشبِ الماهوجني، خزنةٌ لطالما رأيتها والمفتاح فيها.

- ألا يُخشى أن تُسرقَ؟

- كلّا، إنّ النّاس الذين يخدمون الكونت يدينون له بالولاء المطلق.

- ما الذي يمكن أن تحويه تلك الخزنة؟ مال؟

- ربّما... فلا أحد يعلم ما فيها.

- وأين موقعها؟

- في الطّابق الأوّل.

- ضع لي إذًا يا صغيري تصميمًا للطّابق الأوّل، كما فعلت مع الطّابق الأرضيّ.

- إنه بسيط.

ثمّ إنّ أندريا أمسك باليراع مجدّدًا.

- في الطّابق الأوّل، كما تلاحظ، بهوٌ، ثمّ صالون؛ عن يمين الصالون المكتبةُ ومكتبُ العمل؛ وعن شماله غرفة النّوم وغرفةٌ للزينة. وفي غرفة الزينة توجد الخزنة المعلومة.

- وهل من نافذة في غرفة الزينة؟
- توجد نافذتان، هنا وهنا.
ورسم أندريا نافذتين للغرفة التي كانت تحتلّ موضع الزاوية من الرّسم، وتبدو كمربّع أصغر أضيف إلى المربّع الأكبر الذي يمثّل غرفة النّوم.
أخذت كادروس الأماني، وسأل: - وهل يذهب الكونت كثيرًا إلى أوتوي؟
- مرّتين أو ثلاثًا في الأسبوع؛ غدًا على سبيل المثال يفترض أن يذهب ليقضي النّهار واللّيل هناك.
- أمتأكّدٌ أنت؟
- لقد دعاني إلى العشاء.
- لحسن الحظّ! هوَّذا ما نسمّيه طيب العيش: منزلٌ بالمدينة وآخر في الريف!
- بل هذا ما نسمّيه أن يكون المرء ثريًّا.
- وسوف تذهب إلى العشاء؟
- على الأرجح.
- وحين تتعشّى عنده، هل تنام هناك؟
- حين يطيب لي ذلك. ففي بيت الكونت أكون كما في بيتي.
نظر كادروس إلى الشّاب نظرةَ من يسعى إلى انتزاع الحقيقة من أعماق قلبه. غير أنّ أندريا أخرج من جيبه علبة سيجار وأخذ منها سيجارًا هافانيًا، وأشعله بهدوء وراح يدخّنُ من غير تكلّف.
ثمّ سأل كادروس: - متى تريد الخمسمائة فرنك؟
- حالًا، إن كانت معك.
أخرج أندريا من جيبه خمسًا وعشرين لويسيّة.
قال كادروس: - نقودٌ صُفرٌ؛ كلّا، شكرًا!

- هل تحتقرها؟
- بل بالعكس، أقدّرها؛ لكنّي لا أريدها.
- ستكسب في الصّرف أيّها الغبيّ؛ إنّ الذّهب يساوي قيمة النّقود خمس مرّاتٍ.
- أجل، ثمّ إنّ الصرّاف سيشي بالصّديق كادروس، فيقبضُ عليه، ثمّ يكون مجبرًا على أن يصرّح باسم العملاء الذين يعطونه مستحقّاته ذهبًا. لا للحماقة يا صغير. أريد نقودًا وفقط، مجرّد قطع دائريّة عليها صور ملِكٍ أيًّا كان. الجميع يستطيع امتلاك قطع من فئة خمسة فرنكاتٍ.
- أنت تعلم علم اليقين أنّي لا أحمل معي خمسمائة فرنك. كان ينبغي أن آتي معي بوكيل.
- حسنًا، اتركها عند عامل الفندق، إنّه رجلٌ أمين. وسوف أذهب لأخذها من عنده.
- اليوم؟
- لا، غدًا؛ لا وقت عندي اليوم.
- حسنًا، سوف أتركها لك غدًا، عند انطلاقي إلى أوتوي.
- هل أعوّل عليك؟
- كلّ التّعويل.
- ذاك أنّي سأوقف اتّفاق عملي مسبقًا.
- أوقفه. لكن، سينتهي الأمرُ عند هذا الحدّ؛ لن تزعجني مرّةً أخرى! أليس كذلك؟
- طبعًا، لن أزعجك أبدًا.
كان كادروس قد صار عابسًا جدًا، إلى درجةٍ أنّ أندريا خشيَ أن يجد نفسه مجبرًا على أن ينتبه إلى عبوسه؛ فكان أنْ ضاعف من مرحه ولا مبالاته.
قال كادروس: - لشدّ ما يظهر عليك الفرح؛ قد يحسب المرء أنّك قد حصّلت ميراثك!

- كلاّ، للأسف...! لكن في اليوم الذي أحصل فيه عليه...
- سوف؟
- سوف أتذكّرُ أصدقائي؛ ولن أقول لك غير هذا.
- أجل، خاصّة وأنّك تتمتّع بذاكرة قويّة!
- ماذا كنت تتوقّع؟ ظننتك تسعى إلى ابتزازي!
- أنا! أوه! أيّ فكرة هي! أنا على العكس من ذلك سوف أسدي إليك نصيحة صديقٍ لصديقه.
- أيّ نصيحة؟
- أنصحك أن تترك خاتمك الألماس هذا هنا؛ يا إلهي أنت تغامرُ، وتسعى في ضياعنا معًا؛ إنّها لحماقة!
- لمَ؟
- كيف! تأتي إلى هنا متنكّرًا في زيّ خادمٍ، وتترك في إصبعك خاتمًا قيمته خمسة آلاف فرنك!
- اللعنة! إنّ تقديرك دقيق! لمَ لا تعملُ مستشارًا مقيّمًا؟
- هذا لأنّي خبيرٌ بالماس؛ فقد سبق أن حُزتُه.
قال أندريا وقد بدأت تساوره المخاوف من النّظرة التي كان ينظر بها كادروس إلى الخاتم: - لك أن تتباهى بالأمر.
كان كادروس ينظر إليه متمعّنًا حتّى غدا واضحًا لأندريا أنّه يتفحّص ما إذا كانت حوافُه صقيلةً.
قال كادروس: - إنّها ماسةٌ مزيّفةٌ.
أجابه أندريا: - أنت تمزح بلا شك؟
قصد كادروس النّافذة، وحكّ بها الخاتمَ، فسُمع صرير الماسة على الزّجاج.
قال وهو يضع الخاتم في إصبعه: - الحمد لله! أخطأتُ؛ لكنّ هؤلاء الصّاغة اللّصوص يزيفون الماس بمهارة لدرجة أنّ لا أحد عاد يُقدم على سرقة محلاّتهم. إنّه فرعٌ آخرُ مشلولٌ من فروع الصّناعة.

سأل أندريا: - هل أنتهينا؟ أما يزالُ لديك ما تسألني إيّاه؟ خُذ راحتك.

- كلاّ، أنت رفيق طيّبٌ في واقع الأمر. لن أستبقيك أكثر، ولسوفَ أسعى إلى التّخلّص من طمعي.

- لكن احذر وأنت تبيع هذه الألماسة، من أن يقع لك ما كنت تخشى أن يقع لك وأنت تصرف الذهب.

- لن أبيعَها، اطمئنّ.

فكّر الشّابُ: «أجل لن تبيعها ما بين اليوم وغدًا».

قال كادروس: - أيّها النّذل المحظوظ! أنت عائدٌ إلى خدمك وجيادك وعربتك وخطيبتك.

- أجل.

- أرجو أنّك ستتحفني بهديّةٍ جميلةٍ يوم زفافك من الآنسة ابنة صديقي دانغلار.

- لقد سبق أن قلت لك إنّها مجرّد أوهامٍ تصوّرتَها في رأسك.

- كم المهر؟

- قلت لك إنّها...

- مليون؟

هزّ أندريا كتفيه.

قال كادروس: - لنقل إنّه مليون، فلن تبلغ أبدًا قدر ما أتمنّاه لك.

- شكرًا.

أضاف كادروس وهو يضحك ضحكته الفظّة: - أوه! إنّي أتمنّى لك ذلك من كلّ قلبي. مهلًا، سأرافقك إلى الباب.

- لا تتعب نفسك.

- ضروري.

- لمَ؟

- لأنّ ثمّة سرًّا عند الباب؛ إنّه تدبير احتياطي بدا لي من الضّروري

اتّخاذه. قفلُ أوري وفيشيه، راجعه وصوّبه غاسبار كادروس. سوف أصنع لك واحدًا مثله حين تصير ذا مالٍ.

قال أندريا: - شكرًا، سوف أعلمك بثمانية أيّام قبل ذلك.

ثمّ إنّ الرّجلين افترقا. وظلّ كادروس على السلّم إلى أن شاهد أندريا ينزل سلالم الطوابق الثلاثة، لا بل ويعبر الباحة. وإذّاك هرع إلى الدّاخل، وأقفل الباب خلفَه بعناية، وانكبّ على دراسة التصميم الذي تركه له أندريا دراسةً متفحّصةً.

قال لنفسه: «أعتقد بأنّ هذا العزيز بينيديتو، لن يكون منزعجًا من أن يحصّل ميراثَه؛ وأنّ من سيعمل على تقريبه من اليوم الذي يحصل فيه على خمسمائة ألف فرنك لن يكون أسوأ أصدقائه».

82

السّطوُ

غداةَ اليوم الذي شهد المحادثةَ التي نقلناها، كان الكونت مونت كريستو قد ذهب بالفعل إلى منزل أوتوي، يرافقه عليٌّ وعددٌ من الخدم والجياد التي أراد تجريبها. أمّا الباعث الفعليّ على هذه الزيارة التي لم يكن يفكّر فيها، لا هو ولا أندريا، يومين قبل ذلك، فقد كان هو قدوم برتوتشو الذي عاد من النورماندي حاملًا أخبارًا عن المنزل والسّفينة.

صار المنزلُ جاهزًا، والسّفينة قد وصلت منذ ثمانية أيّام ورست في جَوْنٍ صغير، وعلى متنها طاقمها المؤلّفُ من ستّة رجالٍ، وأتمّت كلّ الإجراءات اللازمة، وباتت جاهزةً للإبحار مرّةً أخرى.

امتدح الكونت همّةَ برتوتشو ودعاه أن يتهيّأ إلى إبحارٍ وشيك، ذاك أنّ عطلته في فرنسا لا يفترض أن تتجاوز شهرًا.

قال الكونت: - الآن، صار ينبغي عليّ أن أتمكّن من الذّهاب في ليلةٍ واحدة من باريس إلى تريبور (فرنسا)؛ أريد مجدّفين مناوبين على امتداد المسار، بحيث أقطع خمسين فرسخًا في عشر ساعات.

أجابه برتوتشو: - لقد سبق أن عبّرت عن رغبتك هذه يا صاحب السّعادة، وإنّ الجياد جاهزة. لقد اشتريتها بنفسي، وجمّعتُها في الأماكن الأكثر ملاءمةً لها، أي القُرى التي لا يتوقّف فيها بالعادة أحد.

قال مونت كريستو: - جيّد، سأبقى هنا يومًا أو يومين؛ رتّبوا أموركم على هذا الأساس.

وبينما يتهيأ برتوتشو ليخرج كي يصدر الأوامر المناسبة لهذه الإقامة، فتح باتيستان الباب؛ كان يحمل رسالةً على طبق قرمزيّ اللّون.

سأله الكونت وهو يراه معفرًا بالتّراب: - ما الذي أتى بك إلى هنا؟ لم أطلب منك المجيء على ما يبدو لي؟

من دون أن يجيب دنا باتيستان من الكونت وقدّم إليه الرّسالة.

قال: -مهمٌّ وعاجل.

فتح الكونت الرّسالة وقرأ:

«نُعلم السيّد الكونت مونت كريستو أنّ رجلًا سيقتحم هذه اللّيلة بيته في الشانزيليزيه، كي يختلس أوراقًا يعتقد بأنّها مخبّأةٌ في الخزنة بغرفة الزينة: وإنّنا على يقين بأنّ الكونت مونت كريستو شجاعٌ بما يكفي لكي لا يضطرّ إلى استدعاء الشّرطة، إذ إنّ تدخّلها قد يعرضّ كاتب هذه الرّسالة للخطر. إنّ بوسع سيّدي الكونت، سواء عبر منفذ يفضي إلى غرفة النّوم أم عبر كمين يضعه في المكتب، أن يقتصّ لنفسه بنفسه. ذاك أنّ وجود الكثير من النّاس، والمبالغة في الاحتياطيات لا بدّ أن تُبعد المجرم، فيُضيع سيّدي الكونت مونت كريستو فرصة كشف عدوٍّ كشفَته الصّدفة أمام كاتب هذه الرّسالة التي ربّما لن يكون بمقدوره كتابةُ واحدة أخرى مثلها إن فشل الكونت في الإمساك بالمجرم وتجدّد الهجومُ».

كان أوّلُ ما فكّر فيه الكونت هو أن يكون الأمر حيلةً من حيل اللصوص، حيلةً تبيّنُ له خطرًا صغيرًا كي تغفله عن خطرٍ أكبر. فكان على وشك أن يحمل الرّسالة إلى مفتّش الشرطة رغم نصيحة كاتبها، ولعلّه فعل ذلك تحديدًا بسبب النصيحة؛ وإذا بغتةً يبرق في ذهنه احتمال أن يتعلّقُ الأمرُ بعدوٍّ شخصيّ وحدَه يستطيع التّعرّف عليه، ووحده، في الغالب، يستطيع الإفادة من الإيقاع به، مثلما فعل فييسك بالموري[1] الذي أراد اغتياله. وإنّنا نعرفُ الكونت؛ لذا لا حاجة بنا إلى أن نقول إنّه

(1) المقصود فييسك دي لافانيا، وقد خصّه دوما بعملٍ مسرحيّ ضمّن فيه حكايته مع الموري (المغربي) وهوراثيوس. كُتبت المسرحيةُ التي تحمل عنوان فييسك دي لافانيا سنة 1828، لكنّها لم تُنشر حتّى العام 1976، أي سنوات بعد وفاة دوما.

كان نفسًا مفعمةً بالجسارة والهمّة، نفسًا تُجابه المستحيل بتلك الشدّة التي وحدها تصنعُ الرّجال المتفوّقين. وبفعل الحياة التي عاشها، والوعد الذي قطعه على نفسه بأن لا يتراجع أمام أيّ شيءٍ، صار الكونت يستلذّ بالمخاطر التي يجابهها أحيانًا في الطّبيعة، التي هي [صورة] الرّبّ، وضدّ الإنسان الذي يمكن أن يكون تجليًا للشّيطان.

قال مونت كريستو لنفسه: «إنّهم لا يريدون سرقة أوراقي، وإنّما يريدون قتلي؛ هم ليسوا لصوصًا وإنّما قتلة. لا أريد للسيّد رئيس الشّرطة أن يتدخّل في شؤوني الشّخصية. إنّي غنيّ بما يكفي لأجنّب إدارته ميزانية حمايتي».

نادى الكونت باتيستان الذي كان قد غادر الغرفة بعدما سلّم الرّسالة، وقال له: - عُد إلى باريس وائتني بكل الخدم إلى هنا. أحتاج الجميع في أوتوي.

- لكن، أنترك المنزل خاويًا يا سيّدي الكونت؟

- كلاّ، سيبقى البوّاب.

- هل فكّر سيّدي الكونت في المسافة الفاصلة بين مخفر البوّاب والمنزل؟

- وإذًا؟

- إذًا يمكن أن يُسرق المنزل بأكمله، من دون أن يسمع صدىً.

- من ذا الذي سيسرقه؟

- اللّصوص.

- إنّك ساذج يا سيّد باتيستان؛ أن يسرق اللّصوص كلّ المنزل، أهون عندي من أن لا تقدَّمُ الخدمةُ كما ينبغي.

انحنى باتيستان.

استأنف الكونت: - أسمعتَ، هات زملاءك من أوّلهم إلى آخرهم؛ وليبق كلّ شيءٍ في حاله الاعتيادية؛ فقط أغلقوا ستائر الطّابق الأرضيّ، وهذا كلّ ما في الأمر.

– وستائر الطّابق الأوّل؟
– تعلم أنّنا لا نغلقها البتّة. هيّا.
أخبرهم الكونت بأنّه يرغب بالعشاء وحيدًا في غرفته، ولا يريد أن يخدمه إلا عليّ.
وتعشّى بهدوئه ورصانته المعهودين، ثمّ أشار بعد العشاء إلى عليّ أن يتبعه، وخرج من الباب الصّغير، وقصد غابة بولونيا كأنّما يتنزّه، ومن دون أن يفصح عن شيءٍ اتّخذ طريق باريس، وما كاد يحلّ اللّيل حتّى كان أمام منزله بالشانزيليزيه.
كان كلّ شيءٍ معتمًا، نورٌ واهنٌ فقط يلمع في مخفر الحارس الواقع على مسافة أربعين قدمًا من المنزل، كما أسلفَ باتيستان. التصق مونت كريستو بشجرةٍ، وبعينه الدربة التي قلّما تخطئُ، جاسَ الطريق المزدوجَة، وفحص الممرّات، وغاص ببصره في الأزقّة المجاورة، حتّى يتأكّد من عدم وجود أحد يكمن هناك.
وبعد عشر دقائق، أيقن أنّ لا أحد يراقب المكان. فركض فورًا، وعليٌّ، إلى الباب الصّغير، ودخل من سلّم الخدم الذي كان يملك مفتاحه، ومنه إلى غرفة نومه، من دون أن يفتح أو يزحزح أيّ ستارٍ، ودخل من دون أن يشكّ حتّى البواب نفسه في أنّ المنزل فارغ.
ثمّ إذ بلغ غرفة النّوم، أشار إلى عليّ أن يتوقّف، ودخل إلى المكتب فتفحَّصه، وألفى كلّ شيء على حاله المعتادة: الدولاب الثمين في موضعه، والمفتاح في قفله. غلّقه مرّتين، وأخذ المفتاح، ثمّ عاد إلى غرفة النّوم، وأزال القفل، ودخل.
وأثناء ذلك حمل عليّ الأسلحة التي كان الكونت قد طلبها منه، ووضعها على طاولة: قربينةٌ قصيرةٌ، ومسدّسان من ذوي الماسورتين، ممّا يؤهّلهما لأن يصوّبا سديدًا كمسدّسَي رماية. وإذ تسلّح الكونت على هذا النّحو، فإنّه كان يمسك بين يديه حياة خمسة رجالٍ.

كانت السّاعة تقريبًا التّاسعة والنّصف؛ تناول الكونت وعليّ على عجلٍ قطعة خبزٍ مدهونة بالزّبدة وكأسًا من نبيذ إسبانيا؛ ثمّ أتى الكونت بإحدى تلك المرايا المتحرّكة التي تسمح بأن ننظر من غرفةٍ إلى ما يجري في غرفةٍ أخرى. وجعل طوع يديه مسدّسيه وقربينتَه، بينما كان عليّ، واقفًا بجانبه، يمسك أحد تلك السّواطير العربيّة الصّغيرة التي لم يتغيّر شكلها منذ الحروب الصّليبية. وعبر نافذة من نوافذ غرفة النّوم، موازية لغرفة المكتب، كان بوسع الكونت أن يراقب ما يجري في الشّارع.

مرّت ساعتان؛ ونزل الظلامُ الأشدّ حلكةً، ومع ذلك كان عليّ، بفضل طبعه الفطريّ، والكونت، بفضل عادة اكتسبها بلا شكّ، يميّزان وسط الظلام البهيم حتّى أدنى حركة ارتجاج في أشجار الحديقة. ومنذ مدّة طويلة كان نور مخفر البوّاب الواهن قد انطفأ. وكان يفترض أن يتمّ السّطو، إن حدث سطوٌ، عبر سلّم الخدم، وليس من النّوافذ. وفي ذهن مونت كريستو أنّ المجرمين كانوا يقصدون حياته وليس ماله. وبالتّالي فإنّ غرفة نومه هي المقصدُ، ولن يبلغوها إلا عبر السلّم الجانبيّ أو نافذة المكتب. نصّب الكونت إذن عليًا أمام باب السلّم، وواصل هو حراسة المكتب.

دقت السّاعة الحادية عشرة والنّصف في ساعة شارع آنفَاليد؛ وحملت الرّيح الغربيّة مع هبّاتها الرّطبة دبدبة ثلاث ضربات مكتومة. وبعد أن انطفأ صوت ثالثة الضّربات، هُيّئ للكونت أنّه سمع صوتًا خفيفًا قادمًا من جهة المكتب؛ ثمّ تلا الصوتَ الأوّل، أو بالأحرى الصّريرَ الأوّل، صريرٌ ثانٍ ثمّ ثالث؛ ومع الرّابع أدرك الكونت ما يجري. يدٌ دربةٌ سديدةٌ كانت منشغلة بقصّ زجاج بواسطة ألماسة. أحسّ الكونت بقلبه يخفق بمعدّل أسرع. فمهما جُرّبَ الرّجالُ وقَوَّتهم الأخطارُ إلا أنّهم يدركون، حين يواجهون خطر الموت، من خفقان قلوبهم وارتجاف أجسادهم، الفرقَ الهائل بين الحلم والواقع، بين المشروع والتنفيذ. غير أنّ مونت

كريستو لم يشر إلى عليّ إلا بإشارةٍ واحدة؛ فأدرك الخادمُ أنّ الخطر قادم من جهة المكتب، وخطا خطوةً أدنَته من سيّده.

وكان مونت كريستو متلهّفًا لمعرفة أيّ الأعداء يواجه. وكانت النّافذة التي يُعمل فيها الهاجمُ القَطْعَ تقع بإزاء الفتحة التي يرسل منها الكونت نظرتَه. ثبّت إذًا عينيه على النّافذة: رأى ظلًا يتميزُ في العتمة؛ ثمّ صارت قطعة زجاج كامدةً تمامًا، وكأنّما ألصقت بها ورقةٌ من الخارج؛ ثمّ انفكّت القطعة من دون أن تسقط. وعبر الفتحة التي أُحدثَت، تسللت ذراعٌ باحثةً عن المغلاق؛ ثانية بعد ذلك دارت النّافذة على مصراعيها، ودلف منها رجلٌ.

كان الرّجل بمفرده.

غمغم الكونت: «هوذا سارقٌ شجاع». وفي تلك اللّحظة أحسّ بيد عليّ تمسّ كتفه برفقٍ، فاستدارَ. كان عليّ يشير له إلى نافذة الغرفة حيث هما، والتي كانت تطلّ على الشّارع.

خطا الكونت ثلاث خطواتٍ، وكان يعرف مدى رهافة حوّاس خادمه. وبالفعل، رأى رجلًا آخر، يقفز من بابٍ، ويرتقي سياجًا، كأنّما يحاول تقصّي ما يجري في بيت الكونت.

قال لنفسه: «هما إذًا اثنان: أحدهما ينفّذ، والثاني يراقبُ!».

أشار لعليّ ألاّ يفلت ببصره الرّجل الموجود في الشّارع، وعاد هو إلى مراقبة الرّجل في المكتب.

كان قاطع الزّجاج قد دخل وأخذ يتلمّس طريقه باسطًا ذراعيه أمامَه. ثمّ بدا أنّه قد تعرّف مواضع كلّ شيءٍ؛ كان ثمّة بابان في المكتب، وكان الرّجل يتهيّأ لأن يعالج أقفالهما معًا.

وحين اقترب من قفل غرفة النّوم، ظنّ مونت كريستو أنّه يريد الدّخول، فهيّأ مسدّسَيه؛ لكنّه سمع فقط صوت انزلاق الأقفال في حلقاتها النّحاسية. كان إذًا ذلك مجرّد تدبير احترازيّ لا أكثرَ؛ إنّ الزّائر

اللّيليّ، وقد كان يجهل أنّ الكونت قد حرص على إزالة دواليب الباب، يمكن أن يظنّ نفسه الآن في بيته، فيتصرّف باطمئنانٍ تامّ.

وإذ صار الرّجلُ وحيدًا وحرًا، فقد أخرج من كيسه الواسع شيئًا لم يستطع الكونت تبيّنه، ووضعه على منضدةٍ صغيرة، ثمّ قصد مباشرةً الخزنة. وضدًا على توقّعه لم يكن المفتاح فيها. غير أنّ قاطع الزّجاج كان قد تجهّز لكلّ احتمالٍ؛ وما لبث الكونت أن سمع صرير الحديد على الحديد، ذاك الذي تحدثه سلسلة المفاتيح غير المتجانسة التي يأتي بها صنّاع المفاتيح حين نستقدمهم لفتح باب من الأبواب؛ الصّرير الذي أطلق عليه اللّصوص اسمَ العندليب، ولا شكّ أنّهم سموه كذلك بباعثٍ ممّا يحدثه تغريدُه اللّيليّ في نفوسهم من طربٍ، حين يصرّ في فتحة القفل.

غمغم مونت كريستو وعلى شفتيه ابتسامة خيبة: «آه! آه! ليس صاحبنا إلا لصًّا».

على أنّ الرّجل، في العتمة، لم يصب اختيار الأداة الملائمة. فلجأ إذّاك إلى الشّيء الذي كان قد وضعه على المنضدة؛ حرّك لولبًا، وعلى الفور أُوقد نورٌ باهتٌ، لكنّه يضيء بما يكفي ليكشف عن يديه ووجهه.

قال الكونت وهو يتراجع إلى الخلف من الدّهشة: - أوه! إنّه...

رفع عليّ ساطورَه.

همس له مونت كريستو: - لا تفعل شيئًا، وضع ساطورَك؛ ما عدنا نحتاج أسلحةً.

ثمّ أضافَ كلماتٍ خافضًا صوته أكثر فأكثر، إذ إنّ تعبير التعجّب الذي انتزعته من الكونت المفاجأة، كان يكفي ليجعل الرّجل يرتجفُ، ويكمن في وضعية الطّحّان العتيق. وكان أمرًا ذاك الذي همس به الكونت إلى عليّ، إذ هرع الخادم من فوره، على رؤوس أصابعه، إلى جدار المخدع، فانتزع منه زيًا أسودَ وقبّعةً مثلّثة الشّكل.

وأثناء ذلك كان الكونت قد نزع بسرعةٍ معطف الردنجوت، والصّدار والقميص؛ وبفضل شعاع النّور المتسلّل من صدع المرآة المتحرّكة، كان يمكن للمرء أن يرى على صدر الكونت واحدًا من تلك الألبسة الرّهيفة المرنة المنسوجة من سَرْد الفولاذ، لباسًا كان آخر من ارتداه في فرنسا التي ما عاد سكّانها يخشونَ غدر السّكاكين، هو الملك السّادس عشر الذي كان يخشى على صدره من الخناجر، فمات بضربة ساطورٍ على رأسه.

ما لبث اللّباس أن اختفى تحت عباءة كاهنٍ طويلةٍ، مثلما اختفى شعر الكونت تحت باروكةٍ قرعاء[1]؛ وتكفّلت القُبّعة المثلّثة بإتمام تحوّل الكونت إلى قسٍّ.

أثناء ذلك، كان الرّجل، وقد اطمأنّ بعدما لم يسمع صوتًا آخر، قد عاد إلى معالجة قفل الخزنة الذي بدأ يستسلم إلى عقفائه[2].

قال الكونت الذي كان، بلا ريب، يعرفُ عن القفل أسرارًا لا يحيط بها اللّص وإن عظُمت مهارتُه: «حسنًا! أمامك دقائقُ».

ثمّ قصد النّافذة. وكان الرّجلُ الذي لمحه الكونت من قبل يرتقي سياجًا، قد نزلَ، ولا يزال يجول في الشّارع؛ لكنّ الغريب أنّه بدلًا من أن ينتبه إلى من يمكن أن يأتي من شارع الشانزيليزيه أو ضاحية سان أونوريه، فإنّ انشغاله قد بدا منصبًّا على ما يحدث في بيت الكونت، وكلّ حركاته تتركّز في ما يجري في المكتب.

فجأةً ضرب الكونت على جبينه، وترك ضحكة صامتة تتوه على شفتيه. ثمّ اقترب من عليّ وهمس إليه:

---

(1) المقصود أنّ الكونت ارتدى باروكة تشبّه فيها ببعض الرّهبان الكاثوليك ممّن كانوا يحلقون رؤوسهم كأنّهم صُلعٌ، علامةً على اعتناق الفقر وطلاق ملذات الدّنيا.

(2) العقفاء، حديدة يُلوى طرفها ويشكّل بحيث يصير مفتاحًا لمعالجة الأقفال.

-ابقَ هنا، متواريًا في العتمة، ومهما سمعتَ، وأيًّا كان الصّوت الذي يتناهى إليك، لا تدخل حتّى أناديك باسمِك.

أومأ عليّ برأسه إشارة أنّه فهم، وأنّه سيطيع الأمر.

أخرج مونت كريستو من دولاب شمعةً موقدةً، وفي اللّحظة التي كان فيها اللّص مستغرقًا كلّ الاستغراق في معالجة القفل، فتح الباب بهدوء حريصًا على أن يضيء النّور وجهه بالكامل.

فُتح البابُ برفقٍ شديد حتّى إنّ اللّص لم يسمع له صوتًا. لكنّه مندهشًا رأى الغرفةَ يغمُرها الضّوءُ فجأةً. التفتَ.

قال مونت كريستو: - إه! عزيزي السيّد كادروس؛ ماذا أتيت تصنعُ هنا في ساعةٍ مماثلة!

صاح كادروس: - الأب بوزوني!

ارتبك، لا يدري من أين خرج عليه الرّجلُ، إذ كان الرّاهب قد أغلق البابَ خلفَه، فأسقط اللّصُ حلقة المفاتيح من يده، وظلّ ساكنًا لا يتحرّك، كأنّما صعقه الذّهول.

قصد الكونت النّافذة يقف حاجزًا بين كادروس والمنفذ الوحيد الذي كان بإمكانه الهروب منه.

ردّد كادروس وهو يرمق الأب بعينين جاحظتين: - الأب بوزوني!

أجاب مونت كريستو: - طبعًا الأب بوزوني، وسعيدٌ لأنّك تذكّرتني، فهذا يدلّ على أنّ ذاكرتك قويّة، إذ إن لم تخنّي الذّاكرة أنا، فقد مضت عشر سنواتٍ منذ التقينا.

الهدوء والسّخرية والقوّة التي كان يتحدّث بها الرّاهبُ، قذفت في نفس كادروس رُعبًا مدوّخًا.

غمغم وأصابعه تتصلّب وفكّاه يصطكّان: - الأب! الأب!

واصل الرّاهبُ المزعوم: - تريد إذًا أن تسرق الكونت مونت كريستو؟

غمغم كادروس، محاولًا الوصول إلى النّافذة التي يحول بينه وبينها

الكونت: - سيّدي الرّاهب، سيّدي الرّاهب... أرجوك صدّقني... أقسم لك...

واصل الكونت: - زجاج نافذة مخروم، مصباحٌ مكتوم، حلْقة عُقفٍ[1]، وخزنةٌ قفلها شبه مكسورٍ، الأمرُ واضحٌ مع ذلك.

كان كادروس يختنق بربطة عنقه، ويلتمس مكانًا يتوارى فيه، أو ثقبًا يهربُ منه.

قال الكونت: - أرى أنّك لم تتغيّر يا سيّدي القاتل.

قال كادروس: - سيّدي الرّاهب، ما دمت تعرف كلّ شيءٍ، فلا بدّ أنّك تعرف أنّني لم أكن أنا القاتل وإنّما الكاركونتية، وذاك ما أكّدَته الشّرطةُ التي حكمت عليّ بالأشغال الشّاقة.

- أنهيت إذًا عقوبتك التي أراك منهمكًا في استعادتها؟

- كلّا يا سيّدي الرّاهب، لقد أطلق سراحي أحدهم.

- نِعِمّا خدمة أسداها هذا الأحدُهم إلى المجتمع.

قال كادروس: - آه! رغم أنّني وعدت...

قاطعه مونت كريستو: - أنت إذًا هاربٌ من السّجن؟

أجاب كادروس قلقًا: - نعم، للأسف!

- شرُّ المجرمين العائدُ... سيقودك فعلك إلى ساحة غريف[2] إن لم أكن مخطئًا. لا باس، لا بأس diavolo[3]! كما يقول أهل بلادي.

- سيّدي الرّاهب، لقد انسقت خلف غواية...

- كلّ المجرمين يقولون هذا.

- الحاجة...

قال بوزوني بازدراء: - دعك من هذا. إنّ الحاجة قد تدفع المرء إلى

---

(1) جمع عقفاء، وتقدّم ذكرها وشرحها.

(2) السّاحة التي كانت تُقام فيها عمليات الإعدام بباريس.

(3) الشّيطان بالإيطالية.

طلب الصّدقة أو توسّل الخبز من أمام مخبز، لكن ليس أن يكسر قفل خزنةِ منزلٍ نحسبه غير مأهولٍ. وحين عدَّ لك الصائغ خمسةً وأربعين ألف فرنكٍ نظيرَ الألماسة، ثمّ قتلته لتستولي على ماله، هل كان دافعك الحاجة؟

قال كادروس: - غفرانك يا سيّدي الرّاهب؛ لقد أنقذتني من قبلُ، فأنقذني هذه المرّة أيضًا.

- لست متحمّسًا للأمر.

سأله كادروس وهو يشبك يديه: - هل أنت بمفردك يا سيّدي الرّاهب، أم خلفك الدّرك متأهّبين لاعتقالي؟

- أنا وحدي، ومستعدٌّ أن أغفر لك هذه المرّة أيضًا، وأتركك تذهب، وإن كنت أعلم أنّ رقّتي هذه ستكلّف العالمَ مصائبَ؛ شرطَ أن تخبرني بالحقيقية كلّها.

صاح كادروس وهو يضمّ يديه ويدنو من الكونت خطوةً: - آه! يا سيّدي الرّاهب! إنّك لحقًا مُعتقي!

- تدّعي إذًا أنّ ثمّة من أطلق سراحك؟

- أوه! بشرف كادروس يا سيّدي الرّاهب.

- من أعتقك؟

- إنجليزيّ.

- وما اسمُه؟

- اللّورد ويلمور.

- أنا أعرفه؛ لهذا إن كذبتَ كشفتُكَ.

- أقول لك الحقيقة خالصة يا سيّدي الرّاهب.

- هذا الإنجليزيّ إذًا يرعاك؟

- كلاّ، لكنّه يرعى كورسيكيًا شابًّا، كان رفيقي في الحبس.

- وما اسم هذا الشّاب الكورسيكيّ؟

- بينيديتو.
- هذا اسم تعميد.
- ما له من اسم غيره، فهو طفلٌ لقيط.
- هذا الشّابُّ إذًا فرّ معك؟
- نعم.
- وكيف؟
- كنّا نشتغل في سان موندرييه، قرب تولون. هل تعرف سان موندرييه؟
- أجل.
- حسنًا، فبينما نحن نقيّلُ من منتصف اليوم إلى السّاعة الواحدة...

قاطعه الرّاهب: - محكومون بالأشغال الشّاقة، يقيّلون! فعلًا، لكم أن تشتكوا أيّها الصّناديد!

قال كادروس: - اللعنة! لا يمكن أن نعمل بلا توقّف، فنحن لسنا كلابًا.

قال مونت كريستو: - لحسن حظِّ الكلاب!

- قلتُ، بينما يقيّل الآخرون إذًا، ابتعدنا قليلًا، ونشرنا أغلالنا بمنشار حديد كان قد أمدّنا به الإنجليزيّ، وفررنا سباحةً.
- وما كان من أمر بينيديتو؟
- لا أدري.
- يجدر بك أن تعرف.
- كلّا، الحقُّ أنّنا افترقنا في هييريس.

ولكي يمنح مرافعته وزنًا أثقلَ، اقترب كادروس خطوةً أخرى من الكونت الذي ظلّ في موضعه مسائلًا هادئًا.

قال الأب بوزوني بنبرة سلطة لا تقهر: - أنت تكذب!

- سيّدي الرّاهب!...

- أنت تكذب، لأنّ الشّاب لا يزال صديقك، ولرّبما هو شريكك في الجريمة!
- أوه! يا سيّدي الرّاهب!...
- كيف كسبت عيشك منذ أن غادرت سجن تولون؟ أجب!
أجاب كادروس: - كيفما اتّفق!
فقال الكونت بنبرةٍ آمرةٍ أشدّ من كلّ ما سبق:- أنت تكذب!
نظر كادروس إلى الكونت مرعوبًا.
واصل الكونت: - عشتَ على النّقود التي أعطاك إيّاها.
قال كادروس: - حسنًا، الحقُّ ما قلتَه! لقد صار بينيديتو ابن رجلٍ رفيع.
- كيف له أن يكون ابن رجلٍ رفيع؟
- ابنه الطّبيعيّ.
- وما اسم الرّجل الرّفيع هذا؟
- الكونت مونت كريستو، أي الرّجل نفسه الذي نحن في منزله الآن.
تساءل الكونت دهشًا بدوره: - بينيديتو ابن الكونت؟
- وكيف لا يكون الكونت والدَه، وقد وجد له والدًا مزعومًا، ومنحه راتبًا شهريًا قيمته أربعة آلاف فرنك، وأوصى له بخمسمائة ألف فرنك؟
قال الرّاهب المزعوم وقد بدأ يفهم: - آه! آه! وفي انتظار ذلك، أيّ اسمٍ يحمله الشّابُ بينيديتو؟
- يحمل اسم أندريا كافالكانتي.
- تقصد إذًا الشّاب الذي يستقبله صديقي الكونت مونت كريستو في منزله، والذي سوف يتزوّج الآنسة دانغلار؟
- هو بعينه.
- وهل تؤيّد هذا، أنت العليم بحياته وخسّته؟
قال كادروس: - ولمَ تريد منّي أن أمنع صديقًا من النّجاح؟

- معك حقٌّ، لست أنت من ينبغي أن ينبّه السيّد دانغلار، وإنّما أنا.
- لا تفعل ذلك يا سيّدي الرّاهب..!
- ولمَ؟
- لأنّك إنّما ستحرمنا عيشنَا.
- وهل تظنُّ أنّني كيلا أحرم بائسين من أمثالكما، من عيشهم، سأقبل أن أكون شريكًا لكم في الخداع والجرم؟
قال كادروس وهو يدنو أكثر: - سيّدي الرّاهب!
- سوف أقول كلّ شيءٍ.
- لمن؟
- للسيّد دانغلار.
صاح كادروس وهو يخرج من صدريّته سكينًا مشهرةً، فيغرزها في صدر الكونت: - لن تقول شيئًا أيّها الرّاهب الملعون!
وأمام عظيم دهشة كادروس، لم تخترق السّكين صدر الكونت، وإنّما انحرفت عنه مثلومةً. وفي الآن نفسه، أمسكت يد الكونت اليسرى بمعصم القاتل، ولوتها بقوّةٍ حتّى أفلتت الأصابعُ المتصلّبة السّكين، وأطلق كادروس صيحة ألم.
غير أنّ الصّيحة بدلًا منَ أن توقف الكونت، جعلته يواصل ليّ معصم المجرم، حتّى أركعه على ركبتيه، ثمّ جعله ينبطح ووجهه إلى الأرض.
ضغط الكونت بقدمه على رأس المجرم، وقال:
- لا أدري ما يمنعني من أن أهشّم رأسَك أيّها الوغد!
صاح كادروس: - آه! الرّحمة! الرّحمة!
رفع الكونت قدمه عن الرّأس وقال: - انهض!
نهض كادروس. وقال وهو يدعك ذراعه من أثر الكمّاشة البشريّة:
- اللّعنة! أيّ قبضةٍ لديك يا سيّدي الرّاهب، أيّ قبضة!
- صه! إنّ الرّبّ يمنحني القوّة لأروّض الوحوش الضّواريَ من

أمثالك؛ باسم الربّ أفعل؛ تذكّر هذا يا حقير، واعلم أنّي إذ أغفر لك هذه المرّة أيضًا، فإنّما أخدم مشيئةَ الربّ!

قال كادروس وقد تورّم بدنه كلّه: - أوف!

- خُذ ذاك اليراع وتلك الورقة، واكتب ما سوف أمليه عليك.

- لا أعرف الكتابة يا سيّدي الرّاهب!

- أنت تكذب، خُذ اليراع واكتب!

مرعوبًا من قوّة الأب بوزوني الخارقة، جلس كادروس وكتب:

«سيّدي، إنّ الرّجل الذي أدخلتَه دارك، ونويت أن تزوّجه ابنتك، ما هو إلا سجينٌ هرب معي من الأشغال الشّاقة بسجن تولون؛ كان رقمه 59، وأنا رقمي 58. واسمه بينيديتو؛ غير أنّه هو نفسه يجهل اسمه الحقيقي، إذ لم يَعرف له قطّ أبًا».

واصل الكونت: - وقّع!

- لكنّك تسعى في ضياعي يا سيّدي!

- يا غبيّ، لو أنّني أسعى في ضياعك لسلّمتك إلى أوّل حرس نصادفهم. ثمّ إنّ الرّاجح هو أنّه ما إن تصل هذه الرّسالة إلى وجهتها، حتّى تتحلّل أنت من كلّ مسؤولية؛ هيّا وقّع.

العنوان: إلى السيّد البارون دانغلار، المصرفيّ، شارع لا شوسيه-دانتان.

كتب كادروس العنوان.

أخذ منه الأبُ الورقة.

قال: - الآن، انصرف!

-من أين؟

- من حيث أتيتَ.

- تريدني أن أخرج من هذه النّافذة؟

- ألم تدخل منها؟

- هل تدبّر لي أمرًا يا سيّدي الرّاهب؟
- يا غبيّ، ماذا تتوقّع أنّي مدبّرٌ؟
- لمَ لا تفتح لي البابَ إذًا؟
- ولمَ نوقظ البوّابَ؟
- سيّدي الكونت، قُل لي إنّك لا تسعى في موتي.
- أريدُ أن تتحقّق مشيئةُ الربّ.
- أقسم لي أنّك لن تضربني بينما أنزلُ.
- ما أحمقك وأجبنك!
- ماذا تريد أن تفعل بي يا سيّدي؟
- هذا سؤال أسألك أنا إيّاه. لقد حاولت أن أصنع منك رجلًا سعيدًا، لكنّني لم أجعل منك إلا قاتلًا!

قال كادروس: - سيّدي الرّاهب، جرّبني آخرَ مرّةٍ.

قال الكونت: - حسنًا، فليكن. اسمع، أنت تعرفني رجلًا مخلصًا لكلمته؟

قال كادروس: - نعم.

- إن عُدت إلى بيتك سالمًا معافى...
- ومن ذا الذي قد أخشاهُ غيرك؟
- إن عدت إلى بيتك سالمًا معافى، اترك باريس، واترك فرنسا، وحيثُما كنتَ، ما دمتَ تتصرّف بنزاهةٍ، فسوف أخصّص لك معاشًا صغيرًا؛ لأنّك إن عدتَ إلى بيتك سالمًا معافى، فإنّي...

سأل كادروس مرتعدًا: - فإنّك؟

- فإنّي أظنُّ أنّ الرّب سيكون قد غفر لك، وأنا أيضًا سأغفر لك.

تمتم كادروس وهو يتراجع إلى الخلف: - الحقّ أنّك تخيفني أنا المسيحيُّ المؤمن!

قال الكونت وهو يشير بإصبعه إلى النّافذة: - هيّا، انصرف!

غير مطمئنٍ إلى وعد الكونت، خطا كادروس من النّافذة ووضع قدمه على السلّم. وهناك توقّف مرتجفًا.

قال الرّاهبُ شابكًا ذراعيه: - والآن، انزل.

بدأ كادروس يدرك أنّ من الجانب الآخر للنّافذة ليس ثمّة ما يتهدّده، فنزل. وإذّاك اقترب الكونت وفي يده الشّمعة، بحيث يستطيع النّاظر من الشانزيليزيه أن يميّز الرّجل النّازل من النّافذة وبقربه رجلٌ آخر ينير له الطّريق.

قال كادروس: - ما الذي تفعله يا سيّدي الرّاهب؟ ماذا لو مرَّت دوريةٌ...

نفخ على الشّمعة، ثمّ واصل النّزول؛ على أنّه لم يطمئنّ كلّ الاطمئنان إلا حينَ وطئت قدماه أرض الحديقة.

دخل مونت كريستو إلى غرفة نومه، وألقى نظرةً خاطفةً مسح بها من الحديقة إلى الشّارع، فرأى أوّلًا كادروس الذي بعدما نزل إلى الحديقة، انعطف في سيره، وقصد طرف السّور الذي يضع فيه السلّم، بحيث يخرج من موضع غير ذاك الذي دخل منه. ثمّ إذ نقل الكونت بصره من الحديقة إلى الشّارع، لمح الرّجل المنتظر بالخارج، يركض بالتّوازي في الشّارع، بحيث يتموضع مقابل الموضع نفسه الذي يفترض أن ينزل منه كادروس.

ارتقى كادروس السلّم ببطءٍ، ولما بلغ أعلى درجاته، رفع رأسَه يستكشف المكان، ويطمئنُّ إلى خلوّ الشّارع.

وكان الشّارع بالفعل قفرًا، فلا شخص يُرى، ولا صوت يُسمع. دقّت السّاعة بحيّ أنفاليد معلنةً الواحدةَ.

وصعد كادروس الجدارَ وجلس عليه مدلّيًا قدميه، كلّ قدم من جانب، كأنما يركب حصانًا، ورفع سُلّمَه من فوق السّور، ثمّ همّ بالنّزول، أو بالأحرى همّ بالانزلاق على الدّعامتين، وذاك شغلٌ ينجزُه بسدادٍ يشهد على دربته في القيام بأعمال مماثلة.

لكن ما إن انطلق منزلقًا حتّى لم يعد بإمكانه التوقّف. ورأى على نحوٍ مبهم رجلًا ينطلق في الظّلام في اللّحظة التي كان ما يزال فيها هو عندَ منتصف الطّريق؛ رأى على نحوٍ مبهَم ذراعًا ترتفع في اللّحظة التي مسّت فيها قدَمه هو الأرضَ؛ وقبل أنْ يستطيع اتّخاذ وضع الدّفاع، ضربته اليد في ظهره ضربةً ضاريةً، حتّى أفلت السلّم صائحًا: «النّجدة!».

وفي الحالِ عالجته ضربةٌ أخرى في جناحه تقريبًا، فهوى صائحًا: «إلى القاتل!».

ثمّ، في نهاية المطاف، وإذ تدحرج على الأرض، أمسك به خصمُه من شعرِه، وعالجه بضربةٍ ثالثة في الصّدر. وهذه المرّة أيضًا حاول كادروس أن يصرخ، لكنّه لم يستطع أن يطلق أكثر من أنّةٍ، ومع أنينه سالت ثلاث جداول دم من جروحه الثلاثة.

وإذ رأى القاتلُ أنّ كادروس قد عدم الصّراخَ، رفع رأسه من شعره؛ فرأى عينيه مغمضتين وفمه متصلّبًا. قدّرَ القاتلُ موتَ القتيل، فأرخى الرّأس من قبضته واختفى.

ثمّ إنّ كادروس إذ أحسَّ ابتعادَ المهاجمِ، استند إلى مرفقه، وبصوتٍ ينازعُ صاح بجهدٍ جهيدٍ:

- إلى القاتل! إنّي أموت! إليَّ يا سيّدي الرّاهب! إليّ!

اخترقت الصّيحة المفزعة ظلام اللّيل. انفتحِ باب الدّرج الخلفيّ، ثمّ باب الحديقة الصّغير، وركض عليٌّ وسيّده حاملَيْن قناديل.

83

يد الرّب

واصل كادروس الصياح بصوت شاكٍ:

- سيّدي الراهب النّجدة! النجدة!

سأله مونت كريستو: - ماذا جرى؟

- النجدة لقد اغتالوني!

- ها نحن هنا! اهدأ.

- آه! فات الأوان. لقد أتيتَ متأخرًا؛ وصلت لتشهد ساعة موتي. انظرقوة الضربات! انظرإلى الدماء!

ثمّ أغمي عليه.حمل عليٌّ وسيّده المصاب إلى غرفة. وهناك أشار مونت كريستو لعليٍّ أنّ ينزع عنه ثيابَه، وفحص الضربات الثلاث القوية التي أصابته.

قال: - إلهي، إنّ انتقامك أحيانًا يمهلُ؛ لكن حين ينزل من السّماء، ينزل كاملًا.

نظر عليّ إلى سيّده كأنّما يسأله ما العمل.

- اذهب في طلب وكيل الملك، فيلفور، الذي يسكن حيّ سان أونوريه، وائتِ به إلى هنا. وفي طريقك أيقظ البوّاب وقُل له أن يذهب فيُحضر طبيبًا.

أطاع علي الأمر، وترك الراهب المزعوم مع كادروس الذي كان لا يزال مغشيًا عليه. وحين استعاد وعيه كان الكونت جالسًا على بعد خطواتٍ منه، يراقبه بتعبير شفقة كئيب، وشفتاه الرّاجفتان تبدوان تهمسان بصلاة.

قال كادروس: - جرّاح يا سيّدي الرّاهب، جرّاح!

أجابه الرّاهب: - أرسلنا في طلب واحدٍ.

- أعلم أنّه لن يجدي نفعًا وينقذ حياتي، ولكنّه قد يؤخر موتي، فيمكّنني من أن أبلّغ.

- عمّن؟

- عن قاتلي.

- تعرف إذًا من يكون؟

-أعرفه؟ طبعًا! إنّه بينيديتو.

- الفتى الكورسيكي؟

- هو بعينه.

- أهو صاحبك؟

- نعم. بعدما رسم لي تصميم بيت الكونت آملًا في أن أقتله، فيرثه، أو يقتلني فيتخلّص هو مني، انتظرني في الشارع واغتالني.

- في الوقت نفسه الذي أرسلت فيه في طلب طبيب، أرسلت أيضًا في طلب وكيل الملك.

قال كادروس: -سيصل بعد فوات الأوان، أحسّ دمي على وشك النّفاد.

قال مونت كريستو: - انتظر!

ثمّ خرج، وعاد بعد دقائق يحمل قارورة. وفي غيابه لم تفارق عينا المحتضر المرعوبتان الجاحظتان، البابَ الذي كان يحدس بغريزته أنّ الغوث سيأتيه منه.

- أسرع يا سيّدي الرّاهب، أسرع! أشعر بأنّي على وشك أن يُغمى عليّ مرّة أخرى.

دنا مونت كريستو من المصاب، وأفرغ على شفتيه المزرقّتين ثلاث قطرات أو أربعًا من السائل الذي كانت تحويه القارورة.

أطلق كادروس زفرةً، وقال: - أوه! إنّها الحياة هذه التي تصبّها فيَّ؛ زدني... زدني...

أجابه الرّاهب: - قطرتان أخريان ويكون هلاكك.

- أوه! ليأتِ إذًا من أستطيع أن أعترف أمامه على المجرم.

- هل تودّ أن أكتب بلاغك، فتوقّعه بنفسك؟

أجاب كادروس وعيناه تبرقان من فكرة هذا الانتقام البعديّ:

-أجل... أجل...

كتب مونت كريستو:

«**قتلني بينيديتو الكورسيكيّ، رفيق سجني بتولون، الحامل رقم 59**».

قال كادروس: - عجّل، عجّل، وإلا لن أستطيع التوقيع.

قدّم مونت كريستو لكادروس اليراعَ، فاستجمع المصاب قواه ووقّع ثمّ تهاوى على السّرير قائلًا:

- سوف تتكلّف أنت بما تبقّى، يا سيّدي الرّاهب؛ ستقول إنّه اتّخذ لنفسه اسم أندريا كافالكانتي، وإنّه ينزل بفندق الأمراء، وإنّه... آه! آه! يا إلهي! يا إلهي! إنّي أموت!

ثمّ أغمي على كادروس مرّة أخرى. جعله الرّاهب يشمّ رائحة القارورة، ففتح عينيه مرّة أخرى. ولم تبارحه الرغبة في الانتقام أثناء إغمائه.

- آه! ستكتب كلّ ذلك يا سيّدي الرّاهب، أليس كذلك؟

- بلى، سأقول ذلك، وأكثر.

- ماذا ستقول؟

- سأقول: لا ريب في أنّه قد بيّن لك تصميم البيت راجيًا أن يقتلك الكونت. سأقول إنّه قد نبّه الكونت في خطاب أرسله إليه؛ وسأقول إنّه في غياب الكونت أنا من استلم الخطاب وجئتُ أنتظرك.

- وسيُساقُ إلى المقصلة، هل تعدني أنّه سيُساق إلى المقصلة! لا رجاء لي غير هذا، وإنّه لرجاء يعينني في موتي.

واصل الكونت: -سأقول إنّه أتى خلفك، وظلّ يتربّصك طيلة الوقت؛ وحين رآك تخرج كَمنَ لك عند ركن السّور. تذكّر كلامي: إن عُدتَ إلى بيتك سالمًا معافى، فظنّي أنّ الربّ قد غفر لك، ومثله أنا أيضًا قد غفرتُ.

صاح كادروس وهو يحاول القيام مستندًا إلى ذراعه: -وأنت قد رأيت كل هذا، ولم تنبّهني؟ كنت تعرف أنّني سأموت إن خرجت من هنا، ولم تنبّهني!

- كلّا، لأنّي كنت أرى عدالة الربّ تتحقّق على يد بينيديتو، وحسبت أنّي سأرتكب إثمًا إن اعترضت القدر.

- عدالة الربّ! لا تكلّمني عن عدالة الرّب يا سيّدي الرّاهب. أيّ عدالة ربٍّ وأنت الأعلمُ بأنّ ثمّة أناسًا يستحقون العقاب، وما نزل بهم عقاب!

قال الرّاهب بنبرةٍ رجف لها المحتضر: - صبرًا، صبرًا!

نظر إليه كادروس بدهشةٍ.

أضاف الأب بوزوني: - ثمّ إنّ رحمة الربّ وسعت الجميعَ، مثلما وسعتك أنت أيضًا؛ هو أبونا قبل أن يكون قاضينا.

قال كادروس: - آه! أنت إذًا تؤمن بالربّ؟

قال مونت كريستو: - إن لم أومن به قبل الآن، فسوف أومن وأنا أنظر إليك.

رفع كادروس قبضتيه المتصلّبتين إلى السّماء.

قال الأب وهو يبسط يده إلى المصاب، كأنّما يلقّنه الأسرار: - أصغِ إليّ، ها ما صيّرك عليه الرّبُ الذي ترفض الإيمان به في ساعتك الأخيرةَ. لقد وهبك الربُّ الصّحة، والقوّة، وعملًا مضمونًا، لا بل منحك أصدقاء، أي وهبك الحياة الجديرة بأن تجعل الإنسانَ يعيش بضمير هانئ مرتاح، وحاجاتٍ مُرضية؛ وبدلًا من أن تسخّرَ أمثل تسخير هذه النّعم الّتي قلّما يجود بها الربّ مجتمعةً؛ إليكَ ما فعلتَ: اخترتَ الكسلَ، ومعاقرة الخمر، وأثناء معاقرة الخمر خُنتَ صديقًا من أعزّ أصدقائك.

صاح كادروس: - النّجدة! لست بحاجةٍ إلى قسّ، وإنّما أنا بحاجة إلى طبيب، فلعلّ جروحي ليست مميتةً، وقد لا أموتُ، قد أُنقَذ.

- كلّا، لقد أصبت في مقتل، لدرجة أنّه لولا قطرات الشّراب الثلاث التي صببتها في فمك من قبل، لكنتَ الآن هالكًا. فاسمع!

غمغم كادروس: - أوه! ما أغربك من قسّ! قسٌّ ييئِّسُ المحتضرين بدلًا من تسليَتهم.

واصل الأب الكلام: - اسمع؛ حين خُنتَ صديقك، لم يبدأ الربّ بعقابك، وإنّما بإنذارك؛ أصابك البؤس ومسّك الجوع؛ قضيت نصف حياتك في الحسد بدلًا من أن تقضيها في السّعي، وبدأت مُذّاك تفكّر في الجريمة، متعلّلًا بضيق الحال؛ وإذا بالربّ يسخّر لك معجزةً، ويرسل إليك ثروةً في عزّ شقائك، ثروةً هائلةً بالنّسبة إليك أنت البائس الذي لم تملك قطّ شيئًا. لكن ما إن حُزت الثروةَ غير المتوقَّعة حتّى صغُرَتْ في نفسك، صارت غير كافية، فأردت أن تضاعفها: وكيف؟ عن طريق القتل. وضاعفتها، لكنّ الربّ سلبك إيّاها، وساقك إلى عدالة البشر.

قال كادروس: - لست أنا من أراد قتل اليهوديّ، وإنّما الكاركونتية.

قال مونت كريستو: - نعم. لذلك فإنّ الربّ هذه المرّة أيضًا حاكمك، لا أقول بعدلٍ، لأنّ العدل أن تموت بفعلتك، وإنّما حاكمك برحمته، فألقى الشّفقةَ في قلوب قضاتك، فعفوا عن حياتك.

- اللعنة! عفوا عن حياتي، لكي يرسلوني إلى سجن الأشغال الشّاقة المؤبّدة: نِعم العفو!

- لكنّ هذا العفو البائس، لمّا نُطق أسعدكَ. إنّ قلبك الجبان عن الموت، رقص فرحًا حين حُكم عليك بالمؤبّد، لأنّك قلتَ ما يقولُه كلّ محكوم بالأشغال الشّاقة: إنّ للسّجن بابًا، لكنّ القبر لا باب له. وكنت مُحقًّا، لأنّ باب الحبس فُتح أمامك بطريقٍ ما كنت ترجوها. زار سجن تولون إنجليزيٌّ كان قد نذر أن يخلّص رجلَين من الشّقاء: ووقع اختياره

عليك وصاحبك؛ وها حظٌّ ثانٍ ينزل عليك من السّماء، فوجدت الحريّة والهناءة؛ وصار بوسعك أن تعيش حياة النّاس، بعدما كنت تعيش حياة المحكومين بالأشغال الشّاقة؛ لكن، ها أنت ذا أيّها الشّقي، تعود إلى مناوشة الربّ مرّةً ثالثة. قلت لنفسك: «ليس عندي ما يكفي» في حين كنت تملك أكثر ممّا ملكت طيلة حياتك؛ فارتكبت جريمةً ثالثةً، جريمةً لا داعيَ لها، ولا مبرّر؛ أعييت الرّبَ صبرًا، فأنزل بك عقابَه.

كان واضحًا على كادروس الوهن.

قال: – ماء؛ أنا عطشان... أحترق!

أعطاه الكونت مونت كريستو كأس ماء.

قال كادروس وهو يعيد إلى الرّاهب كأس الماء: – الوغد بينيديتو، هو سينجو!

– لا أحد سينجو، أؤكّد لك يا كادروس... إنّ بينيديتو سيعاقب!

قال كادروس: – في هذه الحال، أنت أيضًا سوف تُعاقبُ، لأنّك لم تقم بواجبك كقسّ؛ لم تمنع بينيديتو من قتلي!

قال الكونت وعلى شفتيه ابتسامةٌ جمّدت المحتضر من الرّعب: – أنا! أنا أمنع بينيديتو من قتلك، بعد أن غرزت سكّينك في التّرس الذي يغطّي صدري!.. صحيحٌ، لو أنّني ألفيتُك متواضعًا تائبًا، ربّما كنت لأمنعِ بينيديتو من قتلك، لكنّني لم أرَ فيك إلا الغطرسة والعنف، فتركت مشيئةَ الربّ تتصرَّفُ!

صاح كادروس: – أنا لا أؤمن بالربّ، ولا أنت تؤمن به... أنت تكذب... أنت تكذب!...

قال الرّاهب: – صه! إنّك بصراخك تُفرغ ما بقي في جسمك من قطرات دم. أنت لا تؤمن بالربّ، لكنّك تموت بضربةٍ من الربّ!... أنت لا تؤمن بالربّ، الربّ الذي لا يطلب سوى صلاة، سوى كلمة، سوى دمعةٍ ليغفر... الربّ الذي كان بوسعه أن يوجّه سكّينَ القاتل فيُهلكك من

فورك... الربّ الذي منحك ربع ساعةٍ تتوب فيه... عُد إلى رُشدك أيها الشقيُّ، وتُب إلى الربّ!

قال كادروس: - كلّا، لن أتوب؛ ليس ثمّة ربٌّ، ولا قدرٌ، إنّما هو الحظُّ فقط.

قال مونت كريستو: - بل إنّ الربّ حقٌّ، والقدرَ حقٌّ، والآيةُ أنّك مضطجعٌ هنا تئنُّ، يائسًا، تنكرُ وجود الربّ، وأنا واقفٌ عليك، غنيًا وسعيدًا، سليمًا معافى، شابكًا ذراعيَّ أدعو الربّ الذي ترفُض الإيمان به، وإن كنت في قرارة قلبك متيقّنًا من وجوده.

قال كادروس وهو يحدّق في الكونت بعينيه المحتضرتين: - لكن، من أنت؟

قال الكونت وهو يحمل الشّمعة، فيقرّبها من وجهه: - انظُر إليّ!

- أنت، الأبُ... الأب بوزوني...

نزعِ مونت كريستو الباروكة التي كانت تشوّه رأسه، وترك الشّعر الجميلَ ينسدلُ، الشعر الجميل الذي يؤطّر بتناغم وجهه الشّاحب.

قال كادروس مرعوبًا: - أوه! لولا أنّ شعرَك أسوَد، لقلتُ إنّك الإنجليزيّ، لقلت إنّك اللورد ويلمور.

قال مونت كريستو: - لستُ الأب بوزوني، ولا اللّورد ويلمور؛ تأمّل، دقّق النّظر، أنظر مليًا وقلّب في ذكرياتك الأولى.

كان في كلام الكونت هزةٌ ممغنطة جعلت حواسَ البائس المنهكة تتيقّظُ لآخر مرّة.

قال: - أوه! بالفعل، يبدو لي أنّي رأيتك من قبل، وعرفتك فيما مضى.

- أجل يا كادروس، لقد رأيتني وعرفتني.

- من أنت إذًا؟ وما دمت قد رأيتني وعرفتني، فلمَ تتركني أموت؟

- لأنّ لا شيء يستطيع إنقاذك يا كادروس، لأنّ إصاباتك قاتلة. لو أنّني رأيتُ في جروحك ما يمكن إنقاذُه، كنت لأعتبر الأمر غفرانًا جديدًا من الربّ، ولفعلت كلّ ما في وسعي لإنقاذك؛ أقسم لك بقبر أبي.

انتعش كادروس بشرارةٍ رفيعةٍ، فتحرّك ناهضًا ليتأمّل الرّجل الذي أقسم له بالقسم الأعظم عند كلّ رجلٍ: - تقسم بقبر أبيك! من أنت؟

لم يكفّ الكونت عن متابعة سيرورة النّزع. فأدرك أنّ شرارة الحياة تلك كانت الأخيرة؛ فدنا من المحتضر، وغمره بنظرةٍ حزينةٍ وهادئة في آنٍ، هامسًا في أذنه:

- أنا... أنا...

شفتاه اللّتان بالكاد انفرجتا، أفرجتا عن اسمٍ نُطق همسًا حتّى إنّ ناطقه نفسه بدا كأنّما لم يسمعه.

كادروس، وقد قام على ركبتيه، بسط ذراعيه، وبذل مجهودًا كي يتراجع إلى الخلف، ثمّ شبك كفّيه، رفعهما بجُهدٍ جهيد.

قال: - إلهي، غفرانك يا إلهي، لأنّي أنكرت وجودَك؛ أنت حَقٌّ، وأنت أبانا حقًا، نحن البشر، في السّماءِ، وقاضينا على الأرض. إلهي، يا ربّي، لطالما جحدتُك! إلهي، يا ربّي، سامحني! إلهي، يا ربّي، تقبّلني عندك!

ثمّ إنّ كادروس أغمض عينيه، وهوى إلى الخلف مطلقًا صيحةً أخيرةً، وأنّةً أخيرة. وعلى الفور انقطع الدّم السّائل من جروحه.

ماتَ كادروس.

«واحدٌ!»، كذلك نطق الكونت بنبرةٍ غامضة، وهو يتأمّل الجسد الذي كان قد بدأ يتشوّه بفعل الميتة الرّهيبة.

وما هي إلا عشر دقائق حتّى وصل الطّبيب ووكيل الملك، وقد استدعى أحدُهُما البوابَ والثّاني استدعاه عليّ، واستقبلهُما الأب بوزوني الذي كان مستغرقًا في الصّلاة بجانب الميت.

84

بوشّان

طوالَ خمسة عشر يومًا لم يكن الحديث في باريس إلا عن محاولة السرقة الجريئة التي شهدها منزل الكونت. وكان الميت قد وقّع ساعة احتضاره بلاغًا يدين بينيديتو بقتله.

أطلقت الشرطة رجالها كلّهم في إثر القاتل. ووضعت في مكتب التحقيقات كلّ القرائن المرتبطة بالجريمة: سكّين كادروس، المصباح المكتوم، حلقة المفاتيح، والملابس باستثناء الصدرية التي لم يُعثر عليها؛ ونُقلت الجثّة إلى المشرحة.

وكان الكونت يجيب الجميع بأنّ الحوادث وقعت أثناء تواجده بمنزله في أوتوي، وأنّه بالتالي لا يعرف إلا ما أخبرَه به الأب بوزوني الذي كان، محض صدفةٍ، قد طلب منه ذلك اليوم أن يسمح له بالمبيت عنده ليبحث في بعض نفائس الكتب ممّاتحويه مكتبتُه.

برتوتشو وحده كان يشحب كلّما أتى على الألسن ذكر بينيديتو، لكن لم يكن لأحد من سبب لينتبه إلى شحوبه.

استُدعي فيلفور لمعاينة الجريمة، فادّعى في القضية، وقاد التحقيق بالضراوة المعتادة فيه في جميع القضايا التي يترافع فيها. لكنّ ثلاثة أسابيع انقضت من غير أن تؤدّي الأبحاث المكثفة إلى أي نتيجة، وبدأ النّاس ينسون محاولة السرقة التي تعرّض لها منزل الكونت، ومقتل اللّصّ على يد شريكه؛ وأخلى الحادثُ مكانه ضمن اهتمامات النّاس إلى الزواج المرتقب بين الآنسة دانغلار والكونت أندريا كافالكانتي. وكان هذا الزواج شبه معلَنٍ عنه، إذ غدا الشّابُّ يُستقبَلُ في بيت المصرفيّ باعتباره خطيبًا.

وقد كتبوا إلى السيّد كافالكانتي الأب، فأيّد الزواج كلّ تأييد، واعتذر مبديًا أسفه لأنّ خدمته تلزمه بألّا يترك بارما، لكنّه أعلن عن نيّته تخصيص ابنه بعد الزواج برأسمال يدرّ عائدات قدرُها مائة وخمسون ألف جنيه. واتُفق على أن يودع الرأسمال المقدَّر بثلاثة ملايين عند دانغلار الذي سينمّيه؛ وقد حاول بعض النّاس التّشكيك لدى الشّاب في صلابة وضع حميه الذي ما فتئ، منذ فترة لا بأس بها، يخسر في البورصة خسارات متكرّرة؛ لكنّ الشّابَ بلامبالاة وثقة كبيرتين دفع كلّ تلك الأباطيل، وترفّع عن ذكر أيٍّ منها للبارون.

لذا كان البارون يحبُّ الكونت أندريا كافالكانتي. لكن لم تكن تلك حالُ الآنسة يوجيني دانغلار. فبسبب نفورها الغريزيّ من الزّواج، كانت الشّابة قد وجدت في أندريا وسيلةً تُبعد عنها ألبير مورسيرف، لكن الآن وقد صار زواجها من أندريا حقيقةً وشيكةً، فقد صارت تشعر تجاه الشّاب بنفورٍ جليّ.

وربّما انتبه البارون إلى الأمر؛ لكن بما أنّه لم يكن يرى في ذاك النّفور إلا نزوةً من نزوات ابنته، فقد تظاهر بأنّه لم يلمح شيئًا.

وأثناء ذلك كانت قد انقضت المهلة التي طلبها بوشان. وكان مورسيرف قد وقف بنفسه على قيمة النّصيحة التي أسداها له الكونت مونت كريستو، أي أن يترك الأمور تمضي من تلقاء نفسها؛ إذ لم ينتبه أحدٌ إلى الخبر الذي يلمّح إلى الجنرال، ولا اهتمّ أحدٌ بأن يربط بين الضّابط الذي سلّمَ حصن يوانينا، والنّبيلِ عضوِ مجلس الضّباط.

ومع ذلك لم يَخِفّ إحساسُ ألبير بالمهانة، إذ إنّ نيّة الإساءة كانت ثابتة في تلك الأسطر التي أهانته. عدا عن أنّ الطّريقة التي أنهى بها بوشان النّقاش قد تركت في قلبه ذكرى مريرة. لذا ما انفكّ يقلّب في ذهنه فكرة النّزال الذي كان يريد أن يدّعي له سببًا آخر غير السّبب الحقيقيّ، فيخفي الحقيقة حتّى عن شهود النّزال إن قبِل بوشان.

أمّا بوشان فلم يظهر له أثر منذ الزّيارة التي خصَّه بها ألبير؛ وكلّ من يسألُ عن سبب غيابه، يجابُ بأنّه قد سافر أيّامًا.

أين كان؟ لا أحد يدري.

وذات صباح أيقظَ ألبير خادمُه، وأعلمه بأنّ السيّد بوشان ينتظره.

فركَ ألبير عينيه، وأمر بأن يقادَ السيّد بوشان إلى صالون التّدخين في الطّابق السفليّ، وارتدى ملابسه على عجلٍ، ثمّ نزل.

وجدَ بوشان يذرع الغرفة طولًا وعرضًا، ولمّا وقع نظر بوشان عليه توقّف.

قال ألبير: - إنّ الزّيارة التي تخصّني بها اليوم، من دون أن تنتظر زيارتي التي كنت أنوي أن أخصّك بها اليومَ أيضًا، تبدو لي بشارة خير. هيّا، هات ما عندك. هل سأمدّ لك يدي قائلًا: «هل ستعترف بخطأك يا بوشان، وتحفظُ صديقًا؟»، أم أقول: «أيّ الأسلحة اخترت؟».

قال بوشان بحزنٍ أصاب الشّاب بالذّهول: - ألبير، لنجلس أوّلًا، ثمّ نتحدّث.

- يبدو لي يا سيّدي أنّ لا حاجة بنا إلى الجلوس، إنّما قُل ما عندك، هات جوابك.

قال الصّحافيّ: - إنّ من الملابسات يا ألبير ما تكون الصّعوبة فيها تحديدًا في الجوابِ.

- سوف أسهّلَ عليك الأمر يا سيّدي، وأكرّر طلبي: هل تنوي أن تتراجع، نعم أم لا؟

- لا يمكن أن نكتفي بالجواب نعم أو لا، يا مورسيرف، حين يتعلّق الأمر بشرف الجنرال الكونت عضو مجلس الضّباط الأقران السيّد دو مورسيرف، ومكانته الاجتماعية وحياته.

- وماذا نفعل إذًا؟

- نفعل ما فعلتُه أنا يا ألبير؛ نقول: إنّ المال والوقت والتّعب لا تعني شيئًا حين يتعلّق الأمر بسمعةِ ومصالح عائلةٍ بأكملها؛ نقول: إنّه لا يكفي

البناء على احتمالات، وإنّما ينبغي حيازة يقينٍ قبل أن نقبل نزالًا مع صديقٍ. نقول: إنّه لكي أشهر سيفي، أو أضغطَ على زناد مسدّسي، في وجه رجلٍ طيلةَ ثلاث سنواتٍ وأنا أصافحه، ينبغي أن أعرف على الأقل لمَ أفعل ذلك، لكي أصل ساحة النّزال بقلبٍ سليم وضميرٍ مرتاحٍ، وهما خير سلاحٍ يتسلّحُ بهما الرّجل حين يكون مَصيره مَعلّقًا بذراعه.

قال مورسيرف نافد الصّبر: - طيّب، ماذا يعني هذا؟

- هذا يعني أنّني عائدٌ من يوانينا.

- من يوانينا؟ أنت!

- أجل، أنا.

- مستحيل.

- عزيزي ألبير، ها جواز سفري؛ جنيف، ميلان، البندقية، تريستي، دلفينو، يوانينا. هل تصدّق شرطةَ جمهورية، ومملكة، وإمبراطورية؟

ألقى ألبير نظرةً على جواز السّفر، ثمّ رفعهما إلى بوشان مذهولًا.

سأله: - هل كنت في يوانينا؟

- ألبير، تعلم أنّك لو كنت غريبًا، مجهولًا، شأن ذاك الإنجليزي الذي أتاني منذ ثلاثة أشهر أو أربعة يطلب اعتذارًا، فقتلته في نزالٍ لأتخلّص من إزعاجه؛ لو كنتَ كذلك لما أخذت على نفسي عناء القيام بكلّ هذا الجهد؛ لكنّني رأيتُ أنّك تستحقُّ منّي هذا التّقدير. أنفقت ثمانية أيّام في الذّهاب ومثلها في العودة، بالإضافة إلى أربعة أيّام في الحجر الصحّيّ، وثمانٍ وأربعين ساعةً في البحث، تلكم كانت أسابيعي الثلاثة. وقد وصلت اللّيلةَ، وها أناذا.

- إلهي! لمَ كلّ هذا الإطناب يا بوشان، هيّا أفصح بما أنتظره!

- الحقّ يا ألبير...

- يبدو أنّك متردّد.

- أجل، أنا خائف.

- تخشى الاعتراف بأنّ مراسلك قد خدعك؟ أوه! لا شيء سينتقص منك يا بوشان؛ لن نضع شجاعتك محلّ شكّ.

غمغم الصحافيّ: - أوه! ليست هذه القضيةَ؛ بالعكس...

شحب ألبير شحوبًا مرعبًا. حاول أن يتكلّم، لكن الكلمات ماتت في شفتيه.

قال بوشان بألطف نبرةٍ: - صديقي، ثقِ بأنّي كنت لأقدّم لك اعتذاري عن طيب خاطر، لكن للأسف...

- لكن، ماذاً؟

- المراسلة كانت صحيحةً يا صديقي.

- كيف! هل الضّابط الفرنسيّ...

- نعم.

- هذا المدعو فرنان؟

- نعم.

- الخائن الذي سلّم حصون الرّجل الذي كان في خدمته...

- سامحني إذ أقول لك ما أقوله يا صديقي: ذاك الرّجل هو والدك!

ندّت عن ألبير حركةٌ غاضبة كاد ينقضّ بها على بوشان؛ لكن الصحافيّ أوقفه بنظرته العذبة أكثر ممّا فعل بيده المبسوطة.

قال وهو يخرج من جيبه ورقةً: - هاك الدّليل يا صديقي.

فتح ألبير الورقة؛ كانت شهادةً موقّعةً من طرف أربعة رجالٍ من سكّان يوانينا البارزين، يشهدون بأنّ الكولونيل فرنان مونديغو الذي كان في خدمة الوزير علي ألباني، قد سلّم قلعة يوانينا مقابل ألفَي صرّة ذهبية. وكانت التوقيعات مختومةً بختم المصادقة من طرف القنصل.

هوى ألبير منهارًا على أريكة. لم يكن ثمّة مجالٌ للشكّ هذه المرّة، إنّ الاسم العائليّ مكتوبٌ بكامل حروفه. لذا، بعد لحظة صمتٍ أخرسَ موجع، انقبض قلبه، وتهدّجت أوردتُه، ثمّ فاض من عينيه شلالُ دموع.

بوشان، بعدما تأمّل بعميقِ الشّفقةِ الشّابَ الذي طوّقته نوبةُ الوجَع،

دنا منه قائلًا: - عزيزي ألبير، تفهمني الآن، أليس كذلك؟ لقد أردت أن أقف على الأمر بنفسي، أن أعرف كلّ شيء، راجيًا أن تكون نتيجةُ أبحاثي في مصلحة والدك، وأن أُنصفَه وأبرئ ساحته. لكن المعلومات جاءت عكس المأمول، فكان الضّابط الرّقيب، المدعو فرنان مونديغو، الذي اتّخذه علي باشا ألباني في خدمته ورفّعه إلى درجة جنرال حاكم، هو الكونت فرنان دو مورسيرف. لذا عدتُ وفي نفسي الشّرفُ الذي خصصتني به بصداقتك، وهرعتُ إليك.

وكان ألبير لا يزال ممدَّدًا على الأريكة، واضعًا يديه على عينيه كأنّما يحاول أن يمنع ضوء النّهار من الوصول إليهما.

واصل بوشان: - هرعت إليك لكي أقول لك: إنّ ما ارتكبه آباؤنا من أخطاء، يا ألبير، أيّام القلاقل وما شهدَته من فعلٍ وردّ فعل، لا يمكن أن تطال الأبناء. قلائلُ فقط عبروا الثورات التي ولدْنا في كنفها، من غير أن تدنّس بقعةُ وحلٍ أو قطرة دم بدلتَهم العسكريّة أو زيّهم القضائيّ. ألبير، الآن، وقد صرتُ أملك الأدلّة كلّها، وصرت أمينَ سرّك، لا أحد يستطيع أن يجبرني على نزالٍ لا شكّ عندي في أنّ ضميرك يُنزلُه منزلةَ الجريمة؛ لكن، ما لا تستطيع أن تطالبني به، أنا أتيت أعرضُه عليك. هذه الأدلة والاعترافات والشّهادات التي أملكها وحدي، هل تريدُها أن تختفي؟ هل تريد أن يظلَّ السرّ الرهيب حبيسنا أنا وأنت فقط؟ ثِق بشرفي، لن يخرج السرُّ أبدًا من فمي يا صديقي؛ قُل، هل تريد ذلك يا ألبير؟ هل تريدُه؟

ارتمى ألبير على عنق بوشان يعانقه، صائحًا:

- آه! أيّها القلبُ النّبيل!

أجابه بوشان وهو يمدّ إليه الأوراق: - هاك.

أمسك ألبير الأوراق بيدٍ مرتعشة، وخنقها بقبضته، وجعّدها، وأراد أن يمزّقها، لكنّه خشي أن تحمل الرّيح مزقةً منها، ثمّ تعيدها إليه ذات يوم في شكل صفعة؛ فقصد الشمعة التي كانت موقدةً لأجل السّيجار، وقالَ هامسًا وهو يحرقها حتّى آخر نتفة منها: - صديقي، صديقي الرّائع!

قال بوشان: - فلننسَ كلّ هذا كما ننسى حلمًا مزعجًا؛ ليمّح كلّ هذا مثلما يتبدّد هذا الشّرر الأخير مجتاحًا الورقة التي أحالتها النّارُ رمادًا؛ ليتبدّد كلّ شيءٍ كما يتبدّد هذا الدّخان الأخير الطّالع من الرّماد الأخرس.

قال ألبير: - نعم، نعم، ولتبقَ فقط الصّداقةُ الأبدية التي أدين بها إلى مخلّصي، صداقةٌ سيحملُها مني أبنائي إلى أبنائك. صداقةٌ تذكّرني أبدًا بأنّ الدّم الذي يجري في عروقي، الحياة التي تسري في جسدي، والشرف الذي يزيّنُ اسمي، إنّما أدين بها إليك؛ إذ لو أنّ شيئًا كهذا عُرِف، آه! فإنّي أعلمك يا بوشان بأنّني سأطلق النّار على رأسي؛ أو، رأفةً بأمّي التي لا بدّ أن تقتُلها الطّلقةُ نفسُها، سأنفي نفسي.

- عزيزي ألبير!

لكن الشّاب ما لبث أن خرج من هذا الفرح العارض، ولنقل الزّائفَ، ليهويَ مجدّدًا في غيابة الحزن.

سأله بوشان: حسنًا يا صديقي، ماذا هناك بَعدُ؟

- هناك... أنّ شيئًا انكسرَ في قلبي. أنصت إليّ يا بوشان، إنَّ المرء لا ينقلب عنده بين عشيّة وضحاها كلّ الاحترام والثّقة والكبرياء التي يوحي بها عندَه اسمُ والده الرّفيعُ عن أيّ نقيصةٍ. آه يا بوشان! بأيّ وجهٍ سأقابل والدي بعد اليوم؟ هل سأشيح بجبيني عن شفتيه، وبيدي عن يده؟ أنا اليوم أتعسُ النّاس يا بوشان! وأمّي... (واصل وهو ينظر إلى بورتريه والدته عبر لجّة الدّموع التي تغشاهما) آه لو علِمْت بكلّ هذا يا أمّي! أيّ حُزنٍ كنت لتحزني!

قال بوشان وهو يحضن يدَيّ صديقه: - تجمّل يا صاحبي!

صاح ألبير: - لكن، من أين أتت المراسلة الأولى التي دُسَّت في جريدتك، لا بدّ أنّ وراء الأمر قصّةً، ووراءه كراهية مجهولة، وعدوٌّ خفيٌّ.

قال بوشان: - وهذا سبب إضافيّ. تجمّل يا صاحبي! لا تسمح لوجهك بأن يعكس أثرًا من انفعالٍ أو عاطفةٍ؛ احمل هذا الوجع كما تحمل الغمامة في جوفها الخرابَ والموتَ، ولا تُفصح عنهما إلا متى انطلقت العاصفة. هيّا يا صديقي، احتفظ بقواك إلى حين انطلاق العاصفة من عقالها.

قال ألبير مرعوبًا: - لكن، هل تظنُّ أنّنا لم ننته من الأمر بعد؟
- أنا، لا أظنُّ شيئًا يا صديقي؛ لكن كلّ شيءٍ واردٌ. بالمناسبة...
وإذ رأى ألبير تردّد صديقه، بادرَه: - ماذا؟
- هل ما زلت عازمًا على الزّواج من الآنسة دانغلار؟
- ما الدّاعي إلى هذا السّؤال في مثل هذه الملابسات يا صديقي؟
- لأنّ ذهني يربط تلقائيًا بين إيقاف هذا الزّواج أو إكماله، وبين الملابسات التي تجمعنا الآن.
قال ألبير وقد التهب جبينُه: - كيف! هل تظنُّ السيّد دانغلار...
- إنّما أسألك فقط أين وصل مشروع زواجك. اللعنة! لا تبحث في كلامي عما لم أقُلهُ، لا تحمّله ما لا يحتمِل!
قال ألبير: - كلّا، مشروع الزّواج قد أُلغي.
قال بوشان: حسنًا.
ثم إذ رأى أنّ صديقه يهوي في الكآبة، أضاف:
- هيّا يا صديقي، إن أردت رأيي، فلنخرج؛ لنقم بجولة في الغابة على ظهر الحصان أو في العربة؛ ثم لنعُد، فنتغدّ في مكانٍ ما، وبعدها تنصرف أنت إلى أشغالك وأنا إلى أشغالي.
قال ألبير: - بكلّ سرور؛ لكن لنذهب مشيًا على الأقدام؛ إذ يبدو لي أنّ القليل من التّعب سيكون مفيدًا لي.
قال بوشان: - فليكن!
خرج الصّديقان معًا، وسارا مشيًا طول الشّارع. ولمّا بلغا حيّ مادلين، قال بوشان:
- ما دُمنا على طريق منزل الكونت مونت كريستو، ما رأيك في أن نقصدَه؛ لا بدّ أن يسلّيك؛ إنّه رجلٌ جديرٌ بالتّقدير، والأهمّ هو رجلٌ لا يَسألُ، ولعمري لا أقدَرَ على التسلية من النّاس الذين لا يسألون.
قال ألبير: - ليكن، هيّا نذهب عند الكونت، فأنا أحبّه.

85

السّفر

أطلق الكونت صيحة فرح حين رأى الشّابين معًا.

قال: - آه! آه! أتمنّى إذًا أنّ كلّ شيءٍ قد انتهى، سُوّيَ وطُويَ؟

أجابه بوشان: - أجل، إنّما هي إشاعاتٌ عبثية هوت من تلقاء نفسها، وإن عادت إلى الظّهور ستجدني أوّل من يتصدّى لها؛ لنقلب الصّفحة إذًا!

قال الكونت: - سيؤكّد لكِ ألبير أنّ تلك هي النّصيحة التي أسديتُها له. والآن، لقد أتيتماني وأنا أُتمُّ أفظعَ صباحٍ عشتُه في حياتي على ما أظنُّ.

قال ألبير: - ماذا تفعل؟ أرى أنّك ترتّب وثائق على ما يبدو؟

- أرتّبُ وثائقي؟ كلّا، حمدًا للربّ! إنّ وثائقي تتبع ترتيبًا مذهلًا، ما دمت لا أملك وثائقَ! إنّما أنا أرتّب وثائق كافالكانتي.

سأله بوشان: - السيّد كافالكانتي؟

أحابه مورسيرف: - نعم، ألا تدري أنّه شابٌّ يرعاه الكونت؟

أجاب الكونت: - كلّا، لنتّفق: أنا لا أرعى أحدًا، وبخاصّةٍ السيّد كافالكانتي.

- ومن ذا الذي سيتزوّج الآنسة دانغلار بدلًا منّي، وهو الأمر الذي (واصل مبتسمًا) يصيبني في مقتلٍ كما ترى يا عزيزي بوشان؟

سأله بوشان: - كيف؟ هل سيتزوّج السيّد كافالكانتي من الآنسة دانغلار؟

أجابه مونت كريستو: - كأنّك قادمٌ من آخر الدّنيا يا عزيزي بوشان؟

تسأل مثل هذا السؤال وأنت الصحافيُّ، زوج رونوميا[1]! لا حديث لباريس كلّها غير هذا الحديث.

سأله بوشان: - وأنت من دبّر هذا الزّواج يا سيّدي الكونت؟

- أنا؟ صه يا سيّدي القصّاص، لا تحكي مثل هذه الأشياء! أنا، بحقّ الربّ! أنا، أدبّرُ زواجًا؟ كلّا، أنت لا تعرفني. بالعكس، لقد وقفت بكلّ قواي ضدّ هذا الزّواج، ورفضت أن أتوسّط فيه.

قال بوشان: - آه! أتفهّمك. بسبب صديقنا ألبير؟

أجابه الشّابُّ: - بسببي أنا؟ أوه، كلّا! إنّ الكونت سيشهد لي بأنّني لطالما توسّلت أن يُلغى هذا الزّواج، ولحسن الحظّ أنّه ألغي. يدّعي الكونت أنّه ليس الجدير بشكري؛ فليكُن، سأرفع، على عادة القدامى، قربانًا لإلهٍ مجهول.

قال مونت كريستو: - أصغ إليَّ إنّني غير متحمّس لهذا الزّواج لدرجة أنّ علاقتي بالصهر وحميه غدَت في حالٍ من الفتّور؛ ووحدها الآنسة يوجيني التي لا تبدو لي متحمّسةً لهذا الزّواج، لا تزال تمحضني مودّةً، إذ ترى أنّني أميل إلى ما يحفظ لها حريّتها.

- وتقول إنّ هذا الزّواج يوشك أن يتمّ.

- أوه! يا إلهي! نعم، على الرّغم من كلّ ما قلتُه. أنا لا أعرف الشّابَ. يُقالُ إنّه غنيٌّ ومن عائلة رفيعة، لكنّ كلّ هذه الأمور لا تعدو عندي مقامَ «**يُقالُ**». أشبعتُ السيّدَ دانغلار ترديدًا لهذا الكلام، لكنّه يبدو متشبّثًا بعزيزه اللّوكاويّ. لا بل إنّني بلغتُ حدَّ أن نبّهته إلى أمر يبدو لي أخطر: إنّ الشّاب قد بُدِّل عند المُرضعة، أو خُطف من طرف غجرٍ، أو تاه من مربّيه، شيءٌ من هذا القبيل. لستُ متأكّدًا، لكن الأكيد أنّ أباهُ فقَدَ الاتّصال به منذ أكثر من عشر سنين؛ والرّبُّ وحدَه يعلم ما صنع الشّابُّ

---

(1) من أسماء الإلهة اليونانية فيمي (فاما عند الرّومان)، ابنة الإلهة غايا، وهي في الأساطير اليونانية ذات جسدٍ بآلاف الأفواه، تأخذ أسرار البشر ثمّ تفضحها.

أثناء سنوات تيهه العشر. والحالُ أنّ لا شيءَ من ذلك زحزح يقين السيّد دانغلار. طلب منّي أن أكاتب الرّائد كافالكانتي، وأن أطلب منه وثائقَه. هي ذي الوثائق قد وصلت. وسوف أبعث بها إليهم، لكنّني أبعث بها غاسلًا يديَّ، كما فعل بيلاطس(1).

سأله بوشان: - والآنسة دارميلي، كيف تنظر إليك وقد ساهمتَ في انتزاع تلميذتها منها؟

- اللعنة! لا أدري. لكن يبدو أنّها ذاهبةٌ إلى إيطاليا. لقد كلّمتني الآنسة دانغلار في أمرها، وطلبت منّي رسائل توصية إلى متعهّدي المسارح بإيطاليا؛ وقد أعطيتها رسالة توصية إلى مدير مسرح فالي، المدين لي ببعض الخدمات. لكن، ما الخطب يا ألبير؟ تبدو حزينًا؛ أتكون واقعًا في غرام الآنسة دانغلار؟

أجاب ألبير مبتسمًا بحزن: - ليس على حدّ علمي.

أخذ بوشان يتأمّل اللّوحات.

واصل الكونت: - لكنّك لا تبدو في أحوالك المعتادة. ما الخطب؟ هيّا قُل.

قال ألبير: - إنّه الصّداع.

- في هذه الحال يا عزيزي الفيكونت، عندي لك دواء شافٍ؛ دواء لم يخذلني مرّةً.

سأله الشّابُّ: - أيّ دواء؟

- السّفر.

- حقًّا؟

---

(1) [فلمّا رأى بيلاطس أنّه لا ينفع شيئًا، بل بالحريِّ يَحدث شغبٌ، أخذ ماءً وغسل يديه قدّام الجمْع قائلًا: «إني بريء من دم هذا البارّ! أبصِروا أنتم»]؛ إنجيل متّى؛ 27.24

- أجل، وإليك المثالُ: أنا في هذه الأثناء منغَّصٌ جدًا، وسوف أسافر. هل تريد السّفر معي؟

سأله بوشان: - أنت منغّصٌ يا سيّدي الكونت، وما الذي نغّصك؟

- اللعنة! لشدّ ما تأخذ الأمور ببساطة يا سيّدي. أتمنّى أن أرى حالك بينما يجري تحقيقٌ في منزلك.

- أيّ تحقيق؟

- التحقيق الذي يجريه السيّد دو فيلفور حول قاتلي الظّريف، صعلوكٌ فرّ من السّجن على ما يبدو.

أجاب بوشان: - آه! صحيح، لقد قرأت عن الواقعة في الجرائد. ومن هذا المدعو كادروس؟

- يبدو... أنّه بروفانساليٌّ، لقد سمع به السيّد فيلفور أيّام كان في مارسيليا، والسيّد دانغلار يتذكّر أنّه قد رآه من قبل. النّتيجة أنّ السيّد دو فيلفور يولي كامل اهتمامه تلك القضيّةَ التي يبدو أنّها قد أثارت اهتمام أعلى السّلطات في الشرطة، وبفضل هذا الاهتمام الذي لا أستطيع إلا أن أكون مدينًا له به، صار يُساقُ إليّ منذ خمسة عشر يومًا كلّ المجرمين الذين يُلقى عليهم القبض في باريس أو ضواحيها، بدعوى أنّ أحدهم قد يكون قاتل السيّد كادروس؛ وإن استمرّ الوضع على هذا النّحو، لن تمضيَ ثلاثة أشهرٍ حتّى لا يبقى في مملكة فرنسا الجميلة مجرمٌ إلا ويحفظ عن ظهر قلبٍ تصميم منزلي. لذا عقدت العزم على أن أخلي لهم المنزل ليفعلوا به ما شاؤوا، وأسيح في الأرض إلى أبعدِ مدًى تحملني فيه. تعال معي يا فيكونت، أصطحبك في سفري.

- بكلّ سرور.

- اتّفقنا إذًا؟

- نعم، لكن إلى أين نسافر؟

- لقد أخبرتك. نسافر حيث الهواء نقيٌّ، وحيث الصّمت رائقٌ، حيث

يجد المرء نفسَه، مهما بلغت غطرسته، هيّنًا وصغيرًا. أحبّ هذا التدنّي، أنا الذي يقولون عنّي، مثلَ أغسطس، سيّدَ العالم.

– لكن إلى أين المقصد؟

– إلى البحر يا فيكونت، إلى البحر. ليكن في علمك أنّني بحّارٌ؛ طفلًا هدهدني الشّيخ أوقيانوس بين ذراعيه، وألقمتني الجميلة أمفيتريت[1] ثديها. لعبت في المعطف الأخضر لهذا، والفستان اللازورديّ لتلك؛ أعشق البحر مثلما قد يعشق المرء خليلةً، وحين يطول العهد بي دونَه، أتشوّق إليه.

– هيّا بنا يا سيّدي الكونت، هيّا!

– إلى البحر؟

– نعم.

– موافقٌ إذًا؟

– موافق.

– حسنًا يا سيّدي الفيكونت، مساء اليوم ستكون في فناء بيتي عربةُ سفر يستطيع المسافر فيها أن يتمدّد مثلما يتمدّد في سريره. وستُقيَّد إليها أربعةٌ من خيول المراسلة. سيّدي بوشان يمكن للعربة أن تحمل أربعة ركّابٍ بكلّ أريحيّة. هل ستأتي معني؟ أنا أدعوك!

– شكرًا، لقد عدت لتوّي من البحر.

– كيف! أتيت من البحر؟

– نعم، من البحر، أو تقريبًا. لقد قمت بزيارةٍ قصيرة إلى جرز بورّومي (إيطاليا).

قال ألبير: – وإن! تعالَ معنا.

– كلّا يا عزيزي ألبير، تدري أنّني ما رفضتُ لولا أن الأمر مستحيل. (أضاف خافضًا صوتَه)، ثمّ إنّ المهمّ أن أظلّ في باريس، على الأقلّ أراقب صندوق بريد الصّحيفة.

---

(1) في الميثولوجيا اليونانية أمفيتريت إلهة البحر، وأوقيانوس الإله المحيط.

قال ألبير: - آه! إنّك لصديقٌ طيّبٌ ومخلصٌ؛ أنت محقّ يا بوشان؛ أرجوك أن تراقب صندوق البريد، وتكشف العدوّ الذي أتت منه الوشاية.

تَوادع ألبير وبوشان؛ وكانت المصافحة بينهما تنطق بكلّ الكلام الذي لم تجرؤ الشّفاه على البوح به أمام غريب.

وبعد انصراف الصحافيّ قال الكونت: - ما أروعه من شابٍّ بوشان! أليس كذلك يا ألبير؟

- بلى، إنّه رجلٌ شهمٌ، أؤكّد لك! لذا أنا أحبّه جدًا. لكن، الآن، وقد صرنا بمفردنا، حتّى وإن كان وجود بوشان لا يحدث فرقًا، هلّا أخبرتي إلى أين المقصد بالضّبط؟

- إلى النّورماندي إن أردتَ.

- ممتاز. وسنكون هناك في الرّيف، بعيدًا عن أيّ بشرٍ أو حياةٍ اجتماعية، أليس كذلك؟

- سنكون رأسًا لرأسٍ، مع خيولٍ نركبها، وكلابٍ نقنص بها، وقارب نصيد فيه. وهذا كلّ شيءٍ.

- هذا ما أحتاجه؛ سوف أُعلمُ أمّي، وأكون بعدها طوع أمرك.

قال مونت كريستو: - ولكن، هل ستسمح لك؟

- ماذا؟

- هل ستسمح لك بالذّهاب إلى النّورماندي؟

- تسمح لي أنا؟ ألستُ حرًّا؟

- أنت حرٌّ في الذّهاب حيث تشاءُ، بمفردك، فذاك ما وقفتُ عليه بنفسي في إيطاليا.

- وماذا تقصد إذًا؟

- أقصد هل ستسمح لك بالسّفر مع الرّجل المسمّى الكونت مونت كريستو؟

- إنّ ذاكرتك ضعيفةٌ يا سيّدي الكونت.

- لـمَ؟

- ألم أخبرك بحجم الودّ التي تحمله لك أمّي؟

- قال فرانسوا الأوّل: «الغالب على المرأة التقلّبُ»؛ وقال شكسبير: «المرأة لجّةٌ عميقة»؛ أحدهما كان ملِكًا والآخر شاعرًا، والمفترض أنّ كلاهما يعرفُ المرأة.

- نعم يعرفان المرأة، لكنّ أمّي ليست المرأة، وإنّما هي امرأة.

- هل تغفر لضيفكم المسكين جهله بهذه اللّطائف المميّزةِ للغتكم؟

- أقصد أنّ أمّي ضنينةٌ بمشاعرها، لكن حين تمنح أحدًا بعضًا من مشاعرها، فإنّها تغدق عليه بغير حساب.

قال مونت كريستو متنهّدًا: - آه! حقًا! وهل تظنُّ أنّها تمحضني شعورًا غير اللامبالاة؟

- أصغ إليّ! قلتُ وأكرّر، لا بدّ أنك بالفعل رجلٌ فريدٌ ومتفوّق.

- أوه!

- أجل، إنّ أمّي قد استسلمت لإغواءٍ، لن أقول الفضولَ، وإنّما الاهتمام الذي توحي به. حين نكون بمفردنا، لا يكون من موضوعٍ لنا غيرك.

- وهل أَوصَتك بالحذر من هذا المدعو مانفريد؟

- بالعكس، قالت لي: «أظنُّ يا مورسيرف بأنّ الكونت ذو طبعٍ نبيلٍ؛ احرص على أن تكسب مودّته».

أشاح الكونت بعينيه، وأطلق تنهيدةً. ثم قال: - آه! حقًا؟

واصل ألبير: - بحيث إنّها بدلًا من أن تعترض على سفري، سترحّبُ به لأنّه يدخل ضمن نطاق التّوصيات التي توصينا بها كلّ يوم.

- حسنًا إذًا؛ إلى المساء. كُن هنا في الخامسة مساءً؛ وسوف نصل إلى هناك منتصف اللّيل أو بعده بساعة.

- ماذا! نصل إلى تريبور؟

- إلى تريبور أو نواحيها.

- ثماني ساعاتٍ كافية لنقطع ثمانية وأربعين فرسخًا؟

أجابه مونت كريستو: - لا بل إنّها مدّةٌ طويلةٌ.

- أنت قطعًا رجل المعجزات، فأنت لا تتجاوز سرعة القطار، وهذا ليس بالأمر المستحيل، خاصّة في فرنسا، وإنّما تتجاوز التلغراف نفسَه.

- في انتظار ذلك، يا عزيزي الفيكونت، ولأنّه يلزمنا سبع ساعاتٍ أو ثمانٍ لكي نصل إلى هناك، أرجوك أن تكون هنا في الموعد.

- كُن مطمئنًا، فلا شغل لي حتّى موعدنا، وسأستغلّ وقتي في التّحضير لسفرنا.

- إلى الخامسة إذًا؟

- إلى الخامسة.

انصرف ألبير. وبعدما حيّاه مونت كريستو مبتسمًا بإيماءة من رأسه، ظلّ لبرهةٍ ساهمًا كأنّما استغرقه تأمّلٌ عميق. ثمّ أخيرًا، وضع يده على جبينه، كأنّما يحاول سحق خاطرة، وقصد الجرس فدقّه دقّتين. ولصوت الدّقتين دخل برتوتشو.

قال الكونت: - سيّد برتوتشو، ليس غدًا، أو بعد غدٍ، كما كنت قد عزمتُ، وإنّما موعد السّفر إلى النّورماندي اليوم؛ من الآن إلى الخامسة، لديك ما يكفي من الوقت لتحضّر كلّ شيء. أعلِم مسؤولي خيل المراسلة الأولى؛ سيرافقني السيّد دو مورسيرف. هيّا!

أطاع برتوتشو الأمرَ، وانطلق خادمٌ من فوره إلى بونتواز يُعلمُ بأنّ خيل المراسلة ستمرّ عند السّاعة السّادسة بالضّبط. أرسل مسؤول الخيل ببونتواز مرسولًا يعلم المسؤول بالمحطّة التّالية؛ وفي المحطة التالية، أرسل المسؤول مرسولًا إلى المحطّة التي بعدها، وهكذا دواليك؛ وما هي إلا ستُّ ساعاتٍ حتّى كانت المعلومة قد بلغت كلّ خيول المراسلة على طول الطّريق.

وقبل أن ينطلق الكونت في سفره، صعد عند هايدي، فأبلغها بسفره ووجهته، وسلّمَها مقاليد المنزل.

كان ألبير دقيقًا في موعده. وما لبث السّفر الذي كان غامضًا في

البداية، أن صارت معالمه تتّضح بفعل السّرعة. لم يسبق لمورسيرف أن عرف لمثل هذه السّرعة نظيرًا.

قال مونت كريستو: - الحقّ أنّ نظام مراسلتكم الذي يقطع فرسخين في السّاعة، ويعتمد نظامًا بليدًا يفرض على المسافر ألّا يتجاوز مسافرًا آخر من دون أن يطلب إذنه، ممّا يعني أنّ مسافرًا مريضًا أو متذمّرًا يمكن أن يقف عقبةً في طريق سلسلة من المسافرين المعافين الخِفاف؛ أمّا أنا فأتجنّب كلّ تلك العقبات بأن أسافر بحوذيِّ وخيولي الخاصّة، أليس كذلك يا عليّ؟

ثمّ إنّ الكونت أخرج رأسه من باب العربة، وأطلق صيحة تحميس أنبتت للخيول أجنحةً حتّى ما عادت تركض وإنّما تطير. كانت العربةَ تجري كالرّعد في طريقها الملكيّ، والجميع يستديرون لمتابعة هذا النّيزك الملتهب. وعليٌّ، يردّد صيحة سيّده المحمِّسة، كاشفًا عن أسنانه البيضاء وممسكًا بالأعنّة المزبدة، هامزًا الأحصنة التي تتطاير أعرافها الجميلة في الرّيح؛ عليٌّ، ابنُ الصّحراء، قد استعاد عنصرَه، فصار يبدو، بوجهه الأسود وعينيه المتّقدتين، وبُرنُسه الثلجيّ، وسط الغبار المتطاير، مثل جنّيٍّ ريح السّموم أو إلهِ الإعصار.

قال مورسيرف: - هي ذي لذّةٌ كُنتُ أجهلُها، لذّة السّرعة.

وتبدّدت آخرُ الغيوم التي كانت تكدّرُ جبينَهُ، كأنّما الرّيح التي يخترقُها تكنسُ في طريقها هُمومَه.

قال ألبير: - لكن أين تجدُ، بحقّ الشّيطانِ أحصنةً مماثلة، هل صنعتها بنفسك؟

أجابه الكونت: - نعم، بالفعل. منذ ستّ سنواتٍ، صادفتُ في المجر حصانَ استيلادٍ مشهورًا بسرعته؛ اشتريته، ولا أدري بكم: برتوتشو هو من تكلّف بالأمر. وفي السّنة نفسها أنجب الحصانُ اثنين وثلاثين مُهرًا. وسلالتُه هي ما سنشهد اليوم على امتداد الطّريق؛ أحصنةٌ سوداءَ

متشابهة، لا تشوب سوادها شائبة، إلا غرّة بيضاء في الجبين، لأنّني اخترت لصاحبنا المميّز أفراسًا، مثلما يختار الباشوات محظيات.

- رائع!... لكن، قُل لي يا سيّدي الكونت، ما الذي تفعله بهذا الكمّ من الخيول.

- كما ترى، أسافر بواسطتها.

- لكنّك لن تسافرَ إلى الأبد؟

- عندما لن تعود لي فيها حاجةٌ، سوف يبيعُها برتوتشو، يدّعي أنّه سوف يكسب فيها ثلاثين أو أربعينَ ألف فرنك.

- لكنّك لن تجد في أوروبا ملكًا غنيًا بما يكفي ليشتريها.

- سوف يبيعها إذًا إلى وزير من وزراء الشّرق، يفرغ في سبيلها خزائنه، ثمّ يملأها بِجَلْدِ باطن أقدام رعاياه.

- سيّدي الكونت، هل تسمح لي أن أعبّر لك عن خاطرة عنّت لي؟

- تفضّل.

- أظنُّ أنّ، من بعدك، قد يكون السيّد برتوتشو أغنى فردٍ في أوروبا.

- الحقُّ أنّك مخطئٌ يا فيكونت. أنا على يقين من أنّك، إن قلّبت جيوب برتوتشو، لن تجد فيها حتّى مقدار عشرة قروش.

- ولِمَ؟ ظاهرةٌ فريدةٌ إذًا هو هذا السيّدُ برتوتشو؟ آه يا سيّدي الكونت، لا تدفع بي بعيدًا في عالم الأعاجيب، وإلا لن أصدّقك بعدها، إنّي أحذّرك!

- لن تجد عندي أعاجيب أبدًا يا سيّدي ألبير؛ عندي أنا أرقامٌ ومنطقٌ، وفقط. لكن اسمع منّي هذه المعضلة: مدبّرُ منزلٍ يسرق، لكن لمَ يسرق؟

قال ألبير: - اللّعنة! لأنّ السّرقة من طبيعته، يسرق لأجل السّرقة!

- وإذًا، أنت مخطئٌ. يسرق لأنّ لديه زوجةً، وأطفالًا، ولديه رغباتٍ وطموحاتٍ له ولأسرته؛ ويسرقُ خاصّةً لأنّه ليس متأكّدًا من بقائه دائمًا في خدمة سيّده، ويريد أن يضمن مستقبله. لكنَّ السيّد برتوتشو وحيدٌ في هذا العالم، وليأخذ من مالي ما يشاء، فهو على يقينٍ من أنّه لن يتركني أبدًا.

- ولم؟
- لأنّني لن أجد أفضل منه.
- أنت تدور في حلقة مفرغة، حلقة الاحتمالات.
- أوه! كلّا؛ أنا في حلقة اليقين. إنّ الخادم الأمين بالنّسبة إليّ، هو الخادم الذي لي عليه حقُّ الحياة والموت.
سأله ألبير: - وهل لك على برتوتشو حقُّ الحياة والموت؟
أجابه الكونت ببرودةٍ: - نعم
ثمّة كلمات تغلقُ الحديث، كأنّها أبوابٌ من حديد. وكلمة «نعم» عند الكونت إحداها.
مرّ ما تبقى من الرّحلة بالسّرعة نفسها، ذلك أنّ الاثنين وثلاثين حصانًا، الموزّعة على ثماني مراحل، قد قطعت ثمانية وأربعين فرسخًا في ثماني ساعات.
بلغت العربة، وسط اللّيل، مدخل حديقةٍ جميلة. كان البوابُ واقفًا يمسك بوابة السّياج الكبيرة. لقد أعلمه حوذيُّ الحصانِ الأخير. وكان الوقت قد جاوز منتصف اللّيل بساعتين ونصف. اقتيد مورسيرف إلى جناحه. فوجد الحمّام والعشاء جاهزَين. وطوع أمره الخادمُ الذي سافر معهم جالسًا على الكرسيّ في مؤخّرة العربة؛ بينما يخدمُ الكونتَ باتيستان الذي سافر على الكرسيّ في المقدّمة.
استحمّ ألبير، وتعشّى، فنام. وطيلة نومه هدهدَه صخبُ الأمواج الحزين. ولمّا استيقظ، قصد النّافذة مباشرةً، وفتحها، فوجد نفسه في حديقة صغيرةٍ، وقبالته البحر، أي الشّساعة، وخلفه بستانٌ جميل يفضي إلى غابةٍ صغيرة. وفي جونٍ على قدرٍ من الكبر تتأرجحُ حرّاقةٌ[1] ضيّقةُ البدن، رقيقةُ الصّاري، تحمل في قيدومها شعارَ نبالة مونت كريستو، شعارٌ يمثّلُ جبلًا من ذهب يشرف على بحرٍ أزرق، وعلى رأس التّرس

(1) حرّاقة، سفينة حربيةٌ قديمة.

صليبٌ أحمر قان[1]، ممّا قد يشير إلى الجلجلة التي جعلها سيّدُنا المسيحُ جبلًا أعلى وأرفع من الذّهب، كما قد يشير إلى ذكرى شخصية من ذكريات الألم والانبعاث الدّفينة في ليل ماضي هذا الرّجل الغامض. وحول المركب قوارب صغيرة يملكها صيّادو القرى المجاورة، تبدو بجانب الحرّاقة كرعايا بسطاء ينتظرون أوامر ملكتهم.

هناك، في كلّ المواقع التي يتوقّف فيها مونت كريستو، ولو لقضاء ليلتين فقط، تنتظمُ الحياةُ كلّها وفق أعلى درجات الرّفاهية؛ وفي الآن نفسه تصير الحياةُ أيسر.

وجد ألبير في بهو جناحه بندقيّتين، وكلّ المعدّات اللازمة لصيّادٍ، وفي غرفةٍ بالأعلى، رصّت كلّ الآلات العبقرية التي لم يستطع الإنجليز، وهم الصيّادون العظامُ لأنّهم صبورون وعاطلون، أن يوائموها مع عادات الصّيادين الفرنسيين.

مرّ النّهار كلّه في التّمارين المختلفة التي برع فيها مونت كريستو. قنص الرّفيقان دستةً من طيور التّدرج في البستان، وصادا مثلها من أسماك التّروتة في الجدول. وتعشّيا في سرادق يطلّ على البحر، ثمّ شربا الشّاي في المكتبة.

ومساء اليوم الثالث، وقد أُنهك ألبير من تلك الحياة المرهقة التي تبدو لمونت كريستو مجرّد لهوٍ، نامَ قرب النّافذة، بينما الكونت مشغول، يناقش مع مهندسه تصميم دفيئةٍ يريدُ أن يقيمها في المنزل. وإذا بصوت سنابك حصانٍ تكسر حصى الطريق، يوقظُ الشّابَ من غفوته؛ نظر من النّافذة، ولعظيم دهشته لمح في الفناء خادمَه الذي لم يكن يريد له أن يلحقه، حتّى لا يتسبّب للكونت في أيّ إزعاج.

وثب من أريكته: - فلورنتان هنا! هل أمّي مريضة؟

(1) اللّون هنا تقريبي، ويقصد درجةً من الأحمر تستخدم على صليب شعار النّبالة وتشير إلى الشّجاعة والجرأة والإقدام.

ثمّ هرع إلى باب الغرفة. وتابعه مونت كريستو بعينيه، فرآه يستقبل الخادم ويستلم منه رزمةً مختومة. وكانت الرّزمة تحوي جريدةً ورسالةً.

سألَ ألبير الخادمَ بسرعةٍ: ممّن الرّسالةُ؟

أجابه فلورنتان: - من السيّد بوشان.

- بوشان إذًا هو من بعث بك؟

- أجل يا سيّدي. لقد استدعاني إليه، وأعطاني المال اللازم للسّفر، فطلب لي حصانَ المراسلة، ثمّ جعلني أقطع له وعدًا بألّا أتوقّف إلا متى لحقت بسيّدي؛ ولقد قطعتُ الطّريق في خمس عشرة ساعةً.

فتح ألبير الرّسالة مرتجفًا، وما إن قرأ الأسطر الأولى حتّى أطلق صيحةً، وتناول الجريدة باضطرابٍ بيّن. وفجأةً اغتمّت نظرتُه، وبدا أنّ قدميه تتقوّضان من تحته، فيوشكُ أن يخرّ، استند إلى فلورنتان، فبسط الخادمُ ذراعه ليسند سيّدَه.

همس الكونت بصوتٍ خفيضٍ حتّى إنّه هو نفسه لم يكن ليسمع صوتَ مواساته: - أيّها الشّابُ المسكين! صدق من قال إنّ الآباء يخطئون والأبناء يدفعون الثمن، حتّى الجيل الثالث أو الرّابع!

أثناء ذلك كان ألبير قد استجمع قواه وواصل القراءة، هازًّا شعره على رأسه العرقان، ثمّ جعّد الرّسالة والجريدة.

قال: - فلورنتان، هل حصانُك في حالٍ تسمح له بأن يقطع طريق العودة إلى باريس؟

- إنّه حصانُ مراسلي رديءٌ، من نوع البيدي(1)، بالكاد يستطيع المشي.

-أوه! يا إلهي! وكيف خلّفتَ المنزلَ؟

- على قدرٍ من الهدوء؛ لكن عندما عدتُ من عند السيّد بوشان، وجدتُ سيّدتي تبكي؛ وسألتني عن موعد عودتك. فأخبرتُها بأني

---

(1) حصانٌ قصيرٌ وضئيلٌ كان منتشرًا فيما مضى بمنطقتَي النورماندي وبروتوني.

سأذهب لأسأل عنك السيّد بوشان. فحرّكت ذراعها كأنّما لتثنيني عن ذلك، ثمّ بعد برهةٍ قالت: «نعم يا فلورنتان، اذهب واستعجل عودتَه».

قال ألبير: - نعم يا أمّي، نعم، اطمئنّي، ها أنا ذا عائدٌ، والويل للمجرم!... لكن قبل ذلك ينبغي أن أذهب.

عاد إلى الغرفة حيث ترك مونت كريستو. لكنّه عاد رجلًا آخرَ، إذ كانت خمس دقائق كافيةً لكي تحدث في ألبير تحوّلًا مؤسفًا؛ خرج في حاله العادية، وعاد مكسور الصّوت، محمرَّ الوجهِ محمومَهُ، مُتّقد العينين، مزرقّ الجفنين من الفزع، مترنّح المشية كالسّكران.

قال: - سيّدي الكونت، أشكرك على حسن ضيافتك التي وددتُ لو غنمتُ منها مدّةً أطولَ، لكن ينبغي أن أعود إلى باريس.

- ما الخطب؟

- مصيبةٌ عظيمة؛ فآذن لي بالانصراف، لأنّ المسألةُ أهمّ من حياتي. رجاءً يا سيّدي الكونت، لا أريد منك أسئلةً، وإنّما حصانًا!

قال الكونت: - دونك إسطبلي يا فيكونت؛ لكنّك ستهلك نفسك من التّعب إن سافرت على حصانٍ؛ فخُذ أيّ عربةٍ شئت من العربات.

- كلّا، العربة سوف تبطئني؛ ثمّ إنّي أحتاج التّعبَ الذي أشرت إليه، لأنّه سيكون مفيدًا بالنّسبة إليّ.

خطا ألبير خطواتٍ مترنّحًا مثل رجلٍ أصابته رصاصةٌ، ثمّ تهاوى على مقعد قرب الباب. ولم يلمح مونت كريستو لحظةَ الضّعف تلك، إذ كان أمام النّافذة يصيح:

- عليّ! جهّز حصانًا للسيّد دو مورسيرف، وأسرع، لأنّه مستعجل!

كلماتُ الكونت أنعشت ألبير، فانطلق خارجًا من الغرفة، وفي إثره الكونت.

همس الشّابُ وهو يمتطي السّرج: - شكرًا! وأنت يا فلورنتان، سوف

تلحق بي بأسرع ما تستطيع! هل من رسالةٍ أسلّمها عند نقطة المراسلة ليبدّلوا لي الحصان يا سيّدي الكونت؟

- الرّسالة هي الحصانُ نفسُه؛ فسلّمهُ، وسوف يسرجون لك على الفور غيرَه.

وكاد ألبير ينطلقُ، لكنّه أحجم برهةً وقال للكونت: - قد يبدو لك رحيلي مستهجنًا، لكنّك يا سيّدي لا تدري ما يمكن لبضعة أسطرٍ خطّت في جريدةٍ أن تفعل بحياة رجل. (ثمّ أضاف وهو يلقي بالجريدة إلى الكونت)، حسنًا إذًا، فلتقرأ ما كُتب في هذه الجريدة، لكن بعد أن أرحل، حتّى لا تشهد خجلي.

وبينما يلتقط الكونت الجريدة، غرز الشّاب المهمازين اللذين أُلصقا بحذائه، في بطن الحصان الذي اندهش من أنّ ثمّة فارسًا لا يزال يظنُّ بأنّه بحاجة إلى أداةٍ يستحثُّه بها، وانطلق من فوره كالسّهم.

تابع الكونت الشّاب بنظرة ملؤها التعاطف، وانتظر حتّى غاب عن نظره تمامًا، لينظر في الجريدة، فقرأ فيها ما يأتي:

«إنّ الضّابط الفرنسيّ الذي كان في خدمة علي، باشا يوانينا، والذي ذُكر خبرُه قبل ثلاثة أسابيع في جريدة L'Impartial، والذي لم يسلّم قلعة يوانينا فحسب، وإنّما أيضًا باع الأتراك الرّجُلَ الذي أحسنَ إليه، قلنا إنّ هذا الرّجل كان اسمُه آنذاك فرنان، مثلما ذكر زملاؤنا في الصّحيفة المحترمة؛ لكنّه أضاف مُنذ ذلك إلى اسمه لقب نبالةٍ واسمَ أرضٍ.

اسمُه اليوم السيّد الكونت دو مورسيرف، وينتمي إلى مجلس الأقران».

إنّ السرّ الرّهيب إذًا، السرّ الذي تكرّم بوشان بدفنه، ما لبث أن ظهر، مثل شبح متوعّدٍ، في جريدة أخرى، استعلمت جيّدًا ونشرت غداة سفر ألبير إلى النورماندي، السطورَ التي كادت تذهب بعقل الشّاب الشقيّ.

86

المحاكمة

في الثامنة صباحًا، نزل ألبير عند بوشان كالصّاعقة. وإذ كان الخادمُ على علم بوصوله، فقد قاد مورسيرف مباشرة إلى غرفة سيّده، الذي كان قد استحمّ لتوّه.

قال ألبير: – وإذًا؟

أجابه بوشان: – وإذًا يا صديقي، كنت بانتظارك.

– وها أناذا. لا أحتاج أن أقول لك يا بوشان إنّني أظنّك أخلص وأطيبَ من أن تكون قد ذكرت الخبر لأحدٍ. كلّا يا صديقي. ثمّ إنّ الرّسالة التي بعثت بها إليّ تؤكّد مودّتك لي. فلنطرق الموضوع مباشرةً إذًا: هل لديك فكرةٌ عن مصدر الضّربة؟

– سأقول لك ذلك في كلمتين، بعد قليل.

– أجل يا صديقي، لكن قبل ذلك ينبغي أن تخبرني بالتّفصيل حكاية الخيانة الشّنيعة.

وقصّ بوشان على الشّاب، المسحوق تحت نير الألم والعار، الحوادث التي سوف نعيدُها بأبسط ما يكون.

صباح اليوم قبل السّابق، ظهر المقالُ في جريدة أخرى غير جريدة L'Impartial، وممّا يزيد الأمر خطورةً، في جريدة تُعرف بانتمائها إلى الحكومة. وكان بوشان يُفطر حين وقعت عينُاه على الخبر، فطلب عربةً، وهرع من فوره إلى الجريدة.

وعلى الرّغم من تعارض الرّجلين، نقصد بوشان ومدير الجريدة، في

أرائهما وتوجّهاتهما السيّاسية، إلا أنّهما كانا، كما يحدث عادةً، لا بل قد نقول دائمًا، صديقين حميمين.

وحين وصل الشّابُ، كان المدير ممسكًا بجريدته ويبدو منهمكًا في تلذّذ افتتاحية عن سكّر الشّمندر، يبدو أنّها توافق هواه.

قال بوشان: - آه! ما دمتَ تمسك جريدتك يا عزيزي، فلا أحتاج أن أخبرك عن سبب قدومي.

سأله مدير الجريدة الحكومية: - هل أنت من أنصار قصب السّكر يا عزيزي؟

فأجاب بوشان: - كلّا! بل إنّني أجهل الموضوع كلّ الجهل؛ إنّما أتيتك في مسألةٍ أخرى؟

- وما هي؟

- مقالُ مورسيرف.

- آه! نعم، بالفعل: أليس أمرًا عجيبًا؟

- عجيبٌ جدًا إلى درجة أنّك قد تُتَّهم بالتّشهير، وتُحاكَم.

- كلّا، بالمطلق؛ لقد توصّلنا مع الخبر بكلّ الوثائق التي تدعمه، ونحن مطمئنّون تمامًا إلى أنّ السيّد دو مورسيرف لن يقدم على فعل شيء؛ ثمّ إنّها خدمةٌ كبيرةٌ للبلد: أن نفضح أسماء أولئك الذين يلطّخون شرفه.

أُلجمَ بوشان، ثمّ ما لبث أن سأل:

- لكن، من ذا الذي أطلعكم على التّفاصيل؟ ذاك أنّ جريدتي التي كانت سبّاقةً إلى إثارة الموضوع، ما لبثت أن أحجمت عن المضيّ فيه، نظرًا لنقص الأدلة؛ مع إنّنا أحرص منكم على كشف السيّد دو مورسيرف، عضو مجلس الأقران، لأنّنا كما تعلمُ ننتمي إلى المعارضة.

- أوه! يا إلهي، الأمر بسيط جدًّا؛ نحن لم نسعَ خلف الفضيحة، إنّما أتت إلينا من تلقاء نفسها. أتانا أمس رجلٌ من يوانينا، حاملًا معه الملفّ

المذهل، وحثّنا على نشره، مهدّدًا بأنّه سيسلّمه إلى جريدةٍ أخرى إن نحن لم نفعل. ولعمري أنت تعلم يا بوشان قيمة الأخبار المهمّة؛ فلم نُرد أن نضيّع من بين أيدينا هذه. الطّلقة أُطلقت، وإنّ صداها رهيبٌ، ولا بدّ أن يتردّد حتّى أقاصي أوروبا.

فأدرك بوشان أنّه لم يعد يملك إلا أن يخفض رأسَه، وينسحب، فيكتب رسالةٍ إلى مورسيرف.

لكن ما لم يستطع أن يكتبه إلى ألبير، لأنّ الأشياء التي سوف نوردها وقعت بعد انطلاق الرّسالة، هو أنّه في اليوم نفسه عمّ مجموعات المجلس اضطرابٌ غير مألوف. أتى الجميع تقريبًا قبل الموعد، وكانوا يتناقشون في الحدث الكارثيّ الذي لا بدّ أن يشغل الرأي العام، ويشيرون بأصابع الاتهام إلى عضوٍ بعينه.

كانوا يقرأون المقالَ بأصوات خافتة، ويتذاكرون أخبارًا وذكريات تزيد الأحداث وضوحًا. لم يكن الكونت دو مورسيرف محبوبًا من لدن زملائه. فمثل جميع المستجدّين، كان مجبرًا، إن هو أراد الحفاظ على مكانته، أن يضع لطموحه حدًّا لا يتجاوزه. الأرستقراطيون الكبارُ كانوا يهزأون منه؛ وأصحاب المواهب يتحاشونَه؛ وذوو الأمجاد النقيّة ينفرون منه غريزيًا، فكان يعيش وضعيّة الأضحية التي يفترض أن تقدّم قربانًا. ما إن يشير إليها الربُّ بإصبعه حتّى يتنكّر لها الجميع.

وحده الكونت مورسيرف لم يكن على علمٍ بشيء. لم يتوصّل بالجريدة التي نشرت الخبر، وقضى الصّباح في كتابة رسائل وتجريب حصانٍ.

فكان أن وصل إلى المجلس في موعده.

برأسٍ مرفوعٍ على عادته، وعينٍ متغطرسة، ومشيةٍ مختالة، نزل من العربة واجتاز الرّواق ودخل إلى الصّالة من دون أن ينتبه إلى تردّد الحُجّاب وتحيّة زملائه النّاقصة.

وعلى الرّغم من أنّ الكونت، كما أسلفنا، لم يغيّر شيئًا في هيأته ولا

مشيته، إلا أنّ هيأته ومشيته بدتا شديدتي الغطرسة، ونشر حضورُه جوًا عدوانيًا، حتّى إنّ الجميع رأى في حضوره تصرّفًا غير لائق، والغالبية اعتبرته تبجّحًا، والبعض إهانةً.

كان واضحًا أنّ المجلس بأكمله يتحرّق لبدء النّقاش.

كانت الأيادي كلّها تحمل الجريدة، لكن كالعادة، تردّد كلٌّ من الحاضرين في أن يتحمّل مسؤولية المبادرة إلى الهجوم. ثمّ أخيرًا انبرى أحد الأعضاء المشرّفين، وهو عدوٌ صريح للكونت دو مورسيرف، فصعد إلى المنصّة بمهابةٍ تعلنُ عن أنّ اللّحظة المنتَظَرة قد حانت.

خيّمَ صمتٌ رهيبٌ؛ وكان مورسيرف وحده يجهل سبب الانتباه الكبير الذي حظي به عضوٌ، لم يُعتد على أن يولى كلامه كبير عناية.

هادئًا تابع الكونت المقدّمة التي أعلن فيها الخطيبُ عن أنّه بصدد طرق موضوعٍ خطيرٍ جدًا، موضوعٍ شديد الحساسية، مقدّسٍ وحيويٍّ بالنّسبة إلى المجلس، موضوعٍ يتطلّب من الجميع كلّ الانتباه.

وما إن ذُكر اسم يوانينا والكولونيل فرنان حتّى بهت مورسيرف، ولم تُسمع في المجلس إلاّ رجفةٌ، استدارت لها كلّ العيون صوب الكونت.

إنّ الجروح الأخلاقية تتميّز بميزة أنّها تُخفى، لكن لا تندملٍ أبدًا؛ فتظلُّ دائمًا مؤلمةً، دائمًا متأهّبة إلى أن تنزف ما إن تُلمَسَ، تظلُّ حيّةً مفتوحةً في القلب.

وما إن تمّت تلاوة المقال وسط الصّمت الذي لم تجرحه إلا رجفةٌ، توقّفت ما إن بدا أنّ الخطيب يتأهّب لإتمام كلامه؛ حتّى بسط المتّهمُ حيرتَه وشكوكه مبيّنًا صعوبة المهمّة الموكول بها؛ إنّ الأمر يتعلّق بشرف السيّد دو مورسيرف، وعبره شرف المجلس بأكمله، الشّرف الذي ينبغي الذَوْد عنه عبر إثارة نقاش يتصدّى لتلك الأسئلة الشّخصية التي تظلّ دائمًا حارقة. ختامًا لا يطّلبُ إلا أن يُفتح تحقيقٌ عاجلٌ، قبل أن تكبر القضية، سعيًا إلى إعادة الاعتبار للسيّد مورسيرف وإعادته إلى المكانة الرّفيعة التي لطالما وضعه فيها الرّأي العامّ.

كان مورسيرف من الاضطراب والإرهاق، بحيث بالكاد استطاع أن يتمتم بكلماتٍ وهو ينظرُ إلى زملائه بعينين زائغتين. وذاك التّحفظ الذي قد يُترجَم إلى ذهولِ البريء، كما خجل المذنب، قد منحه بعض التّعاطف. إنّ النّاس الكرماء بحقّ علي استعداد دائم إلى أن يُبدوا جانب التّعاطف، حين تحيق بأعدائهم مصيبةٌ تفوق حدود كراهيتهم لهم.

أخضعَ الرّئيسُ التّحقيقَ للتّصويت؛ صوّت الأعضاء بالجلوس والوقوف، وكانت النّتيجة فتح التّحقيق.

سُئل الكونت كم يلزمه من الوقت ليعدَّ ما يدفع به عن نفسه التّهمة.

واستعاد مورسيرف شجاعته ما إن أحسّ بنفسه حيًّا بعد الضّربة الرّهيبة. فقال: - سادتي الأعضاء، ليس بالوقت ندفع عن أنفسنا هجومًا مثل هذا الذي يشنّه عليّ أعداءٌ مجهولون، لاذوا بالظّل بلا شكّ. إنّما يتطلّب الأمر دفاعًا في الميدان، بصاعقةٍ سوف أردّ عن نفسي البرق الذي أذهلني لبرهةٍ؛ ليسمح لي الزّملاء، بدلًا من تبرير، أن أريق دمي دلالةً على استحقاقي الوقوف على قدم المساواة معهم!

ووقعت كلماته موقعًا حسنًا.

أضاف: - أطلب إذًا أن يتمّ التّحقيق عاجلًا غير آجلٍ، وسوف أمّد المجلس بكلّ الوثائق الضّرورية لتتمّ لها هذه المهمّة.

سأله الرّئيس: - أيّ يومٍ تعيّنُه؟

أجاب: - أضع نفسي مَن اليوم رهن المجلس.

حرّك الرّئيس الجرس وسأل: - هل المجلس متّفق على أن يبدأ التّحقيق من اليوم؟

أجاب الجمعُ بصوتٍ واحدٍ: - نعم!

وعُيّنت لجنةٌ من اثني عشر عضوًا، مهمّتها فحص الوثائق التي سوف يتقدّم بها مورسيرف. وحُدّدت جلستها الأولى في الثامنة مساءً من اليوم نفسه، بمكتب الجريدة. وإن تطلّب الأمر جلساتٍ أخرى، فسوف تتمّ في السّاعة نفسها والمكان عينه.

ولمّا أن تقرّر القرارُ، استأذن مورسيرف في الانصراف؛ إذ كان عليه أن يجمع الوثائق المكدَّسة منذ زمنٍ بعيدٍ، حتّى يواجه بها العاصفة، بما عُهد فيه من طبع ماكرٍ عنيد.

قصَّ بوشان على الشّابّ التفاصيل التي قصصناها بدورنا. على أنّ قصّه هو امتاز عن قصّنا نحنُ، بما تمتاز به حيوية الأشياء الحيّةِ عن برودة الأشياء الميّتة.

وظلّ ألبير يستمع إلى القَصّ مرتجفًا، تارةً من الرّجاء، وطورًا من اليأس، وحينًا من الخزي؛ إذ كان يعلم، ممّا أسر به إليه بوشان، أنّ والدَه مذنبٌ، ويتساءلُ كيف له أن يثبت براءَته.

فلمّا بلغ الحكيُ النّقطة التي بلغناها توقّف بوشان.

سأله ألبير: - ثمّ؟

فردّد بوشان: - ثمّ؟

- نعم.

- صديقي، إنّ هذه الكلمة لَتجرُّني إلى حتميّةٍ مرعبة. هل تريد إذًا أن تعرف التتمّة؟

- لا مناص لي من أن أعرف يا صديقي، وأفضّل أن أعرف من فمك، على أن أعرف من فم غيرك.

استأنف بوشان الحديث من حيث أنهاه: - حسنًا يا ألبير؛ استجمع إذًا شجاعتك، فما أحوجك إليها الآن من أيّ وقتٍ مضى.

وضع ألبير يده على جبينه ليتحقّق من صلابته، مثلما يفحص الرّجلُ المقبل على الدّفاع عن حياته، صلابةَ درعِه ومضَاءَ سيفه.

قال: - هيّا!

واصل بوشان: - فلّما حلّ المساءُ. كانت باريس كلّها تترقّبُ الحدث. كثُرٌ كانوا يدّعون أنّ والدك يكفيه الظّهور ليُسقط عنه التّهمة؛ وكُثر أيضًا يردّدون أنّ الكونت لن يظهر أبدًا؛ بعضهم يؤكّد أنّه رآه يقصد بروكسيل،

حتّى إنّ منهم من ذهب إلى الشّرطة يستعلم عمّا إذا كان الكونت قد طلب جوازات سفره كما يُقال.

«أعترف لك بأنّني بذلت ما في وسعي ليمكّنني أحد الأصدقاء، وهو عضوُ مجلسٍ شابٌّ، اختير عضوًا في اللّجنة، قلتُ ليمكّنني من حضور ما يشبه المحاكمة. وفي السّابعة مساءً أتى يصطحبني، وقبل أن يصل أحدٌ من الأعضاء، سلّمني إلى حاجبٍ أقفل عليّ فيما يشبه المقصورة. كان يحجبني عمودٌ، متواريًا في عتمةٍ دامسة؛ وكنت أرجو أن أسمع من البداية إلى النّهاية المشهد الرّهيب الذي يتحضّر.

«في الثّامنة بالضّبط حضر الجميع. ودخل السيّد دو مورسيرف مع آخر دقّات السّاعة الثّامنة. وكان يمسك في يده أوراقًا، ويبدو هادئًا؛ وعلى غير العادة كانت مشيته هادئةً، وزيّه متطلّبًا وصارمًا؛ وقد ارتدى على عادة العسكريّين السّابقين، زيًّا مزرّرًا من الأسفل إلى الأعلى. فكان لحضوره أحسنُ الأثرِ، وكانت اللّجنة أبعد شيءٍ عن سوء النيّة، وتقدّم الكثير من أعضائها إلى الكونت فصافحوه».

كان ألبير يحسّ بأنّ قلبه سينسحق تحت ثقل كلّ تلك التّفاصيل، ومع ذلك تسلّل إليه، وسط ألمه، شعورٌ بالامتنان؛ ودَّ لو يعانق أولئك الرّجال الذين ما أخلفوا لوالده التقديرَ، حتّى وسط تلك الوضعية الحالكة.

«في تلك اللّحظة دخل حاجبٌ فأعطى الرّئيس رسالةً.

قال الرّئيس وهو يفتح الرّسالة: - الكلمة لك يا سيّدي مورسيرف.

بدأ الكونت في مرافعته، وأؤكّد لك يا ألبير أنّه تكلّم ببلاغة ومهارة مذهلتين. وقدّم وثائق تثبت أنّ وزير يوانينا قد شرّفه حتّى آخر لحظات عمره، إذ كلّفه شخصيًا بأن يفاوض الإمبراطور في قضيّة حياةٍ أو موت. وأراهم الخاتم، علامة الحكم، الذي كان علي باشا يختم به بالعادة رسائله، وهو الوسيلة التي كانت تمكّن الكونت مورسيرف من أن يدخل على الباشا في أيّ وقتٍ وحين، حتّى لو كان بين حريمه. قال: لسوء

الحظّ إنّ المفاوضات فشلت، ولمّا عاد للدّفاع عن الرّجل الذي أحسن إليه، كان قد مات. أضاف: ولفرط ثقة علي باشا به فقد عهد إليه بجاريته المفضّلة وابنته».

انتفض ألبير لسماع هذا الجزء من القصّة، إذ بقدر ما كان بوشان يتقدّم في سرده، بقدر ما كان ذهنه هو يستحضر حكاية هايدي، ويتذكّر ما قالته الحسناء اليونانية في أمر الرّسالة والخاتم وبيعها وأمّها كالإماء.

سأله ألبير بضيق: - وأيّ تأثير كان لخطاب الكونت؟

أجاب بوشان: - أعترف بأنّه أثّر فيَّ، كما أثّر في أعضاء اللّجنة جميعًا.

«وفي أثناء ذلك كان الرّئيس قد ألقى نظرةً لا مبالية على الرّسالة التي وصلته قبل قليل؛ وما إن قرأ سطورها الأولى حتّى تيقّظ انتباهُه. قرأها، وأعاد قراءتها، ثمّ حدّق في السيّد دو مورسيرف.

سأله: - سيّدي الكونت، تقول إنّ وزير يوانينا عهد إليك بزوجته وابنته؟

أجاب مورسيرف: - أجل يا سيّدي؛ لكن المصائب لم تفارقني، فلمّا عدتُ كانت فاسيليكي وابنتُها هايدي قد اختفتا.

- وكنت تعرفهما؟

- لمّا كان الباشا يقرّبني، ويثق فيّ، فقد سنحت لي الفرصة بأن أراهما أكثر من عشرين مرّةً.

- لديك فكرةٌ إذًا عن مصيرهما؟

- نعم يا سيّدي؛ لقد بلغ إلى علمي أنّهما قضتا حزنًا، أو ربّما بؤسًا. لم أكن ثريًا، وكان الخطرُ محدقًا بي، فلم أستطع أن أنطلق في البحث عنهما، وهذا ما آسفُ له حتى اليوم.

قطّب الرّئيس حاجبيه تقطيبًا لا يكادُ يُلحظ.

قال: سادتي، لقد سمعتم وشهدتُم ما قاله الكونت دو مورسيرف. هل تستطيع أن تأتيَ بمن يشهد على صحّة قصّتك؟

أجاب الكونت: - أوه كلّا يا سيّدي، كلّ حاشية الوزير، ممّن عرفوني ببلاطه، إمّا ماتوا أو انقطع خبرهم؛ وأظنّ أنّ من بين أبناء وطني، أنا النّاجي الوحيد من تلك الحرب الفظيعة؛ لا أملك غير رسائل علي ألباني، وقد وضعتها رهن إشارتكم؛ وليس لي إلا الخاتمُ عربونًا عن ثقته، وهاكم إيّاه؛ ونظرًا لغياب أيّ شهودٍ ممّن بوسعهم أن يدعموا كلامي، ليس لي أن أواجه هذا الهجوم الذي يشنّه عليّ مجهولٌ، إلا بسيرتي النّقيّة التي تشهد لي أنّني كنت دائمًا عسكريًا شريفًا ورجلًا مستقيمًا.

سرَت في المجمع همهمةُ موافقة؛ ولو أنّ الأمر توقّف عند هذه النّقطة يا عزيزي ألبير، ولم يعرض عارض جديد لكان والدك قد كسب القضيّة.

لم يكن قد تبقّى سوى الانتقال إلى التّصويت، وإذا بالرّئيس يتناول الكلمة. وقال: سادتي الأعضاء، وأنت يا سيّدي الكونت، لا أحسبكم تمانعون في سماع شاهدٍ مهمّ، على ما يدّعي، شاهدٍ أتى من تلقاء نفسه؛ ولا شكّ لدينا، بعدما سمعناه من فم الكونت، أنّ الشّاهد سيأتي بالحجّة الدّامغة على براءة زميلنا. وأمامكم الرّسالة التي توصّلت بها في هذا الشّأن؛ هل تودّون أن أقرأ الرّسالة، أم ترون أن نهملها، ونحكم من دون الرّجوع إليها؟

بهت السيّد دو مورسيرف، وشدّ بيديه على الأوراق التي كان يمسكها، حتّى أنّت من بين أصابعه.

قرّر الأعضاء قراءة الرّسالة، أمّا الكونت فظلّ ساهمًا لا يقرّ له رأيٌ.

والنّتيجةُ قرأ الرّئيس الرّسالة التالية:

سيّدي الرّئيس،

أستطيع أن أمدّ بالمعطيات الأشدّ موضوعيةً، لجنةَ التّحقيق المكلّفة بفحص سلوك الفريق الكونت دو مورسيرف في إيبيروس ومقدونيا.

توقّف الرّئيس وقفةً وجيزة. شحب الكونت مورسيرف.

وساءلَ الرّئيسُ الحضور بنظرته.

صاح الجميع من كلّ جانبٍ:
- واصل !فواصَلَ الرّئيس:
لقد كنت حاضرًا ساعة وفاة علي باشا؛ وشهدتُ لحظاته الأخيرة؛ وأعرف مصير فاسيليكي وهايدي؛ وأضع نفسي رهن إشارة اللّجنة، لا بل أطالب بأن أمنح شرف الاستماع إليّ. سوف أكون في رواق المجلس حين تستلمون هذه الرّسالة.
سأل الكونت بصوتٍ واضح فيه تغيّرٌ عميق: - ومن هذا الشّاهدُ، أو بالأحرى العدوّ؟
أجاب الرّئيس: - ذاك ما سنعلمه يا سيّدي. هل اللّجنة موافقةٌ على سماع الشّاهد؟
وردّالجميع بصوتٍ واحدٍ: - نعم، نعم.
استُدعي الحاجبُ.
سأل الرّئيسُ الحاجبَ: - هل هناك من ينتظر في الرّواق؟
- أجل يا سيّدي؟
- من؟
- امرأةٌ يرافقها خادمٌ.
تبادل الجميع النّظر.
أمر الرّئيسُ الحاجبَ: - أدخل المرأة.
واصل بوشان سردَه: - وبعد خمس دقائق عاد الحاجبُ، وكانت الأنظار جميعًا متعلّقةً بالباب، وأنا نفسي أشاركهم القلق والترقّب.
خلفَ الحاجبِ كانت تسير امرأةٌ مغطّاةٌ بحجابٍ يغلّفُها تمامًا. من الانحناءات التي يَشفّ عنها الحجابُ، والعطور التّي تضوع منه، كان واضحًا أنّها امرأةٌ شابّة أنيقة، ولا شيء غير ذلك.
رجا الرّئيس المرأةَ الغريبة أن تنضو عنها حجابَها، وتكشف عن هويّتها، فلما امتثلت لرجائه، تجلّت لنا شابة في ثياب إغريقية، حسناء بارعة الجمال.

قال مورسيرف: - آه، إنّها هي.

- من تقصد بقولك هي؟

- هي، هايدي.

- ومن أخبرك؟

- واأسفًا! خمّنت ذلك. لكن، أكمل يا بوشان رجاءً. ها أنت تراني هادئًا متصبّرًا. مع أنّنا قريبَان من الخاتمة.

واصل بوشان: - نظر السيّد دو مورسيرف إلى المرأة نظرةً يختلط فيها الرّعبُ بالدّهشة. فبالنّسبة إليه سينطقُ فمُها الجميلُ بما يقتله أو يحييه. أمّا بالنّسبة إلى الآخرين كانت مغامرةً غريبةً، مليئةً بما يستحثُّ الفضول، حتّى إنّ مصير السيّد دو مورسيرف قد صار قياسًا إلى ما يجري مسألةً ثانوية.

«قدّم الرّئيس بإشارة من يده مقعدًا للمرأة الشّابة؛ لكنّها أومأت برأسها إشارةً إلى أنّها تفضّل الوقوف. أمّا الكونت، فقد تهاوى على مقعده، وكان واضحًا أنّ قدميه ما عادتا تقويان على حمله.

قال الرّئيس: - سيّدتي، لقد كتبت إلى اللّجنة مبديةً استعدادك أن تقدّمي معلوماتٍ عن قضية يوانينا، وتدّعين أنّك كنت شاهدًا عيانًا على الأحداث.

أجابت الغريبةُ بنبرةٍ يملأها حزنٌ لطيف، ومطبوعةٍ بتلك اللّكنة المميّزة للشّرقيين: - وبالفعل كنت كذلك.

استأنف الرّئيس: - لكن اسمحي لي أن ألاحظَ بأنّك كنت صغيرةً جدًا آنذاك.

- كان عمري أربع سنين، لكن بما أنّ الحوادث كانت بالنّسبة لي على قدرٍ بالغ من الأهميّة، فلم يمَّحِ من ذهني أيّ تفصيل، ولا أفلتَت من ذاكرتي جزئيّةٌ.

- لكن أيّ أهميّة كانت تمثّلها بالنّسبة إليك الحوادث؟ ومن أنت لتخلّف فيك الفاجعةُ تأثيرًا بهذا القدر؟

- كان الأمر يتعلّق بحياة والدي أو موته، وأنا اسمي هايدي، ابنةُ علي ألباني باشا يوانينا، وفاسيليكي زوجته المحبوبة.

حمرةُ التّواضع والفخر، في آنٍ، التي تطبع خدَّي الشّابة، وبريق عينيها، وعظمة ما تفوّهت به، كلّ ذلك أحدث في الجمع أثرًا لا سبيل إلى وصفه.أمّا الكونت، فلو أنّ صاعقةً ضربته لما تهاوت قدماه في شفير كذاك الذي تهاوتا فيه لحظة سماعه شهادة الصبيّة.

استأنف الرّئيس بعدما انحنى للمرأة باحترام: - سيّدتي، اسمحي لي بسؤالٍ بسيطٍ، لا تعتبريه تشكيكًا في مصداقيّتك. وسيكون آخر سؤالٍ أطرحه عليك: - هل تستطيعين أن تأتي بالحجّة على صدق كلامك؟

قالت هايدي وهي تخرج من تحت عباءتها كيسًا من السّاتان معطّرًا: - أستطيع يا سيّدي، ها عقد ميلادي، حرّره والدي ووقّع عليه ضبّاطه المقرّبون؛ وها مع عقد ميلادي عقدُ تعميدي، إذ إنّ والدي قد وافق على أن أتبع دين أمّي، وعقد تعميدي مختومًا بختم رئيس أساقفة إبيريوس ومقدونيا؛ وها أخيرًا (وهذا لعمري الأهمّ بلا شكّ) عقد بيعي وأمّي إلى التّاجر الأرميني المدعو الكُبير، من طرف الضابط الفرنسيّ الذي كان اتّفاقُه المشينُ مع الباب العالي قد نصّ على أن تعود إليه ملكيةُ ابنة وامرأة الرّجل الذي أحسن إليه؛ فباعهما بمائة كيس، أي ما يقارب أربعمائة ألف فرنك.

استولى على وجه الكونت شحوبٌ أقرب إلى الخضرة، واحتقنت عيناه بالدّم وهو يسمع الاعترافات الخطيرة التي ألقت أعضاء اللّجنة في صمتٍ رهيب.أمّا هايدي، فحافظت على هدوئها، وإن كان هدوءًا متوعّدًا أكثر ممّا قد يتوعّدُ غيرها في غضبه، مدّت إلى الرّئيس عقد بيعها المحرّر باللّغة العربيّة.

ولمّا كانت اللّجنة قد توقّعت أن تكون بعض الوثائق المقدّمة باللّغة العربية أو الرّومايك أو التركية، فقد استُدعيَ تُرجمان المجلس. نوديَ

عليه. وتابع أحد الأعضاء النّبلاء، ممّن تعلّموا العربية أثناء الحملة على مصر، بالحرف ما تلاهُ المترجمُ بصوتٍ عالٍ:

أنا المسمّى الكُبير، تاجر الرقيق ومورِّد الحريم إلى جلالته، أقرّ بأنّني قد استلمتُ زمرّدةً سعرها ألف كيس، من عند السيّد الإفرنجيّ الكونت مونت كريستو، لأوصلها إلى جلَالة الإمبراطور المعظّم، نظيرَ أمَةٍ مسيحيّة في الحادية عشرة من عمرها، واسمُها هايدي، ابنةٌ معترفٌ بها للمرحوم السيّد علي ألباني، باشا يوانينا، وجاريته فاسيليكي؛ وكنت أنا قد اشتريتُها، منذ سبع سنواتٍ، مع أمّها التي توفيت لمّا بلغنا القسطنطينيّة، من عند كولونيل إفرنجيّ كان في خدمة الوزير علي ألباني، واسمُه فرنان مونديغو.

وتمّ هذا البيعُ لفائدة جلالته، وبأمرٍ منه، وبمبلغ ألف كيس.

حُرر في القسطنطينية، بموافقة جلَالته، سنة 1274 للهجرة.

وقّعه: *الكُبير*

وحتّى لا يُطعن في أصالة هذا العقد، سيُختم بختم الإمبراطور.

وبالفعل كان بجانب توقيع التّاجر ختمُ الإمبراطور المعظّم.

وبعد قراءة العقد والاطّلاع عليه، عمّ المكان صمتٌ رهيب؛ لم يكن الكونت يملك إلا النّظر، ونظرتُه المسمّرة رغمًا عنه في هايدي كانت من نارٍ ودم.

قال الرّئيس: - سيّدتي، هل نستطيع أن نسأل السيّد الكونت مونت كريستو، الذي يقيم على ما أظنُّ معك في باريس؟

أجابت هايدي: - إنّ الكونت مونت كريستو، والدي الثاني، موجود في النّورماندي منذ ثلاثة أيّام.

قال الرّئيس: - ولكن، منَ الذي أشار عليك بأن تتّخذي هذه الخطوة التي تعدّ خطوةً طبيعيةً قياسًا إلى ما عشتِه وشهدتِه من مصائب؟

أجابت هايدي: - سيّدي، إنّ من أشار عليّ باتّخاذ هذه الخطوة هو

احترامي لنفسي وألمي. فعلى الرّغم من أنّني مسيحيّةٌ، إلا أنّني، وليغفر لي الربُّ، لطالما فكّرت في الانتقام لوالدي طيّب الذّكر. ولمّا وطئت قدمي أرض فرنسا، وعلمت أنّ الخائن يسكن باريس، ظللت مترصّدةً مترقّبةً. صحيحٌ أنّني أعيش منعزلةً في بيت راعيَّ النّبيل، ولكنّني إنّما أعيش كذلك لأنّني أحبّ حياة الظّل والصّمت اللّذين يسمحان لي بالعيش في أفكاري وذكرياتي. على أنّ السيّد الكونت مونت كريستو يحيطني بعنايته الأبويّة، ولا يخفى عنّي شيءٌ من حياة العالم الخارجيّ. لذا أقرأ كلّ الجرائد، وتصلني كلّ الألبومات، والألحان، وعن طريق متابعة حياة الآخرين من غير أن أنخرط فيها، علمت، من دون سابقِ تخطيطٍ، ما سيجري هذا المساء في المجلس... فكتبت لكم.

سألها الرّئيس: - تقرّين إذًا بأنّ الكونت مونت كريستو لا علم لديه بما أقدمت عليه؟

- إنّ الكونت يجهل جهلًا تامًّا ما يجري، حتّى إنّني لا أخشى شيئًا قدر خشيتي من أن يغضب من فعلتي؛ (أضافت وهي ترفع عينين متّقدتين) لكن هذا لا يمنع من أنّه يومٌ سعيدٌ مشهودٌ بالنّسبة إلي، اليوم الذي أستطيع فيه أخيرًا الانتقام لوالدي.

وأثناء ذلك كلّه، لم يكن الكونت دو مورسيرف قد تفوّه بأدنى كلمة؛ وكان رفاقه ينظرون إليه، ولا شكّ أنّهم يأسفون للحظّ الذي جعل قامةً كقامته تنكسر أمام هبّةِ نسيمِ عطرٍ من امرأةٍ؛ وما زال شقاؤُه يُخَطُّ سطرًا سطرًا على وجهه الكالح.

قال الرّئيس مخاطبًا الكونت: - سيّدي مورسيرف، هل تقرُّ بأنّ السيّدة الماثلة أمامنا هي ابنةُ علي ألباني باشا يوانينا؟

بذل مورسيرف جهدًا لينهض، ثمّ قال: - بل ما هيّ إلا امرأةٌ مأجورةٌ من طرف أعدائي.

وكانت هايدي تحدّق في الباب كأنّما تنتظر أحدًا، فاستدارت بغتةً،

ولمّا وقع نظرها على الكونت أطلقت صيحةً رهيبةً، وقالت:- ألم تتعرّف عليّ؟ أمّا أنا، فلحسن الحظّ عرفتُك! أنت فرنان مونديغو، الضّابط الأفرنجيّ الذي كان مكلّفًا بقيادة جنود أبي. أنت من سلّم قلعة يوانينا! أنت من أرسلك الرّجل الذي أحسن إليك، إلى الإمبراطور لتناقش معه مباشرةً حياةَ أبي أو موتَه، فأتيت بفرمانٍ كاذبٍ يعفو عن والدي عفوًا شاملًا! وأنت من حصلت، بموجب الفرمان، على خاتم الباشا الذي يمنحك طاعةَ سليم، حارس النّار؛ وأنت من طعن سليم! وأنت من باعنا أنا وأميّ إلى التّاجر الكُبير! قاتل! قاتل! قاتل! ما زلت تحمل في جبينك دم سيّدك! انظروا إليه جميعًا!

نطقت كلماتها تلك بصدقٍ وحماسة، حتّى إنّ الأنظار جميعها استدارت تتفحّص جبين الكونت، وحتّى الكونت نفسه تفحّص بيده جبينه كأنّما لا تزال عليه دماءُ علي باشا.

وسألها الرئيس: - تقرّين إذًا يا سيّدتي بأنّ السيّد دو مورسيرف هو نفسه الضّابط فرنان مونديغو؟

صاحت هايدي: - نعم أقرّ! آه يا أمّاه! أذكر كلامك لي: «كنتِ حرّةً، وكان لك أبٌ يحبّك، مصيرك تقريبًا كان مصير ملكة! تأمّلي هذا الرّجل، هو من استعبدك، وهو من حمل على رمح رأس والدك، وهو من باعنا، هو من سلّمنا! انظري إلى يده اليمنى، اليد الّتي تحمل ندبةً واسعةً؛ إن نسيتِ وجهه، فسوف تعرفينه من ندبته، ندبة يده التي استلمت مال التّاجر الكُبّير، قطعةً قطعة!». بلى أقرّ بأنه هو! آه! فليجرؤ الآن على أن يدّعي جهله بي.

كانت كلّ كلمةٍ تتفوّه بها تسقط كقطلس[1] على مورسيرف، فتقصُّ جزءًا من طاقته؛ وعند آخر كلماتها، أخفى رغمًا عنه يده في صدره، يده التي كانت عليها بالفعل ندبةٌ، وتهاوى في مقعده يقوّضُه يأسٌ قاتل.

---

(1) القَطلَسُ، سيف قصيرٌ ثقيل يُستخدم بالعادة في قطع النّباتات.

هزّ المشهد نفوس أعضاء اللّجنة، كما تهزُّ أوراقَ الأشجار الميّتةَ ريحُ الشّمال القويّة.

قال الرّئيس: - سيّدي الكونت دو مورسيرف، لا تستسلم، دافع عن نفسك. إنّ عدالة المحكمة لا يُعلى عليها، ولا تظلمُ أحدًا؛ لذا لن تترك أعداءك يسحقونك من دون أن تُترك لك الفرصة للدّفاع عن نفسك. هل ترغب في أن نفتح تحقيقات جديدة؟ هل تريد أن آمر بسفر عضوين من أعضاء المجلس إلى يوانينا؟ تكلّم!

لم يُحر مورسيرف جوابًا. إذّاك تبادل أعضاء اللّجنة جميعًا نظراتِ رعب. كان الجميع يعرف طبع الكونت الحادّ القويّ. فكانت تلزمُ قوّةٌ قاهرةٌ لتقويض دفاع هذا الرّجل؛ لذا ظنّ الجميع أنّ سكوت الكونت، الذي يشبه السّبات، لا بدّ أن يتمخّض عن استفاقةٍ تشبه الصّاعقة.

سأله الرّئيس: - حسنًا يا سيّدي، ماذا قرّرت؟

قال الكونت بصوتٍ مكتومٍ وهو يقوم من مجلسه: - لا شيء!

قال الرّئيس: - ما قالته إذًا ابنة علي ألباني حقٌّ؟ نطقت إذًا حقًا بالشّهادة الدّامغة التي لا يملك المتّهم لها ردًّا؟ هل قمتَ إذًا حقًّا بكلّ هذه الأشياء التي تتّهمك بها؟

جال الكونت حوله بنظرةٍ يائسةٍ كانت لتمسّ حتّى قلوب الفهود، لكنّها لا يمكن أن تؤثّر في القضاة؛ ثمّ رفع عينيه إلى قبّة السّقف، ثمّ ما لبث أن أدارهما، كأنّما يخشى أن تنفتح القبّة، فتكشف عن القبّة التي فوقها، أقصد قبّة السّماء، هناك حيث ينتظره القاضي الآخر المسمّى الرّب.

ثمّ بحركةٍ مباغتةٍ نزع أزرار الزيّ التي كانت تخنقه، وغادر القاعة كمذهولٍ؛ لحظةً بعد ذلك تناهى وقع خطواته الكئيبة تحت القبّة الرّنانة، ثمّ ما لبث أن سُمع صرير العربة التي اخترقت هرولةً بوّابة تلك البناية ذات الطّراز الفلورنسيّ.

قال الرّئيس لما استعادت القاعة صمتَها: - سادتي، هل ترون ثبات الجرم والخيانة والخزي في حقّ السيّد الكونت دو مورسيرف؟

أجاب أعضاء لجنة التّحقيق بصوتٍ واحد: - نعم!

أمّا هايدي التي حضرت الجلسة حتّى نهايتها، فقد شهدت نطق الحكم من غير أن يبدو عليها تعبير فرحٍ أو شفقة. ثمّ إنّها غطّت وجهها بحجابها، وحيّت المستشارين بمهابةً، وخرجت بتلك الخطوات التي كان فرجيليوس يرى الإلهات يمشين بها.

87

الاستفزاز

واصل بوشان: «اغتنمتُ الصّمت والعتمة في القاعة لأخرج من غير أن ينتبه لأمري أحد. وكان الحاجبُ الذي أدخلني ينتظرني عند الباب. قادني عبر أروقة حتّى بلغ بي بابًا صغيرًا يفضي إلى شارع فوغيرار. فخرجتُ بنفسٍ مكسورةٍ ومفتونةٍ في آنٍ، واعذرني على هذا التّعبير يا ألبير، مكسورةٍ لما وقع من أذى لك، ومفتونةٍ بنبل تلك الصبيّة التي انتقمت لوالدها. أجل، أقسم لك يا ألبير، أيًّا كانت الجهة التي تقف وراء ما يحدثُ، لا أشكّ في أنّها جهةٌ عدوٌ، لكنّني أستطيع أن أقول إنّ هذا العدوّ ليس إلاّ خادم القدر».

كان ألبير يدفن رأسه بين يديه؛ رفع وجهه، كان أحمر من الغضب وغارقًا في الدّمع. أمسك ذراع بوشان وقال:

- لقد انتهت حياتي. لم يبق لي إلا أن ألاحق الرّجل، وليس القدر كما تقول، الذي يناصبني العداء؛ وحين أقع عليه، سأقتله أو يقتلني؛ لذا أعوّل عليك في أن تساعدني بدافع الصّداقة، إن لم يكن الاحتقار قد قتل الصّداقة في قلبك.

- الاحتقار يا صديقي؟ وفيمَ تمسّك أنت هذه المصيبة؟ كلّا، والحمدُ للرّب! لقد ولّى الزّمن الذي كان فيه الأبناء يؤخذون بجريرة الآباء! فلتسترجع حياتك بأكملها يا ألبير، صحيحٌ أنّها حياةٌ حديثةٌ جدًا، لكنّها حياةٌ نقيّةٌ صافية. كلاّ يا عزيزي، صدّقني، أنت لا تزالُ شابًا، وثريًا، فهاجر من فرنسا. بلدنا هذا يشبه بابل، كلّ شيءٍ فيه يُنسى في خضمّ البلبلة وتبدّل الأذواق؛ لذا سوف تعود إليه بعد ثلاث سنواتٍ أو أربع،

متزوّجًا من أميرة روسيّة، ولن يتذكّر أحدٌ ما وقع بالأمس، فكيف بما وقع منذ ستّة عشر عامًا.

- شكرًا يا عزيزي بوشان على ما تحمله كلماتك من مشاعر طيّبة، لكنّ الأمور لن تجري على هذا النّحو، لقد عبّرتُ لك عن رغبتي، والآن سوف أبدل بكلمة رغبة كلمة إرادة. لا بدّ أنّك تدرك أنّنا لا يمكن أن نرى الأمور من نفس الزّاوية، ما دام أحدنا، بخلاف الآخر، منخرطًا فيها ومعنيًا بها مباشرةً. إنّ ما يبدو لك أنت آتيًا من مصدر سماويّ، يبدو لي أنا تدبيرَ يدٍ أقلّ طهارةً. من جهتي لا أرى أن للقدر علاقةً بما يجري، وهذا لحسن حظّي، لأنّني بدلًا من أن أواجه عدوًا خفيًا يوزّع هبات الرّب وعقوباته، سوف أقابل كائنًا ملموسًا ومرئيًا، اقتصُّ منه. آه! أقسم بأن أستخلص منه كلّ ما عرفته من عذاباتٍ منذ شهور. والآن، أؤكّد لك مرّةً أخرى يا بوشان أنّني لن أنسحب من الحياة العامّة، وإنّي عازمٌ على أن أجد اليد التي منها أتت الطّعنةُ. هل لا تزال صديقًا لي بما يكفي لتساعدني؟

قال بوشان: - ليكن لك ما أردت! فإن أردت لي أن أنزل معك إلى الميدان، وأبحث معك عن عدوّك، فلن أتوانى في تلبية دعوتك. وسوف أجده، لأنّ شرفي أنا أيضًا متعلّقٌ بالعثور عليه.

- حسنًا يا بوشان، فلنبدأ البحث من فورنا وساعتنا. إنّ كلّ دقيقةٍ نضيّعها هي بمثابة أبديةٍ بالنّسبة إليّ؛ لم يُعاقب الواشي بعد، فقد يكون مطمئنًا إلى أنّه سوف ينجو بفعلته؛ وبشرفي إنّه لمخطئٌ!

- حسنًا، أصغ إليّ يا مورسيرف.

- آه! أرى أنّ لديك ما تخبرني به يا بوشان، إنّك لتعيد إليّ الحياة!

- لا أقول إنّ ما سأقوله الحقّ يا ألبير، لكنّه على الأقل شعاع ضوءٍ وسط اللّيل، وإن تبعت الشّعاع، لربّما تبلغ مرادك.

- أفصح، فها أنت ترى أنّ صبري بلغ منتهاه.

- حسنًا، سوف أخبرك بما لم أشأ أن أطلعك عليه ممّا كنت قد وقفتُ عليه في يوانينا.

- تكلّم.

- إليك ما حدث يا ألبير؛ قصدتُ بدايةً أوّل مصرفيّ في المدينة لأستعلم منه أخبارًا؛ فما إن نطقت بأولى الكلمات الدّالة على القضية، حتّى قبل أن أنطق باسم والدك، حتّى قاطعني قائلًا:

- آه، أعرفُ ما قد أتى بك إلى هنا!

- كيف، ولماذا؟

- لأنّني منذ خمسة عشر يومًا فقط، سُئلتُ في القضيّة نفسها.

- ومن كان السّائلُ؟

- مصرفيٌّ من باريس، عميلٌ لي.

- واسمُه؟

- السيّد دانغلار.

صاح ألبير: - هو! بالفعل إنّه هو من يلاحقُ والدي منذ مدّةٍ بحسده الحقود؛ هو الرّجلُ الذي يدّعي انتماءه للشّعب، فلا يستطيع أن يغفر لوالدي انتماءه لمجلس الأقران. ثمّ ما قولك في قراره المفاجئ إلغاء الزّواج المقرَّر، بلا سبب وجيه؟ إنّه هو بلا شك.

- استعلِم الأمر يا ألبير (لكن خفّف من اندفاعك)، استعلم، فإن كان الأمر حقيقة...

صاح الشّابُ: - بلى، إنّه الحقيقة! سوف يدفع ثمّن كلّ ما سبّبه لي من آلام.

- انتبه يا مورسيرف، إنّه رجلٌ مسنٌّ.

- سوف أوقّرُ سنّه بقدر ما وقَّرَ هو شرف عائلتي؛ إن كان له ما يؤاخذ والدي عليه، فلمَ لم يتوجّه مباشرةً إلى والدي. آه، إنّه يخشى مواجهة رجل!

- إنّي لا ألجمُك عنه يا ألبير، وإنّما فقط أكبح جماحك؛ تصرّف بحذر يا ألبير.

- أوه! لا تخف يا بوشان؛ ثمّ إنّك سوف ترافقني، إنّ الأمور المهيبة

ينبغي أن تتمّ في حضور شاهد. قبل نهاية هذا اليوم، إن ثبت الذّنبُ على السيّد دانغلار، فسوف يلقى حتفه، أو أموت أنا. بحقّ السّماء يا بوشان، أريد أن تُقام على شرفي جنازةٌ رائعةٌ!

- حسنًا يا ألبير، حين يتّخذ المرء مثل هذه القرارات، ينبغي له أن ينفّذها في الوقت والحين. ستذهب عند السيّد دانغلار؟ هيّا بنا.

بعثا في طلب عربة. ولمّا أشرفا على منزل المصرفيّ، أبصرا عربة السيّد أندريا كافالكانتي بالباب.

قال ألبير بصوتٍ كئيب: - آه! بحقّ السّماء! ما أنسبها من صدفة! إن رفض السيّد دانغلار مبارزتي، فسوف أقتل صهره. لن يرفض أحد آل كافالكانتي المبارزة!

أُعلم المصرفيّ بقدوم الشّاب، فمنع دخوله عليه لعلمه بما وقع أمس. لكن كان الأوان قد فات، إذ إنّ ألبير قد تبع الحوذيّ، وسمع الأمر الذي أصدره المصرفيّ، فكسر البابَ ودخل حتّى مكتب دانغلار، وفي إثره بوشان.

صاح دانغلار: - ماذا يا سيّدي! ألم يعد الإنسان حرًّا في أن يستقبل في بيته من يشاء، ويمنع من الدّخول من يشاء؟ يبدو لي أنّك قد فقدت الصّواب.

أجابه ألبير ببرود: - كلّا يا سيّدي، ثمّة ظروفٌ، مثل هذه التي تجمعنا، يكون فيها المرء مضطرًا ألّا يحتميَ بمكتبه من بعض النّاس، إلا في حال الجبن.

- ما الذي تريده منّي إذًا يا سيّدي؟

قال مورسيرف وهو يقترب من غير أن يبدي اهتمامًا بكافالكانتي الجالس لصق المدفأة: - أريد أن أعرض عليك لقاءً في مكانٍ منعزل، لا أحد يزعجنا فيه لمدّة عشر دقائق، لا أطلب منك غير هذا؛ وهناك، من بين الرّجلين اللّذين سيجمعهما المكانُ المنعزل، أقصد أنا وأنت، لن يعود إلا واحد.

بهت دانغلار، وندّت عن كافالكانتي حركة. استدار ألبير صوب الشّاب:

- أوه! لك أن تأتي، إن شئتَ، يا سيّدي الكونت، فأنت تقريبًا فردٌ من العائلة، وأنا أسمح بالحضور لكلّ من له الحقّ في ذلك.

نظر كافالكانتي إلى دانغلار مذهولًا، فبذل المصرفيُّ مجهودًا ليقوم ويمشيَ بين الشّابين. إنّ هجوم ألبير على أندريا، قد نقله إلى ميدانٍ آخرَ، وها هو يرجو أنّ زيارة ألبير لها سببٌ آخر غير ذاك الذي افترضه بدايةً.

قال مخاطبًا ألبير: - آه! يا سيّدي، إن كنت قد أتيت إلى هنا تعرض المبارزة على السيّد كافالكانتي لأنّني فضّلتُه عليك، فأخبرك أنّني سأرفع القضية إلى وكيل الملك.

قال مورسيرف بابتسامةٍ مظلمة: - أنت مخطئٌ يا سيّدي، لستُ ألمّحُ إلى الزّواج البتّةَ، ولم أتوجّه بالكلام إلى السيّد أندريا كافالكانتي إلا لأنّه بدا لي لوهلةٍ يرغب في التدخّل في نقاشنا. أمّا ما تبقّى فلم تخطئ فيه، إنّني بالفعل أتيت أبحث عن المبارزة، مبارزة أيّ كان؛ لكن لتطمئنّ يا سيّدي دانغلار، إنّ لك الأسبقية.

قال دانغلار وقد شحب من الخوف والغضب: - أنبّهك يا سيّدي إلى أنّني حين يشاء لي سوء الحظّ أن أصادف في طريقي كلبًا مسعورًا فإنّني لا أتوانى في قتله دونما ندم، لا بل أحسُّ بأنّني أقدّم للمجتمع خدمةً. أمّا وأنّك قد أتيت حتّى هنا، وأنت في حالِ السّعار، وتريد عضّي، فلا مناص لي من قتلك بلا رحمة. أهو خطِأي أنا أن يُلطّخَ شرفُ والدك؟

صاح ألبير: - نعم، هو خطأُك أيّها الحقير!

تراجع دانغلار خطوةً إلى الخلف، وقال: - خطِأي أنا! لقد فقدت صوابك! أنّى لي أنا أن أعرف بقصّة اليونانية؟ هل سبق لي أن زرت تلك البلدان؟ وهل أنا من نصح أباك بأن يسلّم قلعة يوانينا؟ وأن يخون...

صاح ألبير بصوتٍ مكتوم: - صه! كلّا، لست أنت من تسبّب مباشرةً في هذه المصيبة، لكنّك أنت من دبّر بخبث ظهورَها.

– أنا!

– نعم أنت! من أين أتت الوشاية؟

– لكنّي أظنُّ بأنّ الجريدة قد أشارت إلى ذلك أيّها الأحمق. من يوانينا بحقّ السّماء!

– ومن كتب إلى يوانينا؟

– إلى يوانينا؟

– نعم. من كتب يستخبر عن أمر والدي؟

– يبدو لي أنّ الجميع يستطيع الكتابة إلى يوانينا.

– لكنّ شخصًا واحدًا بالضّبط كتب.

– شخصًا واحدًا؟

– نعم! وهذا الشّخص هو أنت.

– بالطّبع كتبتُ؛ يبدو لي أنّ من حقّ الرّجل المقبل على تزويج ابنته، أن يستعلم عن عائلة صهره المفترض. إنّه ليس حقًّا فحسب، وإنّما واجب.

قال ألبير – لقد كتبت يا سيّدي، وأنت تعلم مسبقًا، علم اليقين، الجوابَ الذي سوف تتلقّاه.

صاح دانغلار بثقة واطمئنان، مبعثُهما العنايةُ التي يوليها هذا الشّابَ الشقيَّ، أكثر منه خوَفُه: – أنا؟ آهٍ! أقسم أني أبدًا ما كنتُ أفكّر في الكتابة إلى يوانينا. كيف لي أنا أن أعلم بفاجعة علي باشا؟

– ثمّة إذًا من دفعك إلى الكتابة؟

– بالتّأكيد.

– دُفعت إلى الكتابة؟

– نعم.

– من؟ هيّا أنجِز.. قُل..

– إلهي! لا شيء أبسط! كنتُ أتحدثّ عن ماضي والدك، وقلت إنّ مصدر ثروته يظلُّ مجهولًا. فسألني الشّخص المعلوم أين حصّل والدك ثروته. أجبته: «باليونان»، فقال: «اكتُب إذًا إلى يوانينا».

- ومن أعطاك النّصيحة؟
- بحقّ السّماء! صديقُك الكونت مونت كريستو.
- الكونت مونت كريستو نصحك بأن تكتب إلى يوانينا؟
- نعم، وقد كتبتُ. هل تريد أن ترى مراسلتي؟ سأريك إيّاها.
تبادل ألبير وبوشان النّظر.
قال بوشان الذي لزم الصّمت حتّى تلك اللّحظة: - سيّدي، يبدو لي أنّك تتّهم الكونت الغائب حاليًا عن باريس، ولا يستطيع الدّفاع عن نفسه الآن؟
قال دانغلار: - لست أتّهم أحدًا، إنّما أحكي فقط ما جرى، وأستطيع أن أكرّر كلامي هذا أمام الكونت مونت كريستو نفسه.
- وهل يعرف الكونت الجواب الذي أتاك؟
- لقد أطلعتُه عليه.
- وهل يعرف أنّ اسم والدي فرنان، واسم عائلتي مونديغو؟
- أجل، لقد أخبرته بذلك منذ مدّة بعيدة. ثمّ إنّني لم أفعل إلا ما كان ليفعله أيّ شخص آخر مكاني، لا بل فعلت أقلّ ممّا يمكن أن يفعله. فغداة توصّلي بالرّسالة التي دفعني إليها السيّد مونت كريستو، أتاني والدك يطلب يد ابنتي رسميًا، على عادة ما يُفعل حين نريد الحسم في أمر زواج، فرفضتُ. رفضتُ رفضًا باتًا قاطعًا، لكن من غير أن أبديَ مبرّرًا أو أثير فضيحة. فالحقّ، فيمَ ستفيدني أنا فضيحة؟ ما همّني أنا إن صين شرفُ السيّد مورسيرف أو لُطخ؟ لن يزيد الأمر في أرباحي ولن ينقص.
أحس ألبير بحمرة الغضب تصعد إلى جبينه؛ وما زال الشكّ يستولي على نفسه أكثر فأكثر؛ فالواضح أنّ دانغلار وإن كان يتحدّث بدناءةٍ، إلّا أنّه يتكلّم كذلك بثقةٍ وصدقٍ لا يمليهما عليه ضميره، وإنّما رعبه. ثمّ، ما الذي أتى مورسيرف يبحثُ عنه؟ ليس إدانة دانغلار أو مونت كريستو، وإنّما جاء يلتمس رجلًا يردّ الإهانة بإهانة أقلّ أو أخطر، رجلٌ يوافق على المبارزة، وبيّنٌ أنّ دانغلار ليس بالرّجل الذي يُبارزُ.

ثمّ إنّ كلّ الأمور المنسيّة أو المُغْفَلة قد بدأت تتجلّى لعينيه أو تُستحضر في ذاكرته. كان مونت كريستو يعرف كلّ المعطيات، ما دام يملك ابنة علي باشا؛ وعلى علمه بكلّ شيءٍ حثَّ دانغلار على الكتابة إلى يوانينا. فلمّا اطّلع على الردّ، قبِل أن يحقّق رغبة ألبير فيقدّمه إلى هايدي؛ فلمّا جمعه بها، ترك سير الحديث يقصد موت علي باشا، ومن دون أن يعترض على سرد هايدي (لا شكّ في أنّه قد أمرها بالكلمات الرّومايك البسيطة التي تبادلاها، ألاّ تذكر اسم الضّابط، كي لا يتعرّف الابن على والده)؛ ثمّ ألم يطلب من مورسيرف نفسه ألاّ يذكر اسم والده أمام هايدي؟ ثمّ إنّه استدرج ألبير إلى النّورماندي في اللّحظة التي كان يعرف فيها أنّ الفضيحة ستنفجر. لم يبق مجالٌ للشكّ: إنّ كلّ شيءٍ قد تمّ بحسبانٍ، وإنّ مونت كريستو على علاقةٍ بأعداء والده.

تنحّى ألبير ببوشان جانبًا وأخبره بكلّ تلك الخواطر.

قال بوشان: - أنت محقٌّ، ليس دانغلار في كلّ ما جرى سوى أداة الانتقام الوحشيّة؛ إنّ مونت كريستو هو من ينبغي أن تطلب منه شرحًا.

استدار ألبير إلى دانغلار وقال:

- سيّدي! لا تحسبنَّ أنّنا أغلقنا القضيّة. ما زال عليّ أن أتأكّد من صدق كلامك، وسوف أتحقّق من كلّ شيءٍ عند الكونت مونت كريستو.

ثمّ إنّ ألبير حيّا المصرفيَّ، وخرج مع بوشان من غير أن يحفل بكافالكانتي.

رافقهما دانغلار حتّى الباب، وهناك جدّد لألبير التأكيد على أنّه لا يحمل أيّ ضغينةٍ شخصيّة للسيّد الكونت دو مورسيرف.

88

الإهانة

عند باب المصرفيّ استوقف بوشان صديقَه ألبير.

قال: – اسمع، قبل قليل قلتُ لك عند السيّد دانغلار إنّك ينبغي أن تطالب السيّد الكونت مونت كريستو بشرح.

– نعم، ولذلك نحن ذاهبان عنده.

– لحظة يا مورسيرف؛ فكّر قبل أن تقصد الكونت.

– فيمَ تريدني أن أفكّر؟

– في خطورة ما أنت مقدمٌ عليه.

– أهو أخطرُ من الذّهاب عند السيّد دانغلار؟

– نعم، دانغلار رجل أموال، وكما تعلمُ فإنّ رجال المال يحسبون جيّدًا حساب الخسارة. أمّا صاحبُنا الكونت، فرجلٌ نبيل، أو على الأقل يظهر كذلك؛ ألا تخشى أن تجد تحت قناع النّبيل رجلًا مقدامًا؟

– لا أخشى إلا شيئًا واحدًا: أن أجد رجلًا يرفض المبارزة.

– من هذه النّاحية اطمئنّ! هذا رجلُ مبارزةٍ؛ لا بل أقول إنّه يبارزُ على نحو أفضل بكثير ممّا يجب؛ فاحترس!

قال مورسيرف بابتسامة جميلة: – وهذا عينُ مطلوبي يا عزيزي! إنّ أفضل ما يمكن أن أصبو إليه هو أن أُقتل في سبيل أبي، لأنّ في موتي إنقاذًا لشرفنا جميعًا.

– لكنّ في موتك مقتل والدتك!

قال ألبير وهو يمسح بيده عينيه: – أمّي المسكينة! أعلم ذلك علم اليقين؛ لكن أولى لها أن تموت حزنًا على أن تموت عارًا.

- حسمت أمرك إذًا يا ألبير؟
- نعم.
- هيّا إذًا! لكن، هل تظنُّ أنّنا سوف نجده؟
- يفترضُ به أن يعود بعدي ببضع ساعاتٍ، ولا شكّ في أنّه قد عاد.

ركبا العربة، وطلبا من الحوذيّ أن يأخذهما إلى الرّقم 30 من شارع الشانزيليزيه. ثمّ أراد بوشان أن ينزل بمفرده، لكنّ ألبير بيّن له أنّ هذه القضيّة ليست بسيطة، ممّا يعني أنّها تسمح له بأن ينزاح عن أعراف النّزال.

ولمّا كان الشّابُ يتحرّك وفق ما تمليه عليه غايةٌ مقدّسةٌ، فلم يكن لبوشان إلا أن ينصاع إلى كلّ ما يُطلب منه. وكان أن انقاد لرأي ألبير، واكتفى بأن يتبعه.

لم يحتج ألبير لأكثر من قفزة حتّى يجاوز مقصورة البوّاب إلى شرفة الباب. وكان في استقباله باتيستان.

كان الكونت بالفعل قد عاد، لكنّه يستحمّ، وقد منع استقبال أيّ كان.

سأله مورسيرف: - وبعد الحمّام؟
- سوف يتعشّى سيّدي؟
- وبعد العشاء؟
- ينام ساعةً.
- ثمّ؟
- يذهب إلى الأوبرا.

سأله ألبير: - هل أنت متأكّد؟
- متأكّد تمامًا؛ لقد طلب سيّدي أن تجهّزَ خيوله في الثّامنة بالضّبط.

أجاب ألبير: - حسنًا جدًّا؛ هوذا كلّ ما كنت أرجو معرفته.

ثمّ استدار إلى بوشان:
- إن كان لديك ما تفعله يا بوشان، فعجّل به الآن؛ وإن كان لك موعدٌ

أجّله إلى الغد. تفهم أنّني أعوّل عليك في الذّهاب إلى الأوبرا، وإن استطعت اصطحب معك شاتو رونو.

اغتنم بوشان إذنَ ألبير ليتركه بعدما وعده أن يمرّ عليه في تمام الثامنة إلا ربعًا.

ولمّا عاد ألبير إلى منزله، كتب إلى فرانز ودُبراي وموريل يرجوهم لقاءَهُ في الأوبرا مساءَ اليوم نفسه.

ثمّ ذهب ليزور أمّه التي غلقت على نفسها الأبواب، ولزمت غرفتها، مُنذ حوادث أمس. وجدها في السّرير يسحقُها ألم العار الذي لحقها أمام الملأ. وقد أحدث مرأى ألبير في مرسيدس الأثر المتوقّع. ضمّت يد ابنها وانخرطت في النّحيب. على أنّ دموعها هدّأت من روعها.

وظلّ ألبير لوهلةٍ واقفًا صامتًا بجانب وجه أمّه. ومن سحنته الباهتة وحاجبيه المقطّبين كان يبدو أنّ قرار الانتقام ما انفكّ يضعفُ في قلبه.

قال ألبير: - أمّي، هل تعرفين للسيّد دو مورسيرف أعداءً؟

انتفضت مرسيدس؛ فقد لاحظت أنّ الشّاب لم يقُل: أبي.

أجابته: - عزيزي، إنّ النّاس ممّن هم في مكانة الكونت يراكمون أعداءً لا يعرفونهم. ثمّ إنّ الأعداء الذين نعرفهم، لم يعودوا يشكّلون، كما تعلم، أيّ خطر.

- أجل، أعرف هذا يا أمّي. إنّما أطلب أن تشحذي كلّ تبصّرك. إنّك امرأةٌ لا يفلت منها شيء.

- ولمَ تطلب منّي هذا؟

- لأنّك لاحظتِ، على سبيل المثال، أنّ الكونت مونت كريستو، يومَ دعوناه إلى حفلنا الرّاقص، رفض أن يتناول في بيتنا أيّ شيء.

قامت مرسيدس مستندةً إلى ذراعها الملتهبة بالحمّى، وصاحت:

- لكن، ما علاقةُ الكونت مونت كريستو بالأسئلة التي تطرحها عليّ؟

- أنت تعرفين يا أمّي أنّ الكونت يكادُ يكون رجلًا شرقيًّا. وإنّ أهل

الشّرق، حين يتوعّدون بالانتقام من شخصٍ ما، فإنّهم لا يقربون البتّة طعامَه أو شرابه.

قالت وقد صار وجهها أشدَّ شحوبًا من الملاءة التي تغطّيها: - تقول إنّ الكونت مونت كريستو عدوّنا يا ألبير؟من أخبرك بهذا؟ ولِمَ؟ لقد جُننتَ يا ألبير، إنّنا لم نرَ من الكونت مونت كريستو إلا خيرًا. الكونت مونت كريستو قد أنقذ حياتك، وأنت نفسك من قدّمته إلينا. أرجوك يا عزيزي، إن راودتك أمثالُ هذه الفِكر، فاطردها عنك فورًا؛ وإن كان لي من نصيحةٍ أنصحك بها يا بنيّ، فهي: حافظ على علاقتك بالكونت.

أجابها الشّاب بنظرةٍ كالحة: - إنّ لك يا أمّي بلا شكٍّ أسبابًا تدفعك إلى قول ما قلته.

صاحت مرسيدس، وقد علتها حمرةٌ سرعان ما انقلبت شحوبًا أشدّ من شحوبها السّابق: - أنا!

- نعم، بلا شكٍّ، وهذه الأسباب بلا شكٍّ هي ما يدفعك للقول إنّ هذا الرّجل لا يمكن أن يؤذينا؟

ارتجفت مرسيدس، ثمّ حدّقت في ابنها بنظرةٍ متفحّصة.

قالت: - إنّك تتحدّث إليّ على نحوٍ غريب يا ألبير، ويبدو لي أنّك تنطوي على نيات غريبة. أيّ شيءٍ إذًا فعل بك الكونت؟ منذ ثلاثة أيّام فقط كنت معه في النورماندي؛ منذ ثلاثة أيّامٍ فقط، كنتُ أراهُ، وكنتَ تراهُ أنت أيضًا، أعزّ صديق لك.

ارتسم على شفتَي ألبير شبح ابتسامة ساخرة. لمحت مرسيدس الابتسامة، وبغريزتها المزدوجة، غريزة الأمّ والمرأة، أدركت كلّ شيء؛ لكن بقوّتها وحرصها أخفت اضطرابها ورجفتها.

قطع ألبير الحديث؛ وبعد لحظةٍ وصلته الكونتيسة مجدّدًا.

قالت: - لقد أتيت تسألني عن حالي يا ألبير؛ وأقول لك يا عزيزي إنّني لستُ بخير، أحتاج أن تبقى بقربي هنا.

قال الشّابُ: - أمّاه، يسعدني ويشرّفني أن أنفّذ مطالبك، لولا أنّ قضيّةً مستعجلةً ومهمّة تنتظرني هذا المساء.

أجابت مرسيدس مطلقةً تنهيدة: - آه! حسنًا يا ألبير؛ لا أريد أن أجعلك عبدًا لعاطفة البنوّة.

تظاهر ألبير بأنّه لم يسمع شيئًا، وحيّا أمّه، ثمّ انصرف. وما كاد الشّابُ يخرج، حتّى نادت مرسيدس خادمًا ثقةً، وأمرته بأن يقتفي الشّاب أينما حلّ وارتحل تلك اللّيلة، ويبلغها بكلّ شيءٍ أوّلًا بأوّل. ثمّ نادت وصيفتها، وعلى ما فيها من الضّعف والوهن، ارتدت وتزيّنت استعدادًا لأي حدث.

ولم تكن المهمّة التي أوكل بها الخادم صعبةً. لقد قصد ألبير جناحه، فارتدى زيًا متطلّبًا وصارمًا في آنٍ. وفي الثامنة إلا عشر دقائق أتى بوشان. وكان قد التقى شاتو رونو الذي وعده بأن يلقاهما في الأوبرا قبل رفع السّتارة.

صعدا معًا في عربة ألبير، ولمّا لم يكن لديه ما يخفيه، فقد صاح بالسّائس: - إلى الأوبرا!

وفي غمرة تحرّقه، وصل قبل رفع السّتارة. وكان شاتو رونو في مقصورته. ولمّا كان بوشان قد أخبره بكلّ شيءٍ، فلم يكن لألبير ما يشرحه له. إنّ سعيَ الابن إلى الانتقام لشرف أبيه، أمرٌ واضحٌ وبسيطٌ، فلا يحتاج شاتو رونو إلى جداله، لذا اكتفى بأن أكّد له أنّه يضع نفسه طوع طلباته.

ولم يكن دُبراي قد وصل بعد، لكنّ ألبير يعرف أنّه نادرًا ما يفوّتُ عرضًا في الأوبرا. هام ألبير في المسرح حتّى رُفعت السّتارة. وكان يأمل أن يلتقي مونت كريستو سواءً في الرّدهة، أو على الدّرج. ثمّ نبّهه الجرسُ، فقصد القاعة يجلسُ في موضعه، بين شاتو رونو وبوشان. لكنّه لم يكن يرفع عينيه عن تلك المقصورة، بين الأعمدة، التي بدا أنّها تصرّ على أن تظلّ مغلّقةً طيلة المشهد الأوّل.

وأخيرًا، وبينما يتفحّص ألبير ساعته للمّرة الخامسة، ومع بداية المشهد الثّاني، انفتح بابُ المقصورة، وأطلّ الكونت مونت كريستو مرتديًا زيًا أسود، وجلس مستندًا إلى الدرابزين ليشاهد القاعة؛ وفي إثره كان موريل، يبحث بعينيه عن أخته وزوجها. أبصرهما في مقصورة بالصّف الثاني، فحيّاهما بإشارة.

ولمّا ألقى الكونت على الصّالة نظرةً شاملةً، أبصر وجهًا شاحبًا يتطاير الشّرر من عينيه، وجهًا يجذب إليه الأنظار ضرورةً؛ بالطّبع تعرف على صاحب الوجه؛ كان ألبير؛ لكنّ التّعبير الذي لاحظه على الوجه المصدوم أوعز له بأن يتظاهر بأنّه لم يلاحظ شيئًا. من دون أن يقوم بأيّ حركةٍ تفضح ما يجول بخاطره، جلس، وأخرج منظاره من غمده، وسدّده باتّجاه موضع آخر.

لكن، من غير أنٍ يبدو عليه متابعة ألبير، لم يكن الكونت يغفل عنه، وحين نزلت السّتارة معلنةً نهاية المشهد الثّاني، تابعت نظرتُه السّديدة الشّابَ وهو يغادر الصّالة برفقة صديقيه.

ثمّ ما لبث الوجه نفسُه أن ظهر عند مدخل مقصورةٍ مجاورة لمقصورة الكونت. أحسّ الكونت بالعاصفة تقترب منه، ولمّا سمع المفتاح يدور في قفل مقصورته، وإن كان يتحدّث إلى موريل بوجهٍ ضاحكٍ، إلا أنّه كان قد تحضّر لأيّ شيء محتمل.

فُتح البابُ.

وإذّاك فقط التفت الكونت، فأبصر ألبير، مضطربًا شاحبًا؛ وخلفَه بوشان وشاتو رونو.

صاح بالأدب المعتاد في تحيّته الحارة، قياسًا إلى عادات المجتمع المبتذلة: - أهلًا! ها فارسي قد وصل إلى الهدف! مساء الخير يا سيّدي مورسيرف.

وكان وجه الرّجل الفريدِ، سيّدِ انفعالاته، يطفح بالمودّة.

إذّاك فقط تذكّر موريل الرّسالة التي وصلته من عند الفيكونت، يرجوه فيها، من غير أن يدلي بسبب، أن يلاقيه في الأوبرا؛ فأدرك أنّه سيشهد شيئًا خطيرًا.

قال الشّابُ: - لسنا هنا لنتبادل التّحايا المنافقة، والمودّة الزّائفة؛ إنّما أتينا هنا لكي نسائلك يا سيّدي الكونت.

بالكاد استطاع صوتُ الشّابِ المرتعشُ الخروج من بين أسنانه المضمومة.

قال الكونت بنبرته الهادئة ونظرته النّفاذة اللّتين تشهدان على ثقته الدّائمة بنفسه: - تريد أن تسائلني هنا في الأوبرا؟ حتّى وإن لم أكن مطّلعًا على العادات الباريسية، فما أظنّ هذا بالمكان المناسب لمساءلة رجل.

قال ألبير: - لكن، حين يتعلّق الأمر بأناس يتحصّنون، رجالٍ لا يمكّن الوصول إليهم، بدعوى أنّهم يستحمّون، أو يأكلون أو ينامون، فلا مناص من الحديث إليهم حيثما صادفناهم.

قال مونت كريستو: - ليس لقائي بالصّعب يا سيّدي، ما دمت كنت عندي أمس فقط، إن لم تخنّي الذاكرة.

قال الشّاب والحرج يبدو على وجهه: - أمس يا سيّدي، حين كنت عندك، لم أكن أعرف من تكون.

ولمّا نطق ألبير كلماته تلك، رفع صوته حتّى يسمعه الأشخاص المتواجدون في المقصورات المجاورة، وكذلك في الأروقة. وكان أن استدار الأشخاص المتواجدون في المقصورات نحو مصدر الصّوت، وتوقّف المارّون بالأروقة خلف بوشان وشاتو رونو.

قال مونت كريستو من غير أن يبدي أيّ انفعال: - من أين أتيت يا سيّدي؟ يبدو أنّ حالتك الذّهنية ليست على ما يرام.

أجابه ألبير غاضبًا: - طالما أستطيع فهم غدرك وخيانتك، وإفهامك إيّاهما، وأريد أن أنتقم لنفسي منك، فأنا أتمتّع بعقلٍ حصيف.

أجاب مونت كريستو: - لا أفهم شيئًا ممّا تقوله يا سيّدي، ومع ذلك قد أفهمك من دون حاجةٍ منك لأن ترفع صوتك. هذا محلّي يا سيّدي، ووحدي لي الحقّ في أن أرفع فيه الصّوت أعلى من الآخرين. أخرج يا سيّدي!

وأشار مونت كريستو لألبير إلى الباب في حركة تحكّمٍ مثيرة للإعجاب.

قال ألبير وهو يشدّ بحركة متشنّجةٍ على قفّازه الذي لم يغب عن نظر الكونت لحظةً: - آه! سوف أخرجك من محلّك، وسوف ترى!

قال مونت كريستو بتبلّد: - حسنًا، حسنًا! تستفزّني للمبارزة، يا سيّدي؛ حسنًا! لكنْ نصيحةٌ يا فيكونت، ولتحفظها جيّدًا: ليس من الجيّد أن تثير الجلبة وأنت تستفزّ شخصًا للمبارزة. إنّ الضّجيج لا يبلغ الجميع يا سيّدي مورسيرف.

ولمّا نُطق الاسم، سرت همهمةُ دهشةٍ مثل رجفةٍ بين الحضور. فمنذ البارحة واسم مورسيرف على كلّ الأفواه.

أدرك ألبير تلميح الكونت أكثر من أيّ شخص، وقبل أيّ شخصٍ، وقام بحركة يرمي بها قذف الكونت بقفّازه؛ لكنّ موريل أمسك بمعصمه، وخشي بوشان وشاتو رونو أن تتجاوز الأمور حدود الاستفزاز، فأمسكا بألبير من الخلف.

ومن غير أن يقوم من مقامه، أرخى الكونت مقعده إلى الخلف، ومدّ يده فقط، فأمسك بها القفّاز من بين أصابع الشّاب المتشنّجة، وقال بنبرةٍ رهيبة:

- سيّدي، أعتبر أنّك قد قذفت بقفّازك في وجهي، وسوف أعيده إليك ملفوفًا حول رصاصةٍ. الآن اخرُج من محلّي، وإلّا ناديتُ خدمي ليرموا بك إلى الخارج.

ثملًا، مرعوبًا، داميَ العينين، تراجع ألبير خطوتين إلى الخلف.

استغلّ موريل المناسبة ليغلق الباب.

تناول مونت كريستو منظاره مجدّدًا، وشرع يتأمّل القاعة، كأنّما لم يحدث شيءٌ يستحق أن يتوقّف عنده.

كان للرّجل قلبٌ من فولاذ ووجه من رخام.

مال موريل على أذنه، وقال: - ماذا فعلت له؟

أجاب مونت كريستو: - أنا؟ لا شيء، شخصيًا على الأقلّ.

- لكن، لا بدّ أنّ لهذا المشهد الرّهيب من سبب؟

- إنّ ما فعله الكونتُ مورسيرف يدفع بالشّاب الشقيّ إلى اليأس.

- وهل لك يدٌ فيما وقع؟

- من فم هايدي عرفت اللجنةُ خيانة أبيه.

قال موريل: - الحقّ أنّي سمعت ذلك، لكنّني لم أصدّق أنّ الجارية اليونانية التي رأيتها معك، في هذه المقصورة نفسها، هي ابنة علي باشا.

- ومع ذلك، هي الحقيقة.

قال موريل: - أوه! يا إلهي! فهمت الآن كلّ شيءٍ، لقد دُبِّر هذا المشهد عن قصد.

- كيف؟

- نعم، لقد كتب إليّ ألبير يطلب منّي لقاءَه هذا المساء في الأوبرا؛ كان يريد أن يُشهدني على الإهانة التي يريد أن يلحقها بك.

قال مونت كريستو بهدوءٍ لا يكدّره شيء: - على الأرجح.

- وماذا تنوي أن تفعل به؟

- بمن؟

- بألبير!

أجاب مونت كريستو بنفس النّبرة: - بألبير؟ ما الذي سأفعله به يا ماكسيميليان؟ غدًا قبل العاشرة صباحًا سوف أقتله بالبساطة نفسها التي أصافحك بها الآن. هذا ما سأفعله!

أمسك موريل، بدوره، يد الكونت، بين يديه معًا، وارتجف وهو يشعر باليد الباردة والهادئة.

قال: - آهًا يا سيّدي الكونت! إنّ أباه يحبّه كثيرًا!

صاح مونت كريستو مبديا الغضب لأوّل مرّة: - لاتذكر أمامي هذه الأمور! سأجعله يتألّم!

مذهولًا أفلت موريل يد مونت كريستو.

قال: - سيّدي الكونت! سيّدي الكونت!

قاطعه الكونت: - عزيزي ماكسيميليان، أنصت إلى دوبري[1] كيف يؤدّي بروعةٍ هذه الجملة:

أي ماتيلد! يا روح روحي!

أقول لك، كنتُ أوّل من اكتشف دوبري في نابولي، وأوّل من هلّل له. برافو! برافو!

أدرك موريل أنّه لم يعد ثمّة ما يُقال، فمكث منتظرًا.

السّتارة التي رُفعت على مشهد ألبير، سرعان ما انسدلَت. وطُرق الباب مجدّدًا.

قال مونت كريستو من غير أن يشفّ صوته عن أيّ انفعال: - تفضّل!

ظهر بوشان.

ولمّا كانت تلك المرّة الأولى التي يرى فيها الكونتُ الصحافيَّ ذاك المساء، فقد حيّاه: - مساء الخير يا سيّدي بوشان، تفضّل، اجلس!

حيّا بوشان، ودخل، فجلس، ثمّ قال لمونت كريستو: - سيّدي، لقد رافقتُ مورسيرف منذ قليل، كما رأيتَ.

أجابه مونت كريستو ضاحكًا: - ممّا يعني أنّكما قد تعشّيتما معًا على الأرجح. سعيدٌ أن أراك أشدّ اتّزانًا منه.

---

(1) جيلبيرت دوبري (1896-1806) مغنّي أوبرا فرنسي. والأوبرا التي يذكرها دوما في نهاية الفصل (وليام تيل، أو غيومو تيل، لروسيني) هي تحديدًا ما صنع مجدَه.

قال بوشان: - سيّدي، أوافقك أنّ ألبير أخطأ إذ لم يسيطر على انفعاله، وقد أتيت بنفسي أعتذر منك عن تصرّفه. والآن وقد اعتذرتُ، فلا أظنّك إلا رجلًا كريمًا، وسوف تشرح لي علاقتك بناس يوانينا؛ ثمّ سأضيف لك كلمتين بخصوص الشّابة الإغريقية.

رسم مونت كريستو بعينيه وشفتيه إيماءة من تلك التي تفرض الصّمت. ثمّ قال ضاحكًا: - أوه! أرى أنّك تدمّر كلّ آمالي فيك يا سيّدي!

سأله بوشان: - كيف يا سيّدي؟

- طبعًا؛ في البداية سارعت إلى رسم صورةٍ عنّي، جعلتني بها غريب أطوار؛ فكنت بحسبك: لارا، ومانفريد، واللّورد ريثوين؛ فلّما أتت الفرصة لتتأكّد الصّورة التي صنعتَها، ها أنت تريد أن تُفسدها، وتجعل منّي إنسانًا تافهًا. تريدني رجلًا عاديًا، مثل جميع النّاس؛ تسألني تفسيرًا يا سيّدي؟ لا بدّ أنّك تمزح!

أجاب بوشان بتعالٍ: - لكن ثمّة مناسباتٌ تحكم فيها الاستقامةُ...

قاطعه الكونت: - سيّدي بوشان، ما يحكم الكونت مونت كريستو هو الكونت مونت كريستو. لذا رجاءً لا تضف كلمةً في هذا الموضوع. أفعل ما يحلو لي يا سيّدي، وصدّقني دائمًا ما أفعله هو الفعل المناسب.

أجابه الشّابُّ: - سيّدي، ليس هذا الفعل الذي يمكن أن ندفع به إلى أناس شرفاء؛ تلزمُ ضمانات شرف.

أَجاب مونت كريستو بوجه باردٍ لكنّ عينيه تتّقدان بشررٍ متوعّد:

- سيّدي، أنا ضمانٌ حيٌّ. لنا معًا دماءٌ تجري في عروقنا، ونريد أن نسيلها، وهذا ضمانُنا المشترك. أبلغ جوابي هذا الفيكونت، وقل له إنّني غدًا قبل العاشرة صباحًا سأرى لون دمه.

قال بوشان: - لم يبق لي إذًا إلا أن أحدّد اتّفاقات النّزال.

قال الكونت: - هذه الأمور لا تهمّني. لا فرق عندي؛ لا فائدة إذًا في إزعاجي أثناء الحفل، لأجل أمور تافهة كهذه. في فرنسا يتبارز الرّجل

بالسّيف أو المسدّس، وفي المستعمرات بالقربينة، وفي جزيرة العرب بالخنجر؛ فقُل لمُرسِلك، على الرّغم من أنّني أنا المُهانُ، إلا أنّني أترك له حريّة اختيار السّلاح، وأقبل أيّ اختيار من دون اعتراض؛ أقول، أيّ اختيارٍ، سمعت؟ حتّى المبارزة بالحظّ، على ما فيها من حماقة. فأنا على يقينٍ من أنّني سأربح في جميع الأحوال.

أجاب بوشان وهو يحدّق في الكونت بنظرةٍ مرعوبة: - على يقين من أنّك ستربح!

قال مونت كريستو هازًا كتفيه هزّةً خفيفةً: - إه! بالتّأكيد. وإلا لما قبلت مبارزة السيّد دو مورسيرف. سوف أقتُله، ينبغي أن أفعل، وسوف أفعل. فقط، رجاءً اكتب لي اللّيلة إلى بيتي رسالةً تعيّنُ لي فيها السّلاح والمكان؛ لأنّني لا أحبُّ الانتظار.

أجاب بوشان مرتبكًا، لا يدري هل يخاطبُ مدّعيًا متبجّحًا، أو كائنًا خارقًا: - بالمسدّس، على الثامنة صباحًا، في غابة فانسين.

قال مونت كريستو: - حسنًا يا سيّدي. الآن وقد تحدّد كلُّ شيء، رجاءً دعني استمتع بالعرض، وقل لصاحبك ألّا يرجع إلى هنا هذا المساء. سوف يسيء لنفسه بما يظهره من سوء ذوق. فليعد إلى بيته وينَم.

خرج بوشان مذهولًا.

قال مونت كريستو وهو يستدير شطر موريل: - والآن، أعوّلُ عليك يا سيّدي، أليس كذلك؟

قال موريل: - بكلّ تأكيد، اعتمد عليّ يا سيّدي الكونت، لكن...

- لكن ماذا؟

- من المهمّ يا سيّدي الكونت أن أعرف السّبب الفعليّ للمبارزة...

- ترفضني إذًا؟

- كلّا.

قال الكونت: - السّبب الحقيقي يا موريل؟ حتّى هذا الشّابُ نفسُه،

يمضي أعمى، لا يدري السّبب الحقيقيّ. وحدي والربُّ نعلمُ السّبب الحقيقيّ؛ لكن بشرفي يا موريل، إنّ الرّب المطّلع على كلّ شيءٍ، في صفّنا.

قال موريل: - وهذا يكفيني يا سيّدي الكونت. من شاهدُك الثّاني؟

- لا أعرف أحدًا في باريس يقبل بهذا التّشريف، غيرك يا موريل أنت، وصهرك. هل تظنُّ أنّ إيمانويل يقبل أن يقدّم لي هذه الخدمة؟

- أتكلّم باسمه، كما أتكلّم باسمي يا سيّدي الكونت.

- حسنًا! هذا كلّ ما يلزمني. غدًا في السّابعة صباحًا، في بيتي، أليس كذلك؟

- سنكون في الموعد.

- ها هي السّتارة تُرفَعُ، فلننصت! اعتدتُ ألا أُفلتَ من هذه الأوبرا ولا نوتةً واحدةً؛ إنّ موسيقى أوبرا **وليام تيل** من أبدع ما يكون!

89

اللّيل

كعادته انتظر الكونت مونت كريستو حتّى أنشد دوبري مقطعه الشّهير «اتبعيني!»، وإذّاك فقط قام وانصرف.

وعند باب المقصورة ودّعه موريل، بعدما جدّد له الوعد بأن يكون غدًا في الموعد عند السّاعة السّابعة. ثمّ ركب الكونت عربته وهو لا يزال على هدوئه وابتسامه. على أنّ فقط من يجهل الكونت سوف ينخدع بالنّبرة التي أمر بها عليًّا، لمّا وصل إلى بيته:

- علي، هات مسدّسيَّ ذوي القبضتين العاجيتين!

أتى الخادمُ سيّدَهُ بالعلبةِ، فانكبَّ السيّدُ على فحص الأسلحة بالعناية المفترضة في رجلٍ سيعهد بحياته إلى بعض الحديد والفولاذ. وكانت الأسلحةُ مسدّسين مميّزين استصنعَهما مونت كريستو لنفسه لكي يتمرّن بهما على الرّماية في منزله. تكفي كبسةٌ واحدةٌ لتنطلق الرّصاصة بهدوءٍ من غير أن يشكّ من يوجد في الغرفة المجاورة أنّ الكونت يدرّب يده على التّسديد.

وكان الكونت منهمكًا في تفحّص السّلاح، والبحث عن نقطة تسديدٍ على الصّفيحة التي يستعملها للتمرّن، وإذا بالباب يُفتح، فيدخُل عليه باتيستان.

لكن حتّى قبل أن يفتح الكونت فمه، لمح عند الباب الذي ظلّ مفتوحًا، امرأةً محجّبةً، يضيئها نور الغرفة المجاورة، وتسير في إثر باتيستان.

لمحت المرأة المسدّسَ في يدي الكونت، وأبصرت سيفَين موضوعين على الطّاولة، فانطلقت صوبه مسرعةً.

ساءلَ باتيستان سيّده بنظرته، فأشار إليه الكونت بإشارةٍ، خرج على إثرها وأغلق البابَ خلفَه.

قال الكونت للمرأة المحجّبة: - من أنت، يا سيّدتي؟

أجالت المرأة البصر في الغرفة لتتحقّق ممّا إذا كانت وحدَها في الغرفة، فلمّا اطمأنّت، انحنت كأنّما لتجثو على ركبتيها، ثمّ شبكت يديها أمام الكونت وقالت بنبرة اليائس:

- أنت لن تقتل ابني يا إدمون!

تراجع الكونت إلى الخلف، وأطلق صيحة واهنةً وأفلت السّلاح من يده.

قال: - أيّ اسم هذا الذي نطقتِ به يا سيّدتي مورسيرف؟

صاحت وهي تنضو عنها الحجابَ: - اسمك! اسمك الذي ربّما وحدي لم أنسَه. إدمون، ليست السيّدة دو مورسيرف التي أتت إليك اليوم، وإنّما مرسيدس!

قال مونت كريستو: - مرسيدس ماتت يا سيّدتي، وما عدتُ أعرف أحدًا بهذا الاسم.

- مرسيدس ما زالت حيّةً يا سيّدي، ولا تزال تتذكّر، لأنّها وحدها عرفتك منذ أن رأتك أوّل مرّة، وحتّى لو أنّها لم ترَك، فإنّ صوتَك كان كافيًا لتعرفك، نبرة صوتك تكفي يا إدمون؛ ومُنذ لقائكما الأوّل وهي تتبعك خطوةً خطوةً، تراقبُك، وتهابُك، وهي ليست بحاجة إلى البحث لتعرف اليد التي طعنت السيّد دو مورسيرف.

أجابها مونت كريستو بسخريّة مرّة: - تقصدين فرنان يا سيّدتي؛ ما دمنا نكشفُ أسماءنا، فلنكشفها كلّها.

وقد نطق مونت كريستو الاسم بكراهيةٍ رجف لها جسد مرسيدس بأكمله.

صاحت مرسيدس: - ها أنت ترى أنّني لم أخطئ يا إدمون، ولهذا السّبب أقول لك: جنّب ابني الأذى!

- ومن قال لك يا سيّدتي أنّني أريد الأذى لابنك؟

- لا أحد، يا إلهي! لكنّ الأمّ تملك نظرةً مضاعفة. لقد خمّنت كلّ شيء؛ وتعقّبته هذا المساء إلى الأوبرا، ورأيت كلّ شيءٍ متخفيّةً في مقصورة من المقصورات السّفلية.

قال مونت كريستو بهدوءٍ مرعب: - ما دمتِ قد رأيت كلّ شيءٍ، فلا بدّ أنّك رأيت أنّ ابن فرنان قد أهانني على الملأ؟

- أوه! الرّحمة!

واصل الكونت: - لا بدّ أنّك قد رأيتِ أنّه كاد يلقي بقفازه على وجهي، لولا أنّ صديقًا، السيّدَ موريل، أمسك ذراعه!

- أصغ إليّ. ابني أيضًا قد عرفك؛ ويظنّك وراء كلّ المصائب التي تضرب والدَه.

قال مونت كريستو: - سيّدتي أنت تخلطين الأمور. هذه ليست مصائب، وإنّما هي عقاب. لست أنا من يضرب السيّد دو مورسيرف، وإنّما القدر يعاقبه.

صاحت مرسيدس: - ولمَ تجعل نفسك أداةً للقدر؟ لمَ تتذكّرُ أنت، حين ينسى هو؟ فيمَ هَمَّتْك أنت يوانينا ووزيرُها؟ هل أساء لك فرنان مونديغو حين خانَ علي ألباني؟

أجابها مونت كريستو: - نعم يا سيّدتي، المسألة بين الضّابط الإفرنجيّ وابنة فاسيليكي. أنت محقّةٌ، الأمر لا يعنيني، فأنا لم أقسم على الانتقام من الضّابط الإفرنجيّ، ولا من الكونت دو مورسيرف، وإنّما من الصيّاد فرنان، زوج مرسيدس.

صاحت الكونتيسة: - آه! يا سيّدي، أيّ انتقام رهيب هو، نظيرَ خطأ ارتكبتُه أنا بسبب القدر! أنا المذنبة يا إدمون، وإنّ كان لك أن تنتقم من أحدٍ، فأنا من يستحق انتقامك، خانتني القوّةُ في غيابك وعزلتي.

صاح مونت كريستو: - لكن، لمَ غبتُ أنا؟ ولمَ عانيتِ أنت العزلة؟
- لأنّهم اعتقلوك يا إدمون، لأنّك سُجنتَ.
- ولمَ اعتُقلتُ؟ ولمَ سُجنتُ؟
أجابت مرسيدس: - لا أعرف.
- لا تعرفين يا سيّدتي؟ آملُ ذلك. حسنًا، سوف أخبرك أنا لمَ. لقد اعتُقلتُ وسُجنتُ، لأنّ أسفلَ تعريشة الحانة، عشيّةَ اليوم نفسه الذي كان يُفترض أن أتزوّجك فيه، كتبَ رجلٌ يسمّى دانغلار تلك الرّسالةَ التي تكلّفَ الصّياد فرنان بإرسالها، بنفسه.
ثمّ إنّ مونت كريستو، توجّه إلى مكتبٍ، ففتح درجًا وأخرج منه ورقةً بهت لونُها الأصليُّ، وحال حبرُها إلى لون الصّدأ، فعرضها على مرسيدس.
كانت تلك رسالةَ دانغلار إلى وكيل الملك، الرسالة التي اختلسها الكونت مونت كريستو من ملفّ إدمون دانتس، يومَ تنكّر في هويّة مندوب مؤسّسة طومسون وفرانش، وقضى للسيّد دو بوفيل المائتي ألف فرنك.
قرأت مرسيدس برعبٍ الأسطر التّالية:
«إلى السيّد وكيل الملك: يُعلمكم أحد الأوفياء للعرش والدّين، بأنّ المدعو إدمون دانتِس، نائبَ قبطان سفينة فرعون، التي وصلت اليوم من إزمير، بعدما عبرت ميناءَي نابولي وبورتو فيرّايو، قد كُلّف من طرف مورات، بحمل رسالةٍ إلى غاصبِ الحُكم، ثمّ رسالةٍ من طرف غاصب الحُكم إلى جماعة البونابرتيّين في باريس.
وستجدون دليل إدانته عند توقيفه، لأنّ لا بدَّ أنه يحمل الرسالة معه، أو في دار أبيه، أو في مقصورته بالفرعون».
قالت مرسيدس وهي تمسح بيدها على جبينها المتفصّد عرقًا: - أوه! يا إلهي! وهذه الرّسالة...

- اشتريتُها بمائتي ألف فرنك يا سيّدتي؛ لكنّه ثمنٌ بخسٌ ما دامت الرّسالةُ تبرّئ ساحتي أمامك.

- ونتيجة الرّسالة؟

- تعرفينها يا سيّدتي: اعتقالي؛ لكن ما لا تعرفينه يا سيّدتي هو كم دام الاعتقال. ما لا تعرفينه هو أنّني قضيت أربعة عشر عامًا على بعد ربع فرسخ منك، في محبس بقلعة إيف. ما لا تعرفينه هو أنّني قضيت أربع عشرةً سنةً، يومًا بيوم، أجدّدُ عهد الانتقام الذي قطعتُه على نفسي في اليوم الأوّل، ومع ذلكَ كنت أجهل أنّك تزوّجت من فرنان، الرّجل الذي وشى بي، وأنّ والدي قد مات. قضى جوعًا!

صاحت مرسيدس مترنّحةً: - عدالتك يا ربّ!

- هذا ما عرفتُه لمّا خرجتُ من السّجن بعد أربع عشرة سنةً، وهذا ما جعلني أقسمُ بروح أبي ميتًا ومرسيدس حيّةً أن أنتقم من فرنان... وها أنا أنتقم.

- وهل أنت متأكّدٌ من أنّ الشقيَّ فرنانَ هو من فعل ذلك؟

- أقسم على ذلك بروحي يا سيّدتي؛ ثمّ إنّ ذلك ليس بأشيَن ما فعل، ألم يحالِف الإنجليز، بعدما استقبله الفرنسيّون! وحارب ضدّ الإسبان وهو منهم؛ وخان عليّ باشا واغتاله، بعدما وثق فيه عليٌّ وقرّبَه. أين الرّسالة التي قرأتِها من كلّ ذلك؟ مجرّدُ خدعةٍ جريئةٍ لا بدّ أن تغفرها له المرأةُ التي تزوّجها، لكن لا يمكن أن يغفرها العاشقُ الذي كان يفترضُ أن يتزّوجها. وإذًا، أقول: إنّ الفرنسيّين لم يقتصّوا من الخائن؛ ولا الإسبان أعدموا الخائن؛ ولا عليٌّ، الرّاقد في قبره، انتقم من الخائن؛ لكن أنا، المغدور، المغتال، الملقى به في غيابة قبرٍ، قد خرجتُ من القبر بفضل الربّ، لذا أدينُ إلى الربِّ بانتقام؛ لذلك أرسلني، ولذلك أنا هنا.

هوت المرأة المسكينةُ برأسها علىً يديها؛ وخارت قدماها تحتها، وهوت جاثية على ركبتيها.

قالت: - اغفر يا إدمون، اغفر لأجلي أنا التي لا أزال أحبّك!

لقد أوقفت كرامةُ الزّوجةِ حماسةَ العاشقة والأمّ. هوى جبينها حتّى لامس البساط.

اندفع إليها الكونت ورفعها.

فلمّا جلست على الأريكة، استطاعت أن تتأمّل من خلال الدّموع، وجه الكونت الذي لا يزال الألمُ والحقد يرسمان عليه هيأةً متوعّدةً.

غمغم: - إن لم أسحق هذا العرق الملعون، فسوف أعصي الربَّ الذي بعثني من القبر لأحقّق انتقامَه! مستحيلٌ يا سيّدتي، مستحيل!

قالت الأمّ المسكينة طارقةً كلّ السّبل: - إدمون! يا إلهي! لمَ حين أناديك إدمون، لا تناديني أنت مرسيدس؟

ردّد مونت كريستو: - مرسيدس! مرسيدس! بلى إنّ الاسم لا يزالُ عذبًا، وإن كانت هذه المرّة الأولى التي أسمع فيها وقعه على شفتيَّ، منذ زمن بعيدٍ. آه يا مرسيدس، اسمك هذا نطقتُه بأنّاتِ الحزن، ونحيبِ الألمِ، وحشرجةِ اليأس؛ نطقتُه والبردُ يجمّدني، مقرفصًا على قشّ محبسيَ؛ نطقتُه والحرُّ ينهشني، وأنا أتلوّى على بلاط زنزانتي. مرسيدس، لا مناص لي من الانتقام، لأنّني عانيتُ أربعة عشر عامًا، بكيت أربعة عشر عامًا، ولعنتُ؛ والآن أقول لك: لا مناص لي من الانتقام!

ثمّ إنّ الكونت، خشية أن ينساق إلى توسّلات المرأة التي أحبّها كثيرًا، استعان بذكرياته على الكراهية والحقد.

صاحت المرأة المسكينة: - انتقِم يا إدمون! لكن انتقم من المذنبين؛ انتقم منه، انتقم منّي، لكن لا تنتقم من ابني!

أجابها مونت كريستو: - ألم يقلِ الكتاب المقدّسُ: «إنّي أنا الربُّ إلهكم، إلهٌ غيور، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء، في الجيل الثالث والرّابع من بغضي»[1]؟ ما دام الربُّ قد أمر نبيّه بذلك، فما الذي يجعل كلمتي أنا أعلى من كلمة الربّ؟

---

(1) سفر الخروج، الإصحاح 20.

- لأنّ الرّب يملك ما لا يملكه البشر: الزّمان والأبديّة.
أطلق مونت كريستو تنهيدةً كأنّها زئيرٌ، وأمسك الشّعر الجميلَ ملء يديه.

واصلت مرسيدس ويدها ممدودة نحو الكونت: - إدمون، إدمون، منذ أن عرفتُك أحببت اسمَك، وحفظتُ ذكراك. إدمون يا صديقي، لا تحمّل قلبي ما لا طاقة له به. لو تعلمُ كم من الصّلوات صلّيت لأجلك، أيّام كنتُ أرجوك حيًّا، وأيضًا أيّام ظننتُك ميّتًا، واأسفاه، كنتُ أراك ميّتًا! أرى جثمانك مدفونًا في أعماق قلعةٍ مظلمة؛ أرى جسدًا ملقىً في هاوية من تلك التي يلقي فيها السّجانون بالسّجناء الموتى، وكنتُ أبكي! ما الذي كنت أملكه لك يا إدمون، سوى صلاتي وبكائي؟ منذ عشر سنواتٍ وأنا أرى الحلمَ نفسَه كلّ ليلةٍ. قيل إنّك حاولت الهروب، إنّك اندسستَ في كفنِ سجينٍ ميّتٍ، فأُلقي بالجثمان الحيِّ من أعلى قلعة إيف؛ ووحدها الصّرخةُ الّتي أطلقتها حين انسحقَ جسدُك على الصّخر قد أثارت شكوك سجّانيك الذين صاروا جلاّديك. وأقسم لك يا إدمون، أقسم لك برأس ابني الذي أتوسّلك لأجله، ظللت عشر سنوات أرى كلّ ليلةٍ رجالًا يَرمون من شاهقٍ كتلةً معمّاةً؛ طيلة عشر سنواتٍ وأنا أسمع صرخةً رهيبةً توقظني مرعوبةً مرتجفة. صدّقني يا إدمون، حتّى أنا، وإن كنت مذنبةً، فقد عانيتُ.

صاح مونت كريستو وهو يغرس أصابعه في شعرها: - هل شعرت بموت والدك أثناء غيابك؟ هل رأيت المرأة التي أحببتِها تمدّ يدها إلى خصمك، بينما تئنّين أنت في قعر هاوية؟...

قاطعته مرسيدس: - كلّا، لكنّني رأيتُ الرّجل الذي أحببتُه يستعدّ لأن يقتل ابني!

نطقت مرسيدس كلماتها تلك بوجعٍ هائلٍ، ونبرةٍ يائسة، حتّى إنّ الكونت أطلق لكلامها ونبرتها صرخةً كادت تمزّق حنجرته.

لقد رُوِّض الأسدُ؛ انهزم المنتقمُ.
قال: - ماذا تطلبين؟ أن يبقى ولدُك حيًّا. حسنًا، سيبقى حيًا!
أطلقت مرسيدس صيحةً تلألأت لها دمعتان في جفنيّ مونت كريستو، لكنّ الدّمعتين سرعان ما اختفتا، إذ لا بدّ أنّ الربَّ قد أرسل مَلاكين يستقبلانهما لفرط ما كانت دموعه في عين الرّب أثمن من جواهر كجرات وعوفر[1].
صاحت وهي تمسك يد الكونت وتدنيها من شفتيها: - أوه! شكرًا! شكرًا يا إدمون! ها أنت ذا قد عدت إدمون الذي لطالما حلمت به، ولطالما أحببته. أوه! الآن أستطيع قولها.
أجاب مونت كريستو:- وهذا أفضل، لأنّ المسكين إدمون لن يطول به المقام في حبّك. سيعود الميّت إلى قبره، ويعود الشّبح إلى اللّيل.
- ماذا تقول يا إدمون؟
- أقول، ما دمتِ أمرتِ يا مرسيدس، فينبغي أن أموت.
- تموت! من قال ذلك؟ لمَ تتحدّث عن الموت مجدّدًا بعدما طوينا صفحتَه؟
- هل تعتقدين أنّي، بعدما استفزّني على الملأ طفلٌ يفترض أن يكون عفوي عنه بمثابة انتصارٍ له. أقولُ، هل تعتقدين أنّي بعدما أُهِنتُ أمام أصدقائك وأصدقاء ابنكِ سأرغب في أن أستمر في الحياة ولو للحظة. إنّ أكثر ما أحببتُه، بعدك يا مرسيدس، هو نفسي، هو كرامتي، هو تلك القوّة التي تجعلني أسمى وأرفع من الآخرين؛ تلك القوّة، كانت حياتي. وبكلمةٍ منك تسحقينها. بكلمة منك أموت.
- لكنّ هذه المبارزة لن تتمّ يا إدمون، ما دمت ستعفو.

(1) الرّاجح سلطنة كُجَرات المسلمة بمنطقة الهند حاليًا، وجبل عوفر المذكور في التوراة.

قال مونت كريستو بنبرة مهيبة: - سوف تتمُّ. لكن بدلًا من أن تشرب الأرض دم ابنك، سيراقُ عليها دمي أنا.

أطلقت مرسيدس صيحةً وارتمت صوب حضن مونت كريستو؛ لكنّها توقّفت فجأةً.

قالت: - إدمون، إنّ فوقنا ربًا، ما دمتَ لا تزال حيًّا، وما دمتُ قد رأيتُك مرّةً أخرى، وإنّي أسلّم للربّ أمري. وبانتظار عونه، أطمئنُّ إلى كلامك. قلت لي إنّ ابني سيعيش؛ وسيعيش، أليس كذلك؟

قال مونت كريستو مندهشًا من أنّها قبلت من دون دهشةٍ أو عجبٍ تضحيّتَه: - نعم سوف يعيش يا سيّدتي.

مدّت مرسيدس يدها إلى الكونت قائلةً، بينما تتبلّل عيناها بالدّموع وهي تتأمّله: - إدمون، ما أنبل ما أنت مقدمٌ عليه، ما أعظم ما فعلته الآن، لا أجلَّ من الشّفقة على امرأةٍ أتتك ولا شيء يشفع لها عندك. واأسفًا! لقد شِختُ بوقع الأحزان أكثر ممّا شختُ بفعل السّنون، وما عدت أستطيع أن أعيد، بنظرةٍ أو بسمةٍ إلى عزيزي إدمون، تلك المرسيدس التي كان يقضي السّاعات يتأمّلها. آه! صدّقني يا إدمون، قلت لك إنّني أنا أيضًا قد عانيتُ، وأعيدُ القولَ: ما أشقّ على الإنسان أن يراقب حياتَه تمضي من غير أن يتذكّر فيها لحظة فرح، أو يحفظ خيط رجاءٍ، لكن هذا يثبت أنّ لا شيء انتهى في هذه الدّنيا. كلّا! لم ينته شيء، ذاك ما يخبّرُني به ما بقي في قلبي. أوه! أقول وأعيد، إنّ ما فعلتَه يا إدمون رائعٌ وعظيمٌ ومهيب، مهيب ورائعٌ وعظيمٌ أن تسامح مثلما فعلتَ!

- تقولين هذا يا مرسيدس؛ فماذا لو عرفت مدى التّضحية التي أقدّمها لك؟ تخيّلي لو أنّ القديرَ، بعدما خلق العالم، وبثّ الحياة في العماء، توقّف عند ثلث الخلق، فقط لكي يُجنّب العيونَ الخالدةَ لملاكٍ سفْحَ الدّمع على جرائمنا؛ تخيّلي لو أنّ الربّ، بعد أن هيّأ كلّ شيءٍ، وشكّل كلّ شيء، وخصَّب كلّ شيء، وفي اللّحظة التي يفترض فيها أن يقف

ليتأمّل صُنعَه، قرّر أن يطفئَ الشّمس، ويركل العالمَ ملقيًا به في غياهب اللّيل السّرمديّ؛ إن استطعتِ تخيُّل كلّ ذلك فقد تحيطين علمًا، أو ربّما لا، كلّا، إنّك لا تعلمين ما أخسره إذ أخسرُ الحياةَ الآن.

أخذت مرسيدس تحدّق في الكونت بنبرةٍ تعكس في آنٍ دهشتها، وإعجابها، وعرفانها.

وضع مونت كريستو جبينه على يديها الملتهبتين، وكأنّما لم يعد جبينُه قادرًا على أن يحمل لوحده ثقل خواطره.

قالت مرسيدس: - لم تبقَ عندي إلا كلمةٌ أقولها لك.

ابتسم الكونت بمرارة.

واصلت هي الكلام: - إدمون، لا شكّ أن تلحظ أنّ جبيني شاحبٌ، وعينيَّ منطفئتان، وأنّ جمالي غارَ، وأنّ مرسيدس لم تعد مرسيدس التي كنت تعرفُها، إلاّ أنّ كلّ ذلك لم يمسّ إلا الملامح، أمّا القلبُ فلا يزال هو القلبُ الذي عرفتَه دائمًا... وداعًا إذًا يا إدمون؛ لم يعد لي ما أطلبه من السّماء... ها قد رأيتُك مرّةً أخرى، نبيلًا وعظيمًا كما كنتَ من قبل. وداعًا يا إدمون... وداعًا وشكرًا!

لكن الكونت لم ينبس بكلمة.

فتحت مرسيدس باب المكتب، واختفت قبل أن يرجع من حلمه العميق والمؤلم الذي ألقى به فيه ضياعُ انتقامه.

حين دقّت ساعة حيّ أنفاليد معلنةً السّاعة الواحدة، كانت العربة التي تقلُّ السيّدة دو مورسيرف تسير على بلاط الشانزيليزيه، فرفع الكونت مونت كريستو رأسَه.

قال: - عجبًا! في اليوم الذي حسمتُ فيه أمري على الانتقام، عجزتُ عن أن أقتلع قلبي!

90

اللّقاء

بعد انصراف مرسيدس، أظلم كلّ شيء لدى الكونت مونت كريستو. حواليه وداخله توقّف فكرُه؛ كان عقله النّشيطُ يغفو كما يغفو الجسدُ بعد أن يبذل مشقّة كبيرة.

يقول لنفسه، بينما الشّموع والمصباح تستهلك نفسها بحزنٍ، والخدمُ في البهو ينتظرون قلقين أوامر سيّدهم: ماذا! ماذا! هو ذا البناءُ الذي بنيتَه على مهلٍ، ورفعتَه بالكثير من الآلام والهموم، ينهارُ بضربةٍ واحدة، بكلمة واحدةً، بنفخةٍ واحدة! وماذا! هذا «الأنا» الذي كنتُ أحسبُه شيئًا، هذا «الأنا» الذي كنتُ فخورًا به، «الأنا» الذي كنت أراه ضئيلًا في محبس قلعة إيف، واستطعتُ أن أجعله يكبر، هذا الأنا سيصير غدًا حفنةً من غبار! واأسفًا! ليس موت الجسد ما آسفُ عليه. أليس دمار هذا المبدأ الحيويّ هو نقطة الرّاحة التي يصبو إليها كلّ شيء، ويطمح إليها كلّ تعيس؛ ذلك الهدوء الذي كنتُ أطلبه بأقسى الطّرق، طريقِ الجوع، لولا أن ظهر في محبسي بغتةً الأب فاريا؟ ما الموت؟ ما الموت؟ درجةٌ أخرى في الهدوء، وربّما درجتان في الصّمت. كلّا، ليست الحياةُ ما آسفُ عليه، وإنّما خرابَ مشاريعي التي بلورتُها على مهلٍ، وبنيتُها بجهدٍ. إنّ القدر الذي كنت أحسبُه يسير موافقًا هوى مشاريعي، كان في الواقع ضدّها. الرّبُ لا يريد لها إذًا أن تتحقّق!

«هذا الثّقلُ الذي حملتُه، وكان بوَزن العالم تقريبًا، وظننتني أحمله حتّى النّهاية، وظننتُه موافقًا هوايَ وقوّتي؛ موافقًا إرادتي وقدرتي، ها أنا

الآن مضطرٌ إلى أن أُنزلَه ولمّا أكَدْ أبلُغ نصفَ مسيري. آه! سوف أعود لاعتناق مبدأ القدَريّة من جديد، أنا الذي آمنتُ بالعناية الإلهية بعد أربع عشرة سنةً من اليأس وعشرٍ من الأمل.

وكلّ هذا، يا إلهي! لأنَّ قلبي، الذي ظننتُه ميّتًا، لم يكن إلا مخدّرًا؛ لأنّه استيقظ، لأنه خفق، لأنّي استسلمت للخفقان الذي انتشله من أعماق صدري صوتُ امرأةٍ!».

واصل الكونت، وهو ما فتئ يغوص أعمق فأعمق في رؤى الغدّ الرّهيب الذي تقبّلتهُ مرسيدس: «ومع ذلك مستحيلٌ أنّ امرأةً، قلبُها على هذا القدر من النّبل، تقبلُ على نفسها أن تلقي بي بأنانيةٍ في الموت وأنا في عزّ قوّتي وفتوّتي! لا أظنُّ الحبَّ، أو بالأحرى الهذيان، الأموميّ يصل بها إلى هذا الحدّ! ثمّة فضائلُ يعتبر الإفراط فيها جُرمًا. كلّا، لا بدّ أنّها تصوّرت مشهدًا مؤثّرًا، سوف تأتي لترتمي بين السيّوف، ولا بدّ أنّ المشهد الذي كان مهيبًا هنا، سيصير مثيرًا للضّحك هناك».

وصعدت إلى جبين الكونت حمرةُ الكبرياء.

«مثير للضّحك، وسأصير أنا المثير للضّحك... أنا مثير للضّحك! كلاّ! أفضّل الموت على ذلك».

ولفرط ما قلّب الكونت في نفسِه حظوظَ الغد السيّئة، الحظوظ التي وضع نفسه في مرماها إذ وعد مرسيدس بأن يجنّب ابنَها الموت؛ انتهى به المطافُ إلى أن قال:

– حماقة، حماقة، حماقة! ما نفع الكرَم حين يجعل المرء يقف ساكنًا في مرمى مسدسِ شابٍّ! أبدًا لن يصدّق أحَدٌ أنّ موتي انتحارٌ، ومع ذلك من المهمّ لذكراي (ليس غرورًا يا إلهي، وإنّما فقط كبرياءً!)، من المهمّ لذكراي أن يعلمَ الجميع بأنّني قد أوقفتُ، بكامل إرادتي واختياري، ذراعيَ المرفوعةَ المستعدّة أن تضربَ، وضربتُ بها نفسي بدلًا من أن أضرب بها غيري: ينبغي أن أفعل ذلك، وسوف أفعله.

ثمّ تناول ورقةً من درج مكتبه السريّ، وخطّ أسفل الورقة، التي لم تكن سوى وصيّته التي كتبها ما إن وصل باريس، أسطرًا يدرك منها حتّى أقلّ النّاس حصافةً ما جرى.

قال رافعًا عينيه إلى السّماء: «أفعل هذا يا ربّي، لرضاك كما أفعله لرضاي. منذ عشر سنواتٍ وأنا أعدّ نفسي مبعوثك الذي اصطفيته لانتقامك يا إلهي! ولا ينبغي للحقراء أمثال مورسيرف، ودانغلار، وفيلفور أن يظنّوا أنّ الصّدفة قد خلّصتهم من عدوّهم. ينبغي أن يعلموا أنّ العناية الإلهية التي قضت بعقابهم، قد تغيّرت بإرادةٍ منّي، وأنّ العقاب الذي أفلتوا منه في هذا العالم ينتظرهم في العالم الآخر. إنّما فقط استبدلوا بالزّمن الأبديّةَ».

وبينما يموج بين شكوكه المظلمة، مثل كابوس رجلٍ أيقظه الألمُ، أتى النّهارُ يضيءُ النّوافذ وينير تحت يديه الشّاحبتين الورقَةَ الزّرقاء التي خطّ فيها برهانه المهيب على العناية الإلهية.

كانت السّاعةُ الخامسة صباحًا.

فجأةً تناهى إلى سمعه صوتٌ خفيف. وظنّ مونت كريستو كأنّه سمع تنهيدةً مكتومة؛ أدار رأسَه، وأجالَ بصرَه، فلم يرَ أحدًا. غير أنّ الصّوتَ تردّدَ مرّةً أخرى، فحلّ محلّ الشكّ اليّقينُ.

إذّاك قام الكونت، وفتح بهدوء باب الصّالون، فرأى على مقعدٍ هايدي، يداها متدلّيتان ورأسُها الجميلُ الشّاحبُ مائلٌ إلى الخلف؛ وكانت قد اختارت موقعًا بحيث لا يمكنه أن يخرج من غير أن يراها، لكنّ سلطان النّوم الذي لا يقاومه الشّبابُ، هزمها بعد تعب ليلة سهرٍ.

وعلى الرّغم من الصّوت الذي أحدثه الكونت عندما فتح البابٍ، إلّا أنّه لم يستلّها من نومها.

تأمّلها الكونت بنظرةٍ مليئة بالحنان والأسف.

قال: «لقد تذكّرَت هي أنّ لها أبًا، حين نسيتُ أنا أنّ لي ابنةً!».

ثمّ أضاف وهو يهزُّ رأسَه في حزنٍ:

«مسكينة يا هايدي! أرادت أن تراني، أرادت أن تتحدّث إليّ، كانت تخشى شيئًا أو ربّما أحسّت بشيء... آه! لا أستطيع أن أرحل من غير أن أقول لها وداعًا، ولا أن أموت من دون أن أعهد بها إلى أحد».

عاد بهدوءٍ إلى وثيقته وأضاف أسفلها الأسطر التّالية:

«أوصي لماكسيميليان موريل، النّقيب بجيش الصبايحية، وابن رَبِّ سفينتي السّابق، بيير موريل، المموّن بمارسيليا، بمبلغ عشرين مليونًا، منها قسمٌ يعطيه أختَه جولي وزوج أخته إيمانويل، ما لم يُقدّر أنّ المال قد ينغّص سعادتهما. وهذه العشرون مليونًا مخبوءة في مغارتي بجزيرة مونت كريستو، وبرتوتشو يعرف طريق الوصول إليها.

فإن كان خليَّ القلب ووافق على الزّواج من هايدي، ابنة علي باشا يوانينا، التي ربّيتُها كابنةٍ وأحبّتني هي حبَّ البنت أباها، فسيكون بزواجه منها قد حقّق، ليس إرادتي، وإنّما رغبتي الأخيرة.

وقد جعلت في الوصيّةِ هايدي وريثةً لما بقي من ثروتي، وقوامها أراضٍ ومواردُ بإنجلترا والنّمسا وهولندا، وأثاثٌ في مختلف قصوري ومنازلي، وبعد أن تُستخلص منها العشرون مليونًا، مع ما أوصيت به لخدمي، سيبقى ما لا يقلّ عن ستّين مليونًا».

أتمّ الكونت كتابة السّطر الخير، وإذا بصيحةٍ خلفه تسقطُ من يده اليراع.

قال: - هايدي، هل قرأتِ؟

وبالفعل كان ضوء النّهار قد أيقظ الصّبية، فتسلّلت على أطراف أصابعها، من غير أن يسمع الكونت وقع خطواتها التي كتمها البساط.

قالت وهي تشبك يديها: - أوه! يا مولاي، لمَ تكتب هكذا في ساعةٍ مماثلةٍ؟ ولمَ توصي لي بكلّ ثروتك؟ هل نويت أن تتركني يا مولاي!

أجابها الكونت بنبرةٍ تفيض رقّةً وحزنًا: - سأسافر يا ملاكي العزيز، فإن حدث لي مكروه...

توقّف الكونت.

سألته الصّبيةُ بنبرةٍ تنطوي على جرأةٍ لم يعهدها فيها، حتّى إنّه ارتجف لوقعها: – وإذًا؟

استأنف الكونت: – وإذًا، إن حدث لي مكروه، فإنّني أريد أن تكون ابنتي سعيدة.

ابتسمت هايدي بحزنٍ هازّةً رأسَها.

قالت: – هل تفكّر في الموت يا مولاي؟

– الموتُ خلاصٌ، كما يقول الحكيمُ يا طفلتي.

قالت: – فإن مُتَّ، فأوصي بثروتك لغيري، لأنّني سأموت... لن أحتاج لشيء بعدك.

ثمّ أخذت الورقة فمزّقتها إلى أربع، وألقت بها في الصّالون. ثمّ، إذ بذلت هذا الجهدَ غير المعتاد في جاريةٍ، فقد هوت على الأرضية، ليست نائمةً هذه المرّة، وإنّما مغشيًا عليها.

مال عليها مونت كريستو، وحملها بذراعيه؛ فلمّا رأى الجسدَ الجميل الشّاحب، والعينين الحسناوين المغمضتين، والجسد النّضيرَ الجامدَ المتروك كالمتخلّى عنه، خطر بباله لأوّل مرّة في حياته أنّها ربّما تحبّه حبًا غير حبِّ البنتِ لأبيها.

غمغم بيأسٍ عميق: – واأسفًا! كان من الممكن إذًا أن أكون سعيدًا!

ثمّ حمل هايدي حتّى جناحها، وسلّمها، وهي لا تزال مغشيًا عليها، إلى عناية وصيفاتها؛ ولمّا عاد إلى مكتبه، أقفل على نفسه هذه المرّة بشدّة، ونسخ الوصيّة الممزّقة.

فلمّا أتمّ النّسخَ، تناهى إليه صوتُ عربةٍ دخلت السّاحة. دنا مونت كريستو من النّافذة ورأى ماكسيميليان وإيمانويل ينزلان من العربة.

قال: – حسنًا، حان الوقت!

ثمّ ختم وصيّتَه بثلاثة أختامٍ.

ولحظةً بعدئذ سمِع وقعَ خطواتٍ في الصّالون، وذهب يفتح بنفسه البابَ. برز موريل عند العتبة. لقد أتى قبل موعده بنحو عشرين دقيقة.

قال: - ربّما أبكرتُ أكثر من اللازم يا سيّدي الكونت، لكنّني أعترف لك صراحة بأنّني لم أستطع النّوم لحظةً، وكذلك لم ينم كلّ من في المنزل. كنت أحتاج أن أرى ثقتك وشجاعتك لأستعيد ثقتي.

لم يستطع الكونت أن يمسك نفسه أمام العاطفة التي أبداها له الشّابُ، فلم يمدّ له يده مصافحًا وإنّما فتح له ذراعيه مُعانقًا.

قال بصوت متأثّر: - موريل، إنّه ليومٌ رائعٌ عندي، إذ أشعر بنفسي محبوبًا من طرف رجلٍ مثلك. صباح الخير يا سيّدي إيمانويل. هل ستأتي معي إذًا يا ماكسيميليان؟

قال النّقيب الشّاب: - قطعًا! وهل خامرك شكٌّ؟

- لكن، إن كنتُ مخطئًا...

- لقد تابعتك أمس طيلة مشهد الاستفزاز، وفكّرت في ثقتك طيلة اللّيل، وقلت لنفسي لا بدّ أنّك في صفّ الحقّ، وإلا فلا ثقة لي بعدها في وجوه البشر.

- ومع ذلك يظلُّ ألبير صديقك يا موريل.

- هو أحد معارفي، يا كونت، لا غير.

- هل كانت المرّة الأولى التي رأيتَه فيها هي نفس المرة التي رأيتني فيها؟

- أجل؛ كان لا بد أن تذكّرني بذلك لأتذكّره.

- شكرًا يا موريل.

ثمّ رنَّ الجرس رنّةً.

قال لعليّ الذي ظهر فورًا: - هاك، خُذ هذا إلى الموثّق. إنّها وصيّتي يا موريل. إن مُتُّ فسوف تطّلع على فحواها.

صاح موريل: - كيف! أنت تموت؟

- إه! ألا ينبغي أن نضع في الحسبان كلّ شيء؟ فيمَ فكّرت حين تركتني أمس؟

- ذهبت عند توتونيِ، وكما هو منتظرٌ، صادفتُ هناك بوشان وشاتو رونو، ولأصدُقك القول، كنت أبحث عنهما.

- ولمَ ما دمنا قد اتّفقنا على كلّ شيء؟

- أصغِ إليَّ يا سيّدي الكونت، المسألةُ خطيرةٌ ولا سبيل إلى تفاديها.

- وهلَ كان عندك شكّ في ذلك؟

- كلاّ، فالإهانة قد حدثت أمام الملأ، وصارت حديث الألسن.

- وإذًا؟

- وإذًا، كنتُ آملُ أن أبدّل الأسلحة، أن أجعل السيّف محلّ المسدّس، إنّ المسدّس أعمى.

قال مونت كريستو بلهفة وقد برق فيه شعاع أملٍ لا يبين: - وهل نجحت في ذلك؟

- كلّا، لأنّ الجميع يعرف قوّتك في السّيف.

- باه! ومن ذا الذي وشى بي؟

- أساتذة الأسلحة الذين هزمتَهم.

- ولم تنجح؟

- رفضوا رفضًا قاطعًا.

قال الكونت: - هل سبق لك أن رأيتني أرمي بالمسدّس يا موريل؟

- كلّا!

- حسنًا، لدينا ما يكفي من الوقت، تأمّل.

تناول مونت كريستو المسدّسين اللّذين كان يمسكهما حين دخلت عليه مرسيدس، وألصق على لوح الرّماية ورقة لعب عليها رسمة ورقة نبتة النّفل، ثمّ أطلق أربع طلقات انتزع بها تواليًا فروعَ النّبتة.

ومع كلّ طلقة كان موريل يزداد شحوبًا.

فحص الرّصاصات التي كان مونت كريستو يؤدّي بها عرض القوّة، فرأى أنّها لا تتجاوز حجمًا رصاصاتٍ دقيقة.

قال: – هذا مرعب! تأمّل يا إيمانويل!

ثمّ استدار إلى مونت كريستو قائلًا: – سيّدي الكونت، لا تقتل ألبير! إنّ للشقيِّ أمًّا!

قال الكونت: – صحيحٌ، أمّا أنا فليس لي!

وقد نطق تلك الكلمات بنبرةٍ ارتجف لها موريل.

– أنت من تعرّض للإهانة يا كونت.

– بالتّأكيد؛ وماذا يعني هنا؟

– يعني أنّك ستكون البادئَ إلى الرّمي؟

– البادئ إلى الرّمي؟

– أوه! لقد حصلت على هذا الحقّ، أو بالأحرى انتزعتُه؛ وسوف نقدّم لهم في المقابل تنازلاتٍ كثيرة.

– وعلى بعد كم خطوة؟

– عشرين.

مرّت على شفتَيّ الكونت ابتسامةٌ رهيبة.

قال: – لا تنسى ما رأيتَه هنا يا موريل.

أجاب موريل: – لذا لست أعوّل إلا على عطفك لينجو الصّغير ألبير!

قال مونت كريستو: – عطفي أنا؟

– أو على كرمك يا صديقي؛ فبعد ما وقفت عليه من سداد رميك، لا أستطيع أن أقول إلا شيئًا واحدًا، شيئًا قد يبدو سخيفًا لو أنّني قلتُه لغيرك.

– أيّ شيء؟

– اِكسر له ذراعًا، اجرحهُ، لكن لا تقتله.

– اسمع يا سيّد موريل، لست تحتاج أن تستحثّني لكي أعفو عن السيّد دو مورسيرف؛ أعلمك مسبقًا أنّ السيّدَ مورسيرف سينجو، وسيعود على قدميه إلى بيته مع صديقيه، أمّا أنا...

- أمّا أنت؟
- أوه! أمّا أنا، فمصيري مختلف، سوف أعود محمولًا.
صاح ماكسيميليان وقد خرج عن طوره: - ماذا تقول!
- كما تسمع يا عزيزي موريل، إنّ السيّد ألبير سيقتلني.
نظر موريل إلى الكونت نظرة من لا يفهم شيئًا.
- ما الذي حدث لك منذ مساء أمس يا سيّدي الكونت؟
- حدث لي ما حدث لبروتوس عشيّة معركة فيليبي: رأيتُ شبحًا.
- وهذا الشّبح؟
- وهذا الشّبح يا موريل، قال لي إنّني قد عشتُ ما يكفي.
تبادل ماكسيميليان وإيمانويل النّظر؛ وأخرج مونت كريستو ساعتَه.
قال: - هيّا بنا، إنّها السّابعة وخمس دقائق، والموعد في الثامنة بالضّبط.
كانت تنتظرهما عربةٌ مجهّزةٌ، وركبوا فيها ثلاثتهم.
وحين مرّوا من الرّواق، كان الكونت قد وقف ليتسمّع أمام بابٍ، وخطا الشّاهدان خطوات سبقاه بها لكي يتركاه على راحته، فخيّل إليهما أنّهما سمعا تنهيدةً يتبعها نحيب.
ولمّا أن دقّت السّاعة الثامنة كانوا في الموعد.
قال موريل وهو يخرج رأسه من بوابه العربة: - ها قد وصلنا، وإنّا أوّلُ الواصلين.
قال باتيستان الذي لحق سيّدَه برعب لا يوصف: - ليعذرني سيّدي، لكنّني أظنُّ أنّي أرى عربةً، هناك تحت الأشجار.
قال إيمانويل: - بالفعل أرى شابّين هناك يتجوّلان ويبدو عليهما الانتظار.
قفز الكونت بهدوءٍ إلى أسفل العربة، ومدّ يده إلى إيمانويل وماكسيميليان ليعيناه على النّزول.

استبقى ماكسيميليان يد الكونت بين يديه.

قال: - خير يدٍ يدُ رجلٍ يضع حياته في خدمة قضيّته.

سحب الكونتُ موريلَ من يده، ولم ينتحِ به جانبًا، إنّما ابتعد فقط بخطواتٍ عن إيمانويل.

سأله: - هل قلبك خليٌّ يا ماكسيميليان؟

نظر موريل إلى الكونت دهشًا.

- لستُ أطلب منك أن تسرّ إليّ بنجوى يا صديقي، إنّما هو فقط سؤال بسيط، ولا أريد إلا جوابًا بسيطًا: نعم أو لا.

- أنا مغرم بصبيّة يا سيّدي الكونت.

- وتحبّها كثيرًا؟

- أكثر من حياتي.

قال الكونت: - ها رجاءٌ آخر يتبدّد!

ثمّ تنهّد وغمغم:

- مسكينة يا هايدي!

صاح موريل: - الحقّ أقول يا سيّدي الكونت! لولا أنّني أعرفك لظننتك أقلّ شجاعةً ممّا أنت عليه!

- لأنّني أفكّر في شخص سوف أتركه، وأتحسّر عليه! كيف لجندي ألّا يميّز الشّجاعةَ يا موريل؟ هل تظنّني آسف على الحياة؟ فيمَ يهمّني إنْ مُتُّ أو عشتُ، أنا الذي قضيتُ عشرين سنةً بين الحياة والموت؟ فلتهنأ يا موريل، وحدك ترى هذا الضّعف، إن كان ضعفًا؛ أمّا أنا فأعرف أنّ هذه الدّنيا صالةُ قمارٍ ينبغي أن يغادرها المرء بأدبٍ وشرف، أي يغادرها بعد أن يلقي التحيّة ويسدّد ديونَ مراهناته.

قال موريل: - نعم الكلام. بالمناسبة، هل حملت أسلحتك؟

- أنا؟ ولمَ؟ أظنُّ أنّ هؤلاء الرّجال قد أتوا بأسلحتهم معهم.

قال موريل: - سوف أذهب إليهم فأرى.

- حسنًا، لكن لا مفاوضات! فهمت؟

- أوه! اطمئنّ.

تقدّم موريل صوب بوشان وشاتو رونو. فلمّا رأياه قادمًا تقدّما خطواتٍ إليه. تبادل الرّجال الثلاثة التحيّة بودٍّ، أو أقلّه بمجاملة.

قال موريل: - معذرةً يا سيّديَّ، لكنّني لا أرى السيّد مورسيرف!

أجاب شاتو رونو: - صباح اليوم أخبرنا أنّه سيلحق بنا إلى هنا.

قال موريل: - آه!

أخرج بوشان ساعتَه.

قال: - السّاعة الثامنة وخمس دقائق؛ لم يتأخّر يا سيّدي موريل.

أجاب ماكسيميليان: - أوه! ليس هذا ما أقصده!

قاطعه شاتو رونو: - ثمّ، ها عربةٌ قادمة.

وبالفعل كانت ثمّة عربةٌ تتقدّم هرولةً، عبر أحد الشوارع المفضية إلى تقاطع الطّرق الذي ضربوا فيه موعدًا.

قال موريل: - لا بدّ أنّكم قد حملتم معكم أسلحتكم يا سيّديَ. إنّ سيّدي الكونت مونت كريستو قد تنازل عن حقّه في استعمال سلاحه.

أجاب بوشان: - لقد توقّعنا هذه الدماثة من طرف الكونت يا سيّدي موريل، وقد أتيت بأسلحة، اشتريتُها منذ ثمانية أيّام أو عشرة، ظنًّا منّي أنّني سوف أحتاجها في مسألةٍ مماثلة. إنّها أسلحةٌ جديدة تمامًا، ولم يسبق أن استُخدمت من قبل. هل تريد فحصها؟

قال موريل منحنيًا: - أوه! سيّدي بوشان، حين تقول لي إنّ السيّد مورسيرف لا معرفة له البتّة بهذه الأسلحة، فلا بدّ أنّك تدرك أنّ كلمتك تكفيني؟

قال شاتو رونو: - سيّدايَ، ليس القادم في العربة مورسيرف! إنّما هما فرانز ودُبراي.

والحالُ أنّ الشّابين ما لبثا أن ظهرا.

قال شاتو رونو مصافحًا كلًا من الرّجلين: - مرحبًا! أيّ مصادفةٍ هي؟
- ليست مصادفةً، وإنّما طلب إلينا ألبير صباح اليوم أن نلتقيه هنا.
تبادل بوشان وشاتو رونو نظرات دهشة.
قال موريل: - سادتي، أظنّني فهمت.
- ماذا؟
- أمس، بعد الزّوال، توصّلتُ برسالة من السيّد دو مورسيرف، يرجوني فيها أن ألتقيه في الأوبرا.
قال دُبراي: - وأنا كذلك.
قال فرانز: - وأنا كذلك.
قال شاتو رونو وبوشان: - ونحن كذلك.
قال موريل: - كان يريدكم أن تحضروا الاستفزاز، والآن يريدكم أن تحضروا المبارزة.
قال الشّباب: - نعم يا سيّدي ماكسيميليان؛ وقد خمّنتَ صوابًا على الأرجح.
غمغم شاتو رونو: - لكنّه الآن متأخّرٌ بعشر دقائق.
قال بوشان: - هوَذا قادمٌ على حصانه ركضًا، وفي إثره خادمه.
قال شاتو رونو: - يا لها من حماقة، كيف يأتي على الحصان ليتبارز بالمسدّس! على الرّغم من أنّني نصحته أمس، وشدّدت عليه في النّصح!
قال بوشان: - ثمّ انظروا إليه يرتدي ياقةً على ربطة عنقه، ولباسًا مفتوحًا، وسترة بيضاء؛ لمَ لمْ يضع على بطنه رُقعةً؟ هكذا كان سيسهل التّسديد عليه وينتهي الأمر سريعًا!
أثناء ذلك كان ألبير قد صار على بعد عشر خطواتٍ من الرّجال الخمسة؛ أوقف حصانَه، ووثب إلى الأرض، وسلّم اللّجام إلى خادمه.
اقترب ألبير. كان شاحبًا، وعيناه حمراوين ومتورّمتين. كان واضحًا أنّه لم يغمض له جفنٌ طيلة اللّيل. كان الأرق قد غطّى هيئته بغلالةٍ من جديّة حزينة غير مألوفة فيه.

قال: - شكرًا يا سادتي لأنّكم استجبتم لدعوتي: صدّقوني، أنا ممتنٌّ غاية الامتنان لهذه الصّداقة.

ولمّا اقترب مورسيرف، كان موريل قد ابتعد بعشر خطوات إلى الوراء وانتحى بنفسه جانبًا.

قال ألبير: - شكري لك أيضًا يا سيّدي موريل. اقترب، فأنت لست غريبًا.

قال ماكسيميليان: - سيّدي، ربّما تجهل أنّني شاهدُ السيّد مونت كريستو.

- لم أكن متأكّدًا، لكنّني كنت أشكّ. خيرٌ، كلّما كثُر الرّجال الشّرفاء هنا، زاد رضايَ.

قال شاتو رونو: - سيّدي موريل، تستطيع أن تبلّغ سيّدي الكونت مونت كريستو بأنّ السيّد مورسيرف قد وصل، وأنّنا طوعُ أمره.

تحرّك موريل لينفّذ المهمّة. وأخرج بوشان، في اللّحظة نفسها، علبة المسدّسات من عربته.

قال ألبير: - مهلًا يا سادة، عندي كلمتان للسيّد الكونت مونت كريستو.

سأله موريل: - على حدة؟

- كلاّ يا سيّدي، على الملأ.

تبادل شهود ألبير نظرات دهشة؛ وتبادل فرانز ودُبراي كلماتٍ بصوتٍ خفيض، أمّا موريل، فلمّا أبهجه الحادث غير المتوقّع، فقد هرع إلى الكونت الذي كان يتجوّل مع إيمانويل في زقاق جانبيّ.

سأله الكونت: - ماذا يريد منّي؟

- لا أدري، لكنّه يريد أن يتحدّث إليك.

- أرجو ألّا يرتكب حماقة إهانتي مرّةً أخرى!

قال موريل: - لا أعتقد أنّها نيّتُه.

تقدّم الكونت، مصحوبًا بماكسيميليان وإيمانويل. وجهُه الهادئ

والمفعم بالصّفاء يشكّل تناقضًا غريبًا مع وجه ألبير المصدوم وهو يقترب متبوعًا بأربعة شبّان.

توقّف الكونت وألبير على مسافة ثلاث خطواتٍ من بعضهما بعضًا.

قال ألبير: - تقدّموا يا سادة؛ لا أريد أن تفلتوا كلمةً ممّا سأتشرّفُ بقوله لسيّدي الكونت مونت كريستو؛ لأنّ ما سوف أقوله ينبغي أن تردّدوه على مسامع الكلّ، مهما بدا لكم غريبًا.

قال الكونت: - أنا أنتظر يا سيّدي.

قال ألبير بصوت بدأ مضطربًا ثمّ ما انفكّ يمضي واثقًا: - سيّدي، كنت ألومك على فضح سلوك السيّد دو مورسيرف بإيبيروس؛ لأنّه وإن كان مذنبًا إلا أنّني كنت أظنُّ أنّ ليس لك أنت أن تقتصَّ منه. لكنّني بتُّ اليوم يا سيّدي، أرى أنّ لك كامل الحقّ في القصاص. ولست ألتمس لك العذر في الانتقام من خيانةِ فرنان مونديغو لعلي باشا، وإنّما من خيانة الصيّاد فرنان لك، تلك الخيانة التي تسبّبت لك في مصائبَ وأهوالٍ عظام. لذا أقولها، وأعلنُها بأعلى صوتي: بلى يا سيّدي، من حقّك أنّ تنتقم من والدي، ومنّي أنا، ابنه، وأشكرك لأنّك لم تذهب في انتقامك أبعد!

ولو أنّ عاصفةً هوت على رؤوس الشهود الحاضرين المشهدَ، لما كان لها الوقعُ الذي خلّفه فيهم تصريح ألبير.

أمّا مونت كريستو فقد رفع عينيه إلى السّماء بتعبير عرفانٍ لا حدّ له، وعجز عن أن يدرك كيف تحوّلت الطّبيعةُ المتّقدةُ التي رآها في ألبير، وخبِرَ شجاعتها وسط المجرمين الرّومان، بغتةً إلى هذا التّذلل المفاجئ. وقد استشفّ في التحوّل تأثير مرسيدس وأدرك لمَ لم يعترض ذاك القلبُ النّبيل على تضحيته التي كان يراها من البداية بلا فائدة.

قال ألبير: - والآن، إن كنت ترى يا سيّدي أنّ الاعتذار الذي قدّمته لك كافٍ، فأرجو أن تمدّ لي يدك. بعد العصمة من الخطأ، التي تبدو لي ميزةً فيك، لا أرى خصلةً أرفع من الاعتراف بالخطأ. لكن هذا الاعتراف لا يخصّ سوايَ. أنا أتصرف وفق تصرّف النّاس، أمّا أنت فتتصرف وفق

تصرّف الرّب. فقط ملاكٌ يستطيع أن ينقذ أحدنا من الموت، وقد نزل ملاكٌ من السّماء، ليجعل منّا أصدقاء. واأسفًا! صداقةٌ يحول بيننا وبينها القدرُ، لكن على الأقلّ قد نكون رجلين يقدّر أحدهما الآخرُ.

بعينٍ مبلّلةٍ وصدرٍ لاهثٍ وفم مفتوحٍ فتحًا خفيفًا، أمسك الكونت يد ألبير الممدودة إليه، وشدّ عليها بشعورٍ يشبه رهبةَ تقدير.

فقال ألبير: - سادتي، إنّ الكونت مونت كريستو تفضّل بقبول اعتذاري. لقد تصرّفت تُجاهه بتسرّع. وشرُّ النّاصح التّسرُّعُ: لقد أخطأت التّصرّف. والآن أصلحُ خطأي. وأتمنّى ألاّ يعتبرني النّاسُ جبانًا بعدما تصرّفت وفق ما يمليه عليّ ضميري. (أضاف وهو يرفع رأسَه بفخر وكأنّما يرفع تحدّيًا أمام أصدقائه وأعدائه) لكن، على أيّ حالٍ، إن أخطأ النّاسُ تقديري، فسوف أصحّح آراءهم.

سأل بوشان شاتو رونو: - ما الذي حدث إذًا هذه اللّيلة؟ يبدو أنّنا نؤدّي هنا دورًا كئيبًا!

أجاب البارون: - الحقُّ أنّ ما فعله ألبير غايةُ البؤس أو آيةُ الجمال.

سأل دُبراي فرانز: - آه! ماذا يعني هذا؟ كيف! إنّ الكونت مونت كريستو ألحق العار بشرف الكونت دو مورسيرف، وابنُه يرى أنّه كان محقًّا في فعله! أمّا أنا، فحتّى لو حدث لي عشرة أضعاف ما حدث في يوانينا، فلن يعني الأمرُ إلا شيئًا واحدًا: سوف أضطرُّ إلى أن أتبارز عشر مرّاتٍ!

أمّا مونت كريستو، فبجبين منحنٍ، ويدين ساكنتين، رازحًا تحت ثقل أربعةٍ وعشرين عامًا من الذّكريات، لم يكن يفكّر في ألبير، ولا بوشان، ولا شاتو رونو، ولا في أيّ أحدٍ من الحضور. كان يفكّر في المرأة الشّجاعة التي أتت تسأله حياة ابنها، وبعدما وهب لها حياتَه أنقذته بأن أفشت سرًّا رهيبًا من أسرار عائلتها، سرًّا يمكن أن يقتل الشّاب حزنًا على أبيه.

غمغم: - تدابير العناية دائمًا! آه! الآن فقط أيقنتُ أنّني مبعوث الربّ!

91

الأمّ والابن

حيّا الكونت مونت كريستو الشّبّان الخمسة بابتسامة ملؤها الشّجن والفخر، ثمّ صعد إلى عربته برفقة ماكسيميليان وإيمانويل.

بقي ألبير وبوشان وشاتو رونو وحدهم في ميدان المعركة.

حدّق الشّابُ في شاهدَيْه بنظرة يبدو أنّها تسألهما، من غير خجلٍ، عن رأيهما فيما حدث.

وكان بوشان البادئ إلى الكلام، إمّا لأنّه كان الأشدّ حساسية أو الأقلّ قدرةً على الكتم، قال: - لعمري! اسمح لي أن أهنّئك يا صديقي: هي ذي نهايةٌ غير متوقّعة لقصّةٍ غير سارّة.

لزم ألبير الصّمت غارقًا في تأمّلاته. أمّا شاتو رونو فاكتفى بأن ضرب على حذائه الطّويل بعصاه المرنة.

وبعد الصّمت المزعج قال: - ألن نذهب؟

أجاب بوشان: - متى ما أحببتَ؛ اسمح لي فقط أن أهنّئ السيّد دو مورسيرف؛ لقد أبان اليوم عن كرمٍ يضاهي كرم الفرسان... كرم نادر!

قال شاتو رونو: - أوه! نعم.

واصل بوشان: - رائع أن يسيطر المرء على نفسه بهذا القدر!

قال شاتو رونو ببرودٍ بليغ: - بالتّأكيد. أمّا أنا فما كنت لأستطيع.

قاطعه ألبير: - سادتي، أظنّ أنّكم لم تدركوا أنّ بيني وبين السيّد مونت كريستو قد وقعت أمورٌ أخطرُ...

قال بوشان من فوره: - بلى، بلى، لكنّ مواطنينا الفضوليين لن يبلغوا

حدَّ إدراك مغزى فِعلك البطوليّ، فلا مناص لك، عاجلًا أم آجلًا، من أن تشرح لهم بأكثر ممّا يطيقه جسدك أو عمرك. أتريد منّي نصيحة صديق؟ ارحل إلى نابولي، أو لاهاي، أو سان بطرسبورغ، أو أيّ بلدٍ من تلك البلدان الهادئة التي ينظر أهلها إلى مسائل الشّرف بتعقّلٍ أكبر ممّا يفعل أصحابنا الباريسيّون ذوو العقول الخرقاء. وهناك بارز ما شئتَ بالمسدّس والسّيف، وانتظر أن تُنسى بما يكفي لكي تعود بسلام إلى فرنسا بعد بضع سنواتٍ؛ أو حُز مكانةً رفيعةً أكاديميًا، لكي تنتزع هدوءكَ. أليس كذلك يا سيّدي شاتو رونو؟

أجابه الشّابُ: - هذا رأيي أنا أيضًا. لا شيء يستجلب النزالات الجادّة مثلما يفعل نزالٌ بلا نتيجة.

أجاب ألبير بابتسامةٍ باردة: - شكرًا يا سيّديَّ؛ سوف أتبع نصيحتكما، ليس لأنّها نصيحتكما وإنّما لأنّها نيّتي أصلًا، فلقد عزمت على ترك فرنسا. أشكركما كذلك على الخدمة التي أسديتماهما إليّ إذ قبلتُما أن تكونا شاهديَّ. إنّها خدمةٌ محفورةٌ عميقًا في قلبي، لأنّي بعد ما سمعتُه، لا أتذكّرُ غيرها.

تبادل شاتو رونووبوشان النّظر. كان يعلو وجهيهما انطباعٌ واحدٌ، وكانت النّبرةُ التي نطق بها مورسيرف شُكرَه تشي بقرارٍ حاسمٍ، حتّى إنّ الوضع كان ليصير مزعجًا لو أنّ الحوار امتدَّ أكثرَ.

قال بوشان بغتةً وهو يمدّ يده إلى ألبير بلامبالاة: - وداعًا يا ألبير.

ولم تُخرج اليدُ الممدودةُ الشّابَّ من فتوره، حتّى إنّه لم يردَّ تحيّتها. وبدوره قال شاتو رونو: «وداعًا»، ممسكًا بيُسراه عصاه الصّغيرة، ومحيّيًا بيمناه.

وبالكاد همس ألبير: - وداعًا! لكنّ نظرتَه كانت واضحةً صريحةً؛ كانت تنطوي على قصيدةٍ بأكملها، قصيدة من الغضب المكبوت، والاستخفاف الفخور، والغيظ الرّفيع.

وبعدما ركب شاهداه العربةَ، ظلَّ مدّةً واقفًا ساكنًا في هيئته الجامدة الكئيبة؛ ثمّ فجأةً، فكّ وثاقَ حصانه من الشجرة حيث ربطه خادمه، وقفز برفقٍ على سرجه، وعاد سالكًا الطّريق إلى باريس ركضًا. وما هي إلا ربع ساعةٍ حتّى دخل المنزل بشارع هيلدر.

وحين ترجّل عن حصانه، بدا له أنّه قد لمح خلف ستار غرفة نوم الكونت، وجهَ والده الشّاحب؛ أشاح ألبير بوجهه متنهّدًا ودخل إلى جناحه.

ولمّا صار داخل جناحه أجال البصر في كلّ ذاك التّرف الذي جعل حياته، منذ طفولته، غايةً في العذوبة والسّعادة؛ ونظر مرّةً أخرى إلى تلك اللوحات حيث الوجوه تبدو مبتسمةً له، والمناظرُ الطّبيعةُ حيّةً بالألوان. ثمّ أخرج بورتريه أمّه من إطاره المصنوع من خشب السّنديان، ولفّه، تاركًا الإطار الذّهبيَّ فارغًا أسود.

ثمّ رتّب أسلحته التركيّة الجميلة، وبنادقه الإنجليزية الرّائعة، وخزفه اليابانيّ، وكؤوسه المرصّعة، وبرونزيّاته الآسيوية، الموقّعة باسم فوشير أو باري، وفحص الخزائن ووضع في كلّ منها مفتاحها؛ وألقى في درج خزانة تركه مواربًا، كلَّ النّقود التي كانت في جيبه، وأضاف لها المجوهرات الكثيرة التي كانت تمتلئُ بها كؤوسُه وعلبُ مجوهراته وأدراجُه؛ وقام بجردٍ شامل بكلّ شيءٍ، ثمّ وضع الورقة التي عليها الجرد الدّقيق في الموضع الأبرز من طاولةٍ، بعدما أزاح عنها كلّ الكتب والأوراق التي كانت متراكمة فيها.

وعند بداية عمله دخل عليه خادمه، على الرّغم من أنّ ألبير كان قد أمره بأن يتركه بمفرده.

سأله مورسيرف بنبرةٍ فيها من الحزن أكثر ممّا فيها من الحنق: – ماذا تريد؟

قال الخادمُ: – معذرةً، لقد أمرني سيّدي بألّا أزعجه، لكنّ سيّدي الكونت مورسيرف دعاني إليه.

سأله ألبير: - ثمّ؟
- ولم أرِد أن ألبّي نداء سيّدي الكونت قبل أن أتلقّى أوامرك يا سيّدي.
- ولم؟
- لأنّ سيّدي الكونت يعلم بلا شكّ أنّني قد رافقت سيّدي الفيكونت إلى المضمار صباحًا.
قال ألبير: - وارد.
- فإن استدعاني، فإنّما ليسألني عمّا وقع هناك. فماذا ينبغي أن أقول له؟
- الحقيقة.
- أقول له إذًا إنّ المبارزة لم تتمّ!
- قُل له بأنّني قد اعتذرت لسيّدي الكونت مونت كريستو، هيّا.
انحنى الخادمُ وانصرف، فعاد ألبير إلى جرده. ولمّا أوشك على الفراغ ممّا في يده، تناهى إليه وقع سنابك خيلٍ وعجلات عربةٍ اهتزّ له زجاج النّوافذ، فاسترعى انتباهَه؛ دنا من النّافذةً، فرأى أباه يمتطي عربتَه وينطلق.
وما كادت بوابة المنزل تنغلق خلف الكونت، حتّى هرع ألبير إلى جناح والدته، ولمّا لم يكن ثمّة من يُعلنُ عن قدومه، فقد اقتحم الجناح حتّى بلغ خِدرَها، فتوقّف عند العتبة بقلبٍ مكلومٍ ممّا يراه ويخمّنه.
وكأنّما هما جسدانِ تسري فيهما نفسٌ واحدةٌ، كانت مرسيدس تفعل في جناحها نفس ما فعله ألبير في جناحه. كلّ شيءٍ وضع في ترتيبٍ محكم: أثواب الدّانتيل، والمجوهرات، والحليّ، والأثواب، والمالً، كلّها وُضعت في أدراجَ رتّبت الكونتيسة مفاتيحها بعناية.
رأى ألبير تلك التّحضيرات فأدرك الغاية منها، وهرع إلى أمّه يحضنها صائحًا: - أمّاه!
ولو أنّ رسّامًا استطاع أن ينقل انطباع الوجهين لأبدع بلا شكٍّ لوحةً جميلة.

الحالُ أنّ تلك الاستعدادات التي تمّت بسدادٍ بالغٍ، لم تبعث في نفس ألبير قلقًا عليه هو، وإنّما على أمّه.

سألها: - ماذا تفعلين يا أمّاه؟

أجابته: - وماذا كنتَ تفعل أنت؟

صاح ألبير وقد خنقه التأثّر حتّى شقّ عليه النّطقُ: - آه يا أمّاه! ليس وضعك مثل وضعي أنا، لذا لا يمكنك أن تتخذي القرار الذي اتّخذته... لقد أتيتُ أعلمك بأنّني أودّعك وأودّع بيتك.

أجابت مرسيدس: - حتّى أنا يا ألبير؛ أنا أيضًا راحلة. وكنت أعوّل على ابني ليرافقني، فهل أخطأتُ؟

أجابها ألبير بحزم: - أمّاه، لا أستطيع أن أشركك في المصير الذي حدّدتُه لنفسي. ينبغي أن أعيش من الآن بلا اسم أو ثروةٍ؛ وبدايةً لهذا الطّريق القاسي الذي سوف أسلكه، عليّ أن أطلبّ من صديق ما يعينني على العيش إلى حين أن أكسب قوتي بيدي. لذا يا أمّاه أنا ذاهبٌ إلى فرانز أسأله إقراضي المبلغ الذي أراه ضروريًا لي.

صاحت مرسيدس: - أنت، يا طفلي المسكين! أنت تعاني البؤس والجوع! أوه! لا تقل هذا، لأنّ كلامك يكسر عزيمتي.

أجاب ألبير: - أمّا عزيمتي أنا، يا أمّاه، فلا. ما زلتُ شابًّا، وأنا قويّ، وأظنّني شجاعًا، ومنذ أمس تعلّمت ما تعني الإرادةُ. وأسفًا! أمّاه، ثمّة أناسٌ عانوا أشدّ المعاناة، ولم يقاوموا الموت فحسب، وإنّما بنوا سَعْدًا جديدًا على خرائبِ السّعادة التي وعدَتهُم بها السّماءُ، وأنقاضَ الآمال التي ألهمَهُم الرّبُ إيّاها! ذاك ما تعلّمتُه يا أمّاه، لقد رأيت أولئكَ النّاس، وأعلم أنّهم من أعماق الهُوى السّحيقة التي ألقى فيها بهم أعداؤهم، استطاعوا أن ينتشلوا أنفسهم ويعودوا أشدّ بأسًا وأوسَع مجدًا، وأن يقهروا أعداءهم ويخضعوهم كما أخضعهم أعداؤُهم من قبل. كلّا يا أمّاه، كلّا؛ لقد قطعت، من اليوم، مع ماضيّ، ولا أقبل منه شيئًا، حتّى

اسمي، وتعرفين السّبب، أليس كذلك يا أمّاه؟ ليس ابنك من يحمل اسمَ رجلٍ ينبغي أن يشعر بالخزي أمام رجلٍ آخر!

قالت مرسيدس: - ألبير، يا بنيَّ، لو أنّي كنت أشدّ بأسًا، لنصحتُك بما قلتَه أنت نفسُك؛ لقد نطق ضميرك بينما صمت صوتي المقهور؛ فأنصِت إلى ضميرك يا بنيَّ. كان لك أصدقاءٌ يا ألبير، ففارِقْهم إلى حين، لكن لا تيأس بحقٍّ أمّك يا بنيَّ! إنّ الحياة لا تزال جميلةً أمامك، فأنت لم تتعدَّ الثانية والعشرين؛ وإنّ قلبًا بطهارة قلبك ليستحقُّ اسمًا لم تشُبه لطخة، فاتّخذ اسمَ والدي: كان يُدعى هِريرا. أعرفك يا عزيزي ألبير، وأيّما طريقٍ سلكتَ، لن يطول بك الوقت لترفع اسمَه عاليًا. وإذّاك يا صديقي، عُد إلى العالم أشدَّ توهّجًا، وقد انقضت مآسيك القديمة؛ وحتّى وإن لم تسِر الأمور على هذا النّحو الذي توقّعتُه، فاترك لي على الأقلّ هذا الرّجاء، اتركه لي أنا التي لن يملأ خاطري غير هذه الفكرة، أنا التي ما عاد لي من مستقبل، وقبري يُحفر ما إن أخطو هذه العتبة.

قال الشّابُ: - سوف أحقّق رجاءك يا أمّاه؛ نعم، أنا أشاركك الأمل نفسَه: إنّ غضب السّماء لن يلاحقنا، أنت الطّاهرة وأنا البريء. لكن ما دُمنا قد حسمنا أمرنا، فلنتصرّف كما ينبغي. إنّ السيّد دو مورسيرف قد ترك المنزل منذ نصف ساعةٍ تقريبًا؛ وإنّ الفرصة سانحةٌ كما ترَين لكي نرحل من غير أن نضطرَّ إلى تحمّل ضجيج الشّرح.

قالت مرسيدس: - أنا بانتظارك يا بنيّ.

هرع ألبير من فوره إلى الشّارع، فأتى بعربة أجرة لتحملهما من منزل الكونت إلى نُزلٍ مفروشٍ صغير بشارع القدّيسين كانت الكونتيسة قد وجدت فيه محلًا بسيطًا لكن لائقًا؛ وعاد الابن إذًا ليقلّ أمّه.

وفي اللّحظة التي توقّفت فيها العربة أمام الباب، وهمّ ألبير بالنّزول منها، دنا منه رجلٌ، وسلّم إليه رسالةً.

تعرّف ألبير على مدبّر المنزل.

قال برتوتشو: - من طرف الكونت.

أخذ ألبير الرّسالة، ففتحها وقرأها. ولمّا فرغ من قراءتها، التمس بعينيه برتوتشو، لكنّ الرّجل كان قد اختفى.

إذّاك دخل ألبير عند مرسيدس بعينين دامعتين وصدرٍ مفعمٍ بالتأثّر، ومن دون أن ينبس بكلمة مدَّ لها الرّسالة.

قرأت مرسيدس:

«ألبير،

إذ أُريك في رسالتي هذه أنّني قد كشفتُ خطّتك وما أنت مقدمٌ عليه، فإنّني آملُ أن تدرك أنّني أفهم دقّة الوضع. ها أنت ذا حرٌّ، وتترك منزل الكونت، وسوف تأخذ معك أمّك بعدما صارت حرّةً مثلك؛ لكن، فكّر في الأمر يا ألبير، إنّك مدينٌ لها بأكثر ممّا تستطيع تقديمَه أيُّها القلبُ المسكين النّبيل. دع النّضال لنفسك، واطلب بحصّتك من المعاناة، لكن جنّبها هي البؤس الذي سيصاحب بداية نضالكما؛ لأنّها لا تستحقُّ حتى خيالًا من الشّقاء الذي يضربها اليوم، وإنّ عناية الربّ لا ترضى بأن يؤخذَ البريءُ بجُرم المذنب.

أعرف أنّكما ستتركان معًا منزل شارع هيلدر من غير أن تأخذا معكما شيئًا. كيف عرفت؟ لا تبحثا عن جواب. أعرف: وهذا كلّ شيء.

اسمع يا ألبير.

منذ أربع وعشرين سنةً، كنت قد رجعتُ سعيدًا وفخورًا ببلدي. كانت لي خطيبةٌ يا ألبير، صبيّةٌ قدّيسةٌ، أحبّها، وكنت أحمل إلى محبوبتي مائة وخمسين لويسيّة كسبتها بكدٍّ وجهد. تلك النّقود كانت لها، ولأنّني كنت أعرف تقلّبَ البحر، فقد دفنت كنزنا في الحديقة الصّغيرة بمنزل أبي بمارسيليا، تحديدًا بممشى مايون.

والدتك يا ألبير تعرف هذا المنزل حقّ المعرفة.

ومؤخّرًا، أثناء عودتي إلى باريس مررت بمارسيليا، وذهبت أرى

البيت الصّغير المليء بالذّكريات المؤلمة؛ ومساءً، أخذت معولًا ونبشت الموضع الذي كنت قد دفنت فيه الكنز. وكانت علبة الحديد لا تزال في مكانها لم يمسسها أحد؛ كانت في زاوية تظلّلها تينةٌ جميلة زرعها أبي يوم ميلادي.

وإذًا يا ألبير، إنّ المال الذي كان يفترض أن يعين هذه المرأة التي كنتُ أحبّها ويضمن لها حياةً كريمةً، ها هو ذا سيؤدي وظيفته بصدفةٍ غريبة ومؤلمة. أوه! هل تدرك وضعي، أنا الرّجل الذي يستطيع أن يمنح هذه المرأة ملايينَ، لكنّه يكتفي بأن يعطيها كسرة الخبز الأسمر المنسية، المتروكة تحت سقفي البسيط منذ اليوم الذي فُرّق فيه بيني وبين من أحببت.

أنت رجلٌ كريم يا ألبير، لكن قد يعميك الكبرياء أو الاستياء عن قبول مساعدتي، وتطلب من غيري ما يحقُّ لي أنا أن أعطيك؛ غير أنّه سيكون قلّة كرم منك أن ترفض لأمّك حياةً يمنحها إيّاها رجلٌ قتل والدُك والدَه جوعًا ويأسًا».

فلمّا أن فرغت من قراءة الرّسالة، سكن بجوارها ألبير شاحبًا ينتظر قرارها.

رفعت مرسيدس إلى السّماء نظرةً لا سبيل إلى وصفها.

قالت: - أقبل؛ إنّ من حقّه أن يدفع العطيّة التي سوف أعتزل بها الدّنيا!

دسّت الرّسالة على قلبها، وتأبّطت ذراع ابنها، ثمّ نزلت الدّرج بخطىً واثقة، لم تكن حتّى هي تتصوّر نفسها قادرةً عليها.

92

الاِنتحار

أثناء ذلك كان الكونت مونت كريستو قد عاد بدوره بصحبة ماكسيميليان وإيمانويل.

وكانت العودة مرحة. لم يخفِ إيمانويل فرحه لرؤية السِّلم يحلّ محلّ الحرب، واعترف بنزعته الإنسانية. أمّا موريل، فقد تكوّم في ركن من العربة، تاركًا فرحَ صهره يتصاعدُ بخارًا في الجوّ، بينما يُحرّكه هوَ فرحٌ لا يقلّ صدقًا عن فرح صهره، لكنّه فرحٌ يكتفي بأن يبرق في العينين.

عند حاجز ساحة العرش التقوا برتوتشو. كان ينتظر هناك، ساكنًا مثل خفير في مركزه.

أخرج مونت كريستو رأسه من العربة، وتبادل مع مدبّر منزله كلماتٍ بصوتٍ خفيض، فاختفى برتوتشو بعدها.

فلمّا وافوا السّاحة الملكية قال إيمانويل: - رجاءً يا سيّدي الكونت، أنزلني هنا رجاءً، عند باب بيتي، حتّى أجنّب زوجتي أيّ قلقٍ عليك أو عليّ.

قال موريل: - لو لم يكن من السّخف الاحتفاء بالانتصار لدعوت سيّدي الكونت إلى المنزل، لكن لا بدّ أنّ للكونت أيضًا أناسٌ يطمئنهم عليه. ها قد وصلنا، فلنحيّي صديقنا يا إيمانويل، وننزل لنتركه يكمل طريقه.

قال مونت كريستو: - مهلًا يا سيّديَّ، لا تحرماني دفعةً واحدةً من رفيقيَّ؛ عُد إلى منزلك يا سيّدي إيمانويل، وبلّغ زوجتك الجميلة تحيّاتي؛ أمّا أنت يا موريل فتعال معي إلى الشانزيليزيه.

قال ماكسيميليان: - بكلّ سرور، خاصّةً أنّ لي غرضًا أقضيه بحيّك يا سيّدي الكونت.

سأله إيمانويل: - هل ننتظرك على الغداء؟

قال الشّاب: - كلّا.

انغلق البابُ، وواصلت العربة طريقها.

قال موريل لمّا صار بمفرده مع الكونت: - هل ترى كم كان وجهي فأل خير عليك. ألم يخطر هذا ببالك؟

أجاب مونت كريستو: - بلى. لذا أريد أن أبقيك إلى جانبي على الدّوام.

واصل موريل مجيبًا خواطرَه: - معجز!

قال مونت كريستو: - ما المعجز؟

- ما حدث.

أجاب الكونت باسمًا: - نعم؛ لقد أحسنت اختيار الكلمة يا موريل: معجز!

واصل موريل: - لأنّ ألبير في نهاية المطاف رجلٌ شجاعٌ.

قال مونت كريستو: - إنه شجاعٌ جدًا. لقد رأيتُه ينامُ وعلى رأسه خنجرٌ.

قال موريل: - وأنا أعرف أنّه تبارز مرّتين، وفي المرّتين أحسن المبارزة؛ فإن وافقنا هذه المعطيات مع ما وقع صباح اليوم!

أجابه الكونت باسمًا: - أقول إنّه سحرك يا سيّدي.

قال موريل: - من حسن الحظّ أنّ ألبير ليس جنديًا.

- ولم؟

أجاب الشّابُ هازًّا رأسَه: - تخيّل أن يقدّم اعتذارًا وهو في الميدان!

قال الكونت بلطفٍ: - لا تقل لي إنّك ستسقط في الأحكام المسبقة على غرار عامّة النّاس يا موريل؟ ألا تتفّق معي في أنّ شجاعة ألبير تمنعه

من أن يكون جبانًا، وأنّ ثمّة سببًا وجيهًا دفعه إلى التّصرّف على النّحو الذي تصرّف به هذا الصّباح، وأنّ فعلَه هو بالأحرى فعلٌ بطوليٌّ؟

أجاب موريل: - بلا شكّ، بلا شكّ، لكنّني سأقول ما قاله الإسبانيّ: كان اليومَ شجاعًا أقلّ من شجاعته أمس.

قال الكونت كأنّما يغيّر الموضوع: - سوف تتغدّى معي اليوم يا موريل؟

- كلّا، سوف أفارقك في العاشرة.

- لديك إذًا موعدٌ على الغذاء؟

ابتسم موريل نافيًا برأسِه.

- لكن لا بدّ لك أن تتغذى في مكانٍ ما؟

قال الشّابُ: - فإن لم أكن جائعًا؟

قال الكونت: - أوه! لا أعرف إلا شعورَين يقطعان الشّهية على هذا النّحو: الألم (وبما أنّني أراكَ فرحًا، فليس هذا الشعور)، والحبّ. وقياسًا إلى ما قلتَه لي بخصوص قلبك، فلي أن أظنّ...

أجاب موريل مبتهجًا: - الحقّ يا سيّدي الكونت، لا أستطيع أن أنكر.

قال الكونت بنبرةٍ تشي باهتمامه البالغ أن يطّلع على هذا السّر: - ولن تقصّ عليّ هذا الخبر يا ماكسيميليان؟

- لقد بيّنت لك هذا الصّباح أنّ لي قلبًا[1] يا سيّدي الكونت، أليس كذلك؟

اكتفى الكونت بأن مدّ للشّاب يدَه.

واصل موريل الحديث: - وإذًا، مُذ فارقك القلب في غابة فانسين، حلّق إلى مكانٍ آخرَ، وإنّي ذاهبٌ إليه.

قال الكونت بهدوءٍ: - هيّا يا صديقي، لكن رجاءً متى ما واجهتك

---

(1) استعمال القلب هنا كناية عن الشّجاعة.

أيّ عقبةٍ، فتذكّر أنّ لي سلطةً كبيرة في هذا العالم، وأنّني لا أتوانى في استعمالها خدمةً لمن أحبهم، وأنت من جملة من أحبّهم يا موريل.

قال الشّاب: - حسنًا، سأتذكّرُ ذلك كما يتذكّر الأطفال الأنانيّون آباءهم حين يحتاجون إليهم. حين أحتاج إليك، وراجحٌ حدوث ذلك، سوف أتوجّه إليك يا كونت.

- سأعتبرها كلمة وعدٍ منك. وداعًا إذًا.

- وداعًا.

وكانا قد بلغا باب المنزل في الشانزيلزيه، ففتح الكونت باب العربة. قفز موريل على البلاط.

وكان برتوتشو ينتظر في عتبة البيت. اختفى موريل عبر شارع ماريني، وتقدّم الكونت حثيثًا صوب برتوتشو.

سأله: - وإذًا؟

أجابه المدبّر: - سوف تترك منزله.

- وابنُها؟

- فلورنتان، خادمُه، يظنُّ أنّه يفعل كما تفعل أمّه.

- اتبعني.

قاد مونت كريستو برتوتشو إلى المكتب، وحرّر الرّسالة التي اطّلعنا عليها، وعهد بها إلى المدبّر.

- هيّا عجّل، وبالمناسبة، أعلم هايدي بعودتي.

أجابته الشّابة: - ها أنا ذي.

وكانت قد سمعت صرير العربة، فنزلت بوجهٍ مشرقٍ من الفرح لرؤية الكونت سالمًا معافى.

خرج برتوتشو.

كلّ مشاعر الصبيّة المشرقة بعودة أبيها، والعاشقة المولهة برؤية عشيقها، فاضت من هايدي، أثناء اللّحظات الأولى التي شهدت فيها عودة الكونت بعد طول انتظار وشوق.

وقطعًا لم تكن فرحة الكونت مونت كريستو بأقلّ من فرحتها، وإن لم يُظهِرها كما أظهرتها هي؛ إنّ الفرح للقلوب التي طال عناؤها، هو بمثابة النّدى للأرض التي يبّستها الشّمسُ؛ فكلاهما، الأرض والقلب، يتشرّبُ الصيِّبَ الخيِّرَ النّازل عليه من السّماء، من غير أن يُظهرَ شيئًا. منذ أيّام بات مونت كريستو يعتقد في شيءٍ ما ظنَّ نفسه يومًا قادرًا على الاعتقادَ فيه: ليس ثمّة مرسيدس واحدةٌ، وإنّما اثنتان، ولا يزال بوسعه أن يطمع في السّعادة.

غاصت نظرتُه المتّقدة سعادةً بنهم في نظرة هايدي المبلّلة، وإذا بالباب يُفتح بغتةً، فقطّب الكونت حاجبَيه.

قال باتيستان بنبرةٍ كأنّما الكلمة التي ينطقها تحمل عذرها في ذاتها:

- السيّد دو مورسيرف!

والحالُ أنّ وجه الكونت قد أشرق لسماع الاسم.

قال: - أيّهما؟

- الكونت.

صاحت هايدي: - يا إلهي! ألم ينته الأمرُ إذًا؟

أجاب الكونت وهو يمسك يد الصّبية بين راحتيه: - لا أدري يا طفلتي الحبيبة، لكن أعرف أنّه ليس لك ما تخشَينَه.

- أوه! لكنّه الحقير...

قال مونت كريستو: - إنّ هذا الرّجل لا يستطيع إزائي شيئًا، من كان يُخشى هو ابنُه.

- ولن تدري كم عانيتُ يا مولايَ.

ابتسم مونت كريستو.

قال وهو يمسح بيده على رأس الصّبية: - أقسم لك بقبر والدي، إن حدث مكروهٌ، فلن يكون لي.

قالت الصبيّة وهي تمدّ جبينها إلى الكونت: - أصدّقك يا مولايَ، كأنّي أسمع الربَّ يحدّثني.

طبع الكونت على الجبين الجميل الأغرّ قبلةً خفق لها قلبان، قلبٌ عنيفٌ وآخرُ كتومٌ.

همس الكونت لنفسه: - آه! يا إلهي! أتأذنُ لي أن أحبَّ بعد كلّ هذا!... (ثمّ التفت إلى باتيستان، وهو يوجّه هايدي إلى درجٍ خفيٍّ، قائلًا: أدخِل سيّدي الكونت مورسيرف إلى الصّالون).

ولنشرح قليلًا دواعي هذه الزّيارة التي ربّما كان يتوقّعها الكونت، لكن على الأرجح لا يتوقّعُها قرّاؤنا.

بينما تقوم مرسيدس، كما أسلفنا، بالجرد الذي كان يقوم به ألبير في جناحه؛ بينما هي ترتّب جواهرها، وتغلق أدراجها، وتجمع مفاتيحها، لكي تترك كلّ شيءٍ في أمثل ترتيبٍ، لم تنتبه إلى وجهٍ كئيبٍ شاحبٍ أتى يطلّ من زجاج بابٍ يدخل منه نور النّهار إلى البهو؛ ومن هناك لا يستطيع المرء أن يرى ما يحدث عندها فحسب، وإنّما يستطيع أيضًا أن يسمع. فكان النّاظر من هناك، على الأرجح، يسمع ويرى، من غير أن يُسمعَ أو يُرى، كلّ ما يجري في خدر السيّدة مورسيرف.

ومن ذاك الباب الزّجاجيّ، مرّ الرّجل الشّاحبُ الوجه إلى غرفة نوم الكونت مورسيرف، وإذ صار هناك، رفع بيدٍ متوتّرة ستار نافذةٍ تطلّ على الباحة. وهناك ظلّ نحو عشر دقائق ساكنًا، صامتًا، ينصت إلى دقّات قلبه. وكانت الدّقائق العشر بالنّسبة إليه طويلةً جدًا.

وإذّاك عاد ألبير من موعده، ولمح أباه يرقبُ عودتَه من خلف ستارٍ، فأشاح عنه بوجهه.

اتّسعت مُقلةُ الكونت. كان يعلم أنّ الشّتيمة التي رمى بها ألبير الكونتَ مونت كريستو رهيبةٌ، وأنّ أمثالها من الشّتائم تؤدّي في كلّ بقاع العالم إلى مبارزة حتّى الموت. والحالُ أنّ ألبير عاد سليمًا معافى. فلا بدّ أنّه قد انتقم لشرف أبيه الكونت.

أضاء الوجهَ الكئيبَ بريقُ فرحٍ لا سبيل إلى وصفه، بريقٌ أشبه شيءٍ

بشعاع شمسٍ أخير يبرق قبل أن يخبو ويتبدّد بين الغيوم التي هي له بمثابة القبر أكثر منها مرقدًا.

لكنّ انتظاره قد ذهب، كما أسلفنا، سدىً؛ عبثًا انتظر أن يصعد إليه الشّابُّ ليخبره بتفاصيل نصرِه. ألّا يرغبَ الابنُ، قبل المبارزة، في مقابلة أبيه الذي يتهيّأ أن ينتقم لشرفه: هذا أمرٌ مفهوم. لكن، لمّا انتقم الابنُ لشرفِ أبيه، فما الذي يمنعه من أن يأتي ليرتمي في أحضانه؟

وإذ لم يعد الكونت يطيق صبرًا، فقد أرسل يطلب خادمَ ألبير. وكما علمنا، فإنّ ألبير قد سمح له بألّا يخفيَ عن الكونت شيئًا.

عشر دقائق بعدها ظهر عند ساحة المنزل الجنرال مورسيرف، مرتديًا سترة ردنجوت سوداء، ياقتُها عسكريةٌ، وبنطالًا أسودَ، وقفّازًا بنفس اللّون. ويبدو أنّه قد أعطى أوامره مسبقًا، إذ ما كادت قدمه تلمس آخر درجات العتبة حتّى برزت عربته جاهزةً، وتوقّفت أمامَه.

وإذّاك أتى خادمُه فألقى في العربة معطفًا عسكريًا، لُفّ فيه سيفانِ؛ ثمّ أغلق الباب وجلس بجانب الحوذيّ.

اشرأبّ الحوذيّ في مقدّمة العربة مستفسرًا عن الوجهة.

قال الكونت: - إلى الشانزيليزيه، عند الكونت مونت كريستو. هيّا، بسرعة!

وثبت الخيول تحت وقع السّياط؛ وما هي إلا خمس دقائق حتّى توقّفت أمام بيت الكونت.

فتح السيّد دو مورسيرف باب العربة بنفسه، وقفز قفْزَ رجلٍ شابٍّ من العربة، وعجلاتُها لا تزال تدورُ، ودقّ الجرسَ، ثمّ دلف وخادمه من الباب الموارب.

ثمّ لحظةً بعد ذلك أعلن باتيستان للكونت مونت كريستو عن وصول السيّد دو مورسيرف، فأمرَ صاحبُ المنزل وهو يقود هايدي إلى الدّرج الخفيّ، بأن يُدخَل الضّيفُ إلى الصّالون.

كان الجنرال يذرع طولَ الصالونِ للمرّة الثالثة، حين استدارَ فلمح الكونت واقفًا عند العتبة.

قال الكونت بهدوء: - إه! إنّه السيّد دو مورسيرف؛ خلتُ أنّني لم أسمع الاسمَ جيّدًا.

قال الكونت وشفتاه تضطربان اضطرابًا رهيبًا يمنعه من أن ينطق بوضوح: - نعم إنّه أنا.

قالَ الكونت: - لم يبق لي إذًا إلّا معرفة السّبب الذي جعل سيّدي الكونت دو مورسيرف يكرمني بزيارةٍ في هذه السّاعة المبكّرة.

قال الجنرال: - ألم تلتقِ ابنيَ هذا الصّباح يا سيّدي؟

أجابه الكونت: - تعرف ذلك؟

- أعرف كذلك أنّ ابني كانت له كلّ الأسباب ليرغب في مبارزتك، ويبذل كلّ ما في وسعه لقتلك.

- بلى يا سيّدي، كانت له أسبابٌ، وأيّ أسباب! لكن على الرّغم من أسبابه الوجيهة، فهو لم يقتلني كما ترى، ولا حتّى بارزني.

- مع أنّه كان يعتبرك السّبب في الخزي الذي يلطّخ شرف أبيه، والخراب المهول الذي يضربُ بيته في هذه الأثناء.

قال مونت كريستو بهدوئه الرّهيب: - صحيح يا سيّدي؛ وإن كنت سببًا ثانويًا، ولست سببًا رئيسًا.

- لا شكّ في أنّك قد اعتذرت له أو قدّمت أسبابك؟

- لم أقدّم له أيّ سبب، وهو من اعتذر إليَّ.

- وكيف تفسّرُ تصرّفه ذاك؟

- بالاقتناع على الأرجح؛ لقد اقتنع بأنّ ثمّة خلف ما يجري رجلًا أشدُّ منّي ذنبًا.

- ومن هذا الرّجل؟

- أبوه.

قال الكونت مورسيرف وقد ازداد شحوبُه: - ليكن؛ لكنّك تعرف أنّ المذنب لا يحبُّ الإقرار بذنبه.

- أعرف... لذلك كنت أتوقّع ما يحدث الآن.

صاح مورسيرف: - كنت تتوقّع أن يكون ابني جبانًا!

قال مونت كريستو: - ألبير دو مورسيرف ليس قطعًا بالجبان!

- إنّ الرّجل الذي يمسك بسيفٍ، وطوع سيفه عدوُّه، ولا يبارزه، لا يمكن أن يسمَّى إلا جبانًا! ولو كان هنا لقلتُها له في وجهه!

ردّ مونت كريستو ببرود: -لا أظنّك أتيت تقابلني لكي تحكي لي أمورك الأسريّة. اذهب فقُل هذا الكلام لألبير، فلعلّه يعرف بما يجيبك.

أجاب الجنرال بابتسامةٍ سرعان ما اختفت: - أوه! كلّا، كلّا، أنت محقٌّ، لم آتِ لهذا السّبب! إنّما أتيتُ أقول لك إنّني أنا أيضًا أراك عدوًا! أتيت أقول لك إنّني أبغضُك بالفطرة! ويبدو لي أنّني لطالما عرفتك، ولطالما كرهتُك! وما دامَ شبابُ هذا العصر لم يعودوا يتبارزون، فالواجبُ أن نتبارز نحن.. هل تشاطرني الرّأيَ يا سيّدي؟

- تمامًا. لذا حين قلتُ إنّني كنت أتوقّع ما سوف يحدثُ، فقد كنت أقصد تشريفك لي بهذه الزّيارة.

- فليكن... حضّرتَ نفسك للمبارزة إذًا؟

- أنا دائمًا جاهزٌ يا سيّدي.

قال الجنرال صارًّا أسنانه من الغيظ: - وتعرف أنّنا سوف نتبارز إلى أن يموت أحدُنا؟

ردّد الكونت مونت كريستو وهو يهزّ رأسه في حركة من الأعلى إلى الأسفل: - إلى أن يموت أحدنا.

- لننطلق إذًا، فنحن لا نحتاج شهودًا.

قال مونت كريستو: - نعم، لا فائدة في الشّهود، فنحن نعرف بعضنا بعضًا حقّ المعرفة.

- بل الواقع أنّنا لا نعرف بعضنا البتّة.

قال مونت كريستو بنفس البرود الميئِّس: - باه! فكّر قليلًا. ألستَ الجنديّ فرنان الذي فرّ عشيّة معركة واترلو؟ ألست الملازم فرنان الذي عملَ جاسوسًا للجيش الفرنسيّ في إسبانيا؟ ألست النقيب الخائنَ فرنان قاتِلَ علي باشا الذي أحسن إليه؟ أليس جُماع هؤلاء المدعوّين فرنان هم الجنرال الكونت دو مورسيرف عضو مجلس فرنسا؟

صاح الجنرال وقد أصابه كلام الكونت كالحديد المحمّى:

- أوه! أيّها الحقير، تلومني على عاري وأنت على وشك مبارزتي، وقد تقتلني، كلّا لم أقل إنّني غير معروف؛ أعلمُ أيّها الشّيطانُ بأنّك قد اقتحمت ليليَ الماضي، وقرأتَ على ضوء مشعل، أجهلُه، كلَّ صفحةٍ من صفحات حياتي! لكنّني حتّى في عاري قد أكون أشرف منك في مظاهرك الخدّاعة. كلّا، كلّا، أنا معروف، إنّما أنت من لا أعرفُه؛ أنت المغامرُ الغارق بالذّهب والجواهر! تسمّي نفسك في باريس، الكونت مونت كريستو، وفي إيطاليا السندباد البحريّ، وفي مالطا، ما لا أدري من أسماء؟ لقد نسيت كلّ تلك الأسماء. ما أريد أن أعرفه هو اسمك الحقيقي، اسمُك الفعليّ وسط أسمائك المائة المستعارة، حتّى أنطق به على أرض المبارزة في اللّحظة التي أغرس فيها سيفي في قلبك.

شحب مونت كريستو شحوبًا رهيبًا؛ واشتعلت عينه الضّارية بنارٍ متّقدة؛ وثب إلى المكتب الملاصق لغرفته، وفي أقلّ من ثانية، تخلّص من ربطة عنقه، وسترة الردنجوت، وصدريّته، وارتدى سترة بحّارٍ واعتمر قبّعة نوتيّ، أرسل تحتها شعره الطّويل الأسود.

وكذلك برز، رهيبًا، غاضبًا، يتقدّم بيديه مضمومتين إلى الجنرال الذي لم يفهم لمَ اختفى، وظلّ ينتظره شاعرًا بأسنانه تصطكّ وقدميه تخوران تحته، تراجع إلى الخلف ولم يتوقّف حتّى اصطدم بطاولةٍ، فوجد فيها مستندًا ليديه المرتجفتين.

صاح: - فرنان! من أسمائي المائة، لا أحتاج إلا اسمًا واحدًا أصعقك به، لكنّك سوف تخمّنه بنفسك، أليس كذلك؟ أو بالأحرى سوف تتذكّره؟ لأنّني رغمًا عن عذاباتي، وآلامي، أريك اليوم وجهًا شبَّ من سعادة الانتقام، وجهٌ لا بدّ أنّه زارك مرارًا في أحلامك منذ زواجك... من مرسيدس، خطيبتي!

ظلّ الجنرال يحدّق في المشهد الرّهيب صامتًا، رأسُه منقلبٌ إلى الخلف، ويداه ممدودتان؛ ثمّ التمس الحائط يستند إليه، وانزلق عليه ببطءٍ حتّى بلغ الباب فخرج منه متراجعًا بظهره، مطلقًا صيحةً واحدةً، كئيبةً، شاكية، مفجعة: «إدمون دانتِس!».

ثمّ، مُطلقًا آهاتٍ لا تشبه في شيءٍ آهات البشر، جرجر نفسَه حتّى بلغ بهوَ المنزلِ المعمّدَ، ثمّ قطع الباحة مترنّحًا كالسّكران، وهوى بين ذراعَي خادمه هامسًا بصوتٍ لا يبين: - إلى المنزل! إلى المنزل!

وفي الطّريق، استعاد القدرة على استجماع أفكاره، بفضل الرّيح المنعشة التي هبّت عليه، والخجل من أنظار النّاس؛ لكنّ الطّريق كانت قصيرةً، وبقدر ما كان الكونت يقترب من منزله، بقدر ما كانت تتجدّد آلامه.

وعلى بعد خطواتٍ من منزله أوقفَ العربة ونزل. كان باب المنزل مفتوحًا مشرعًا؛ وفي وسط السّاحة توقّفت عربةُ أجرةٍ، سائقُها مندهشٌ من أنّه قد استدعي إلى هذا المنزل الرّائع؛ نظر الكونت إلى تلك العربة برعب، ومن دون أن يجرؤ على سؤال أحدٍ، هرع إلى جناحه.

كان شخصان ينزلان الدّرج، ولم يسعفه الوقت إلا ليقفز إلى المكتب حتّى يتفاداهما.

كانت تلك مرسيدس، متكّئةً على ذراع ابنها، يغادران معًا المنزل.

مرّا بحذاء الشّقيّ الذي كان مختبئًا خلف ستار الدّمقس فلامسَه، بطريقةٍ ما، ثوبُ مرسيدس الحرير، وأحسّ في وجهه بأنفاس ابنه الحارّة

وهو يصبّرُ أمّه قائلًا: - تشجّعي يا أمّاه! هيّا، هيّا، لم يعد هذا المنزل منزلَنا.

انطفأ الكلامُ، وابتعدت الخُطى.

قام الجنرالُ، متعلّقًا بيديه الملتويّتين في ستار الدّمقس؛ وكان يكبت في صدره أفظع صراخٍ يمكن أن يطلقه أبٌ تخلّى عنه ابنه وامرأتُه في آنٍ...

ثمّ ما لبث أن سمع بوابةَ عربة الأجرةِ الحديديّةَ تصطفقُ، وصوتَ الحوذيّ، ثمّ اهتزّت النّوافذ لصرير العربة الثّقيل، وإذّاك انطلق إلى غرفة نومه يتأمّلُ لآخر مرّةٍ كلّ ما أحبّه في هذا العالم؛ لكن العربة انطلقت من غير أن يبرز من بوابتها رأسُ مرسيدس أو رأسُ ألبير، لكي يَنعما على المنزل المتوحّد، والأب والزوّج المهجور، بآخر نظرةٍ؛ نظرة الوداع والأسف، أي نظرة الغفران.

وفي اللّحظة نفسها التي كانت عجلاتُ العربة تصرّ فيها راجّةً بلاطَ القبّة، دوّى هديرُ طلقةٍ، وخرج دخانٌ كالحٌ من زجاج أحد نوافذ الغرفة بعدما كسرته قوّةُ الطّلقة.

93

فالانتين

بوسعنا أن نخمّن إلى أين كان موريل ذاهبًا، ومع من ضرب موعدًا. وبالفعل، حين افترق موريل ومونت كريستو، اتّخذ طريقَه الهوينا صوب منزل فيلفور.

قلنا إنّ موريل كان يمشي الهوينا، إذ كان لديه نصفُ ساعةٍ يقطع فيها خمسمائة خطوة؛ لكن على الرّغم من سعة الوقت لديه، إلاّ أنّه عجّل بالاستئذان من مونت كريستو لتلهّفه على الاستفراد بخواطره.

كان يحفظُ موعدَه، السّاعةَ التي تُقدّم فيها فالانتين الغداء لنوارتييه، إذ لن يزعجها أحد في مهمّتها الورعة تلك. لقد سمح له نوارتييه وفالانتين بزيارتين في الأسبوع، وها هو آتٍ يغنم حقَّه.

وصل، وكانت فالانتين في انتظاره. قلقةً، وشبه ذاهلة، أمسكته من يده، وقادته إلى جدّها.

وإنّ قلقَها الذي يكاد يصل، كما أسلفنا، حدّ الذّهول، منشأهُ ما يروج في الأوساط من خبر مورسيرف، إذ كانت تعرف (نقصدُ الأوساطَ) ما جرى في الأوبرا. وفي منزل فيلفور لا أحد يشكّ في أنّ الحدث سيفضي إلى نزالٍ؛ وبحسِّ المرأةِ، كانت فالانتين قد خمّنت أنّ موريل سيكون هو شاهدَ الكونت، وخشيَت أنّ صداقته للكونت وحبّه له، سيحولان دون أن يقف عند حدود الموقف الذي عُيّن له: موقف الشّاهد السلبيّ.

ندرك إذًا بأيّ تلهّفٍ طُلبت التّفاصيلُ، وأعطيَت، واستُقبلت؛ واستطاع موريل أن يقرأ في عينَي محبوبته فرحًا لا يوصف حين علمت أنّ الحكاية الرّهيبة انتهت نهايةً غير متوقّعةٍ، لكنّها نهاية جميلة.

قالت فالانتين وهي تشير إلى موريل أن يجلس بجانب الشّيخ، وتجلس هي نفسها على المقعد الذي يريح فوقه قدميه: - والآن لنتحدّث في أمورنا. هل تعرف يا ماكسيميليان أنّ جدّي العزيز قد فكّر لوهلةٍ في أن يترك المنزل ويستقرّ بشقّةٍ خارج منزل السيّد دو فيلفور؟

قال ماكسيميليان: - نعم، بالتّأكيد، أذكر هذا المشروع، وأذكر أنّني هلّلت له.

قالت فالانتين: - حسنًا يا ماكسيميليان، لك أن تهلّل مجدّدًا، ما دام جدّي قد عاد يطرق المشروع.

قال ماكسيميليان: - برافو!

قالت فالانتين: - وهل تعرف السّبب الذي يدفع جدّي العزيز إلى مغادرة المنزل؟

نظر نوارتييه إلى ابنته نظرةً تُلزمُها الصّمت؛ لكنّ فالانتين ما كانت تنظر جهة جدّها؛ عيناها ونظرتُها وابتسامتُها كانت جميعًا لموريل.

صاح موريل: - أوه! أيًا كان السّبب، أقول إنّ السيّد نوارتييه محقٌّ.

قالت فالانتين: - سببٌ وجيه. يقول إنّ هواء ضاحية سان أونوريه لا يوافقني البتّة.

قال موريل: - الحقّ أنّ السيّد موريل قد يكون مصيبًا، فمنذ خمسة عشر يومًا ألاحظ أنّ صحّتكِ تتدهور.

أجابت فالانتين: - نعم، معك حقٌّ بعض الشّيء؛ لذا جعل جدّي العزيز من نفسه طبيبًا لي، وما دام جدّي العزيز يعرف كلّ شيءٍ، فأنا أثق فيه كلّ الثّقة.

سألها موريل بحدّة: - صحيحٌ إذًا أنّك مريضةٌ يا فالانتين؟

- أوه! يا إلهي! لا يمكن أن نقول إنّي حقًّا مريضة. أحسُّ بتعبٍ عام، وهذا كلّ ما في الأمر؛ فقدتُ الشّهية، وأشعر بأنّ معدتي تخوض صراعًا لتألف وضعيةً ما.

لم يكن نوارتييه يفلت كلمةً ممّا تقوله فالانتين.

- وما العلاج الذي تأخذينه ضدّ هذه المرض الغريب؟

قالت فالانتين: - أوه! علاج بسيط؛ أتناول كلّ صباح ملعقة من المحلول الذي يأتون به إلى جدّي؛ وعندما أقول ملعقة، فأقصد أنّني أزيدُ ملعقة كلّ صباح، بدأت بواحدةٍ وأنا اليوم في أربعة. يقول جدّي إنّه ترياق.

ابتسمت فالّانتين؛ لكن كان في ابتسامتها طيفٌ من حزنٍ ومعاناة.

وكان ماكسيميليان ينظر إليها صامتًا، وقد أسكرَه الغرامُ؛ كانت جميلةً حقًا، لكنّ بشرتها الشّاحبة اكتست بطبقةٍ أكمدَ، وعيناها تتّقدان بنار أشدَّ من المعتاد، ويداها اللّتان تكونان في المعتاد بيضاوين بياض اللّؤلؤ اكتستا بياضًا شمعيًا ضاربًا إلى الصّفرةِ التي يُحدثُها تقادمُ العهد.

ومن فالانتين نقل الشّابُ بصره إلى نوارتييه، وكان الشّيخ ينظر بفطنةٍ عجيبةٍ وعميقة إلى الصبيّة الغارقة في غرامها؛ على أنّه هو أيضًا كان يرصدُ آثارَ معاناةٍ صامتة، معاناة لا تكاد تبينُ حتّى إنّ أحدًا لم ينتبه إليها، باستثناء الأب والعاشق.

قال موريل: - لكن أليس المحلول الذي تقولين إنّك تتناولين منه ملعقةً حتّى بلغْتِ أربعةً، قد وُصف في الأصل للسيّد نوارتييه؟

- بلى، وإنّ مذاقه مرٌّ، شديد المرارة حتّى إنّني لا أستطعمُ شيئًا بعده، إلا وخالطَه مذاقُه.

نظر نوارتييه إلى ابنته نظرةَ مستنطِق.

قالت: - نعم يا جدّي العزيز، إنّه كذلك. منذ قليل، قبيل أن أصعد عندك، شربتُ كأس ماءٍ محلّى بالسّكر؛ ولقد تركتُ نصف الكأس لفرط ما بدا لي مرًّا مذاقُها.

شحب نوارتييه، وأشار إلى أنّه يريد أن يتكلّم. فقامت فالنتين تلتمس القاموس. وتابعها نوارتييه بعينيه، وقلقٌ ظاهرٌ يعلوه.

والحالُ أنّ الدّم صعد إلى رأس الصبيّة، وتورّد خدّاها.

صاحت من غير أن تفقد شيئًا من مرحها: - أوه! عجبًا: أرى وهجًا! أهيَ الشّمسُ ضربتني في عينيّ؟..

ثمّ استندت إلى قفل النّافذة.

قال موريل: - لا شمس.

وقد قلق من تعابير الشّيخ، أكثر من قلقه من اضطراب فالانتين.

ابتسمت الصبيّة. وقالت لنوارتييه: - اطمئنَّ يا جدّي العزيز؛ واطمئنّ أنت أيضًا يا ماكسيميليان، الأمرُ بسيط، وقد تجاوزته: لكن، اسمَع، أليس ضجيجَ عربةٍ هذا الذي أسمَعُه في السّاحة؟

فتحَت باب غرفة نوارتييه، وهرعت إلى نافذةٍ في البهو، وعادت مسرعةً. وقالت: - نعم، إنّهما السيّدة دانغلار وابنتُها، أتتا تزوراننا. وداعًا، سأنصرف قبل أن يأتوا للبحث عنّي هنا؛ أو بالأحرى، إلى اللّقاء، وابقَ مع جدّي العزيز يا سيّدي ماكسيميليان، أعدك بألّا أستبقي الزّائرتين.

تابعها موريل بعينيه، ورأى الباب ينغلق، ثمّ سمعها تصعد السلّم الصّغير الذي يفضي في آنٍ إلى جناحها وجناح السيّدة دو فيلفور.

وما كادت تختفي حتّى أشار نوارتييه إلى موريل أن يتناول القاموس. أطاع موريل الإشارة؛ وقد صار، بتعليمٍ من فالانتين، يَفهم الشّيخَ حقَّ الفهم.

على أنّه، وإن ألِفَ لغةَ الشّيخ، فقد كان مضطرًا إلى أن يجوس الحروفَ بأكملها، ويبحث عن كلّ كلمة، فكان يلزم عشر دقائق حتّى يتشكّل فكرُ الشّيخ في هذه الكلمات:

- هات كأس الماء والدّورق الموجودَين في غرفة فالانتين.

قرع موريل على الفور مناديًا الخادم الذي حلَّ محلَّ باروا، وأبلغه بأمرِ نوارتييه.

عاد الخادمُ برهةً بعد ذلك. وكان الدّورق والكأسُ فارغين.

أشار نوارتييه برغبته في الكلام.

سأل: - لمَ الكأسُ والدّورَقُ فارغان؟ ألم تقل فالانتين إنّها لم تشرب إلا نصف كأس؟

تطلّب ترجمةُ الفكرة السّابقة إلى كلماتٍ خمس دقائق أُخر.

قال الخادم: - لا أدري، لكنّ الخادمة في جناح الآنسة فالانتين. ربّما هي من أفرغها.

قال موريل مترجمًا هذه المرّة نظرةَ الشّيخ إلى كلمات: - اسألها.

خرج الخادم، ثمّ ما لبث أن عاد.

قال: - لقد مرّت الآنسة فيلفور من غرفتها لكي تذهب إلى غرفة السيّدة دو فيلفور؛ وفي طريقها، شربت الماء المتبقّي في الكأسِ، أمّا الدّورق، فقد أفرغَه السيّد إدوار، ليصنع بركةً لبطّاتِه.

رفع نوارتييه عينيه كما يفعل لاعبُ ورق يقامر، في ضربةٍ، بكلّ ما لديه. مُذّاك، تسمّرت عينا الشّيخ بالباب، وما تركتاه أبدًا.

وبالفعل كانت السيّدة دانغلار وابنتُها هما الزّائرتان اللّتان لمحتهما فالانتين، وقد اقتيدتا إلى جناح السيّدة دو فيلفور التي أمرت باستقبالهما عندها؛ لذا مرّت فالانتين من غرفتها. فقد كانت غرفتها مجاورةً لغرفة زوجة أبيها، لا تفصل بينهما إلا غرفةُ إدوارد.

دخلت المرأتان إلى الصالون بتلك الرّزانة التي تمهّد لحديثٍ رسميّ. والعادات معديةٌ بين الناس المنتمين إلى تلك الطّبقة، لذا أجابت السيّدة دو فيلفور على رزانة زائرتَيها برزانةٍ مماثلة.

وفي تلك اللّحظة دخلت فالانتين، فعادت التّحيّات الرّسمية على بدءٍ.

قالت البارونة بينما تتصافح الصبيّتان باليدين: - صديقتي العزيزة، لقد أتيتُ مع ابنتي يوجيني أدعوك، قبل أيّ شخصٍ آخر، إلى حفل زواجها والأمير أندريا كافالكانتي.

لقد اختار دانغلار لقبَ الأمير. إذ رأى المصرفيُّ الشّهيرُ أنّه أفضلُ وقعًا من لقب كونت.

أجابت السيّدة دو فيلفور: - اسمحي لي إذًا بأن أقدّم لك أصدق التّهاني. إنّ سيّدي الأمير كافالكانتي يبدو شابًا اجتمعت فيه أعزُّ الخصال.

قالت البارونة باسمةً: - أصغِ إليّ؛ إن تكلّمنا صديقةً لصديقةٍ، فينبغي

أن أقول لك إنّ الأمير لا يبدو لنا بعدُ ما ينبغي أن يكونَه. إنّ به بعضًا من تلك الغرابة التي تجعلنا نحن الفرنسيّين نميّزُ من أوّل نظرةٍ نبيلًا إيطاليًا أو ألمانيًا. غير أنّه يُفصح عن قلبٍ طيّب، وذهنٍ حاذق، أمّا فيما يخصّ التناسبَ، فإنّ السيّد دانغلار يقولُ إنّه يملك ثروةً مهيبةً؛ تلك هي الكلمة التي يستعملها.

قالت يوجيني وهي تتصفّح ألبوم صور السيّدة دو فيلفور: - ثمّ ينبغي أن تضيفي يا سيّدتي أنّك ميّالةٌ على نحوٍ خاصٍّ إلى هذا الشّاب.

قالت السيّدة دو فيلفور: - ولا أحتاجُ أن أسألك ما إذا كنتِ تشاركينها ميلَها هذا؟

أجابتها يوجيني بثقتها المعتادة: - أنا! أوه! البتّة يا سيّدتي؛ إنّ رغبتي أنا لم تكن قطّ أن أقيّد نفسي برعاية بيتٍ أو نزواتِ رجل، أيًا كان! إنّما مسعايَ أن أكون فنّانةً، وبالتّالي حرّةً، سيّدةً على قلبي ونفسي وفكري.

نطقت يوجيني تلك الكلمات بنبرةٍ رنّانةٍ وحازمةٍ، إلى درجة أنّ الدّم صعد في وجه فالانتين. إنّ هذه الصبيّة الخوّافة لا تستطيع أن تفهم هذا الطّبع الحادّ الذي يبدو متحلّلًا من كلّ خجلٍ أنثويّ.

واصلت: - وعلى أيّ حالٍ، ما دمتُ سأتزوّجُ، برضايَ أو رغمًا عن رغبتي، فليس لي إلّا أن أشكر الأقدار التي جعلت السيّد ألبير دو مورسيرف يزدريني، وإلا لكنت اليوم زوجة رجلٍ أضاع شرفه.

قالت البارونة بتلك السذاجة التي نصادفها أحيانًا لدى نساء الطّبقة المنعَّمة، والتي لا تمحوها التّجربة تمامًا: - الأمر بالفعل صحيح، لولا التّردّد الذي أبداه آل مورسيرف، لتزوّجت ابنتي ألبير. كان الجنرال مصرًّا على الزّواج، حتّى إنّه أتى يضغط على دانغلار لتعجيله؛ وبالكاد أفلتنا.

قالت فالانتين بخجل: - لكن، هل يمّسُ عارُ الأبِ الابنَ؟ يبدو السيّد ألبير براءً من كلّ خيانات الجنرال.

أجابتها الشّابة العنيدة: - عذرًا يا صديقتي العزيزة، إنّ السيّد ألبير قد

طالب بحصّته من العار واستحقّها. يبدو أنّه بعدما استفزّ السيّد الكونت بالأوبرا، أتاه هذا الصّباح إلى المضمار يعتذر.

قالت السيّدة دو فيلفور: - مستحيل!

قالت السيّدة دانغلار بتلك السذاجة التي ذكرناها آنفًا: - آه! إنّه أمرٌ مؤكّد! لقد علمته من السيّد دُبراي الذي حضر المشهد.

وكانت فالانتين أيضًا تعرف الحقيقة، لكنّها لم تنبس بكلمة. لقد دفعت بها كلمةٌ إلى ذكرياتها، فسرح خيالُها حتّى صار في غرفة نوارتييه حيث ينتظرها موريل. وإذ استُغرقت في ذاك الضّرب من التأمّل الجوانيِّ، فقد انقطعت صلتُها بالحديث الدائر حولها؛ حتّى إنّها لم تكن لتستطيع إعادة ما قيل أمامها قبل دقائق؛ ثمّ بغتةً، أخرجتها يدُ السيّدة دانغلار من أحلامها.

قالت فالانتين، وقد انتفضت لملمس أصابع السيّدة دانغلار كأنّما لامست الكهرباء: - ما الخطبُ يا سيّدتي؟

قال البارونة: - الخطبُ أنّك تبدين في حالٍ غير جيّدة يا عزيزتي فالانتين، أنت مريضةٌ.

قالت الشّابةُ وهي تضع كفّها على جبينها الملتهب: - أنا؟

- نعم؛ انظري إلى نفسك في هذه المرآة، لقد تنقّلتِ بين الشّحوب والاحمرار ثلاث مرّاتٍ أو أربعًا في غضون دقيقة.

صاحت يوجيني: - الحقُّ أنّك شديدة الشّحوب.

- أوه! لا داعي للقلق يا يوجيني؛ مُنذ أيّام وأنا على هذه الحال!

وعلى الرّغم من أنّ الصبيّة لم تكن تتّصفَ بالدّهاء، إلاّ أنّها أدركت أنّ الفرصة مناسبةٌ للخروج.

ثمّ إنّ السيّدة فيلفور أعانتها إذ قالت لها: - بإمكانك أن تستأذني بالانصراف، إنّك تعانين، ولابدّ لضيفتينا من أن تعذراك؛ اشربي كأس ماءٍ صافٍ وسوف تشعرين بتحسّن.

قبّلت فالانتين يوجيني، وحيّت السيّدةَ دانغلار وهي واقفةٌ متأهّبةٌ للانصراف، ثمّ خرجت.

ولمّا غابت فالانتين قالت السيّدة فيلفور: - إنّ حال هذه الطّفلة المسكينة تقلقني حقًّا، لن أستغرب أن يقع لها حادثٌ غريب.

وأثناء ذلك كانت فالانتين قد عبرت غرفة إدوارد في حالة وَجْد لا تعي بها، فلم تردَّ إساءةً أساء بها إليها الصّغير، ومن غرفته أفضت إلى الدّرج الصّغير. وكانت قد عبرت كلّ الدرجات إلا الثلاث الأخيرةَ؛ وقد بدأ يتناهى إليها صوتُ موريل، فإذا بغمامة تغشى عينيها فجأةً، وقدمها المتصلّبة تُخطئُ الدّرجة، ويداها تخوران فلا تقويان على التمسّك بالدرابزين، وهوت من أعلى الدّرجات الثلاث بدلًا من أن تنزلها درجةً درجة.

وثب موريل وثبةً واحدةً؛ فتح البابَ، فوجد فالانتين ممدّدةً أسفل الدّرج. وبسرعة البرق، حملها وأجلسها على المقعد. فتحت فالانتين عينيها.

قالت بطلاقةٍ محمومة: - أوه! يا لي من خرقاء؛ ما عدت أستطيع الثبات؟ نسيت أنّ ثلاث درجاتٍ تفصلني عن أسفل الدّرج!

صاح موريل: - قد تكونين مصابة يا فالانتين؟ آه، يا إلهي!

نظرت فالانتين حواليها، ورأت أعظمَ الرّعبِ يرتسمُ في عينيّ نوارتييه.

قالت محاولةً التبسّم: - اطمئنّ يا جدّي العزيز؛ الأمر بسيط، الأمر بسيط... لقد دخت، وهذا كلّ ما في الأمر.

قال موريل ضامًا ذراعيه: - دوخةٌ مجدّدًا! أوه! انتبهي يا فالانتين، أتوسّل إليك.

قالت فالانتين: - كلّا، كلّا، قلت لك إنّ كلّ شيءٍ على ما يرام. والآن دعني أُطلعك على خبر: في غضون ثمانية أيّام سوف تتزوّج يوجيني، وفي غضون ثلاثة أيّامٍ سوف تُقام وليمةٌ كبيرة، وليمة خطبة. وكلّنا مدعوّون، أبي، والسيّدةٌ دو فيلفور وأنا... هذا، على الأقل، ما فهمتُه.

- ومتى يحين علينا الدّور نحنُ، لننشغل بهذه التّفاصيل. أوه يا فالانتين! إنّ كلمتك مسموعة عند جدّنا العزيز، فاجعليه يقول: قريبًا!

سألته فالانتين: - تعوّل عليّ إذًا في أن استحثَّ جدّي العزيز وأنعش ذاكرته؟

صاح موريل: - نعم. إلهي! إلهي! عجّلي بالأمر. طالما لست لي يا فالانتين سيظلّ ينتابني الانطباع بأنّك ستفلتين من بين يديَّ.

أجابته فالانتين في حركةٍ متشنّجةٍ: - أوه! أوه! الحقّ أنّك خائفٌ أكثر من اللازم يا ماكسيميليان، وهذا أمرٌ مستغربٌ في ضابطٍ، وفي عسكريّ، يُقالُ إنّه لم يعرف الخوف قطّ! ها! ها! ها!

وانخرطت في ضحك حادٍّ ومؤلم؛ أخذت ذراعاها تتشنّجان وتلتويان، وانقلب رأسها إلى الوراء على المقعد وسكنت حركاتُها.

وفاضت من نظرة نوارتييه صرخة الرّعب التي حبسها الربُّ في شفتيه.

فهم موريل الأمر؛ ينبغي أن يطلب النّجدة.

مال الشّاب على الجرس يقرعه؛ فهرع إليهما على الفور الخادم الذي حلَّ محلّ باروا، والخادمةُ التي كانت ترتّب غرفة فالانتين.

كانت فالانتين في حالٍ من الشّحوبِ والبرودةِ وسكونِ الحركة، حتّى إنّ الخادمَيْن من غير أن ينتظرا شرحًا، تلبّسهما الرّعبُ الذي يخيّمُ في هذا البيت الملعون، وانطلقا عبر الأروقة يصيحان طلبًا للنّجدة.

وكانت السيّدة دانغلار ويوجيني قد همّتا بالمغادرة في تلك اللّحظة، فعلمتا سبب الجلبة.

صاحت السيّدة دو فيلفور: - لقد قلتها لكما! يا للصبيّة المسكينة!

94

الاعتراف

وفي اللّحظة نفسها سُمع صوت السيّد دو فيلفور يصيح من مكتبه:

- ما الخطبُ؟

استشار موريل بنظرته نوارتييه الذي استعاد هدوءَه، فأشار إليه أن يختبئَ في ركنٍ سبق له أن لجأ إليه في ظروف مماثلة.

وبالكاد كانَ له من الوقت ما يكفي لكي يأخذ قبّعته ويختفي سريعًا. وكانت خطوات وكيل الملك تتناهى من الرّواق.

هرع فيلفور إلى الغرفة، فحمل فالانتين بين ذراعيه.

صاح فيلفور: - طبيب! طبيب! استدعوا السيّد دافرينيي! أو بالأحرى سأذهب إليه بنفسي.

ثمّ انطلق خارج الجناح. ومن الباب الآخر انطلق موريل. لقد لسعت قلبَه ذكرى مرعبة: استعاد تلك المحادثة بين فيلفور والدّكتور، ليلة وفاة السيّدة دو سان مِران؛ والأعراض التي تبدو على فالانتين، وإن بدرجةٍ أقلّ مدعاةً للخوف، هي نفسُها تلك التي سبقت وفاة باروا.

وفي الآن نفسه هُيّئ إليه أنّه سمع في أذنه صدى صوت مونت كريستو الذي قال له منذ ساعتين فقط:

- متى ما واجهتك أيّ عقبةٍ، يا موريل فتذكّر أنّ لي سلطةً كبيرة في هذا العالم، وأنّني لا أتوانى في استعمالها خدمةً لمن أحبهم.

فانطلق يسبق الفِكَرَ، من ضاحية سان أونوريه إلى شارع ماتينيون، ومن شارع ماتينيون إلى الشانزيليزيه.

وأثناء ذلك وصل السيّدُ دو فيلفور في عربته إلى باب السيّد دافرينيي؛ رنّ الجرس بعنفٍ حتّى إنّ البوّاب هبَّ يفتحه مرعوبًا.

وانطلق فيلفور في الدّرج، لا يقوى على النطق بكلمة. ولمّا كان البوّاب يعرفه فقد تركه يدخل مكتفيًا بأن صاح:

- في مكتبه يا سيّدي وكيل الملك، في مكتبه!

وكان فيلفور قد دفع الباب أو بالأحرى اقتحمه.

قال الدّكتور: - آه! هذا أنت!

قال فليفور مُقفلًا البابَ خلفَه: - نعم؛ نعم، وقد أتيتُ أسألك بدوري هل نحن وحدنا. إنّ منزلي منزلٌ ملعونٌ يا دكتور!

أجابه الطّبيب ببرودٍ ظاهر رغم أنّ دواخله تغلي: - ماذا! هل مرض عندك أحدٌ آخر؟

صاح فيلفور ممسكًا حزمةً من شعره بيدٍ متشنّجة: - نعم يا دكتور، نعم!

نظر إليه دافرينيي نظرةً مفادُها: «لقد حذّرتُك».

ثمّ نطقت شفتاه على مهلٍ هذه الكلمات:

- من ذا الذي سيموت في منزلك، وأيّ ضحيّةٍ سوف تشكو إلى الربّ تخاذلَنا؟

انبثقت من قلب فيلفور صرخةٌ موجعة؛ دنا من الطّبيب، وقال ممسكًا بذراعه:

- فالانتين! إنّ الدّور على فالانتين!

صاح دافرينيي مأخوذًا بالألم والدّهشة: - ابنتك!

غمغم القاضي: - ها أنت ترى أنّك قد أخطأت التّقدير؛ تعالَ لتفحصها على سرير الألم، واطلب منها الصّفح لأنّك شككتَ فيها.

قال دافرينيي: - في كلّ المرّات التي أعلمتني فيها، كان الأوان قد فات. على أيِّ حالٍ، سأذهب معك؛ هيّا لنعجّل يا سيّدي، مع الأعداء الذين يضربون في منزلك، لا ينبغي أن نضيّع وقتًا.

- أوه! هذه المرّة لن تلومني على ضعفي يا سيّدي. هذه المرّة سوف أجد المجرم وأعاقبه.

قال دافرينيي: - لنحاول إنقاذ الضحيّة قبل أن نفكّر في القصاص لها. هيّا.

ثمّ إنّ العربة التي أتت بفيلفور أعادته رفقة دافرينيي، هرولةً، في اللّحظة نفسها التي كان فيها موريل يطرق باب مونت كريستو.

وكان الكونت في مكتبه مشغول البالِ، يقرأ مكتوبًا أرسله إليه برتوتشو على وجه السّرعة. فلمّا سمع الإعلان عن وصول موريل الذي فارقه من ساعتين فقط، رفعَ الكونت رأسَه.

أشياء كثيرةٌ مرّت خلال تلك السّاعتين، بالنّسبة إلى الكونت كما بالنّسبة إلى موريل، لأنّ الشّاب الذي كان قد صاحبه باسمًا، هو ذا يعود بوجه مصدوم.

قام وتقدّم إلى موريل. وسأله: - ما الخطبُ يا ماكسيميليان؟ إنّ لونك شاحبٌ وجبينك يتفصّد عرقًا.

جلس موريل على مقعد أو بالأحرى تهاوى عليه.

قال: - أجل، لقد عدتُ سريعًا لأنّني أريد محادثك في أمر.

سأله الكونت بنبرة حنانٍ ورعاية لا يخطئُ أحدٌ الصّدقَ فيها: - هل أسرتك جميعًا بخير؟

أجابه الشّاب متلهّفًا على بدء الحديث: - شكرًا يا سيّدي الكونت؛ نعم أسرتي كلّها بخير.

واصل الكونت وقلقه يتعاظمُ: - خير إذًا؛ ومع ذلك يبدو أنّ عندك ما تقوله لي.

قال موريل: - صحيح، لقد خرجتُ من منزلٍ دخلَه الموتُ، لأهرع إليك.

سأله مونت كريستو: - أنت قادمٌ إذًا من عند مورسيرف؟

أجاب موريل: - كلّا؛ هل مات أحدٌ في بيت السيّد دو مورسيرف؟
أجاب مونت كريستو: - لقد فجّر الجنرالُ رأسَه.
صاح ماكسيميليان: - أوه! يا للمصيبة!
قال مونت كريستو: - ليست مصيبة بالنّسبة إلى ألبير وأمه؛ أبٌ وزوجٌ ميّتٌ، خير من أب وزوج موصوم بالعار؛ إنّ الدّم سيغسل الخزي.
قال ماكسيميليان: - يا للكونتيّسة المسكينة! هي من أرثو لحالها على الخصوص، امرأةٌ غايةٌ في النّبل!
- ارثُ لألبير أيضًا يا ماكسيميليان؛ صدّقني، هو ابن الكونتيسة الجدير بنبلها. لكن لنعُد إلى موضوعنا. قلت لي إنّك قد هرعت إليَّ، فهل أتشرّفُ بمساعدتك؟
- أجل أنا بحاجةٍ إليك، أي إنّني ظننتُ مثل مجنونٍ أنّك قد تساعدني في مسألةٍ لا يقدر على حلّها إلا الربّ!
أجابه مونت كريستو: - قُل!
قال موريل: - أوه! الحقُّ أنّني لا أدري هل يحقّ لي أن أفشي لأحدٍ سرًا مماثلًا؛ لكنّ القدر يدفعني إلى ذلك يا سيّد الكونت، والضرورة تجبرني.
توقّف موريل متردّدًا.
قال مونت كريستو ممسكًا بعطفٍ يد الشّاب بين راحتيه: - هل تصدّقُ أنّني أحبك؟
- أوه! ها أنت ذا تشجّعني، ثمّ إنّ شيئًا ما يقول لي (وهنا وضع موريل يده على قلبه) إنّني لا ينبغي أن أخفيَ عنك شيئًا.
- أنت محقٌّ يا موريل، إنّ الربَّ هو من يتحدّث إلى قلبك، وقلبك هو من يتحدّث إليك. فردّد عليّ ما يقوله لك قلبك.
- سيّدي الكونت، هل تسمح لي بأن أرسل باتيستان يتقصّى أخبار شخصٍ تعرفه؟

– لقد جَعلتُ نفسي تحت تصرّفك، فكيف لا أجعل خدمي كذلك؟
– أوه! لا حياة لي ما لم أعلم أنّها بخير!
– هل تريد أن أنادي باتيستان؟
– كلّا، سوف أكلّمه بنفسي.
خرج موريل، فنادى باتيستان، وأسرّ له بكلمات. فانطلق الخادمُ راكضًا من فوره.
ولمّا عاد موريل سأله مونت كريستو: – حسنًا، هل تمّ الأمر؟
– نعم، وسوف أطمئنُّ قليلًا.
قال مونت كريستو باسمًا: – تعرف أنّني أنتظر.
– نعم، وأنا سأتكلم. أصغ إليّ، ذات مساءٍ كنت في حديقة؛ مختبئًا خلف حزمة من الأشجار، ولاَ أحد كان ليشكّ في أنّني قد أكون هنا. فمرّ بقربي شخصان، واسمح لي أن أكتم اسميهما مؤقّتًا؛ وكانا يوشوشان بصوتٍ خفيض، ومع ذلك كان يهمّني جدًّا أن أتسمّع لما يقولانه، فلم أفلت من حديثهما كلمة.
– قياسًا إلى شحوبك ورجفتك، يبدو الأمرُ مفجعًا يا موريل.
– أوه، نعم، مفجعٌ جدًا يا صديقي! كان منزلُ الرّجل الذي أختبئ في حديقته، قد شهدَ وفاةً؛ وأحدُ الرّجلين اللّذين سمعت حديثهما كان ربّ الحديقة، بينما الثاني طبيبًا. وكان الأوّل يبثُّ إلى الثّاني مخاوفه وآلامه؛ إذ كانت تلك المرّة الثانية التي ينقضُّ فيها الموتُ، سريعًا مباغتًا، على المنزل، كأنّما سلّط عليه الربُّ ملاكًا مبيدًا.
قال مونت كريستو: «إه، إه»، وهو يحدّق في الشّاب، وقد أدارمقعده في حركة لا تبين، بحيث صار في الظلّ بينما يغمر ضوء النّهار وجه ماكسيميليان.
واصل الشّابُ: – نعم، لقد دخل الموتُ إلى ذلك المنزل مرّتين في شهرٍ واحدٍ.

سأله مونت كريستو: - وما كان جوابُ الطّبيب؟

- كان يجيب... كان يجيب بأنّ المِيتة لم تكن طبيعيّة، وسببُها...

- ماذا؟

قال مونت كريستو وهو يسعل ذاك السّعال الخفيف الذي يلوذ به في لحظات الانفعال القصوى، ليخفي شحوبه أو احمراره، أو حتّى الانتباهَ الذي يصغي به: - حقًا يا ماكسيميليان، سمعت هذا الكلام؟

- أجل يا عزيزي الكونت، لقد سمعته، وقال الدّكتور إن تكرّر مثل هذا الحدث فلا بدّ له من إبلاغ الشّرطة.

وكان مونت كريستو ينصت بهدوءٍ بالغ أو يبدو كذلك.

قال ماكسيميليان: - حسنًا، لقد ضرب الموتُ مرّةً ثالثةً، ولم يقُل ربُّ المنزلِ والدّكتور شيئًا؛ وقد يضربُ الموتُ مرّةً رابعةً. سيّدي الكونت، هل تظنُّ أنّ معرفتي بهذا السرّ تحمّلني مسؤوليّةً؟

قال مونت كريستو: - صديقي العزيز، يبدو لي أنّك تحكي لي قصّةً نعرفُها جميعًا. إنّني أعرف المنزل الذي سمعتَ فيه ذلك، أو على الأقلّ أعرف منزلًا مماثلًا؛ منزلًا فيه حديقةٌ، وربُّ أسرةٍ، وطبيبٌ، وثلاث ميتاتٍ غريبة وغير متوقّعة. فما تَرى فيَّ، أنا الذي أعرف كلّ هذه التّفاصيل وإن لم أكن شاهدًا على المحادثة؟ أتراني أحسُّ أيّ تأنيب ضمير؟ كلّا، إنّ الأمر لا يعنيني، تقول إنّ ملاكًا مبيدًا يبدو قد سُلّط على المنزل؛ وما يدريك أنّ ظنّك ليس الحقيقةَ؟ لا تجهد نفسك في رؤية الأشياء التي لا يرغب حتّى المعنيون بها في النّظر إليها. إن كانت عدالة الرّب، وليس غضبه، ما ينزل على المنزل، فأشِح بنظرك عنه، واترك عدالة الرّب تسير مسراها.

رجف موريل. إنّ في نبرة الكونت شيئًا مهيبًا، شيئًا مفجعًا، شيئًا رهيبًا.

واصل الكونت وقد تغيّر صوتُه إلى درجة أنّ المستمع إليه قد يخال

كلامه لا يخرج من فم بشر: - ثم من يقول لك إنّ الأمر سيحدث مرّةً أخرى؟

صاح موريل: - سيحدث مرّةً أخرى، ولهذا السّبب هرعتُ إليك.

- طيّب، وماذا تريد منّي يا موريل؟ هل تريد مثلًا أن أُبلّغَ وكيل الملك؟

نطق مونت كريستو عبارته الأخيرة بوضوحٍ وصوتٍ موقّع، حتّى إنّ موريل قام واقفًا بغتةً وصاح:

- سيّدي الكونت، أنت تعرف عمّن أتحدّث، أليس كذلك؟

- بلى، يا عزيزي، أعرفُ حقّ المعرفة. وسوف أعطيك الحجّةَ واضعًا النّقط على الحروف، أو بالأحرى واضعًا الأسماءَ على الشّخوص. لقد تجوّلتَ ذات مساءٍ في حديقة السيّد دو فيلفور؛ وبحسب ما قلتَه لي، أفترض أنّ ذلك حدث مساء وفاة السيّدة دو سان مِران. وقد سمعتَ السيّد دو فيلفور يتحدّث مع السيّد دافرينيي في ميتة السيّد دو سان مِران، وأيضًا ميتة الماركيزة التي لا تقلّ عنها غرابةً. وكان السيّد دافرينيي يقول إنّ الأمر يتعلّق بتسميم، لا بل ربّما بتسميمين اثنين. ربما أنت ذا بنفسك الشّريفةِ تتساءَلُ منذُ مدّةٍ، تجسُّ قلبك، وتسبرُ غور ضميرك، وتقول هل يجدر بك أن تُفشيَ السرَّ أو تكتمه؟ سمعتَه. انتهى عصر القرون الوسطى يا صديقي، لم يعد ثمّة المؤسّسةالمقدّسة ولا القضاة الفرنجة[1]؛ أيّ شيء ستسأل هؤلاء النّاس، بحقّ الشّيطان؟ ماذا تريدُ منّي أيّها الضّمير؟ كما كان يقول ستيرن[2]. إه! يا عزيزي دعهم ينامون إن استطاعوا نومًا، دعهم يشحبون في ليالي أرقهم، وحُبًّا بالربّ نَم أنت الذي ما من داعٍ ليجافيك النّوم.

---

(1) تنظيمان سريّان، ظهر كلاهما في ألمانيا، وكانا يدّعيان تقويم المجتمع الذي اعوجّ.

(2) لورنس ستيرن (1768-1713)، روائي ورجل دين أيرلندي.

ارتسم على ملامح موريل وجعٌ رهيب؛ أمسك بيد مونت كريستو:
- لكن أقول لك إنّ الأمر سيحدث مجدّدًا.

دهش الكونت من هذا الإلحاح الذي لم يفهم له سببًا، ثمّ حدّق بعناية في ماكسيميليان، وقال: - إنّها عائلةٌ أتريديه[1]؛ لقد حكم عليهم الربُّ، ولا رادَّ لحكمه؛ سوف يختفون جميعًا مثل تلك الهيئات التي يصنعها الأطفال من البطاقات المطوية، ثمّ تتهاوى واحدة بعد أخرى، ما إن ينفخ عليها خالقها، حتّى لو كان عددها مائتين. منذ ثلاثة أشهرٍ كان دور السيّد دو سان مِران، ومنذ شهرين أتى الدّور على السيّدة دو سان مِران؛ ومنذ أيّامٍ باروا؛ واليوم دورُ العجوز نوارتييه أو الصبيّة فالانتين.

صاح موريل في نوبة رعبٍ ارتجف لها مونت كريستو الذي لا يرتجفُ حتّى لو هوت السّماءُ: - كنت تعرف؟ تعرف ولم تفعل شيئًا!

استأنف الكونت هازًّا كتفيه: - وفيم يعنيني أنا كلّ ذلك؟ هل أعرف أنا هؤلاء النّاس؟ هل عليّ أن أفقد هذا لأنقذَ ذاك؟ كلاّ لعمري، فأنا لا أفاضل فيهم بين الضحية والمجرم.

صاح موريل صرخةَ وجع: - لكن أنا، أنا أحبّها!

صاح مونت كريستو واثباً على قدميه وممسكًا يدَي موريل الذي كان يرفعهما ملتويتين إلى السّماء: - تحبُّ من؟

- أحبّها حبّ الجنون، حبَّ الضيّاع، حبَّ الرّجل الذي قد يهب دمَه حتّى آخر قطرةٍ في سبيل ألاّ تذرف هي دمعةً. أحبُّ فالانتين دو فيلفور التي تُغتالُ الآنَ؛ هل تسمعني! أحبّها، وأسألُ الرّبَ وإيّاك كيف السّبيل إلى إنقاذها!

أطلق مونت كريستو صيحةً وحشيةً لن يتصوّرها إلا أولئك الذين سبق لهم أن سمعوا زئير أسدٍ جريح.

---

(1) أي من نسلِ إتريوس (أتريدوس) الملك في الميثولوجيا اليونانية، وكانت سلالته ملعونةً طُبعت بالإجرام والاقتتال.

صاح وهو يلوي ذراعيه بدوره: - أيّها الشقيُّ! أيّها الشقيُّ! تحبُّ فالانتين! تحبُّ هذه البنت سليلة العِرق الملعون!

لم يسمع موريل قطُّ تعبيرًا مماثلًا؛ لم تشتعل قطُّ عينٌ بهذا الاشتعال الرّهيب أمام وجهه، ولم يسبق قطُّ لعفريت الرّعب الذي طالما تجلّى له، سواءً في ساحات المعارك أو ليالي القتل بالجزائر، أن أضرم حولَه نيرانًا بهذه الشّراسة.

تراجع مرعوبًا.

أمّا مونت كريستو فبعد هذا الصّخب، أغلق عينيه لبرهة كأنّما أبهرته بروق جوانيةٌ. وخلال تلك البرهة كان يستجمع فكرَه بصلابةٍ شديدة، حتّى إنّ الحركة الموجعة لصدره المأزوم بالعواصف بدأت تهدأ شيئًا فشيئًا، مثلما نرى الأمواج الهائجة المزبدة تذوي تحت الشّمس بعد العاصفة.

وقد دام ذاك الصّمت، ذاك الصّراع، ذاك الاستجماع، نحو عشرين ثانية. ثمّ نهض الكونت وقد بهت جبينه، وقال بصوتٍ متهدّج: - انظُر يا صديقي، انظُر كيف أنّ الربّ يعاقب على اللامبالاةِ النّاسَ الأشدَّ غطرسةً وبرودًا إزاء المشاهد التي يعرضها لهم. أنا الذي كنت أشاهد، كالمتفرّج الفضوليّ والبارد، أنا الذي كنتُ أتابع فصول هذه التراجيديا الكئيبة، أنا الذي كنتُ مثل ملاكٍ شرير، أضحك من الشرور التي يرتكبها البشر، لائذًا بالسرّ (وما أيسر على الأغنياء والنافّذين حفظُ الأسرار)؛ ها قد أتى عليّ الدّورُ لأشعر بلدغة الثعبان الذي كنت أتأمّلُ سيرَه: لدغة في القلب!

أطلق موريل أنّة مكتومة.

واصل الكونت:- هيّا، كفاك أنينًا، كُن رجلًا، كُن قويًا، وتحلَّ بالأمل، لأنّني معك، ولأنّني أرعاك.

هزّ موريل رأسَه بحزن.

صاح مونت كريستو: - قلت لك أن تتحلّى بالأمل! أفهمت؟ اِعلم

أنّني لا أكذبُ، ولا أخطئ البتّة. الوقتُ منتصف النّهار يا ماكسيميليان، احمدِ الرّبَ أنّك قد أتيت الآن ولم تنتظر حتّى المساء، أو صباحَ الغد. أصغ إذًا إلى ما سأقوله لك يا موريل: إنّه منتصف النّهار، فإن لم تكن فالانَتين الآن ميّتةً، فلن تموتَ.

صاح موريل: - أوه! إلهي! إلهي! لقد تركتها تحتضر!

وضع مونت كريستو يدًا على جبينه.

ما الذي يجري داخل هذا الرّأس المثقل بالأسرار المرعبة؟

بما يحدّثُ ملاكُ النّور أو ملاكُ الظّلمات هذه النّفس العنيدة والإنسانية في آنٍ؟

الربُّ وحدَه يعلم!

رفع مونت كريستو جبينَه مرّةً أخرى، وهذه المرّة كان هادئًا كطفلٍ يستيقظ.

قال: - عُد مطمئنًا إلى بيتك يا ماكسيميليان؛ أنصحك بألاّ تقدم على خطوةٍ أو تحاولَ فعلًا، ألاّ تُظهر ذرّةَ انشغالٍ؛ وسوف أبلّغك الأخبارَ؛ هيّا!

قال موريل: - إلهي! إنّ برودتك هذه ترعبني يا كونت. هل تستطيع شيئًا حيالَ الموت؟ أأنت أكثر من بشر؟ أأنت ملاك؟ أأنت إله؟

وتراجع الشّابُ الذي لم يسبق أن تراجع أمامَ خطرٍ من قبلُ؛ تراجع أمام مونت كريستو وقد تلبّسه رعبٌ هائل.

على أنّ مونت كريستو أخذ يحدّق فيه بابتسامةٍ حزينة وعذبة في آنٍ، حتّى إنّ الشّاب أحسَّ الدّموع تتشكّل في عينيه.

أجاب الكونت: - أستطيع الكثيرَ يا صديقي. هيّا، أحتاج أن أكون بمفردي.

خاضعًا للارتقاء المذهل الذي يرتقيه الكونت فوق كل ما يحوطه، لم يحاول موريل حتّى أن يعترض. صافح يد الكونت وخرج.

غير أنّه لمّا بلغ البابَ توقّف ومكث منتظرًا باتيستان الذي برز لتوّه عند زاوية شارع ماتينيون عائدًا ركضًا.

وأثناء ذلك كان فيلفور ودافرينيي قد جدّا في طريقهما. ولمّا وصلا، كانت فالانتين لا تزال فاقدة الوعي، وقد فحصها الطّبيب بالعناية التي يفرضها الظرف وبالعمق الذي تفرضه معرفتُه بالسرّ. وكان نظرُ فيلفور معلّقا بنظر الطّبيب وشفتيه، ينتظر نتيجة الفحص. ونوارتييه أشدَّ شحوبًا من الشّابة، ومتلهّفًا على النّتيجة أكثر من تلهّف فيلفور نفسه، ينتظرُ وكلّ ما فيه يشي بالفطنة والحساسية.

وأخيرًا نطق دافرينيي ببطء:

- لا تزالُ حيّة.

صاح فيلفور: - لا تزال! آه! ما أفظعها من كلمة يا دكتور!

قال الطّبيب: - نعم، أكرّر جملتي: لا تزال حيّة؛ وإنّي لأستغرب ذلك.

سأله الأب: - نجت إذًا؟

- نعم، ما دامت لا تزال حيّة!

وفي تلك اللّحظة صادفت نظرةُ دافرينيي عينَ نوارتييه، فكانت هذه متّقدة بفرح مذهل، وفكرٍ شديد الغنى والخصب، حتّى إنّ الطّبيب ذهل.

أراح الصبيّةَ على المقعد، وشفتاها بالكاد تبرزان في وجهها لفرط شحوبهما وبياضهما، وتركها ساكنةً وأخذ يحدّق في نوارتييه الذي يبدو أنّه يتابع كلّ حركات الطّبيب ويعلّق عليها.

قال دافرينيي لفيلفور: - سيّدي، نادي على خادمة الآنسة فالانتين، من فضلك.

ترك فيلفور رأس ابنته الذي كان يسنده، وهرع بنفسه ينادي على الخادمة.

وما إن أغلق فيلفور الباب حتّى دنا دافرينيي من نوارتييه.

سأله: - سيّدي هل لديك شيءٌ تخبرني به؟

رمش الشّيخ بعينيه بطريقة معبّرة؛ ونذكّرُ أنّ تلك الإشارةُ الوحيدةُ التي يملكها للتعبير عن أفكاره.

- تخبرني به وحدي؟

أشار نوارتييه: - نعم.

- حسنًا، سأبقى معك.

وفي تلك اللّحظة دخل فيلفور، وفي إثره الخادمة؛ وخلف الخادمة تسير السيّدة دو فيلفور.

صاحت: - ما الذي حلّ بهذه الصبيّة المسكينة؟ لقد انصرفت من عندي وهي تشكو التّعب، لكنّني لم أحسب أنّ الأمر بهذه الخطورة.

ثمّ دنت المرأة الشّابة من فالانتين وأمسكت يدها، وعينياها دامعتان، وعلى وجهها كلّ أمارات حنان الأمِّ.

واصل دافرينيي مراقبة نوارتييه، فرأى عينيه تتّسعان وتستديران، وخدّيه يشحبان ويرجفان؛ والعرق يتلألأ على جبينه.

نطق «آه!»، وهو يتابع تلقائيًا اتّجاه نظرة الشّيخ، أي بالتّحديق في السيّدة دو فيلفور التي كانت تقول:

- إنّ هذه الصّبيّة المسكينة ستكون بحالٍ أفضلَ في سريرها. هيّا لنحملها يا فاني.

ولمّا رأى السيّد دافرينيي في اقتراح المرأة فرصةً للاستفراد بنوارتييه، فقد أشار موافقًا، لكنّه منعَ أن تُعطى الصبيّةُ أيّ شيءٍ من دون أمره.

حملوا فالانتين التي كانت قد استعادت وعيها، لكنّها لا تزال غير قادرة على الحركة وتقريبًا لا تستطيع الحديث، لفرط ما كانت أطرافها مسحوقة بالهزّة التي عاشتها. غير أنّها استطاعت أن تستجمع قوّتها وتحيّي بنظرةٍ منها جدّها الذي بدا كأنّما يُنتزع منه الرّوحُ.

تبع دافرينيي المريضة، أكمل تعليماته، وطلب من فيلفور أن يستقلّ

عربةً، ويذهب بنفسه إلى الصّيدليّ ويجعله يصنع أمامه الجرعات التي وصفها، وأن يأتي بها بنفسه، فينتظره في غرفة ابنته.

ثمّ، بعد أن جدّد التّأكيد على ألّا تُعطى فالانتين أيّ شيء، نزل عند نوارتييه، وغلّق الباب بعنايةٍ، وبعد أن تأكّد من أنّ لا أحد يسمعهما قال:

- هيّا، هل لديك ما تخبرني به، بخصوص مرض حفيدتك؟

أشار الشّيخ: - نعم.

- حسنًا، أصغ إليّ، لا وقت لدينا، لذا سوف أسألك فتجيبُ.

أشار نوارتييه أنّه مستعدٌّ للإجابة.

- هل كنت تتوقّع الحادث الذي وقع لفالانتين اليوم؟

- نعم.

فكّر دافرينيي لحظةً ثمّ دنا من نوارتييه، وأضاف:

- اعذرني على ما سأقوله، لكن في هذا الوضع الرّهيب الذي نحن فيه، لا ينبغي لنا أن نهمل أيّ تفصيل. هل حضرتَ موتَ باروا؟

رفع نوارتييه عينيه إلى السّماء.

سأل الطّبيبُ وهو يضع يده على كتف الشّيخ: - وهل تعرف سبب وفاته؟

أجاب الشّيخ: - نعم.

- هل تظنُّ أنّ موته كان طبيعيًا؟

ارتسم على شفتَيّ الشّيخ الساكنتين، شيءٌ يشبه الابتسامة.

- خطر ببالك إذًا أنّ باروا قد يكون سُمِّمَ؟

- نعم.

- وهل تعتقد أنّه كان المقصود بالتّسميم؟

- كلّا.

- والآن هل تظنُّ أنّ اليد التي اغتالت باروا، خطأً، هي نفسها اليد التي أرادت أن تغتال فالانتين اليوم؟

- نعم.

- نعم.

سأل دافرينيي الشّيخَ وهو يمعن التّحديق في عينيه: - هي أيضًا سوف تموت إذًا؟

وترقّب تأثير جملته في الشّيخ.

أجابه «لا» بنظرة نصرٍ قد تربك توقّعات أعتى العرّافين.

قال دافرينيي بدهشة: - تأمَلُ إذًا؟

- نعم.

- تأمل في ماذا؟

أشار الشّيخ بعينيه أنّه لا يستطيع الإجابة.

غمغم دافرينيي: «آه! نعم، صحيح».

ثمّ عاد إلى نوارتييه:

- هل تأمل أن يتوقّف القاتل؟

- لا.

- تأمل إذًا أنّ السمَّ لن يؤثّر في فالانتين؟

- نعم.

- لأنّني حين أقول لك إنّها قد سُمّمت، فإنّني لا أضيف إلى علمك جديدًا؟

أشار الشّيخ بعينيه أنّه لا يشكّ في ذلك أدنى شك.

- كيف إذًا تأمل أن تنجو فالانتين؟

أشار نوارتييه بعينيه في اتّجاه واحد، وظلّ يحدّق فيه، فتبع دافرينيي اتّجاه النّظرة فرآها تتعلّق بقارورة الجرعة التي يؤتى بها إليه كلّ صباح.

قال دافرينيي وقد وقعت بباله فكرةٌ مباغتة: - آه! آه! هل فكّرت في...

لم يتركه نوارتييه يكمل جملته، وأشار مؤكّدًا: - نعم!

- فكّرتَ في أن تقيها من السّم...

- نعم.
- بجعلها تألفُه شيئًا فشيئًا...
قال نوارتييه سعيدًا لأنّ الطّبيب فهمه: - نعم، نعم، نعم.
- والحال أنّك قد سمعتني أقول إنّني أضع البروسين في الجرعات التي أعطيك إيّاها.
- نعم.
- وعبر جعلها تألفُ هذا السمَّ، أردتَ أن تبطل مفعول سمٍّ ما؟
ارتسمت على ملامح نوارتييه فرحة الانتصار نفسها.
صاح دافرينيي: - ولقد أفلحت يا سيّدي، لأنّ لولا الاحتياط الذي لجأتَ له، لكانت الآنسة فالانتين قد ماتت الآن، ماتت بلا أملٍ في إنقاذها. كانت السّقطة عنيفةً، لكنّها لم تخلّف فيها إلا رضّةً خفيفة، وهذه المرّة على الأقلّ، لن تموت فالانتين.
اتّقدت في عينيّ الشّيخ فرحةٌ تفوق فرحة البشر، ورفعهما إلى السّماء علامة امتنان لا حدَّ له.
وفي تلك اللّحظة دخل فيلفور.
قال: - تفضّل يا دكتور، هاك ما طلبتَه.
- هل أُعدّت هذه الجرعةُ أمامك؟
أجاب وكيل الملك: - نعم.
- ولم تُفارق يديك؟
- كلّا.
تناول دافرينيي القارورة، وصبّ منها قطراتٍ في راحة يده، وشربها.
قال: - حسنًا، لنصعد عند فالانتين، سوف أُعطي تعليماتي للجميع، واحرص بنفسك يا سيّدي فيلفور على ألّا يحيد أحد عن التعليمات.
وفي اللّحظة التي دخل فيها دافرينيي إلى غرفة فالانتين، بصحبة فيلفور، كان ثمّة راهبٌ إيطالي، سديدُ الخطى، هادئُ الكلام واثقُه،

يستأجرُ لاستعماله الشّخصيِّ المنزل الملاصق لمنزل السيّد دو فيلفور. ولا أحد يستطيع أن يقدّر الصّفقة التي وافق بموجبها مستأجرو المنزل الثلاثة على تركه بعد ساعتين: لكن على العموم كانت الشّائعات تقول إنّ المنزل آيلٌ للسّقوط، غير أنّ ذلك لم يمنع المستأجر الجديد من أن يستقرّ فيه في الخامسة مساءً من اليوم نفسه، حاملًا معه أثاثه البسيط.

وكان عقد الإيجار الجديد يمتدّ لثلاث سنواتٍ، أو ستٍ أو تسعٍ، وقد دفع المستأجر، وفق ما تعارف عليه المُلاّكُ، أجرةَ ستّة أشهرٍ مسبقًا؛ واسمُ المستأجر الذي أسلفنا أنّه إيطاليٌّ: جاكومو بوزوني.

استُدعي على الفور عمّالٌ، وفي اللّيلة نفسها تابع المارةُ القلائلُ المتأخّرون ليلًا عند ناصية الضّاحية، بدهشةٍ النّجارين والبنّائين منهمكين في تدعيم المنزل المتداعي.

95

الأب والابنة

رأينا، في الفصل السّابق، السيّدة دانغلار وقد أتت تعلن رسميًا للسيّدة فيلفور الزواج القريب بين الآنسة يوجيني دانغلار والسيّد أندريا كافالكانتي.

وإنّ هذا الإعلان الرّسميّ الذي يبدو أنّه يفصح عن قرار اتّخذته كلّ الأطراف المعنية بالقضية، قد سبقه مشهدٌ لا بدّ لنا من أنّ نُطلِعَ عليه قرّاءنا.

نرجو منهم إذًا أن يتراجعوا خطوةً إلى الخلف، وينقلوا أنفسهم إلى الصّباح نفسه الذي شهد الحوادث الكارثية، وتحديدًا إلى الصالون المذهّب الجميل الذي سبق لنا أن وصفناهُ لهم، وقلنا إنّه مفخرةُ صاحبه البارون دانغلار.

وفي ذلك الصالون، حوالى السّاعة العاشرة صباحًا، كان البارون يذرع المكان منذ نحو عشر دقائق، مستغرقًا في الفكر، ظاهرَ القلق يراقب كلّ بابٍ ويتوقّف عند أدنى ضجيج.

وحين استنفد صبرَه، نادى على خادمه، وقال له: - إتيين، انظر لَمَ طلبت منّي الآنسة يوجيني أن أنتظرها في الصّالون، واسأل لَمَ تركتني أنتظر كلّ هذا الوقت.

فلمّا طرد البارون عن نفسِه نفحةً من المزاج السيّئ، استعادَ بعضًا من هدوئه.

وكانت الآنسة دانغلار قد طلبت، بعد استيقاظها، جلسةً مع والدها، وحدّدت الصالون الذهبيَّ مكانًا للجلسة. ولم تكن دهشةُ المصرفيِّ قليلةً

إزاءَ فرادة الطّريقة التي انتهجتها ابنتُها، وخاصةً إزاءَ طابعها الرّسميّ، فامتثل من فوره إلى رغبة ابنته، وسبقها إلى الصالون.

عاد إتيين من مهمّته. وقال: - قالت لك خادمةُ الآنسة إنّها على وشك الانتهاء من زينتها، ولن تتأخّر في المجيء.

أشار دانغلار برأسه إشارة رضا. إنّ دانغلار يبدي أمام عليّة المجتمع، بل وحتّى أمام خدمه، وجهَ الأب الضّعيف. إنّه جانبٌ من الدّور الذي عُيّنَ له ضمن الكوميديا الشّعبية التي يمثّل فيها؛ تلك سيماءٌ اتّخذها وصارت تبدو موافقةً له، مثلَ أقنعة الآباء في المسرح القديم، نقصد الأقنعة التي تكون شفاهها من جهة اليمين مرفوعةً وضاحكةً، ومن جهة اليسار مخفوضةً وباكية.

ولنعجّل بالقول إنّه، حين ينفرد بنفسه، تنزلُ الشّفةُ المرفوعة والضّاحكة لتتحوّل إلى الشّفة المخفوضة الباكية؛ بحيث يختفي الرّجل الطّيب في أكثر الأحيان ليحلّ محلّه الزّوج الفظُّ والأبّ المتسلّط.

غمغم دانغلار: - لمَ، بحقّ الشّيطان، لا تأتي هذه الحمقاء لتتحدّث إليّ ببساطة في مكتبي، ما دامت تدّعي أنّها تريد ذلك؛ ولمَ تريد الحديث إليّ؟

كان يقلّب هذه الخاطرة المقلقة للمرّة العشرين في رأسه، حين انفتح الباب وظهرت يوجيني مرتديةً فستانًا أسودَ من السّاتان مطرّزًا بأزهار كامدةٍ من نفس لونه، وقد غطّت شعرها ولبست قفّازها كأنّما تقصد مقعدَها في المسرحالإيطاليّ.

صاح الأبُ: - طيّب يا يوجيني، ما الخطب؟ ولمَ تضربين لي موعدًا في الصّالون الرّسميّ، مع أنّ مكتبي الخاصّ قد يفي بالغرض؟

قالت يوجيني وهي تشير إلى أبيها أنّ بإمكانه الجلوس: - أنت محقٌّ تمامًا يا سيّدي، وقد طرحتَ سؤالين يختزلان مسبقًا كلّ الحديث الذي سوف نخوضُه. سوف أجيبُك عن سؤالَيْك إذًا، وضدًا على ما يفرضه المنطقُ، سوف أبدأ بالسؤال الثاني لأنّه أقلّ تعقيدًا. لقد اخترتُ الصالونَ

مكانًا للموعد يا سيّدي، لأتجنّبَ الانطباعات السيّئة والتأثيرات التي يفرضُها مكتبُ المصرفيِّ: تلك الكتب المالية، وإن كانت مذهَّبة، وتلك الأدراج المقفلة كأبواب الحصون، ورُزم الأوراق البنكية التي لا ندري من أين أتت، وأكوامُ الرّسائل القادمة من إنجلترا وهولندا وإسبانيا والهند والصيّن والبيرو، كلّ تلك الأشياء تؤثّر تأثيرًا غريبًا في نفس الوالدِ، وتنسيه أنّ في العالم أشياء أهمَّ وأقدسَ من المكانة الاجتماعية أو من رأيِ مفوّضيه فيه. اخترت إذًا هذا الصّالون حيثُ ترى داخل إطارات اللوحات، صورُنا، أنا وأنت أمّي، مبتسمين وسعداء، وكذلك صور مختلف المناظر الرّعوية والحظائرِ التي يهدّئُ مرآها النّفسَ. أثق كثيرًا في قوّة التأثيرات الخارجيّة. قد أكون مخطئةً، خاصةً بالنّسبة إليك؛ لكن ما العمل؟ لن أكون فنّانةً إن تخلّصت من أوهامي كلّها.

أجاب السيّد دانغلار بعدما أنصت إلى المرافعة بهدوءٍ شديد، لكن من دون أن يفهم منها شيئًا لفرط ما كان مستغرقًا، مثل أي شخصٍ تملأه الهواجس الخفيّة، في إيجاد خيط فكره وسط أفكارِ مخاطبه.

- حسنًا! قالت يوجيني، من دون أن تبدي أدنى اضطراب، بتلك السّمة الذّكورية التي تميّزُ كلامها وأفعالها: - ها قد أوضحتُ النّقطة الثانية، أو كدتُ، وتبدو لي راضيًا عن التّفسير، فلنعد إلى النّقطة الأولى. تسألني لمَ طلبتُ هذه الجلسة؛ سألخّص لك طلبي يا سيّدي: لا أريد أن أتزوّج من السيّد الكونت أندريا كافالكانتي.

انتفض دانغلار في مقعده، ومن هول الصّدمة رفع عينيه ويديه إلى السّماء. وواصلت يوجيني بنفس الهدوء: - نعم يا سيّدي. أرى أنّك مندهشٌ، لأنّني منذ بدأت هذه القضيّة لم أُبدِ أيَّ اعتراضٍ، لثقتي في أنّني دائمًا، حين يحين الوقت المناسبُ، أعارض صراحةً وبإرادةٍ صلبةٍ راسخة النّاسَ الذين لم يأخذوا رأيي والحوادثَ التي لا تروقني. على

أنّ هدوئي وتقبّلي الأمرَ، كما يقول الفلاسفة[1]، منبعه هذه المرة مصدرٌ آخر: سعيي إلى أن ألعب دور البنت الخاضعة المتفانية (وارتسمت على شفتي الصبيّة ابتسامةٌ خفيفة)، وأجرّب الطّاعة.

سـألها دانغلار: - وإذًا؟

واصلت البنت: - وإذًا يا سيّدي؛ لقد حاولت حتّى استنفدتُ في المحاولة قوايَ، والآن، وقد حان الأوان، وعلى الرّغم من مجاهدتي نفسي، أجد نفسي عاجزةً عن الإطاعة.

قال دانغلار الذي بدا عقله الواهن في البداية مذهولًا من ثقل استدلالها الذي ينمّ هدوؤه عن مدى صرامته وسبق تحضيره: - لكن ما سبب الرّفض يا يوجيني، ما سببه؟

أجابت الصبيّة: - سببه! أوه! يا إلهي، ليس السبب كون الرّجل أبشع أو أحمق أو أشنع من غيره، لا بل إنّ السيّد أندريا كافالكانتي يمكنه أن يُعدُّ في عين أولئك الذين ينظرون إلى النّاس باعتبارِ ملاحة وجوههم وظرف قدّهم، مثالًا رائعًا؛ ولا مردُّ الرّفض إلى أنّ قلبي لم يمل إليه ميلي إلى غيره، فهذا سببٌ يناسبُ صبيّةً في المدرسة، وأراني أرفع منه. كلّا يا سيّدي، لا أحبُّ أحدًا بالمطلق، وأنت تعرف ذلك، أليس كذلك؟ لذا لا أرى لي سببًا مقنعًا لأقيّد حياتي برفيق أبديّ، من دون ضرورة قصوى. ألم يقل الحكيمُ في موضعٍ ما: «لا شيء أكثر من اللازم[2]»؛ وفي موضع آخر: «احمل في نفسك كلَّ شيء»؟ لقد لُقّنتُ هاتين الحكمتين باللاتينية واليونانية. إحداهما على ما أظنُ لفيدرا، والثانية لبياس[3]. وإذًا، يا أبي العزيز، في خضمّ غرق الحياة، لأنّ الحياة ما هي إلا غرقٌ أبديٌّ لآمالنا،

---

(1) تستعمل يوجيني كلمة passivité، التي تعني السلبية وتقبّل الأمر، وترجمتها الأدقّ في السياق الفلسفي الذي تشير إليه الصبية هو «الانفعال» أي قبول الفعل.

(2) العبارة كانت مكتوبة على واجهة معبد دلفي باليونان، وقد اتّخذها لافونتين عنوانًا لإحدى أمثولاته.

(3) فيدرا وبياس، من شخوص الميثولوجيا اليونانية.

أُلقي أنا في البحر بأمتعتي الزّائدة على الحاجة، وهذا كلّ ما في الأمر، وأظلُ مستعدّةً لأن أعيش بإرادتي، وحيدةً تمامًا، وبالتّالي حرّةً تمامًا.

شحب دانغلار إذ كان يدرك بطول التّجربة صلابة العائق الذي اعترضه بغتةً، وغمغم: - بائسة! بائسة!

كرّرت يوجيني خلفه: - بائسة، بائسة تقول يا سيّدي؟ الحقُّ أنّي لست كذلك، وإنّ تعجّبك ليبدو لي مسرحيًا وعاطفيًا. بالعكس، أنا حرّةٌ، لأنّني أسألُك، ما الذي ينقصني؟ الجميع يراني جميلةً، وهي ميزةٌ تجعلني أُستقبَلُ بالتّرحيب. أحبُّ التّرحيب: إنّه يجعل الوجوه نضرةً، ويبدي من هم حولي أقلّ بشاعةً. وقد حُبيتُ شيئًا من الفطنة وبعضًا من الحساسية، ممّا يمكّنني من أن أستلّ من الوجود العامّ ما أراه مناسبًا لأُغني به وجودي الخاصّ، مثل القرد الذي يكسر الجوزة الخضراء لينتزع منها اللّب. وأنا غنيّةٌ، لأنّك تملك ثروةً من أضخم الثروات في فرنسا، وأنا ابنتك الوحيدة، وأنت لست من أولئك الآباء العنيدين الذين يُعرضون في مسرح بورت سان مارتان أو غايتي، والذين يحرمون بناتهم من الميراث لأنّهن لم يمنحنهم أحفادًا. ثمّ إنّ القانون، بما فيه من بعد نظرٍ، قد منعك الحقَّ في أن تحرمني الميراث، أو على الأقل منعك جزئيًا من ذلك، كما منعك من أن تزوّجني رغمًا عن إرادتي إلى هذا أو ذاك. وهكذا يجتمع فيَّ الحُسنُ، والفطنة، وبعض المواهب مثلما يقالُ في الأوبرات الهزلية، والثراءُ! وهل السّعادة غير هذا يا سيّدي؟ فلمَ تقول إذًا إنّني بائسة؟

ولمّا رأى دانغلار ابنتَه مبتسمةً ومتغطرسةً حدَّ الوقاحة، لم يستطع أن يكتم حركة فظاظةٍ فضحها رنين صوته، لكنّها كان حركةً واحدةً لا غير. أمام نظرة ابنتِه المسائلة، وإزاء وجهها الجميل ذي الحاجبين الأسودين اللذين قطّبهما التّساؤل، استدار بحذرٍ وما لبث أن هدأ، وقد روّضته قبضةُ التبصّر الحديديةُ.

أجابها مبتسمًا: - الحقّ يا ابنتي أنّك قد جمعت بالفعل كلُّ ما تدّعينه

من شمائل، إلاّ شيئًا واحدًا يا ابنتي؛ لا أريد أن ألقيه عليك بغتةً، وأفضّلُ أن أتركك تكتشفينه بنفسك.

نظرت يوجيني إلى دانغلار وقد أخذت منها الدّهشة كلّ مأخذٍ، إذ عجِبَت أن يُعترض على وردةٍ من الورود التي زيّنت بها إكليل الفخر الرّائع الذي وضعته على رأسها.

واصل المصرفيّ: - ابنتي، لقد بيّنتِ لي خير تبيين الأحاسيسَ التي تسبق القرارات التي تتّخذها صبيّةٌ قرّرت ألّا تتزوّج البتّة. والآن سأقول لك ما الدوافع التي تجعل أبًا، مثلي أنا، يقرّر ضرورة زواج ابنته.

مالت يوجيني، ليس كما تميل ابنةٌ خاضعةٌ تنصتُ، وإنّما كما يميل خصمٌ ينتظر متأهّبًا للجدالِ.

واصل دانغلار: - ابنتي، حين يطلب أبٌ من ابنته أن تتّخذ زوجًا، فلا بدّ أنّ له سببًا ما ليرغب في هذا الزّواج. فثمّة من يصيبه الهاجس الذي ذكرتِه آنفًا، أقصد هاجس أن يرى أحفادَه. وأنا لا أعاني من هذا الضّعف، وأقول لك منذ البداية، ليست أفراح الأسرة ممّا يستهويني. وأستطيع أن أعترف بلا مبالاتي تلك إلى ابنةٍ أراها فيلسوفةً بما يكفي لتفهم موقفي ولا تجعل منه جريمةً.

قالت: - خير وبركة؛ لنتحدّث صراحةً يا سيّدي، فهذا ما أحبّه.

قال دانغلار: - آه! ها أنت ترين أنّني وإن كنت لا أشاطرك ميلك إلى هذه الصّراحة، إلا أنّني أخضع لها متّى رأيتُ أنّ السيّاق يقتضي ذلك. سأواصل إذًا. لقد عرضتُ عليك زوجًا، ليس لأجلك، فالحقُّ أقول، لم تخطري ببالي أصلًا حين فعلت ذلك. تحبّين الصّراحة، هاك الصّراحة؛ إنّما فعلت ذلك لأنّني كنت أريدك أن تتخذي هذا الزّوج عاجلًا، غير آجلٍ، بسبب اتّفاقات تجارية أعقدها في هذه الأثناء.

نَدّت عن يوجيني حركة.

- لا ينبغي أن تلوميني على قولي يا ابنتي، لأنّك أنت من فرض عليّ قولَه؛ أتفهمين، رغمًا عنّي أدخل في هذه التّفسيرات الرّياضية، مع فتّانةٍ

مثلك، فنّانةٍ رفضت أن نتحدّث في مكتب المصرفيّ خشيةَ تأثيرات الأحاسيس المزعجة وغير الشّاعرية. لكن في مكتب المصرفيّ، الذي رضيت أمس أن تدخليه لتطلبي منّي الألف فرنك التي أعطيك إيّاها كلّ شهر لتصرفيها على نزواتك، أقول لك يا آنستي العزيزة، إنّنا في مكتب المصرفيّ نتعلّم الكثير من الأشياء حتّى من الشّباب الذين يرفضون الزّواج. نتعلّم مثلًا، ومراعاةً لحساسيتك العصبية سوف أخبرك في هذا الصالون، أقول إنّنا نتعلّم أنّ رصيد المصرفيّ هو حياتُه المادية والمعنوية، وأنّ الرّصيد يدعم المرء مثلما تحرّكُ النّفسُ الجسدَ، ولقد أعطاني الكونت مونت كريستو ذات يومٍ محاضرةً في هذا الموضوعِ، لن أنساها ما حييت. نتعلّمُ أنّ بقدر ما يتقلّص الرّصيد يتحوّلُ الجسدُ إلَى جثّةٍ، وسرعة التحوّل تزداد حين يتعلّق الأمرُ بمصرفيّ يتشرّف بأن يكون أبًا لابنةٍ بارعةٍ في المنطق.

لكن بدلًا من أن تحنيَ الضربةُ يوجيني، جعلتها تنتصبُ.

قالت:- الإفلاس!

قال دانغلار وهو ينبش صدره بأظافره، محافظًا على ابتسامة الرّجل الذي لا قلب له، لكن لا يعوزه العقل: - لقد وجدت التعبير الصّحيح يا ابنتي، التعبير الصّحيح، الإفلاس، هوذا!

قالت يوجيني: - آه!

- أجل، الإفلاس! ها قد عُرف السرُّ المليء بالفظاعة كما يقول الشّاعر التراجيدي.

- والآن، يا ابنتي، اسمعي من فمي كيف يمكنك أن تخففي هذه المصيبة، ليس لأجلي وإنّما لأجلك أنت.

صاحت يوجيني: - أوه! إنّك متفرّسٌ سيّئٌ إن كنت تتصوّرُ أنّني أرثو لحالي الكارثة التي تعرضها لي. فيم يهمّني أنا أن أُفلسَ؟ ألن تبقَى لي

الموهبة؟ ألا أستطيع أن أكون مثل باستا، أو ماليبران، أو غريزي[1]، فأعطي نفسي ما لم تكن لتعطينيه أنت، مهما عظُمت ثروتك: إيرادُ مائة ألف جنيه أو مائة وخمسون ألفًا لا أدين بها إلا لنفسي، وأحصل عليها وسط الهتافات والورود، ليس مثل الاثني عشر ألفًا البئيسة التي تعطينيها وأنت تتذمّر من إسرافي؟ وحتّى حين أعدم الموهبة التي يبدو من ابتسامتك أنّك لا تؤمن بها، فسوف تبقى لي الرّغبة الحارقة في الحريّة، تلك الرّغبة التي تفوق عندي حتّى غريزة حفظ النّفس. كلّا، لست حزينةً على حالي، فسوف أعرف دومًا كيف أنجو بنفسي؛ كتبي، أقلامي، البيانو، ستبقى لي كلّ تلك الأشياء غير باهظة الثمن التي أستطيع الحصول عليها بسهولة. وقد تظنُّ أنّني أتألّم لحال السيّدة دانغلار، وهنا أيضًا أنت مخطئ. إن لم أكن مخطئةً، فإنّ أمّي قد اتّخذت كلّ الاحتياطات ضدّ المصيبة التي تهدّدك، ولن يصيبها أذى؛ لقد أمّنت نفسها، على ما أرجو، إذ اهتمّت لأمورها المالية أكثر من اهتمامها بي، فتركت لي، والحمد للّه كامل استقلالي، بدعوى أنّني أحبّ الحريّة.

«أوه! سيّدي، لقد رأيتُ الكثير من الأمور منذ طفولتي؛ وقد استوعبتها كلّها، بحيث ما عاد بإمكان المصائب أن تفعل فيّ أكثر ممّا ينبغي؛ مُذ وعيتُ، لم يحبّني أحدٌ؛ ولا همّني! ها قد أفصحت لك عن كلّ شيء.

قال دانغلار وقد شحب من الغيظ الذي لم يكن سببه ما أصابه من جرح في عاطفته الأبوية: - وإذًا يا آنسة، أنت مصرّةٌ على التعجيل بإفلاسي؟

قالت يوجيني: - إفلاسك! أنا أعجّل بإفلاسك! ماذا تقصد؟ لا أفهم.

- لا بأس! هذا يترك لي بصيص أمل؛ أصغي إليّ.

---

(1) جيوديتا باستا، وماريا ماليبران، وجيوليا غريزي. كلهنّ مغنيّات أوبرا إيطاليات من القرن التّاسع عشر.

قالت يوجيني وهي تحدّقُ في أبيها حتّى اضطرّته إلى أن يجهد نفسه لكي لا يخفض عينيه أمام نظرتها القويّة: - أنا أسمع!

واصل دانغلار: - سوف يتزوّجك السيّد كافالكانتي، وبزواجه منك يعطيك مهرًا قدره ثلاثة ملايين يضعها في حسابك لديَّ.

قالت يوجيني بهُزءٍ مترفّع، وهي تصقل أحد قفّازيها بالآخر: - آه! جيّد جدًا!

قال دانغلار: - قد تظنّين أنّني سوف أسلبك تلك الملايين الثلاثة؟ كلاّ؛ إنّ تلك الملايين الثلاثة منذورةٌ لأن تولّدَ عشرةً أخرى، على الأقلّ. لقد حصلتُ أنا وزميلٌ مصرفيّ، على امتياز سكّة حديد، وهي الصّناعة الوحيدة التي تعطي فرص أرباح مهولةٍ فورية، مماثلة لتلك التي كان فيما مضى قانونُ لاو يمنحها في ولاية ميسيسيبي للباريسيين المولعين دائمًا بالمضاربة. لقد قمت بحساباتي: إنّ امتلاك جزءٍ من المليون من السكّة الحديد يفترض أن يعادل امتلاك فدّانٍ من الأرض على ضفاف نهر أوهايو قديمًا. إنّه بمثابة استثمارٍ عقاريّ، وفي هذا تقدّمٌ كبير كما ترين، إذ سنحصل مقابل النّقود على عشرة أرطالٍ من الحديد، أو خمسة عشر أو عشرين أو مائة. عليَّ إذًا، في غضون ثمانية أيّام، أن أضع في حسابي أربعة ملايين! وهذه الملايين الأربعة سوف تدرّ عشرة أو اثني عشر.

قالت يوجيني: - لكن، حين زرتك بالأمس يا سيّدي، رأيتُك تحصّلُ: هذا هو المصطلح أليس كذلك؟خمسة ملايين ونصف؛ لقد أريتني بنفسك المبلغ في سندَين فوق الخزنة، وهل تشكّ في أنّ مبلغًا كهذا لن يبهر عينيَّ مثل وميض برقٍ؟

- نعم، لكن تلك الملايين الخمسةُ والنّصفُ مليونٍ ليست ملكًا لي، إنّما هي فقط دليلٌ على الثقة التي أحوزُها؛ إنّ سمعتي كمصرفيٍّ قد أكسبتني ثقة المؤسّسات الخيرية، وتلك الملايين هي ملايين المؤسّسات الخيرية؛ في ما مضى، ما كنتُ لأتردّد في صرفها، لكن الآن وقد شاعت الخسارات التي مُنيت بها، ورصيدي، كما قلت لك، بدأ ينفد. يمكن في

أيّ وقتٍ أن تطالبني إدارة المؤسّسات الخيرية باستعادة أموالها، فإن كنت قد صرفتها في موضع ما، سأضطرّ إلى إعلانِ إفلاسٍ مخز. لست ضدّ إعلانات الإفلاس، صدّقيني، لكنّني مع إعلان الإفلاس الذي يثري صاحبه وليس الذي يؤدّي به إلى الخراب والإفلاس فعلًا. فأن تتزوّجي السيّد كافالكانتي، يعني أن أستلم ملايين المهر الثلاثة، أو على الأقل يُظنَّ أنّني سأستلمها، فيتعافى رصيدي وثروتي التي منذ شهر أو شهرين وهي تغرق في هاويةٍ حفرها تحت قدميَّ قدرٌ لا قبل لي به. هل تفهمين؟

- تمامًا؛ أنت تضعُني في القفص مقابل ثلاثة ملايين، أليس كذلك؟

- كلّما ارتفع المبلغ، كان فيه إطراء لك؛ فهذا يعطيك فكرةً عن قيمتك.

- شكرًا. كلمة أخيرة يا سيّدي: هل تعدني يا سيّدي بأن تستخدم مبلغ المهر الذي سيعطيني إيّاه السيّد كافالكانتي، كيفما شئتَ، من غير أن تمسّ بقيمته؟ ليس أنانية منّي، وإنّما هي مسألة مبدأ. أرغب في أن أساعدك على ترميم ثروتك، لكنّني لا أريد أن أكون شريكتك في خراب غيرك.

صاح دانغلار: - لكنّني قلت لك إنّني بالملايين الثلاثة...

- هل تظنُّ يا سيّدي أنّ بإمكانك الخروج من مأزقك من غير أن تمسّ المبلغ؟

- أرجو ذلك، شرطَ أن يدعم الزّواجُ رصيدي.

- وهل تستطيع أن تدفع للسيّد كافالكانتي الخمسمائة ألف فرنك التي سوف تعطيني إيّاها عند توقيع عقدي.

- ما إن نعود من مبنى البلدية حتّى يستلم نقودَه.

- طيّب!

- كيف طيّب؟ ماذا تقصدين؟

- أقصد أنّك إذ تطلّب منّي توقيعي، فإنّك تتركني حرّةً تمامًا في اختياراتي الشّخصية؟

- حرّة بالمطلق.
- طيّب، إذًا، سوف أتزوّج من السيّد أندريا كافالكانتي.
- لكن ما مشاريعك؟
- آه! هذا سرّي. كيف أحفظ تفوّقي عليك، إن أعطيتُك سرّي بعدما أطّلعتُ على سرّك!

عضّ دانغلار شفتيه.

قال: - وإذًا، أنت مستعدةٌ لأن تقومي بالزيارات الرّسمية الضرورية؟

أجابته يوجيني: - نعم.

- وسوف توقّعين العقد خلال ثلاثة أيّام؟
- نعم.
- حسنًا، أقول لك بدوري: طيّب!

ثمّ إنّ دانغلار أخذ يد ابنته وضمّها بين يديه. غير أنّ العجيب هو أنّ الأب لم يجرؤ أثناء ذلك على أن يقول «شكرًا يا ابنتي!»؛ ولا الفتاة ابتسمت لأبيها.

سألته يوجيني وهي تقوم: - هل انتهت الجلسة؟

أشار لها دانغلار برأسه أنّه لم يعد لديه ما يقوله.

خمس دقائق بعد ذلك تردّد صوت البيانو، تحت أصابع الآنسة دارميلي، وغنّت الآنسة دانغلار لعنة برابانتيو على ديدمونة. وعند نهاية المقطع دخل إتيين يعلم يوجيني بأنّ العربة جاهزةٌ، والبارونة تنتظرها لتقوما بالزيارات.

وقد رأينا المرأتين في بيت فيلفور، ومنه تخرجان لتواصلا مشاويرهما.

96

العقد

ثلاثة أيّام بعد المشهد الذي حكيناهُ، أي نحو السّاعة الخامسة من ظهيرة اليوم الذي حُدّد لتوقيع عقد الآنسة يوجيني دانغلار والسيّد أندريا كافالكانتي الذي أصرّ المصرفيّ على تلقيبه بالأمير، ولمّا كان يهبُّ نسيمٌ عليلٌ ترتعش له أوراق أشجار الحديقة الصّغيرة أمام منزل الكونت مونت كريستو، في اللّحظة التي كان فيها الكونت يتهيّأ للخروج، وبينما خيولُه تنتظره ضاربةً الأرض بحوافرها، يمسكها الحوذيُّ الذي اتّخذ مجلسه في العربة منذ ربع ساعةٍ، أتت العربةُ الأنيقة التي سبق لنا أن رأيناها عدّة مرّاتٍ من قبل، خاصّة ليلة العشاء بمنزل أوتوي، قلنا أتت العربةُ مسرعةً، ودارت حول زاوية باب المدخل، ثمّ أنزلَت، أو بالأحرى ألقت بأندريا كافالكانتي على درجات المدخل، وكان الشّابُّ متأنّقًا متألّقًا كأنّما هو موشك على أن يتزوّج من أميرةٍ.

سأل عن صحّة الكونت بحميمية مألوفة فيه، ثمّ صعد بخفّة إلى الطّابق الأوّل، فصادفه بنفسه أعلى الدّرج.

ولمّا رأى الكونت الشّابَ توقّف. أمّا أندريا كافالكانتي فكان قد انطلق، وحين ينطلق لا شيءَ يستطيع إيقافه.

قال للكونت: - مرحبًا يا سيّدي الكونت.

أجابه الكونت بصوته نصف السّاخر: - آه! مرحبًا يا سيّدي أندريا كافالكانتي، كيف حالك؟

- على خير ما يُرام. أتيت أتحدّث إليك في ألف أمرٍ وأمرٍ؛ لكن قُل لي أوّلًا هل أنت على وشك الخروج أم عدت لتوّك؟

- على وشك الخروج يا سيّدي.

- لكي لا أؤخّرك إذًا عن موعدك، سوف أركب معك، بعد إذنك، ويقود توم عربتي خلفنا.

قال الكونت بابتسامة استهزاءٍ لا تبين، ابتسامة تشي بأنّه لم يكن يرغبَ في أن يظهر مع الشّاب على الملأ: - كلّا، كلّا؛ أفضّل أن أستمع إليك هنا يا عزيزي أندريا؛ لأنّنا نتحدّث على نحو أفضل حين نكون في غرفة، بالإضافة إلى أنّنا لن نخشى أن يلتقط الحوذيُّ بعضًا من كلامك.

وكان أن دخل الكونت إلى صالونٍ صغير يشغل جزءًا من الطّابق الأوّل، وجلس واضعًا ساقًا على ساقٍ، ثمّ أشار إلى الشّابّ أن يجلس بدوره.

اتّخذ أندريا هيأته الأشدَّ مرحًا، وقال: - تعلم يا عزيزي الكونت أنّ مراسم الزّواج سوف تقام اليوم؛ في السّاعة التّاسعة سنوقّع العقد عند حمايَ.

قال الكونت: - آه! حقًّا؟

- كيف! يعني أنّني أخبرك الآن بخبر لا تعرفه؟ ألم يخبرك السيّد دانغلار بهذا الخبر المهمّ؟

قال الكونت: - بلى، وصلتني منه رسالةٌ أمس؛ لكن لا أظنّ أنّ السّاعة قد عُيّنت في الرّسالة.

- ممكن؛ ربّما اعتمد صهري على صيته بين النّاس.

قال مونت كريستو: - وإذًا، ها أنت ذا سعيدٌ يا سيّدي كافالكانتي؛ لقد أصبتَ ارتباطًا من أرفع ما يسعى إليه المرء؛ ثمّ إنّ الآنسة دانغلار جميلةٌ.

أجاب كافالكانتي بنبرةٍ ملؤها التّواضع: - بلى.

قال مونت كريستو: - ثمّ هي بخاصّة ثريّةٌ جدًّا!

كرّر الشّابُّ: - غنيّةٌ جدًّا؟ أتظنُّ ذلك؟

- قطعًا؛ يُقال إنّ السيّد دانغلار يخفي نصف ثروته على الأقلّ.

قال أندريا بنظرة تتّقدُ فرحًا: - لقد اعترف بامتلاكه خمسة عشر مليونًا أو عشرين.

أضاف مونت كريستو: - زد على ذلك أنّه على وشك الدّخول في ضرب من المشاريع التي يكاد يعفو عنها الدّهر في إنجلترا وأمريكا، لكنّها لا تزال جديدةً كلّ الجدّة في فرنسا.

- نعم، نعم، أعرف عمّا تتحدّث: السكّة الحديد التي حصل على امتيازها مؤخّرًا، أليس كذلك؟

- بلى! وسوف يربح في هذه الصّفقة، بحسب ما يشاعُ، عشرة ملايين على الأقلّ.

قال كافالكانتي ثملًا من الرّنين المعدنيّ الذي تَصلُّ به كلمات الكونت الذّهبية: - عشرة ملايين! أتظنُّ ذلك؟ رائع!

واصل مونت كريستو: - من غير أن نغفل أنّ كلّ تلك الثروة ستؤول إليك، وهذا حقّك، لأنّ الآنسة دانغلار ابنةٌ وحيدة. ثمّ إنّ ثروتك أنت نفسك، على ما أخبرني أبوك، تضاهي ثروة خطيبتك. لكن لنترك جانبًا مسائل النّقود. أتدري أنّك قد أدرت هذه المسألة بغير قليلٍ من الحيلة والنّباهة!

أجاب الشّاب: - لا بأس بي، لا بأس، لقد وُلدت لأكون دبلوماسيًا.

- وإذًا، سوف تُلحَقُ بالدّبلوماسية؛ إنّ الدبلوماسية كما تعرفُ لا تُتعلَّمُ، هي مسألةُ حدس... هل خطفتَ القلبَ إذًا؟

أجاب أندريا بالنّبرة التي كان قد شاهد بها، في المسرح الكبير، دورانت أو فالير يجيب ألسيست(1): - الحقُّ أنّي خائف!

- هل تحبّك قليلًا؟

أجاب أندريا بابتسامةٍ مظفّرة: - طبعًا، ما دامت ستتزوّجني. لكن لا ينبغي أن ننسى مسألةً مهمّة.

(1) الشّخصيات الثلاثة من مسرحيات موليير.

- ما هي؟
- أنّ ثمّة من ساعدني في كلّ هذا.
- باه!
- بالتّأكيد.
- تقصد الظّروف؟
- كلاّ، أقصدك أنت.

قال مونت كريستو: - أنا؟ وماذا فعلتُ لك يا أمير (وشدّدَ بتكلّفٍ على اللّقب). ألا يكفيك اسمك، ومكانتك الاجتماعية، واستحقاقك؟

قال أندريا: - كلّا، كلّا؛ ومهما قلتَ يا سيّدي الكونت، لن تغيّر لديّ الاقتناع بأنّ مكانتك قد فعلت ما لم يفعله اسمي، أو مكانتي الاجتماعية أو استحقاقي.

قال الكونت الذي استشعر ما في كلام الشّاب من خديعةٍ، وأدرك مرماه: - أنت تبالغ يا سيّدي؛ أنا لم أشملك برعايتي إلا بعد أن علمتُ مدى نفوذ والدك وثروته؛ وإلّا من تظنُّ قد كرَّمني بمعرفتكما، أنا الذي لم يسبق له أن رآك لا أنت ولا والدك العظيم؟ إنّهما صديقايَ الطّيّبان: اللّورد ويلمور والأب بوزوني. ومن شجّعني على أن أتبنّاك وليس فقط أضمنك؟ إنّه اسم أبيك المعروف والمقدَّر في إيطاليا؛ أمّا أنا، فلا أعرفك معرفةً شخصيّةً.

من الهدوء والأريحيّة التي تكلّم بهما الكونت أدرك أندريا أنّه الآن أسيرُ قبضةٍ أمتن من قبضته، وأنّ ليس من السّهل عليه كسرها.

قال: - آه! والدي إذًا يملك ثروةً عظيمةً يا سيّدي الكونت؟

أجاب مونت كريستو: - يبدو ذلك يا سيّدي.

- وهل تعلم ما إذا كان المهر الذي وعدني به قد وصل؟
- وصلتني رسالةُ إشعار.
- والملايين الثلاثة؟

- الملايين الثلاثة في الطّريق على الأرجح.
- سوف أحصل عليها إذًا بالفعل؟
استأنف الكونت: - اللعنة! يبدو لي أنّه لحدّ الآن لم تعُزك النّقود قطّ!
ذهل أندريا حتّى إنّه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يغرق للحظةٍ في الحلم.
قال وهو يخرج من حلمه: - يبقى لي إذًا أن ألتمس منك طلبًا يا سيّدي الكونت؛ وسوف تتفهّم طلبي وإن بدا لك مزعجًا.
قال مونت كريستو: - أفصح.
- لديَ، بفضل ثروتي، الآن العديد من العلاقات مع أشخاص رفيعين، كما أنّ لديَّ حفنةً من الأصدقاء. لكن، في غياب أبي، أحتاج يدًا قويّةً تسندني في عرسي، أحتاج من يقودني إلى المذبح؛ والحال أنّ أبي لن يأتي إلى باريس، أليس كذلك؟
- يقول إنّه مسنٌّ، ومتخنٌ بالإصابات، ويعاني كلّما سافرَ حدّ الموتَ.
- أفهمه. لذا أتيت أطلب منك أمرًا يا سيّدي الكونت؟
- منّي أنا؟
- نعم، منك.
- أيّ شيء؟ يا إلهي!
- أن تحلّ محلّه.
- آه! يا سيّدي العزيز، على الرّغم من طول معاشرتي، إلاّ أنّك لم تعرفني بعد، ما دمتَ تطلب منّي طلبًا مماثلًا. بشرفي لو طلبتَ منّي نصف مليونٍ، لكان طلبك أقلّ إزعاجًا! اعلم يا عزيزي، ولا شكّ أنّني قد قلت لك هذا من قبل، إنّ الكونت مونت كريستو في علاقته بالعالم، خاصّة على المستوى الأخلاقيّ، لم يسبق له قطّ أن تخلّى عن وساوِس، لا بل قُل، خرافات الرّجل الشّرقي.
أنا الذي أملك سرايا في القاهرة، وأخرى في إزمير، وثالثة في القسطنطينية، أنا أترأسُ زفافًا! أبدًا!

- ترفض طلبي إذًا؟
- بالمطلق؛ وحتّى لو كنت ابني أو أخي، لن تجد منّي غير الرّفض.
صاح أندريا خائب الأمل: - آه! ما الحلّ إذًا؟
- لديك مائة صديق كما قلتَ بنفسك.
- حسنًا، لكن أنت من أدخلني إلى منزل السيّد دانغلار.
- كلاّ بالمطلق! لنحدّد الأمور: أنا دعوتك للعشاء في أوتوي، كما دعوتُه، وأنت بنفسك من قدّمت نفسَك إليه؛ اللعنة! الأمر مختلف!
- نعم، لكن زواجي: أنت من ساعدت...
- أنا! لم أساعدك البتّة؛ صدّقني؛ وتذكّر ما قلتُه لك حين أتيت تخبرني برغبتك في التقدّم للخطبة: أوه! أنا لا أتدخّل في الزيجات يا عزيزي الأمير، هذا مبدأ راسخٌ عندي.
عضّ أندريا على شفته.
قال: - ستحضر على الأقلّ؟
- هل باريس كلّها ستحضر؟
- أوه! بالتّأكيد.
قال الكونت: - حسنًا، سوف أحضر مثلما سيحضر الجميع.
- وستضع توقيعك على العقد؟
- أوه! لا أرى مانعًا في ذلك، فوساوسي لا تذهب حتّى هذا الحدّ.
- ما دمت لا تريد أن تمنحني أكثر، فلأكتفِ بما تفضّلتَ به عليّ. لكنّي أحتاج كلمة أخيرة يا كونت.
- كيف؟
- نصيحة.
- احذَر؛ إنّ النّصيحة أشرُّ من الخدمة.
- أوه! هذه نصيحةٌ لا تورّطُك في شيء.
- أفصح.

- مهر زوجتي خمسمائة ألف جنيه.
- هو الرّقم الذي سمعته من فم السيّد دانغلار نفسه.
- هل يجدربي أن آخذه، أم أتركه لدى الموثّق؟
- إليك كيف تسير الأمور عمومًا حين نريد لها أن تسير بنبالةٍ: أثناء توقيع العقد يضرب موثّقاكُما موعدًا في الغدِ أو اليوم الذي بعَد؛ وفي الغد أو اليوم الذي يليه، يتبادلان المهرين، ويسلّم كلّ منهما الآخرَ وصلًا بما تسلّمه، ثمّ ما إن يُقام حفل الزّفاف حتّى يضعا تحت تصرّفك الملايين باعتبارك رئيس الزّواج.

قال أندريا بقلق لم يفلح في إخفائه: - الحقّ أنّني سمعت أنّ صهري ينوي أن يستثمر الأموال في مشروع السّكة الحديد الذي كلّمتني عنه.

واصل الكونت: - إنّه، كما يقولُ الجميعُ، وسيلةٌ تضاعفُ أموالك ثلاث مرّاتٍ في سنةٍ؛ إنّ البارون دانغلار أبٌ جيّدٌ، ويُتقن الحسابَ.

قال أندريا: - حسنًا إذًا، كلّ شيءٍ على ما يرام، ما عدا رفضُك الذي يمزّق قلبي.
- أرجو ألا ترى فيه غير وساوس تراودني طبيعيًا في أمثال هذه الظّروف.

قال أندريا: - ليكن الأمرُ إذًا كما شئتَ؛ موعدنا التّاسعة من مساء اليوم.
- إلى المساء.

وعلى الرّغم من تمنّع خفيف أبداه الكونت الذي شحبت شفتاه وإن حافظتا على ابتسامتهما، إلا أنّ أندريا أمسك بيده، وصافحه، ثمّ قفز إلى عربته وانصرف.

قضى أندريا الساعات الأربع أو الخمس التي تفصله عن موعد التّاسعة، في مشاوير التسوّق والزيارات إلى أصدقائه الذين ذكرهم، يحثّهم على أن يأتوا عند المصرفيّ بكامل تأنّقهم وعتادهم، ويغريهم بما يلوح في الأفق من أرباح المشروعِ الذي كان يدير كلّ الرّؤوس، والمنهمكِ فيه دانغلار في تلكَ الأثناء.

وبالفعل، ما إن دقّت السّاعة الثامنة والنّصف حتّى امتلأ صالونُ دانغلار الكبيرُ، والرواق الملاصق له، والصالونات الثلاثة في الطّابق، بحشدٍ معطّرٍ لا تميل النّفسُ إليه إلا قليلًا، ومع ذلك تشعر تجاهه بذاك الانجذاب القاهر المتمثّل في السّعي إلى حيث يجدُّ الجديدُ.

ولو أنّ أكاديميًا وصفَ الحالَ، لقال إنّ سهرات الطّبقة الرّفيعة هي باقاتُ زهورٍ تجذب إليها الفَراشَ المتقلّبَ، والنّحل الجائع، والدّبابير الطّنّانة.

ولا نحتاجُ قولًا إنّ الصالونات كانت زاهيةً بالشّموع، والأنوار تفيض على قوالبِ الذّهب المرصّعةِ بها بُسُطُ الحرير، وكلُّ الأثاث الذي ينمّ عن ذوقٍ رديءٍ ليس فيه من ميزةٍ غير الغنى، كان يسطع في كامل بريقه.

وتزيّنت الآنسة يوجيني بكلّ ما في البساطة من أناقةٍ: فستانٌ أبيضُ حريرٌ مطرّزٌ بالأبيض؛ وردةٌ بيضاءُ تكادُ تتيه في سواد شعرها الفاحم، هي كلُّ حِليتها، لم تزِد عليها أدنى قطعة حليّ. على أنّ النّاظر في عينيها سيقرأ تلك الثقة الكبيرة التي تعارضُ بساطةَ زينتِها.

وعلى بعد ثلاثين خطوةً منها، كانت السيّدة دانغلار تتحدّث إلى دُبراي وبوشان وشاتو رونو. وقد دخل دُبراي البيت بمناسبة الحفل، مثلما دخلَه الجميعُ، أي من غير تمييزٍ أو معاملةٍ خاصّة.

والسيّدُ دانغلار، محاطًا بالنّواب، ورجال المال، يشرح نظريةَ مساهمةٍ جديدة، سوف يطبّقها حين تجبر الظّروفُ الحكومةَ على تعيينه وزيرًا.

أمّا أندريا فقد انتحى بأحد أشدّ متأنّقي الأوبرا، وأخذ يشرح له بقدرٍ من الوقاحة، إذ كان يحتاج الوقاحة ليصرِّف اضطرابَه، قلنا أخذ يشرح له مشاريعه القادمة وكيف ينوي أن يحدث بإيراداته، المائة وخمسة وسبعين ألف جنيه، ثورةَ ترفٍ في عالم الأناقة الباريسية.

وكان الحشدُ يتحرّك في الصالونات مثل دفقٍ وبريقٍ من الفيروز والياقوت والزمرّد والأوبال والألماس.

وكما هو الحالُ في كلّ مكانٍ، كان واضحًا أنّ العجائز هنّ الأكثر إسرافًا في التزيّن، والقبيحات هنّ الأشدّ إلحاحًا في البروز.

فمن أراد أن يمتع النّظر بزنبقةٍ بيضاء، أو وردة رقيقة عطرة، عليه أن يبحث عنها فيكتشفها مخفيّةً خلفَ أمٍ تعقد على رأسها عمامةً، أو خالةٍ تتزيّنُ بزهور عصفور الجنّة.

ووسط تلك الجلبة، والطّنين، والضّحكات، كانت أصوات الحُجّاب ترتفع في كلّ وقتٍ وحينٍ، مُعلنةً عن وصول أحد الأسماء المألوفة في الأوساط المالية، أو المقدّرة في صفوف الجيش، أو اللامعة في سماء الآداب؛ فيُستقبل الاسمُ بحركةٍ واهنةٍ من الزُمر التي تؤلّف الحشدَ. لكن مقابل اسم واحدٍ يحظى بشرف أن يهتزَّ له محيط الأمواج البشرية ذاك، تمرُّ الكثيرُ من الأسماءِ من دون أن تستقبل بغير اللامبالاة أو السّخرية!

وفي اللّحظة التي أشارَ فيها، عقربُ السّاعة الضّخمة، المرسوم عليها الرّاعي أندميون نائمًا، إلى السّاعة التّاسعة، على ميناءٍ مذهّب؛ ودقّ الجرسُ، ذاك النّاسخُ الأمينُ للفكرِ الآليّ، تسع مرّاتٍ؛ رُفع اسمُ الكونت مونت كريستو، فاستدار الجمعُ كلّه إلى البابِ كأنّما مدفوعًا بشعلة كهرباء.

كان الكونت قد ارتدى ملابس سوداءَ، وفق ما أُلِفَ فيه من بساطةٍ؛ صدارُه الأبيض يبرز صدرَه الواسع الفخور؛ وياقته السوداء تبدو نضرة نضارةً فريدةً لشدّة ما تنسجم مع شحوب بشرته الكامدة؛ ولم يكن يرتدي من حليّ غير سلسلة الصدار التي كانت من الرّهافة بحيث بالكاد تُميَّز فوق الثوب الأبيض.

وعلى الفور تشكّلت دائرةٌ حول الباب.

وبنظرةٍ واحدةٍ لمح الكونت السيّدة دانغلار عند طرف الصالون، والسيّد دانغلار عند طرفه الآخر، وقبالتَه الآنسة يوجيني.

اقترب بدايةً من البارونة التي كانت تتحدّث إلى السيّدة دو فيلفور

التي أتت بمفردها لأنّ فالانتين كانت لا تزال مريضةً؛ ومن غير أن يضطرّ إلى تجنّب الحضورِ، إذ انفتح الطّريق أمامه، انتقل من البارونة إلى يوجيني، فهنّأها بكلماتٍ سريعة متحفّظة، حتّى إنّ الفنّانة المعتدّة بنفسها قد صُدمت من تصرّفه.

بجانبها كانت الآنسة لويز دارميلي، فشكرت الكونت على رسائل التوصية التي تكرّم بها عليها، والتي تنوي أن تفيد منها غاية الإفادة في إيطاليا.

ثمّ إذ ترك الكونت السيّدات، استدار فألفى نفسه بجانب دانغلار الذي اقترب منه ليصافحه.

فلمّا أتمّ الكونت تلك الواجبات الاجتماعية الثلاثة، توقّف، مجيلًا حوله تلك النّظرة الواثقة، المطبوعة بالتّعبير المميّز الذي يتّخذه النّاس المنتمون إلى طبقةٍ رفيعة، والذين يحظون بتقدير بالغ، نقصد تلك النّظرة التي تقول: ها قد فعلت ما يتوجّب عليّ فعلُه؛ والآن ليفعل الآخرون ما يتوجّب عليهم تُجاهي.

شعر أندريا الذي كان في صالون مجاور بتلك الرّجفة التي خلّفها مونت كريستو في الحشد، فهرع إليه يحيّيه.

وجده محاطًا من كلّ جانبٍ؛ كانوا يناقشون كلامَه، شأنَ ما يحدُث مع النّاس الذين لا يتكلّمون إلا قليلًا، فإن تكلّموا ألقوا دُررًا.

وفي تلك اللّحظة دخل الموثِّقان، فوضعا وثائقهما على ثوب المخمل الموشى بالذّهب الذي يغطّي طاولةَ الخشبِ المذهّب المعدَّة لتوقيع العقود. وقد جلس أحدهما بينما ظلّ الثاني واقفًا.

لقد حان وقتُ قراءة العقد الذي يفترض أن يوقّع عليه نصفُ باريس الحاضرُ الحفلَ. فاتّخذ الجميع مجلسه، أو بالأحرى شكّلت النّساء

حلقةً، أمّا الرّجال، الأقل اهتمامًا بما يسمّيه بوالو[1] **الأسلوب النّشيط**، فكانوا يعلّقون على استثارة أندريا المحمومة، وعلى شدّة انتباه السيّد دانغلار، وعلى برود يوجيني، وعلى الطّريقة الذكيّة والحاذقة التي أدارت بها البارونة هذه المسألة المهمّة.

قُرئ العقدُ وسط صمتٍ عميق. لكن ما إن تمّت القراءةُ، حتّى انطلقت الهمهمة في الصّالون، أضعافَ ما كانت عليه من قبل: لقد وقع في أنفس الحضور الغيورةِ، وقعُ تلك المبالغ المبهرة، والملايين التي ترسم طريق الزّوجين الشّابين اللذين أتيا يكملان العرضَ وسط غرفةٍ أعدّت خصيصًا لجهاز العروس ومجوهراتها قبل الزّواج.

وكان سحرُ الآنسة دانغلار يتضاعف في عيون الحضور من الشّباب، فيغطي اللّحظةَ على ألق الشّمس.

أمّا النّساء، فلا حاجة بنا إلى القول إنّهن وإن حسدنها على ملايينها، إلا أنّهن ما كنّ يرين أنّهن بحاجة إليها ليكنَّ جميلات.

أمّا أندريا، فكان مذهولًا يتلقّى من أصدقائه التّهاني والمديح والعناق، فبدأ يصدّق في واقعيّة حلمه، حتّى كاد يفقد عقله.

تناول الموثّق اليراع في حركة رسميّة، ورفعه إلى مستوى رأسه وقال: «سادتي، سوف نوقّع العقد».

ينبغي أن يوقّع البارون أوّلًا، ثمّ الموكّل باسم كافالكانتي الأب، ثمّ البارونة، ومن بعدها الزّوجان المستقبليان، كما يقال بالأسلوب البغيض للوثائق الرّسمية.

تناول البارون اليراع ووقّع، ثمّ وكيل كافالكانتي.

ثمّ دنت البارونة متأبّطة ذراع السيّدة فيلفور، وقالت: - عزيزي، أليس هذا أمرًا محبطًا؟ أقصد أن يجدَّ جديدٌ غير متوقّع في الحادثة التي كادت

(1) نيكولا بوالو (1636-1711) أديب ومفكّر فرنسي.

أن تودي بحياة الكونت مونت كريستو، فيحرمنا من حضور السيّد دو فيلفور.

قال دانغلار: - أوه! يا إلهي! (قالها بنبرة من يقول إنّي لا أبالي بالأمر.)

قال مونت كريستو مقتربًا: - إلهي! أخشى أن أكون، بلا قصدٍ منّي، السبب في هذا الغياب.

قالت السيّدة دانغلار وهي توقّع على العقد: - كيف! أنت يا سيّدي؟ إن كان الأمر كذلك، فاحذر، لأنّني لن أسامحك أبدًا.

أرخى أندريا السّمع.

قال الكونت: - على أنّ الأمر ليس خطأِي، وأحرص على توضيح ذلك.

بالطّبع انتبه الجميع. إنّ مونت كريستو الذي ندر أن يفتح شفتيه، على وشك أن يتكلّم. وقال الكونت وسط صمتٍ مطبق: - هل تذكرون أنّ في بيتي مات التعيس الذي أتى يسرقني، فقتله شخصٌ يُظنُّ أنّه شريكه؟

قال دانغلار: - بلى.

- وإذًا، لمّا حاولوا إنقاذَه، نُزعت ملابسُهُ، ورُمي بها في ركنٍ، فأخذتها الشّرطة بعد ذلك؛ لكنّ رجال الشّرطة لما حرزوا الملابسَ الفوقية والسروال، نسوا الصدرية.

شحب أندريا بشدّة، وتسحّب بهدوء نحو الباب؛ كان يتمثّلُ غيمةً قادمةً في الأفق، وفي جناحها تطوي عاصفةً.

- ولقد عُثر اليوم على الصدرية مضرّجةً بالدّم، ومثقوبةً جهة القلب.

أطلقت النّساءُ صيحةً، وتهيّأت اثنتان منهنّ أو ثلاثٌ للإغماء.

- أتوني بها. ولا أحد كان يدري من أين أتت تلك الخرقة. وحدي فكّرت في أنّها قد تكون صدرية الضحيّة. وفجأةً، بينما يقلّب خادمي ثوب المرحوم بعناية وقرفٍ، أحسَّ بوجود ورقةٍ في جيبه، فأخرجها: كانت رسالةً، مرسلة إلى من؟ إليك يا سيّدي البارون.

صاح دانغلار: رسالة إليّ أنا؟
قال الكونت وسط صيحات الدّهشة العارمة: - أوه! يا إلهي! رسالةٌ إليك؛ لقد تمكّنت من أن أقرأ اسمك تحت الدّم الذي لطّخ الورقة.
سألت السيّدة دانغلار وهي تنظر إلى زوجها بقلق: - لكن، كيف يمنع هذا السيد فيلفور من المجيء؟
أجابها مونت كريستو: - الأمر بسيط يا سيّدتي؛ كانت الصدرية والرّسالة ممّا نطلق عليه اسمَ قرائن جنائية؛ ولقد أرسلت كلّ شيءٍ للسيّد وكيل الملك. فكما تدرك يا عزيزي البارون لا شيء أفضل من انتهاج طريق القانون حين يتعلّق الأمر بجريمة. فقد يكون الأمر مكيدةً تدبّر لك.
حدّق أندريا في مونت كريستو، ثمّ اختفى في الصالون الثاني.
قال دانغلار: - كلّ شيءٍ ممكن. ألم يكن القتيلُ محكومًا سابقًا؟
- نعم، كان محكومًا سابقًا، يسمّى كادروس.
شحب دانغلار قليلًا، وانتقل أندريا من الصالون الثاني إلى البهو.
قال مونت كريستو: - لكن، وقّعوا، وقّعوا! أرى أنّ حكايتي قد أثّرت في الجميع وأسألك المعذرة يا سيّدتي البارونة، وأنت يا آنستي دانغلار.
أعادت البارونة اليراع إلى الموثّق بعدما وقّعت.
قال الموثّق: - سيّدي الأمير كافالكانتي، أين أنت يا سيّدي الأمير كافالكانتي؟
ردّدت أصواتُ شباب عديدين، ممّن بلغوا من الأمير منزلةَ أن ينادوه باسمه مُفردًا: - أندريا! أندريا!
صاح دانغلار بأحد الحجّاب: - نادي على الأمير، أعلمه بأنّ الدّور عليه ليوقّع!
لكن في اللّحظة نفسها تراجع حشدُ الحضور، مرعوبًا، إلى الصالون

الرّئيس، كأنّما دخل المنزل وحشٌ مرعبٌ quaerens quem devoret[1].

وبالفعل، كان ثمّة ما يدعو إلى التّراجع، والرّعب، والصّراخ.

دخل ضابط دركٍ، فأوقف دركيّين عند باب كلّ صالون، ثمّ تقدّم صوب دانغلار، يسبقه مفتّش شرطةٍ تمنطقَ بوشاحه.

أطلقت السيّدة دانغلار صيحةً وأغميَ عليها.

أمّا دانغلار الذي كان يشعر بالتّهديد (بعض الضمائر لا يمكنها أبدًا أن تستقرّ)، فقد أخذ يعرض على الحضور وجهًا شوّهه الرّعب.

تقدّم مونت كريستو صوبَ المفتش وسأله: - ما الخطبُ يا سيّدي؟

سألَ رجلُ القضاء، من دون أن يجيب الكونت: - من منكم يدعى أندريا كافالكانتي؟

تردّدت من كلّ أركان الصّالون صيحاتُ الذّهول. وبحثت العيون، وتساءلت.

سألَ دانغلار والجنون يكاد يستولي عليه: - لكن، من يكون هذا المدعو أندريا كافالكانتي؟

- سجينٌ سابق، فرّ من حبس تولون.

- وأيّ جريمةٍ ارتكب؟

قال الشرطيُّ بنبرته الباردة: - لقد قتل المدعوَ كادروس، رفيقه سابقًا في سجن تولون، في اللّحظة التي همّ فيها بالخروج من منزل الكونت مونت كريستو.

أجال مونت كريستو البصرَ حواليه.

كان أندريا قد اختفى.

(1) عبارة لاتينية معناها: «يبحث عن فريسة»، وتستعمل للدّلالة على المجرم الباحث عن ضحية.

97

طريق بلجيكا

لحظات بعد مشهد البلبلة التي حدثت في صالون السيّد دانغلار بسبب القدوم غير المتوقّع لرجال الدّرك، وبعد إفصاحهم عن سبب القدوم، أُفرغ المنزل بسرعةٍ كأنّما أعلن عن حالة طاعونٍ أو كوليرا بين المدعوّين. في دقائق، وعبر كلّ الأبواب، وكلّ السلالم، وكلّ المنافذ، سارع الجميع إلى الانصراف، أو بالأحرى إلى الفرار؛ ذاك أنّ ما وقع هو حادثٌ من تلك الحوادث التي لا ينبغي فيها حتّى محاولة مواساةٍ بسيطة قد تحوّل الصدّيق الحميم إلى فضوليّ بغيض.

ولم يبقَ في منزل المصرفيِّ غير المصرفيّ، مغلّقًا على نفسه مكتبه، مدليًا بأقواله إلى رئيس الشّرطة؛ أمّا السيّدة دانغلار، فلاذت مرعوبةً بالخِدر الذي نعرفُه، بينما انسحبت يوجيني إلى غرفتها، بعين متغطرسة وشفةٍ هازئة، وسحبت معها صديقتها التي لا تفارقها، الآنسة لويز دارميلي.

أمّا الخدمُ كثيرو العدد، وقد زاد عددهم للمناسبة، إذ أُضيف إليهم طباخو مقهى فرنسا ونُدُله؛ فكانوا ينفّسون عن أنفسهم ممّا يلحقهم من إهانات، بالتّشفي في غيظ سادتهم، فيجتمعون زمرًا في المكتب، أو المطابخ، أو غرفهم، غير آبهين بالخدمة التي تعطّلت تلقائيًا.

ووسط تلك الشّخوص المتنوّعة، تنبضُ شؤونٌ شتّى؛ وشخصان منهم فقط يستحقّان أن نتوقّف عندهما ونهتمّ لأمرهما: الآنسة يوجيني دانغلار، والآنسة لويز دارميلي.

أمّا الخطيبة فقد قُلنا إنّها قد انسحبت إلى غرفتها بهيئة متغطرسة

وشفةٍ هازئةٍ، ومشيةِ ملكةٍ مُهانةٍ، تسير في إثرها رفيقتُها، أشدَّ منها شحوبًا وتأثّرًا. ولمّا دخلتا إلى الغرفة، أقفلت يوجيني الباب من الدّاخل، بينما تتهاوى لويز على مقعد.

قالت الموسيقيّة: - أوه! يا إلهي! يا إلهي! ما أفظعه من حادثٍ! ومن كان ليشكّ فيه... السيّد أندريا كافالكانتي... قاتلٌ... فارٌّ من السّجن... محكوم بالأشغال الشّاقّة!

تخشّبت على شفتَي يوجيني ابتسامةٌ متهكّمة.

قالت: - الحقُّ أنّ قدَري كان مرسومًا. لا يمكن أن أُفلت من مورسيرف، إلا لأسقط بين براثن كافالكانتي!

- أوه! لا تخلطي بين هذا وذاك يا يوجيني.

- اصمتي، الرّجالُ كلّهم مسوخٌ، وأنا الآن سعيدةٌ لأنّ لي سببًا لكي لا أكرههم فحسب، وإنّما احتقرهم.

سألتها لويز: - ماذا سنفعل؟

- ماذا سنفعل؟

- نعم.

- ما كنّا سنفعله بعد ثلاثة أيّام... نرحل.

- هكذا، حتّى وإن لم تتزوّجي، ما زلت تريدين الرحيل؟

- أصغي إليّ يا لويز، أنا أكره هذه الحياة، حياة المجتمع المنظّم والقاسي، والمسطّر مثل أوراقنا الموسيقية. إنّ كلّ ما طمحتُ إليه دائمًا، وما رغبت فيه، وأردته، هو حياة الفنّان، الحياة الحرّة، والمستقلّة، الحياة التي لا نعتمد فيها إلا على أنفسنا، ولا ندين فيها إلا لأنفسنا. لِمَ إذًا أبقى؟ لكي يحاولوا تزويجي مرّةً أخرى، بعد شهر؛ ولمن؟ للسيّد دُبراي ربّما، مثلما طُرح ذات مرّة. كلّا يا لويز؛ كلّا، إنّ ما حدث اليوم سيكون عذرًا لي. لم أبحث عن الذريعة، ولا طلبتها، لكن الرّب بعث لي هذه، فأهلًا بعطيّة الربّ.

قالت الصبيّة الشّقراء السّقيمة لرفيقتها السّمراء: - ما أشجعك وما أقواك!

- كأنّك لا تعرفينني بعد يا لويز؟ هيّا لنتحدّث في أمورنا. عربة المراسلة...

- اشتريناها لحسن الحظّ منذ ثلاثة أيّام.

- وهل قُدتِها إلى حيث ينبغي لنا أن نستقلّها.

- نعم.

- وجواز سفرنا؟

- ها هو!

وبرابطة جأشها المعتادة، فتحت يوجيني ورقةً مطويةً، وقرأت فيها:

السيّد: ليون دارميلي، السنُّ: عشرونَ سنة، المهنة: فنّان، الشّعر: أسود، العينان: سوداوان، ترافقه: أختُه.

- ممتاز! من أين حصلت على هذا الجواز؟

- حين ذهبت إلى السيّد مونت كريستو أطلب منه توصياتٍ لمديري المسارح في روما ونابولي، عبّرت له عن مخاوفي من السّفر في هيأة امرأة؛ وقد تفهّمني، وعرض عليّ المساعدة متى ما أردتُ الحصول على جواز سفر بهوية رَجلٍ؛ وبعدها بيومين تسلّمت هذا الجواز، فأضفت إليه بيدي: تُرافقه، أخته.

قالت يوجين فرحة: - حسنًا، لم يبقَ إذًا إلا أن نحزم الأمتعة. سوف نرحل مساء توقيع العقد، بدلًا من السّفر ليلة الزّفاف: وهذا كلّ ما في الأمر.

- فكّري جيّدًا يا يوجيني.

- أوه! لقد فكّرتُ وأنهيتُ التّفكير؛ تعبت من أن أظلّ لا أسمع الحديث إلا عن تأجيل الدّيون، ونهايات الشّهر، والارتفاع، والانخفاض، والأرصدة الإسبانية، وسندات هايتي. بدلًا من ذلك يا لويز: الهواء،

الحريّة، غناء العصافير، وسهول لومبارديا، وقنوات البندقية، وقصور روما، وشواطئ نابولي. كم نملك يا لويز؟

أخرجت لويز من درج مكتبٍ مرصّع حافظة نقودٍ صغيرة، وفتحت سحّابها، وعدّت ما فيها: ثلاثٌ وعشرونً ورقةً بنكية.

قالت: – ثلاثة وعشرون ألف فرنك.

قالت يوجيني: – وما لا يقلّ عن ذلك من الجواهر والألماس والحليّ. نحن غنيّتان. إنّ مبلغ خمسة وأربعين ألفًا يكفينا لنعيش سنتين حياةَ الأميرات، وأربعَ سنواتٍ حياةً لائقةً كريمة. لكن، قبل أن نكمل ستّة أشهر سنكون، بفضل موسيقاك وصوتي، قد ضاعفنا رأسمالنا. هيّا، تكفّلي بالنّقود، وأنا سأتكفّل بصندوق الجواهر؛ فإن أضاعت إحدانا كنزها، ظلّ لنا كنز الأخرى. والآن إلى الحقيبة: لنسرع، إلى الحقيبة!

قالت لويز: – انتظري، هيّا لنتنصّت على باب السيّدة دانغلار.

– ماذا تخشين؟

– أخشى أن نُباغتَ.

– الباب مقفلٌ علينا.

– قد يطلبون منّا أن نفتحه.

– فليطلبوا، لن نفتح.

– أنت أمازونية فعليّةٌ يا يوجيني.

انطلقت الصبيّتان، في نشاطٍ مذهلٍ، إلى تكديس حقيبة بشتى الأشياء التي ظنتّاها ضروريةً لسفرهما.

قالت يوجيني: – والآن، أغلقي الحقيبة، بينما أغيّر ملابسي.

ضغطت لويز على غطاء الحقيبة بكلّ ما في يديها الصغيرتين البيضاوين من قوّة.

قالت: – لكنّني لا أستطيع، لست قويّة بما يكفي؛ أقفليها أنت.

قالت يوجيني ضاحكة: – آه! صحيح، لقد نسيت أنّني هرقل، وأنت لست إلا أومفال الشّاحبة.

ثمّ إنّ الصبيّة وضعت ركبتها على الحقيبة، وضغطت بذراعيها البيضاوين القويّتين حتى تلاقى شقّا الحقيبة، وأدخلت الآنسة دارميلي القفلٍ في الحلقتين. ولمّا فرغتنا من تلك المهمّة، فتحت يوجيني صوانًا تحملُ مفتاحه معها، وأخرجت منه رداءَ سفرٍ أرجوانيًا من الحرير المبطّن.

قالت: - ترينَ أنّني فكّرت في كلّ شيء؛ بفضل هذا الرّداء لن تشعري البتّة بالبرد.

- وأنت؟

- أوه! تعرفين أنّني لا أشعر بالبرد؛ ثمّ بهذه الملابس الرجولية...

- ستغيّرين ملابسك هنا؟

- بلا شكّ.

- وهل يسعفك الوقت؟

- لا تقلقي يا خوّافة؛ إنّ الجميع مشغولون بما وقع. ثمّ ما العجيب في أن أقفل على نفسي الغرفة بعد الإحباط الذي وقعت فيه؟

- نعم، صحيح، طمأنتني.

- هيّا، تعالَي ساعديني.

ومن نفس الصوان الذي أخرجت منه الرّداء وأعطته الآنسة دارميلي التي ألقته على كتفيها، أخرجت زيًا رجاليًا كاملًا من الحذاء إلى معطف الردنجوت، مع مؤونة من الملابس لا تزيد على الحاجة.

ثمّ، ببراعةٍ تؤكّد أنّها ليست المرّة الأولى التي تتقمّص فيها ملابس الجنس الآخر، انتعلت الحذاء الجلديَّ، ولبسَت بنطلونًا، وعقدت ربطة العنق، وزرّرت سترتها حتّى العنق، ثمّ ارتدت ردنجوتًا يبرز قدّها النّحيل المقوّس.

قالت لويز وهي تتأمّلها بإعجاب: - أوه! جيّد! الحقّ، جيّد جدًا؛ لكن هل ستُخفي قبّعةٌ رجاليةٌ كهذه التي أرى هناكَ، هذا الشّعرَ الطّويل الجميلَ الفاحمَ الذي تغبطك عليه كلّ امرأةٍ؟

أجابتها يوجيني: - سوف ترين.

ثمّ أمسكت بيدها اليسرى وَفْرتَها التي بالكاد استطاعت أصابعُها أن تحيط بها، وبيدها اليمنى مقصًّا طويلًا، ثمّ ما لبث الحديد أن صرَّ وسط الشّعر المذهلِ الغزير، فتساقطَ بأكمله عند قدمَي الشّابة التي كانت قد انقلبت إلى الخلف كي لا تسقط الشعرات على معطفها.

فلمّا أتت على أعلى وفرتها، انتقلت إلى الجانبين، فقصّتهما بلا أسفٍ.بل على العكس، تحت حاجبيها الأسوَدين سواد الأبنوس كانت عيناها تلمعانِ ببريقٍ أشدّ وهجًا ومرحًا من المعتاد.

قالت لويز متحسّرةً: - آهِ على الشّعر الرّائع!

صاحت يوجيني وهي تسرّح شعرها المتفرّق وقد صار لا يفرقه شيءٌ عن شعر الذّكور: - إه! ألستُ هكذا أجمل ألفَ مرّةٍ؟ ألا ترينني جميلةً؟

صاحت لويز: - أوه! بلى، بلى، أنت جميلة. دائمًا جميلة! إلى أين سنذهب الآن؟

- إلى بروكسيل طبعًا؛ إنّها الحدود الأقرب. سنوافي بروكسيل، ومنها إلى لييج، ثمّ إكس لا شابيل؛ ومن هناك نصعدُ نهر الراين حتّى ستراسبورغ، فنعبر سويسرا، ثمّ ننزل إلى إيطاليا عبر معبر جبل غوتهارد. هل يناسبك الأمر؟

- طبعًا.

- إلامَ تنظرين؟

- أتأمّلك. الحقّ أنّك تبدين فاتنةً هكذا. من يرانا قد يظنُّ أنّك تخطفينني.

- إه! وسيكون محقًّا، اللعنة!

- أوه! أظنّك قد تفوّهت بشتيمةٍ يا يوجيني؟

ثمّ إنّ الفتاتين اللّتين كان المرء ليتصوّر أنّهما ستغرقان في الدّموع،

إحداهما بسببِ مصابِها، والثانية بباعث من إخلاص لصديقتها، قلنا إنّ الفتاتين بدلًا مِن ذلك انخرطتا في القهقهة بينما تمحوان آثار الفوضى التي خلّفها الاستعدادُ للهرب.

ثمّ بعد أن أطفأتا الأنوار، فتحت الصبيّتان، بعينٍ متفحّصة، وأذنٍ مترصّدة، ورقبةٍ ممدودة، بابَ مخدعِ زينةٍ يفضي إلى سلم خدمٍ ينزل حتّى الباحة؛ في المقدّمة يوجيني تحمل الحقيبة بذراعٍ، وفي الخلف ترفعها لويز بيدها بالكاد من طرفها الآخر.

كانت الباحة فارغة. ودقّت ساعة منتصف اللّيل.

ولا يزال البوّابُ ساهرًا. دنت يوجيني بهدوءٍ، فرأت البواب السويسريَّ الشجاعَ نائمًا في مقصورته ممدّدًا على مقعده.

ثمّ عادت إلى صديقتها، فحملت الحقيبة التي كانت قد وضعتها برهةً، وسارتا معًا تتبعان ظلَّ الجدار حتّى بلغتا القبو.

أخفت يوجيني لويز عند زاوية الباب، بحيث لو صحا البوابُ، لا يرى إلا شخصًا واحدًا.

ثمّ خرجت هي إلى نور القنديل الذي يضيءُ الباحة، وصاحت بأعلى صوتها الكونترالتو[1]، وهي تنقر على الزّجاج: - الباب!

قام البوّابُ مثلما توقّعت يوجيني، بل وتقدّم خطواتٍ إلى الأمام ليتبيّن الطّارقَ، فلمّا رأى شابًّا يضربُ نافد الصبر بعصاه على بنطلونه، فتح له فورًا.

وعلى الفور تسلّلت لويز مثل ثعبان عبر الباب الموارب وقفزت بخفّةٍ إلى الخارج. ثمّ خرجت في إثرها يوجيني هادئة من الظّاهرِ، وإن كان قلبُها على الأرجح يخفق بأسرع من المعتاد.

مرّ حمّالٌ فكلّفتاه بحمل الحقيبة، وعيّنتا له عنوان مقصدهما: شارع

(1) صوتٌ غنائيٌّ نسائيٌّ يعتبر من أندر الأصوات وأقواها.

النّصر، وتحديدًا الرّقم 36؛ ثمّ سارتا في إثر الرّجل الذي طمأن حضورُه لويز، أمّا يوجيني فكانت قويّةً مثل يهوديت أو دليلة.

بلغتا العنوان المطلوب، فأمرت يوجيني الحمّال أن يضع الحقيبة، وأعطته قطعًا نقدية، فنقرت على مصراع نافذة، ثمّ صرفَته.

المصراع الذي نقرت عليه يوجيني كان مصراع خادمة ملابس أعلمتها الصبيّة مُسبقًا. لم تكن قد نامت بعد، ففتحت لهما.

قالت يوجيني: - آنستي، قولي للبوّاب أن يُخرج العربة من مخزنها وأرسليه يُحضر خيول المراسلة. وهذه خمسة فرنكاتٍ نظير تعبه.

قالت لويز: - الحقُّ أنّني معجبةٌ بك، وقد أقول إنّني أكادُ أبجّلك.

أخذت الخادمة تنظر بدهشةٍ؛ لكن لمّا كان الاتّفاقُ أن تحصل على عشرين لويسية، فلم تُبد أيّ ملاحظة.

ربع ساعة بعد ذلك عاد البوّابُ بصحبة حوذيّ المراسلة يجرُّ الخيول، فأُلجمت بإحكام، ووُضعت الحقيبة، وثُبّتت بحبل.

قال الحوذيُّ: - هوذا جواز السّفر، أيّ طَريقٍ تريد أن تسلكه برجوازيتنا الشّابة؟

أجابته يوجيني بصوتٍ يكاد يكون ذكوريًا: - طريق فونتينبلو.

سألتها لويز: - ماذا تقولين؟

أجابت: - مجرّد تمويه؛ هذه المرأة التي أعطيناها عشرين لويسية، قد تغدر بنا مقابل أربعين. حين نبلغ الشّارع الكبير سوف نتّخذ اتّجاهًا آخر.

ثمّ تقريبًا من غير أن تمسّ موطئ القدم، قفزت الشّابةُ في العربة التي هُيئَت لتكون مَهجَعًا جيّدًا.

قالت أستاذة الغناء وهي تتّخذ موضعها بجانب صديقتها: - أنت دائمًا محقّةٌ يا يوجيني.

وما هي إلا ربع ساعة حتّى كان الحوذيُّ، بعدما عُدِّلت طريقُه، قد اخترق سياجَ معبر سان مارتين، ومضى مفرقعًا بسوطه.

قالت لويس مسترجعةً أنفاسها: - آه! ها نحن قد خرجنا من باريس!
أجابتها يوجيني: - نعم يا عزيزتي، وقد تمّت عملية الخطف بنجاح.
قالت لويز: - نعم، لكن من دون عنف.
ردّت يوجيني: - سوف أستغلّ هذا كعاملٍ لتخفيف الحكم.
وتبدّد الكلام وسط الضجيج الذي كانتً تحدثه العربة وهي تسير على بلاط منتزه فيليت.
لم يعد للسّيد دانغلار ابنة.

98

نزلُ الجرس والقنينة

والآن، لنترك الآنسة دانغلار وصديقتها في سيرهما على طريق بروكسيل، ولنعُد إلى المسكين أندريا كافالكانتي الذي أُسقطَ سقوطًا مؤسفًا وهو وفي عزّ سَعدِه.

لقد كان السيّد أندريا كافالكانتي، على الرّغم من حداثة سنّه فتىً شديد الذّكاء والسّداد. لذا، ما إن سرت أولى الهمهمات في الصالون، حتّى رأيناهُ تسَحّبَ إلى الباب رويدًا رويدًا، وعبَرَ غرفةً أو غرفتين، ثم اختفى.

ثمّة تفصيل نسينا ذكرَه، مع أنّه تفصيل لا ينبغي أن نغفله: في إحدى الغرفتين اللّتين عبرهما كافالكانتي كانَ موضوعًا جهاز العروس، علب الألماس، وشالات الكاشمير، ودانتيل فالانسيين، وأثواب إنجلترا، أي كلّ ما يشكّل عالم الأشياء المغرية التي يكفي ذكر اسمِها ليخفق قلب الصّبايا فرحًا، والتي نسمّيها la corbeille[1].

ولمّا كان أندريا قد مرّ من تلك الغرفة، فقد برهن ليس عن أنّه فتى شديد السّداد والقوّة فحسب، وإنّما أيضًا عن كونه نافذ البصيرة، إذ استولى على أغلى الجواهر المعروضة.

وإذ اقتصر على تلك الجوهرة التي تكفيه مؤونة السّفر، فقد كان يحسّ نفسَه خفيفًا بحيث يستطيع القفز من النّافذة والإفلات من أيدي الدرك.

---

(1) حرفيًا تعني السّلّة، وصارت اليوم تدلّ على سلة المهملات، وربّما سبب التّسمية أنّ هدايا العروس كانت تقدّم في سلال.

كان طويلًا ممشوق القوامِ كمصارع من الأزمنة العتيقة، مفتول العضلات كإسبرطيّ، فركض ربع ساعةٍ على غير هدىً، لا يطلب إلا الابتعاد ما أمكنه عن المكان الذي كاد يُعتقل فيه.

وبفضل غريزة كشف الحواجز التي يملكها اللّصوص، كما تملك الأرنبُ غريزة إيجاد الجحور، انطلق من شارع مون بلان، فأفضى إلى شارع لافييت. وهناك توقّف لاهثًا، مقطوع النّفس. كان وحيدًا تمامًا، عن شماله حقل لازار، شاسعًا قفرًا، وعن يمينه باريس غارقةٌ في الظّلام.

سأل نفسه: - هل قضي عليَّ؟ كلاّ، إذا استطعت أن أبذل مجهودًا يفوق مجهود ملاحقيَّ. خلاصي إذًا صار مسألة سرعة ومسافة.

وفي تلك اللّحظة لمح عربة، قادمة من أعلى ضاحية بواسونيير، حوذيُّها الكئيبُ يدخّنُ غليونًا، ويبدو أنّه يقصد تخوم ضاحية سان دُني حيثُ إقامتُه المعتادة.

قال بنيديتو: - هِه! أيّها الصّديق!

- ما الذي تريده يا سيّدي البرجوازي؟

- هل حصانُك متعب؟

- متعب! آه! طبعًا! فهو لم يقم بشيءٍ يذكر طيلة يومه المبارك. أربع رحلاتٍ تعيسة، ومكسب لا يتعدّى سبعة فرنكاتٍ، في حين أنّني ينبغي أن أعطيَ صاحبه عشرةً!

- فهل تريد أن تضيف إلى الفرنكات السّبعة عشرين فرنكًا أخرى، وها هي ذي؟

- بكلّ سرورٍ يا سيّدي البرجوازيّ؛ عشرون فرنكًا ليست بالشّيء الهيّن؛ ما الذي عليّ أن أفعله لأظفر بها؟

- شيءٌ بسيطٌ جدًا إن لم يكن حصانُك متعبًا.

- قلت لك إنّه يستطيع أن يركض كالرّيح؛ يكفي فقط أن تقول في أيّ اتّجاه ينبغي أن ننطلق.

- باتّجاه لوفر.
- آه! آه!معروف: بلَد الرّاتافيا[1]؟
- بالضّبط. أريد فقط أن ألحق صديقًا يفترض أن أصيد معه غدًا في لاشابيل أون سرفال. اتّفقنا على أن ينتظرني هنا حتّى الحادية عشرة والنّصف، والسّاعة الآن منتصف اللّيل، فلا بدّ أنّه ملّ الانتظار وانطلق من دوني.
- على الأرجح.
- وإذن هل تحاول اللّحاق به؟
- لا أطلب أفضل.
- لكن إن لم نلحق به قبل بلوغ بورجي فسوف أعطيك عشرين فرنكًا، فإن لم نلحق به قبل اللوفر أعطيك ثلاثين.
- فإن لحقنا به؟
قال أندريا بعد برهة تردّد، فكّر أثناءها في أنّه لن يخسر بالوعد شيئًا:
- أربعين!
قال الحوذيّ: - اتّفقنا! هيّا اصعد، ولننطلق.
صعد أندريا إلى العربة التي انطلقت في ركض سريع، فعبرت ضاحية سان دُني، وسارت بمحاذاة ضاحية سان مارتانً، فجاوزت الحاجز، ثمّ اخترقت منتزه فيليت اللامتناهي.
لم يكن ثمّة بالطّبع إمكانٌ للّحاق بالصّديق الخيالي، لكنّ ذلك لم يمنع أندريا، بين الفينة والأخرى، من سؤال المارة المتأخّرين أو الحانات السّاهرة، عن عربة خضراء يجرّها حصانٌ أسمر؛ وبما أنّ طريق هولندا يطرقها الكثير من العربات، وبما أنّ نصفها أخضر، فقد كانت

(1) شرابٌ مسكرٌ.

المعلوماتُ تنهالُ عليهما في كلّ خطوة يخطوانها: لقد شوهدت العربة للتّو؛ لا تبعد بأكثر من خمسمائة خطوة، مائتين، مائة؛ ثمّ ها قد جاوزناها، لكنّها ليست هي.

ثمّ لما أتى الدور على عربتهِما، لتتجاوزها عربةٌ سريعةٌ يجرّها ركضًا حصانا مراسلة، قال كافالكانتي لنفسه:- آه! لو كنت أملك هذه العربة، وهذين الحصانين الجيّدين، ثمّ بخاصّة جواز السّفر اللازم للحصول عليهما!

ثمّ تنهّد بعمق.

ولم تكن تلك العربةُ سوى عربة الآنسة دانغلار والآنسة دارميلي.

قال أندريا: - أسرع! أسرع! لن نتأخّر في اللّحاق به.

واستأنف الحصانُ ركضه المسعور الذي كان قد انخرط فيه مُذ جاوز الحاجز، فوصل إلى لوفر والدّخان يتطاير منه.

قال أندريا: - قطعًا لن نلحق صديقي وسوف أقتل حصانك. لذا يستحسن أن أتوقّف. هاك الثلاثين فرنكًا، وسوف أبيت اللّيلة في فندق الحصان الأحمر، وما إن أجد موضعًا في عربةٍ حتّى أستقلّها. طابت ليلتك يا صديقي.

ثمّ إنّ أندريا وضع النّقودَ في يد الحوذيّ، ستّ قطع من فئة خمسة فرنكاتٍ، وقفز بخفّة على بلاط الطّريق.

دسّ الحوذيّ النّقود بفرحٍ في جيبه، ثمّ استدار من فوره عائدًا إلى باريس؛ وتظاهر أندريا بأنّه يَقصد فندق الحصان الأحمر؛ لكن بعدما توقّف للحظةٍ أمام الباب، منتظرًا أن يتبدّد صوت العربة وهي تختفي في الأفق، ما لبث أن استأنف فرارَه؛ وبخطوٍ رياضيٍّ سريعٍ استطاع أن يقطع فرسخَين.

وهناك استراح، إذ لا بدّ أن يكون قريبًا من لا شابيل أون سرفال، حيث قال إنّه ذاهب. ولم يكن التّعبُ هو ما أوقف أندريا كافالكانتي: إنّما حاجتُه إلى أن يتّخذ قرارًا، ضرورةُ أن يضع خطّةً.

أن يركب عربةً عمومية: مستحيل؛ أن يستقلّ عربة المراسلة، أيضًا مستحيل؛ فلكي يركب هذه أو تلك، يحتاجُ بالضّرورة جواز سفر.

يبقى في مقاطعة واز، أي في واحدة من المقاطعات المكشوفة والأشدّ مراقبةً في فرنسا: مستحيلٌ أيضًا، مستحيلٌ على وجه التّخصيص بالنّسبة إلى رجلٍ مثل أندريا، رجل خبير في ميدان الإجرام.

جلس أندرياً على حافة الخندقّ، وأرخى رأسه بين يديه، وغرق في التّفكير. وبعد عشر دقائق، رفع رأسه؛ كان قد حسم أمرَه.

عفّر بالتّراب جانبًا من المعطف الذي كان قد عمد إلى خطفه من بهو بيت دانغلار، وزرّره ساترًا به ملابس الحفل التي كان يرتديها؛ ثمّ قصد شابيل أون سرفال، وطرق باب النزل الوحيد الموجود في البلد.

فتح له ربُّ النزل.

قال أندريا: - صديقي، كنت في طريقي من مورتُفونتين إلى سُنليس، حين انحرف حصاني الحرون وألقى بي مسافة عشر خطوات. ينبغي أن أصل هذه اللّيلة إلى كومبيِيني وإلا قلقت عائلتي أشدّ القلق؛ هل لديك حصانٌ تؤجّره؟

ولا بدّ أن يكون لدى ربّ النّزل حصانٌ، سواء كان حصانًا جيّدًا أم سيّئًا. فنادى ربُّ النّزل فتى الإسطبل، وطلب منه أن يسرج الحصان «أبيض»، ثمّ أيقظ ابنه، وهو طفلٌ في السّابعة من عمره، لكي يمتطي الحصان خلف الرّجل، ويعيده.

أعطى أندريا ربَّ النّزل عشرين فرنكًا، وكان لمّا أخرجها من جيبه، تعمّد إسقاط بطاقة زيارة. وكانت تلك بطاقة أحد أصدقائه بمقهى باريس؛ بحيث يتوهّمُ ربُّ النّزل، بعد أن يرحل أندريا ويلمَّ هو البطاقة، أنّه قد أجّر حصانه للسيّد الكونت دو موليون، القاطن في الرّقم 25 من شارع سان دومينيك: الاسم والرّقمُ الموجودان في البطاقة.

لم يكن «أبيض» سريعًا، لكنّه كان يسير بخطى منتظمة وسديدة. وقطع

أندريا المسافة التي تفصله عن كومبِيني في ثلاث ساعاتٍ ونصف؛ وحين وصل إلى السّاحة التي تقف فيها العربات العمومية، كانت ساعةُ قصر البلدية تشير إلى الرّابعة صباحًا.

وفي كومبييني نزلٌ ممتازٌ يتذكّره حتّى أولئك الذين لم يقيموا فيها أكثر من مرّة. وذاك حالُ أندريا الذي كان قد توقّف في النزل المعلوم، **نزل الجرس والقنينة**، في إحدى جولاته بأرباض باريس. أجال البصر حوله، فاهتدى إلى علامة الفندقِ في ضوء مصباح من مصابيح الشّارع؛ ثمّ صرف الولد بعد أن أعطاه كلّ القطع النقدية الصغيرة التي معه، وقصد باب النّزل يطرقه، وهو يقلّب الأمور في ذهنه بكثير من الدّقة، فرأى أنّ أمامه ثلاث ساعاتٍ أو أربعًا، ولا أمثل له من تقوية الجسد برقدةٍ جيّدة وأكلة طيّبة، يستعين بهما على ما يلوح في الأفق من مشّاقَ.

فتح له البابَ صبيٌّ.

قال أندريا: - صديقي، أنا آتٍ من سان جون دو بوا، حيث تعشّيت. وكنت أنوي أن أستقلّ العربة التي تمرّ عند منتصف الليل؛ لكنّني تهتُ كالأحمق، ومنذ أربع ساعات وأنا أهيم في الغابة. أعطِني إذًا غرفةً من غرفكم الجميلة المطلّة على الباحة، وابعث إليّ بدجاجةٍ باردة، وقنينةٍ من نبيذ بوردو.

لم يخلّف كلامُه في نفس الصبيّ أيّ ريبة. كان أندريا يتكلّم بهدوءٍ بالغ، في فمه سيجارٌ، ويداه في جيبَي معطفه؛ ملابسه أنيقة، ذقنه حليقة، وحذاؤه الطّويل لا تشوبه شائبة؛ كانت هيئته هيئة ساكن من سكّانِ الأرجاء، تأخّر به الوقت، وهذا كلّ ما في الأمر.

وبينما يعدُّ الصّبيُّ الغرفة، قامت إليه المضيفة. استقبلها أندريا بأشدّ الابتسامات جاذبية، وسألها عمّا إذا كان ممكنًا أن يحصل على الغرفة رقم 3 التي سبق له أن نام فيها أثناء مروره بكامبييني ذات مرّة؛ للأسف كانت الغرفة رقم 3 مشغولةً، استأجرها رجلٌ يسافر مع شقيقته.

بدا على أندريا الاستياءُ، ولم يرتح إلا حين أكّدت له المضيفة أنّ الغرفة رقم 7، التي تُحضَّر له، تشبه تمامًا الغرفة رقم 3؛ فأخذ يدفئ قدميه متحدّثًا عن سباقات شانتيلي الأخيرة، منتظرًا أن يأتي الصبيُّ يعلمه أنّ الغرفة جاهزة.

ولم يكن ذِكر أندريا الغرفَ الجميلة المطلّة على الباحةِ، براءً من كلّ قصدٍ؛ إنّ باحة نزل الجرس، بصفّ أروقتها الثلاثيّ الذي يجعلها أشبه شيءٍ بصالة عرض، وأزهار الياسمين والظيان(1) التي تتسلّق الأعمدة، خفيفةً مثل زينةٍ طبيعيّة؛ قلنا إنّ باحة الفندق هي من أجمل مداخل الأنزال في العالم.

كانت الدّجاجة طازجةً، والنّبيذ عتيقًا، والنّار متوهّجة متّقدة. وقد اندهش أندريا من نفسه، وهو يتعشّى بشهيّةٍ مفتوحةٍ، كأنّ شيئًا لم يقع.

ثمّ رقد، فنام من فوره ذاك النّوم العميق الذي يستطيع الإنسانُ في سنّ العشرين دائمًا أن ينامَه، حتّى حين يعتريه النّدم. غير أنّنا مجبرون على الاعتراف: كان لأندريا ما يكفي من الأسباب ليشعر بالنّدم، لكنّه لم يكن نادمًا.

وإليكم خطّةَ أندريا، الخطّةَ التي كانت تمنحه الجزء الأكبر من هدوئه: سيستيقظ مع شروق الشّمس، يغادر النزل بعد أن يؤدّي كلّ ما عليه؛ ثمّ يقصد الغابة، فيشتريَ ضيافةَ فلّاح بدعوى أنّه رسّامٌ يريد القيام ببعض الدّراسات؛ ثمّ يحصل على زيّ حطّابٍ وفأسٍ، فيُلقيَ عن ظهره إهابَ الرّجل النّبيل، ويرتدي إهاب العامل. ثمّ بذراعين مغبرّتين، وشعرٍ يصقله بمشطٍ من فولاذ، وبشرةٍ يدبغها بطريقة علّمَه إيّاها رفاقُ سجنه، سيمضي من غابةٍ إلى غابة، حتّى يبلغ أقرب الحدود؛ يسير ليلًا، وينام نهارًا في الغابات أو المقالع، ولا يقترب من الأماكن المأهولة إلا

(1) نوعٌ من الياسمين البرّيّ.

ليشتري بين الفينة والأخرى بعض الخبز. وما إن يجتاز الحدود حتّى يحوّل مجوهراته إلى نقود، فيضمّ ما يحصّله من بيعها إلى نحو عشر أوراقٍ بنكية يحملها معه دائمًا تحسّبًا للطّوارئ، فيكون المجموعُ نحو خمسين ألف جنيهٍ، وهو ليس بالمبلغ الهيّنِ في فلسفته.

ثمّ إنّه يعوّل كبيرَ التّعويل على مصلحة دانغلار في إخماد الكلامِ حول ما حصل.

تلكم كانت الأسباب التي، فضلًا عن التعب، دفعت أندريا إلى النّوم سريعًا وجيّدًا. ثمّ إنّه، لكي يستيقظ ما إن يطلع النّهار، لم يغلق مصاريعِ النّوافذ، واكتفى بإغلاق الباب، ووضع على المنضدة، طوع يده، مدية مفتوحةً، حادّةً جدًا، لم تكن تفارقه.

حوالى السّابعة صباحًا أيقظت أندريا أشعةُ الشّمسِ التي دخلت، دافئةً برّاقة، تتراقص على وجهه.

إنّ الفكرة المهيمنة دائمًا بالنّسبة للعقل المنظّم، وثمّة دومًا فكرةٌ مهيمنةٌ بالنّسبة إليه؛ قلنا إنّ الفكرة المهيمنة دائمًا هي تلك التي تكون آخر ما نام عليه ذهنه وأوّل ما استيقظ عليه.

ولم يكن أندريا قد استيقظ كلّ الاستيقاظ، حتّى كانت الفكرة المهيمنة قد أتت تلحّ عليه، وتهمس إليه بأنّه قد نام أكثر ممّا ينبغي.

وثب عن سريره، وهرع إلى نافذته.

كان ثمّة دركيٌّ يعبر الباحة.

إنّ الدركيَّ من الأشياء التي تستنفر عينَ النّاظر، حتّى وإن كان هذا النّاظر خليَ البال؛ أمّا من كان متوجّسًا، وله من الدّواعي ما يدفع للفزع، فإنّ صُفرة بدلة الدركيِّ، وبياضَها وزُرقَتها، تتجلّى لعينه غايةً في الرّعبِ.

تساءل أندريا: - لمَ يوجد دركيٌّ؟

ثمّ ما لبث أن أجاب نفسَه بذاك المنطق الذي لا بدَّ من أنّ القارئَ قد لاحظَه فيه: - إنّ وجود دركيٍّ في فندقٍ، شيءٌ لا ينبغي أن يثير العجب؛ فلنرتدِ ملابسنا!

وارتدى الشّابُ ملابسه بسرعةٍ لم يفقدها على الرّغم من قضائه بضعة أشهر من حياة الموضة الباريسية، ظلّ يعتمد فيها على خادمه الشّخصيّ.

قال أندريا وهو يرتدي ملابسه: - حسنًا، سوف أنتظر أن ينصرف، فأتسلّل.

وإذ نطق أندريا بكلماته تلك، وانتعل حذاءه وعقد ربطة عنقه، قصد النّافذة بهدوءٍ، ورفع ثانيةً ستار الموسلين.

وهذه المرّة لم يرَ الدّركيَّ الأوّلَ فحسب، وإنّما لمح بدلة أخرى، زرقاءَ صفراءَ بيضاءَ، أسفل الدّرج الوحيد الذي يمكنه أن ينزل منه، بينما ثالثٌ على صهوة جواده، يمسك ببندقية قصيرة، ويقف كالخفير عند مدخل الشّارع الوحيد الذي يمكنه أن يتسلّل منه.

قطع وجودُ الدركيِّ الثالث الشكَّ باليقين، إذ تشكّلت أمامَه نصفُ دائرةٍ من الفضوليّين سدّوا بإحكام باب النزل.

وكان أوّل ما خطر بذهن أندريًا: «إنّهم يبحثون عنّي! اللّعنة!».

اجتاح الشّحوب جبين الشّاب؛ وأجال البصر حواليه في ضيق.

إنّ غرفتَه، شأن جميع غرف الطّابق، لا منفذَ لها غير الباحة المكشوفة أمام أنظار الجميع.

وكان ثاني ما خطر بذهنه: «قُضيَ عليّ!».

وبالفعلِ إنّ الاعتقال بالنّسبة لرجل في وضعية أندريا يعني المحاكماتَ، والإدانة، والموت، الموت بلًا رحمةٍ أو تأجيل.

لبرهةٍ هصر رأسَه بين يديه متشنّجًا. وأثناء تلكَ البرهة كاد يجنُّ من الخوف. لكن ما لبث أن انبثقت، من خضمّ الأفكار المتضاربة في رأسه، خاطرةُ رجاءٍ؛ ارتسمت ابتسامةٌ شاحبةٌ على شفتيه الذابلتين وخدّيه المتصلّبين.

أجال نظره حواليه؛ كانت الأشياء التي يبحث عنها مجتمعة فوق رخام منضدةٍ: يراع وحبر وورق. غمس اليراع في الحبر، وخطّ بيدٍ أمرَها أن تثبَتَ، السّطورَ التالية على الورقة الأولى من الدّفتر:

«ليست لديَ نقودٌ أدفع بها ما عليَّ، لكنّني رجلٌ شريفٌ؛ لذا أترك لكم ضمانةً مشدّ ربطة العنق هذا الذي يساوي سعرُه عشر مرّاتٍ ما عليَّ من نقود. أرجو أن تعذروا لي تسلّلي ما إن أطلّ النّهار، فقد كنتُ أشعر بالخجل!».

سحب مشدَّ ربطة عنقه ووضعه على الورقة.

ثمّ إنّه، بدلًا من أن يترك أقفال الغرفة مغلقةً، فتحها كلّها، ووارب البابَ كأنّما نسيه مفتوحًا بعدما غادر. ثمّ انزلق في المدخنة انزلاق المعتاد على مثل تلك الألاعيب الجسدية، وسحب إليه السدّادة الورقية التي رُسم عليها **آخيل عند ديداميا**، ومسح بقدميه كلّ أثر لخطواته على الرّماد، ثمّ جعل يتسلّق الأنبوب المقوّس الذي هو آخر رجاءٍ يمكن أن يتعلّق به خلاصه.

وفي تلك اللّحظة نفسها كان الدّركي الذي أثار انتباه أندريا أوّلًا، يصعدُ الدّرج مسبوقًا بمفتّش الشّرطة، ومشفوعًا بالدركيّ الثاني الذي كان يحرس أسفل الدّرج، والذي قد ينتظر بدوره الدّعم من الدّركي الواقف بالباب.

وإليكم الملابسات التي أدت إلى هذه الزيارة التي لم يكن أندريا مستعدًا لاستقبالها.

ما إن بزغ النّهار حتّى تحرّكت التلغرافات في كلّ اتّجاه، وسارت المعلومة كلّ مسرىً، فتلقّفتها تقريبًا كلّ النقاط، فنبّهت السّلطات وحرّكت القوات العمومية في إثر المجرم الذي اغتال كادروس.

وإنّ كومبييني، بما هي إقامة ملكيةٌ؛ كومبييني، بما هي مدينة صيد؛ كومبييني، بما هي مدينة حامية عسكرية؛ لها من رجال السّلطة والدّرك ومفتّشي الشرطة العددُ الكثير؛ فما إن وصلت الإشارةُ حتّى انطلقت حملةُ التّفتيش، ولمّا كان نزل الجرس والقنّينة أوّل فندقٍ في المدينة، فقد كان من المنطقيّ أن يبدأ التّفتيش منه.

ثمّ إنّه بحسب تقرير الحرس الذين كانوا في الخدمة ليلًا بقصر البلدية (وقصر البلدية ملاصق لنزل الجرس)، فقد لوحظ نزول العديد من المسافرين تلك اللّيلة بالفندق. حتّى إنّ الخفير الذي بُدِّل في السادسة صباحًا، يتذكّر أنّه ساعة استلم الحراسة، أي في الرّابعة وبضع دقائق، رأى شابًا يمتطي صهوة حصانٍ أبيض وقد أركب خلفَه صبيًا فلّاحًا؛ ولمّا ترجّل الشّابُ عن صهوة حصانه، صرف الفلّاحَ والحصان، وقصد نزل الجرس، ففُتح في وجهه باب النزل، ثمّ أُغلق خلفَه.

وذاك الشّابُ الذي أتى متأخّرًا على نحوٍ غريب، هو أكثر من انصبّت عليه الشّكوك. والحالُ أنّ الشّابَ لم يكن سوى أندريا.

والمعطيات السّابقة هي على الأرجح ما جعلت مفتّش الشّرطة والدركيّ الذي كان عميدًا، يقصدان باب غرفة أندريا؛ وكان البابُ مواربًا.

قال العميد، وهو ثعلبٌ قديمٌ شبع من الحيل الماكرة التي يلجأ لها المجرمون في الوضعيات المماثلة: - أوه! أوه! إنّ الباب المفتوح إشارةٌ سيّئةٌ! أفضّل أن يكون محكم الإغلاق.

وبالفعل أكدّت الرّسالة القصيرة والمشدّ المتروك الحقيقة المحزنة، أو بالأحرى أيّدتاها.

لقد فرَّ أندريا.

نقول أيّدتا، لأنّ العميد لم يكن من أولئك الذين يركنون إلى حجّةٍ واحدة. فقد أجال البصر حواليه، وغاض بنظره تحت السّرير، وفتح السّتائر، وتفحّص الدواليب، ثمّ توقّف أخيرًا عند المدخنة.

بفضل الاحتياطات التي اتّخذها أندريا، لم يخلّف مروره أيّ أثر على الرّماد.ولكن، مع ذلك تظلّ المدخنة منفذًا، وضمن الملابسات المماثلة لا بدّ من فحص كلّ المنافذ فحصًا دقيقًا.

طلب العميد إذًا حطبًا وقشًّا، وملأ به المدخنة، ثمّ أضرم النّار.

طقطق اللّهب على جدران الآجر؛ وانطلق عمود دخانٍ كثيف عبر مجاري المدخنة، ثم صعد إلى السّماء مثل قذيفة بركانٍ معتمة، لكنّ السّجينَ لم يسقط كما توقّعَ العميد.

ذاك أنّ أندريا الذي تربّى منذ طفولته في مغالبة المجتمع، كان لا يقلّ دهاءً عن دركيٍّ، حتّى وإن ارتفعت رتبة هذا الدّركيّ إلى عميدٍ محترم؛ لذا فقد توقّع النّارَ، فصعد إلى السّطح ومكث مستكينًا لصق الأنبوب.

ولوهلة أمِل في النّجاة، إذ سمع العميد ينادي الدركيّين ويصيح بأعلى صوته: - لقد فرّ.

لكن لمّا مدّ عنقه بهدوءٍ، رأى أنّ الدّركيّين، بدلًا من أن ينصرفا امتثالًا للأمر، ضاعفا من انتباههما. فإنه بدوره أجال البصر حوله: قصر البلديّة، حماقَةُ القرن السادس عشر الهائلةُ، يرتفع مثل جدارٍ مظلم، عن يمينه، وعبر فتحاته، يمكن النّظر إلى كلّ زوايا السّطح وأرجائه، مثلما نغوص بنظرنا في وادٍ من قمّة جبل.

أدرك أندريا أنّه سيرى، رأس العميد يطلّ عبر فتحة من تلك الفتحات.

إن انكشف أمرَه، قُضي عليه؛ ذاك أنّ لا فرصةَ أمامه للإفلات من مطاردةٍ على السّطح. فقرّر إذًا أن ينزل، ليس عبر الطّريق التي أتى منها، ولكن عبر طريق أخرى مماثلةً لها.

بحث بعينيه بين المداخن عن مدخنةٍ لا يصعد منها الدّخان، وبلغها زاحفًا على السّطح، وانزلق عبرها من غير أن يلمحه أحد.

وفي اللّحظة نفسها فُتحت نافذة صغيرة فيقصر البلدية، وبرز منها رأس عميد الدّرك. ولوهلةٍ ظلّ الرّأس ساكنًا كشكلٍ من تلك الأشكال التي تزيّنُ المبنى؛ ثمّ ما لبث أن اختفى مطلقًا تنهيدةً حسرة.

مرّ العميدُ، الهادئ والفخور مثل القانون الذي يمثّله، من وسط الحشدِ المجتمعِ في السّاحة، من غير أن يردّ على مئات الأسئلة التي انهالت عليه، ودخل الفندق.

سأله الدركيّان بدورهما: - وإذًا؟

- وإذًا، يا ابنيَّ، لا بدّ أنّ الهارب قد ابتعد عنّا بمسافةٍ كبيرة، إذ استيقظ منذ الفجر؛ لكنّنا سنرسل رجالًا على طريق فيلير كوتري وطريق نوَيون، ليمشّطوا الغابة، ولا بدّ من الإمساك به.

وما كاد المسؤول المحترم ينطق عبارته بتلك النّغمة المميّزة لعمداء الدّرك، حتّى تردّدت في باحة الفندق صيحةُ رعبٍ، صاحبها رنين جرسٍ مرّتين. فصاح العميد: - ما هذا؟

قال المضيف: - ها مُسافرٌ يبدو مستعجلًا. في أيّ غرفةٍ يرنُّ؟

- الغرفة رقم 3.

- أسرع إليها يا فتى!

وفي تلك اللّحظة تضاعفت الصّيحات والرّنين.

انطلق الصبيُّ في الرّكض. لكنّ العميدَ أوقفه قائلًا: -كلّا؛ إنّ الشخصّ الذي يقرع الجرس، يبدو أنّه يطلب شخصًا آخر غير الصبيّ، وسوف نقدّمُ له دركيًا. من يقيم في الرّقم 3؟

- الشّاب الذي وصل اللّيلة مع أخته في عربة المراسلة، وطلب غرفةً بسريرين.

رنّ الجرسُ للمرّة الثالثة رنّةً مليئةً بالقلق.

صاح العميد: - إليَّ يا سيّدي المفتّش! اتبعني، واحذُ حذوي!

قال صاحب النّزل: - مهلًا، إنّ للغرفة رقم 3 درجان: دُرج خارجيّ، وآخر داخليّ!

قال العميد: - حسنًا، سوف أسلك الدّرج الدّاخليّ. هل القربيناتُ معبّأةٌ؟

- نعم أيّها العميد.

- حسنًا، احرسوا الدّرج الخارجيّ، فإن حاول الفرار أطلقوا عليه النّار؛ إنّه مجرمٌ خطيرٌ بحسب ما يقول التلغراف.

وعلى الفور اختفى العميد، وفي إثره المفتّش، في الدّرج الدّاخليّ، تشيّعهما الهمهماتُ التي سرَت في الحشد بعد ما قاله فيه العميد.

وإليكم ما وقع:

«نزل أندريا بسدادٍ كبيرٍ حتّى قطع ثلثي مسافة المدخنة، لكن لمّا بلغ تلك النّقطة، زلّت قدمه، وعلى الرّغم من ضغطه بيديه، نزل بسرعةٍ، وخاصّة بضجيج، أكبر ممّا أراد. ولم يكن ذلك ليُحدث فرقًا لو أنّ الغرفة كانت فارغة؛ لكن لسوء حظّه كانت الغرفة مسكونة.

«كانت امرأتان تنامان في الغرفة، فأيقظهما الضّجيج. وتسمّر نظراهما في النّقطة التي أتى منها الضّجيج، وعبر المدخنة رأتا رجلًا ينزل.

«إنّ إحدى المرأتين، المرأةُ الشّقراء تحديدًا، هي من أطلقت الصّيحة الرّهيبة التي تردّدت في كامل أرجاء النزل، بينما بادرت الأخرى، وكانت سمراء، إلى حبل الجرس ترجّه بكلّ قوّتها.

«كان أندريا كما نرى فريسة النّحس. صاح شاحبًا، مذهولًا، من غير أن يرى الأشخاص الذين يتوجّه إليهم بالكلام: - أتوسّل إليكم لا تنادوا أحدًا، أنقذوني! لن أؤذيكم!

صاحت إحدى المرأتين: - أندريا القاتلُ!

غمغم كافالكانتي وهو ينتقل من الرّعب إلى الذّهول: - يوجيني! آنسة دانغلار!

صاحت الآنسة دارميلي وهي تنتزع حبل الجرس من يد يوجيني الساكنة وتهزّه بأشدّ ممّا كانت تفعل رفيقتها.

قال أندريا وهو يضمّ يديه: - أنقذاني، إنّهم يلاحقونني! أتوسّل إليكما، الرّحمة، لا تسلّماني!

أجابت يوجيني: - فات الأوان، إنّهم قادمون.

- خبّئاني إذًا في مكانٍ ما، وقولا إنّكما خفتما بلا سبب وجيه للخوف، واصرفا الشّكوك، وهكذا ستنقذان حياتي.

تلفّعت المرأتان بغطائهما، متلاصقتين، وظلّتا صامتتين أمام الصّوت

المتوسّل إليهما، وكلّ مشاعر الخوف والاشمئزاز تتصادم في نفسيهما.

قالت يوجيني: - حسنًا، فليكن! عُد من حيث أتيت أيّها الشقيُّ! انصرف، ولن نقول شيئًا.

صاح صوتٌ بالخارج: - هوذا! هوذا!

الحالُ أنّ العميد قد ألصق عينه بثقب القفل، ولمح أندريا واقفًا يتوسّلُ.

كسرت القفلَ ضربةٌ قويّةٌ من عقب بندقية، وهوى البابُ إلى الدّاخل.

ركض أندريا إلى الباب الثاني المفضي إلى رواق الباحة، وفتحه متأهّبًا للرّكض. لكنّ الدّركيّين كانا هناك حاملين قربينتيهما، فأوقفاه فورًا.

ظلّ أندريا واقفًا، شاحبًا، جسده مقلوبًا إلى الوراء قليلًا، يمسك في يده المتصلّبة مديته عديمة الفائدة.

صاحت الآنسة دارميلي والشّفقة تملأ قلبها بقدر ما يزول منه الخوف: - اهرب!

قالت يوجيني: - أو اقتُل نفسك!

قالتها بنبرة وهيئة عذراء من تلك العذارى اللّواتي كنَّ، في ساحات المصارعة، يرفعن السبّابة إشارةً للمصارع أن يُجهزَ على خصمه المطروح أرضًا.

ارتجف أندريا، ونظر إلى الصبية وابتسم ابتسامة احتقار تؤكّد أنّ نفسه الفاسدة لا تدرك هذا المستوى المهيب من الشّرف.

قال وهو يلقي بمديته: - أقتل نفسي! لم؟

صاحت الآنسة دانغلار: - ألم تقُلها بنفسك؟ سوف يحكمون عليك بالموت، ويعدمونك كما يُعدَم أحقرُ المجرمين!

أجاب كافالكانتي ضامًّا ذراعيه: - باه! للمرء دومًا أصدقاء.

اقترب منه العميد حاملًا سيفَه.

قال كافالكانتي: - أعد سيفك إلى غمده يا سيّدي، لا داعي إلى كلّ هذه الضجّة ما دمتُ أستسلم.

ومدّ يديه للأصفاد.

أخذت الصبيّتان تحدّقان برعب في التحوّل المسخ الذي يجري أمامهما، كيف ينزع الشّابُ إهاب المجتمع الرّاقي، ليرتدي بزّة السّجن.

استدار أندريا صوبهما، وبابتسامة صفيقة قال:

- هل من رسالةٍ أوصلها إلى السيّد أبيك يا آنسة يوجيني؟ فأنا عائدٌ على الأرجح إلى باريس.

أخفت يوجيني رأسها بين يديها.

قال أندريا: - أوه! أوه! ما من داعٍ إلى الخجل، ولا ألومك لأنّك ركبت خيل المراسلة وانطلقت في إثري، ألستُ زوجك في نهاية المطاف؟

ثمّ خرج أندريا تاركًا الهاربتين فريسةً لآلام الخزيّ، وتعليقات الجمع.

ساعةً بعد ذلك، ارتدتا ملابسهما، ملابس النّساءِ، وركبتا في عربتهما. وكان باب الفندق قد أُغلق لحجبهما عن الأنظار؛ لكن ما إن فُتح الباب حتّى كانتا مضطرّتين إلى المرور وسط صفّين من الفضوليّن، تشيّعهما الأنظارُ المتّقدة، وترافقهما الشفاه المُوَشوِشة.

أنزلت يوجيني السّتائر؛ لكنّها، وإن لم تعد ترَى شيئًا، إلا أنّها ظلّت تسمع أصوات السّخرية.

صاحت: «آه! لمَ العالم ليس صحراءً؟»، وهي ترتمي في حضن الآنسة دارميلي، وعيناها تتّقدان بمثل ذاك الغضب الذي جعل نيرون يشتهي أن يكون للمجتمع الرّوماني رأسٌ واحدٌ، حتّى يتخلّص منه بضربةٍ واحدة.

وفي اليوم التالي، نزلتا بفندق فلاندر ببروكسيل.

أمّا أندريا فقد أُلقي به في محبس مبنى البلدية.

99

القانون

رأينا، بأيّ هدوءٍ وطمأنينةٍ استطاعت الآنسة دانغلار والآنسة دارميلي التنكّرَ والهروب. لقد كان الجميع مشغولًا بأموره عن الاهتمام بأمرهما.

وسوف نترك المصرفيّ، متفصّدَ الجبين أمام شبح الإفلاس، يقلّب حجم ديونه الهائلة؛ ونسيرُ في إثر البارونة التي، بعدما ظلّت لوهلةٍ مسحوقةً تحت عنف الضّربة التي أصابتها، قصدت مستشارها المعتاد، لوسيان دُبراي.

ذاك أنّ البارونة في واقع الأمر، كانت تعوّل على هذا الزّواج للتّخلص من وصايةٍ لا يمكن إلا أن تكون مزعجةً حين يتعلّق الأمر بابنةٍ مثل يوجيني؛ ذاك أنّ في أمثال هذه التعاقدات الاجتماعية الضمنية التي تحفظُ النّظام العائليّ متراتبًا، لا تكون الأمُّ سيّدةً على ابنتها إلا متى كانت لها على الدّوام مثالًا للحكمة ونموذجًا للكمال.

والحال أنّ السيّدة دانغلار كانت تخشى تبصّر يوجيني ونُصحَ الآنسة دارميلي، وقد انتبهت غير ما مرّةٍ إلى نظراتِ احتقارٍ ترمي بها ابنتُها السيّدَ دُبراي؛ نظراتٌ توحي بأنّ البنتَ مطّلعةٌ على كلّ ما يجمع أمَّها والسكرتير الخاصَّ من غرامياتٍ وتعاملاتٍ مالية. ولو أنّ البارونة أوّلت الأمرَ تأويلًا أشدّ تبصّرًا وعمقًا لأدركت أنّ نظرات الاحتقار التي ترمي بها الرّجل ليس مردُّها كونُه حجر عثرة وفضيحةفي بيت أبيها، وإنّما لأنّها ببساطة تضعه في خانة الحيوانات من ذوات القائمتين، تلك الحيوانات التي كان ديوجين يسعى إلى ألّا يطلق عليها اسم «الإنسان»، وأفلاطون يصنّفها باعتبارها حيوانات ذوات قائمتين ومعدومة الرّيش.

إنّ السيّدة دانغلار من وجهة نظرها، وللأسف الجميع في هذا العالم يملك وجهة نظره التي تمنعه من أن يرى وجهات نظر الآخرين؛ قلنا إنّ السيّدة دانغلار من وجهة نظرها كانت تأسف على ضياع فرصة زواج يوجيني، ليس لأنّ الزّواج كان مناسبًا، وملائمًا، ويُفترض أن يُسعد ابنتَها، وإنّما لأنّه يعيد إليها حريّتَها.

فكان أن هرعت إذًا، كما أسلفنا، إلى السيّد دُبراي الذي بعدما حضر حفلَ العقد والفضيحةَ من بعده، مثلما حضرتهما باريسُ كلُّها، هرع إلى النّادي، حيث انخرط مع رفاقه في الحديث الذي هو موضوع السّاعة بالنّسبة إلى ثلاثة أرباع هذه المدينة النّمامة التي تُسمّى عاصمة العالم.

وفي اللّحظة التي كانت فيها السيّدة دانغلار، مرتديةً فستانًا أسودَ ومتسترّةً بحجاب، تصعد الدّرج المفضي إلى شقّة دُبراي، على الرّغم من أنّ البواب أكّد لها أنّه غير موجودٍ، قلنا في تلك اللّحظة كان دُبراي في النّادي يدفع عن نفسه تلميحاتِ صديقٍ يرى أنّ بعد الكارثة التي وقعت، من واجبه، بصفته صديق عائلة دانغلار، أن يتزوّج الآنسة يوجيني ومليونَيْها.

وكان دُبراي يدفع عن نفسه التلميحات، دفاعَ الرّجل الذي يطلبُ الهزيمةَ؛ ذاك أنّ تلك الفكرة كثيرًا ما داعبت خيالَه، لكن لمّا كان يعرف الآنسة دانغلار ونزوعها إلى الاستقلال والغطرسة، فقد كان يمارس، بين الفينة والأخرى، المنعَ على نفسه قائلًا إنّ هذا الارتباط مستحيلٌ، تاركًا مع ذلك الفكرة السيّئةَ تراودُه، نلك الفكرة التي، بحسب جميع الأخلاقيّين، تشغل على الدّوام حتّى أنقى النّاس وأطهرَهُم، متربّصةً في قرارته كما يتربّصُ الشّيطانُ خلفَ الصّليب. وقد تواصل حتّى الواحدة صباحًا، الشّايُ، واللّعبُ، والحديث المغري، إذ كما نرى كان حديثًا في أشياء خطيرة.

وأثناء ذلك، كانت السيّدة دانغلار، وقد أدخلها الخادمُ إلى بيت

لوسيان، تنتظرُ، متحجّبةً مستثارةً، في الصالون الصّغير بين سلّتينِ من الزّهور كانت قد أرسلتهما بنفسها صباحًا، وكان دُبراي، والحقُّ يقالُ، قد حرص بنفسه على أن يضعها ويرتّبها ويشذّبها، بعنايةٍ تشفعُ له تأخّره عن المرأة المسكينة.

ولمّا بلغت السّاعةُ الحادية عشرة وأربعين دقيقة، كلّت السيّدة دانغلار الانتظارَ، فصعدت عربتها وعادت إلى منزلها. إنّ نساء الطّبقة الرّفيعة يشبهن النّساء الكادحات في مسألة: نادرًا ما يعدن إلى منازلهنّ بعد منتصف اللّيل. وقد دخلت البارونة إلى المنزل بنفس القدر من الحذر الذي خرجت به يوجيني؛ بهدوءٍ، وقلب منقبض، صعدت الدّرج إلى جناحها الملاصق لجناح يوجيني كما رأينا. كانت تخشى أن تتسبّب في تعليقاتٍ ما؛ كانت المرأة المسكينة، المحترمة في هذا الجانب على الأقلّ، تؤمن إيمانًا راسخًا في براءة ابنتها وإخلاصها لبيت والدها!

فلمّا دخلت غرفتها، تنصَّتت على باب يوجيني، ثمّ إذ لم تسمع أيّ صوتٍ، حاولت الدّخول؛ لكنّ الأقفال كانت مغلقةً.

ظنّت السيّدة دانغلار أنّ يوجيني، بعد ما خلّفته فيها مشاعر السّهرة من تعب، قد آوت إلى فراشها ونامت.

نادت على الخادمة، وسألتها.

أجابت الخادمة: - الآنسة يوجيني دخلت إلى جناحها مع الآنسة دارميلي، وشربتا الشّاي؛ ثمّ صرفتاني قائلتين إنّهما ما عادتا تحتاجانني.

وطيلة ذلك الوقت كانت الخادمة في عملها، تظنُّ، مثلما يظنُّ الجميع، أنّ الشّابتين في غرفتهما.

نامت السيّدة دانغلار إذًا من غير أن تنتابها ذرّة شكّ؛ لكن، لما أطمأنّت على الأفراد، فقد التفت ذهنُها إلى الحوادث. وبقدر ما كانت الأفكار تتّضح في رأسها، بقدر ما كانت أبعاد مشهد توقيع العقد تتعاظمُ. لم يعد الأمر فضيحةً، وإنّما كارثة؛ لم يعد مجرّد حدث مخجلٍ، وإنّما عارًا.

ورغمًا عنها تذكّرت البارونة أنّها لم تُشفق على المسكينة مرسيدس التي أصابها، في ولدها وزوجها، مصابٌ لا يقلُّ خطورةً.

قالت: - لقد ضاعت يوجيني، وضعنا معها. سوف تُقدّمُ القضيةُ بشكلٍ يغمرنا خزيًا؛ لأنّ في مجتمعٍ، كمجتمعنا هذا، تظلُّ بعض الإهانات جروحًا حيّةً، داميةً، لا تندملُ. لكن، لحسن الحظّ أنّ الربّ قد حبا يوجيني ذاك الطّبع الغريب الذي كثيرًا ما أخافني!

ثمّ رفعت نظرةً ممتنّةً إلى السّماء التي تدبّرُ أقدارُها الأمورَ مسبقًا، حتّى إنّها قد ترزق المرء عيبًا، أو حتّى نقيصةً، تكون هي سبب سعده. ثمّ حلّق فكرها مخترقًا الفضاء، كما يحلّق الطّائر فاردًا جناحيه في الهاوية، وتوقّف عند كافالكانتي.

أندريا ذاك كان حقيرًا، لصًا، قاتلًا؛ ومع ذلك كان يملك أدبًا يدلُ على أنّه تلقى نصف تعليم، أو حتّى تعليمًاكاملًا؛ لقد أتى هذا المدعو أندريا وقدّم نفسه في أوساطنا بمظهر من يملك ثروة عظيمة، مدعومًا من طرف أسماء مقدّرَةٍ.

كيف تستطيع أن ترى بوضوح وسط هذه المتاهة؟ لمن تلجأ للخروج من هذا الوضع القاسي؟

إنّ دُبراي الذي هرعت إليه بدافع المرأة التي تلجأ، أوّل ما تلجأ، إلى الرّجل الذي تحبّه، لكنّ دُبراي لا يملك لها إلا النّصح؛ لا بدّ لها من أن تلوذ بشخص أشدَّ نفوذًا وقوّة.

فكّرت البارونة إذّاك في السّيّد دو فيلفور. إنّ السّيد دو فيلفور هو من أراد اعتقال كافالكانتي، هو من أثار الفوضى، بلا شفقة، في قلب عائلته، كأنّها عائلةٌ غريبة عنه.

لكن كلّا؛ حين تفكّر في الأمر، لا ترى أنّ وكيل الملك رجلٌ عديمِ الشّفقة؛ إنّما هو قاضٍ عبدٌ لواجبه، صديقٌ مخلصٌ وحازمٌ، أعملَ المشرطَ بوحشيةٍ، لكن بيدٍ واثقةٍ، في الورم. إنّه ليس جلّادًا، وإنّما

جراحًا أراد أن يفصل، أمام الجميع، شرفَ آل دانغلار عن خزي هذا الشّاب الضّائع الذي قدّموه هم إلى العالم، باعتباره صهرهم.

وما دام السيّد فيلفور، صديق العائلة، يتصرّف على هذا النّحو، فلا مجال للافتراض بأنّ وكيل الملك كان يعرف شيئًا مسبقًا، أو شارك في مخطّطات أندريا.

ولمّا فكّرت البارونة في سلوك فيلفور من تلك الزّاوية المختلفة، بدا لها أنّه يصبّ في مصلحتهم المشتركة.

لكن، عند هذا الحدّ ينبغي أن تتوقّف صلابةُ وكيل الملك؛ ستذهب إليه غدًا وستقنعه بأن يخلّ بواجبه القضائي، أو على الأقلّ أن يمنحهم هامشًا من التّساهل.

سوف تستدعي البارونة الماضي؛ تجدّد ذكريات فيلفور، تتوسّل إليه بأيّام كانا فيها مذنبين ولكنْ سعيدين؛ وسوف يكتم السيّد دو فيلفور القضيّة، أو على الأقلّ سوف يترك (وليفعلَ ذلك، يكفي أن يلتفت بنظره إلى جهةٍ أخرى)، يترك كافالكانتي يفرّ، فلا يتابع ' إلا ضدّ الخيال المجرم الذي نسمّيه «محكومًا غيابيًا».

وإذّاك فقط استطاعت البارونة أن تنام مرتاحةً أكثر.

وفي اليوم التّالي، عند السّاعة التّاسعة، استيقظت، ومن غير أن تنادي خادمتها، أو تصدر إشارة تدلُّ على وجودها، ارتدت ملابسَ ببساطة الملابس التي ارتدتها أمس، وغادرت المنزل، فمشت حتّى شارع بروفانس، ثمّ استقلّت عربة أجرة، وطلبت من الحوذيّ أن يقلّها إلى منزل السيّد دو فيلفور.

منذ شهر وهذا المنزل الملعون تهيمنُ عليه صورةُ لازاريتو[1]ظهر فيه

---

(1) الكلمة إيطالية الأصل، ومعناها المحجر البحري، وهي إقامة للحجر الصحيّ يُنزل فيها المسافرون بحرًا.

الطّاعون؛ فالمصاريع تظلُّ مغلقةً لا تُفتح إلا لحظةً ليدخل منها الهواءُ؛ فيظهر إذّاك من النّافذة، رأسُ خادمٍ مرعوب؛ ثمّ لا تلبث النّافذة أن تنغلق، مثل لوح قبر ينزلُ على لحدٍ فيسدُّه.

فيتهامسُ الجيرانُ: - هل سنشهد اليوم أيضًا جنازةً تخرجُ من بيت وكيل الملك؟

ارتجفت السيّدة دانغلار وهي تتأمّل مظهر هذا المنزل المحزن؛ نزلت من العربة، وبركبتين راجفتين اقتربت من الباب المقفل وقرعت الجرس. وفقط بعد أن رنّ الجرسُ للمرّة الثالثة، رنّةً كئيبة كأنّما يأبى إلا أن يشارك في جوّ الحزن العامّ، أتى خادمٌ يفتح الباب بالقدر الذي يكفي فقط لتمرّ كلماته؛ رأى امرأةً، امرأةً من عليّة القوم، امرأةً أنيقة الملبس، ومع ذلك ترك الباب شبه مغلق.

قالت البارونة: - هيّا، افتح الباب!

سألها البوّابُ: - أوّلًا، من أنت يا سيّدتي؟

- من أنا؟ لكنّك تعرفني حقَّ المعرفة.

- ما عدنا نعرفُ أحدًا يا سيّدتي.

صاحت البارونة: - لا بدّ أنّك مجنون يا صديقي!

- من طرف من أتيت؟

- أوه! هذا كثير.

- آسف يا سيّدتي، إنّها الأوامرُ؛ ما اسمك؟

- السيّدة البارونة دانغلار. لقد رأيتني عشرين مرّةً من قبل.

- واردٌ يا سيّدتي؛ والآن ماذا تريدين؟

- أوه! ما أغربك يا سيّدي! سوف أشتكي للسيّد دو فيلفور وقاحة خدمه.

- ليست وقاحة يا سيّدتي، إنّما فقط احتراز. لا أحد يدخل هنا إلا بإذنٍ من السيّد دافرينيي، أو علمٍ من السيّد وكيل الملك.

- والسيّد وكيل الملك تحديدًا هو من أتيت أتحدّث إليه.
- في أمر مستعجل؟
- لا بدّ أنّك ترى ذلك، ما دمتُ لم أصعد عربتي بعد. لكن، لننهي هذا الجدال: هاك بطاقتي، فاحملها إلى سيّدك.
- وسوف تنتظرُني سيّدتي إلى أن أعود؟
- نعم، هيّا.
أغلق البوّابُ البابَ، تاركًا السيّدة دانغلار في الشّارع.
والحقُّ أنّ الانتظار لم يطُل بالبارونة؛ لحظةً بعد ذلك فُتح البابُ مرّةً أخرى، وهذه المرّةً فُتح بما يكفي لمرور البارونة. مرَّت، وانغلق البابُ خلفَها.
فلمّا بلغ البوّابُ الباحة، أخرجَ، من غير أن يحيد ببصره عن الباب لحظةً، من جيبه صفّارةً، وصفّر فيها.
ظهر خادمُ السيّد دو فليفور عند عتبة المدخل.
قال وهو يستقبل البارونة: - لتعذر سيّدتي هذا الرّجل الطيّب.فقد تلقّى أوامر صارمة، وقد كلّفني السيّد دو فيلفور بأن أعتذر لك وأقول لك إنّه لم يكن يستطيع أن يفعل غير ما فعل.
وفي الباحة كان مموّنٌ قد أُدخل بنفس الاحتياطات التي أُدخلت بها هي، وشُرع في فحص البضاعة.
صعدت البارونة العتبة؛ كانت تحسُّ في نفسها أثرًا عميقًا من هذا الحزن الذي يزيد دائرةَ حزنها اتّساعًا، إن جاز لنا التّعبير؛ ثمّ أدخلها الخادمُ إلى مكتب القاضي، من غير أن يغفل عنها بصرُه لحظةً.
وعلى الرّغم من انشغال السيّدة دانغلار بما أتت لأجله، إلا أنّ الطّريقة التي استقبلت بها بدت لها مهينةً، فبدأت تتذمّر. لكن لمّا رفع إليها فيلفور رأسه الذي سحقتهُ الآلام، ونظرَ إليها بابتسامةٍ حزينة، تبدّدت عبارات التذمّر في فمها.

- اعذري خدمي على رعبهم الذي لا يمكن أن أحاسبهم عليه. فلأنّهم مشكوك فيهم، فقد صاروا يشكّون في الجميع.

كثيرًا ما سمعت السيّدة دانغلار في الأوساط الاجتماعية الحديث عن هذا الرّعب الذي يخيّم على منزل وكيل الملك؛ لكنّها لم تكن قطّ لتصدّق أنّ الأمور قد بلغت هذا الحدّ، لولا أنها رأت بعينيها.

قالت: - أنت أيضًا شقيٌّ؟

أجاب القاضي: - نعم يا سيّدتي.

- وتشفق عليّ إذن؟

- شفقةً صادقةً يا سيّدتي!

- وتدرك سبب مجيئي؟

- أتيت تتحدثين معي في ما يقع لك، أليس كذلك؟

- أجل يا سيّدي، مصيبةٌ رهيبة.

- بل قولي: «حادث تعيس».

صاحت البارونة: - حادث تعيس!

أجابها وكيل الملك بهدوئه الذي لا يزحزحه شيء: - واأسفًا يا سيّدتي! لقد خلصتُ إلى أنّي لا ينبغي أن أسمّي مصائبَ إلا الأشياءَ التي لا سبيل إلى إصلاحها.

- وهل تظنُّ يا سيّدي أنّ ما وقع سيُنسى؟

قال فيلفور: - كلّ شيء يُنسى يا سيّدتي؛ كذلك سينسى زواج ابنتك غدًا إن لم ينسَ اليومَ، فإن لم يكن، فبعد غدٍ، فإن لم يكن، فبعد ثمانية أيّام. أمّا مستقبل ابنتك، فلا أظنُّ أنّك تأسفين له.

نظرت السيّدة دانغلار إليه، مذهولةً من هدوئه الذي يكاد يكون سخرية. وقالت بنبرةٍ تملأها الكرامةُ الموجعة: - هل أتيتُ عند صديق؟

أجابها فليفور: - تعرفين أن الجواب «نعم» يا سيّدتي.

وعلت وجهه حمرةٌ خفيفةٌ وهو ينطق كلماته المؤكّدةَ تلك. فالتّأكيد يُلمح إلى حوادث أخرى غير تلك التي تشغلهما الآن، هو والبارونة.

قالت البارونة: - وإذًا، كلّمني على نحو أكثر لطفًا يا عزيزي فيلفور، كلّمني كلام الصّديق وليس كلام القاضي، وحين تراني في شقاءٍ شديدٍ، لا تطلب منّي أن أكون فرحةً.

انحنى لها فيلفور، وقال: -منذ ثلاثة أشهرٍ، اتّخذتُ يا سيّدتي، تلك العادة السيّئة، أقصد عادة أن أفكّر في مصائبيَ كلّما ذُكرت لي مصائبُ غيري يا سيّدتي؛ إنّ ذهني يقوم رغمًا عنّي بهذه المماثلة الأنانية. ولهذا السّبب تبدو لي مصائبُك، مقارنةً بمصائبي، مجرّد حوادث تعيسة؛ ولذا تبدو لي وضعيّتك، مقارنة بوضعيّتي الجنائزية، وضعيةً تحسدين عليها؛ لكنْ طبيعيٌّ أنّ يثير هذا الأمر حفيظتك. ماذا كنت تقولين إذًا يا سيّدتي؟

استأنفت البارونة الكلام: - أتيت أستعلم منك يا صديقي أين وصلت قضيّةُ النّصّاب؟

كرّر فيلفور: - نصّاب! يبدو أنّك يا سيّدتي مصرّةٌ على تهويل أمورٍ، وتخفيف أخرى! تقولين إنّ السيّد أندريا كافالكانتي، أو بالأحرى السيّد بينيديتو نصّاب! أنت مخطئةٌ يا سيّدتي، السيّدُ بينيديتو قاتلٌ بكلّ معنى الكلمة!

- سيّدي، أنا لا أنكر صدق قولك؛ لكن كلّما شدّدت في الضّرب على هذا التّعيس، إلا وطالت شدّة الضّربة عائلتنا. تغافل عنه قليلًا، وبدلًا من مطاردته، دعهُ يفرّ.

- أتيتِ متأخّرةً يا سيّدتي، إنّ الأوامر قد صدرت.

- حسنًا فإن اعتُقل... هل تظنُّه سيعتقل؟

- أرجو ذلك.

- فإن اعتُقل، (وأعلم أنّ السّجون دائمًا ممتلئةٌ تفيضُ بالمعتقلين)، اتركه في السّجن.

أشار لها وكيل الملك إشارة رفض.

فأضافت البارونة: - على الأقلّ لا تحاكمه حتّى تتزوّج ابنتي.

- مستحيل يا سيّدتي؛ إنّ للعدالة مجرياتٍ ينبغي أن تتبعها.

قالت بتعبير نصفُه ابتسامة، نصفه عبوس: - حتّى بالنّسبة إليّ أنا؟

أجابها فيلفور: - بالنّسبة إلى الجميع، حتّى أنا.

قالت البارونة: - آه! (ولم تضف كلمة لتلك الآهة التي عبّرت عن كلّ ما فيها).

نظر إليها فيلفور بتلك النّظرة التي ينفذ بها إلى أعماق النّفوس.

استأنف الكلام: - نعم، أعرف ما ترغبين في قوله، أنت تلمّحين إلى تلك الإشاعات الرّائجة في الأوساط، الإشاعات التي تروّج للموت الذي ينشر على منزلي عباءة الحداد، منذ ثلاثة أشهر؛ الإشاعات التي ترى أنّ الموت الذي أفلتت منه فالانتين بمعجزةٍ، ليس موتًا طبيعيًا!

أجابت السيّدة دانغلار بسرعة: - لم أكن أفكّر في هذا البتّة.

- بلى، كنت تفكّرين في ذلك يا سيّدتي، وهذا حقّك، لأنّك لا تستطيعين غير ذلك. وكنت تهمسين في سرّك: أنت الذي تلاحق الجريمة، أجبني: لمَ حولَك جرائمُ لم يُعاقب مرتكبوها؟

بهتت البارونة.

فأكمل: - هذا ما كنت تقولينه، أليس كذلك يا بارونة؟

- حسنًا، اعترفُ.

- وسوف أجيبك.

قرّب فيلفور مقعده من كرسيّ السيّدة دانغلار؛ ثمّ أسند ذراعيه إلى مكتبه، وتكلّم بصوتٍ أخفض من المعتاد: - ثمّة جرائم تظلُّ بلا عقاب، لأنّنا لا نعرف المجرمين، ونخشى أن نقطع رأسًا بريئًا بدلًا من المذنبِ؛ لكن حين ينكشف هؤلاء المجرمون (ومدّ فيلفور يده إلى صليب موضوع مقابل مكتبه، وكرّر القول)، حين ينكشف هؤلاء المجرمونَ، أقسم بالربّ أنّ رؤوسهم ستُقطعُ يا سيّدتي! والآن، بعد القسم الذي أقسمته أمامك يا سيّدتي، القسم الذي سوف أحفظه، هل لك أن تجرئي فتطلبي منّي الرّحمة لذاك البائس!

قالت السيّدة دانغلار: - إه! هل أنت متأكّدٌ من أنّه مذنبٌ فعلًا يا سيّدي؟

- أصغي إليّ، ها هو ملفّه: بينيديتو، حُكمَ أوّلًا بخمس سنوات بتهمة التّزوير، وهو في السّادسة عشرة؛ ترين أنّه مجرمٌ واعدٌ: مسجونٌ، ففارٌ، ثمٌّ قاتل.

- ومن يكون هذا الشّقيّ؟

- إه! ومن يدري! متشرّدٌ، كورسيكيّ.

- لم يسأل عنه أحدٌ إذًا؟

- لا أحد؛ لا نعرف له أهلًا!

- والرّجلُ الذي أتى من لوكا؟

- محتالٌ آخرُ مثله، شريكه ربّما!

ضمّت البارونة يديها، وقالت بألطف نبرةٍ وأعذبها: - فيلفور!

أجابها وكيل الملك بصرامة لا تخلو من فظاظة: - بحقّ الربّ يا سيّدتي! بحقّ الرّب، لا تطلبي أبدًا العفو لمذنب. من أنا؟ أنا القانون. فهل للقانون عينان يرى بهما حزنك؟ هل للقانون أذنان يسمع بهما صوتك العذب؟ هل للقانون ذاكرةٌ يستعيد بها كلّ تلك الذكريات الطّيبة التي تلمّحين إليها؟ كلاّ يا سيّدتي، إنّ القانون يأمُر، وحينَ يأمرُ القانون، يضربُ. قد تقولين إنّني كائنٌ حيٌّ ولستُ مدوَّنةً؛ رجلٌ ولست مجلّدًا. لكن، أجيلي البصر حولي يا سيّدتي: هل عاملني النّاسُ معاملة الأخ؟ هل أحبّوني؟ هل تركوني وشأني؟ هل رحموني؟ لا! لا! لا! الضّربُ، ولا شيء غير الضّرب! تصرّين يا سيّدتي على الحديث إليّ بنظرتك الفاتنة التي تذكّرني بأنّ عليّ أن أخجل. فليكُن، أنا أخجل ممّا تعرفينَه، وربّما أخجل أيضًا من أشياء أخرى. لكن، منذ أن عرَّيتُ نفسي وكشفتُ بواطنها، أكثر ممّا عرَّيت الآخرين؛ أقول لك، منذ أن عرّيتُ نفسي، صارت سعادتي تعريةَ الآخرين، أن أنزع عنهم قمصانهم وأكشف ما تحتها من تقرّحات، ودومًا أنجح في ذلك؛ لا بل قد أقول أكثر: لطالما

عثرتُ بسعادة، بفرح، على هذا المخبوء البشريّ الذي قوامه الضّعف والانحراف. ذلك أنّ في كلّ مذنب أكشفه، في كلّ مذنب أعاقبه، أرى دليلًا جديدًا، دليلًا حيًّا، على أنّني لَم أكن استثناءً شنيعًا. واأسفًا! واأسفًا يا سيّدتي! واأسفًا! جميع النّاس أشرارٌ، فلنجد الحجّة على الجرم ولنضرب المجرم.

نطق فيلفور كلماته الأخيرة تلك بغضبٍ محمومٍ أصبغ على كلامه بلاغةً ضاريةً.

استأنفت السيّدة دانغلار محاوِلةً محاوَلةً أخيرةً: - لكنّك تقول إنّ هذا الشّابَ متشرّدٌ، يتيمٌ، تخلّى عنه الجميع؟

- وإن، وإن، لعلّ هذا أفضل؛ ربّما جعله القدرُ كذلك لكي لا يبكي على فقده أحد.

- هذا يعني التّكالب على الضّعيف يا سيّدي.

- الضّعيف الذي هو قاتل!

- عارُه سيطالُ بيتي.

- وبيتي أنا، ألم يطله الموت؟

صاحت البارونة: - أوه يا سيّدي، أنت لا تشفق على أحد. لذا أقول لك: لا أحد سيشفق عليك!

قال فيلفور وهو يرفع إلى السماء ذراعًا متوعّدةً: - فليكن!

- أجِّل، على الأقل، محاكمة هذا الشّقي، إن اعتُقل، للجلسات القادمة؛ سيمنحنا هذا التّأجيل ستّة أشهر إضافية، نُنسى فيها.

قال فيلفور: - كلّا؛ لا تزال أمامي خمسة أيّام؛ لقد صدرت التعليمات؛ خمسة أيّام مدّةٌ تفوق ما أحتاجه؛ ثمّ، ألا تدركين يا سيّدتي أنّني أنا أيضًا أحتاج أن أنسى؟ حين أعملُ، وأنا أعملُ بالعادة ليل نهار، أقول، حين أعملُ تأتي عليّ أحيانٌ أنسى فيها كلَّ شيءٍ، فأصير سعيدًا. هي سعادة الموتى، لكنّها أفضل من الألم.

- سيّدي، لقد فرّ؛ فاتركه يفرُّ، إنّ عدم الفعلِ عفوٌ سهلٌ.

- لكنّي قلت لكِ إنّ الأوان قد فات! لقد انطَلق التلغراف منذ الصّباح الباكر، وفي هذه السّاعة...

دخل الخادمُ قائلًا: - سيّدي، لقد أتى فارسٌ حاملًا هذه الرّسالة من وزارة الدّاخلية.

أمسك فيلفور الرّسالة وفتحها بسرعة. ارتجفت السيّدة دانغلار من الرّعب. وانتفض فيلفور فرحًا.

صاح: - اعتُقل! لقد اعتُقل بكونبييني؛ قُضي الأمر.

قامت السيّدة دانغلار باردةً شاحبة. قالت: - وداعًا يا سيّدي.

أجابها وكيل الملك، وهو يرافقها إلى الباب شبه جذلٍ: - وداعًا يا سيّدتي.

ثمّ عاد إلى مكتبه، فضرب على الرّسالة بظهر يده اليمنى قائلًا: «طيّب، كانت عندي قضيّة تزوير، وثلاث سرقات، وثلاث قضايا إضرام نار، لم يكن ينقصني إلا جريمة قتل، وها هي: ستكون الدورةُ جميلةً».

100

الطّيف

مثلما قال وكيل الملك للسيّدة دانغلار، فإنّ حال فالانتين لم تكن قد تحسّنت بعد.

فإذ قوّضَها التعبُ، لازمت فراشها بغرفتها، ومن فم السيدة دو فيلفور فقط تلقّت الأخبارَ التي قصصناها آنفًا، أي خبرَ هروب يوجيني، وإلقاء القبض على أندريا كافالكانتي، أو بالأحرى بينيديتو، واتّهامه بجريمة قتل؛ على أنّ فالانتين كانت في حالٍ من الوهن بحيث لم يُحدِث فيها الخبرُ الأثرَ الذي كان يمكن أن يحدثه فيها وهي في حالتها الطبيعية.

الحال أنّها لم ترَ في كلّ ذلك إلا أفكارًا مبهمةً، قوىً خائرةً، خالطتها الهواجسُ الغريبةُ والأشباحُ المتفلّتة، تولَدُ في ذهنها المريض وتعبر أمام عينيها، ثمّ لا تلبث أن تتبدّد مفسحةً المجال لأحاسيسها الشخصيّة.

أثناء النهار كانت فالانتين لا تزال متّصلة بالواقع، بفضل السيّد نوارتييه الذي نُقل إلى غرفة حفيدته وصار يقيم فيها، غامرًا الفتاة بنظرته الأبوية؛ ثمّ ساعة يرجع فيلفور من عمله كان يقضي ساعتين أو ثلاثًا بين والده وابنته.

في السادسة انزوى فيلفور بغرفته، وفي الثامنة وصل دافرينيي الذي كان يحمل بنفسه الجرعة المسائية المعدّة للصبيّة؛ ثمّ أُعيد نوارتييه إلى غرفته.

وحلّت محلَّ الجميعِ ممرّضةٌ عيّنها الدكتور، ولم تنصرف إلا حوالى العاشرة مساءً لمّا نامتَ فالانتين. وحين نزلت سلّمت مفاتيح غرفة

فالانتين إلى السيّد دو فيلفور شخصيًا، بحيث لا أحد كان يستطيع أن يدخل على المريضة من دون أن يعبر جناح السيدة دو فيلفور وغرفة الصغير إدوارد.

وكلّ صباح كان موريل يقصد نوارتييه ليستعلم عن أحوال فالانتين، على أنّ الشيء الباعث على الغرابة هو أنّ موريل كان يبدو، يومًا عن آخر، أقلّ اهتمامًا.

أولًا، كانت حالُ فالانتين تتحسّنُ، يومًا عن يوم، وإن ظلّت فريسةَ اهتياج عصبيٍّ حادٍّ؛ ثمّ ألم يقُل له الكونت مونت كريستو، حين هرع إلى بيته ذاهلًا، إنّ فالانتين إن لم تمت في ساعتين، فسوف تنجو؟ وها أربعة أيام مرّت وفالانتين لا تزال على قيد الحياة.

وكان ذاك التهيّج العصبيّ الذي ذكرناه يلاحق فالانتين حتى نومها، أو بالأحرى حتى الغفوة التي تلي سهرها. إذّاك، في هدأة الليل وصمت شبه العتمة التي ينشرها المصباح الموضوع على المدفأة متوقّدًا في غشائه المرمريّ، قلنا إذّاك كانت تتراءى لها الأطيافُ التي تعمر غرف المرضى، وتهزُّها الحمّى بأجنحتها الرّاجفة.

فطورًا تتراءى لها زوجة أبيها تتوعّدها، وتارة ترى موريل يمدّ لها يدَه، وأحيانًا يتبدّى لها أشخاص غرباء تمامًا عن حياتها اليومية، مثل الكونت مونت كريستو؛ وإنّ هذيانها، في تلك اللّحظات، ليمتدُّ حتّى الأثاث فيصوّرُه لها يتحرّك ويهيم؛ ويستمرّ الوضع كذلك حتّى السّاعة الثانية أو الثالثة صباحًا، وإذّاك فقط يستولي على الصّبية نومٌ ثقيلٌ، فيقودها حتّى الصّباح.

وفي المساء الذي تلا الصّباح الذي علمت فيه فالانتين بهروب يوجيني واعتقال بينيديتو، وبعد أن امتزج كلّ ذلك، لوهلةٍ بأحاسيسها عن وجودها الشّخصيّ، ثمّ بدأت الحوادث السّابقةُ تخرج شيئًا فشيئًا من فكرها؛ وبعد أن انسحب تواليًا، السيّد دو فيلفور، ودافرينيي، ونوارتييه،

بينما كنيسة سان فيليب راوول تدقّ معلنةً السّاعة الحادية عشرة؛ وانصرفت الممرّضةُ، بعدما وضعت طوع يد المريضة المحلولَ الذي حضّرَه الدّكتور، وأغلقت باب غرفتها، وأخذت تنصت من الغرفة التي انسحبت إليها، إلى تعليقات الخدم، فتعمر ذهنَها الحكاياتُ المفجعة التي منذ ثلاثة أشهرٍ وهي تؤثث ليالي بهو وكيل الملك؛ قلنا، أثناء ذلك كلّه، كان يجري مشهدٌ غير متوقّع في الغرفة المغلقة بإحكام.

كانت قد مرّت عشر دقائق على انصراف الممرضة. وكأنت فالانتين التي تفترسها منذ ساعةٍ الحمّى التي تأتيها كلّ ليلةٍ، قد تركت رأسَها الذي ما عاد يطاوع إرادتَها، يواصلُ عمله النّشيط الرّتيب العنيد، نقصد عملَ الدّماغ الذي ينهك نفسَه وهو يعيد بلا انقطاع إنتاج نفس الأفكار أو توليد نفس الصّور.

من شرارة مصباح السّرير كان يندفع ألفُ شعاع وشعاع تطبعُها جميعًا دلالاتٌ عجيبة، وفجأةً هيّئَ لفالانتين أنّها قد رأت، في انعكاس المصباح المتماوج، المكتبةَ الموضوعة جنبَ المدفأةِ في تجويف حائط، تنفتحُ ببطءٍ من غير أن تصدر مفصلاتها أيَّ صرير.

ولو أنّ الأمر وقع ضمن ملابسات أخرى، لكانت فالانتين سارعت إلى الجرس، فسحبت حبله الحريرَ وهي تصرخ طالبةً النّجدة. لكن في الوضع الذي توجد فيه، ما عاد شيءٌ يدهشها. كانت ترى أنّ كلّ ما يتجلّى من رؤىً، ما هو إلا من بنات هذيانها، وإنّ ما يجعل هذا الاعتقادَ يرسخ في نفسها، هو أنّه ما إن يحلّ الصّباح حتّى تتبدّد كلّ تلك الرّؤى والأشباح عن آخرها.

خلف الباب ظهرت هيئةٌ بشرية. وبفضل الحمّى التي لازمتها، كانت فالانتين قد ألفت توهّمَ أمثالِ هذه الأشباح، فلم تخَف؛ إنما فقط فتحت عينيها راجيةً أن ترى في الشّبح موريل.

واصلت الهيئةُ التقدّمُ نحو سريرها، ثمّ توقّفت، وبدا أنّها تتسمّع

بانتباه كبير. وفي تلك اللّحظة انعكس على وجه الزائر اللّيلي شعاعٌ من أشعّة المصباح.

غمغمت: «ليس هو!». وانتظرت، مقتنعةً بأنّها في حلم، أن يختفيَ هذا الرّجلُ أو يتحوّل إلى شخص آخر، مثلما يحدث في جميع الأحلام.

على أنّها جسّت نبضها، فألفَته عنيفًا، وتذكّرت أنّ أمثل طريق لمحو تلك الرّؤى هي أن تشرب. إنّ الانتعاش الذي يحمله لها الشّرابُ الذي أُعدَّ خصيصًا لتهدئتها، يخفّض درجة حرارتها، فتتجدّد إحساساتُ الدّماغ؛ كلّما شربت، سكنت آلامُها برهةً.

مدّت فالانتين إذًا يدها لكي تتناول كأسها من فوق صحنها الكريستال؛ لكن، بينما تمدُّ ذراعها راجفةً، اقترب الطّيفُ بإيقاع أسرعَ، خطا خطوتين نحو سريرها، ودنا منها حتّى سمعت الصبيّةُ أنفاسَه وبدا لها أنّها تحسُّ بضغط يده.

هذه المرّة تجاوزَ التوهُّم، أو بالأحرى الحقيقةُ، كلّ ما سبق لفالانتين أن أحسّت به حتّى الآن؛ بدأت تحسّ نفسها حقًّا مستيقظةً وحيّةً؛ أدركت أنّها واعيةٌ وعاقلةٌ تمام الوعي والعقل، فارتعدت.

إنّ الضّغط الذي أحسّت به فالانتين كان يهدف إلى إيقاف ذراعها، وقد سحبتها الصبيّةُ إليها ببطءٍ. إذّاك اقتربت الهيئةُ التي لا يستطيع البصرُ تمييزَها، لكنَّ ملامحها تبدو مسالمةً أكثر منها متوعِّدة؛ تناولت الهيئةُ الكأسَ، ودنت من المصباح، فأخذت تتفحّص المشروب كأنّما تريد أن تحكم على شفافيته ونقائه.

غير أنّ هذا الاختبار لم يكن كافيًا. فعمد الرّجُل، أو بالأحرى الطّيفُ، إذ كان يتحرّك بهدوءٍ حتّى إنّ البساط يكتم خطواته؛ قلنا عمدَ الرّجلُ إلى ملعقةٍ فصبّ فيها من محتوى الكأس، وشربه. وظلّت فالانتين ترقب ما يجري حولها في ذهولٍ عظيم.

كانت تظنُّ ظنَّ اليقين أنّ كلّ ذلك لن يلبث أن يختفي فاسحًا المجالَ

لمشهدٍ آخرَ يحلّ محلَّه؛ لكنّ الرّجل، بدلًا من أن يتبدّد كالخيال، دنا منها، ومدّ لها الكأس قائلًا بصوتٍ يفيض عذوبةً:

«الآن، اشربي!...».

انتفضت فالانتين. لأول مرّة تتحدّث إليها رؤيا من رؤاها بهذه النّبرة الحيّة. ففتحت فمها لتصرخ، لكنّ الرّجل وضع إصبعًا على شفتيه.

همست: - سيّدي الكونت دو مونت كريستو.

من الرّعب الذي يرتسم في عينيّ الصّبية، وارتجاف يديها، وتكوّمها سريعًا تحت غطائها، نستطيع أن نستشفّ آخر أنفاس الشكّ وهو يقاوم اليّقينَ؛ غير أنّ حضور الكونت مونت كريستو عندها في هذه السّاعة، ودخولَه عليها، عبر الجدار، بطريقة عجيبةٍ غريبة، لا تفسير لها؛ كلّها أمورٌ تبدو مستحيلةً، ويهتزُّ لها المنطق.

قال الكونت: - لا تنادي أحدًا، ولا تخافي، وأخلي قلبك من أيّ ذرّة شكّ أو قلق؛ إنّ الرّجل الذي ترينه أمامك (وهذه المرّة أنت محقّةٌ يا فالانتين، لستُ وهمًا)، الرّجل الذي أمامك هو أحنُّ أبٍ وأخلصُ صديقٍ قد تتمنّينه.

لم تجد فالانتين ما تجيب به. كانت مرعوبةً أشدّ الرّعب من هذا الصّوت الذي يؤكّد لها واقعيّةَ من يكلّمُها، حتّى إنّها ما جرؤت على أن تخالط صوتها بصوته؛ لكنّ نظرتها المرعوبة كانت تقول: إن كانت نيّاتك حسنةً، فلمَ أنت هنا؟

وبتبصّره المذهل أدرك الكونت كلّ ما يعتمل في قلب الصبيّة، وقال: - أصغي إليّ؛ أو بالأحرى، انظري إليّ؛ هل ترين عينيَّ أشدَّ احمرارًا من المعتاد ووجهي أشدّ شحوبًا؛ ذاك أنّني منذ أربع ليالٍ ما غمض لي جفنٌ، ولا للحظةٍ؛ منذ أربع ليالٍ وأنا أسهر عليك، أحميك، وأحفظك لصديقنا ماكسيميليان.

وعلى الفور صعد إلى خدَيّ المريضة دفقُ دم مرح؛ ذاك أنّ الاسم الذي نطقه الكونت بدّد آخر ما بقي من توجّس في نفس الصبيّة.

كرّرت الصبيّةُ الاسم لفرط ما أحسّت به عذبًا في فمها: - ماكسيميليان! ماكسيميليان!هو من أرسلك إذًا. هل اعترف لك إذًا بكلّ شيء؟

- لقد قال لي إنّ حياتَه هي حياتُك، فوعدتُه بأنّك ستعيشين.

- وعدته بأن أعيش؟

- نعم.

- الحقّ يا سيّدي أنّك تكلّمت عن الحذر والوقاية. فهل أنت طبيب؟

- أجل، أفضل طبيب قد تجود به عليك السّماء في هذا الظّرف، ثقي بي.

سألته الصّبية قلقةً: - تقول إنّك سهرت عليَّ؛ أين؟ أنا لم أرَك.

مدّ الكونت ذراعه باتّجاه المكتبة.

قال: - كنت مختبئًا هناك، خلف المكتبة، إنّ خلفها بابًا يفضي إلى المنزل المجاور الذي اكتريتُه.

أشاحت الصبيّة بعينيها، في حركة تعفّف، وبرعب رفيع قالت: - إنّ ما فعلته يا سيّدي حماقةٌ لم يُعرف لها مَثلٌ، وما تدّعي أنّه حمايةٌ لي، إنّما أرى فيه إهانةً.

قال: - فالانتين، طيلة هذا السّهر الطّويل لم أرَ إلا هذه الأشياء. من كان يزورك، ماذا كنت تُطعَمين، وماذا كنت تُسقَين؛ وحين يبدو لي أنّ شرابًا خطيرًا وُضع لك، كنت أدخل كما دخلت عليك الآن، فأُفرغ كأسك، وأملأها بشرابٍ مفيدٍ، شرابٍ يجعل الحياة تسري في عروقك، بدلًا من الموت الذي أُعدَّ لك.

صاحت فالانتين ظانةً أنّها لا تزال تحت تأثير هذيانٍ محموم:

- السمّ! الموت! ماذا تقول يا سيّدي؟

قال مونت كريستو وهو يضع إصبعه مجدّدًا على شفتيه: - صمتًا يا طفلتي؛ نعم، قلت السمّ؛ نعم، قلت الموت، وأكرّرها: الموت، لكن اشربي أوّلًا هذا. (أخرج الكونت من جيبه قارورة فيها سائلٌ أحمرُ، صبَّ منه في كأسها قطراتٍ)، وبعد أن تشربيه، لا تتناولي شيئًا طيلة اللّيل.

مدّت فالانتين يدها؛ لكن ما إن لمست الكأس، حتّى أعادتها مرعوبة.

تناول مونت كريستو الكأس، فشرب نصفَها، ثمّ مدّها إلى فالانتين التي شربت مبتسمةً ما فيه من سائل.

قالت: - أوه! إنّ له طعم المشروب الذي أتناوله ليلًا، المشروب الذي يعيد إلى صدري بعضًا من انتعاشه، وإلى ذهني بعضًا من هدوئه. شكرًا يا سيّدي، شكرًا.

قال الكونت: - هكذا عشتِ اللّيالي الأربع الماضية يا فالانتين. أمّا أنا، فكيف كنت أعيش؟ آه! تلك السّاعات الفظيعة التي مرّت عليّ!آه! تلك العذابات التي ذقتُها، وأنا أراهم يصبّون في كأسك السمّ القاتل، وأرتجفُ خوفًامن أن تشربي قبل أن تسنح لي الفرصة لكي أهرق محتواه في المدخنة!

استأنفت فالانتين الكلام وهي في ذروة الرّعب: - تقول يا سيّدي إنّك عانيت أمّر العذابات وأنت تراهم يدسّون في كأسي السمّ القاتل؟ لقد رأيت إذًا الشّخص الذي يحاول تسميمي؟

- نعم.

استوت فالانتين جالسة في فراشها، وسحبت إلى صدرها الشّاحب كالثّلج ثوبَ الباتيست المطرّز الذي لا يزال مبلّلًا من عرق الهذيان البارد، وقد بدأ يختلط به عرقُ الرعبِ الأبردُ.

أعادت الصبيّة السّؤال: - رأيتَه؟

ومرّةً أخرى أجاب الكونت: - نعم.

- إنّ ما تقوله يا سيّدي مرعبٌ؛ تريدني أن أصدّق شيئًا جهنّميًا. ماذا؟ في بيت أبي! في غرفتي! وعلى فراش مرضي، ثمّة من لايزالُ يحاول قتلي؟ أوه! انصرف يا سيّدي، أنت تتلاعب بوعيي، تجدّف على الخير الإلهيّ، ما تقوله مستحيلٌ، لا يمكن.

- وهل أنت أوّل من أصابه السّمُ في هذا المنزل يا فالانتين؟أما رأيتِ

الضحايا يتساقطون حولك، بدايةً من السيّد دو سان مِران، وبعده السيّدة دو سان مِران ثمّ باروا؟ ألم يكن السيّد نوارتييه ليكون الضّحية الرّابعة، لولا أنّ العلاج الذي يتبعه منذ سنةٍ حال دون أن يفعل فيه السمُّ فعلَه؟

قالت فالانتين: – أوه! يا إلهي! لذا، منذُ أربعة أشهرٍ وجدّي الطّيّبُ يصرُّ على أن أشاركه كلّ مشروباته؟

صاح مونت كريستو: وتلك المشروبات لها مذاقٌ مرٌّ، مرارَة قشرة برتقال نصف جافّة، أليس كذلك؟

– بلى، يا إلهي، بلى!

قال مونت كريستو: – أوه! هذا يفسّر كلّ شيء، هو أيضًا يعلم أنّ المنزلَ مسرحٌ لعمليّات تسميم، ولربّما يعرف حتّى المسؤول عنها. لقد وقّاك، أنت يا عزيزته، من المادّة القاتلة، وقد خفّفت وقايتُه من تأثير المّادة! وهذا يفسّر بقاءك على قيد الحياة! وهو السبب الذي لم أكن أعيه وأنا أتساءلُ كيف لكِ أن تواصلي الحياة أربعة أيّامٍ بعد إصابتك بسمٍّ زعافٍ!

– لكن، من القاتل، من المجرم؟

– أسألك بدوري: ألم ترَي أحدًا يدخل غرفتك ليلًا؟

– بلى. كثيرًا ما رأيت خيالاتٍ تمرُّ، رأيتُها تدنو وتبتعد، ثمّ تختفي. لكنّني كنت أظنّها رؤىً أتوهّمها بسبب الحمّى، وحتّى حين دخلتَ عليّ أنت منذ قليل، ظننتُ نفسي أهذي أو أحلم.

– لا تعرفين إذًا الشّخص الذي يريد موتك؟

أجابت فالانتين: – كلّا، لمَ سيرغب أحدٌ في موتي؟

قال مونت كريستو وهو يرخي أذنه: – سوف تعرفينه إذًا؟

سألته فالانتين وهي تجيل البصر حولها مرعوبة: – كيف، ماذا تقصد؟

– لأنّك اليوم غير محمومة ولست تهذين، لأنّك اليوم صاحيةٌ واعية، لأنّ ها منتصف اللّيل يدقُّ، ولأنّ منتصف اللّيل هو ساعةُ القتلةَ.

قالت فالانتين وهي تمسح عن جبينها العرق المتلألئ فيه: - يا إلهي! يا إلهي!

وبالفعل دقّت ساعةُ منتصف اللّيل بطيئةً حزينةً، كأنّما كلّ دقّةٍ منها مطرقةٌ تضرب قلب الصبيّة.

واصل الكونت: - فالانتين، تقوَّي بكلّ ما فيك من جهد، اكبِتي قلبك في صدرك، احبسي صوتك في حلقك، تظاهري بالنّوم، وسوف ترين، سوف ترين!

أمسكت فالانتين يد الكونت، قائلةً: - يهيّأ لي أنّني أسمع أصواتًا، فانصرف!

أجابها الكونت: - وداعًا، أو بالأحرى إلى اللّقاء.

ثمّ انصرف الكونت منسحبًا على أطراف أصابعه صوب المكتبة، وعلى وجهه ابتسامةٌ غايةٌ في الحزنِ والعطف الأبويّ، ابتسامةٌ غمرت قلبَ الصبيّة عرفانًا. ولمّا بلغ المكتبة استدار إليها قبل أن يغلق الباب خلفه وقال:

- لا تصدري أيّ حركةٍ أو كلمة، ينبغي أن يظنّوك نائمةً وإلّا قتلوك قبل أن أجد الفرصة لإنقاذك.

وبعد أن أطلق الكونت تحذيره المرعب، اختفى خلف الباب الذي انغلق بهدوء.

101

لوكوستا[1]

ظلّت فالانتين وحيدة؛ قُرِع جرسان آخران، متأخّران عن جرس سان فيليب راوول، معلنين، على مسافتين مختلفتين، منتصفَ اللّيل. ثمّ هوى كلّ شيءٍ في الصّمت، باستثناء صرير بعض العربات البعيدة.

وإذّاك ركّزت فالانتين كلّ انتباهها في ساعة الغرفة التي كان بندولها يسجّلُ الثواني. وبدأت الصبيّة تحسبُ الثواني التي كانت أبطأ بمرّتين من دقّات قلبها. على أنّ الشكّ لم يزايلها؛ إنّ فالانتين المسالمة لم تستطع أن تتصوّر أنّ ثمّة من يسعى إلى قتلها؛ لماذا؟ ما غايته من موتها؟ أيّ شرٍّ ارتكبته فكلّفَها عدوًا؟

لم يكن يُخشى أن تنام؛ فكرةٌ واحدةٌ، فكرةٌ مرعبةٌ تعصر قلبها: ثمّة شخصٌ في هذا العالم حاول أن يقتلها، وسوف يحاول مرّةً أخرى. ماذا لو أنّ هذا الشّخص ملّ المحاولة، فترك السّم، ولجأ إلى الحديدِ! وماذا لو لم يستطع الكونت إيقافَه! ماذا لو كانت هذه ساعتُها الأخيرة، ولن ترى بعدها موريل! لهذه الخواطر التي كانت تغمرها بشحوبٍ شديدٍ وعرقٍ باردٍ مجمِّدٍ، كانت فالانتين على أهبة أن تمسك حبل الجرس فتطلب النّجدة. لكن بدا لها أنّها لمحت عين الكونت تلمع، عبر شقّ المكتبة، تلك العين الخفيّة التي تملأها خجلًا إلى درجة أنّها لا تدري هل يستطيع عرفانها للكونت أن يمحو يومًا انزعاجها من صداقته المتلصّصة.

مرّت عشرون دقيقة، عشرون أبديّة، ثمّ عشرٌ أُخر؛ وأخيرًا دقّ البندول

(1) لوكوستا، مسمّمة من روما العتيقة (القرن الأوّل قبل المسيح).

على الجرس الرّنان، بعدما صرَّ صريرًا خفيفًا ثانيةً قبل ذلك. وفي تلك اللّحظة نفسها تناهى صوتٌ بالكاد يُسمع، صوتُ حكِ ظُفر على خشب المكتبة، فأدركت فالانتين أنّ الكونت يراقبها، ويطلب منها أن تراقب.

وبالفعل، من الجانب المقابل، أي باتّجاه غرفة إدوارد، خيّل لفالانتين أنّها تسمع صرير خشب الأرضية؛ أرخت سمعها وهي تحبس أنفاسها شبه المختنقة؛ صرَّ القفلُ ودار البابُ حول مفصلاته.

وكانت فالانتين مستندةً إلى مرفقها، إذ بالكاد وجدت الوقت لتهوي على فراشها وتخفي عينيها تحت ذراعها. ومكثت تنتظرُ، راجفةً، مضطربةً، يعصر قلبَها رعبٌ لا يوصف.

اقترب شخصٌ ما من السّرير، ولامس الستائر. استجمعت فالانتين كلّ قواها وانخرطت في ذاك التّنفس البطيء المنتظم الذي يدلُّ على النّوم العميق الهادئ.

قال صوتٌ هامسٌ: - فالانتين!

ارتجفت البنت حتّى أعماق قلبها، لكنّها لم تُجب.

كرّر الصّوتُ: - فالانتين!

تواصل الصّمتُ. لقد وعدت فالانتين الكونتَ بألّا تستيقظ مهما حدث.

ثمّ هوى كلّ شيءٍ في السّكون.

غير أنّ فالانتين التقطت صوتًا بالكاد يُسمعُ، صوتَ سائلٍ يصبُّ في الكأس التي أفرغتها منذ قليل. وإذّاك، جرُؤت على أن تفتحَ جفنها مواربًا، من تحت حاجز ذراعها الممدودة؛ فأبصرت امرأةً في بُرنس حمّام أبيضَ، تُفرغ في كأسها سائلًا أحضرته معها في قارورة.

وأثناء تلك اللّحظة القصيرة، ربّما حبست فالانتين أنفاسَها، أو ندّت عنها حركةٌ، إذ إنّ المرأة توقّفت قلقةً، ومالت على سرير النّائمة تتحقّقُ من نومها. كانت المرأة السيّدة دو فليفور.

فلمّا عرفت فالانتين زوجة أبيها، استولت عليها رجفةٌ حادّةٌ تردّد صداها في السّرير.

وعلى الفور اختفت السيّدة دو فيلفور ملتصقةً بالحائط، ولاذت بستار السّرير، صامتةً مترقّبةً، تترصّد أدنى حركات فالانتين.

أمّا فالانتين، فقد تذكّرت كلام مونت كريستو؛ فتهيّأ لها أنّ في اليد التي لم تكن تمسك القارورة، كان يلمع خنجرٌ طويلٌ حادٌّ، فاستنجدت الصبيّةُ بكلّ إرادتها، وحاولت جاهدةً أن تُغلق عينيها؛ لكن تلك الوظيفة التي يختصُّ بها أشدُّ أعضائنا خوفًا، تلك الوظيفة البسيطة بالعادة، بدت لها مستحيلةً، لفرط ما كان الفضولُ النّهِمُ يغالب في دفعِ الجفنِ وطلَبِ الحقيقةِ.

وأثناء ذلك، وقد اطمأنت السيّدة فيلفور إلى نوم الصبيّة، إذ عادت تسمع إيقاع تنفّسها المنتظم، مدّت ذراعها مجدّدًا، وهي لا تزال متواريةً خلف السّتار ملتصقةً برأس السّرير، وأتمّت إفراغ السّائل من قارورتها في الكأس.

ثمّ انصرفت من غير أن تصدر أيّ صوتٍ ينبئ بانصرافها. إنّما رأت الصبيّة فقط الذّراع تختفي؛ تلك الذّراع النّاعمة المستديرة، ذراع امرأة جميلةٍ في الخامسة والعشرين من عمرها، تسقي الموتَ.

لا سبيل لوصف ما خبِرَتهُ فالانتين أثناء تلك الدّقيقة والنّصف التي دامَها وجودُ السيّدة دو فيلفور في الغرفة.

صوتُ حكّ الظّفر على المكتبة هو ما أخرج الصبيّة من حال السّكون الذي غرقت فيه كالمخدّرة. ورفعت رأسَها بجهد. دار باب المكتبة مرّةً أخرى على مفصلاته، وظهرَ الكونت.

سألها: - إذًا، أما زلت تشكّين؟

غمغمت الصبيّة: - أوه يا إلهي!

- هل رأيتِ؟

- للأسف!

- وعرفتِ؟

أطلقت فالانتين أنّةً، وقالت: - نعم، لكنّني لا أستطيع التّصديق.

- تفضّلين إذًا أن تموتي، وتقتلي معك ماكسيميليان!..

ردّدت الشّابة شبه ذاهلة: - يا إلهي، يا إلهي! ألا أستطيع إذًا أن أهرب؟ أن أترك المنزل؟

- إنّ اليد التي تلاحقك يا فالانتين سوف تطالُك حيثما كنتِ. ببريق الذّهب سوف يُغرى خدمُك، فيُقدَّمَ لك الموتُ في كلّ صورةٍ، حتّى في الماء الذي تشربينه من النّبع أو الثمرة التي تقطفينها من الشّجرة.

- لكن، ألم تقُل لي إنّ احتياطات جدّي قد وقتني السمَّ؟

- وقتك من سمٍّ بعينه، ومن جرعةٍ بسيطة، سوف يغيّرون السّمَ ويزيدون في الجرعة.

تناول الكأس وبلل فيه شفتيه. ثم قال: - هاك، ها قد شُرع في ذلك بالفعلِ. ليس البروسين ما تُسقَين الآن، وإنّما مخدّرًا عرفته من الكحول الذي أُذيبَ فيه. لو أنّك شربتِ ما أتتك به السيّدة فيلفور اللّيلة، لقُضيَ عليك.

صاحت الصبيّة: - يا إلهي! لمَ تلاحقُني هكذا؟

- ماذا! هل أنت طيّبةٌ، وغافلةٌ عن الشّر، لدرجة أنّك لم تفهمي يا فالانتين؟

قالت الصبيّة: - كلّا؛ أنا لم أُسئ إليها قطُّ.

- لكنّك غنيّةٌ يا فالانتين؛ تملكين إيراداتٍ قيمتُها مائتا ألف فرنك، وهي إيراداتٌ تسلبينها ابنَها.

- كيف؟ إنّ ثروتي ليست لها، لقد ورثتُها عن أقاربي.

- بلا شكٍّ، ولهذا السّبب توفي السيّد والسيّدة دو سان مِران. لكي ترثي من أقاربك؛ وللسّبب نفسه ما إن جعلك السيّد نوارتييه وريثته

حتّى حُكم عليه بالموت؛ وأيضًا لذلك ينبغي أن تموتي؛ الغايةُ أن يرثك والدك، ويصير أخوك ولده الوحيدَ، فيرثُ عنه كلّ شيء.

- إدوارد! باسم هذا الطّفل المسكين إذًا ارتُكبت كلّ هذه الجرائم؟

- آه! ها قد فهمتِ أخيرًا.

- آه! يا إلهي! عسى ألّا يسقط كلّ هذا على رأسه!

- أنت ملاكٌ يا فالانتين.

- وماذا عن جدّي، هل تخلّت عن فكرة قتله؟

- لقد ارتأت القاتلةُ أنّ في حال موتِك ستؤول ثروةُ جدّك، ما لم يوصي بغير ذلك، إلى أخيك، فخلصت إلى أنّ قتلَه بلا فائدةٍ، وينطوي على خطرٍ مضاعفٍ.

- وكلّ هذا قد تشكّل في عقل امرأةٍ، يا إلهي!

- لا بدّ أنّك تذكرين بيروجا، وتعريشةَ فندق البريد، والرّجلَ ذا المعطف البنيَّ الذي كانت زوجة أبيك تسأله عن مياهتوفانا؛ وإذن، أقول لك: منذُ ذاك العهد، وهذه الأمور تتخمّر في ذهنها.

صاحت الشّابة الرّقيقة ودمعُها يفيض: - أوه! إن كان الأمر هكذا، فأرى أنّني محكومة بالموت!

- كلّا يا فالانتين، كلّا، لقد حسبت حسابَ كلّ شيء؛ كلّا، لأنّ عدّونا هُزمَ ما دُمنا كشفناه؛ كلّا يا فالانتين، سوف تعيشين، تعيشين لتحِبّي وتحَبّي؛ تعيشين لتَسعَدي وتُسعدي قلبًا نبيلًا؛ لكن لكي تعيشي يا فالانتين، ينبغي أن تثقي فيَّ.

- قل لي ما ينبغي أن أفعله يا سيّدي؟

- تناولي كلّ ما أقدّمه لك، بلا أيّ نقاش.

صاحت فالانتين: - أوه! أُشهد الرّب يا سيّدي، لو كان الأمر يتعلّق بي وحدي لفضّلتُ الموتَ.

- لا تخبري أحدًا بشيءٍ، حتّى أبيك.

قالت فالانتين وهي تضمّ يديها: - أبي ليس مشاركًا في هذه المؤامرة يا سيّدي، أليس كذلك؟

- لا، لكن لابدّ أنّ والدك المعتاد على جوّ الاتّهامات والتّحقيقات، يشكّ في أنّ الوفيات التي حدثت ليست طبيعيّة. إنّ والدك هو من كان يُفترض فيه أن يحميك، هو من يُفترض أن يكون هنا الآن مكاني؛ وهو إذًا من يُفترض أن يكون قد أفرغ محتوى الكأس؛ ويُفترض أن يتصدّى للقاتل. شبحٌ يواجه شبحًا (وقد نطق الكونت عبارته الأخيرة هامسًا ورفع صوته في آخر كلمة).

قالت فالانتين: - سيّدي، سأفعل أيّ شيءٍ لأعيش، لأنّ ثمّة شخصين يحبّانني، وسوف يموتان إن متُّ: جدّي وماكسيميليان.

- سأرعاهما كما أرعاك.

أجابته فالانتين: - سأفعل ما تطلب يا سيّدي، (ثمّ أضافت بصوتٍ خافت): يا إلهي، يا إلهي، ماذا سيحلّ بي؟

- مهما وقع لك يا فالانتين لا ترتعبي؛ حتّى إن تألّمتِ، أو فقدت النّظر أو السّمع أو اللّمس، لا تخافي؛ وإن استيقظت لا تعرفين أين أنت، فلا تخافي، حتى إن استيقظت في قبرٍ أو نعش؛ استعيدي وعيك فورًا، وقولي لنفسك: ثمّة في هذه اللّحظة من يرعانيَ: صديق، أبٌ، رجلٌ يريد سعادتي وسعادة ماكسيميليان.

- واأسفًا! واأسفًا! يا له من وضع خطير!

- فالانتين، هل تفضّلين أن تبلّغيَ عن زوجة أبيك؟

- أفضّل مائة مرّة أن أموت، على أن أفعل ذلك.

- كلاّ لن تموتي، وعِديني، أيّ حادثٍ يقع لك لن تقابليه بالشّكوى، وإنّما بالرّجاء.

- سأفكّر في ماكسيميليان.

- أنت ابنتي المحبوبة يا فالانتين؛ أنا وحدي أستطيع إنقاذك، وسوف أنقذك!

شبكت فالانتين يديها، وقد بلغ منها الرّعبُ كلّ مبلغ، (إذ كانت تشعر بأنّ لحظة طلب العون من الربّ قد حانت) واستوت للصّلاة، هامسةً بكلماتٍ لا تتمّة لها، ناسية أنّ لا شيء يغطّي بياض كتفيها إلا شعرها الأسود الفاحمُ، وأنّ قلبَها يظهر نابضًا من تحت دانتيلا رُوب النّوم الخفيف.

وضع الكونت يده برفقٍ على ذراع الصّبيّة، وغطّاها حتّى العنق بغطاء المخمل؛ ثمّ قال لها بابتسامةٍ أبوية: - آمني في إخلاصي يا ابنتي، مثلما تؤمنين في خير الربّ وحبّ ماكسيميليان.

نظرت إليه فالانتين نظرةً مفعمةً بالعرفان، وظلّت تحت أغطيتها ساكنةً مطيعةً كطفلٍ. إذّاك أخرج الكونت من جيب صداره صندوق الحلوى المصنوع من الزمرّد، وفتح غطاءه الذّهبيّ، ووضع منه، في راحة الصبيّة قرصًا مستديرًا في حجم حبّة بازلاء.

تناولت فالانتين الحبّة بيدها الأخرى، وأمعنت النّظر في الكونت: إنّ في ملامح هذا الحامي الذي لا يعرفُ الخوفَ، شيءٌ من مهابةٍ وقوّةٍ إلهيّتين. وكان بيّنًا أنّ فالانتين تسائله بنظرتها.

أجابها: - نعم.

حملت فالانتين الحبّة إلى فمها وابتلعتها.

قال: - والآن، إلى اللّقاء يا ابنتي، سأحاول النّوم قليلًا، لأنّك نجوتِ.

قالت فالانتين: - هيّا، مهما حدث، أعدك بألاّ أخاف.

ظلّ مونت كريستو يحدّق طويلًا في الصّبيّة التي هوت في النّوم شيئًا فشيئًا، مستسلمةً لقوّة المخدّر الذي أعطاها الكونت. ثمّ تناول الكأسَ، فأفرغ ثلاثة أرباعها في المدخنة، لكي يظنَّ من يراها أنّ الصبيّة قد شربت ما نقص منها، ثمّ وضعه على المنضدة؛ بعد ذلك قصد باب المكتبة، واختفى بعدما ألقى نظرة أخيرةً على فالانتين النّائمة باطمئنانٍ وبراءة ملاكٍ نائمٍ عند قدميّ الربّ.

102

فالانتين

واصل مصباح السّرير احتراقَه على مدخنة فالانتين، مستهلكًا آخر قطرات الزّيت التي لا تزال تطفو على الماء؛ وقد بدأت دائرةٌ أشدُّ حمرةً تنطبع على كرة المصباح، ولهبٌ أشدُّ توهّجًا يطلق آخر شراراته، تلك الشّرارات التي هي للجمادات آخر تشنّجاتِ النّزع الذي كثيرًا ما شُبّه باحتضار المخلوقات البشرية الفانية؛ ثمّ طلع نهارٌ كئيبٌ يصبغ بشعاعٍ باهتٍ الستائرَ البيضاء وأغطية الصبيّة. جميع أصوات الشّارع قد سكنت، وكان الصمتُ في الدّاخل مرعبًا.

فُتح بابُ غرفة إدوارد، وبرز في المرآةِ المقابلة للبابِ وجهٌ سبق أن عرفناه: إنّها السيّدة دو فيلفور أتت تفحص تأثير شرابها.

توقّفت عند العتبة، وأنصتت إلى تألّق المصباح، الصوت الوحيد المسموع في هذه الغرفة التي يخيّل للمرء أنّها فارغة؛ ثمّ تقدّمت ببطءٍ نحو منضدة السّرير لتتأكّد ممّا إذا كانت كأسُ فالانتين فارغة. وكانت الكأسُ، كما قلنا آنفًا، مليئةً للرّبع.

تناولتها السّيّدة دو فيلفور، وأفرغتها في رماد المدخنة، وحرّكته كي تسرّع تشرّب السّائل؛ ثمّ نظفت الكأسَ الكريستالَ بعنايةٍ، ومسحتها بمنديلها، وأعادتها إلى موضعها على منضدة السّرير. وإنّ من يستطيع أن يقتحم ببصره الغرفةَ، فسوف يرى تردّد السيدة دو فيلفور بين أن تحدّق في فالانتين، وأن تقترب من السّرير.

ولا بدّ أنّ ذاك الشّعاعَ الكئيب، وذاك الصّمت، وشاعريةَ اللّيلِ

الرّهيبةَ، قد تآلفت جميعًا مع ما يُنشده ضميرُها المرعب: إنّ المُسمِّمَة خائفةٌ من صنيعها.

لكنّها تجلّدت في نهاية المطاف، فأزاحت السّتار، واستندت إلى رأس السّرير، وأخذت تتأمّل فالانتين.

ما عادت الصّبية تتنفّسُ، أسنانها نصف المفتوحة لا تخرج منها أيّ ذرةٍ من النّفس الدالِّ على الحياة؛ شفتاها الباهتتان كفّتا عن الارتجاف؛ عيناها، الغارقتان في بخارٍ مزرقّ يبدو أنّه قد تسلّل تحت جلدها، تشكّلَ فيهما نتوءٌ عند النقطة التي يغطّيها الجفن، ورموشها السوداء ترتسم فوق بشرةٍ قد صارت باهتةً كالشّمع.

تأمّلت السيّدة دو فيلفور الوجهَ بتعبير شديدِ البلاغة في سكونه؛ زادت جرأتُها، فرفعت الغطاء، ووضعت يدها على قلب الصبيّة.

كانت فالانتين صامتةً متجمّدة.

ما كان ينبض تحت يدها، إنّما هو نبضُ أصابعها. سحبت يدها راجفةً.

تدلّت ذراع فالانتين عن السّرير؛ الذّراع التي يبدو جزؤها العلوي، من الكتف إلى الكوع، قد شُكِّل على صورة أذرع إلهةِ حُسنٍ من إلهات حسنِ جرمان بيلون[1]؛ لكنّ تشنُّجًا شوّه السّاعدَ، والكفُّ الصّافية، تسترخي متصلّبةً، بأصابع متفرّقة على خشب الأكاجو؛ وكانت الأظافرُ مزرقّةً عند منابتها.

بالنّسبة إلى السيّدة دو فيلفور، لم يعد ثمّة مجالٌ للشكّ: انتهى كلّ شيء، إنّ العمل الرّهيبَ ناجزٌ؛ لقد أتمّت آخرَ المهمات التي كان يتعيّن عليها القيام بها. لم يعد لدى المسمِّمة ما تفعله في تلك الغرفة؛ تراجعت بحذرٍ بالغٍ، فقد كان واضحًا أنّها تخشى وقع أقدامها على البساط؛ لكن،

---

(1) جرمان بيلون (1528–1590)، من أشهر نحّاتي عصر النّهضة الفرنسيّين، والحديث عن تمثاله الشّهير إلهات الحسنِ الثلاثُ.

حتّى وهي تتراجع، ظلّت ترفع السّتار، متشرّبةً مشهد الموت الذي يحمل في ذاته جاذبيّته التي لا تقاوم، طالما ليس الموتُ تحلّلًا، وإنّما فقط سكونًا، أي طالما لا يزال لُغزًا ولم ينتقل بعد إلى مبعث قرف.

الدّقائقُ تمضي، والسيّدة دو فيلفور لا تستطيع أن تترك من يدها السّتار الذي التي تمسكه مثل كفن فوق رأس فالانتين. إنّها تدفع للأماني ضريبتَها. وضريبةُ أماني القتلِ هي النّدم.

وفي تلك اللّحظة تضاعفَ توهّجُ المصباح، وارتعدت لصوته السيّدة دو فيلفور وأرخت السّتار، وفي الآن نفسه انطفأ المصباح، وهوت الغرفة في ظلام مرعبٍ. ووسط الظّلام استفاق البندول فدقّ معلنًا الرّابعة والنّصفً.

مرعوبةً ممّا تعاقب عليها من أحاسيس، قصدت المسمِّمة الباب متلمّسةً طريقَها، وعادت إلى غرفتها وعلى جبينها يتلألأ عرقُ القلقِ.

استمرّ الظّلامُ ساعتين أخريين. ثمّ شيئًا فشيئًا أخذ نورٌ شاحبٌ يتسلّل عبر المصاريع؛ ثمّ ما لبث أن اشتدَّ، شيئًا فشيئًا، وأتى يسبغ على الأشياء والأجسامِ ألوانًا وأشكالًا.

وتلكَ هي اللّحظة التي تناهى فيها سعالُ الممرّضة في الدّرج، ودخلت هذه المرأةُ إلى غرفة فالانتين وفي يدها فنجان.

ولو أنّ الدّاخل على الصبيّة كان أبًا أو عاشقًا، لرأى من النّظرة الأولى أنّها ميّتةٌ؛ لكن بالنّسبة إلى تلك المرتزقة، لم تكن فالانتين إلا نائمة.

قالت وهي تقترب من منضدة السّرير: - حسنًا، لقد شربَت جزءًا من محلولها، ثلاثة أرباع الكأس فارغة.

ثمّ قصدت المدخنة، فأشعلت النّار، وجلست على مقعدها، وعلى الرّغم من أنّها للتوّ غادرت سريرها، إلا أنّها استغلّت نومَ فالانتين لتزيد في نومها لحظاتٍ.

أيقظها البندول حين دقَّ معلنًا الثامنة. اندهشت لهذا النّوم العنيد

الذي لم تزل الصبّية غارقةً فيه، وأرعبتها الذّراع المتدلية التي لم تضمّها صاحبتها إليها البتّة، تقدّمت صوب السّرير، وإذّاك فقط لاحظت الشفتين الباردتين والصدر الهامد.

أرادت أن تعيد الذراع إلى الجسد، لكنّ الذراع لم تطاوعها إلا بتلك المشقّة التي لا يمكن أن تخطئ معناها ممرِّضةٌ.

أطلقت صرخةً رهيبةً، ثمّ هرعت إلى الباب تصيح: - النّجدة! النّجدة!

أجابها من أسفل الدّرج صوت السيّد دافرينيي: - ماذا؟ النّجدة!

وكانت تلك السّاعة التي اعتاد فيها الدكتور القدوم.

صاح صوت فليفور وهو يخرج من مكتبه: - ماذا؟ النّجدة! ألم تسمع صيحات النّجدة يا دكتور؟

أجاب دافرينيي: - بلى، بلى؛ لنصعد، لنصعد بسرعة عند فالانتين.

لكن قبل أن يدخل الطّبيب أو الأبُ، كان الخدم المتواجدون في نفس الطّابق، سواءً في الغرف أو الأروقة، قد دخلوا، فلمّا رأوا فالانتين شاحبةً جامدةً رفعوا أياديهم إلى السّماء، وترنّحوا كأنّما أصابتهم دوخة.

صاح وكيل الملك من باب الغرفة التي بدا كأنّما يخشى أن يدخلها:

- نادوا السيّدة دو فيلفور! أيقظوا السيّدة دو فيلفور!

لكنّ الخدم بدلًا من أن يجيبوه، ظلّوا يحدّقون في السيّد دافرينيي الذي دخل، وهرع إلى فالانتين، ورفعها بين ذراعيه.

همس وهو يرخيها من ذراعيه: - وهذه أيضًا... يا إلهي، يا إلهي، متى ينتهي كلّ هذا؟

اندفع فيلفور داخل الغرفة. وصاح وهو يرفع يديه إلى السّماء: - ماذا تقول، يا إلهي! دكتور! دكتور!...

أجابه دافرينيي بصوتٍ مهيبٍ، رهيب في مهابته: - أقول إنّ فالانتين ماتت!

انهار السيّد فيلفور كأنّما انكسرت قدماه، وهوى رأسُه على سرير ابنته.

أمام كلام الطّبيب، وصيحات الأب، فرّ الخدمُ، مرعوبين، صمٌّ لا مبالين؛ تناهى من السلالم وقع خطواتهم المسرعة، ثمّ جلبةٌ شديدةٌ في الأفنية، ثمّ خمد الصّوتُ: لقد فرّوا من المنزلَ الملعونَ عن بكرة أبيهم.

وفي تلك اللّحظة فقط، أزاحت السيّدة فيلفور بساط الباب عن غرفة فالانتين، ووقفت ساكنةً للحظةً عند العتبة، ساترة نصف يدها في روب النّوم؛ ملامحُ وجهها تُسائل الحاضرين، وتستدعي دموعًا عصيّةً.

ثمّ فجأةً خطت خطوةً، أو بالأحرى وثبت وثبةً إلى الأمام، مادّة ذراعيها إلى المنضدة.

لقد رأت دافرينيي يميل بفضولٍ على تلك المنضدة، ويعاين الكأس التي كانت هي متيقّنةً من أنّها قد أفرغت محتواها كاملًا.

كانت الكأسُ مليئةً إلى الرّبع، تمامًا كما كانت قبل أن تفرغ محتواها في المدخنة.

ولو أنّ شبح فالانتين انتصب أمام المسمِّمة لما أحدث فيها الأثر الذي أحدثته فيها الكأس. الحال أنّ السّائل الموجود في الكأس له نفس اللّون الذي كان للسائل التي صبّته هي، وشربته فالانتين؛ إنّه عينُه السمّ الذي لا يمكن أن يخدع عين السيّد دافرينيي، وها هو يتفحّصه بإمعان. إنّها معجزةٌ، معجزةٌ أراد بها الرّبُ أن يَبقى دليلٌ على الجُرم، رغم كلّ ما اتّخذه المجرمُ من احتياطاتٍ: أثرٌ، دليلٌ، إدانةٌ.

وبينما السيّدة دو فيلفور ساكنةٌ جمّدَها الرّعبُ كتمثالٍ، والسيّد دو فليفور، دافنًا رأسه في أغطية الميّتة ذاهلًا عمّا يجري حوله؛ كان السيّد دافرينيي قد دنا من النّافذة ليفحص في الضّوء محتوى الكأس، وذاق منه قطرةً حملها بطرف إصبعه. غمغم: - آه! لم يعد الأمر يتعلّق الآن بالبروسين، لننظر ماذا!

ثمّ إنّه هرع إلى خزانةٍ في غرفة فالانتين، كانت قد حُوّلت إلى صيدلية، ثمّ أخرج من علبة فضّة حُقَّ حمض النيتريك، وقطّر منه قطراتٍ في السّائل، فتحوّل من فوره إلى اللّون القرمزيّ.

قال دافرينيي: «آه!». قالها بنبرةٍ يختلط فيها رعب القاضي الذي انكشفت له الحقيقةُ، بفرحة العالِم الذي يكشفُ حلَّ مسألةٍ.

دارت السيّدة دو فيلفور للحظَةٍ حول نفسها؛ أطلقت عيناها شرارًا، ثمّ خبتا؛ التمست الباب مترنّحةً، واختفت.

لحظةً بعد ذلك سُمع صوتُ ارتطامٍ بعيدٍ، صوتُ جسدٍ هوى على الأرضية الخشب. لكنّ أحدًا لم ينتبهً إليه. كانت الممرّضة منشغلةً بمراقبة العملية الكيميائية، ووكيل الملك لا يزال محطّمًا.

السيّد دافرينيي وحدَه تابع بعينيه السيّدة دو فيلفور ولاحظ خروجها هرولةً. أزاح بساط غرفة فالانتين، وعبَر بصرُه غرفة إدوارد، وغاص في غرفة السيّدة دو فيلفور فرآها ممدّةً على خشب الأرضية.

قال للممرّضة: - اذهبي لنجدة السيّدة دو فيلفور، إنّها ليست بخير.

غمغمت الممرّضة: - والآنسة فالانتين؟

قال دافرينيي: - إنّ الآنسة فالانتين لم تعد تحتاجُ نجدةً لأنّها ماتت.

كرّر فيلفور: - ماتت! ماتت!

وأطلق تنهيدةً يملأها ألمٌ مفجعٌ لم يُؤلف في قلبه البرونزيّ.

صاح صوتٌ ثالث: - ميّتة! تقول ميّتة؟ من قال لك إنّ فالانتين ماتت؟

استدار الرّجلان، فلمحا عند الباب موريل، واقفًا، شاحبًا، مصدومًا، مرعوبًا.

وإليكم ما حدث:

في ساعته المعتادة أتى موريل، عبر الباب الصّغير الذي يقوده إلى غرفة نوارتييه. وبخلاف المعتاد، وجد الباب مفتوحًا، فلم يحتج أن يرنّ

ليدخل. مكث لحظةً منتظرًا في البهو، ينادي أيّ خادمٍ يدخله عند الشّيخ نوارتييه. لكنّ أحدًا لم يُجب؛ فكما علمنا، فرَّ الخدمُ جميعًا.

ولم يكن لدى موريل من سبب للقلق يومها: كان الكونت مونت كريستو قد وعده بأنّ فالانتين ستعيش، وحتّى تلك اللّحظة أوفى الكونت بوعده. وفي كلّ مساءٍ كان الكونت يزوّده بالأخبارِ الطيّبة، ويؤكّدُها له نوارتييه في اليوم التّالي. غير أنّ تلك الوحدة بدت له مريبةً؛ فنادى مرّةً ثانية، فثالثةً، ولا مجيبَ.

فقرّر أن يصعدَ.

كان باب نوارتييه مفتوحًا كغيره من الأبواب. وأوّل ما لمحه موريل أن الشّيخَ كان جالسًا في مقعده في مكانه المعتاد؛ عيناه الجاحظتان يبدو أنّهما تعكسان رعبًا داخليًا، يؤكّده الشّحوبُ الغريب المهيمن على ملامحه.

قال الشّابُ وقلبُه مقبوضٌ: - كيف حالك يا سيّدي؟

أجابه الشّيخ برمشةِ عينه المعتادة: - بخير! بخير!

لكنّ سيماءه بدت تعكس قلقًا متعاظمًا.

قال موريل: - أنت مهمومٌ يا سيّدي، هل تحتاجُ شيئًا؟ هل تريدني أن أنادي لك على أحد؟

- نعم.

أمسك موريل شريطَ الجرس، وعبثًا ظلّ يسحبه، لم يلبِّ النّداءَ أحد. فاستدار الشّابُ إلى نوارتييه؛ وما انفكّ القلق والخوف في وجه الشّابِّ يتعاظمان.

قال: - إلهي! إلهي! لمَ لا يجيبُ أحد؟ هل مرضَ شخصٌ آخرُ في المنزل؟

بدا أنّ عينيّ نوارتييه توشكان أن خرجا من مجريهما.

واصل موريل: - ما بك يا سيّدي؟ أنت ترعبني. فالانتين! فالانتين!

أجاب نوارتييه: - نعم! نعم!

فتح ماكسيميليان فمه ليتكلّم، لكنّ لسانه عجز عن نطق أيّ كلمة. ترنّح فتمسّك بخشب الأثاث. ثمّ مدّ يده باتّجاه الباب.

واصل الشّيخ: «نعم، نعم، نعم!».

اندفع ماكسيميليان من الدّرج الصّغير، وقطعه في وثبتين، لفرط ما كان يبدو له أنّ نوارتييه يصرخ به: «هيا، أسرع! أسرع!».

كانت دقيقةٌ واحدةٌ كافيةٌ للشّاب لكي يعبر عدّة غُرفٍ، فارغة شأنها شأن باقي المنزل، فيبلُغ غرفة فالانتين. ولم يكن بحاجةٍ إلى أن يدفع الباب، فقد كان مشرَّعًا.

وكان أوّلُ ما التقطته أذنُه شهقةٌ. أبصر، كأنّما من خلال غمامةٍ، هيئةً سوداءَ جاثيةً وضائعةً في كومةٍ من الأغطية البيضاء. الخوفُ، الخوفُ المرعبُ سمّرَه في العتبة. وإذّاك فقط سمع صوتًا يقول «إنّ فالانتين ماتت»، وصوتًا آخر يردّ عليه كالصّدى «ماتت! ماتت!».

103

ماكسيميليان

قام فيلفور، يكاد يكون خجلانَ لأنّه ضُبط في تلك الحال من الحزن المفرط. ذاك أنّ المهنة الرّهيبة التي يؤدّيها منذ خمس وعشرين سنةً، قد جعلته شيئًا أقلّ، أو أكثر، من إنسانٍ. تعلّق بصره التّائه لحظةً بموريل.

قال: – من أنت يا سيّدي، يا من نسيت أنّ المرء لا يدخلُ بلا استئذان على بيتٍ يخيّمُ فيه الموتُ.اخرج يا سيّدي! اخرج!

لكنّ موريل ظلّ ساكنًا، لا يقدر أن يزيح بصره عن السّريرِالذي تعمّه الفوضى، والوجهِ الشّاحب المنكفئ عليه.

صاح فيلفور: – اخرج، أمَا سمعت! بينما يتقدّم دافرينيي إلى موريل ليُخرجَه.

أمّا موريل، فنظر ذاهلًا إلى الجثمان، وإلى الرّجلين، وإلى الغرفة كلّها، وبدا لوهلةٍ أنّه يتردّدُ، وفتح فمه؛ ثمّ لمّا لم يجد كلمةً يجيبُ بها، على الرّغم ممّا يصطخب في ذهنه من أفكار قاتلة، دار على عقبيه عائدًا، غارزًا يديه في شعره؛ حتّى إنّ فيلفور ودافرينيي، وقد انشغلا عن همِّهما لحظةً، وشيّعاهُ، تبادلا نظرةً مفادها: «إنّه مجنون!».

لكن قبل أن تمرَّ خمس دقائق، سُمع صوت الدّرج يئنُّ تحت تأثير ثقل معتبر، وظهر موريل رافعًا، بقوّةٍ خارقةٍ، مقعد نوارتييه بين ذراعيه، حاملًا الشَّيخَ إلى الطّابق الأوّل. ولمّا بلغ موريل أعلى الدّرج، وضع المقعد أرضًا وسحبه بسرعةٍ حتّى غرفة فالانتين. وقد أتمّ الشّابُ كلّ ذلك بقوّةٍ زادَتها حالُه المحمومةُ قوّةً.

ولا شيءَ كان يفوق هذا المشهد رعبًا: وجه نوارتييه وهو يتقدّم صوب سرير فالانتين، يدفعه موريل. وجهُ نوارتييه الذي كان الذّكاء يفيض على ملامحه، وعيناه تستجمعان كلّ قوّتهما لتحلّا محلّ جميع ملكاته المعطّلة.

لقد كان مشهد نوارتييه بوجهه الشّاحب، ونظرته المتّقدة، تجليًا مرعبًا بالنّسبة إلى فيلفور. وكان كلّما التقى بأبيه، إلا وحدث شيءٌ مرعب.

صاح موريل ويده لا تزال مستندةً إلى مسند مقعد نوارتييه الذي دفعه حتّى السّرير، ويده الأخرى تشير إلى جسد فالانتين: - انظُر ما فعلوا! انظر ما فعلوا بفالانتين يا جدّي!

تراجع فيلفور خطوةً إلى الخلف، وهو ينظر بذهولٍ إلى هذا الشّاب الذي يكاد لا يعرفه ومع ذلك ينادي نوارتييه جدَّه.

وفي تلك اللّحظة بدا أنّ روح الشّيخ بأكملها قد حلّت في عينيه، فتلوّنتا بلون الدّم؛ ثمّ انتفخت أوداجه، وسرَت في عنقه وخدّيه وصدغيه زرقةٌ شبيهة بتلك التي تجتاح جلدَ المصاب بنوبة صرع؛ لم يكن ينقص الانفجار الذي يحدث في داخله إلا أن يكلّل بصرخة. وتلك الصّرخة كانت تخرج، عبر مسامه كلّها؛ صرخةٌ مرعبةٌ في خرسها، حادّةٌ في صمتها.

هرع دافرينيي إلى الشّيخ وجعله يستنشق مثيرًا قويًا.

وإذّاك صاح موريل وهو يمسك يد المشلول الجامدة: - سيّدي! إنّهم يسألونني من أكون؟ وبأيِّ حقٍ دخلت إلى هنا؟ سيّدي، أنت تعرفُ، فاخبِرهم!

وانطفأ صوت الشّابّ منقلبًا إلى نحيب. أمّا الشّيخ، ونفَسُه اللاهثُ يهزُّ صدرَه، فقد كان يبدو كأنّما وقع فريسةً لتلك التّشنّجات التي تسبق النّزع. ثمّ أخيرًا انفجرت عينا نوارتييه بالدّمع، وكان أكثر حظًّا من الشّاب الذي يشهقُ من غير دمع.

واصل الشّابُّ بصوتٍ مخنوقٍ: - قُل لهم إنّني كنت خطيبَها! قُل إنّها كانت صديقتي النّبيلة، ومحبوبتي الوحيدة في هذا العالم! قُل لهم، قلْ، قُل إنّ هذا الجثمان لي!

ثمّ إنّ الشّاب، بعدما قدّمَ العرض الرّهيب الذي صوّر فيه كيف تنكسر قوّةٌ هائلةٌ، تهاوى جاثيًا على ركبتيه أمام السّرير الذي شدّت عليه أصابعه المتيبّسة بتشنّج.

وكان منظر الألم موجعًا لدرجة أنّ دافرينيي أدار وجهه ليُخفيَ تأثّره؛ أمّا فيلفور، فمن غيرَ أن يلحَّ في طلب الشّرح، مدّ يدَه إلى الشّابِ، مفتونًا بتلك الجاذبية التي تقرّبنا إلى أولئك الذين أحبّوا من فقدناهم؛ لكنّ موريل لم يكن يرى شيئًا؛ لقد أمسك بيد فالانتين الباردة المجمّدة، ولمّا عجز عن البكاء، عضّ على الأغطية مطلقًا زئيرًا.

لفترةٍ ظلّ لا يُسمع في الغرفة إلا صراعُ أصواتٍ بين الصّرخات، واللّعنات، والصّلوات. على أنّ ضجيجًا كان يهيمن على ذلك كلّه: تنفّس نوارتييه الأجشَّ المفجع، الذي كان يبدو أنّه، كلّما عبّ الشّيخُ نفَسًا، يقطع نابضًا من نوابض الحياة في صدره.

ثمّ إنّ فيلفور، وكان أشدّ الحاضرين امتلاكًا لزمام نفسه، بعدما ترك مكانه لوهلة، إن جاز لنا التّعبير، لماكسيميليان، بادرَ إلى الكلام.

قال لماكسيميليان: - تقول يا سيّدي إنّك كنت تحبُّ فالانتين، وإنّك كنت خطيبها؛ وكنت أنا أجهل هذا الحبّ، وأجهل هذا الارتباط؛ ومع ذلك، أنا والدُها، أسامحك، إذ أرى أنّ حُزنَك عظيمٌ وحقيقيٌّ وصادق. ثمّ إنّ حزني أنا نفسي كبيرٌ، أكبرُ من أن يترك في قلبي مكانًا للغضب. لكن ها أنت ترى أنّ الملاكَ الذي كنت تتمنّاه قد رحلَ عن الدّنيا. ما عاد يفيدُها في شيءٍ حبُّ النّاسِ، بعدما صارت تغمُرها الآن محبّةُ الربّ؛ ودّع إذًا يا سيّدي الجسدَ البائس الذي خلّفَته بيننا هنا؛ أمسك لآخر مرّةٍ

اليدَ التي كنت تتمنّاها، ثمّ فارقها إلى الأبد. فالانتين ما عادت تحتاج الآن إلّا إلى القسّ الذي ينبغي أن يباركها.

صاح موريل وهو يقوم على إحدى ركبتيه، وقلبه يعتصره ألمٌ أشدّ من كلّ ألم خبِرَه من قبل: - أنت مخطئٌ يا سيّدي: إنّ فالانتين، بعدما ماتت هذه الميتة، لا تحتاج قسًّا فحسب، وإنّما أيضًا منتقِمًا. أرسل في طلب القسّ يا سيّدي دو فيلفور؛ وأنا سوف أكون المنتقم.

غمغم فيلفور مرتجفًا من هذا الكلام الذي بدا له وليد الهذيان: - ماذا تقصد يا سيّدي؟

واصل موريل: - أقصد يا سيّدي، إنّ فيك رجلين، أبًا ووكيلَ ملك: أمّا الأبُ فقد بكى كفايتَه، وأمّا وكيلُ الملك، فإنّ مهمّتَه تبدأ الآن!

برقت عينا نوارتييه، واقترب دافرينيي.

واصل الشّابُّ وعيناه تلتقطان كلّ الأحاسيس التي تنطبع على وجه الحضور: - سيّدي، أعرف ما أقول، وأنت تعلم علم اليقين ما أقصده: فالانتين ماتت مقتولة!

خفض فيلفور رأسَه، وتقدّم دافرينيي خطوةً، وأشار نوارتييه بعينه موافقًا.

واصل موريل: - لكن يا سيّدي، لا مخلوق يختفي من هذا العالم، من غير أن نحقّق في وفاته، حتّى وإن لم يكن شابًّا وجميلًا ومحبوبًا مثلما كانت فالانتين. (واصل بصوت ما انفكّ يزداد عنفًا)، لذا يا سيّدي، لا مجال للرّحمة! ها قد بلّغتك بالجرم، فابحث عن القاتل!

وبنظرته الثابتة، ظلّ يحدّق في فيلفور الذي كان يتوسّلُ بنظرته إلى نوارتييه حينًا، وحينًا إلى دافرينيي. لكن بدلًا من أن يجد العون لدى أبيه أو الدّكتور، لم يجد لديهما إلا نظرةً ثابتةً ثبات نظرة موريل.

أشار الشّيخُ: - نعم!

قال دافرينيي: - بالتّأكيد!

أجاب فيلفور محاولًا مقاومة هذه الإرادة الثلاثية، ومقاومة عاطفته: - إنّك مخطئ يا سيّدي، لا جرائم في بيتي؛ إنّما القدرُ يعصف بي، الربّ يمتحنني؛ قد يصعب التّصديق: لكن لا أحد قُتل في بيتي!

تلظّت عينا نوارتييه لهبًا، وفتح دافرينيي فمه ليتكلّم. فمدّ موريل ذراعه آمرًا بالصّمت. وصاح بصوته الذي انخفض من غير أن يفقد شيئًا من رنينه الرّهيب: - وأنا أقول لك إنّ جرائم قتلٍ تحدث هنا! أقول لك ها هي الضّحيةُ الرّابعة قد سقطت في غضون أربعةَ أشهر. أقول لك إنّهم حاولوا تسميم فالانتين، منذ أربعة أيّام، وفشلوا بفضل الاحتياطات التي اتّخذها السيّد نوارتييه! أقول لك إنّهم قد ضاعفوا الجرعة، أو غيّروا السّمَّ، فنجحوا هذه المرّة! أقول لك إنّك تعرف كلّ هذا، قدر معرفتي أنا، ما دام سيّدي الجالس معنا قد أخبرك بذلك، بصفته طبيبًا وصديقًا.

قال فيلفور محاولًا الخروج من الدّائرة التي حُشر فيها: - أوه! إنّك تهذي يا سيّدي!

قال موريل: - أنا أهذي! حسنًا، أدعو السيّد دافرينيي لأن يتحدث بنفسه! اسأله يا سيّدي عمّا إذا كان لا يزال يتذكّر الكلام الذي قاله لك في حديقتك، هنا في منزلك، مساءَ اليوم نفسه الذي توفيت فيه السيّدة دو سان مِران، حين كنتما تتحدّثان، وأنتما تظنّان أنّ لا أحد يسمعكما، في شأن تلك المِيتة المأساوية التي لا يمكن أن نرى فيها من تدخّلٍ للقدر الذي تتكلّم عنه أنت، بغير حقٍ، سوى في مسألةٍ واحدة: خَلَقُ قاتل فالانتين!

أخذ فيلفور ودافرينيي ينظران بعضهما إلى بعض.

قال موريل: - أجل، أجل، تذكّرا، لأنّ كلامكما الذي ظننتما أنّه قد هوى في الظّلام والصّمت، قد وقع في أذنيّ. وقطعًا، لمّا رأيتُ تواطؤ فيلفور مع ذويه كان عليّ أن أبلّغ السلطات بكلّ ما سمعتُه؛ لو فعلت لما كنت شريكًا في جريمة قتلكِ، كما أنا الآن، يا فالانتين! فالانتين،

يا محبوبتي! لكنّ الشّريك سيصير المنتقم؛ إنّ هذا القتل الرّابعَ، فاضح وصريحٌ، تراه أعينُ الجميع، وإن تخلّى عنك والدك يا فالانتين، فأنا من سوف ينتقم لك، أقسم لك بأن ألاحق القاتل.

وهذه المرّة، كأنّما أشفقت الطّبيعة على هذا البدن القويّ الموشك أن ينكسر تحت وقع قوّته، فخمدت كلمات موريل الأخيرة في حلقه؛ وانفجر صدره بالشّهقات، وفاضت من عينيه الدّموع التي ظلّت عصيّة لوقتٍ طويل، وتدلّى على نفسه، وسقط على ركبتيه باكيًا قرب سرير فالانتين.

وإذّاك أتى الدّور على دافرينيي، فقال بصوتٍ قويّ: - وأنا أيضًا أضمّ صوتي إلى صوت السيّد موريل، وأطالب بالعدالة ضدّ هذا الجرم؛ لأنّ قلبي ينقبض كلّما فكّرتُ في أنّني بصمتي شجّعتُ المجرم!

غمغم فيلفور محطّمًا: - يا إلهي! يا إلهي!

رفع موريل رأسَه، وقرأ في عينيّ الشّيخ اللّتين كانتا تطلقان شررًا خارقًا: - انظرا، انظرا، إلى السيّد نوارتييه يريد الكلام.

أجاب نوارتييه: «نعم»، وعلى وجهه تعبيرٌ رهيبٌ، زادَه رهبةً تركّزُ ملكاته المعطّلة كلّها في نظرته.

قال موريل: - هل تعرف القاتل؟

أجاب نوارتييه: - نعم!

صاح الشّابُّ: - وسوف ترشدنا إليه؟ونظر إلى الطبيب: - لنصغِ، لنصغِ يا سيّد دافرينيي.

ابتسم نوارتييه للتّعيس موريل ابتسامةً كئيبة، ابتسامةً من تلك الابتسامات العذبة التي ترسمها عيناه، والتي لطالما أسعدت فالانتين؛ وركّز انتباهه. ثمّ بعد أن جعل عيني محاوره تتسمّران في عينيه، إن جاز القولُ، وجّههُما صوب الباب.

صاح موريل موجَعًا: - هل تريدني أن أخرج يا سيّدي؟

أجابه نوارتييه: - نعم!

- واأسفًا! واأسفًا يا سيّدي! أشفِق لحالي!

ظلّت عينا الشّيخ بلا شفقةٍ مسمّرتين بالباب.

سأله موريل: - هل لي على الأقلّ أن أعود؟

- نعم.

- هل يفترض بي أن أخرج بمفردي؟

- لا.

- من أُخرج معي؟ سيّدي وكيل الملك؟

- لا.

- سيّدي الطّبيب؟

- نعم.

- تريد أن تبقى بمفردك مع السيّد فيلفور؟

- نعم.

- وهل يستطيع فهمك؟

- نعم.

قال فيلفور، وهو يكاد يكون جذلًا لأنّ التحقيق سيجمعه بأبيه لوحدهما: - هيّا واطمئنَّ، أنا أفهم أبي جيّدًا.

وعلى الرّغم من أنّ وكيل الملك قال ذلك بتعبير الفرح الذي أشرنا إليه، إلا أنّ أسنانه كانت تصطكُّ بعنف.

أمسك دافرينيي بذراع موريل وقاده إلى الغرفة المجاورة. فخيّم على المنزل صمتٌ أعمقُ من صمت الموت. وبعد أن مرّت ربع ساعةٍ، تناهى وقع خطواتٍ مترنّحة، وظهر فيلفور أخيرًا عند عتبة الصالون حيث يوجد دافرينيي وموريل؛ هذا ذاهلٌ وذاك مختنق.

قال: - تعالا. وقادهما إلى مقعد نوارتييه.

أمعن موريل التّحديقَ في فيلفور. كان وكيل الملك شاحبًا؛ بقعٌ

واسعةٌ بلون الصّدأ لطّخت جبينه وبين أصابعه، وفي يده ريشةٌ قد تمزّقت تمامًا.

قال لدافريني وموريل: - سيّداي، أريد منكما كلمة شرفٍ، أن يبقى السرُّ حبيسًا بيننا!

انتفض الرّجلان. وواصل فيلفور: أتوسّلُ إليكما...

قال موريل: - لكن ماذا عن المذنب! القاتل! المجرم!

قال فيلفور: - اطمئنّ يا سيّدي، إنّ العدالة نافذةٌ لا محالة. لقد أخبرني أبي باسم القاتل؛ وأبي متعطّشٌ، مثلما أنتما متعطّشان، إلى الانتقام، لكنّه يتوسّل إليكما أن تحفظا سرّ الجريمة.

أليس كذلك يا أبي؟

وأشار نوارتييه موافقًا.

ندّت عن موريل حركة رعبٍ وعدم تصديق.

صاح فيلفور وهو يوقف ذراع ماكسيميليان: - آه يا سيّدي، إذا ما كان والدي، وهو الرّجل العنيد كما تعرف، قد وافق على أن يبقى الأمر سرًا، فإنّما لأنّه يعلم علم اليقين أنّنا سننتقم لفالانتين شرّ انتقام.

أليس كذلك يا أبي؟

أشار نوارتييه إشارة الموافقة.

واصل فيلفور: - إنّ والدي يعرفني حقّ المعرفة، وقد قطعت له كلمتي. فلتطمئنّا إذًا يا سيّدايَ، كلُّ ما أطلبه منكما ثلاثة أيّام، ثلاثة أيّام هي مدّة أقلّ ممّا تتطلّبه العدالةُ، وبعدها سوف انتقم لطفلتي انتقامًا ترتجفُ له قلوب حتّى أكثر النّاس لا مبالاةً.

أليس كذلك يا أبي.

وإذ نطق وكيل الملك عبارته الأخيرة صرّ على أسنانه، وهزّ يد الشّيخ المتيبّسة.

سأل موريل نوارتييه، بينما عين دافرينيي تُسائله: - هل سيوفى بالوعد يا سيّدي نوارتييه؟

أجاب نوارتييه بنظرة يفيض منها فرحٌ مخيف: - نعم.

قال فيلفور وهو يضمّ يديّ موريل ودافرينيي: - أقسما على أن تحفظا شرف بيتي، وتتركا لي مهمّة الانتقام.

أشاح دافرينيي بوجهه وغمغم «نعم» بصوت خافت، أمّا موريل فسحب يده من يد القاضي، وركض إلى سرير فالانتين يطبع شفتيه على شفتيها الجامدتين، ثمّ فرّ مطلقًا أنين روحٍ يغرقُ في اليأس.

كنّا قد قُلنا إنّ الخدم قد غادروا المنزِل جميعًا. لذا اضطرّ السيّد دو فيلفور إلى أن يطلب من السيّد دافرينيي أن يتكلّف بالتّدابير، الكثيرة والمعقّدة، التي يستتبعها الموتُ في مدننا الكبرى، خاصّةً إذا ما كان هذا الموت محاطًا بظروف مشبوهة. أمّا نوارتييه، فكان أمرًا فظيعًا رؤية ألمه ويأسه ودموعه، ألمٌ بلا حركة، ويأسٌ بلا فعل، ودموع بلا صوت.

دخل فيلفور إلى مكتبه؛ قصد دافرينيي طبيبَ البلديّة الذي يتكلّف بمهمّة التفتيش بعد الوفاة، ويلقّبونه بسبب مهمّته تلك: طبيب الموتى. أمّا نوارتييه فلم يرد أبدًا أن يفارق حفيدته.

وبعد نصف ساعةٍ عاد دافرينيي مع زميله؛ وكانت أبواب الشّارع قد أُغلقت، وبما أنّ البواب كان في جملة الخدم الذين هربوا، فقد اضطرّ السيّد دو فيلفور إلى أن يفتح الباب بنفسه. لكنّه توقّف عند العتبة، إذ لم تعد له الشّجاعة لكي يدخل إلى غرفة الميّتة. فدخل الطّبيبان إذًا بمفردهما إلى غرفة فالانتين.

كان نوارتييه قرب السّرير، شاحبًا كشحوب الميّتة، وساكنًا وصامتًا مثلها.

اقترب طبيب الموتى، بلامبالاة الرّجل الذي قضى نصف حياته بين الجثث، ورفع الغطاء عن جثمان الصّبيّة، واكتفى بأن فتح الشّفتين.

قال دافرينيي متنهّدًا: - أوه! يا للطّفلة المسكينة، لقد ماتت، هيّا.

أجاب الطّبيب باقتضاب وهو ينزل الغطاء الذي كان يستر وجه فالانتين: - نعم.

أطلق نوارتييه أنّةَ تذمّر مكتومةً. استدار دافرينيي، فرأى عينيّ الشّيخ متّقدتين. أدركَ الطّبيبُ الطّيّبُ بأنّ نوارتييه يريد رؤية طفلته، فقرّبَه من السّرير، وبينما كان طبيبُ الموتى يغمس في محلول الكلور أصابعه التي لمس بها شفتيّ الميّتة، كان هو يتأمّل الوجه الهادئ الشّاحب الذي يبدو كوجه ملاكٍ نائم.

لمعت في طرف عين الشّيخ دمعةٌ كانت بمثابة كلمة الشّكر من نوارتييه للطّبيب الطيّب.

كتب طبيب الموتى تقريره على طرف المنضدة في غرفة فالانتين نفسها، وما إن أتمّ مهمّته الشّكلية السّامية، حتّى انصرف يقوده السيّد دافرينيي بنفسه.

سمعهما السيّد فيلفور ينصرفان، فظهر مجدّدًا عند باب مكتبه. بكلماتٍ شكرَ الطّبيب، ثمّ التفت إلى دافرينيي قائلًا:

- والآن! هل نستدعي القسّ؟

سأله دافرينيي: - هل تريد كاهنًا معيّنًا ليصلّي على فالانتين؟

قال فيلفور: - كلاّ، اطلب أقرب كاهن.

- أقرب كاهنٍ، هو قسٌّ إيطاليّ طيّبٌ، انتقل حديثًا إلى السّكنى في المنزل المجاور.

قال فيلفور: - اصطحبه رجاءً إلى هنا يا دافرينيي. وهاك المفتاحَ لتستطيع أن تدخل وتخرج من المنزل كما تشاء. عليك أن تحضر القسّ، وتتكلّف بإدخاله إلى غرفة طفلتي المسكينة.

- هل ترغب في الحديث إليه يا سيّدي؟

- أرغب في البقاء وحدي. وسوف تعذرني، أليس كذلك؟ على القسّ أن يتفهّم كلّ الآلام، وخاصةً آلام الأب.

ثمّ إنّ فيلفور أعطى دافرينيي مفتاحًا يفتح جميع الأبواب، وحيّا الطّبيبَ الغريبَ مرّةً أخرى، ولاذ بمكتبه، حيث عاد إلى شغله. إنّ الشّغل لبعض النّفوس بمثابة الدّواء لكلّ الأدواء.

ولمّا نزل الطّبيبان إلى الشّارع، أبصرا رجلًا يرتدي رداء كاهنٍ، واقفًا عند عتبة باب بيته المجاور لبيت وكيل الملك.

قال طبيب الموتى لدافرينيي: - هو ذا الرّجل الذي كنت أحدّثك عنه.

بادر دافرينيي الكاهنَ، قائلًا: - سيّدي، هل تستطيع أن تؤدّي خدمةً جليلةً لرجلٍ شقيٍّ، فقد للتوّ ابنتَه، وأقصد السيّدَ فيلفور وكيلَ الملك؟

أجاب الكاهنُ بلكنةٍ إيطالية رفيعةٍ: - آه! نعم، أعرف أنّ الموت مستقرٌّ في منزله.

- لا أحتاج إذًا إلى أن أبيّن لك أيّ الخدمات يحتاجك فيها.

قال القسّ: - كنت أصلًا أتأهّبُ لأذهب عنده، فأعرض عليه خدماتي، إنّ من واجبنا أن نبادر لمن هم في حاجةٍ إلينا.

- إنّها صبيّة.

- أوه، أعرف ذلك. لقد أخبرني الخدمُ الذين رأيتهم يفرّون من المنزل. عرفت أنّ اسمها فالانتين، وقد صلّيت لروحها.

قال دافرينيي: - شكرًا يا سيّدي، شكرًا، وما دمت قد شرعت في مهمّتك الجليلة، فتكرّم علينا وأتممها. تعالَ، فجالِس الميّتة، وسوف تدين لك بالعرفان عائلةٌ غارقةٌ في الحداد.

أجاب القسّ: - سآتِي معك يا سيّدي، وأجرؤ على القول إنّ لا صلاةَ ستكون أشدُّ ضراوةً من صلواتي.

أمسك دافرينيي بيد الرّاهب، وقاده حتّى غرفة الميّتة، من غير أن يقابلا

فيلفور الذي أقفل على نفسه باب مكتبه؛ وكان يفترض ألا تتمّ مراسيم الدّفن إلا في اليوم التّالي.

ولمّا دخلا الغرفة، صادفت عينَي الرّاهب عينا نوارتييه، ولا بدّ أنّ الشيّخ قد رأى في العينين شيئًا مميّزًا، إذ لم يفارق بنظره الرّاهبَ.

طلب دافرينيي من القسّ ألّا يصلّيَ للميّتة، فحسب، وإنّما أيضًا للحيّ، فوعد القسُّ الطّبيبَ بأن يولي فالانتين صلاتَه ونوارتييه عنايتَه.

انطلق الرّاهب في مهمّته برسميّةٍ، وقطعًا، لكي لا يزعجَه أحدٌ في عمله أو يُزعج نوارتييه في حزنه، فقد أغلق الغرفةَ عليهما، ما إن انصرف دافرينيي، ولم يكتفِ بإغلاق أقفال باب الغرفة، وإنّما أيضًا أغلق الباب الفاصل بينها وبين غرفة السيّدة دو فيلفور.

104

توقيع دانغلار

أطلَّ اليومُ التّالي كئيبًا غائمًا. وكان متعهّدو الدّفن قد أتّموا أثناء اللّيل عملهم الجنائزيّ، فخاطوا على الجسد الممدّد في السّرير، الكفنَ الذي يلفُّ الموتى بحزنٍ مانحًا إيّاهم، ما قد نسمّيه، شرعيّةً إزاء الموت، علامةً أخيرةً على شيء من الرّفاه للذي كانوا يحبّونه قيدَ حياتهم. ولم يكن كفنُ فالانتين إلا ثوبَ باتيست رائعًا اشترته الصبيّةُ قبل وفاتها بخمسة عشر يومًا.

في المساء قام رجالٌ، استُدعوا لأداء تلك المهمّة، بنقل نوارتييه من غرفة فالانتين إلى غرفته، وضدًا على كلّ توقّع لم يُبد الشّيخ أيّ مقاومة للتّفريق بينه وبين طفلته.

وكان الأب بوزوني قد سهر على البنت حتّى طلع الصّباح، فانصرف من غير أن ينادي أحدًا. وحوالى الثامنة صباحًا عاد دافرينيي؛ وصادف فيلفور الذي كان يقصد نوارتييه ليطمئنُّ عليه، فرافقه ليرى كيف قضى الشّيخ ليلته. ألفياه في المقعد الكبير الذي يتّخذه سريرًا، نائمًا في دعةٍ يكاد يبتسم. توقّف الرّجلان عند العتبة مندهشَيْن.

قال الطّبيب لفيلفور الذي كان يحدّق في أبيه نائمًا: – انظر! إنّ الطّبيعة تستطيع أن تهدّئ حتّى أقسى الآلام. لا أحد يستطيع أن يجادل في حبّ نوارتييه لابنته، ومع ذلك ها هو ذا نائمٌ.

أجاب فيلفور متعجّبًا: – أجل، أنت محقٌّ، إنّه نائمٌ، وهذا غريب جدًا، ذاك أنّ أدنى اضطرابٍ في المنزل يتركه مؤرّقًا لياليَ بأكملها.

أجاب دافرينيي: – لقد هدَّه الألم.

ثمّ انطلقا معًا إلى مكتب وكيل الملك غارقَين في الهواجس.

قال فيلفور وهو يشير لدافرينيي إلى سريره الذي لم يمَسّ: - انظر إليّ أنا، لم أنم. أنا لم يهدّني الألم، رغم أنّني لم أنم لليلتين متواصلتين؛ لكن، انظر بالمقابل إلى مكتبي؛ إلهي كم كتبتُ! يومان وليلتان! كم راجعتُ من ملفّات، وكم دوّنت في مرافعة اتّهام القاتل المدعو بينيديتو... آه أيّها العمل، أيّها العمل! أنت يا شغفي، ويا فرحي، ويا غضبي، أنت يا من ينقض الآلام جميعًا!

ثمّ صافح دافرينيي بتشنّج.

قال الدّكتور: - هل تحتاَج إليَّ في شيء؟

- كلّا، لكن عُد في الحادية عشرة رجاءً؛ ففي منتصف النّهار موعدُ... الانطلاق... آه يا إلهي! يا طفلتي المسكينة! يا طفلتي المسكينة!

ثمّ إنّ فيلفور، وقد تخلّى عن عباءة وكيل الملك، وعاد إنسانًا، رفع عينيه إلى السّماء وأطلق تنهيدةً.

- سوف تقف إذًا في استقبال المعزّين؟

- كلّا، عندي ابن عمٍّ سيتكفّل بهذا الشّرف المحزن؛ أمّا أنا يا دكتور، فسوف أشتغل في مكتبي، فعندما أشتغل يتبدّد كلّ شيء.

وبالفعل ما كاد الدكتور يبلغ الباب حتّى انطلق وكيل الملك إلى العمل.

عند عتبة الباحة التقى دافرينيي بالقريب الذي ذكره فيلفور، وهو شخصيّةٌ غير ذات شأنٍ، لا في قصّتنا هذه، ولا وسط العائلة، إنّه واحدٌ من تلك المخلوقات المنذورة منذ ولادتها للاضطلاع بمهمّة إسداء الخدمات.

كان دقيقَ الموعد، يرتدي السّواد، وقد عقد على ذراعه شريط حِداد، وقصد منزل قريبه متّخذًا سُحنةً كان ينوي أن يحتفظ بها طالما يقتضي الأمر ذلك، ويتركها عندما ينتهي دوره.

في السّاعة الحادية عشرة، كانت العربات تسير على بلاط الباحة، وامتلأت ضاحية سان أونوريه بهمهمات الحشدِ من المتعطّشين لأفراح الأغنياء وأتراحهم، الحشد الذي يهرع إلى جنازةٍ فخمةٍ بنفس اللّهفة التي يهرع بها إلى عرس دُوقة.

شيئًا فشيئًا بدأت صالة العزاء تمتلئُ، وبدأ يُرى جزءٌ من معارفنا السّابقين، أي دُبراي، وشاتو رونو، وبوشان، ثّم كلُّ الوجوه البارزة في سلك القضاء، والأدب والجيش؛ ذاك أنّ السيّد دو فيلفور كان يحتلّ بفضل مكانته الاجتماعية، أكثر ممّا بفضل استحقاقه، موقعًا بارزًا في باريس.

وكان القريب واقفًا بالباب يشرفُ على استقبال جميع المعزّين، وقد وجد اللامبالون راحة كبيرة، في أن يستقبلهم وجهٌ لا مبالٍ، وجهٌ لا يضطرّهم إلى أن يُلبسوا وجوههم حزنًا كاذبًا أو يذرفوا دموعًا زائفة، مثلما كان ليضطرّهم أبٌ أو أخٌ أو خطيب.

أولئك الذين كانوا يعرفون بعضهم بعضًا، كانوا يتنادونَ بالنّظرات، فيجتمعون في زُمَر. ومن جملة تلك الزّمر كانت زمرةٌ مؤلّفةٌ من دُبراي، وشاتو رونو وبوشان.

قال دُبراي مشاركًا مثل الجميع، رغمًا عنه، بحصّته في تحمّل هذا الحدث الأليم: - يا للصبيّة المسكينة! ماتت وهي في عزّ الجمال والغِنى! هل كنت لتظنَّ هذا يا شاتو رونو، عندما التقينا... منذ أيام عدّةٍ؟... منذ ثلاثة أسابيع، أو شهر على أكثر تقدير، لكي نوقّع العقد؟

قال شاتو رونو: - لا، والحقُّ أقولَ.

- هل كنت تعرفُها؟

- تحدّثتُ إليها مرّةً أو مرّتين في الحفل الرّاقص عند السيّدة دو مورسيرف. وبدت لي صبيّةً حلوة وإن كانت كئيبة المزاج بعض الشّيء. أين هي زوجة أبيها؟ هل تعرفون؟

- لقد ذهبت تقضي النّهار عند زوجة الرّجل الشّهم الذي استقبلنا.

- ومن هو؟

- من تقصد؟

- الرّجل الذي استقبلنا، هل هو أحد النوّاب؟

قال بوشان: - كلّا، إنّني محكوم برؤية نوّابنا المحترمين كلّ يومٍ، ووجهه غير مألوفٍ عندي.

- هل كتبت عن هذا الموت في جريدتكم؟

- نعم، لكنّني لست أنا من كتب المقال؛ لا بل أشكّ في أنّه سيعجب السيّد دو فيلفور. لقد ذُكر في المقال أنّ الميتات الأربع، لو أنّها حدثت في مكانٍ آخر غير بيت وكيل الملك، فلربّما أثّرت فيه أكثر ممّا أثر فيه حدوثها في بيته.

قال شاتو رونو: - الحقّ أنّ الدّكتور دافرينيي، وهو طبيب والدتي، يدّعي أنّ وكيل الملك في أعلى درجات اليأس.

- لكن، عمّن تبحث يا دُبراي؟

أجابه الشّاب: - أبحث عن السيّد دو مونت كريستو.

قال بوشان: - لقد صادفته في طريقي إلى هنا. من الطّريق التي سلكها، أظنّهُ يقصد مصرفيَّه.

سأل شاتو رونو دُبراي: - عند مصرفيّه؟ أليس مصرفيّه هو السيّد دانغلار؟

أجاب السكرتير الخصوصيّ بشيءٍ من الاضطراب: - أظنُّ ذلك؛ لكنّ السيّد دو مونت كريستو ليس الوحيد الغائب هنا، إنّني لا أرى أيضًا السيّد موريل.

سأله شاتو رونو: - موريل! وهل كان على معرفةٍ بهم؟

- أظنُّ أنّه قد قُدِّم إلى السيّدة دو فيلفور وحدها.

قال دُبراي: - وإن، كان لا بدّ له من الحضور؛ عمّ سيتحدّث اليوم؟ إنّ

هذا الدّفنَ هو موضوع السّاعة؛ لكن، صمتًا، هو ذا السيّد وزير العدالة، وسوف يظنُّ نفسَه مضطرًا إلى إلقاء خطبةٍ قصيرة على القريب الباكي.

ثمّ إنّ الشّبان الثلاثة دنوا من الباب لكي ينصتوا إلى خطاب وزير العدل.

ولم يخطئ بوشان التوقّعَ حين كان في طريقه إلى العزاء والتقى بمونت كريستو، ذاك أنّ الكونت بالفعل كان متوجّهًا إلى منزل دانغلار، بشارع شوسيه دانتان.

وقد لمح المصرفيُّ، من نافذته، عربةَ الكونت وهي تدخل إلى الباحة، فاستقبله بوجهٍ حزينٍ لكن بشوش.

قال وهو يمدّ يدَه إلى مونت كريستو: - وإذًا يا سيّدي الكونت، هل أتيت تقدّم لي العزاء. الحقّ أنّ المصائب حلّت بمنزلي، حتّى إنّني تساءلتُ لمّا رأيتك عمّا إذا كنتُ قد تمنّيت المصائب لآل مورسيرف، فجوزيت بما تمنّيته لغيري، مصداقًا للمثل: من يتمنّى الشّرَ، يلقاه. والحقُّ أنّي بشرفي لم أتمنَّ الشّرَ لمورسيرف؛ ربّما كان متغطرسًا بعضٍ الشّيءِ، قياسًا إلى كونه رجلًا انطلق من الصّفر، مثلي أنا تمامًا، لكن لكلٍّ منّا عيوبه. آه... إنّ أبناء جيلنا... لكن اعذرني يا سيّدي الكونت، أنت لست من أبناء جيلي، أنت رجلٌ شابٌّ... إنّ أبناء جيلي ليسوا سعداء في هذه السّنة، والشّاهدُ على ذلك صاحبنا وكيل الملك المتزمّت، فيلفور الذي فقد ابنته للتّو. وعليه تستطيع أن توجز: فيلفور، كما قلنا، فقد أسرتَه كلّها بطريقةٍ غريبة؛ ومورسيرف، أصابه العارُ، وهلك؛ وأنا، صرت مَضْحكةً بسبب هذا المدعو بينيديتو، ثمّ...

سأله الكونت: - ثمّ ماذا؟

- واأسفًا! أنت لا تعرف إذًا؟

- مصيبةٌ أخرى؟

- ابنتي...

- الآنسة دانغلار؟

- لقد رحلت عنّا يوجيني.

- أوه! يا إلهي! لا تقل هذا!

- أقول الحقَّ يا عزيزي الكونت. يا إلهي! ما أسعدك أنت الذي ليس لكامرأةٌ ولا طفلٌ!

- تظنُّ ذلك؟

- أوه! يا إلهي!

- وقلت إنّ الآنسة يوجيني....

- لم تتحمّل الإهانة التي تسبّب لنا فيها ذاك البائس، فطلبت الإذن في السّفر.

- وسافرت؟

- تلك اللّيلة.

- وسافرت معها السيّدة دانغلار؟

- كلّا لقد سافرت مع قريبةٍ... لكن مع أنّه سفرٌ لكنّني أعتبر أنّنا فقدنا العزيزة يوجيني؛ لأنّني أشكّ أنّ ابنتي، بما عُرف عنها من حدّة المزاج، قد ترجع يومًا إلى فرنسا!

قال مونت كريستو: - وما العمل يا عزيزي البارون، إنّها أحزانٌ عائلية، أحزانٌ قد تكون قاتلةً لبائس جعل عزاءَه كاملًا في الأبناء، لكنّها أحزانٌ محتملةٌ بالنّسبة إلى مليونير. فمهما أسهب الفلاسفةُ في هذه القضية إلا أنّ الرّجال العَمليِّين دائمًا ما سيقدّمون لهم الحجّج الملموسة على خطأ تقديرهم. إنّ في النّقود الكثير من العزاء؛ ولا أرى أسرع منك في إيجاد العزاء، وأنت المحيطُ بفضائل هذا البلسم الملكيّ. أنت يا ملك المال، النّقطة التي إليها تؤول كلّ سُلطةٍ.

نظر دانغلار إلى الكونت بطرف خفيّ ليتحقّق ممّا إذا كان الرّجل جادًا، أم إنّه يسخر منه.

قال: - نعم، الحقّ أنّه لو كان في الثروة العزاء، لتعزّيتُ، لأنّني غنيٌّ.

- غنيٌّ جدًا يا سيّدي البارون، إلى درجة أنّ ثروتك قد تشبَّهُ بالأهرامات؛ من أراد هدمها، فلن يجرؤ؛ فإن جرُؤ، لن يقدر.

ابتسم دانغلار لهذه الثقة الطّيّبة التي أبداها الكونت، وقال: - كلامك يذكّرني بأنّني، حين دخلت عليّ، كنت أحرّر خمس إيصالاتٍ بسيطة؛ وقد وقّعت منها اثنين، فهل تسمح لي بأن أكمل توقيع الثلاثة الباقية؟

- وقِّع يا عزيزي البارون، وقّع.

خيّمت لحظة صمتٍ، لم يسمع خلالها إلا صوت يراع المصرفيّ، بينما مونت كريستو يتأمّل النّقوش الذّهبيّة في السّقف.

قال مونت كريستو: - أهيَ سنداتُ إسبانيا، أم سندات هايتي، أم سندات نابولي؟

قال دانغلار وهو يضحك ما طاب له: - كلّا، إنّها سنداتٌ لحامله، سنداتٌ إلى مصرف فرنسا. انظُر يا سيّدي الكونت، هل سبق لك أن رأيت، وأنت إمبراطور المال إن كنتُ أنا ملكَه، هل سبق لك أن رأيتَ أمثال خِرق ورق بهذا الحجم، تحمل كلّ واحدة منها مليونًا؟

تناول مونت كريستوالخِرَق الخمس التي مدّها المصرفيُّ بفخرٍ، وهزّها في يده كأنّما يزِنُها، وقرأ فيها:

«**إلى السيّد مدير البنك،**

فضلًا ادفع بأمرٍ منّي، ومن رصيدي المودع عندكم، مبلغ مليون.

البارون دانغلار».

قال مونت كريستو: - واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة ملايين! اللّعنة! هذا كثير يا مولاي كريسيوس[1]!

قال دانغلار: - هذه طريقتي في إدارة الأعمال!

(1) كريسيوس، حاكم ليديا (حكمها بين سنتَي 546-560 ق. م.)

- رائع، وخاصّة إذا كان المبلغ، كما أظنُّ، سيُدفَع نقدًا.
قال دانغلار: - نعم، سيدفع نقدًا.
- جميل أن يرى المرء رصيدًا مماثلًا، الحقّ أنّنا لا نرى هذا إلا في فرنسا: خمس ورقاتٍ قيمتُها خمسةُ ملايين، ينبغي أن يراها المرء بعينيه ليصدّقَ.
- تشكُّ؟
- كلّا.
- لكنّك تتكلّمُ بنبرة... حسنًا، متّع نفسَك: رافق كاتبي إلى المصرف، وسوف تراه بنفسك يخرج بإيصالات من الخزينةِ، بنفس مبلغ هذه الإيصالات.
قال مونت كريستو وهو يطوي الأوراق: - كلّا، كلّا لعمري، إنّ الأمر مثير للفضول، إلى درجة أنّني سوف أجرّبه بنفسي. إنّ رصيدي عندك ستّة ملايين، وقد أخذت منها تسعمائة ألف فرنك؛ بقي لي عندك إذًا خمسة ملايين ومائة ألف فرنك. آخذ منك إذًا الأوراق الخمس التي أعتبرها إيصالات صالحةً، لمجرّد أنّها تحمل توقيعك، وهذا وصلٌ عامٌّ منّي بستة ملايين، ممّا يجعلنا متخالصَين. لقد جهّزتُ الوصل مسبقًا، لأنّني ينبغي أن أقول لك إنّني بحاجة ماسّة إلى المال اليوم.
وبيدٍ واحدةٍ وضع مونت كريستو الأوراق الخمسة في جيبه، بينما يمدّ باليد الأخرى الوصلَ للمصرفيّ.
ولو أنّ الصّاعقةَ ضربت عند قدميّ دانغلار لما أرعبته مثلما أرعبَه فعلُ الكونت.
تَمتَم: - ماذا! ماذا! سوف تأخذ هذا المال يا سيّدي الكونت؟ أوه، آسف! آسف، إنه مبلغ مستحقٌّ للمؤسّسات الخيرية، مبلغٌ وُضع عندي على سبيل الإيداع، وقد وعدتُ بأن أعيدَه هذا الصّباح.
قال الكونت: - آه! الأمر مختلف إذًا. أنا لست متعلّقًا بهذه الأوراق

بالذّات، تستطيع أن تدفع لي من سنداتٍ أخرى؛ إنّما أخذت هذه بدافع الفضول لا أكثر، كنت أريد أن أقول للعالم إنّ مؤسّسة دانغلار قد دفعت لي خمسة ملايين دفعةً واحدة ونقدًا، من غير أن أعلمها مسبقًا، ولا حتّى أن تطلب منّي مهلة خمس دقائق! كان الأمر ليكون مميّزًا! لكن، ها سنداتك؛ وأكرّر لك، أعطني غيرها.

ثمّ إنّ الكونت مدّ السّندات إلى دانغلار الذي، شاحبًا، مدّ يده أوّلًا، مثل النّسر الذي يمدُّ مخالبَه عبر قضبان القفص ليتمسّك بقطعة اللّحم التي نتزعها منه. ثمّ فجأةً غيّر المصرفيّ رأيَه، وبذل جهدًا كبيرًا، فضبط نفسَه. ثمّ ارتسمت في وجهه ابتسامةٌ، فجعلت أساريرُ وجهه المصدوم تنفرّج.

قال: - الحقّ إنّ وصلَك أيضًا نقودٌ!

- أوه! إلهي، نعم! ولو أنّك كنت في روما، فإنّ مؤسّسة **طومسون وفرانش** ما كانت لتضع، أمام صرفِ وصلي، عراقيلَ كهذه التي وضعتها أنت!

- آسف يا سيّدي الكونت، آسف.

- هل أستطيع إذًا أن أحتفظ بهذه النّقود؟

قال دانغلار وهو يمسح العرق المتلألئ عند منابت شعره: - نعم، نعم، احتفظ بها!

وضع مونت كريستو الأوراق في جيبه بتلك الحركة الجسدية التي تعني: - اللّعنة! فكّر؛ إن كنت تريد أن تغيّر رأيك، فإنّ الأوان لم يفت بعد.

قال دانغلار: - كلّا، كلّا؛ قطعًا تستطيع الاحتفاظ بتواقيعي يا سيّدي. واعذرني، فأنت تعرف أنّ لا أحد يهتمّ بالشّكليات قدر اهتمام المصرفيِّ بها؛ كنت أنوي أن أوّجه هذا المال إلى المؤسّسات الخيرية، فظننتُني أسرقهم إن لم أعطِهم هذا المال بالتّحديد، وكأنّما ليس الفلسُ نظيرَ الفلس. اعذرني!

ثمّ انخرط في ضحكٍ ضاجٍّ، ولكن متشنّج.

أجاب الكونت بلطف: - أعذرك، وأقبلُها.

ثمّ إنّ الكونت وضع السّندات في محفظته.

قال دانغلار: - لكن، لا يزال لك عندي مبلغ مائة ألف فرنك.

قال الكونت: - أوه! مبلغ تافهٌ. إنّ قيمة الخدمات البنكية قد تساويه تقريبًا؛ فاحتفِظ به، ونكون متخالصَين.

قال دانغلار: - هل أنت جادٌّ يا سيّدي الكونت؟

أجاب الكونت بجديّة تلامس الوقاحة: - أنا لا أمزح أبدًا مع المصرفيّين.

ثمّ قصد الكونت الباب، في اللّحظة نفسها التي أتى فيها الخادم معلنا:

- السيّد بوفيل، المدير الماليّ العامّ للمؤسّسات الخيرية.

قال مونت كريستو: - إلهي، يبدو أنّني أتيت في الوقت المناسب لأغنم تواقيعك، وإلا لتنازعناها.

شحب دانغلار مجدّدًا، واستعجل انصرافَ الكونت.

تبادل الكونت تحيّةً متكلّفة مع السيّد بوفيل الذي كان جالسًا في صالون الانتظار، وأُدخِلَ إلى مكتب السيّد دانغلار ما إن غادره السيّد مونت كريستو.

ولو أنّ النّاظر إلى الكونت تفرّس في وجهه الجادّ، لرآه يشرق بابتسامةٍ عابرة، وهو يتأمّل المحفظة التي يحملها المدير الماليّ في يده.

ولمّا خرج من المنزل، ركب عربته وانطلق من فوره إلى المصرف.

أثناء ذلك استقبل دانغلار المديرَ الماليّ العام، وهو يكظمُ كلّ أثر انفعالٍ. ولا نحتاج أن نقول إنّ الابتسامة واللّطف في شفتيه كانا نمطيّين.

قال: - صباح الخير يا سيّدي الدّائن، لأنّني أراهن أنّ الدّين هو ما أتى بك إليّ، أليس كذلك؟

قال السيّد دو بوفيل: - بلى يا سيّدي البارون، إنّ تخمينك في محلّه،

إنّ المؤسّسات الخيرية تتوجّه إليك في شخصي؛ الأرامل واليتامى يسألونك، على يديّ، صدقةً مقدارُها خمسة ملايين.

قال دانغلار مواصلًا المزحة: - ويُقال إنّ اليتامى يشتكون! يا للأطفال المساكين!

قال السيّد دو بوفيل: - وها قد أتيتُ باسمهم. هل توصّلتَ برسالتي أمس؟

- نعم.

- وها هو ذا وصلي.

قال دانغلار: - عزيزي السيّد دو بوفيل، سوف يتكرّم علينا أيتامك وأراملك، بعد إذنك، بمهلة أربعٍ وعشرين ساعةً، بالنّظر إلى أنّ السيّد مونت كريستو الذي رأيتَه يخرج من عندي... لقد رأيتَه، أليس كذلك؟

- بلى، ثمّ؟

- ثمّ إنّ السيّد مونت كريستو قد أخذ ملايينَهم الخمسَة.

- كيف؟

- لقد كان للكونت رصيدٌ مفتوح عندي، رصيدٌ من طرف مؤسّسة **طومسون وفرانش** في روما. وقد أتى يطلب منّي مبلغ خمسة ملايين دفعةً واحدة؛ وقد أعطيتُه صكًّا يصرفه في المصرف، حيث أُودع أموالي؛ ولا بدّ أنّك تفهم، يا سيّدي المدير الماليّ، أنّني أخشى إن أنا سحبت من المصرف عشرة ملايين في يوم واحدٍ، أن يبدوَ لهم الأمر مريبًا. (ثمّ أضاف دانغلار باسمًا) أمّا إن سحبتُها في يومين، فلا بأس.

صاح السيّد دو بوفيل بنبرةٍ من لم يصدّق حرفًا: - تمزح معي! خمسة ملايين دفعةً واحدةٍ لهذا الرّجل الذي خرج لتوّه، وحيّاني وهو يغادر تحيّة من يعرفني؟

- ربّما يعرفك من غير أن تعرفَه أنت. إنّ السيّد مونت كريستو يعرف الجميع.

- خمسة ملايين!

- هو ذا وصله. افعل كما فعل القدّيس توما: انظُر والمس[1].

تناول السيّد دو بوفيل الورقة التي عرضها عليه دانغلار، وقرأ:

«**وصلٌ للسيّد البارون دانغلار بقيمة خمسة ملايين ومائة ألف فرنك، تُؤدّى له متى ما شاء، من حساب مؤسّسة طومسون وفرانش**».

قال دو بوفيل: أنت محقّ!

- هل تعرف مؤسّسة **طومسون وفرانش**؟

- نعم لقد تعاملت معها، فيما مضى، بمعاملة قدرها مائتا ألف فرنك؛ لكنّني لم أسمع عنها مذّاك.

قال دانغلار وهو يلقي بلا مبالاةٍ، على المكتب بالوصل الذي أخذه من يد دو بوفيل: - إنّها من أفضل المؤسّسات في أوروبا.

- وكان لديه رصيد خمسة ملايين، فقط عندك؟ آه! لا بدّ أنّ هذا الكونت مونت كريستو واسع الثّراء!

- الحقُّ أنّي لا أحيط بثروته علمًا، لكنّه كان يملك ثلاثة أرصدة مفتوحة: واحدٌ عندي، وواحدٌ عند روتشيلد، وثالث عند لافيت. (أضاف دانغلار بلا مبالاة)، وقد فضّلني على المؤسّستين الأخريين، وترك لي مائة ألف فرنك نظير الخدمات المصرفية.

بدت على ملامح دو بوفيل كلّ أمارات الإعجاب.

قال: - عليّ أن أقصده، فأسأله شيئًا من الهبات لنا.

- أوه! اعتبر نفسك قد حصلت عليها؛ إنّ صدقاته وحدَها، تبلغ أكثر من عشرين ألف فرنك في الشّهر.

- رائع؛ ثمّ إنّني سأذكر له مثال السيّدة دو مورسيرف وابنها.

---

(1) في العهد القديم، رفض القديس توما الحواريُّ التصديق في قيامة المسيح، حتّى رأى الجراح ولمسها.

- أيّ مثال؟
- لقد تبرّعا بثروتهما كاملة إلى المؤسّسات الخيرية.
- أي ثروة؟
- ثروتهما التي ورثاها عن المرحوم الجنرال مورسيرف.
- وبأيّ داع؟
- بدعوى أنّهما لا يريدان ثروةً حُصّلت بطريقة قذرة.
- وكيف سيعيشان؟
- الأمّ اعتزلت النّاس، والابن انطلق إلى العمل.
قال دانغلار: - طيّب، طيّب، ها شخصان لا يزالان يشعران بوخز الضمير!
- لقد سجّلت العقد بنفسي أمس.
- وكم كانت تبلغ ثروتهما؟
- أوه! ليس الشّيء الكثير: مليون ومائتا ألفٍ، أو مليون وثلاثمائة ألف. لكن لنعُد إلى ملايينا.
قال دانغلار بنبرةٍ طبيعيّة: - بكلّ سرور؛ أنت إذًا محتاجٌ لهذه النّقود على وجه السّرعة؟
- نعم، إنّ فحص صناديقنا سيتمُّ غدًا.
- غدًا! فلمَ تقول إنّك تحتاجه فورًا؟ إنّ غدًا بمثابة قرنٍ من الزّمان! وفي أيّ ساعةٍ يجري الفحص؟
- في السّاعة الثانية.
قال دانغلار بابتسامته: - أرسله إذًا منتصف النّهار.
لم يردّ بوفيل بكلمة؛ إنّما اكتفى بهزّ رأسه موافقًا، وهزّ محفظتَه.
قال دانغلار: - مهلًا، لقد خطرت ببالي فكرةٌ، لمَ لا تقوم بما هو أفضل؟
- أقوم بماذا؟

- إنّ وصل السيّد دو مونت كريستو يساوي قيمته نقودًا. خُذ هذا الوصل إلى روتشيلد أو لافاييت؛ وسوف يُصرف لك في حينه.

- مع أنّ الوصل يفترض أن يُصرف في روما؟

- قطعًا؛ لن يكلّفك الأمر إلا خصم مبلغ خمسة آلافٍ إلى ستّة آلاف فرنك.

انتفض المدير المالي واثبًا وثبةً إلى الخلف.

- إلهي! كلّا، أفضّل أن أنتظر إلى الغد. يا لك من مستعجل!

أجاب دانغلار بوقاحة بيّنة: - أوه! اعذرني يا سيّدي، لقد ظننتُ أنّ عندك عجزًا تريد أن تسدّه.

قال بوفيل: - آه!

- اسمع، إن كان ثمّة عجزٌ، وانتُبه إليه، فلا بدّ من القيام بتضحية.

- أوه! كلّا، ليس الأمر كذلك والحمد لله.

- إلى الغد إذًا؛ لكن لا تخلف الموعد!

- آه! طبعًا! هل تمزح! أرسل النّقود منتصف النّهار، وسيبلّغ المصرف.

- بل سأحمل المال بنفسي.

- وهذا أفضل لأنّه سيمنحني سعادة لقائك.

ثمّ تصافح الرّجلان.

قال السيّد دو بوفيل: بالمناسبة، ألن تذهب إلى عزاء تلك الصبيّة، فالانتين دو فيلفور، الذي صادفته في طريقي إليك؟

أجاب المصرفيّ: - كلّا، منذ واقعة بينيديتو وأنا أبدو سخيفًا بعض الشّيء، لذا اختفيت عن الأنظار.

- باه! أنت مخطئٌ، وما ذنبك أنت في كلّ ذلك؟

- اسمع يا سيّدي دو بوفيل، حين يحمل المرء اسمًا لا غبار عليه، مثل اسمي، فلا بدّ أن يكون حسّاسًا لأدنى لطخة.

- ثِق بي يا سيّدي، الجميعُ متعاطفٌ معك، ومتعاطف مع الآنسة ابنتك على وجه الخصوص.

قال دانغلار مطلقًا تنهيدةً عميقة: - مسكينة يا يوجيني! هل تعلم يا سيّدي أنّها التحقت بسلك الدّين؟

- لا.

- واأسفًا! الأمر لسوء الحظّ صحيح. غداة الحدث قرّرت أن تذهب مع صديقة متديّنة؛ ستبحث عن ديرٍ صارمٍ في إيطاليا أو إسبانيا.

- أوه! إنّه أمر رهيب!

ثمّ إنّ السيّد دو بوفيل انصرف بعدما أغدق على الأبِ بعبارات المواساة. لكن لم يكد الزّائرُ يخرج، حتّى صاح دانغلار بانتفاضةٍ لن يتصوّرها إلا أولئك الذين شاهدوا روبير ماكير[1] يؤدّيه فريدريك: «غبيّ!». ثمّ حاشرًا مخالصةَ مونت كريستو في محفظةٍ صغيرة، أضاف: «تعال غدا عند منتصف النّهار! فعند منتصف النّهار سأكون أنا بعيدًا!».

ثمّ إنّ المصرفيَّ أقفل على نفسه البابَ، وأفرغ كلّ أدراج الخزنة، فجمع نحو خمسين ألف فرنك من الأوراق البنكية، وأحرق وثائق عديدة، ووضع أخرى في أماكن بارزة، وبدأ تحرير رسالةٍ ختمها بختمه، ووضع عليها: «إلى السيّدة البارونة دانغلار». وغمغم: «مساء اليوم أضعها بنفسي في خدرها».

ثمّ أخرج من درجه جواز سفر، وقال: «حسنًا، لا يزال صالحًا لمدّة شهرين».

---

(1) شخصية خيالية ترتبط بالرومانطيقية الفرنسية، ابتكرها بنجامان أنثيه (1787-1870)، ومن أشهر من أدّاها على المسرح الممثل فريديك لوميتر (1800-1876)، وهو الذي يقصده دوما.

105

مقبرة الأب لاشيز

الحال أنّ السيّد دوبوفيل قد صادف في طريقه الموكبَ الجنائزيّ الذي يشيّع فالانتين إلى مثواها الأخير.

كان الطّقس مظلمًا وغائمًا؛ ريحٌ لا تزالُ دافئة، لكنّها قاتلةٌ بالنّسبة إلى أوراق الأشجارِ، تهزُّ الغصونَ فتجرّدُها من أوراقها وتحرّكها في دوّاماتٍ فوق الحشد الهائل الذي ملأ الشّوارع.

إنّ السيّد دو فيلفور، باعتباره باريسيًا خالصًا، كان يرى مقبرة الأب لاشيز المقبرةَ الوحيدة الجديرة بأن تأوي رفات فقيدة من الأُسر الباريسية؛ أمّا باقي المقابر فكانت تبدو له مقابر ريفيّة، فنادق يزيّنُها الموتى. في مقبرة الأب لاشيز وحدها يستطيع المتوفّى أن يقيم في بيته. وكان وكيل الملك قد اشترى، كما سبق أن رأينا، ترخيصًا دائمًا بها، فبنى ضريحًا ضمّ مؤخّرًا عددًا من أفراد عائلته الكبار.

على واجهة الضّريح كُتب: **عائلتا سان مِران وفيلفور**؛ لأنّ تلك كانت آخر رغبات المسكينة رينيه، والدة فالانتين.

صوبَ مقبرة الأب لاشيز إذًا كان يتّجه الموكب الفخم الذي انطلق من ضاحية سان أونوريه. عبروا باريس كلّها، وسلكوا ضاحية تامبل، ثمّ الشوارع الخلفية حتّى وافوا المقبرة. ما يفوق عشرين عربةً من عربات الأسياد كانت تسير في إثر عربات الحداد الثلاثين؛ وفي إثر العربات الخمسين يسير أكثر من خمسمائة شخص راجلين. كانوا تقريبًا جميعهم من الشّباب، ممّن نزل عليهم موتُ فالانتين نزول الصّاعقة، والذين

على الرّغم من البخار الجليديّ الذي يلفُّ القّرنَ، والابتذالَ الذي يطبع العصر، فقد كانوا يخضعون للتأثير الشّاعريّ الذي تخلّفه هذه الفتاة الجميلة، العفيفة، المحبوبة، التي خطفها الموتُ في زهرة شبابها.

وعند مخرج باريس شوهدت عربةٌ تأتي مسرعةً، تجرّها أربعة خيولٍ، توقّفت بغتةً وقد صلّبت عراقيبها النّافرةَ كأنّها نوابضُ من فولاذ: كانت تلك عربة السيّد دو مونت كريستو.

نزل الكونت فورًا من عربته، واختلط بالحشد الذي يشيّعُ الميّتة على الأقدام. لمحه شاتو رونو، فنزل من عربته وانضمّ إليه. وكذلك فعل بوشان، فنزل من العربة التي كان يركبها.

كان الكونت ينظرُ بتمعّنٍ من كلّ الفرجات التي يتركها الحشد؛ كان يبحث عن شخصٍ ما، وفي نهاية المطاف لم يجده.

سألهم: - أينَ موريل؟ هل يعرف أحدكم أين هو، يا سادتي؟

قال شاتو رونو: - لقد طرحنا السؤال من قبلُ، حين كنّا في منزل المتوفّاة، إذ لم يرَه أحد.

صمت الكونت، لكنّه ظلّ ينظر حواليه.

ثمّ أخيرًا وصلوا إلى المقبرة.

مسحت عينُ الكونت الثاقبةُ بنظرةٍ واحدةٍ كلّ أشجار الصنوبر والطّقسوس، ثمّ ما لبث أن تبدّد كلّ قلقٍ في نفسه، إذ رأى هيئةً تتسلّل من تحت التّعريشات السّوداء. لقد وجد الكونت قطعًا ما يبحث عنه.

ونعرف ما يعني الدّفنُ في هذه المقبرة الرّائعة: زمرٌ سوداء متناثرةٌ في المماشي البيضاء، صمتُ السّماء والأرض، لا يرجّهُ إلا صوت بعض الغصون المتكسّرة في بعض التحويطات المضروبة حول قبر؛ ثمّ نشيدُ القساوسة الحزين تختلط به، هنا وهناك، شهقةٌ تنبعث من باقة أزهارٍ تُرى تحتَها امرأةٌ ما، جاثيةً شابكةً يديها.

مرقَت الهيئةُ التي ميّزَها الكونت مونت كريستو، سريعًا من خلف

قبرَي هيلواز وأبيلار، واتّخذت موضعَها بين عمّال الدّفن، على رأس الأحصنة التي تجرُّ الجسد، وبنفس الخطو السّريع، بلغت المكان المحدّد للقبر.

وكان الجميع ينظر إلى شيءٍ ما. أمّا الكونت فلم يكن ينظر إلا إلى الهيئةِ التي بالكاد كان يلحظها من يقف إلى جوارها.

مرّتان خرج الكونت من الصّفوف ليراقب الهيئةَ، ويرى ما إذا كانت يدا الرّجل (إذ كانت الهيئةُ رجلًا) تلتمسان سلاحًا تحت ملابسه.

ولمّا توقّف الموكبُ، تميّزَت الهيئةُ، وتوضّح أنّها موريل الذي وقف مستندًا إلى جذع شجرةٍ في الأرض المشرفة على القبر، وقد ارتدى معطف ردنجوت زرَّره حتّى الأعلى، وشحب جبينه، وانحفر خدّاه، وانسحقت قبّعتُه بين يديه المتشنّجتين، وقلنا إنّه اتّخذ موقعًا يشرف على القبر، بحيث لم يكن يفلت أيَّ تفصيل من المراسم التي تتمّ.

جرى كلّ شيءٍ وفق المعتاد. بعض الرّجال، وكالعادة كانوا الأقلّ تأثّرًا، قلنا بعض الرّجال تلوا خطَبًا. بعضهم تحسّر لهذه المِيتة التي حدثت قبل أوانها؛ وآخرون أسهبوافي الكلام عن حزن أبيها؛ وكان ثمّة من بلغت بهم العبقرية حدّ أن قالوا إنّ الصبيّةَ كثيرًا ما التمست من أبيها العفو عن متّهمين كانت العدالة على وشك أن تسحقهم؛ وأخيرًا، استُهلكت كلّ المجازات المنمّقة والسّجوع الموجعة في التّعليق على عزاءات ماليرب إلى دوبيريي[1].

ولم يكن مونت كريستو ينصت إلى أيّ شيء، ولا ينظر إلى شيء، أو بالأحرى لم يكن ينظر إلا إلى موريل الذي لا يمكن أن يبدو هدوؤه وسكونه مرعبًا إلا لمنِ كان مطّلعًا على ما يجري في قلبه.

---

(1) قصيدة رثاء فرنسية شهيرة كتبها الشّاعر فرانسوا ماليرب، مطلع القرن السابع عشر.

بغتةً قال بوشان لدُبراي: - آه، إنّ موريل هناك، ما الذي حشره هناك بحقّ الشّيطان!

وأشار لشاتو رونو إليه، فقال شاتو رونو وهو ينتفض: - يا لشحوبه!

أجاب دُبراي: - إنّه يشعر بالبرد.

قال شاتو رونو ببطءٍ: - كلّا، أظنُّه متأثّرًا؛ إنّ ماكسيميليان هذا رجلٌ حسّاسٌ جدًا.

قال دُبراي: - باه! ولكنّه بالكاد يعرف الآنسة دو فيلفور كما قلت أنت نفسك!

- صحيح. لكنّني أذكر أنّه في حفل السيّدة دو مورسيرف، رقص معها ثلاث مرّاتٍ؛ تذكّر يا سيّدي الكونت الحفلَ الرّاقصَ الذي خلّفتَ فيه بالغ الأثر.

- كلّا، لا أذكر.

أجاب الكونت من غير أن يعرف عمَّ يجيبُ ولا من يُجيب، لفرط انشغاله بمراقبة موريل الذي كان خدّاه يتحرّكان تحرّكَ من يكتمون أنفاسهم أو يحبسونَها.

وبغتةً قال الكونت: - لقد انتهت الخطابات يا سادتي، وداعًا!

ثمّ أعطى إشارة الانصراف، وانصرفَ من غير أن يدرك أحدٌ من أين مضى.

انتهى الحفل الجنائزيّ، وانفضّ الجمعُ سالكين مجدّدًا طريق باريس. وحدَه شاتو رونو بحث بعينيه عن موريل، لكن لمّا كان قد تبع الكونت بعينيه لوهلةٍ، فإنّ موريل كان قد بدّل المكانَ، ولمّا لم يجده شاتو رونو استسلم وسارَ في إثر دُبراي وبوشان.

أمّا الكونت مونت كريستو فقد وثب في أجمةٍ، واختبأ خلف قبرٍ واسعٍ، وجعل يترصّد حركات موريل، لا يفلت منها شيئًا؛ وكان الشّابّ

قد دنا رويدًا رويدًا من القبر الذي غادره المعزّون الفضوليّون، ومن بعدهم عمّال الدّفن.

أجال موريل البصر حواليه طويلًا، بلا هدف محدّد؛ ولمّا وقع بصره علي الجانب المقابل له، استغلّ الكونت الفرصة ليتقدّم منه عشر خطواتٍ أُخَر، من غير أن يلاحظ الشّابُّ تقدّمَه.

جثا الشّابُّ على ركبتيه. وواصل الكونت تقدّمه نحوَه، مادًّا عنقَه، مركّزًا بصره، موسّعًا عينيه، ثانيًا عرقوبيه كأنّما هو على أهبة أن يركض ما إن يضطرّ إلى ذلك.

انحنى موريل حتّى لامس جبينه حجر القبر، وعانق السياج بذراعيه، وهمس:

«أيا فالانتين!»:

انفطر قلب الكونت للكلمتين؛ تقدّم خطوةً أخرى، وربّت على كتف موريل قائلًا: – هذا أنت يا صديقي! كنت أبحث عنك.

وكان مونت كريستو يتوقّع أن ينفجر موريل ؤ بمه، يتوقّعُ لومًا واتّهامات.وكان مخطئًا.

التفت إليه موريل، وبهيئةٍ هادئةٍ قال له:

– ها أنت ذا ترى، كنتُ أصلّي!

وجاست نظرة الكونت الفاحصةُ الشّاب من رأسه إلى قدميه. فلمّا تمّ له الفحص، بدا أهدأَ.

قال: – هل تريد أن أعيدك إلى باريس؟

– كلّا، شكرًا.

– فهل تشتهي أيّ شيء؟

– دعني أصلّي.

ابتعد الكونت من غير أن يبدي أيّ اعتراض، على أنّ ابتعاده لم يكن إلا ليتّخذ موضعًا جديدًا يراقب منه الشّابَّ الّذي ظلّ جاثيًا يصلّي مدّةً،

ثمّ قامَ، فمسح ركبتيه اللّتين ابيضّتا من أثر الحجَر، وسلك طريق باريس من غير أن يدير رأسَه ولا مرّةً. نزل رويدًا شارع لا روكيت.

صرفَ الكونت عربته التي كانت متوقّفةً بمقبرة الأب لاشيز، ثمّ لحق موريل على مسافة مائة خطوةٍ. عبر ماكسيميليان القناة، ودخل شارع مسلاي عبر الأزقّة. وخمس دقائق بعد أن أُغلق البابُ خلف موريل، انفتح أمام الكونت مونت كريستو.

كانت جولي عند مدخل الحديقة، حيث تراقب ببالغ العناية، المعلمَ بينيلون مستغرقًا بجديّةٍ في أداء وظيفة البستانيّ، يشذّبُ الوردَ الصّينيّ.

صاحت بذاك الفرح الذي يغمر كلّ أفراد الأسرة حين يظهر الكونت مونت كريستو بشارع مسلاي: - آه! سيّدي الكونت!

سألها الكونت: - للتوّ دخل ماكسيميليان يا سيّدتي، أليس كذلك؟

أجابته الشّابة: - أظنُّ أنّني رأيتُه يصعد قبل قليل؛ فضلًا نادي على ماكسيميليان يا إيمانويل.

قال الكونت: - عذرًا يا سيّدتي لكن ينبغي أن أصعد من فوري عند ماكسيميليان، عندي شيءٌ بالغ الأهميّة أقوله له.

قالت: - تفضّل إذًا، ورافقته ابتسامتها الجميلة حتّى اختفى.

وما لبث مونت كريستو أن عبر الطّابقين اللّذين يفصلان بين الطّابق الأرضيّ وجناح ماكسيميليان؛ فبلغ الجناح، وتسمّعَ ما يجري: لا صوتَ بالدّاخل.

وكما هو الشّأن في جميع المنازل القديمة التي يسكنها ساكنٌ واحدٌ، لم يكن الجناح يغلق إلا ببابٍ زجاجيّ. غير أنّ في هذا الباب الزّجاجيّ لم يكن ثمّة مفتاح. وكان ماكسيميليان قد لاذ بغرفته، لكن ما كان بالإمكانِ رؤيته في الدّاخل، لأنّ زجاج الباب كان مغطّى بستارين من الحرير الأحمر.

وكان قلق الكونت يترجم في شكل حمرةٍ شديدة، هي العَرَضُ الدّالُ على الانفعال غير المعتاد في هذا الرّجل الهادئ الطّبع.

غمغم: «ما العمل؟»، ثمّ تروّى برهةً.

قال لنفسه: «هل أقرع الجرس؟ أوه! كلّا! إنّ صوتَ الجرس، وأي إشارة زيارةٍ، كثيرًا ما يسرّع اتّخاذ القرار بالنّسبة إلى أولئك الذين يتواجدون في وضع مماثل لوضع ماكسيميليان، فيجيبون صوتَ الجرس بصوتٍ آخر».

كان مونت كريستو يرتجف من رأسه إلى قدميه، ولأنّ القرار عنده دائمًا ما يتمّ بسرعة البرق، فقد ضرب بمرفقه على أحد مربّعات الزجاج في الباب، فتطايرَ شظايا؛ ثمّ أزاح السّتار ورأى موريل جالسًا إلى مكتبه، حاملًا في يده يراعًا، وقد انتفض على كرسيّه لصوت تهشّم الزّجاج.

قال الكونت: – لا شيء، آسف جدًا يا صديقي العزيز! لقد انزلقت، فأصبت بمرفقي زجاج بابك؛ وبما أنّه قد انكسر فسأستغلُّ الأمرَ وأدخل عندك؛ لا تزعج نفسك، لا تزعج نفسك.

ثمّ إنّ الكونت أدخل ذراعه عبر الزّجاج ففتح الباب. قام موريل مستقبلًا الكونت، استقبالًا فيه من اعتراض الطّريق أكثر ممّا فيه من الاستقبال.

قال مونت كريستو وهو يفرك مرفقه: – الحقُّ أنّها غلطة خدمك يا عزيزي، إنّ أرضيّتك تلمع كالمرايا.

سأله موريل ببرود: – هل أُصبت يا سيّدي؟

– لا أدري. لكن ماذا تفعل هنا يا سيّدي؟ هل كنت تكتب؟

– أنا.

– نعم إنّ يدك ملطّخةٌ بالحبر.

أجاب موريل: – نعم، كنت أكتب؛ يحدث لي أن أكتب، على الرّغم من أنّني عسكريّ.

خطا مونت كريستو خطواتٍ في الغرفة. اضطرّ موريل إلى تركه يمرّ، لكنّه تبعه.

كرّر الكونت السّؤال، وعينه متعبةٌ من التّحديق:

- كنت تكتب؟

أجاب موريل: - لقد تشرّفت بأن أجبتك من قبل «نعم».

ألقى الكونت نظرةً حواليه. قال وهو يشير إلى أسلحة موريل الموضوعة على المكتب: - مسدّساك موضوعان جنب المحبرة!

أجابه ماكسيميليان: - أنا ذاهب في سفر.

قال مونت كريستو بصوتٍ يفيض رقّةً: - يا صديقي!

- سيّدي!

- صديقي، عزيزي ماكسيميليان، أرجوك لا داعي للقرارات المتطرّفة!

قال موريل هازًّا كتفيه: - أنا أتّخذ قرارات متطرّفة؟ وكيف يعتبر السّفرُ قرارًا متطرّفًا؟

قال مونت كريستو: - ماكسيميليان، لينزع كلّ منا القناع الذي يضعه على وجهه. إنّك لا تسيءُ إليّ يا عزيزي ماكسيميليان بصمتك المتحكّم، إلا بقدر ما أسيء إليك أنا بمواساتي الطّائشة. أنت تفهمني، أليس كذلك؟ تدرك يا عزيزي أنّني لم أقدم على فعل ما فعلته، لم أجرؤ على كسر زجاج باب صديق، والتّلصّص على سرّه إلا لأنّني أحمل قلقًا فعليًا، أو بالأحرى يقينًا رهيبًا: أنت تريد أن تقتل نفسك يا موريل!

قال موريل مرتعدًا: - طيّب! من أين لك بهذه الأفكار يا سيّدي؟

واصل الكونت كلامه بنفس النبرة: - أقول لك يا سيّدي إنّك تريد أن تقتل نفسك، وها هو الدّليل.

ثمّ دنا من المكتب، ورفع الورقة البيضاء التي غطّى بها الشّابُّ رسالةً كان قد بدأها، وتناولَ الرّسالة.

هرع إليه موريل لينتزعها من يده. لكنّ الكونت كان يتوقّع هذه الحركة من موريل، فأمسك به من معصمه بقبضة فولاذية، كما تمسك السلسة بتُرس أثناء انطلاقه.

قال الكونت: - ها أنت ترى أنّك بالفعل كنت تنوي قتل نفسك! هذا ما كتبتَه على الورقة!

قال موريل وهو ينتقل، من دون توسّط، من الهدوء الظّاهر إلى العنف: -حسنًا، حسنًا، عندما سأقرّر أن أصوّب فوهة المسدّس إلى نفسي، من ذا الذي سيمنعني؟ من سيجرؤ على منعي؟ حين أقول: ضاعت آمالي جميعها، وقلبي انكسر، وحياتي انطفأت، ولم يعد يحوطني إلا الحدادُ والاشمئزاز؛ الأرض صارت رمادًا؛ وكلّ صوتٍ يمزّقني. حين أقول: إنّ الرّحمة هي تركي أموت، لأنّكم إن منعتموني من الموت، فسوف أفقد عقلي، سوف أجنُّ؛ حسنًا، حين أقول ذلك يا سيّدي، حين تراني أقوله بكلّ ما في قلبي من دموع وحسراتٍ، فهل سيُقال لي «إنّك على خطأ»؟ هل سأُمنع ممّا يجنّبني الشّقاء؟ قُل يا سيّدي، قُل، هل ستجرؤ على ذلك؟

قال مونت كريستو بصوتٍ يتباين هدوؤُه تباينًا عجيبًا مع عنف الشّاب: - أجل يا موريل، أنا سأمنعك.

صاح موريل بصوتٍ ما انفكّت تزداد فيه نبرة الغضب واللّوم: - أنت! أنت الذي أغريتني بأملٍ سخيف؛ أنت الذي هَدهَدتني، ونوّمتني بالآمال الغامضة، حين كان لا يزال بوسعي أن أنقذها بقرارٍ حاسم، أو على الأقلّ أن أراها تموت بين ذراعيَّ؛ أنت الذي تؤثّر في كلّ مواردَ الذكاء، في كل قوى المادّة؛ أنت الذي تلعب دور القدر، أو بالأحرى تتظاهر بأنّك تلعبه؛ ولم تستطع حتّى أن تصنع التّرياق لصبيّة مسمومة! آه! الحقّ يا سيّدي أنّك تثير شفقتي، هذا إن لم أقل إنّك تثير اشمئزازي!

- موريل...

- أجل، قلت لي أن أنزع عن وجهي القناع؛ وها قد نزعتُه، فَطِب

نفْسًا. أجل، لقد تبعتني في المقبرة، وأجبتُك، لأنّ قلبي طيّب؛ وحين أتيت تركتك تدخل حتّى هنا... لكن ما دمت قد تعدّيت الحدود، وما دمت أتيت تتحدّاني حتّى غرفتي التي لُذتُ بها كأنّها قبري؛ وبما أنّك أتيت تحملُ إليّ عذابًا جديدًا، أنا الذي ظننت أنّني جرّبت العذاباتِ كلّها، يا سيّدي الكونت مونت كريستو، يا من يدّعي الإحسان إليّ، الكونت مونت كريستو، المنقذ الكونيّ، طِب نفسًا إذًا، سوف تشهد موت صديقك!...

ثمّ إنّ موريل هرع مجدّدًا صوب مسدّسَيه وعلى شفتيه ابتسامةُ الجنون. لكنّ مونت كريستو، الشّاحب كطيفٍ، بعينه البرّاقة شررًا، مدّ يدَه إلى السّلاح، وقال للمجنون:

- أُعيد عليك القولَ: إنّك لن تقتل نفسك!

قال موريل باندفاعٍ أخيرٍ، انكسر كسابقه تحت قبضة الفولاذ:

- فامنَعني إذًا!

- سأمنعك!

صاح ماكسيميليان: - لكن من أنت في نهاية المطاف لتمارس هذا الطّغيان على الكائنات الحرّة المفكّرة؟

قال مونت كريستو: - من أنا؟ أصغ إذًا: أنا الرّجل الوحيد الذي يملك الحقّ في أن يقول لك: لا أريد لابن السّيّد موريل أن يموت اليوم!

ثمّ إنّ مونت كريستو تقدّم، بهيئة فخمة، مهيبة، شابكًا ذراعيه، صوب الشّاب الذي انهزم، فتراجع مرغمًا خطوةً الى الخلف، أمام هذا الرّجل الذي يكاد يبلغ الألوهة.

تمتم: - لمَ تتحدّث عن والدي؟ لمَ تخلط ذكراه بما يحدث لي الآن؟

- لأنّني الرّجل الذي أنقذ حياة والدك من قبل، يومَ أراد أن يقتل نفسَه، كما تريد أنت اليوم؛ لأنّني الرّجل الذي أرسل صرّةَ المال إلى

أُختك، ومركب الفرعون إلى الشّيخ موريل؛ لأنّني إدمون دانتِس الذي كنتَ أنتَ طفلًا تلهو على ركبتيه!

تراجع موريل خطوةً أخرى، مترنّحا، مختنقًا، لاهثًا، منسحقًا؛ ثمّ خارت قواه، فأطلق صيحة عظيمةً وهوى عند قدمي مونت كريستو.

ثمّ فجأةً، في خضمّ تلك الطّبيعة البديعة، حدثت حركةُ تجدّدٍ مباغتةٍ وشاملة: قام ماكسيميليان، ووثب خارجًا من غرفته، وهرع نازلًا من الدّرج، وهو يصيح: -جولي! جولي! إيمانويل! إيمانويل! أراد مونت كريستو أن ينطلق في إثره، لكنّ ماكسيميليان كان ليفضّل الموتَ على أن يُفلت مصراعَي الباب اللّذين أغلقهما دون الكونت.

لصرخة ماكسيميليان هرع إيمانويل وجولي وبينِلون وبعض الخدم مرعوبين.

أمسكهما موريل من يديهما، وفتح الباب وهو يصيح بصوتٍ خنقته الشّهقات:

- على ركبتيكما! على ركبتيكما! إنّه المحسنُ الذي أنقذ والدنا! إنّه...

- وكان على وشك أن يقول: «إنّه إدمون دانتِس!»، لكنّ الكونت أوقفَه ممسكًا بذراعه.

انقضّت جولي على يد الكونت؛ وقبّلها إيمانويل كأنّما يقبّل يد إله؛ ومرّةً أخرى جثا موريل على ركبتيه، ولامس بجبهته الأرضيّة.

إذّاك شعر رجل البرونز بقلبه يتمدّد في صدره، وفار دفقُ لهيب حارق من حنجرته إلى عينيه، فأحنى رأسَه وبكى!

ساد الغرفة للحظاتٍ كورالٌ من الدّموع والنحيب المهيب الذي كان ليبدو متناغمًا حتّى بالنّسبة إلى أخصّ الملائكة عند الرّبّ!

وما كادت جولي تعود إلى نفسها، فتخرج من الانفعال العميق الذي خَبِرَته حتّى انطلقت خارجَ الغرفة، فنزلت الدّرج، وهرعت إلى الصالون

بمرح طفوليّ، فرفعت كرة الكرستال حيث الصرّة التي أعطاها إيّاها غريبٌ ممشى ميون.

وأثناء ذلك كان إيمانويل يقول للكونت بصوتٍ متقطّع: - أوه يا سيّدي الكونت، كيف أخفيت نفسك عنّا حتّى هذه اللّحظة، وأنت ترانا نتحدّث في كلّ مناسبة عن الغريب الذي أحسن إلينا، كيف انتظرت حتّى اليوم لتفصح عن نفسك، وأنت ترانا نحيط أنفسنا بذكرى العرفان والتّقدير؟ أوه! إنّها قسوةٌ منك يا سيّدي تجاهنا، لا بل قد أقول إنّها قسوةٌ منك تجاه نفسك أيضًا.

قال الكونت: - أصغِ إليّ يا صديقي، وأستطيع أن أناديك صديقي، لأنّك من غير أن تدري كنت صديقي منذ أحد عشر عامًا؛ إنّ كشفي للسرّ قد فرضه حادث كبيرٌ ينبغي أن يظلّ مجهولًا. والرّب يعلم أنّني كنت أفضل أن يظلّ السرّ طيَّ صدري إلى الأبد؛ إنّما انتزعه منّي أخوك ماكسيميليان بعنفٍ لا بدّ أنّه نادمٌ عليه.

ثمّ إذ رأى الكونت ماكسيميليان قد ارتمى بدوره على مقعده، وهو لا يزال جاثيًا على ركبتيه، أضاف بصوتٍ خفيض وهو يضغط على يد إيمانويل بطريقةٍ دالّة: - انتبه إليه.

سأله الشّابُّ مندهشًا: - ولمَ؟

- لا أستطيع أن أزيد، لكن انتبه إليه!

أحاط إيمانويل الغرفةَ بنظرةٍ شاملة، فلمح مسدّسَي موريل. تسمّرت عيناه مرعوبتين في السّلاح، وأشار إليهما إلى الكونت، وهو يرفع إصبعه ببطءٍ حتّى مستواه.

أحنى مونت كريستو رأسَه. خطا إيمانويل صوبَ الأسلحة.

قال الكونت: - اتركهما.

ثمّ تحوّل إلى موريل، فأمسك بيده؛ إنّ الحركات الصّاخبة التي رجّت قلب الشّابِّ منذ برهةٍ، قد أخلت مكانها لذهولٍ عميق.

صعدت جولي، وكانت تحمل في يدها صرّة الحرير، وقد سالت على خدّيها دمعتان برّاقتان فرِحتان، كأنّهما قطراتُ طَلٍّ صباحيّ.

قالت:- ها هي الصّرّة، فلا تحسبّن أنّها صارت أقلّ معزّةً عندي، لمّا عرفتُ سرّها.

أجاب الكونت وقد احمرّ وجهه: - ابنتي، اسمحي لي أن أستعيد هذه الصرّةَ؛ فلمّا صارت ملامح وجهي معروفةً عندك، لا أريد أن تذكريني إلا بالعطف الذي سوف تتكرّمين به عليّ.

قالت جولي وهي تضغط بالصرّة على قلبها: - أوه! كلّا، كلّا، فقد تتركنا يومًا؛ لأنّك للأسف لا بدّ أن تتركنا يومًا، أليس كذلك؟

أجابها الكونت باسمًا: - بلى، لقد أصبتِ التّخمينَ؛ خلال ثمانية أيّام سوف أترك هذا البلد الذي آوى الكثير من النّاس الذين يستحقّون الانتقام، حين كان أبي يموت جوعًا وألمًا.

ولمّاأعلنَ الكونت عن رحيله الوشيك، حدّقَ في موريل، فلاحظ أنّ قوله «سوف أترك هذا البلد» لم يفلح في إخراج صديقه من سباته؛ فأدرك أنّه لم يبق لديه إلا معركةٌ أخيرةٌ يخوضها ضدّ آلام صديقه، فأمسك بيدَي جولي وإيمانويل، فضمّهما في يده، وقال لهما بسلطةِ الأبِ الحنون:

- صديقَاي العزيزان، اتركاني فضلًا بمفردي مع ماكسيميليان.

ووجدت جولي في طلب الكونت فرصةً للاحتفاظ بالصّرّة الثمينة التي نسيَ مونت كريستو ذكرها. سحبت زوجها بحدّةٍ، قائلةً: - هيّا، لنتركهما.

بقي الكونت مع موريل الذي ظلّ ساكنًا كتمثال.

قال الكونت وهو يمس كتف الشّابِ بإصبعه الحارق: - حسنًا، هل عدت رجلًا يا ماكسيميليان؟

- نعم، لأنّني عدتُ أتألّمُ.

تغضّن جبين الكونت، غارقًا على ما يبدو في تردّدٍ غامضٍ.

قال: - ماكسيميليان! إنّ هذه الأفكار التي تغرق فيها، لا تليق بمسيحيّ.

قال موريل وهو يرفع رأسَه ويُري الكونت ابتسامةً مطبوعةً بحزنٍ يجلُّ عن الوصف: - أوه! اطمئنّ يا صديقي، لستُ أنا من يسعى إلى الموت.

قال مونت كريستو: - وإذًا، لن نعود إلى الأسلحة، ولا إلى اليأس.

- كلّا، لأنّ عندي لألمي دواءً أقوى من فوهة مسدّس أو حدّ نصل.

- عندك ماذا.. أيّا البائسُ الأحمق؟

- عندي حزني وهو ما سيتكلّف بقتلي.

قال مونت كريستو بحزنٍ يضاهي حزن موريل: - أصغي إليّ يا صديقي، ذات يوم، وفي لحظة يأس شبيهة بلحظتك هذه، إذ أدّت بي إلى قرارٍ مماثلٍ لقرارك، أردتُ أن أقتلَ نفسي؛ وذات يوم، والدك أيضًا كان على وشكٍ أن يقتل نفسَه. ولو كان قيل لأبيك في اللّحظة التي صوّب فيها فوهة مسدّسه إلى جبيته، أو قيل لي أنا، لحظةَ أبعدتُ عن سريري خبزَ السّجّان الذي لم أكن قد ذقته منذ ثلاثة أيّام؛ لو قيل لي أو لأبيك، في تلك اللّحظة المهيبة: «عِش! لأنّ يومًا سيأتي، وَتكون فيه سعيدًا راضيًا»؛ أيًّا كانت الجهة التي أتى منها الصوتُ، كنا لنستقبله بابتسامة الشكّ أو قلق التّكذيب، ومع ذلك كم مرّةً بارك والدك الحياةَ وهو يعانقك، وكم مرّةً أنا نفسي...

صاح موريل: - آه! أنت لم تفقد إلا حريّتك، ووالدي لم يفقد إلا ثروته، أمّا أنا ففقدتُ فالانتين!

قال مونت كريستو بتلك المهابة التي تجعل منه، في بعض الأحيان، شديد العِظَمِ والإقناع: - انظُر إليّ يا موريل، ترى أنّ لا دموع في عينيّ، ولا حمّى فِي أوردتي، ولا نبضَ جنائزيًا في قلبي، ومع ذلك أراك تعاني، أنت يا ماكسيميليان، أنت الذي أحبّك مثلما كنت لأحبَّ ابني. ألا يبدو

لك إذًا يا موريل أنّ الألم مثل الحياة، وأنّ ثمّة دائمًا، في ما وراءهما، شيئًا مجهولًا؟ فإن كنتُ أرجوك، بل آمرك، بأن تظلّ على قيد الحياة يا موريل، فإنّما لأنّ يومًا سيأتي تشكرني فيه لأنّني حفظت حياتك.

صاح الشّابُّ: - إلهي! إلهي! ماذا تقول يا كونت؟ حذار! ربّما أنت لم تعرف الحبّ قطّ!

أجاب الكونت: - أيّها الطّفل!

- عن الحبّ أتحدّث؛ أنا، لعلمك، عسكريٌّ منذُ أن صرتُ رجلًا؛ بلغت التّاسعة والعشرين من عمري من غير أن أحبَّ، لأنّ لا إحساس من الأحاسيس التي شعرت بها يستحقُّ أن يسمّى حبًا؛ ثمّ في التّاسعة والعشرين من عمري قابلت فالانتين. ممّا يعني أنّني أحبّها منذ سنتين، منذ سنتين والربّ يريني فضائل البنت والمرأة، أقرأها في قلبها المفتوح بين يديَ ككتاب. لقد كنّا موعودين، أنا وفالانتين، بسعادة لا حدّ لها، سعادةٍ هائلة، لاً قبل لبشر بها، سعادة أكبر وأكمل وأشدُّ ألوهيّةً من أن يقبلها هذا العالم؛ وما دام هذا العالمُ قد ضنَّ عليَّ بفالانتين، يا سيّدي الكونت، فليس لي من بعدها إلا اليأسُ والأسى.

كرّر الكونت كلامَه: - قلت لك لا تقطع الرّجاء يا موريل.

- حذار يا سيّدي الكونت، إنّما أنت تسعى في جنوني، لأنّك توهمني بأنّني قد أرى فالانتين مرّةً أخرى.

ابتسم الكونت.

صاح موريل مستثارًا: - يا صديقي، يا أبي! أقولها للمرّة الثالثة: حذار! لأنّ هيمنتك عليّ ترعبني؛ انتبه لمعنى كلماتك، لأنّك ترى عينيَّ تنتعشان، وقلبي يشتعل وينبعث؛ حذار لأنّك ستدفعني إلى الإيمان في خوارقَ. لو أمرتني أن أرفع اللّحد عن قبر ابنة جايروس[1]، لأطعتك؛

---

(1) في الكتاب المقدّس: أتى جايروس إلى يسوع يسأله الشّفاء لابنته، وفي طريقهما توفيت المريضة، لكنّ يسوع بعثها من موتها.

وسأسير على اللّجج، كما فعل الحواريُّ، لو أنّك بإشارةٍ من يدك طلبت منّي السّير على اللّجج؛ حذار، لأنّني سأطيعك!

كرّر الكونت: - لا تقطع الرّجاء يا صديقي.

قال موريل وهو يهوي من قمّة الوجد إلى هوّة اليأس: - أنت تتلاعب بي. تفعل مثل الأمّهات الطّيّبات، أو بالأحرى الأمّهات الأنانيّات، اللّواتي يهدّئن أبناءهنّ بالكلام المعسول لأنّهنّ تعبن من صراخهم. كلّا يا صديقي، لقد أخطأت حين طلبت منك توخّيَ الحذر؛ كلّا، لن أزعجك بحزني، ولن تضطرّ إلى مواساتي لأنّني سأكظم آلامي، وأدفنها في أعماق قلبي. وداعًا يا صديقي! وداعًا!

قال الكونت: - بالعكس يا ماكسيميليان؛ ابتداءً من هذه السّاعة، سوف تظلّ بقربي يا ماكسيميليان، سوف تعيش معي، ولن تتركني البتّة، وخلال ثمانية أيّام سوف نرحل معًا تاركين فرنسا خلفنا.

- وما زلت تقول لي لا تقطع الرّجاء؟

- ما زلت أقول لك لا تقطع الرّجاء، لأنّني أعرف طريقًا إلى علاجك.

- سيّدي الكونت، إنّك تزيد في حزني، إن كان بالإمكان أن يزداد هذا الحزنُ. لستَ ترى في مصيبتي إلا حادثًا تافهًا، قد يشفيه علاجٌ تافه، مثل السّفر.

وهزّ موريل رأسَه في تشكيكٍ هازئ.

قال مونت كريستو: - وما الذي تريد منّي أن أقوله؟ إنّني أومن في وعودي، فاتركني أجرّب.

- إنّما أنت تطيل احتضاري يا سيّدي الكونت، وهذا كلّ ما في الأمر.

قال الكونت: - هكذا إذًا، يا ذا القلب الواهن، تبخل على صديقك ببضعةِ أيّامٍ يبرهن فيها عمّا يدّعيه! حسنًا، أتدري ما يستطيعه الكونت مونت كريستو؟ هل تعلم أنّه يتحكّم في الكثير من قوى الدّنيا؟ أتعلم أنّ لديه من الإيمان ما يكفي ليمنحه الرّبُ ما يشاء من معجزاتٍ، الرّبُّ

الذي قال إنّ الإيمان يزحزحُ الجبال... وإنّي، أقول لك، انتظر المعجزة، وإلّا...

كرّر موريل: - وإلّا...

- وإلّا فاحذر يا موريل لأنّني سأعتبرك جاحدًا.

- أشفِق عليّ يا سيّدي الكونت.

- أنا أشفق عليك لأبعد حدٍّ يا ماكسيميليان، أصغِ إليّ، أشفقُ عليك إلى أبعد حدٍ، لدرجة أنّني أقول لك إنّني، إن لم أُشفِكَ في غضون شهرٍ، أقول شهرًا، يومًا بيوم، فأنا بنفسي سأضع أمامك المسدّسين معبّأينِ، وسُمًّا من أقوى سموم إيطاليا، سمًّا أقوى وأضمنُ من ذاك الذي قتل فالانتين.

- هل تعدني؟

- نعم، لأنّني إنسانٌ، ولأنّني كما قلت لك، أنا أيضًا أردتُ أن أقتل نفسي، وحتّى بعدما فارقني الشّقاءُ، ما زال يحدث أن أحلم بملذّات النّوم الأبديّ.

صاح ماكسيميليان مفتونًا: - أوه! هل تعدني بهذا يا سيّدي الكونت؟

قال الكونت مونت كريستو باسطًا ذراعَه: - لستُ أعدُك يا سيّدي، وإنّما أقسم لك.

- في غضون شهرٍ، بشرفك، إن لم أجد العزاءَ فستدعني حرًّا في اختيار حياتي، ومهما فعلت، لن تعتبرني جاحدًا؟

- في غضون شهر يا ماكسيميليان، شهر واحد؛ يومًا بيوم، وساعة بساعة، والتّاريخ مقدّسٌ يا ماكسيميليان؛ ولا أدري ما إذا كنت قد انتبهت إلى التّاريخ: اليوم 5 سبتمبر. مرّت الآن عشر سنواتٍ على اليوم الذي أنقذت فيها أباك حين كان يريد أن يقتل نفسَه.

أمسك موريل يدَيّ الكونت وقبّلهما؛ وتركه الكونت يفعل كأنّما يرى هذا التّبجيل حقًّا له.

واصل مونت كريستو: - في غضون شهر، سوف تجد هنا، أمامك على الطّاولة، مسدّسَين رائعَين، ووسيلة موتٍ هادئة، فقط عِدني ألّا تقتل نفسك قبل متمّ المهلة.

صاح موريل: - أوه! وأنا بدوري أعدك يا سيّدي الكونت.

ضمّ مونت كريستو الشّابَّ إلى قلبه، وعانقه طويلًا، ثمّ قال له:

- والآن، ابتداءً من اللّحظة ستأتي للعيش عندي؛ ستقيم في جناح هايدي، هكذا على الأقلّ سيعوضّ ابني ابنتي.

قال موريل: - هايدي! ما الذي حدث لهايدي؟

- رحلت اللّيلةَ.

- هل تركتك؟

- بل سبقتني... استعدّ إذًا للّحاق بي إلى شارع الشانزيليزيه، وأخرجني من هنا من غير أن يراني أحد.

أحنى ماكسيميليان رأسَه، وأطاع كطفلٍ أو مريدٍ.

106

القسمة

في الفندق الواقع بشارع سان جرمان دي بري الذي اختاره ألبير دو مورسيرف لإقامته وأمّه، كان الطّابق الأوّل، المؤلّف من جناح بأكمله، قد أُجِّر لشخصيّة عجيبة جدًا: رجلٌ لم يستطع حتّى البوّابُ أن يميّزَ وجهه، سواءً حين يدخل أو يخرج؛ لأنّه، شتاءً، كان يحشر نفسَه في واحدةٍ من تلك الرّبطات الحمراء التي يضعها حُذاة المنازل الرّفيعة، وهم ينتظرون أسيادهم أثناء خروجهم من الحفلات؛ وصَيفًا، كان يمسح وجهه بمنديله في اللّحظة نفسها التي يكون فيها على وشك أن يراهُ أحد. وينبغي القول إنّ الرّجل، على خلاف المتوقّع، لم يكن يُراقبُه أحد، وإنّ الإشاعات التي تقول إنّ خلف هذا التّخفيّ يختبئُ رجلٌ رفيعُ المقام، رجلٌ نافذٌ، قد جعل الجميع يوقّره ويحترم مظاهرَه الغريبة.

وكانت زياراتُه منظّمةً، وإن تأخّرت أحيانًا أو تقدّمت؛ لكنّه دائمًا ما يأتي إلى جناحه حوالي الرّابعة، سواءً صيفًا أو شتاءً، ولا يقضي اللّيلة فيه البتّة. وشتاءً، ما إن تحلّ الثالثة والنّصف، حتّى توقد النّارَ الخادمةُ المتكتّمةُ التي تشرف على تدبير جناحه؛ وصَيفًا، في الثالثة والنّصف، تحملُ الخادمةُ نفسها إلى الجناح قطعَ ثلج.

وفي الرّابعة، كما أسلفنا، يَصل الشّخص الغامض. ثمّ بعد ذلك بعشرين دقيقة، تتوقّف عربةٌ أمام الفندق؛ تنزل منها امرأةٌ متلفّعةٌ بالسّواد أو الزّرقة، لكن دائمًا تكون ساترةً جسدها بأكمله، فتمرّ كشبح من أمام المقصورة، وتصعد الدّرج من غير أن يُسمع أدنى وقع للدّرجات تحت قدميها الخفيفتين. ولم يحدث أن سألها أحدٌ إلى أينَ تمضي. كان إذًا

وجهُها، كوجه الرّجل الغريب، مجهولًا تمامًا لدى الحارسين، ذينك البوابين المثاليّين اللذين لن ترى لهما مثيلًا في احترام الخصوصية، ضمن بوابي باريس بأكملها.

ولا نحتاج قولًا إنّها لم تكن تصعدُ الدّرج أعلى ممّا يصعدُه صاحبُنا. تحكّ بأظافرها خشب باب بطريقةٍ معيّنة، فيُفتح لها، ثمّ ينغلق خلفها، ويكون الأمر قد قُضي. ولكي تُغادر الفندق، تسلك نفس مسلكها في دخوله. تخرج المرأة المجهولة أوّلًا، وهي لا تزال متلفّعةً بحجابها، فتصعد عربتها التي تنطلق من فورها، تارةً عبر هذا الشّارع وطورًا عبر ذاك؛ ثمّ بعدها بعشرين دقيقة ينزل الرّجلُ، حاشرًا وجهه في ياقته، أو متواريًا في منديله، ويختفي بدوره.

وغداة اليوم الذي قصد فيه مونت كريستو دانغلار، وهو نفسُه يوم دفن فالانتين، دخل النّزيل الغامض إلى الفندق حوالى السّاعة العاشرة صباحًا، بدلًا من موعده المعتاد في الرّابعة. وتقريبًا على الفور، ومن غير أن تحافظ على الفاصل الزّمنيّ المعتاد، توقّفت عربةٌ، فنزلت منها المرأةُ المتحجّبة وصعدت السلّم على عجل. فُتح البابُ وأُغلق خلفها. لكن حتّى قبل أن يُغلق كانت المرأة قد صاحت: «لوسيان! يا صديقي!»، بحيث إنّ البوّاب الذي سمع صيحتها، بغير قصد، لأوّل مرّة سيعرف أنّ النّزيل يسمّى لوسيان؛ لكن لمّا كان الرّجلُ مثالًا يحتذى في الأمانة المهنيّة، فقد قطع على نفسه عهدًا بألّا يخبر أحدًا، حتّى زوجته.

سأل الرّجلُ الذي كشف عن اسمه اضطرابُ المرأةِ المتحجّبة أو ربّما لهفتُها: - حسنًا، ما الخطب يا صديقتي العزيزة؟ أخبريني!

- هل أستطيع الاعتماد عليك يا صديقي؟

- بالتّأكيد، وأنت تعرفين ذلك. لكن ما الخطب؟ إنّ رسالتك إليّ هذا الصّباح قد تركتني في حيرةٍ رهيبة. ثمّ عجلتك وسوء الخطّ الذي كتبت به الرّسالة؛ هيّا، طمئنيني أو أغرقيني في الرّعب!

قالت المرأة وهي تحدّق في الرّجل بنظرة فاحصة: - لوسيان! حدث مهول يا لوسيان! إنّ السيّد دانغلار قد رحل اللّيلة!

كرّر لوسيان: - رحل! السيّد دانغلار رحل! وإلى أين ذهب؟

- لا أدري.

- كيف! لا تدرين؟ رحل إذًا بلا رجعة؟

- قطعًا. في العاشرة مساءً، قاده حصاناه إلى حاجز شارونتون؛ وهناك وجد في انتظاره عربة مراسلةٍ جاهزةً، فركبها ومعه خادمه، وأخبر الحوذيّ بأنّه ذاهبٌ إلى فونتينبلو.

- ماذا تقولين؟

- مهلًا يا صديقي، لقد ترك لي رسالةً.

- رسالةً؟

- نعم؛ اقرأ.

ثمّ أخرجت البارونة من جيبها رسالةً مختومةً، ومدّتها إلى دُبراي. تردّد دُبراي لحظةً قبل قراءتها، كأنّما يحاول أن يخمّن فحواها، أو بالأحرى كأنّما هو مضطرٌ إلى أن يتّخذ منها موقفًا بغض النّظر عمَّ سيفصح عنه محتواها. ولا بدّ أنّ خواطره قد توقّفت بعد بضع ثوانيَ، إذ شرع في القراءة.

وها فحوى الرّسالة التي زرعت في نفس السيّدة دانغلار كلّ ذاك الاضطراب:

«*سيّدتي وزوجتي المخلصة جدًا*».

ومن غير أن يفكّر في الأمر كفّ دُبراي عن القراءة، ونظر إلى البارونة التي احمرّت حتّى بلغت الحمرة عينيها.

قالت: اقرأ

واصل دُبراي:

«حين ستصلك هذه الرّسالة، ستكونين قد صرت بلا زوج! أوه! لا

تقلقي أكثر ممّا ينبغي. لقد صرت بلا زوجٍ، مثلما صرتِ بلا ابنة، لأنّني سأكون قد سلكتُ طريقًا من الطّرق الثلاثينَ أو الأربعين التي تقود المرء خارج فرنسا.

واجبٌ لك عندي أن أعطيك تفسيرًا، وبما أنّك امرأةٌ تستطيع فهم الأسباب بسهولةٍ، فسوف أقولها.

أصغِ إليّ إذًا:

صباحَ اليوم اضطررت إلى سداد دينٍ بقيمة خمسة ملايين؛ وتلاه دينٌ مماثل في نفس اللّحظة تقريبًا، دينٌ أجّلتُه إلى الغد؛ واليوم أنا أرحل لأجنّب نفسي هذا الغد الذي لن أقدر على تحمّله.

لا بدّ أنّك تفهمين، أليس كذلك يا سيّدتي، وزوجتي القيّمة؟

أقول:

إنّك تفهمين، لأنّك تعرفين أعمالي قدر معرفتي بها؛ لا بل إنّك تعرفينها خيرًا منّي، من جهة أنّني إن سُئلتُ عن مصير ما يقارب نصف ثروتي التي كانت حتى وقت قريب ثروةً هائلةً، فلن أستطيع جوابًا؛ بينما أنت فلا بدّ أن تعرفي الجواب. لأنّكنّ أنتنّ معشر النّساء قد حبيتُنّ بغرائز لا تخطئُ، لدرجة أنّكن تستطعن أن تفسّرن العجبَ العُجابَ بواسطة حسابٍ جبريّ اخترعتنَّه؛ أمّا أنا الذي لست أعرف إلا الأرقام، فحين خانتنيً أرقامي لم أستطع أن أفهم شيئًا.

هل سبق أن تأمّلتِ سرعة سقوطي يا سيّدتي؟ هل أذهلك قليلًا انصهار سبائكي السّريع؟

أمّا أنا يا سيّدتي، فأعترف: لم أرَ إلا نارًا خاطفةً؛ وآمل أنّك انتشلت بعض الذّهب من الرّماد.

بهذا الأمل الذي أعزّي به نفسي، أرحلُ، يا سيّدتي وزوجتي الحريصة، مرتاح الضّمير لا ألوم النّفس على تركك؛ إذ يبقى لك أصدقاء، والأموال

التي انتشلتِها من الرّماد، ولتكتمل سعادتك، لك الحريّة التي أستعجل ردّها لك.

غير أنّ الوقت قد حان يا سيّدتي لأن أسرّ لك في هذه الرّسالة بكلمةٍ حميمة. لطالما وددتُ أن تعملي لخير بيتنا، وسعد ابنتنا، فكنت أغمض عينيّ بحكمة؛ لكن بما أنّك قد جعلت من بيتي خرابًا هائلًا، فلا أريد أن أكون أساسَ ثروة رجلٍ غيري.

لقد تزوّجتُك غنيّةً، لكن غير عفيفة.

واعذريني على صراحتي؛ لكن بما أنّ هذا الكلام بيننا، ولن يطّلع عليه، على الأرجح، أحدٌ، فلا أرى سببًا لتنميق كلامي.

لقد نمّيتُ ثروتنا التي تعاظمت لما يفوق خمسة عشر سنةً، حتّى أتى اليوم الذي تعاقبت فيه عليّ كوارثُ لا قبل لي بها، فدمّرت ثروتي، من غير أن يكون لي يدٌ في ذلك.

أمّا أنت يا سيّدتي فلم تعملي إلا على تنمية ثروتك الشّخصية، وأنا على اقتناع تامّ بأنّك قد نجحت في ذلك.

لذا أنا أتركك اليوم كما أخذتُك، غنيّة، لكن غير عفيفة.

وداعًا.

أنا أيضًا سأعمل بدءًا من اليوم، لحسابي الشّخصيّ فقط. كلّي عرفانٌ للمثال الذي بيّنته لي، والذي سوف أتّبعه.

زوجك المخلص جدًا،

البارون دانغلار».

تابعت البارونة بعينيها دُبراي طيلة القراءة الطّويلة المرهقة؛ فرأت الشّابَ، على ما عُرف فيه من ضبطٍ للنّفس، يتغيّرُ لونُه مرّةً أو مرّتين. فلمّا فرغ من قراءة الرّسالة، أغلق الورقة ببطءٍ واستعاد هيأتَه المتفكّرة.

سألته السيّدة دانغلار بقلق من اليسير تفهّمه: - وإذًا؟

كرّر الشّابُ بآليةٍ: - وإذًا يا سيّدتي؟

- بمَ توحي إليك هذه الرّسالة؟

- الأمر بسيط للغاية يا سيّدتي؛ توحي إليّ بأنّ السيّد دانغلار قد رحل وفي نفسه بعض الشّكوك.

- قطعًا؛ لكن ما الذي لديك تقوله لي؟

أجاب دُبراي ببرودٍ جليديّ: - لم أفهم.

- لقد رحل! ذهب بلا رجعة!

قال دُبراي: - أوه! لا تظنّي ذلك يا بارونة.

- كلّا، أقول لك إنّه لن يرجع؛ إنّي أعرفه جيّدًا: رجلٌ لا يتراجع أبدًا في قراراته التي تصبُّ في مصلحته. ولو أنّه رأى فيَّ نفعًا لأخذني معه. إنّما تركني في باريس لأنّه رأى في انفصالنا مصلحته. الأمرُ إذن ناجزٌ، وأنا حرّةٌ للأبد.

واصلت البارونة كلامها بنبرة التوسّل نفسها، لكنّ دُبراي بدلًا من أن يجيبها تركها في حيرتها تسائله بعينيها وفكرها.

ثمّ أخيرًا قالت: - ماذا! ألن تجيبني يا سيّدي؟

- ليس لي إلا سؤال يا سيّدتي: ماذا تنوين أن تفعلي؟

أجابته البارونة بقلبٍ خافقٍ: - كنت سأسألك ذلك؟

قال دُبراي: - آه! هي إذًا نصيحةٌ ما تطلبينها منّي؟

أجابته البارونة بقلبٍ يعتصر: - نعم هي نصيحةٌ ما أطلبها منك.

أجاب الشّاب ببرودٍ: - تطلبين إذًا نصيحة؛ نصيحتي لك: سافري.

غمغمت البارونة: - أسافر!

- قطعًا. فكما قال السيّد دانغلار أنت غنيّة وحرةٌ تمامًا؛ وإنّ غيابًا عن باريس صار ضرورةً بعد الفضيحة المزدوجة: زواج الآنسة يوجيني الذي لم يتمّ، واختفاء السيّد دانغلار. غير أنّ من الضّروريّ أن يظنّك الجميع فقيرةً ومتخلّىً عنك، لأنّ لا أحد يغفر لامرأة من يعلِن إفلاسَه أن تكون غنيةً ميسورةَ الحال. بالنّسبة للأمر الأوّل، يكفي أن تظلّي خمسة

عشر يومًا في باريس، تعيدين على مسامع الجميع كيف تمّ التخلّي عنك، وتحكين لصديقاتك الحميمات ملابسات هذا التخلّي، وهنّ سيتكفّلن بنشر الخبر في أوساط المجتمع. ثمّ تتركين منزلك، متخلّيةً عن مجوهراتك، وحقوقك من زوجك، وسوف يتناقل الجميع خبر زهدك، وتُتلى فيك المدائحُ. وإذّاك سيعرف الجميع أنّك متخلّى عنك، ويُظَنُّ أنّك فقيرة؛ لأنّني أنا وحدي أعرف وضعيّتك المالية الفعلية، ومستعدٌّ أن أبيّنَ لك كلّ شيءٍ، باعتباري شريكك المخلص.

شاحبةً، ذاهلةً، أنصتت البارونة إلى هذا الخطابِ بقدرٍ من الرّعب واليأسِ مماثلٍ لقدر الهدوء واللامبالاة اللّتين تحدّث بهما دُبراي.

قالَت: - متخلّى عنّي! بالفعل، متخلّى عنّي! أنت محقٌّ يا سيّدي، ولا أحد سيشكّك في الأمر!

تلكم كانت الكلمات الوحيدة التي استطاعت أن تجيب بها المرأةُ الشّديدةُ الكبرياء، والمفتونة جدًا.

واصل دُبراي كلامه، وهو يسحب محفظته، فيُخرج منها أوراقًا يضعها على الطّاولة: - لكن غنيّة، لا بل غنيّة جدًا.

تركته السيّدة دانغلار يواصل، وهي تحاول كتم ضربات قلبها، وحبس الدّموع التي أحسّتها تطلُّ من جنبات جفنيها. لكن في النّهاية انتصر لدى البارونة شعورُ الكرامة؛ وإن لم تقدر أن تكتم قلبها، إلا أنّها استطاعت أن تحبس دموعها.

قال دُبراي: - سيّدتي، منذ ستّة أشهر تقريبًا ونحن شريكان. ساهمتِ برأسمال قدرُه مائة ألف فرنك. وقد بدأت شراكتنا في شهر أبريل من هذه السّنة. وبدأت أعمالُنا منذ شهر مايو. في شهر مايو كسبنا أربعمائة وخمسين ألف فرنك. وفي يونيو ارتفعت الأرباح إلى تسعمائة ألف. وفي يونيو زدنا مليونًا وسبعمائة ألف فرنك؛ وهو كما تعلمين شهر السّندات الإسبانية. ومطلع شهر أغسطس خسرنا ثلاثمائة ألف فرنك، لكن في

منتصفَه استعدنا ما خسرناه، وزدنا أرباحًا في نهايته. بحيث إنّ رصيدنا، منذ بداية الشّراكة إلى يومنا هذا، قد انتهى إلى مليونين وأربعمائة ألف فرنكٍ، أي مليونًا ومائتي ألف فرنك لكلّ منّا. (واصل دُبراي وهو يتصفّح دفتره بطريقة وهدوءِ صرّافٍ،) والآن، لدينا ثمانون ألف فرنك هي فوائد عن المبلغ المتحصّل لنا.

قاطعته البارونة: - لكن ما الذي تعنيه هذه الفوائد، ما دمت لم تذكرها قطّ لي؟

أجابها دُبراي ببرود: - اعذريني يا سيّدتي، اعذريني، كان لديّ كلّ الإمكان لأن أخبرك، لكنّني لم أفعل! لديك إذًا فوائد عن نصيبك بقيمة أربعين ألف فرنك، بالإضافة إلى المائة ألف فرنك التي وضعتِها رأسمالًا في البداية، أي إنّ مجموع نصيبك هو مليون وثلاثمائة وأربعون ألفًا. والحال يا سيّدتي، أنّني حرصت على نقل نقودك أوّل أمس، إذ منذ مدّة قريبة صرت أتوقّع أن تستدعيني لنتحاسب. إنّ نقودك هنا، نصفُها أوراق مصرفية، ونصفها الآخر سنداتٌ لحاملها. أقول إنّها هنا، وأعني ما أقول: فلمّا قدّرتُ أنّ منزلي غير آمن، ورأيتُ أنّ الموثّقين ليسوا كتومين، وأنّ الأملاك تتحدّثُ أعلى ممّا يتحدّث الموثّقون؛ ولمّا لم يكن بوسعك أن تتملّكي شيئًا خارج مؤسّسة الزّواج، فقد احتفظت لك بالمبلغ كاملًا، وهو كلّ ثروتك اليوم، في خزنةٍ مختومةٍ داخل هذا الدّولاب، وطلبًا للمزيد من الأمن، بنيت الخزنة بنفسي. (واصل وهو يفتح الدولاب، ثمّ الخزنة من بعدها)، والآن، ثمانمائة ورقة، قيمة كلّ منها ألف فرنك، وقد جُعلَت، كما ترَين، في شكل ألبوم كبيرٍ من حديد؛ وأضيف إليها إيصالٌ بقيمة خمسة وعشرين ألف فرنكٍ؛ وبالنّسبة إلى المبلغ الباقي، والذي قدرُه على ما أظنُّ نحو مائة وعشرة آلاف فرنك، فها وصلٌ منّي إلى مصرفيٍّ، وبما أنّ مصرفيَّ ليس السيّد دانغلار، فاطمئنّي: إنّ الوصل سيصرَفُ.

تناولت السيّدة دانغلار بطريقة آلية الوصل، والإيصال، وحزمة الأوراق البنكية. وكانت هذه الثروة، وهي موضوعة على الطّاولة، تبدو ضئيلةً، غير ذات شأن. وقد لمّتها السيّدةُ دانغلار بعينين جافّتين، لكن بصدرٍ مختنقٍ بالشّهقات، فأخفت الغمد الفولاذيَ في حقيبتها، ووضعت الوصلَ والإيصال في محفظتها، ووقفت شاحبةً، صامتةً، تنتظر كلمة عزاءٍ. لكنّها انتظرت عبثًا.

قال دُبراي: - الآن يا سيّدتي، لديك حياةٌ رائعةٌ، نحو ستّين ألف جنيه من الإيرادات، وهي ثروةٌ هائلةٌ بالنّسبة إلى امرأةٍ لن تضطرّ إلى تحمّل مصاريف بيتٍ، لمدّةٍ سنة على الأقلّ. ولذا تستطيعين أن تحقّقي كلّ الرّغبات التي تخطر ببالك: وإن لم تكن تبدو لك حصّتك كافيةً، مقارنة بالماضي الذي ضاع منك، فتستطيعين إن شئت أن تأخذي كلّ مالي؛ على سبيل الدّين طبعًا؛ أي مليونًا وستّين ألف فرنك.

أجابته البارونة: - شكرًا يا سيّدي، لا بدّ أنّك تدرك أنّ على هذه الطّاولة ما يفوق حاجة امرأةٍ مسكينةٍ لا تنوي أن تظهر بين النّاس، لمدّة شهر على الأقلّ.

ذهل دُبراي للحظة، ثمّ ما لبث أن استعاد وعيه، فقام بحركةٍ يمكن أن تترجم إلى الصّيغة الأشدّ تهذيبًا للتعبير عن هذه الفكرة: - كما يحلو لك!

وكانت السيّدة دانغلار، حتّى تلك اللّحظة، لا تزال تؤمّلُ نفسها في شيءٍ ما؛ لكن، لمّا رأت تلك الحركة اللامبالية من دُبراي، والطّرف الخفيّ الذي نظر به إليها، ثمّ الخشوع والصّمت اللّذين تليا كلّ ذلك، رفعت رأسَها، وفتحت الباب، ومن غير غضب، ولا تردّد، انطلقت نازلةً الدّرج، مترفّعة عن أن توجّه حتّى تحيّةً أخيرةً للرّجل الذي تركها ترحل بهذا النّحو.

فلّما انصرفت، قال دُبراي: - باه! يا لها من مشاريع جميلة: ستبقى

في منزلها، تقرأ الرّوايات، وتلعب الورق ما دام لم يعد بإمكانها أن تلعب في البورصة.

ثمّ تناول دفتره فدوّن فيه بعناية المبالغ التي دفعها. وهو يقول: «ما زال لديّ مليون وستّون ألف فرنك. كم هو مؤسفٌ موت الآنسة دو فيلفور، إنّها امرأةٌ تناسبني على كلّ الأصعدة، وكنت لأتزوّجها».

وبهدوء مكث، على عادته، منتظرًا حتّى مرّ على انصراف السيّدة دانغلار عشرون دقيقة، فنزلَ. وأثناء تلك الدّقائق العشرين التي مكثها، ظلّ يراجع دفاتره، واضعا ساعته أمامه.

إنّ تلك الشّخصية الجهنّمية التي كان ليتفتّق عنها، بشيءٍ من التّوفيق، أيّ خيالٍ خصب، لولا أنّ حظّ لوساج جعلَه سبّاقًا إليها، فدوّنَها باسمه، وعمّدها باسم أسموديوس، في تحفته الرّائعة(1)؛ قلنا إنّ تلك الشخصية التي كانت ترفع أسقف المنازل، فتطلُّ على ما يجري بداخلها، كانت لتنعم بمشهدٍ فريد، لو قيّضَ لها أن ترفع سقف الفندق الصّغير بشارع سان جرمان دي بري، في اللّحظة التي كان فيها دُبراي مستغرقًا في حساباته.

فوق الغرفة التي شهدنا فيها السيّد دُبراي يقتسم مع السيّدة دانغلار مليونين ونصف المليون فرنك، كانت غرفةٌ يقيم فيها شخصان آخران، هما أيضًا من جملةِ معارفنا، شخصان كان لهما دور مهمٌّ في مجريات الحوادث التي حكيناها، لذا نحن نستعيدهما بشيء من الاهتمام.

الشّخصان هما: ألبير ومرسيدس.

وكانت مرسيدس قد تغيّرت خلال الأيام القليلة الماضية، ليس تغيّرًا في المظهر، فهي حتّى في أفضل أوقات رخائها وغناها، لم تكن تسرف في البهرجة، فظلّت على بساطتها؛ ولا تغيّر مزاجها إلى الاكتئاب الذي

---

(1) يقصد قصة لوساج «الشّيطان الأعرج» ودوما كثير الاستشهاد بها.

يفرضه رداءُ البؤس؛ وإنّما تغيّرت لأنّ بريق عينيها خبَا، والابتسامةَ على شفتَيْها تبدّدت، ولأنّ ضيقًا مقيمًا صار يحبسُ في حَلقها بداهةَ الكلمات التي كان يُطلقها فيما مضى ذهنُها المتّقد. وليس الفقر هو ما أذبل ذهن مرسيدس، ولا ضُعفُ الشّجاعة الذي تفرضُه قلّةُ الحيلةِ. لقد نزلت مرسيدس من الوسط الذي كانت تعيش فيه، لتضيع في الفلك الجديد الذي ارتضَتهُ لنفسها، مثل من يخرج من صالون متوهّج بالأضواء البرّاقة، ليَلِجَ ظلماتٍ دامسةً؛ كانت مرسيدس تبدو مثل ملكةً هوت من قصرها لتسكنَ كوخًا، تضطرّ فيه إلى العيش على الكفاف، فتبدو غريبةً مستهجنةً وسط أواني الفخّار التي حلّت محلّ أوانيها الفاخرة، والتي صارت مضطرّةً إلى أن تضعها بنفسها على المائدة، والتّخت البسيط الذي حلّ محل سريرَها الفخم. والحالُ أنّ الكتالانية الحسناء، أو الكونتيسة النّبيلة، قد فقدت نظرتها الفخورة، كما ابتسامتها الجذّابة، لأنّها حيثما ولّت وجهها لا ترى إلا أشياء مؤسفة: إنّ مأواها الحاليَّ غرفةٌ مكسوّةٌ بورقٍ من ذاك الرّماديّ الذي يفضّله المُلاّكُ المقتصدون لأنّهم يرونَه أقلّ عرضةً للاتّساخ؛ وأرضيّتُها من غير بساط؛ وأثاثُها يجذب الانتباه، ويجبر العين على أن تتوقّف عند فقره المتواري خلف فخامةٍ زائفة، أثاثٌ قوامُه أشياءُ تغلب عليها البهرجة، وتفتقد إلى الانسجام الضّروري لعينين ألفتا العيش في وسطٍ أنيق.

وكانت السيّدة دو مورسيرف تقيم هناك منذ أن تركت منزلها؛ رأسُها دائخٌ وسط هذا الصّمت الأبديّ، دوخَةَ المسافر الذي انتهت رحلتُه إلى شفير هاوية. وإذ انتبهت إلى أنّ ألبير يسترق إليها النّظر على الدّوام ليرى حال قلبها، فقد تصنّعت ابتسامةً رتيبةً على شفتيها، ابتسامةً لمّا كان ينقُصُها بريقُ ابتسامة العينين العذب، فقد كانت تبدو مجرّد انعكاسٍ للنّور، أي ضياءً لا حرارة فيه.

أمّا ألبير فقد كان مهمومًا، منغّصًا، تزعجه البقيّة الباقية من رفاه لم

يتمكّن من التّخلّص منها ليُساير وضعه الجديد: يريد أن يخرج من غير قفّازات، فيجد يديه بيضاوين أكثر من اللازم؛ يريد أن يجوب المدينة مشيًا، فيجد حذاءَه برّاقًا أكثر ممّا ينبغي.

على أنّ المخلوقَين الرّفيعَيّ النُّبل والشّديدَيّ الفطنة، اللّذين تجمعهما رابطةُ الأمومة والبنوّة الوثقى، قد تمكّنا أن يتفاهما من غير كلام، وأن يسلكا كلّ تدابير الاقتصاد الضّروريّة لحياتهما الجديدة. ثمّ انتهى المطاف بألبير إلى أن استطاع أن يخبر أمّه من غير أن يجعلها تشحب: - أمّاه، لم يبقَ لنا مال!

ولم يسبق لمرسيدس قطّ أن عرفت البؤسَ الفعليّ؛ كثيرًا ما تحدّثت في سني شبابها عن الفقر، لكن الأمر هنا مختلف. إنّ الحاجة والضّرورة، هما مترادفان يسري بينهما عالمٌ بأكمله من الفروق. فحين كانت مرسيدس لا تزال تعيش بقرية الكتالان، كانت تحتاج ألف شيءٍ وشيء، لكنّ أشياء أخرى كثيرة ما كانت تفتقر إليها قطّ. ما دامت الشّباك جيّدةً، فسوف تصاد الأسماك؛ وما دام السّمك يُباع، فسيُشترى الخيطُ الذي به تُرقّع الشّباك. ولم يكن المرء ليحمل إلّا همَّ نفسه. فكانت مرسيدس تعيش قانعةً هانئةً، تصنعُ من قليلِها الكثيرَ. أمّا اليوم فعليها أن تتدبّر نصيب شخصين، وأن تتدبّره من لا شيء.

كان الشّتاء يقترب. وفي هذه الغرفة العارية الباردة، لم تكن مرسيدس تتوفّر على نارٍ، هي التي كان لديها فيما مضى مدفأةٌ لها ألف فرع، تدفئ البيت من الرّدهات إلى المخدع؛ وصارت تعيش في مكانٍ لا تزيّنُه أبسط زهرةٍ، بعد أن كانت تعيشُ في جناحٍ أشبه شيءٍ بدفيئةٍ تزيّنُها أثمنُ الزّهور. لكنّ لها ابنَها... وإنّ حالةً من الجذب دافعُها واجبٌ مبالغ فيه ربّما، قد دعمَتهُما حتّى اللّحظة، فرفعتهُما إلى مواقع عليا؛ لأنّ الجذبَ يكاد يكون صنوَ الحماسة، والحماسةُ تنزِّهُ النّفسَ عن الإحساس بأشياء الأرض. غير أنّ حالة الجذب ما لبثت أن هدأت، وكان لزامًا عليهما

النّزول شيئًا فشيئًا من بلاد الأحلام إلى أرض الواقع. ينبغي أن يتحدّثا في الموضوعيِّ، بعدما استنفدا المثاليَّ.

قال ألبير لأمّه في اللّحظة التي كانت فيها السيّدة دانغلار تنزل الدّرج:

- أمّاه، لنحسب ما تبقّى لنا من مال، لأنّه يلزمني مبلغ أبدأ به مشاريعي.

قالت مرسيدس بابتسامةٍ موجعة: - مبلغ: لا شيء.

- كلاّ يا أمّاه، عندنا مبلغ ثلاثة آلاف فرنك، وأزعم أنّني بتلك الآلاف الثلاثة سأضمن لنا عيشًا كريمًا.

تنهّدت مرسيدس: - يا طفلي!

قال الشّابُ: - واأسفًا يا أمّاه! لقد أنفقت الكثير من النّقود، لأعرف قيمة النّقود. إنّ ثلاثة آلاف فرنك يا أمّاه مبلغٌ كبيرٌ، وقد بنيت على هذا المبلغ مستقبلًا مبهرًا، يضمن لنا أمانًا أبديًا.

أجابت الأمّ المسكينة وقد احمرّت: - تقول هذا يا بنيّ، لكنّنا لم نقطع بعد: هل سنقبل تلك الآلاف الثلاثة؟

أجابها ألبير بنبرةٍ قاطعة: - يبدو لي أنّ قبولَها أمرٌ لائقٌ؛ نقبلها خاصّةً وأنّنا لا نتوفّر عليها بعد، فهي، كما تعلمين، لا تزال مدفونةً في حديقة المنزل الصّغير بممشى ميّون بمارسيليا. بمائتي فرنك سنذهب معًا إلى مارسيليا.

قالت مرسيدس: - بمائتي فرنك! هل فكّرت جيّدًا فيما تقوله يا ألبير؟

- أوه! من هذه النّاحية، لقد استفسرتُ جيّدًا عند أصحاب العربات والبواخر، وحسبت حسابي. ستأخذين مقعدًا في عربة حتّى شالون بمبلغ خمسة وثلاثين فرنكًا: ها أنت ترَين يا أمّاه أنّني أعاملك كملكة.

تناول ألبير يراعًا وكتب:

عربةٌ مفردة، خمسة وثلاثون فرنكًا .... 3 ف.

ومن شالون إلى ليون تركبين الباخرة بستّة فرنكات .... 6 ف.

ومن ليون إلى أفينيون، باخرةٌ أخرى بستة عشر فرنكًا .... 16 ف.

ومن أفينيون إلى مارسيليا، سبع فرنكات .... 7 ف.
مصاريف الطّريق.. 50 ف.
المجموع .... 114 ف.

(أضاف ألبير باسمًا): ولنجعلها مائة وعشرين، ها أنت ترين أنّني كريمٌ، أليس كذلك يا أمّاه؟

- وأنت يا طفلي العزيز؟

- أنا؟ ألم ترَي أنّني قد احتفظت لنفسي بثمانين فرنكًا؟ إنّ شابًا يا أمّاه، لا يحتاج إلى كلّ هذه الرّفاهية؛ ثمّ إنّني أدري ما معنى السّفر.

- نعم، كنت تسافر جالسًا في مقعد بعربة المراسلة، ومعك خادمك. ثم من أين لنا بالمائتي فرنك؟

- المائتا فرنك، ها هي، وفوقها مائتان. لقد بعتُ ساعتي، بمائة فرنك، والسلسلة بثلاثمائة. ما أعجبَ عالم المظاهر هذا، سلسلةٌ تساوي ثلاثة أضعاف السّاعة! وها نحن غنيّان، إذ بدلًا من مائة وأربعة عشر فرنكٍ، اللازمة لسفرك، ها أنت ذي تملكين مائتين وخمسين.

- لكن ألا ندين لهذا الفندق بشيء؟

- بثلاثين فرنكًا، لكنّني سأدفعها من نصيبي المائة والخمسين فرنكًا. وما دام لا يلزمني إلا ثمانون فرنكًا للسّفر، فها أنت ترين أنّني أسبح في الرّفاهية. وهذا ليس كلّ شيء. ما رأيك في هذا يا أمّاه؟

ثمّ إنّ ألبير أخرج من جيبه، مذكّرةً لها قفلٌ ذهبيٌّ، لا بدّ أنّها من بقايا نزواته القديمة، أو لعلّها تذكار قديمٌ من إحدى النّساء الغامضات المتحجّبات اللواتي كنّ يطرقن البابَ الصّغير؛ ومن المذكّرة أخرج ورقةً مالية بقيمة ألف فرنك.

سألته مرسيدس: - ما هذا؟

- ألف فرنكٍ يا أمّاه. أوه! إنّها مربّعةٌ تربيعًا مثاليًا.

- ومن أين لك بها؟

- أصغ إليّ يا أمّي، ولا تنفعلي.

وقام ألَبير، فقصد أمّه يقبّل وجنتَيها، ثمّ توقّف يتأمّلها.

قال الولد يدفعه حبٌّ أموميٌّ عميق: - لا تتصوري يا أمّاه كم أراك جميلةً! أنت، والحقُّ يُقالُ، أجملُ النّساء اللّواتي عرفتهنّ، كما أنّك أنبلُهنَّ!

قالت مرسيدس، محاوِلةً عبثًا حبس دمعة تطلُّ من عينيها: - يا طفلي العزيز!

- والحقُّ أنّه لم يكن ينقصكِ إلا الشّقاءُ، ليتحوّل حبّي لك منَ التّقدير إلى العبادة.

قالت مرسيدس: - لستُ شقيةً ما دام ابني معي؛ ولن أشقى طالما يظلُّ معي.

قال ألبير: - آه! وهنا تبدأ التّجربة يا أمّاه! هل تعلمين ما تقرّرَ إذًا؟

أجابته مرسيدس بسؤال: - وهل خلُصنا إلى قرار يا ألبير؟

- نعم، تقرّر أن تسكني في مارسيليا، وأن أرحل أنا إلى إفريقيا، وهناك بدلًا من الاسم الذي خلعتُه، سأصنع الاسمَ الذي اتّخذتُه.

أطلقت مرسيدس تنهيدة، وواصل ألبير الكلام خافضًا عينيه في شيءٍ من خجل إذ كان يجهل ما في فعله من رفعة: - الحقّ يا أمّاه، أنّني قد التحقتُ، منذ الأمس، بجيش الصبايحية؛ أو بالأحرى، لمّا قدّرتُ أنّ جسدي ملكي، فقد ظننتُ أنّ بوسعي بيعَه؛ منذ أمس حللت مكان أحدهم. (أضاف متصنّعًا ابتسامةً) لقد بعتُ نفسي كما يُقال، الحقُّ أنّ السّعر كان فوق ما تصورتُه: ألفا فرنك.

قاطعته مرسيدس مرتجفةً: - وهذه الألف فرنك إذًا؟...

- هي نصفُ المبلغ يا أمّاه؛ والنّصف الآخر أستلمه بعد سنةٍ.

رفعت مرسيدس عينيها إلى السّماء في تعبير يستحيل وصفه، وفاضت، تحت تأثير انفعالها الدّاخليّ، الدّمعتان اللّتان كانتا حبيستَي جفنيها، فسالتا على خدَّيها صامتتين.

غمغمت: - ثمن دمه!

قال ألبير ضاحكًا: - نعم، لقد قُتلتُ يا أمّاه، لكنّني مصرٌّ على أن أدافع عن جسدي ما استطعتُ، إذ لم أشعر قطّ بالرغبة في الحياة كما أشعر بها الآن.

قالت مرسيدس: - يا إلهي! يا إلهي!

- ثمّ لمَ تحسبين أنّني سأقتل يا أمّاه؟ فهل قُتلَ لاموريسيير؟ هل قتل شانغارنييه؟ هل قُتل بِدو؟ وهل قُتل موريل الذي نعرفُه؟ فكّري في فرحتك يا أمّي يوم تستقبلينني وأنا أرتدي البدلة المطرّزة؟ أقول لك إنّني أنوي أن أكون جميلًا فيها، وقد اخترتُ هذا الفيلق تحديدًا بدافعٍ من الغنج.

تنهّدت مرسيدس محاولةً الابتسام؛ لقد كانت هذه الأمُّ الخيّرةُ تدرك أنّ ليس من العدل تحميل ابنها كلّ ثقل التّضحية.

واصل ألبير: - حسنًا يا أمّي، ها أنت ترين أنّك تملكين أربعة آلاف فرنكٍ مضمونةً. بالأربعة آلاف فرنك ستعيشين حياةً كريمةً، سنتين.

قالت مرسيدس: - أتظنُّ؟

لقد أفلتت الكلمة من الكونتيسة، وبوجع حقيقيّ حتّى إنّ مقصدها لم يغب عن ألبير، فأحسّ بانقباضٍ في قلبه، وأمسك بيد أمّه، فضمّها بحنوّ بين يديه.

قال: - أجل، ستعيشين!

صاحت مرسيدس: - سوف أعيش! لكنّك لن ترحل يا بنيّ، أليس كذلك؟

أجابها ألبير بصوتٍ هادئ وحازم: - سوف أرحل يا أمّي، إنّ حبّك لي سيمنعك من إبقائي بقربك عاطلًا، بلا فائدة؛ ثمّ إنّني قد وقّعتُ.

- ستسلُك وفقَ إرادتك يا بنيّ، أمّا أنا فسأسلك وفق إرادة الربّ.

- كلاّ يا أمّاه، لا أسلك وفق إرادتي، وإنّما وفق العقل والضّرورة.

نحن مخلوقان يائسان أليس كذلك؟ ما الحياة بالنّسبة إليك اليوم؟ لا شيء. وما الحياة بالنّسبة إليّ أنا؟ أوه! من دونك ليست بالشّيء الذي يُذكر؛ أقسم لك إنّ الحياة لولاك، كانت ستتوقّف عندي في اللّحظة التي شككتُ فيها في أبي، وأنكرت اسمَه! لذا سأحيا، إن وعدتِني بأن تواصلي الأمل؛ فإن تركت لي العناية بسعادتك المقبلة، فإنّك تضاعفين قوّتي. فأقصد هناك حاكمَ الجزائر، هو شخصٌ نبيل، والأهمّ من هذا كلّه عسكريّ؛ فأحكي له قصّتي الكئيبة؛ فأرجوه أن يلتفت، بين الفينة والأخرى إلى حيث أكون، فإن أوفى بوعده، سأكون قبل أن تكتمل ستّة أشهر، إمّا ضابطًا، وإمّا قتيلًا. فإن صرت ضابطًا، فقد تأمّن مصيرُك يا أمّاه، لأنّني سأكسب ما نعيش به أنا وأنت، بالإضافة إلى أنّني سأحمل اسمًا جديدًا نفخر به معًا، ما دام هو اسمك الحقيقي. أمّا إن متّ... فسوف تموتين يا أمّاه، رجاءً، وهكذا سيبلغ شقاؤنا حدّه وغايته.

أجابته مرسيدس بنظرةٍ نبيلةٍ وبليغة: - حسنًا؛ أنت محقٌّ يا بنيَّ. لنؤكّد لبعض النّاس الذين يتابعوننا، وينتظرون أفعالنا ليحكوا علينا؛ لنؤكّد لهم أنّنا على الأقلّ نستحقّ الرّثاء.

صاح الشّابُّ: - أطردي عنك هذه الأفكار الشّؤم يا أمّي العزيزة! أقسم لك أنّنا سعداء، أو على الأقلّ نستطيع أن نكون كذلك. أنت امرأةٌ شديدة الفطنة والحزم؛ وأنا تخلّيت عن النّزوات، أو هذا ما أرجوه. حين أكون في الخدمة، سأكون غنيًا؛ وحين تكونين في بيت السيّد دانتِس ستكونين هانئةً. لنحاول إذًا! أرجوك يا أمّاه، لنحاول!

أجابته مرسيدس: - نعم يا بنيّ، لنحاول لأنّك ينبغي أن تعيش، وينبغي أن تكون سعيدًا!

قال الشّابُّ مبديًا ارتياحًا كبيرًا: - ها نحن إذًا يا أمّاه قد قمنا بحساباتنا. نستطيع أن ننطلق من اليوم، لذا سأحجز مقعدك.

- ومقعدك يا بنيّ؟

- أنا ينبغي أن أمكث هنا يومين أو ثلاثة؛ إنّ فراقنا وشيكٌ، وينبغي أن نتعوّد عليه. ثمّ إنّني أحتاج بعض التّوصيات والمعلومات حول إفريقيا، وبعد ذلك سألحق بك إلى مارسيليا.

قالت مرسيدس وهي تلفّ نفسها بالوشاح الوحيد الذي حملته معها، وهو وشاحٌ من الكشمير أسود باهظ الثّمن: - حسنًا، هيّا!

لملم ألبير أوراقه على عجل، وقرع الجرس ليؤدّي ما عليه من أجرة لصاحب الفندق، ثمّ مدّ ذراعه لأمّه تتأبّطها، ونزلا الدّرج.

على الدّرَج كان شخصٌ ما يسير أمامهما؛ وهذا الشّخصُ لمّا سمع حفيف ثوب حرير خلفه، التفت.

غمغم ألبير: - دُبراي!

أجاب سكرتير الوزير وهو يتوقّف عند الدّرجة التي كان قد بلغها:

- أنت، يا مورسيرف!

لقد انتصر الفضول لدى دُبراي على الرّغبة في أن يبقى مجهولًا، وعلى كلّ حالٍ لقد كُشف أمرُه! والحقُّ أنّه قد بدا مثيرًا للفضول أن يصادِفَ في هذا الفندق المهجور الشّابَّ الذي طبّقت مأساتُه آفاقَ باريس.

كرّر دُبراي: «مورسيرف!».

ثمّ إذ لاحظ في الدّرج نصف المعتم هيئةَ السيّدة مورسيرف التي لا تزال شابّةً، ووشاحَهاأسود.

واصل بابتسامةٍ: - أوه! المعذرة، أتركك يا ألبير!

أدرك ألبير ما يجول بخاطر دُبراي، فالتفت إلى أمّه قائلًا: - أمّي، إنّه السيّد دُبراي، سكرتير وزير الدّاخلية، وصديقٌ سابقٌ لي.

تمتم دُبراي: - صديقٌ سابقٌ! ماذا تقصد؟

- أقول يا سيّدي دُبراي، صديق سابق، لأنّني الآن بلا أصدقاء، ولا ينبغي أن يكون لي. أشكرك يا سيّدي لأنّك تكرمت عليَّ فلم تنكرني.

صعد دُبراي درجتين وصافح مخاطبه بحرارة، ثمّ قال بالحفاوة التي

يفرضها عليه تأثّره: - ثق يا عزيزي ألبير، لقد أثّرت فيّ مصيبتك بالغ الأثر، وأضع نفسي رهن إشارتك في أيّ شيء تطلبه.

قال ألبير باسمًا: - شكرًا يا سيّدي، فنحن حتّى وسط مصيبتنا، ظللنا أغنياء بما يكفينا سؤالَ النّاس؛ سوف نترك باريس، وبعد أداء تكاليف السّفر تبقى لدينا خمسة آلاف فرنك.

صعدت الحمرة إلى جبين دُبراي الذي كان يحمل في حقيبته مليونًا؛ وعلى الرّغم من أنّ ذهنه لم يكن ميّالًا إلى الصّور الشّعرية، إلا أنّه لم يستطع أن يمنع نفسه من التّفكير في أنّ هذا المنزل كان يجمع امرأتين؛ إحداهُما لحقها العارُ، وانصرفت فقيرةً على الرّغم من أنّها تحمل مليونًا ونصف مليونٍ في تضاعيف معطفها؛ وثانيةٌ أصابتها مصيبةٌ بغير حقٍّ، فانصرفت مرفوعة الرّأسِ عزيزةً ترى في فتات النّقودِ ثروةً. لقد أربكه هذا الاختلاف بين المصيرين، حتّى لم يعد يدري ما يقول، فتمتم كلماتِ مجاملةٍ عامّة، ثمّ نزل الدّرج مسرعًا.

يومها عانى كتَبةُ الوزارة ومرؤوسو دُبراي من [illegible]ه الكئيب. لكن ما إن حلّ المساء حتّى صار مالكًا لبيت جميل بشـ[illegible]ـلين، وصاحبَ إيرادٍ يقدّر بخمسين ألف جنيهٍ.

وفي اليوم التّالي، وفي السّاعة التي وقّع فيها دُبراي العقد، أي الخامسة مساءً، كانت السيّدة مورسيرف، بعدما قبّلت ابنها وقبّلها بحنو، تصعد العربةَ التي انغلقت خلفها. ولحظتَها كان ثمّة رجلٌ متواريًا خلفَ نافذة مكتب من مكاتب بريد لافيت؛ فرأى مرسيدس تصعد العربة؛ ورأى آلة النَّقل العمومية تنطلق؛ ورأى كذلك ألبير يبتعد. وإذّاك مرّر يده على جبينه المشحون بالشكّ قائلًا: «واأسفًا! أنّى لي أن أردَّ إلى هذين البريئين السّعادة التي انتزعتها منهما؟ ليكن الربُّ في عونهما».

107

حفرةُ السّباع

إنّ أحد أحياء الحبس، الحيّ الذي يأوي أعتى المجرمين وأخطرهم، يسمّى باحة سان برنار. وقد درج المساجينُ على تسميته، في لغتهم الخاصّة، حفرة السّباع، والرّاجح أنّ سبب التسمية كون المحبوسين يعضّون بأسنانهم القضبان، وأحيانًا السجّانينَ أنفسهم. إنّه سجنٌ داخل السّجن؛ سُمكُ جدرانه مضاعفٌ قياسًا إلى سمك جدران باقي الأحياء. وكلّ يوم يمرّ حَدّادٌ فيتفحّص بعناية القضبان المتينة. ومن أبدان السجّانين الهرقليّة، ونظراتهم الباردة الحادّة، يدرك المرء أنّهم إنّما اختيروا ليحكموا الشّعبَ المقيم في ذاك الحيِّ بالرّعب والذكاء.

تحدُّ فناء الحيّ جدرانٌ هائلةٌ، فترى الشّمسَ تنزلق عليها عرَضًا، متى ما أذنت أن تقتحم هاوية البشاعة المادية والمعنوية تلك. وهناك، على بلاط الفناء، يهيم، منذ طلوع الشّمس، المساجينُ، مهمومين، فزعين، شاحبين، كأشباح؛ أولئك الرجال الذين تبقيهم العدالة محنيّين تحت معولها الذي لا تنفكّ تشحذُه. فتراهم يلتصقون بالجدار الذي يمتصّ أكبر قدرٍ من الحرارة، ويقرفصون على امتداده. فيظلّون هناك يتحدّثون، مثنى مثنى، منعزلين في غالب الأحيان، وعيونهم مسمّرةٌ في الباب الذي ينفتح في كلّ مرّةٍ، لينادي على أحد المقيمين في هذا المكان الكئيب، أو ليتقيّأ في هذه الهوّة منبوذًا جديدًا لفظه المجتمع.

إنّ لباحة سان برنار قاعة زيارتها الخاصّة؛ إنّها قطعةٌ مربّعةٌ، مشطورةٌ قسمين بواسطة سياجَين متقابلين، تفصل بينهما مسافة ثلاث أقدامٍ،

بحيث إنّ الزّائر لا يستطيع أن يصافح السّجين أو يمدّ له شيئًا. هي قاعةٌ مظلمة ورطبة، ومرعبةٌ من كلّ الأنحاء، خاصّةً حين يفكّر المرء في كمّ الاعترافات المرعبة التي أسّرت بها الشّفاه، منزلقةً في الآذان، وأصابت حديد القضبان بالصّدأ. على أنّ هذا الموضع، على فظاعته، هو الفردوس الذي يأتي ليتنعّم فيه بنسمةٍ من مجتمعٍ مفقودٍ، هؤلاء الرّجالُ الذين باتت أيّامهم معدودة. إذ نذُر أن يغادر المرءُ حفرة السّباع إلا ليُقتاد إلى المقصلة بساحة سان جاك، أو حبس الأشغال الشّاقة!

في الباحة التي وصفناها، والتي تنزّ برطوبةٍ باردة، يتجوّلُ، واضعًا يديه في جيبيه، شابٌّ ينظرُ إليه نزلاءُ الحفرةِ بالكثير من الفضول. وكان لِيبدو أنيقًا بفضل ملابسه، لولا أنّها كانت قد صارت مزقًا؛ على أنّها وإن تمزّقت، لم يطلها البلى. إنّ الثوب الحريريّ النّاعم الذي لم تمسَّ منه إلا مواضعُ، سرعان ما يستعيد بريقَه ما إن تعالجه بالفرك يد السّجين الذي يسعى إلى منح ملابسه مظهر الجدّة. وينفق الشّابُّ العنايةَ نفسَها في إقفال قميصٍ من نسيج الباتيست حال لونُه منذ دخل صاحبه السّجنَ؛ كما يلمّع حذاءَه بطرف منديلٍ عليه الحروف الأولى لاسمٍ، يعلوه شعارُ نبالةٍ.

وكان بعض المساجين يتأمّلون باهتمام بالغ عنايةَ الشّابِ بزينته.

يقول لصٌّ: - انظروا، ها هو الأميرُ يتزيَّنُ!

فيجيبُه آخر: - إنّه جميلٌ من غير زينةٍ، ولو أنّ لديه فقط مشطًا ومرهمًا، لبزَّ في الجمال كلّ الأرستقراطيين.

- لا بدّ أنّ ملابسه كانت جديدةً، وحذاءَه برّاقًا. إنّ من دواعي فخرنا أن يكون أحد رفاقنا لائق الملبس. وهؤلاء الدّركيّون المجرمون قبيحون! يا للحسد! كيف مزّقوا حلّةً بهذا الجمال!

ويقول آخر: - يبدو أنّه رجلٌ شهيرٌ... جرّبَ كلّ شيء... وأن يأتي إلى هنا في سنٍّ صغيرةٍ جدًا، لأمرٌ يدعو للإعجاب!

إنّ الرّجلَ موضوعَ الإعجابِ الشّنيع، كان يبدو مستمتعًا بالمديح، أو بالأحرى ببخار المديح، إذ لم تكن الكلمات تبلغ أذنيه.

ولمّا فرغ من زينته، اقترب من شبّاك المقصف الذي كان يقف لصقه حارسٌ، وقال له:

- سيّدي، أقرضني عشرين فرنكًا، وسوف أعيدها إليك قريبًا جدًا؛ إن أقرضتني فلن تجازف بشيء. فكّر في أنّ لي أقارب يملكون من الملايين أكثر ممّا تملك أنت من قروش... هيّا أرجوك، عشرون فرنكًا أشتري بها ملابس نوم، إنّني أعاني معاناةً شديدة من البقاء دائمًا في هذا الزيّ وهذا الحذاء. أيّ لباسٍ هذا يا سيّدي، بالنّسبة إلى الأمير كافالكانتي!

أدار له الحارس ظهرَه وهزّ كتفيه. لم يضحك حتّى من الكلام الذي كان ليُضحك أيًّا كانَ، ربّما لأنّه سمع كثيرًا كلامًا مماثلًا، أو ربّما سمع هذا الكلام نفسَه مرارًا.

قال أندريا: - أنت رجلٌ جبانٌ، وسوف أطردك من عملك.

وهذه المرّة استدار الحارسُ، وأطلق ضحكةً صاخبةً. وإذّاك اقترب المساجين وشكّلوا حلقة.

واصل أندريا: - أقول لك إنّ هذا المبلغ سيمكّنني من أن أقتني لباسًا، وأستأجر غرفةً لائقةً، استقبل فيها الزّيارة الرّفيعة التي انتظرُها بين الفينة والأخرى.

قال السّجناء: - إنّه محقٌّ! إنّه محقٌّ!.. اللّعنة! واضحٌ أنّه رجلٌ رفيع المقام.

قال الحارس وهو يتّكئ بكتفه الهائلة الأخرى: - حسنًا أعطوه عشرين فرنكًا؛ ألا يستحقّ رفيقٌ منكم هذه التّضحية؟

قال الشّابُ بفخرٍ: - لستُ رفيقًا لهؤلاء النّاس؛ لا تشتمني؛ ليس من حقّك هذا.

تبادل اللّصوص النّظرَ، في همهمات مكتومة، ثمّ ارتفعت زوبعةٌ

أثارها استفزاز السّجّان أكثرّ ممّا فعل كلامُ السّجين. ولمّا كان السّجانُ واثقًا من أنّه سيفرض الصّمتَ حين يصير الضّجيج فوق أن يُحتمل، فقد ترك صوتهم يعلو شيئًا فشيئًا، لينفّذ مقلبًا في المتطلّب الوقح، ويجد لنفسه تسلية أثناء فترة حراسته الطّويلة.

وكان اللّصوص قد دنوا من أندريا، وبعضهم يقول: «السّافات! السّافات![1]». ويقصدون ممارسة وحشيةً، لا تشبه السافات التي نعرفها، وإنّما فيها يشكّلُ السّجناء حلقةً حول زميلٍ لهم، فيشبعونَه ركلًا بأحذية من حديد. وآخرون اقترحوا الحنكليس؛ وهو نوع من التّسلية قوامُه أن يأخذوا منديلاً، فيملأونه بالرّمل والحصى، وقطع النّقود الكبيرة حين يكون لديهم منها، فيلوونَه، ثمّ يصبّونَه كالوباء على كتفَيّ ورأس المعاقب. وردّد بعضهم: - لنجلد الرّجل الجميل، السيّد الشّريف!

بيد أنّ أندريا، استدار نحوهم، فغمز بعينه، ونفخ خدّه بلسانه، ومطّ شفتيه مطلقًا فرقعة بليغة، تعادلُ عند المساجين ألف كلمة، فاضطرّهم إلى الصّمت. كانت تلك إشارة ماسونية علّمه إيّاها كادروس. فعرفوا أنّه منهم. وعلى الفور هوت المناديل؛ وعادت السّافات الحديدية إلى موضعها في حذاء الجلّاد. وتعالت أصواتٌ تقول إنّ السيّد على حقّ، وإنّه حرٌّ في رأيه، وإنّ المساجين يريدون أن يعطوا الدّليل على حريّة الضّمير.

تراجع قطيع الذّئاب. وذهل السجّان لدرجة أنّه انقضّ من فوره على أندريا، وجعل يفتّشه موقنًا بأن تغيّر سلوك أهل حفرة السّباع فجأةً وراءه شيءٌ أكبر من مجرّد الإعجاب. وقد تركه أندريا يفعل من غير أن يعترض.

فجأةً نادى صوتٌ من الشّبّاك «بنيديتو!»، فأرخى السّجان فريسته.

---

(1) الملاكمة الفرنسية: يرتدي المتلاكمان قفّازات في القدمين واليدين، ليتعاركا بهما معًا.

قال أندريا: - ينادون عليّ؟

أجابه الصّوت: - إلى بهو الزّيارة.

- أرأيت، ها هم ينادون عليّ يا سيّدي العزيز! آه! سوف تعرف الآن، هل يمكن أن تعامل أحد آل كافالكانتي معاملَةَ عامّة النّاس!

ثمّ إنّ أندريا تسلّل إلى الباحة كشبح أسود، وهرع عبر الشّباك الموارب، تاركًا رفاقه والسّجّان في ذهول عظيم. ولا ينبغي أن تكون دهشتنا أقلّ من دهشة أندريا نفسه، ذلك أنّ الشّابَ الذكيَّ منذ أن سيق إلى حفرة السّباع، لم يستهلك نفسه، على غرار ما يفعله عامة النّاس في استغلال امتياز الكتابة للفت الانتباه إليهم؛ قلنا إنّه عكس ذلك، قد فضّل التزام الصّمت المطلق.

قال لنفسه: - لا بدّ أنّني محميٌّ من طرف شخص نافذٍ. كلّ الإشارات تدلّ على ذلك: هذه الثروة التي نزلت عليّ بغتةً، والسهولة التي ذُلّلت بها كلّ العقبات أمامي، وهذه العائلة غير المتوقّعة، والاسم الرّفيع الذي خُلع عليّ، والذّهب الذي انهمر عليّ كالمطر، والارتباطات الرّائعة التي وُعدَ بها طموحي. لقد غفل عنّي الحظّ برهةً، أو أغفلني حاميَّ، لكنها مجرّد غفلة عابرة! لقد أفلتتني اليدُ لحظةً، لكنّها لا بدّ أن تمتدّ إليّ مجدّدًا، في اللّحظة التي أظنُّ فيها نفسي قد هويت. فلمَ أجازفُ بخطوةٍ غير محسوبة؟ خطوةٍ قد تكلّفني نفور حاميَّ! ثمّة طريقان للنّجاة: إمّا فرارٌ من السّجن في ظروف غامضة، بعد أن أرشو السّجانين، أو إجبار القضاة على تبرئتي. لننتظر قبل أن نتحدّث أو نفعل، حتّى أتيقّن من أنّهم قد نسوني تمامًا...

وكان أندريا قد وضع خطّةً يمكن أن تعتبر ذكيّةً؛ كان الشقيُّ مقدامًا في الهجوم، صلبًا في الدّفاع. وقد تحمّل من قبل بؤس الحياة المشتركة في السّجن، والحرمان من كلّ صنف. على أنّ الطّبعَ، أو بالأحرى العادة، سرعان ما استولت عليه، فغدا يعاني من العُري والقذارة والجوع؛ صار الزّمان قاسيًا عليه.

وفي لحظة انزعاجه تلك ارتفع صوت المفتّش يدعوه إلى بهو الزّيارات. شعر أندريا بقلبه يطير فرحًا. كان الوقت مبكرًا على زيارة قاضي التّحقيق، ومتأخرًا على زيارة مدير السّجن أو الطّبيب؛ هي إذًا الزّيارة غير المتوقّعة.

خلف سياج البهو الذي أُدخل إليه أندريا، لمح بعينيه اللتين جحظتا بباعث من الفضول النّهم، وجه برتوتشو الكئيب والفطن؛ وكان مدبّر الكونت مونت كريستو ينظر أيضًا بذهول مؤلم إلى السيّاج، والأبواب المغلقة، والشّبح الذي يتحرّك خلف القضبان المتشابكة.

قال أندريا وقد لامست الزيارة قلبه: - آه!

قال برتوتشو بصوته العميق الرّنان: - صباح الخير يا بينيديتو.

قال الشّاب وهو يجيل البصر حواليه برعب: - أنت! أنت!

- ألم تتعرّف عليّ أيّها الطّفل الشّقيّ؟

قال أندريا العليم برهافة جدران الحبس: - صه، صه! يا إلهي، لا ترفع صوتك!

قال برتوتشو: - تريد الحديث إليّ، رأسًا لرأسٍ، أليس كذلك؟

قال أندريا: - أوه! بلى.

- حسنًا.

ثمّ إنّ برتوتشو أشار، وهو يقلّب محفظته، إلى حارسٍ كان يُرى من خلف زجاج السّياج.

قال: - اقرأ.

قال أندريا: - ما هذا؟

- إنّه الإذن باقتيادك إلى غرفة، وإنزالك بها، والسّماح لي بالحديث إليك.

قال أندريا وهو يقفز من الفرح: - واو!

ثمّ ما لبث أن استعاد زمام نفسه، وقال لنفسه: - مرّةً أخرى الحامي

المجهول! لم أُنسَ! ومن طلبوني يبتغون السرّ، ما داموا يريدون الحديث إليّ في الغرفة المعزولة... زمامهم في يدي... إنّ حاميَّ هو من أرسل برتوتشو!

تحدّث الحارس لحظةً مع أحد رؤسائه، ثمّ فتح السّياجَين، واقتاد إلى غرفةٍ في الطّابق الأوّل، تطلّ على الباحة، أندريا الذي كان قد كفّ عن إظهار الفرح.

كانت الغرفة مبيّضةً بالجير، على معتاد السّجون. وكانت تتمتّع بمظهر مرِحٍ بدا للسجّان مشرقًا، أثاثها الفخم قوامُه: مدفأةٌ، وسرير، وكرسيّ، وطاولة.

جلس برتوتشو على الكرسيّ. وارتمى أندريا على السّرير. وانسحب الحارس.

قال المدبّر: - هيّا، ما الذي لديك لتقوله؟

قال أندريا: - وأنت؟

- تكلّم أنت أوّلًا...

- أوه! كلّا؛ أنت الذي لديك الكثير لتقولَه، ما دمت أتيت تبحث عنّي.

- ليكن إذًا؛ لقد أكملت مسارك الإجراميّ: سرقتَ، وقتلتَ.

- حسنًا! إن كنتَ أقد أتيت بي إلى غرفة معزولة لتلقي على سمعي بهذا الكلام، فالأولى لك أن توفّر على نفسك الجهد. تلك كلّها أشياءٌ أعرفها. لكن ثمّة بالمقابل أشياء لا أعرفها. فلنتحدّث عنها رجاءً.

- أوه! أوه! إنّك تستعجل الأمور يا سيّد بينيديتو.

- نعم، أستعجل، لكنّني أقصد الهدف مباشرةً؛ فلنوفّر على نفسنا الكلام عديمَ النّفع. من أرسلك؟

- لا أحد.

- فكيف عرفت أنّني في السّجن؟

- عرفتك منذ مدّة، منذ رأيتك متأنّقًا وقحًا، تسير برشاقة على ظهر حصانٍ في الشانزيليزيه.

- الشانزيليزيه!... آه! نحن نكشفُ أوراقنا، كما يُقال في اللّعب... الشانزيليزيه... لنتحدّث قليلًا إذًا عن أبي، ما رأيك؟

- ومن أكون أنا إذًا؟

- أنت يا سيّدي الكريم... أنت والدي بالتّبنّي، لكنّك لست الرّجل الذي وضع رهن إشارتي نحو مائة ألف فرنك التهمتُها في أربعة شهور أو خمسة، ولا أنت من اصطنع لي أبًا إيطاليًا نبيلًا؛ لست أنت من قدّمني إلى المجتمع الرّفيع، ودعاني في أوتوي إلى عشاءٍ ما زلت أستطعمه إلى اليوم، وأحاطني بأرفع الصّحبة الباريسية، مع وكيلِ ملكٍ أخطأتُ إذ لم أوطد علاقتي به، لأنّه كان لينفعني اليوم غاية النّفع؛ وأخيرًا، لست أنت من دفع لي كفالةً قدرها مليون أو مليونان، حين اكتُشف سرّي الصّغير... تكلّم إذًا، تكلّم يا حضرة الكورسيكيّ... تكلّم...

- ماذا تريدني أن أقول؟

- سأساعدك. سوف تتحدّث عن الشانزيليزيه الذي ذكرته قبل قليل، وعن والدي الذي أنجبني.

- وإذًا؟

- وإذًا، في الشانزيليزيه يقيم رجلٌ ثريٌ جدًا، فاحش الثّراء.

- رجلٌ في بيته سرقتَ وقتلتَ، أليس كذلك؟

- أظنُّ ذلك.

- السيّد مونت كريستو؟

- أنت من أسميتَه، كما يقول السيّد راسين[1]. هل عليّ إذًا أن أرتمي في حضنه، فأعانقه، صائحًا مثل السيّد بيكسيليكور[2] «أبي! أبي!»؟

---

(1) «فيدر: - أتعرف ابنَ الأمازونية، ذاك الأمير الذي لطالما كتمتُ اسمَه؟
أونون: هيبوليت؟ بحقّ الآلهة؟
فيدر: أنت من سمّيتَه».
راسين، فيدر، الفصل الأوّل، المشهد الثالث.

(2) بيكسيليكور، رينيه-شارل، (1773-1844)، مسرحيّ ومترجم فرنسي.

أجاب برتوتشو بحدّة: - لا تمزح في هذه الأمور، إنّ اسمًا مثل هذا لا ينبغي أن يُنطق به هنا بالطّريقة التي جرؤت على نطقه بها.

قال أندريا وقد أذهلته قليلًا رصانة برتوتشو: - باه! وما المانع؟

- المانع أنّ حامل هذا الاسم رجلٌ مباركٌ من السّماء، ولا يمكنه أن ينجب حقيرًا مثلك.

- أوه! مجرّد كلمات كبيرة...

- لكنّ أثرها كبيرٌ، إن لم تحترس!

- تهديدات!.. أنا لا أخشى شيئًا... سأقول...

قال برتوتشو بنبرةٍ هادئة، أشفعها بنظرةٍ واثقة رجف لها أندريا حتّى أحشائه: - هل تعتقد أنّك تتعامل مع أقزام من فصيلتك؟ أوَتظنّ نفسك تتعامل مع المساجين الأوغاد أمثالك، السّذّج المغفّلين؟... بينيديتو، أنت في قبضةٍ رهيبةٍ، والقبضةُ تريد أن تنفتحَ لتحررك، فاغنم الفرصة. لا تعبث مع الصاعقة التي ترتاح لبرهةٍ، لكنّها مستعدّةٌ لأن تصعقك في أيّ لحظة، إن أزعجتَها!

قال الفتى العنيد: - أبي... أريد أن أعرف من هو أبي! مستعدٌّ أن أموتَ في سبيل ذلك. فيم تهمّني الفضيحة أنا؟ ستسيء إلى سمعتي... ستجعلني موضوعًا للأخبار كما يقول الصحافيُّ بوشان! لكن أنتم، يا أبناء المجتمع الرّفيع، لديكم دائمًا شيءٌ تخسرونَه في الفضيحة، على الرّغم من ملايينكم وخزناتكم... والآن، من يكون أبي؟

- لقد أتيت لأخبرك من يكون.

قال بينيديتو وقد اشتعلت عيناه فرحًا: - آه!

وفي تلك اللّحظة انفتح البابُ ودخل السجّان، فقال لبرتوتشو:

- معذرةً يا سيّدي، لكنّ قاضي التّحقيق ينتظر السّجين.

قال أندريا للمدبّر الشّهم: - هذه نهاية مقابلتنا... أستودعك الشّيطان أيّها الوقح!

قال برتوتشو: - سوف أعود غدًا.

قال أندريا: - حسنًا... سادتي الدّرك، أنا طوع أمركم... آه! يا سيّدي العزيز اترُك في المقصف بعض النّقود لأحصل على ما أحتاجه هنا.

أجابه برتوتشو: - سأفعل.

مدّ له أندريا يده، لكنّ برتوتشو ترك يده في جيبه، واكتفى بأن حرّك بعض القطع النّقدية.

قال أندريا متصنّعًا ابتسامةً، وقد سيطر عليه تمامًا هدوء برتوتشو الغريب: - هذا ما قصدتُه!

وقال لنفسه وهو يصعد العربة المستطيلة والمسيّجة التي يسمونها «سلّة السَّلطة»: - هل أخطأتُ؟ سوف نرى! ثمّ أضاف وهو يستدير نحو برتوتشو: -إلى الغد إذًا؟

رد المدبّر: - إلى الغد!

108

القاضي

نتذكّر أنّ الأب بوزوني كان قد بقي مع نوارتييه بمفردهما في غرفة الميّتة، وأنّ الشّيخ والرّاهب هما من نصّبا نفسيهما حارسَيْن على جسد الصبية.وشُيّعت فالانتين إلى مثواها الأخير. وربّما عظاتُ الرّاهب المسيحيّة، أو رأفته الخيّرة، أو ربّما كلامه المقنع، قد أعاد للشّيخ رباطة جأشه. ذلك أنّ نوارتييه مُذ تحدّث مع الرّاهب، تغيّر فيه كلّ شيء، وانقلب يأسُه إلى هدوءٍ واستسلام يعجبُ له كلّ من عرفَ الشّيخ وحفيدته ووقفَ على مدى تعلّقه بها.

ولم يكن السيّد دو فيلفور قد رأى الشّيخ منذ صباح الوفاة. جُدّد المنزل بأكمله. استُقدم خادمٌ جديد له، وآخر لنوارتييه. واستخدمت السيّدة دو فيلفور امرأتين أُخريين: وجوه جديدةٌ بالجملة، حتّى الحوذيّ والبوّاب، صارت الآن تعمرُ المنزل، منتصبة بين سادةِ هذا المنزل الملعون، واقفةً على ما يجمعهم من علاقاتٍ، وما يطبع تلك العلاقات من برود.

ثمّ إنّ جلسات المحكمة كان ينتظر أن تُفتتح في غضون ثلاثة أيّام، والسيّد دو فيلفور قد أغلق على نفسه الباب مستهلكًا كامل جهده في التّحضير لمحاكمة قاتل كادروس. وهي قضيةٌ، مثل جميع القضايا التي ارتبط بها اسم الكونت مونت كريستو، قد خلّفت صدىً واسعًا في الأوساط الباريسية. ولم تكن البراهين مقنعةً، ما دامت ترتكز على كلمات كتبها سجينٌ هاربٌ ساعةَ احتضاره، يتّهم فيها رفيقًا له في السّجن، ممّا يعني أنّه قد يكون كتبها بدافع الكره والانتقام. لكنّ القاضي كان قد حسم

قرارَه؛ لقد انتهى فيلفور إلى أن أقنع نفسه بهذا القرار الرّهيب: إنّ بينيديتو مذنبٌ؛ وإنّها مناسبةٌ لأن يجعل من مرافعته نصرًا صعبًا يستمدّ منه شيئًا من بهجة الاعتداد بالذّات، البهجة الوحيدة التي لا تزال تحرّك شغاف قلبه المتجمّد.

وبفضل جهده الدّؤوب اكتمل التّحضيرُ للقضيّة التي كان دو فيلفور يريد أن يجعل منها مفتتح الجلسات المقبلة؛ وقد كان مضطرًا إلى أن يحبس نفسه حتّى يتجنّب الرّدّ على الطّلبات الكثيرة التي تلتمس منه بطاقات دعوةٍ لحضور جلسات المحاكمة. ثمّ إنّ موت الصبيّة لم يكن قد مرّ عليه الكثير، ولا يزال جوٌّ من الحزن يخيّم على المنزل، ولا أحدَ يعجبُ إذًا من أنّ الأبَ قد أغلقَ على نفسه مكتبه مستغرقًا تمامًا في عمله الذي يعتبره الشّيء الوحيد الذي لا يزال يلتمس فيه العزاءَ.

مرّة واحدةً فقط، عقب الزّيارة التي خصّ فيها برتوتشو بالزّيارة بينيديتو، فطالبه الفتى بمعرفة اسم أبيه؛ قلنا مرّةً واحدةً فقط، عقب تلك الزّيارة، وكان اليوم يومَ أحدٍ، لمح فيلفور أباه؛ وحدث ذلك في لحظة أرهق فيها التّعب القاضي، فنزل إلى حديقة منزله، مهمومًا، يرزح تحت ثقل خواطر ماحقة، ومثلما كان تاركانيوس[1] يضرب بصولجانه رؤوس نبات الخشخاش المرتفعة، جعلَ هو يضربُ بعصاه سوقَ ورودِ الخطميةِ الطّويلةَ والذّابلةَ، التي تنتصبُ على امتداد المماشي، كأنّها أطياف الزّهور التي كان بريقها شديدًا في الفصل الذي انقضى. وأكثر من مرّةً كان وكيل الملك قد بلغ حدّ الحديقة، أي السّياج المعلوم الذي يحدُّ الحقل المهجور، ثمّ دار على عقبيه، سالكًا نفس الممشى، مستعيدًا نزهته بنفس الخطو ونفس الحركات؛ رفع عينيه تلقائيًا صوب المنزل الذي يتناهى منه

(1) الرّاجح هو لوكيوس تاركوينيوس (حكم بين 534 و509 ق. م.) آخر حكّام الرّومان، والملقّب بالمذهل.

ضجيج لعب ابنه الذي عاد من المدرسة لقضاء الأحد والاثنين بجانب أمّه، وفي تلك اللّحظة رأى في إحدى النّوافذ المفتوحة السيّد نوارتييه الذي طلب أن يُدفع مقعده إلى هناك، لينعم بآخر أشعّة النّهار التي لا تزال دافئةً، وهي تصافح زهورَ الأثمان الذّابلةَ وأوراقَ الكروم المحمرّة التي تزين الشّرفة. وكانت عين الشّيخ مسمّرةً إلى موضعٍ لا يقَدر فيلفور أن يستبينه إلا مبهَمًا. كانت نظرة نوارتييه تقطر كراهية، ووحشية، ونفاد صبر، حتّى إنّ وكيل الملك، وهو الخبير بنظرة أبيه، قد انزاح عن مسارها ليتأمّل الشّخص الذي تنصبُّ عليّه تلك النظرة. فرأى مجموعةً من أشجار اللّيمون أغصانُها شبه عارية، وتحتها السيّدة دو فيلفور مستغرقة في قراءة كتاب، تقطع القراءة بين الفينة والأخرى لتبتسم إلى ابنها أو تردّ إليه كُرته المطّاطية التي يثابر على قذفها من الصّالون إلى الحديقة.

شحب فيلفور إذ أدرك ما يرمي إليه نوارتييه. ولا يزال الشّيخُ ينظر إلى الموضوع نفسه؛ لكن بغتةً نقل بصره من المرأة إلى زوجها، فأتى الدّور على فيلفور ليخضع لهجوم النّظرة الصاعقة التي، إذ غيّرت الموضوع الذي تنظرُ إليه، غيّرت كذلك كلامها، من غير أن تفقد لهجتها المتوعّدة.

وفي تلك اللّحظة كانت السيّدة فيلفور التي لا تدري شيئًا عن الأهواء التي تتحرّك من فوق رأسها نيرانًا حارقةً، تشير إلى ابنها بقبلةٍ أن يأتي فيأخذ كرته؛ لكنّ إدوارد تركها ترجوه طويلًا، إذ إنّ حنان الأمّ كان يبدو له مكافأةً لا تستحقّ عناء التّعب. ثمّ انتهى به المطاف إلى أن حسم أمرَه، فقفز عبر النّافذة وسط حزمةٍ من زهور اللؤلؤية ورقيب الشّمس، وهرع إلى أمّه بجبين يملأه العرق. مسحت السيّدة فيلفور العرق عن جبين الصبيّ وطبعت قبلة على الرخام اللّين، ثمّ صرفته بعد أن وضعت في إحدى يديه كرةً، وفي الأخرى حفنة حلوى.

دنا فيلفور من المنزل، منجذبًا بقوّةٍ خفيةٍ، كما يجذب الطّائرَ الثعبانُ؛ وبقدر ما كان يدنو، كانت نظرةُ نوارتييه تنخفض وتتبعه، وإنسانُ عينيه

يتّسع ويتّقد حتّى ليشعر فيلفور بأنّه يلتهمه حتّى قلبه. والحقّ أنّ في النّظرة كان يُقرأُ لومٌ دمويٌّ، ووعيدٌ رهيبٌ. ثمّ ارتفعت عينا نوارتييه إلى السّماء، كأنّما يذكّر ابنه بقَسَم غفل عنه.

أجاب فيلفور من الفناء بالأسفل: - حسنًا يا سيّدي! اصبر يومًا آخرَ فقط، فإنّ عهدي ملزمٌ.

بدا أنّ كلمات فيلفور قد هدّأت نوارتييه، فأدار عينيه، بلا مبالاة في اتّجاه آخر. وفتح فيلفور بعنفٍ أزرار معطفه الذي يخنقه، ومسح على جبينه بيدٍ شاحبة، ثمّ عاد إلى مكتبه.

مرّ اللّيلُ باردًا هادئًا؛ وقد هجع جميع من في المنزل على عادتهم. وحدَه فيلفور، على عادته، لم ينم في نفس الوقت والآخرين، وظلّ يشتغل حتّى الخامسة صباحًا، يراجعُ آخر التحقيقات التي قام بها أمسٍ قضاةُ التّحقيق، وتفحّص أقوال الشّهود، وتوضيح صكّ الاتّهام، صكٌّ من أمهر وأروع ما كتبه حتّى الآن. وكانت الجلسة الأولى مقرّرةً في اليوم التالي، أَي الاثنَين. وإنّ فيلفور ليرى هذا اليومَ يطلُّ شاحبًا منذرًا بالشؤم، وضوؤه المزرقّ ينصبُّ برّاقًا على الورق فيضيءُ السّطورَ المكتوبة باللّون الأحمر. وقد غفا القاضي برهةً، بينما يلفظ المصباح آخرُ أنفاسه، واستفاق مع آخر الشّرارات، وأصابعُه رطبةٌ ومحمرّةٌ كأنّها قد خضّبت بالدّم.

فتح نافذته: شريطٌ برتقاليّ كبيرٌ يعبر السّماءَ في البعيد، فيشطر نصفين أشجارَ الحور الرّقيقة التي ترتسم سوداء في الأفق. وفي حقل البرسيم، وراء سياج الكستناء، صعدت قبّرةٌ إلى السّماء صادحةً بنشيدها الصباحيّ الصّافي. وأغرق الهواء الرّطبُ رأسَ فيلفور، وأنعش ذاكرته.

قال لنفسه بجهدٍ: - اليوم؛ اليومَ يومُ الرّجل الذي سوف يحمل سوط العدالة فيضرب به حيثما يوجد المذنبون.

التفتت نظرتُه رغمًا عنه إلى النّافذة حيث رأى نوارتييه أمس. كان

السّتار مسدلًا. ومع ذلك كانت صورة أبيه حاضرة في نفسه، إلى درجة أنّه توجّه إلى النّافذة المغلقة كما لو كانت مفتوحة ويُرى من خلالها الشّيخ متوعّدًا.

غمغم: - نعم، نعم، اطمئنّ!

هوى رأسُه على صدره، ودار في مكتبه دوراتٍ، على وضعه ذاك، ثمّ ارتمى على الأريكة بملابسه، ليس راغبًا في أن ينام، بقدر ما هو راغبٌ في أن يريح أطرافه المتصلّبة من تعَب وبرد العمل الذي يتسلّل حتّى نخاع العظام.

شيئًا فشيئًا استيقظ الجميع. ومن مكتبه أخذ فيلفور ينصت إلى الأصوات المتعاقبة التي تشكّل، إن جاز التّعبير، حياة هذا المنزل: صرير الأبواب، رنين جرس السيّدة فيلفور وهي تنادي خادمتها، أولى صيحات الطّفل الذي يستيقظ مرحًا على عادة من هم في سنّه.

قرع فيلفور الجرس بدوره. دخل عليه خادمه الجديد، حاملًا الجرائد، ومعها فنجان شوكولا.

سأله فيلفور: - ماذا تحمل لي هنا؟

- فنجان شوكولا.

- لم أطلبه. فمن ذا الذي اعتنى بطلبه؟

- سيّدتي. لقد قالت لي إنّ سيّدي سيتحدّث كثيرًا في قضيّة القتل، لذا سيحتاج إلى ما يقوّي به بدنه.

وضع الخادمُ الفنجان القرمزيَّ على الطاولة الموضوعة جنب الأريكة، طاولة مليئة بالأوراق مثل غيرها من الطّاولات، ثمّ انصرف. تأمّل دو فيلفور الفنجان لحظةً بنظرةٍ كئيبة، ثمّ حمله بغتةً وجرع ما فيه دفعةً واحدة. كان يبدو كأنّما يتمنّى لو أنّ المشروب كان قاتلًا، ليخلّصه من واجب أثقل عليه من الموت. ثمّ قام وأخذ يذرع مكتبه وعلى وجهه ابتسامة كانت لترعب النّاظر إليه.

لم تكن الشوكولا مؤذيةً، ولم يشعر دو فيلفور بشيء. حان وقت الغداء، ولم يظهر السيّد دو فيلفور حول المائدة. دخل عليه الخادم، وقال له:

- إنّ سيّدتي تُعلم سيّدي بأنّ السّاعة الآن الحادية عشرة، وأنّ الجلسة تنعقد منتصف النّهار.

قال دو فيلفور: - وماذا؟

- لقد أنهت سيّدتي زينتَها: هي الآن جاهزةٌ، وتسأل سيّدي هل بإمكانها أن ترافقه؟

- إلى أين؟

- إلى المحكمة.

- لِمَ؟

- إنّ سيّدتي تقول إنّها ترغب كثيرًا في حضور هذه الجلسة.

قال دو فيلفور بنبرة تكاد تكون مرعبةً: - آه! ترغب في ذلك؟

تراجع الخادم خطوةً، وقال: - إن كان سيّدي يرغب في الذّهاب بمفرده، فسوف أُخبر سيّدتي بذلك.

ظلّ دو فيلفور صامتًا لبرهة؛ يحكّ بأظافره خدّه الشّاحب الذي يتباين مع لحيته السّوداء سواد الأبنوس. ثمّ انتهى إلى أن قال:

- أخبر السيّدة بأنّني أرغب في الحديث إليها، فلتنتظرني في غرفتها.

- أجل، يا سيّدي.

- ثمّ عُد لتحلق لي، وتلبسني.

- فورًا.

وبالفعل انصرف الخادمُ، ثمّ ما لبث أن عاد، فحلق لفيلفور وألبسه زيًّا أسودَ مهيبًا. ولما انتهى، قال: إنّ سيّدتي تقول إنّها تنتظر سيّدي ما إن يفرغ من زينته.

- أنا ذاهب.

وحمل دو فيلفور ملفّاته تحت جناحه، وقبّعته في يده، وقصد غرفة زوجته. فلمّا بلغ بابها، أخرج منديله، فمسح به العرق السّائل على جبينه الشّاحب. ثمّ دفع البابَ.

كانت السيّدة دو فيلفور جالسة على أريكتها العثمانية، تتصفّح في ضيقٍ الجرائد والكتيّبات التي يلهو الصّغير بتمزيقها حتّى قبل أن تجد هي الوقتَ لقراءتها. كانت قد ارتدت ملابسها، وصارت جاهزةً للخروج؛ وقبّعتها تنتظرها موضوعةً على الأريكة.

قالت بصوتها المعتاد الهادئ:- آه! ها أنت يا سيّدي؛ يا إلهي! ما أشدَّ شحوبك! هل اشتغلت طيلة اللّيل مرّةً أخرى؟ لِمَ لم تأتِ لتأكل معنا؟ هل ستصطحبني معك، أم نذهب أنا وإدوارد وحدنا؟

عدّدت السيّدة دو فيلفور كما رأينا أسئلتها لكي تحصل على جوابٍ من زوجها؛ لكنّه ظلّ جامدًا صامتًا كتمثال.

ثم قال دو فيلفور وهو يحدّق في الطّفل بنظرةٍ صارمة: - إدوارد، اذهب لتلعب في الصّالون يا صديقي، لأنّني أحتاج أن أتحدّث مع أمّك.

ولمّا رأت السيّدة دو فيلفور الوجه البارد والنّبرة الصّارمة والمقدّمات الغريبة، ارتجفت. ورفع إدوارد رأسه، وحدّق في أمّه، فلمّا رأى أنّها لم تؤكّد أمرَ السيّد دو فيلفور، عاد إلى اللّهو بقَطع رؤوس جنوده الدّمى.

صاح دو فيلفور بقوّةٍ جعلت الصبيّ يقفز من موضعه: - إدوارد! ألم تسمع؟ هيّا!

قام الطّفل شاحبًا، إذ لم يكن معتادًا على مثل هذه المعاملة، ويصعب الفصل فيما إذا كان شحوبه من الغضب أم الخوف. دنا منه والدُه، فأمسكه من ذراعه وقبّله على جبينه.

قال: - اذهب يا بنيّ، هيّا!

خرج إدوارد. وذهب فيلفور في إثره، فأغلق الباب خلفه.

قالت الشّابة وهي تنظر إلى زوجها حتّى أعماق روحه، وتحاول ابتسامةً جمّدها برود فيلفور: - يا إلهي! ماذا هناك؟

قال القاضي من دون لفٍّ أو دوران، وهو يقف حائلًا بين زوجته والباب: - سيّدتي، أين تخفين السمّ الذي تستعملينه عادةً؟

شعرت السيّدة دو فيلفور بما قد تشعر به القبّرة التي ترى الحدأة تلفّ حولَها، راسمةً فوق رأسها دوائر الموت. فانطلق من صدر المرأة صوتٌ أجشُّ، لا هو بالصّيحة ولا هو بالتّنهيدة، وشحبت حتّى بهت لونها.

قالت: - سيّدي، أنا... أنا لا أفهم.

ولمّا كانت قد أُصيبت بنوبةٍ من رعب، فقد هوت على وسائد الأريكة في نوبة رعب أيضًا، لكنّ النّوبة الثّانية كانت أشدّ من الأولى.

واصل فيلفور بصوتٍ هادئ تمامًا: - سألتك: أين تخفين السّم الذي قتلتِ به حمايَ السيد دو سان مِران، والسيّدة دو سان مِران، وباروا، وفالانتين.

صاحت السيّدة دو فيلفور وهي تشبك يديها: - آه يا سيّدي، ما الذي تقوله؟

- لست أنتِ من يسأل، عليك أن تجيبي فقط.

تمتمت السيّدة دو فليفور: - أجيب الزوج أم القاضي؟

- القاضي يا سيّدتي! القاضي!

ياله من منظرٍ مرعبٍ، منظرُ شحوبِ هذه المرأة، وقلقِ نظرتها، وارتجاف جسدها.

اكتفت بأن غمغمت: - آه! يا سيّدي! يا سيّدي!...

صاح المحقّقُ الرّهيب: - أنت لا تجيبين يا سيّدتي! ثمّ أضاف بابتسامةٍ أشدُّ إرعابًا من غضبه: - واضحٌ أنّك لا تنكرين!

ندّت عنها حركةٌ. فأضاف دو فيلفور وهو يمدّ يده نحوها كأنّما ليعتقلها باسم العدالة: - ولا تستطيعين أن تنكري؛ لقد اقترفت جرائمك تلك بسدادٍ كبيرٍ، لكنّه لن ينطوي إلا على النّاس الذين تعميهم العواطف عن رؤية الحقيقة. ما إن ماتت السيّدة دو سان مِران حتّى علمت أنّ في بيتي

مسمّمٌ. فقد نبّهني السيّد دافرينيي؛ ولمّا مات باروا -وليغفر لي الربّ!- ذهبت شكوكي صوبَ شخص معيّن، صوب ملاك! شكوكي التي لا تنام في قلبي، وتظلّ متيقّظة حتّى حين لا تكون ثمّة جريمة! لكن بعد موت فالاثنين لم يعد ثمّة من شكٍّ عندي يا سيّدتي، ولستُ الوحيد! إنّ جريمتك التي يعرفها الآن شخصانِ، ويشكّ فيها آخرون، ستكشفُ على الملأ. وكما قلتُ لك يا سيّدتي آنفًا، ليس الزوج الذي يكلّمك الآن وإنّما القاضي!

أخفت المرأةُ وجهها في يديها. وتمتمت: - أوه يا سيّدي! أتوسّل إليك، لا تحكم على المظاهر!

صاح فيلفور بصوتٍ مُحتقِر: - هل أنت جبانة؟ الحقّ أنّني لطالما لاحظتُ أنّ قتلة السّمومِ جبناء. هل أنت جبانةٌ، أنت التي بلغت بك الجرأة حدّ أن تتابعي موتَ عجوزين وصبيّةٍ، قتلتهم بيدك؟

- سيّدي! سيّدي!

صاح دو فيلفور بحماسة ما انفكّت تتصاعد: - هل أنت جبانةٌ، أنت التي تابعت لحظةً بلحظةٍ احتضار أربع نفوس؛ أنت التي وضعت خططك الجهنّمية، وركّبت سمومك الشّنيعة بمهارةٍ ودقّةٍ معجزَتَين؟ أنت التي رتّبت كلّ شيء، هل نسيتِ أمرًا مهمًا: إلى أين سيقودك كشفُ جرائمك؟ أوه! لا أظنّ ذلك، فلا بدّ أنّك تركت لنفسك سمًّا أقلّ إيلامًا، وأشدَّ قوّةً، سمًّا يجنّبك العقاب المستحقَّ! هذا ما أرجوه على الأقل.

لوت السّيدة دو فيلفور يديها وهوت على ركبتيها.

قال: - أعرف... أعرف حقّ المعرفة، أعرفُ أنّك تعترفين، لكنّه اعترافٌ بعد فواتِ الأوان، اعترافٌ لمّا لم يعد أمامك إمكانٌ للإنكار، اعترافٌ أمام القاضي، اعترافٌ لا ينقص شيئًا من ذنبك أو عقابك المستحقّ.

صاحت السّيّدة دو فيلفور: - العقاب! العقاب! إنّها المرّة الثانية التي تذكر فيها هذه الكلمة يا سيّدي؟

– طبعًا. فهل لأنّك ارتكبت أربع جرائمَ، توهّمتِ أنّك ناجية؟ وهل لأنّك زوجة الرّجل الذي يطالب عادةً بالعقاب، ظننتِ نفسك ستُجنَّبين العقابَ؟ كلّا يا سيّدتي، كلّا! أيًا تكن المسمِّمةُ، فلا بدَّ أن تلقى عقابها، لا بدّ أن تلقى المقصلة، هذا ما لم تكن، كما قلت لك آنفًا، قد اتّخذت احتياطاتها، فتركت لنفسها سمًّا ألطف وأنجع!

أطلقت السيّد دو فيلفور صيحةً وحشيّةً، واجتاح ملامحَها الرّعبُ الشّنيع العصيُّ.

قال القاضي: – أوه! لا تخشي المقصلة يا سيّدتي! لا أريد لك العارَ، لأنّي سأتلطّخ به أيضًا؛ كلّا، بالعكس، إن فهمتِ مقصود كلامي، فسوف تدركين أنّك لا ينبغي أن تموتي على المقصلة.

تمتمت المرأة الشّقية وقد ذهلت كلّ الذّهول: – كلّا، لم أفهم؛ ماذا تقصد؟

– أقصد يا سيّدتي أنّ زوجة رجل القضاء الأوّل في العاصمة، لا ينبغي أن تلطّخ بشناعتها اسمًا ظلّ حتّى اليوم خاليًا من كلّ شائبة، وتُلحق العار بشرف زوجها وابنها.

– كلّا! أوه! كلّا.

– الحقّ يا سيّدتي! ستكون مبادرةً محمودةً من عندك، وسوف أظلُّ ممتنًا لك.

– ممتنًا لي! علامَ؟

– ممتنًا لك لما قلتِه قبل قليل.

– قلتُ ماذا؟ رأسي دائخٌ؛ ما عدتُ أفهم شيئًا! يا إلهي! يا إلهي!

ثمّ قامت، شعرها مبعثرٌ، وشفتاها مزبدتان.

– لقد أجبتِ عن السّؤال الذي وجّهتُه لك يا سيّدتي، ما إن دخلتُ إلى هنا: أين السّمّ الذي تستعملينه عادة؟

رفعت السيّدة دو فيلفور ذراعيها إلى السّماء وشبكت كفّيها في حركة متشنّجة.

صرخت: - كلّا، كلّا، أنت لا تريد لي هذا!

أجابها فيلفور: - ما لا أريده يا سيّدتي هو أن تموتي على مقصلة، هل تفهمين؟

- أوه! الرّحمة يا سيّدي!

أضاف بنظرةٍ صاعقة: - ما أريده هو أن تتحقّق العدالة. أنا على الأرض لأعاقِب يا سيّدتي! ولو كانت امرأةٌ غيرك لأرسلت لها الجلادَ، حتّى لو كانت ملكة! لكن معك أنت سأكون رحيمًا. ألم أقل لك يا سيّدتي كم أرجو إنّك احتفظتِ بقطراتٍ من سمّك الأخفِّ إيلامًا، والأشدِّ قوّةً وتأثيرًا؟

- أوه! سامحني يا سيّدي، واتركني أعيش!

قال فليفور: - يا لها من جبانة!

- تذكّر أنّني زوجتك!

- أنت قاتلةٌ مسمِّمَةٌ!

- بحقّ السّماء!

- لا!

- بحقِّ الحبِّ الذي كنت تحمله لي!

- لا! لا!

- بحقّ طفلنا! آه! دعني أعيش بحقّ طفلنا!

- لا، لا، لا! قلت لك: لا؛ لو تركتك تعيشين ولو ليومٍ آخرَ، فلربّما تقتلينه هو أيضًا.

صاحت الأمّ الضارية وهي تنقضّ على فيلفور: - أنا! أقتل ابني! أنا أقتل صغيري إدوارد!... آه! آه!

وأتمّت جملتها بضحكةٍ فظيعةٍ، ضحكة شيطانية، ضحكة مجنونة، ما لبثت أن تبدّدت في حشرجةٍ دمويةٍ.

وكانت السيّدة دو فيلفور متهاويةً عند قدمي زوجها.

اقترب منها فيلفور، وقال: - فكّري في الأمر يا سيّدتي. عند رجوعي، إن لم أجد العدالة قد تحقّقت، فسوف أبلّغ عنك بفمي، وأعتقلك بيديَّ.

ظلّت تنصت إليه، لاهثةً، محطّمةً، مسحوقةً؛ لا شيءَ يحيا فيها، سوى عينِها التي تتلظّى نارًا رهيبةً.

قال فيلفور: - هل تسمعين؛ سوف أذهب لأحصل على حكم إعدام لأحد القتلة... فإن عدتُ، فوجدتُك لا تزالين حيّةً، فسوف تقضين اللّيلةً في الحبس.

أطلقت السيّدة دو فيلفور تنهيدةً، وارتخت أعصابُها، وانهارت على البساط محطّمةً. وبدا أنّ وكيل الملك قد شعر ببعض من الشّفقة عليها، فنظر إليها نظرةً أقلّ قسوةً، وانحنى أمامها انحناءةً خفَيفةً، قائلًا: - وداعًا يا سيّدتي، وداعًا!

سقط وداعه كسكينٍ مميتةٍ على السيّدة دو فيلفور. غابت عن الوعي. وانصرف وكيل الملكً، مغلقًا الباب بإحكامٍ.

109

المحكمة

إنّ قضية بينيديتو -كما كانت تسمّى آنذاك في المحكمة كما في باريس بأكملها- قد أحدثت ضجّةً كبيرة. فكافالكانتي المزيّفُ، أيّامَ كان ينعمُ بهويّته المزيّفة لشهرين أو ثلاثة، قد راكم معارف كُثُرًا، أثناء تردّده على مقهى باريس، وشارع غان وغابة بولونيا. وقد كتبت الجرائدُ تحكي وتصف مختلف محطّات حياته، سواءً في قسمها الأنيق أو قسمها الذي قضاه في الحبس؛ فاستحثّت بالغ الفضول لدى القراء، خاصّة منهم أولئك الذين عرفوا الأمير أندريا كافالكانتي معرفةً شخصيّة؛ لذا كان هؤلاء مستعدّين لأن يبذلوا أيّ شيءٍ في سبيل أن يحضروا الجلسة، فيرَوا خلف القضبان بينيديتو، قاتل رفيق سجنه. وبالنّسبة إلى كثيرٍ من النّاس كان بينيديتو ضحيّةً، أو على الأقلّ خطأً ارتكبته العدالة: لقد سبق أن رأوا كافالكانتي الأب، وها هم ينتظرون أن يظهر من جديدٍ ليعيد الأمور إلى نصابها، وينقذ فلذة كبده. وعددٌ لا بأس به ممّن لم يسمعوا قطّ بالمعطف البولنديّ الشّهير الذي أتى به صاحبُنا أوّلَ مرةٍ عند الكونت دو مونت كريستو، قد تأثّروا بالرّجل النّبيل الملمّ بمعارف العالم، الرّجل الذي كان يبدو سيّدًا رفيعًا حين لم يكن يتكلّم أو يقوم بالحساب. أمّا المتّهم نفسه، فكثير من النّاس يذكرون أنّهم رأوه ودودًا للغاية، ووسيمًا جدًا، وشديد الفطنة، إلى درجة أنّهم فضّلوا الاعتقاد في وجود مؤامرةٍ حاكها ضدّه عدوٌ ما، على غرار ما نصادف في هذا العالم، حيث الثراء الفاحش يرفعُ الشرّ والخيرَ إلى مراتب عجيبة، والقوّةَ إلى مستويات لم يُشهد لها مثيل.

هرع الجميع إذًا إلى جلسة المحاكمة، بعضهم ليتلذّذ بالمشهد، وآخرون ليعلّقوا عليه. ومنذ السّابعة صباحًا تشكّل الصّفُّ أمام الشبّاك، وقبل ساعة من بدء الجلسة كانت قاعة المحكمة قد امتلأت بذوي الحظوة. إنّ قاعة المحكمة، قبل دخول هيئة القضاة، بل وحتّى بعدها، في الأيام التي تشهد قضايا كبرى، تكون أشبه شيءٍ بصالون يتعارف فيه الكثيرون من النّاس، ويتبادلون الكلام حين يكونون جالسين متجاورين، لكي لا يضطروا إلى القيام فيفقدون مقاعدهم؛ فإن كان يفصل بينهم عدد كثيرٌ من الحضور أو المحامين أو رجال الدّرك، فإنّهم يكتفون بتبادل الإشارات.

إنّنا في نهارٍ من تلك النّهارات الخريفية الرّائعة التي تعوّضنا أحيانًا عن صيفٍ غائبٍ أو قصير؛ وكانت الغيوم التي رآها السيّد دو فيلفور تلبّد السّماء صباحًا، قد اختفت كأنّما بفعل السّحر، فأفسحت الأفق لنهارٍ من أجمل نهارات سبتمبر يشعّ في كاملِ صفائه.

كان بوشان، باعتباره أحد ملوكِ الصّحافة، وبالتّالي حيثما حلّ يجد عرشه ينتظره، قلنا كان بوشان يرمي ببصره في كلّ اتّجاه. فلمح شاتو رونو ودُبراي اللّذين أنعم عليهما رقيبٌ من ضبّاط المدينة، فقبِل أن يجلس خلفهما، بدلًا من أن يجلس أمامهما، فيحجب عنهما النّظر، وفق ما يخوّلُه له حقّه. لقد شمّ الشرطيُّ الشّهمُ رائحة سكرتير الوزير، والمليونير؛ فأبدى الكثير من الكياسة لجارَيه النّبيلَين، بل وسمح لهما بأن يذهبا إلى صاحبهما بوشان، مع ضمان احتفاظهما بمقعدَيْهما.

قال بوشان: - أتيتما إذًا لتريا صديقكما؟

أجابه دُبراي: - إه! يا إلهي! تقصد سموّ الأمير! ليأخُذ الشّيطان أمراء إيطاليا!

- رجلٌ كان نسّابَتُه دانتي شخصيًا، ويَرِد ذكرُ أسلافه في **الكوميديا الإلهية!**

قال شاتو رونو ببرود: نبالة الحبل[1]!

سأل دُبراي بوشان: - سوف يُدانُ أليس كذلك؟

فأجابه الصحافيّ: - إه! أظنُّ أنّ الأَولى بأن يُطرحَ عليه هذا السّؤال هو أنت: أنت أعلمُنا بهيئة المحكمة؛ ألم تقابل الرّئيس في آخر حفلٍ نظّمه وزيرك؟

- بلى.

- وماذا قال؟

- قال شيئًا سوف يثير عجبكم جميعًا.

- آه! عجّل إذًا بالقول يا صديقي، فمنذ مدّةٍ ما عاد شيءٌ يثير فيّ العجب!

- قال لي إنّ هذا المدعوّ بينيديتو الذي ننظر إليه باعتباره عنقاءَ في المهارة وغولًا في الدّهاء، ما هو في الواقع سوى تابعٍ هيّن، سخيف وحقير، لا يستحقّ حتّى التّجارب الفسيولوجية التي سوف تُجرى على أعضائه بعد إعدامه.

قال بوشان: - باه! ومع ذلك أتقن أداء دور الأمير!

- أتقنه بالنّسبة إليك يا بوشان، أنت الذي تمقت هؤلاء الأمراء المساكين، وتسعد حين تراهم سيّئي التّهذيب؛ لكن ليس بالنّسبة إليّ أنا الذي لا أخطئُ معرفةَ الرّجلِ النّبيلِ، وأشمُّ رائحة الأرستقراطية، فأميّزُ الزائفَ مهما تخفّى خلف شعار نبالة.

- وإذًا، أنت لم تصدّق قطّ في إمارته؟

- بلى، صدّقتُ في الإمارة... لكنّني لم أصدّق في الأمير.

(1) بالعادة يكون التعارض بين نبالة السّيف (الفرسان) ونبالة العباءة (الشّواهد والمناصب العليا)، وربّما يشير شاتو رونو هنا، بنبالة الحبل، إلى النّبالة التي يحوزها المرء بالانتساب، ومن غير أيّ استحقاق يذكر.

قال دُبراي: - لا بأس؛ لكنّني أؤكّد لك أنّ باستثنائك، كان الجميع يعتبرونه... لقد رأيتُه عند الوزراء.

قال شاتو رونو: - آه! نعم! لأنّ معشر وزرائك خبراء في الأمراء!

قال بوشان مقهقهًا: - بليغٌ ما قلتَه يا شاتو رونو! جملة قصيرةٌ لكنّها جميلة. أستأذنك في استعمالها في تقريري.

قال شاتو رونو: - خُذها يا سيّدي العزيز بوشان؛ أعطيكَ جملتي لأنّها تستحقُّ.

قال دُبراي لبوشان: - لكن، إن كنت أنا قد تحدّثتُ إلى الرّئيس فلا بدّ أنّك أنت قد تحدّثت إلى وكيل الملك.

- مستحيل؛ منذ ثمانية أيّام لم يغادر فيلفور منزله؛ وهذا طبيعي: سلسلةٌ من الحوادث العائلية المأساوية، كلّلها موتُ ابنته الغامض...

- موت غامض! ماذا تقول يا بوشان؟

قال بوشان وهو يضع نظّارته المفردة في عينه ويجاهد لتثبيتها: - أوه! أجل، تظاهَر بالجهل، ما دام الأمر يتعلّق بنبالة العباءة!

قال شاتو رونو: اسمح لي يا عزيزي أن أقول لك إنّه حين يتعلّق الأمر بالنّظّارة المفردة، فإنّك تفتقد للإتقان، هلاّ أعطيتَه دروسًا في كيفية وضعها يا دُبراي؟

قال بوشان: - انظروا، لم أخطئ.

- لم تخطئ في ماذا؟

- إنّها هي.

- هي من؟

- قيل إنّها قد رحلت.

سأله شاتو رونو: - من تقصد؟ الآنسة يوجيني؟ هل عادت؟

- كلاّ، أقصد أمّها.

- السيّدة دانغلار؟

قال شاتو رونو: - تمزح! مستحيل؛ عشرة أيّامٍ بعد هروب ابنتها، وإفلاس زوجها!

احمرّ دُبراي حمرةً خفيفةً وتابع اتّجاه نظرة بوشان.

قال: - إنّها امرأةٌ محجّبة، امرأةٌ غريبةٌ، قد تكون أيّ امرأة؛ قد تكون أميرة؛ لعلّها أمّ الأمير كافالكانتي. لكنّك كنت تقول، أو بالأحرى كنت على وشك أن تقول أشياء مهمّة على ما يبدو يا بوشان؟

- أنا؟

- نعم. كنت تتحدّث عن ميتة فالانتين الغريبة.

- آه! نعم، صحيح؛ لكن لمَ لم تأتِ السيّدة دو فيلفور؟

قال دُبراي: - المرأةُ المسكينة! لا بدّ أنّها منهمكةٌ في تقطير نبات الترنجان لتوزّعه على المستشفيات، وإعدادِ مواد تجميل لنفسها ولصديقاتها. يُقالُ إنّها تصرف على هذا الشّغف ألفين إلى ثلاثة آلاف في السّنة! أنت محقٌّ: لمَ لم تأتِ السيّدة دو فيلفور؟ كنتُ لأنعم برؤيتها. إنّني أحبّ هذه المرأة كثيرًا.

قال شاتو رونو: - أما أنا فأمقتها.

- لماذا؟

- لا أدري. لمَ نحبُّ؟ لمَ نكره؟ أمقتها بدافعٍ من نفور.

- أو ربّما هي الغريزةُ مرّةً أخرى.

- ربّما... لكن لنعُد إلى ما كنت تقوله يا بوشان.

واصل بوشان: - ألا يثير فضولَكم معرفةُ سبب الوفيات الغزيرة في بيت وكيل الملك؟

قال شاتو رونو: - الغزيرُ، جميلٌ.

- العبارةُ عند سان سيمون يا عزيزي.

- لكن الحدث عند السيّد دو فيلفور؛ هيّا أكمل.

قال دُبراي: - الحقّ أنّني لم أغفل منذ ثلاثة أشهر عن المنزل الذي يخيّم عليه الحزن، وأوّل أمس فقط تحدّثت مع السيّدة في موضوع فالانتين!

سأله شاتو رونو: - من تقصد بالسيّدة؟

- زوجة الوزير طبعًا!

قال شاتو رونو: - آه! معذرة، فأنا لا أذهب عند الوزراء، وإنّما أترك ذلك للأمراء.

- كنت متوهّجًا فقط يا سيّدي البارون، والآن صرت متّقدًا؛ رفقًا بحالنا، وإلا لأحرقتنا كما يفعل الإله جوبيتير.

قال شاتو رونو: - لن أزيد كلمة؛ لكن بحقّ الشّيطان رفقًا بي أنت، ولا تعلّق على كلّ عبارةٍ أنطقها.

- حسنًا، لكن لنحاول أن نذهب إلى صلب الموضوع يا بوشان؛ كنت أقول إنّ السيّدة كانت قد طلبت منّي أوّل من أمس معلوماتٍ بهذا الصّدد؛ فاخبِرني، ما أستطيع أن أُخبرها به.

- أقول إذًا يا سيّداي إذا ما كان الموت غزيرًا -وأتمسّك بالكلمة- في بيت فيلفور، فمعنى هذا أنّ ثمّة قاتلًا في المنزل!

ارتجف الشّابّان، إذ سبق أن خطرت لهما الخاطرة من قبل.

سألاه: - ومن القاتل؟

- الصّغير إدوارد.

أطلق المستمعان قهقهةً، من غير أن يفلحا في تشتيت تركيز المتحدّث الذي واصل كلامه: - أجل يا سيّديَّ، الصّغير إدوارد، الطّفلُ الظّاهرة البارع في القتل براعةَ رجلٍ بالغ.

- هذه مزحة؟

- كلاّ؛ لقد اتخذتُ أمس خادمًا ترك منزل السيّد دو فيلفور، واسمعا ما قاله.

- نسمع.

- وسوف أسرّحه غدًا، لأنّه يأكل كثيرًا ليعوّض الصّيام الذي فرضه عليه الرّعبُ في بيت وكيل الملك. الظّاهر أنّ هذا الطّفل العزيز قد وضع يده على قارورة مخدّر يستعملها من حين إلى آخر ضدّ من لا يروقه. بدأ بجدِّه وجدّته العزيزين دو سان مِران، اللّذين لم يكونا يروقانه، فصبّ لهما ثلاث قطراتٍ من إكسيره: ثلاث قطرات كانت كافية؛ ثمّ أتى الدّور على الخادم الشّهم باروا، الرّجل المسنّ خادم الجدّ نوارتييه الذي كان يتنمّر على وغدنا الظّريف الذي تعرفونه، فصبّ له الوغدُ الظّريف ثلاث قطراتٍ من إكسيره. وكذلك فعل مع المسكينة فالانتين التي لم تكن تتنمّر عليه، لكنّه كان يحسدها. صبَّ لها ثلاث قطراتٍ من إكسيره، وانتهى أمرها كغيرها.

قال شاتو رونو: - أيّ قصّة شيطانية تقصّها علينا؟

قال بوشان: - نعم، قصّةٌ من العالم الآخر، أليس كذلك؟

قال دُبراي: - قصّة غير منطقية.

واصل بوشان: - آه! تشكّكان في الأمر! اسألا إذًا خادمي، أو بالأحرى اسألا الرّجل الذي لن يظلَّ غدًا خادمي! إنّ الخبر شائعٌ في منزل وكيل الملك!

- لكن ما هذا الإكسير؟ وأين هو؟

- الطّفل يخفيه، طبعًا!

- ومن أين حصل عليه؟

- من مختبر السيّدة أمّه.

- أمّه إذًا تحتفظ بسموم في مختبرها؟

- وما أدراني أنا! هذه أسئلةٌ توجّهُها لوكيل الملك. أنا أعيد ما سمعته، وفقط؛ وليس لي إلا أن أذكر مصدر كلامي. الخادمُ المسكين، لم يعد يستطيع الأكل من الرّعب.

- أمرٌ لا يصدّق!

- كلاّ يا عزيزي، ليس بالأمر الذي لا يصدّق، لقد رأيتُما السّنة الماضية طفلَ شارع ريشيليو الذي كان يلهو بقتل إخوته وأخواته، مُدخلًا دبّوسًا في آذانهم أثناء نومهم؛ يلينا جيلٌ نضجَ قبل الأوان يا عزيزي.

قال شاتو رونو: - أراهن يا عزيزي على أنّك أنت نفسك لا تصدّق كلمةً ممّا تقصّه علينا... لكن أين الكونت مونت كريستو؟ لمَ لم يحضر؟

قال دُبراي: - إنّه مرهقٌ؛ ثمّ إنّه لن يرغب في الظّهور أمام الجميع، هو الذي خدعه كلّ آل كافالكانتي الذين أتوا عنده على ما يبدو برسائل دَين زائفة، حتّى إنّ الإمارة المزعومة قد سلبتهُ نحو مائة ألف فرنك.

قال شاتو رونو: - بالمناسبة، كيف حال السيّد موريل؟

أجاب الشّابُّ النّبيل: - الحقّ أنّني ذهبت عنده ثلاث مرّاتٍ، ولم أجده. على أنّ أخته لم تكن تبدو قلقةً، وقد قالت لي إنّها هي أيضًا لم تره منذ ثلاثة أيّام أو أربعةٍ، لكنّها متأكّدة من أنّه بخير.

قال بوشان: - آه! تذكّرت! إنّ الكونت مونت كريستو لا يستطيع الحضور في هذه القاعة.

- ولم؟

- لأنّه فاعلٌ في الحدث.

سأله دُبراي: - هل قتل أحدًا؟

- كلّا، بالعكس، هو من أرادوا أن يقتلوه. أنسيت أنّ بينيديتو قد قتل المسكين كادروس حين كان يهمّ بالخروج من عند الكونت؟ ونسيتَ أنّ في بيته عُثر على الصّدرية المعلومة التي حالت دون إتمام العقد؟ أرأيت الصّدريّة المعلومة؟ إنّها هناك، دامية على المكتب، موضوعة كقرينة اتّهام.

- آه! حسنًا!

- صمتًا يا سادة! ها هي هيئة المحكمة قد دخلت؛ إلى مقاعدنا!

وبالفعل سُمعت في قاعة المحكمة ضجّةٌ كبيرة؛ ونادى الشّرطيُّ الرّقيبُ الشّابّين بإشارةٍ! وظهر الحاجبُ نشيطًا عند باب القاعة، ونادى بذاك الصراخ الشّبيه بالعواء، صراخ الحجّاب منذ أيّام بومارشيه: «المحكمة، يا سادة!».

110

صك الاتّهام

جلس القضاة وسط صمتٍ مطبق؛ أمّا السيّد دو فيلفور، موضوع الاهتمام العامّ، لا بل يمكن أن نقول موضوع التّقدير العام، فقد اتّخذ مجلسه في مقعده، وأخذ يجيل البصر حواليه في هدوء. وكان الجميع يتأمّل بدهشة سحنته القاسيةَ الجادّة التي يبدو أنّ آلام الأبوّة لم تخلّف فيها أيّ أثر، وينظرون في شيءٍ من الرّعب هذا الرّجل الغريب عن عواطف البشر.

قال الرّئيس: – أيّها الدّرك! هاتوا السّجين.

وما إن نُطقت تلك الكلمات، حتّى تيقّظ انتباه الحضور، وتركّزت أبصارهم على الباب الذي يفترض أن يدخل منه [illegible]و. وبالفعل، ما لبث أن فُتح الباب، فأطلّ منه المتّهم. عمَّ انطباعٌ واحد جميع الحضور، ولم يخطئ أحدٌ التّعرفَ على المتّهم. ملامحه لم تكن تحمل أثر ذاك الانفعال العميق الذي يكظم الدّمَ في القلبِ، فيُبهت الخدّين والجبينَ. يداه الموضوعتان بأريحية، إحداهما على قبّعته، والثانية على فتحة سترته المصنوعة من نسيج البيكيه الأبيض، لم تكن تعتريهما أيّ رجفةٍ؛ وعيناه كانتا هادئتين، لا بل برّاقتين. وما إن دخل القاعة حتّى أخذ يمسح بنظرته صفوف القضاة، فتوقّف مطوّلًا عند رئيس المحكمة، ثمّ خاصّةً عند وكيل الملك.

بجانب أندريا، جلسَ محاميه، وهو محام عيّنته الحكومة (لأنّ أندريا لم يرد قطّ أن يشغل نفسه بهذه التفاصيل الّتي لا يعيرها أيّ اهتمام)،

شابٌّ أشقر شقرةً فاترة، وقد احمرّ وجهه بفعل التوتّر الذي فاق المتوقّع بمائة مرّة.

طلب الرّئيس قراءة صكّ الاتّهام الذي حرّره، كما علمنا، قلمُ فيلفور البارع الصّارم. وأثناء القراءة التي كانت طويلةً، وكانت لترهقَ أيًا كان، ظلّت العيون معلّقةً بأندريا الذي كان يتحمّل ثقل الصكّ بمرح يضاهي صلابة إسبرطيّ. وربمّا لم يسبق قطّ لفيلفور أن كان بليغًا وجامعًا مانعًا إلى هذا الحدّ؛ لقد عرض الجريمةَ، واضحةً، حيّةً، زاهيةَ الألوان، وأبرزَ سوابقَ الظنّين وانحرافَه، ومسارَ جرائمه منذ نعومة سنّه، بأبلغَ ما يستطيعُ إبرازَهُ شخصٌ عركته تجاربُ القضاء وخبِر نفوسَ النّاس. حتّى إنّ ديباجة فيلفور وحدها كانت كافية للحكم بضياع بينيديتو ضياعًا غير قابل للاستئناف، ضياعًا لا ينتظر إلا أن يتحقّق ماديًا بعد حكم القضاة.

على أنّ أندريا لم يبدِ أيّ انشغال تجاه التّهم المتعاقبة التي ما انفكّت ترتفع لتهويَ على رأسه. حتّى إنّ السيّد دو فيلفور الذي واصل، أثناء مرافعته، دراستَه السيكولوجيةَ للمتّهم، على غرار ما يفعله دائمًا، قلنا إنّ السّيد فيلفور لم يستطع ولا مرّة أن ينجح في جعل المتّهم يخفض بصرَه، مهما سمَّر فيه نظرته النفّاذة.

فلمّا أتَمّ وكيل الملك القراءةَ، قال الرّئيس: - أيّها المتّهم، اسمك ولقبك؟

قام أندريا وقال بصوتٍ صافي النّبرة: - اعذرني يا سيّدي الرّئيس، لكن يبدو لي أنّكم ستتبعون نظام أسئلةٍ لن أستطيع أن أجاريكم فيه. إنّني أزعم أنّي أستطيع أن أبيّن في النّهاية أنّني استثناء، متّهم مختلف عن غيري من المتّهَمين. فلتسمحوا لي بأن أجيب عن أسئلتكم وفق ترتيبٍ مختلف، مع التّأكيد على أنّني سأجيب عن كلّ الأسئلة في نهاية المطاف.

دهِشًا، نظر الرّئيس إلى هيئة المحلّفين الذين نظروا بدورهم إلى

وكيل الملك. وعمّت المفاجأةُ كلَّ الحضور. لكن لم يبد على أندريا أيّ أثرٍ للتأثّر.

قال الرّئيس: - وسنّك؟ هل ستجيب عن هذا السّؤال؟

- سأجيب عن هذا السّؤال يا سيّدي الرّئيس، كما سأجيب عن سابقه، لكن في وقته.

كرّر القاضي: - سنّك؟

- سنّي واحد وعشرون سنة، أو بالأحرى سأبلغ الحادية والعشرين بعد أيّام، لأنّني ولدت ليلة 27 إلى صباح 28 سبتمبر من سنة 1817.

كانَ السيّد فيلفور منشغلًا بتدوين ملاحظاته، لكنّه لمّا سمع التّاريخ رفع رأسَه. وواصل الرّئيس: - أين ولدت؟

أجاب بينيديتو: - في أوتوي، قرب باريس.

رفع فيلفور رأسَه مرّةً أخرى، ونظر إلى بينيديتو كأنّما يحدّق في رأس ميدوزا، فبهت. أمّا بينيديتو فقد مسح بعنايةٍ شفتيه بطرف منديل مطرّز من نسيج الباتيست النّاعم.

سأله الرّئيس: - مهنتك؟

أجاب بينيديتو بأكبر قدر من الهدوء: - كنت في البداية مزوّرًا، ثمّ انتقلت إلى السّرقة، وأخيرًا صرت قاتلًا.

سرَت همهمة غضبٍ أو بالأحرى ذهولٍ في أركان القاعة كلّها. حتّى القضاةُ تبادلوا النّظَر مذهولين، وأبدى المحلّفون نفورًا من هذا الاستخفاف الذي لم يكن متوقّعًا في رجلٍ أنيق. أمّا السيّد دو فيلفور، فقد وضع يده على جبينه الذي كان في البداية شاحبًا، وصار الآن أحمر يغلي؛ ثمّ قام فجأةً، ونظر حواليه مثل الدّائخ: كان يختنق.

قال بينيديتو بأطيب ابتسامةٍ: - هل تبحث عن شيءٍ يا سيّدي وكيل الملك؟

لم يحر السيّد دو فيلفور جوابًا، وجلس على مقعده، أو بالأحرى تهاوى عليه.

سأل الرّئيسُ: - هل حان أوان الإفصاح عن اسمك أيّها المتّهم؟ إنّ التكلّفَ الهمجيَّ الذي عدّدت به جرائمك المختلفة وسمّيتَها مهنًا، والفخرَ الذي تتحدّث به عنها، ممّا يستوجب على المحكمة ردعك، باسم الأخلاق والاحترام الواجب للإنسانية؛ هما ربّما السّبب الذي دفعك إلى أن تؤخّر حتّى الآن الإفصاح عن اسمك. فلربّما أردت أن تمهّد لاسمك بكلّ تلك الألقاب الشّريفة!

قال بينيديتو بألطف نبرةٍ وأرفع تهذيبٍ: - مذهلٌ يا سيّدي الرّئيس كيف استطعت النّفاذ إلى أعماق ذَهني، وكشف خواطري: لهذا السّبب بالفعل التمست من سيادتكم تغيير ترتيب الأسئلة.

بلغ الذّهول غايتَه، إذ لم يكن في صوت المتّهم ما يفيدُ المفاخرة أو الاستخفاف؛ وتأثّر الحضور فاستشعروا انطلاق عاصفةٍ وسط ذاك الغمام المظلم.

قال الرّئيس: - حسنًا، ما اسمك؟

- لا أستطيع أن أخبركم باسمي، لأنّني لا أعرفُه، ولكنّني أستطيع أن أخبركم باسم والدي.

أعمى فيلفور وهجٌ مؤلم؛ وسالت على خدّيه قطرات عرقٍ لاذعةٍ، وشدّ على أوراقه وجعل يقلّبهما بيدٍ متشنّجةٍ تائهة.

استأنف الرّئيس:- أخبرنا إذًا باسم أبيك.

خيّم في القاعة صمتٌ مطبقٌ، لا يجرحه حتّى صوتُ نفَسٍ: الجميع يترقّبُ.

قال أندريا بهدوء: - والدي وكيل ملك.

قال الرّئيس مذهولًا، من غير أن يلاحظ الانقلاب الذي يحدث في سحنة فيلفور: - وكيل ملك!

- نعم، وما دمتَ تريد معرفة اسمه، فسوف أخبرك باسمه: إنّ اسمَه دو فيلفور!

انطلق كالصّاعقة من كلّ الصّدور الانفجارُ الذي طال كتمُه احترامًا لفضاء العدالة؛ حتّى إنّ هيئة المحكمة نفسها لم يخطر لها أن تقمع الفوضى العارمة. انصبّ على بينيديتو الذي ظلّ هادئًا، سيلٌ من السّباب واللّعنات، واللّمز، وتهديدات الشّرطة، والسّخرية التي يضمرها دائمًا عدد من حضور المحاكمات، متحيّنين الفرصة لإظهارها؛ ودام كلّ ذلك نحو خمس دقائق قبل أن يتدخّل القضاة والحجّابُ فينجحون في فرض الصّمت.

ووسط ذاك الضّجيج كلّه كان يُسمع صوتُ الرّئيس يصيح:

- تجرُؤ أيّها المتّهم على أن تتلاعب بالعدالة، وتعرض على مواطنيك مشهدَ فسادٍ لا مثيل له في عصرنا هذا الذي لا يتسامح مع مثل هذه الأفعال؟

هرع عشرةُ أشخاصٍ إلى السيّد وكيل الملك، شبه المسحوق في مقعده، وأغدقوا عليه بعبارات المواساة، والتشجيع والتودّد. وكان الصّمت قد استتبَّ في القاعة، باستثناء ركنٍ منها، ضمَّ زمرةً لا بأس بها، ما انفكّت مهتاجةً تتوشوش. كانوا يقولون إنّ امرأةً قد أُغمي عليها؛ فشمّموها أملاحًا، فاستعادت وعيها.

وطيلة تلك الجلبة كان أندريا قد وجّه إلى الحضور سحنته الباسمة؛ ثمّ، استند بإحدى ذراعيه إلى درابزين مقعده المصنوع من خشب السنديان، في حركة شديدة التهذيب، وقال:- سادتي، معاذَ الربّ أن أهين عدالة المحكمة، أو أثير أمام هذا الجمع الكريم فضيحةً مجانًا. لقد سألتموني عن سنّي، فأجبتكم؛ وسألتموني عن مسقط رأسي، فأجبتكم؛ وسألتموني عن اسمي، فعجزتُ عن الإجابة، لأنّني لا أعرف لنفسي اسمًا، ما دام والداي قد تخلّيا عنّي؛ لكنّني أستطيع أن أخبركم باسم

والدي، وأؤكّد أن اسم والدي هو السيّد دو فيلفور، ومستعدٌ أن أثبت صحّة ادّعائي.

كان في نبرة الشّاب يقينٌ، وإقناعٌ وطاقةٌ فرضت على الجميع أن يلزم الصّمتَ. وتعلّقت الأنظار بوكيل الملك الذي كان قد لزمَ مقعده ساكنًا كمن أهلكته الصّاعقة.

واصل أندريا، فارضًا الصّمت بصوته وحركاته: - سادتي، أنا مدين لكم بالحجّة والتفسير لما تفوّهت به.

صاح الرّئيس: - لكنّك صرّحت في التّحقيق أنّ اسمك بينيديتو، وأنّك يتيمٌ، وأنك من كورسيكا.

- قلتُ في التّحقيقات ما بدا لي لائقًا أن يُقال، لأنّني لم أرد أن يُفرض عليَّ تحريف أقوالي، أو أُمنع من الإدلاء بها أو أن تخفّف النّبرةُ المهيبة التي أردتُ أن أنطق بها كلماتي، وهذا ما يبدو لي أنّه يحدث الآن. والآن، أكرّر لكم أنّني وُلدت في أوتوي، ليلة 27 إلى صباح 28 سبتمبر 1817، وأنّني ابن السيّد دو فيلفور، وكيل الملك. والآن تريدون تفاصيل؟ سأعطيكم تفاصيلَ. وُلدت في الطّابق الأوّل من المنزل رقم 28، بشارع لافونتين، في غرفةٍ منجّدةٍ بالدّمقس الأحمر. حملني أبي بين ذراعيه، وأخبر والدتي بأنّني ميّت، ولفّني في خرقةٍ عليها حرفَا H، وN، ثمّ أخذني إلى الحديقة، فدفنني حيًّا.

سرَت في الحضور رجفةٌ، وهم يتابعون تصاعد ثقة المتّهم، ورعب السيّد دو فيلفور في آنٍ.

سأله الرّئيس: - لكن كيف عرفت كلّ هذه التّفاصيل؟

- سوف أخبرك بكلّ شيء يا سيّدي الرّئيس. في اللّيلة نفسها التي دفنني فيها والدي، كان قد تسلّل إلى الحديقة رجلٌ كان ينوي قتل والدي، ويتربّص به منذ مدّةٍ طويلة، ليتمّ فيه وعدَ انتقامٍ كورسيكيًا. وكان الرّجل

قد كمن خلف حزمة أشجار؛ فأبصر والدي يدفن في الأرض صندوقًا، فعالجه بضربةٍ من سكّينه بينما هو منهمكٌ في الحفر؛ ثمّ لمّا ظنَّ أنّ الصندوق يحوي كنزًا فقد أخذه، لكنّه وجدني أنا، وما أزال حيًا. حملني الرّجلُ إلى ملجأ الأيتام، حيثُ سجّلتُ تحت الرّقم 57. ثمّ ثلاثة أشهر بعد ذلك أتت أخته إلى باريس، فطالبت بي، مدّعيةً أنّني ابنها، وأخذتني. وهذا السّبب في أنّني وإن وُلدتُ في باريس، قد رُبّيت في كورسيكا.

سادت برهةُ صمتٍ، لكنّها على قصرها كانت عميقةً، بحيث إنّه لولا القلق الذي يتنفّس به ألف صدرٍ، لخال المرءُ القاعة فارغة.

قال صوت الرّئيس: - واصل.

واصل بينيديتو: - قطعًا، كان بوسعي أن أعيش سعيدًا عند أولئك النّاس الذين كانوا يحبّونني؛ لكنّ طبيعتي المنحرفة غلبت كلّ الفضائل التي جاهدت أمّي بالتّبنّي في أن تَسقنِيها. ربيت في الشرّ، فانتهيتُ إلى الجريمة. ثمّ ذات يوم، وقد بلغ بي الحالُ أن لعنت الربّ لأنّه خلقني على هذا الشرّ، واختارَ لي مصيرًا شنيعًا، أتى أبي بالتّبنّي يقول لي: «لا تجدّف أيّها الشقيّ! لأنّ الجريمة أصلها والدك وليس أنت! والدك الذي حكم عليك بأن تنتهي في الجحيم إن مُتَّ، وفي الشّقاء إن نجوتَ بمعجزةٍ. ومذّاك كففتُ عن التّجديف بالربّ، وصرت إلى لعن والدي؛ ولهذا نطقت هنا بالكلام الذي لمتُموني عليه يا سيّدي الرّئيس؛ ولهذا تسبّبت في الفضيحة التي لا يزال الحضور يرتجف لوقعها. فإن ارتأيتُم أنّ هذه جريمةٌ أخرى، فلتعاقبوني عليها؛ أمّا إن اقتنعتم بأنّ مصيري كان مرسومًا منذ يوم ولادتي، ومقدّرًا لي أن أعيش حياةً مؤلمةً، مُرّةً، يرثى لها، فأشفقوا لحالي!

سأله الرّئيس: - وماذا عن والدتك؟

- أمّي كانت تظنّني ميّتًا؛ أمّي ليست مذنبةً. لم أرغب في أن أعرف اسم والدتي. لا أعرفها.

في تلك اللّحظة انطلقت صيحةٌ حادةٌ انتهت بشهقة، من وسط الجماعة التي كانت، كما أسلفنا، تحيط بامرأةٍ. وكانت المرأة قد تلبّستها نوبةٌ عصبيةٌ، فأُخرجت من القاعة؛ وبينما يخرجونها، سقط الحجاب عن وجهها، فانكشفت هويّتها: كانت السيّدة دانغلار.

وعلى الرّغم من الإرهاق الذي أصاب حواس السيّد فيلفور، والطّنين الذي يتردّد في أذنيه، والمَسّ الذي يتلبّسُ دماغَه، إلا أنّه تعرّف عليها، فقام من مقعده.

قال الرّئيس: - الأدلة أيّها المتهم! الأدلة! تذكّر أنّ هذا النّسيجَ المرعبَ يلزمه حجج دامغةٌ ليُصدَّقَ.

قال بينيديتو ضاحكًا: - الأدلة؟ تريدون الأدلة؟

- نعم.

- حسنًا، انظروا إلى السيّد دو فيلفور، واسألوا بعدها عن الأدلة إن شئتم.

استدار الجميع صوب وكيل الملك الذي، تحت ثقل النّظرات الألف المحدّقة فيه، تقدّم صوب حرم المحكمة، مترنّحًا، منكوش الشّعر، متورّم الوجه من ضغط أظافره. أطلق الحضور جميعًا همهمة دهشةٍ طويلة.

قال بينيديتو: - يسألونني أدلّةً يا والدي، فهل ترغب في أن أعطيهم أدلةً؟

تمتم السيّد دو فيلفور بصوتٍ مختنق: - كلّا، كلّا، لا داعي.

صاح الرّئيس: - كيف. لا داعي؟ ما الذي تقصده؟

صاح وكيل الملك: - أقصد أنّني سأصارع عبثًا القبضة القاتلة التي تخنقني! أعلم يا سادتي، أنّني أواجه يد الرّبّ المنتقمة. لا حاجة إلى أدلةٍ؛ كلّ ما قاله الشّابُّ صحيح!

صمتٌ رهيبٌ، أشبه شيءٍ بذاك الصّمت الذي يسبق كوارث الطّبيعة، لفّ بمعطفهِ الفولاذيِّ الحضورَ الذين تصلّب شعرهم فوق رؤوسهم.

صاح الرّئيس: - ماذا؟ هل أصِبت بنوبة هذيانٍ يا سيّدي فيلفور؟ هل تتمتّع بكامل قواك العقلية؟ لن نختلف في أنّ اتّهامًا كهذا، اتّهامًا لا متوقعًا، اتّهامًا خطيرًا، قد يجعل أعصاب المرء تضطرب؛ فعُد إلى رشدك يا سيّدي.

هزّ وكيل الملك رأسَه، وجعلت أسنانهُ تصطكُّ بعنفٍ، مثل أسنانِ رجلٍ تفترسُه الحمّى، ورغم ذلك كان شاحبًا شحوب الموت.

قال: - إنّني أتمتّع بكامل قواي العقلية يا سيّدي؛ فقط جسدي يعاني، وهذا أمرٌ مفهوم. نعم، إنّني أعترف وأقرُّ بكلّ ما قاله في حقّي هذا الشّابُّ، وسوف أقيم في منزلي رهن إشارة وكيل الملك الذي سوف يحلُّ محلّي.

وإذ نطق السيّد دو فيلفور بصوتٍ مكتوم، شبه مخنوق، كلماته تلك، اتّجه مترنّحًا صوب الباب الذي فتحه له الحاجبُ بحركة آليةٍ.

ظلّ الحضور جميعًا خُرسًا ساكنين من أثر البوح والاعتراف اللّذَين كانوا شهودًا عليهما، واللّذين كانا بمثابة خاتمةٍ رهيبةٍ لمختلف المقدّمات التي ما انفكّت ترجُّ عليّةَ المجتمع الباريسيَّ منذ خمسة عشر يومًا.

قال بوشان: - حسنًا، فليَقُل الآن قائلٌ إنّ الدراما ليست من صميم الطّبيعة!

قال شاتو رونو: - الحقّ أنّي أفضّل نهايةً شبيهةً بنهاية السيّد دو مورسيرف على هذه النّهاية. إنّ طلقةً من المسدّس في الرّأس لتبدو لطيفةً، قياسًا إلى هذه الكارثة.

قال بوشان: - ثمّ فوق ذلك، تقتلك الكارثة.

قال دُبراي: - وأنا الذي فكّرتُ لوهلةٍ في أن أتزوّج ابنته. ربّما أصابت الصبيّةُ المسكينةُ خيرًا بموتها!

قال الرّئيس: - رفعت الجلسةُ يا سادتي، وأُجّلت القضيّةُ إلى الدّورة

المقبلة. ينبغي أن يعادُ التحقيق، ويسلّم إلى قاض آخر.

أمّا أندريا الذي كان لا يزال هادئًا وزاد الاهتمام به، فقد خرج من القاعة يقوده دركيّان أظهرا له، لا إراديًا، بعضًا من الاحترام.

سأل دُبراي الشرطيَّ الرّقيب وهو يدسّ في كفّه لويسيّةً: - وإذًا، ما رأيك في كلّ هذا يا سيّدي الكريم؟

أجابه الشّرطيُّ: - سوف يستفيد من ظروف التّخفيف.

111

كفّارة

رأى فيلفور صفوف الحشد، على كثافتها، تنفتح أمامَه. إنّ للآلام الكبيرة مهابةً، إلى درجة أنّك لن ترى البتّة، حتّى في أحطّ العصور، الحشدَ الشّاهدَ على مصيبةٍ عظيمةٍ يبادر في البداية إلى فعلٍ غير التّعاطف. كُثُرٌ هم النّاس المُبغَضون ممّن قُتلوا في حوادث شغبٍ؛ لكن نَدُرَ أن ترى شقيًّا، وإن كان مجرمًا، يُسبُّ من طرف الحشد الشّاهدِ على حكم إعدامه. اجتاز فيلفور إذًا سياج المتفرّجين، والحرس، وموظّفي المحكمة، ثمّ ابتعدَ تُدينُه اعترافاتُه، ويحميه ألمُه.

ثمّة لحظاتٌ يدركها الإنسانُ بحدسه، لكنّه لا يستطيع التّعليق عليها بفكره؛ وإنّ أبلغ الشّعراء، في أمثال هذه الحالات، هو ذاك الذي يكتفي بإطلاق الصّيحة الأعنف والأشد طبيعيَّةً؛ وإنّ الحشد ليعتبر صيحتَه تلك بمثابة سردٍ بأكمله، ويكون محقًّا في اكتفائه بها؛ ومحقٌّ أكثر في اعتبارها مهيبةً، إن كانت صيحةً صادقة. عدا ذلك لن يسهل علينا أن نصِفَ حالة الذّهول التي استولت على فيلفور وهو يغادر المحكمة، وأن نصوِّر تلك الحمّى التي كان ينبض لها كلُّ وريد فيه، ويتصلّب كلُّ ليف، وينتفخ كلّ شريان حتّى ليكاد ينفجر، وتتفتّت كلُّ ذرّةٍ في الجسد إلى ملايين من العذابات. لقد جرجر فيلفور نفسه على امتداد الأروقة، لا يدلّه على الطّريق غير العادة؛ ألقى عن ظهره عباءة القضاء، ليس مراعاةً لما وقع، وإنّما لأنّها كانت ثقلًا يسحق كتفيه، كانت بمثابة رداء نيسوس[1] المليء

(1) في الميثولوجيا اليونانية، ترسل ديانيرا، بدافع من الغيرة، عباءة نيسوس إلى زوجها هرقل ظنًّا منها أنّه حين يرتديها سيصير وفيًا، فلمّا لبسها أحرقت جلده.

بالعذابات. وسار مترنّحًا حتّى بلغ ساحة دوفين، فلمح عربته، أيقظ الحوذيّ وهو يفتح الباب لنفسه، وتهاوى على المقعد وهو يعيّنُ بإصبعه اتّجاه ضاحية سان أونوريه. انطلق الحوذيّ.

لقد تقوّض سعدُه فسقط بكامل ثقله على رأسه؛ ثقل يسحقه، ثقلٌ لم يكن يعرف عواقبه؛ لا يعرف كيف يحسبها؛ يشعر بها، لكن لا يستطيع أن يفكّر في قانونه تفكيرَ القاتل البارد الذي يعلّق على فصلٍ معروف. كان يشعر بالرّب في قلبه. غمغم من غير أن يدري ما يقول: «الربّ! الربّ! الربّ!»، لم يكن يرى خلف انهياره إلاّ الربَّ.

العربةُ تسير مسرعةً، وفيلفور، مهتزًّا فوق مقاعدها، يحسُّ بشيءٍ يزعجه. مدّ يده إلى الشّيء: كانت مروحةً نسيتها السيّدة دو فيلفور بين مقعد العربة وظهره؛ تلك المروحة أيقظت ذكرى، والذّكرى لمعت كبرق وسط اللّيل. تذكّر فيلفور زوجته... صاح كأنّ سفّودًا محمّىً اخترق قلبه «آه!». الحالُ أنّه منذ ساعةٍ وهو لا يرى من شقائه إلا جانبًا، وها قد تذكّر الآن جانبًا آخر، جانبًا لا يقلّ رعبًا. لقد عامل تلك المرأة معاملة القاضي المستقيم الذي لا يرحم، وحكم عليها بالموت؛ وهي، المرأة التي أصابها الرّعبُ، وسحقها النّدم، وقوّضها العارُ، بعدما ترافع أمامها باسطًا ببلاغةٍ فضيلته التي لا عيب فيها؛ المرأة المهيضة الجناح، العزلاء أمام قوّةٍ مطلقةٍ قاهرة، المرأة التي ربّما تتهيّأ الآن للموت! لقد مرّت ساعة مُذ نطقَ في حقّها الحكم؛ ولا بدّ أنّها الآن تستعيد في ذاكرتها جرائمها، وتستغفرُ الربّ، وتكتب رسالةً تتوسّل فيها الصّفح من زوجها الفاضل، صفحًا تشتريه بموتها.

أطلق فيلفور زئير ألم وغضب ثانيًا. صاح: – آه! إنّ هذه المرأة لم تصبح مجرمةً إلا لأنّها عاشرتني. أنا أنزُّ بالجريمة! وقد أصابتها الجريمةُ مثلما يصيب المرءَ التيفوس أو الكوليرا أو الطّاعون!... ومع ذلك أعاقبُها!... جرؤت على أن أقول استغفري لذنبك واقتلي نفسك...

أنا! أوه! كلّا! كلّا! سوف تعيش... وسوف تتبعني... سوف نهرب، نترك فرنسا، ونمضي أبعد ما تستطيع الأرض أن تحملنا... ذكرتُ لها المقصلة! يا إلهي القدير! كيف جرؤت على أن أنطق بهذه الكلمة! أنا أيضًا تنتظرني المقصلة!... سنهرب... نعم، وسوف أعترف لها! أجل، كلّ صباح، ولما تبقّى من أيّامي، أذلّ نفسي أمامها قائلًا إنّني أنا أيضًا ارتكبت جريمةً... آه! رابطة النّمر والأفعى! آه! نِعمَ الزّوجة لزوجٍ مثلي!.. ينبغي أن تعيش، وأن تبدوَ شناعتُها باهتةً قياسًا إلى شناعتي!

ثمّ إن فيلفور أنزل زجاج مقدّمة عربته، أو بالأحرى دفعه دفعًا. وصاح بصوتٍ وثب له الحوذيّ من فوق مقعده: «أسرع! أسرع!»، فانطلقت الخيولُ طائرةً على جناح الخوفِ حتّى المنزل.

وبقدر ما كان فيلفور يقترب من المنزل كان يقول: «أجل، أجل، ينبغي أن تعيش هذه المرأة، ينبغي أن تتوب وتربيّ ابني، طفلي المسكين، النّاجي الوحيد، برفقة الشّيخ الذي لا يهلك، من الدّمار الذي عصف بالعائلة! إنّها تحبُّه، لأنّها إنّما لأجله فعلَت ما فعلَت. لا ينبغي أن نقطع الرّجاء في قلب أمّ تحبّ ولدها؛ سوف تتوب، ولن يعرف أحدٌ بأنّها مذنبة؛ إنّ الجرائم التي وقعت في منزلي، وبدأ بعضهم يفكّر فيها ويبحث في أمرها، ستُنسى مع الزّمن؛ فإن أبقى شعلتَها متّقدةً بعض الأعداءِ، فلسوف أضيفها إلى لائحة جرائمي. جريمةٌ أخرى، أو اثنتان، أو ثلاث، فيمَ يهمّ! ستهرب زوجتي حاملةً معها الذّهب، ومصطحبةً على وجه الخصوص ابني، فتفلت من القبر الذي سيلقي بي فيه المجتمعُ. ستعيشُ، وتكون سعيدةً، لأنّها وضعت حبّها كلّه في ابنها، وابنُها لن يتركها. وسأكون أنا قد قمت بعملٍ خيّر، يخفّف من ثقل قلبي».

تنفّس وكيل الملك براحةٍ أكبر ممّا فعل منذ مدّةٍ طويلة. توقّفت العربة أمام باب المنزل. انطلق فيلفور من درجات العتبة؛ رأى الخدم مندهشين لعودته المبكّرة، وعدا دهشتهم لم تنمّ هيآتهم عن شيء. لم

يتوجّه إليه أحدٌ بالكلام، اكتفوا بأن توقّفوا أمامه، على عادتهم، مفسحين له الطّريق. مرّ من أمامِ غرفة نوارتييه، ولم يهتمّ للشّخص الجالس مع أبيه، إذ كان اهتمامه كلّه منجذبًا نحو مكانٍ آخر. قال لنفسه وهو يصعد الدّرج المفضي إلى غرفة زوجته وغرفة فالانتين الفارغة: «هيّا، هيّا، لا شيء تغيّر هنا». عمد أوّلًا إلى غلق باب الطّابق. قال: «لا ينبغي أن يزعجنا أحدٌ، ينبغي أن أتحدّث إليها على راحتي، أن أتّهم نفسي أمامها، أن أعترف لها بكلّ شيء...». دنا من باب جناحها، وأمسك المقبض الكرستال، طاوعه الباب، فغمغم: «الباب غير مغلق! أوه! جيّد، جيّد جدًا!». دخل إلى الصّالون الصّغير حيث يُنصب مساءً سريرٌ لإدوارد؛ لأنّ إدوارد وإن كان يدرس في مدرسة داخليّة، إلا أنّه كان يعود إلى البيت كلّ مساءٍ، لأنّ أمّه ترفض مفارقته. مسح بنظرةٍ واحدة الصّالون الصّغير كلّه. قال: «لا أحد هنا، لا بدّ أنّها في غرفة نومها». اندفع صوب غرفتها، فوجد الباب هذه المرة موصدًا. توقّف راجفًا. صاح «هيلواز!». فتهيّأ له أنّه سمع ضجيج أثاثٍ يتحرّك. كرّر النّداء: «هيلواز!».

أجابه صوت المرأة التي ينادي عليها: - من هناك؟

بدا له أنّ الصّوتَ أوهنُ من المعتاد.

صاح فيلفور: - افتحي! افتحي! إنّه أنا!

وعلى الرّغم من الطّلب الآمرِ، ونبرة القلق في صوته، لم تفتح المرأةُ. فكسر فيلفور الباب بضربةٍ من قدمه.

عند مدخل الغرفة المفضية إلى خدرها كانت السيّدة دو فيلفور واقفة، شاحبةً، متشنّجة الملامح، تحدّق بعينين ثابتتين ثباتًا مرعبًا.

قال: - هيلواز! هيلواز! ما بك؟ تكلّمي!

مدّت إليه المرأة يدها الشّاحبة المتصلّبة، وقالت بآهةٍ بدت كأنّها ستمزّق حنجرتها: - لقد فعلتُ ما طلبتَ يا سيّدي، فماذا تريد بعد؟

وتهاوت على البساط. هرع إليها فيلفور، فأمسك بيدها التي كانت تشدّ متشنّجةً على قارورة كريستال سدّادتُها من ذهب.

لقد ماتت السيّدة دو فيلفور.

تراجع فيلفور، دائخًا من الرّعب، حتّى بلغ عتبة الباب وتأمّلَ الجثة. ثمّ فجأةً صاح: «ابني! أين ابني؟ إدوارد! إدوارد!». ثمّ هرع خارج الجناح، صائحًا: «إدوارد! إدوارد!». وكان ينطق الاسم بقلق جعل الخدم يهرعون إليه. سألهم فيلفور - ابني! أين ابني؟ إدوارد! إدوارد! أبعدوه عن المنزل، لا ينبغي أن يرى...

أجابه خادمه: - لكنّ سيّدي إدوارد ليس بالأسفل يا سيّدي!

- لا بدّ أنّه يلعب في الحديقة؛ فانظروا! انظروا!

- كلّا يا سيّدي، لقد نادت سيّدتي على ابنها منذ نحو نصف ساعة؛ ودخل عندها سيّدي إدوارد، ولم ينزل بعدها.

غمر جبين دو فيلفور عرقٌ باردٌ، وتعثّرت قدماه فوق البلاط، وأخذت الأفكار تدور في رأسه فوضويةً مثل تروس ساعةٍ تنكسر. غمغم: «عند السيدة! عند السيدة!»، ثمّ عاد ببطءٍ على عقبيه ماسحًا جبينه بيدٍ، ومستندًا بالأخرى إلى الجدار. فلما دخل الغرفة مرّةً أخرى، اضطرّ أن يُواجه مجدّدًا جسد المرأة التّعيسة. ولكي ينادي إدوارد، كان مضطرًا إلى أن يوقظ صدى الجناح الذي انقلب إلى تابوت، أن يتكلّم معناه أن يخرق صمت القبر. أحس فيلفور بلسانه مشلولًا في حلقه. تمتم: «إدوارد! إدوارد!»، لكنّ الطّفل لم يُجب؛ أين ذهب إذًا الطّفلُ الذي قال الخدم إنّه دخل عند أمّه، ولم يغادر غرفتها؟

تقدّم فيلفور خطوةً.

كان جثمان السيّدة فيلفور ممدّدًا أمام بابِ الخدر الذي يفترض أنّ إدوارد فيه؛ والجثمان يبدو كأنّما يحرس العتبة بعينين جاحظتين مسمّرتين، وسخريةٍ غامضةٍ مرعبةٍ على الشّفتين. وخلف الجثمانِ البوابةُ مرفوعةً تشفُّ عن جزءٍ من الخدر، عن بيانو وطرف أريكة من السّاتان الأزرق.

تقدّم فيلفور ثلاث خطواتٍ أو أربعًا، فرأى على الأريكة ابنه ممدّدًا. لا بدّ أن الطّفل نائم. شعَّ وجه الشّقيّ بألقِ فرحٍ لا يوصف؛ شعاع نورٍ صافٍ أشرق على ظلمات الجحيم التي ما انفكّ يهوي فيها. ليس عليه إذًا إلا أن يجتاز الجثمان، ويدخل الخدرَ، فيحمل ابنه بين يديه، ثمّ يهربان معًا، بعيدًا، بعيدًا، بعيدًا.

لم يعد فيلفور الرّجل الذي أبدى، حتّى في فساده، درجةً من التّحضّر. إنّما هو نمرٌ جريحٌ يترك أسنانه مكسورةً في جرحه الأخير. لم يعد يخافُ الأحكام، وإنّما الأشباحَ. استجمع قوّتَه، فقفز من فوق الجثمان كأنّما يقفز من فوق أتون نارٍ مستعر. حمل الطّفل بين ذراعيه، ضمّه، هزّه، ناداه. لكنّ الطّفل ظلَّ صامتًا. ألصق شفتيه النّهمتين بوجنتَي طفله، لكنّ الوجنتين كانتا شاحبتين وباردتين؛ حرّك أطرافه، ووضع أذنه على قلبه متسمّعًا؛ ولم يكن القلب ينبض.

مات الطّفل.

سقطت من صدر إدوارد ورقةٌ مثنيةٌ إلى أربع. جثا فيلفور مصعوقًا على ركبتيه؛ انفلت من ذراعيه الطّفلُ ولفّ على الأرض جامدًا، واستقرّ جنب جثمان أمّه. التقط فيلفور الورقة، فتعرّف على خطّ زوجته، والتهم بعينيه ما كُتب.

وإليكم ما تضمّنته الورقة:

«*تعلم أنّني كنت أُمًّا جيّدة، لأنّني ارتكبت كلّ تلك الجرائم لأجل ابني.*

وإنّ أمًّا طيّبةً لا يمكن أن ترحل من دون ابنها».

لم يستطع فيلفور تصديق عينيه؛ ولا تصديق عقله. جرجر نفسه نحو جسد إدوارد، ففحصه مرّةً أخرى بالعناية التي تفحص بها اللبؤة شبلها الميّت. ثمّ انطلقت من صدره صرخةٌ مفجعة. غمغم «الرّب! إنّه الرّب دائمًا!» أرعبته الضّحيّتان، وأحسّ بنفسه يصّاعدُ فيها خوفُ هذه الوحدة

المأهولة بالجثّتين. قبل قليل كان يسنده الغضبُ، تلك الملكة الهائلة التي تميّز الرّجال الأقوياء، ويسنده اليأسُ، والفضيلة العليا التي تميّزُ لحظات النّزع. الفضيلة التي دفعت الجبابرة إلى ارتقاء السّماء، ودفعت البطل آياس إلى إشهار قبضته في وجه الآلهة.

أحنى فيلفور رأسَه تحت ثقل الآلام، قام على ركبتيه، وهزّ شعره المبلول من العرق، والمتصلّب من الرّعب؛ وإنّ الرّجلَ الذي لم يشفق طيلة حياته على أحدٍ، قصد والدَه، الرّجل المسنَّ، لكي يجد شخصًا يحضنه في ضعفه، شخصًا يحكي له مصيبته، ويبكي في حضوره.

نزل الدّرج الذي نعرفه، ودخل عند نوارتييه. فألفى أباه مستغرقًا ينصت ببالغ الاهتمام الذي تسمح له به وضعيّته، إلى الأب بوزوني الذي بدا على عادته هادئًا وباردًا.

ولمّا لمح فيلفور الرّاهب، رفع يده إلى جبينه. استعاد الماضي هائجًا مثل تلك الموجة التي يجعلها الغضبُ مزبدةً أكثر من غيرها. تذكّر الزيارة التي خصّ بها الرّاهبَ غداة عشاء منزل أوتوي، والزّيارة التي خصّه بها الرّاهبُ غداة وفاة فالانتين.

قال: – أنت هنا يا سيّدي! يبدو أنّك لا تظهر إلا وفي أعقابك الموت؟

قام بوزوني واقفًا، فلمّا رأى ما طال وجهَ القاضي من تحوّلٍ، وبريق عينيه الشّرس، فهم، أو ظنّ أنّه فهم، أنّ مشهد المحكمة قد تمّ؛ وكان يجهل البقية.

أجابه بوزوني: – لقد أتيت لأصلّيَ على جثمان ابنتك!

– واليوم، ما الذي أتى بك؟

– أتيت أقول لك إنّك قد دفعت دَينك لي بما يكفي، وبدءًا من اللّحظة سوف أدعو الربّ لكي يكتفيَ بما دفعتَه، كما اكتفيتُ أنا.

تراجع فيلفور إلى الخلف، وقد ارتسم الرّعب على جبينه: – يا إلهي! هذا ليس صوت الأب بوزوني!

- كلّا.

ثمّ إنّ الرّاهب نزع شعره المستعار، وهزّ رأسه، فانسدل شعره الأسود الطّويل على كتفيه، مؤطّرًا وجهه الرّجوليّ.

صاح فيلفور بعينين زائغتين: - هذا وجه الكونت دو مونت كريستو!

- كلّا يا سيّدي وكيل الملك، ليس هذا المطلوب، ابحث في ذاكرتك أبعد.

- هذا الصّوت! هذا الصّوت! متّى سمعتُه أوّل مرّةٍ؟

- لقد سمعته أوّل مرّةٍ في مارسيليا، منذ ثلاث وعشرين سنةً، يوم زواجك من الآنسة دو سان مِران. ابحث في ملفّاتك.

- أنت لست بوزوني؟ أنت لست مونت كريستو؟ يا إلهي، أنت ذاك العدوّ الخفيّ، العدوّ القاتل الذي لا يُقهر! هل فعلت ضدّك شيئًا بمارسيليا! أوه! الويل لي!

قال الكونت وهو يشبك يديه أمام صدره العريض: - نعم، هوَ ذاك، فابحث في ذاكرتك، ابحث!

قال فيلفور وقد بدأ عقله يطفو في الحدود التي يختلط فيها الصواب بالجنون، تلك التخوم الضّبابية التي يكون المرءُ فيها قد غادر مملكة الحلمِ ولم يدخل بعدُ عالم اليقظة: - لكن، ماذا فعلت بك؟ قل! أفصح!

- حكمت عليّ بموت بطيءٍ شنيع، وقتلتَ والدي، وحرمتني الحبّ حين حرمتني الحريّةَ، كما حرمتني السّعادة حين حرمتني الحبّ!

- من أنت؟ إلهي! من أنت؟

أنا طيف مسكين حبسته في زنازين قلعة إيف. وإنّ الطّيف قد خرج من قبره، فمنحه الرّبُّ قناع مونت كريستو، وأغدق عليه بالجواهر والذّهب، لكي تتعرّف عليه اليومَ.

قال وكيل الملك: - آه! عرفتك، عرفتك! أنت...

- أنا إدمون دانتِس!

قال وكيل الملك وهو يمسك الكونت من معصميه: - أنت إدمون دانتِس! حسنًا، تعال!

ثمّ سحب وكيلُ الملك الكونتَ عبر الدّرج، فتبعه مونت كريستو دهشًا، لا يدري إلى أين يقوده، لكنّه كان يستشعر مصيبةً أخرى.

قال وهو يريه جثّة زوجته وجسد ابنه: - انظر يا إدمون دانتِس! انظر، هل انتقمت وشفيت غلّك؟...

شحب مونت كريستو من هول المشهد؛ لقد أدرك أنّه قد تجاوز حقَّ الانتقام؛ أدرك أنّه لم يعد بوسعه أن يقول: «الربُّ معي، ويساندني».

ارتمى والقلق يعصره على جسد الطّفل، ففتح عينيه، وجسّ نبضَه، وانطلق به إلى غرفة فالانتين، حيث أغلق عليهما الباب...

صاح فيلفور: - طفلي! إنّه يأخذ جثمان طفلي! أوه! اللّعنة! يا للمصيبة! الموت لي!

ثمّ أراد أن ينطلق في إثر مونت كريستو؛ لكن، كأنّه في حلم، شعر بقدميه تتجذّران في موضعهما، وأصابعه المحنية على صدره تنغرزُ فيه رويدًا حتّى تتخضّب أظافره بالدّم؛ وعروق صدغيه تنتفخان بالدّماء التي تغلي كأنّما ستنفجّر جمجمة رأسه، فتُغرق دماغَه بسيلٍ من نيران. واستمرّ سكونه عدّة دقائق، حتّى تمّ التحوّل التّام للعقل. وإذّاك أطلق صيحةً عظيمة، أتبعَها قهقهةً طويلةً وهرع نازلًا عبر الدّرج. ربع ساعةٍ بعد ذلك، فُتحت غرفة فالانتين، وظهر الكونت مجدّدًا. شاحبًا، كئيب العين، ضيّق الصّدر، وقد انقلبت ملامحه الهادئةُ النّبيلة، بفعل الألم. كان يحمل بين ذراعيه الطّفلَ الذي عجزت النّجدةُ عن إعادته إلى الحياة. وضع ركبةً على الأرض، ومدّد بخشوعٍ الطّفلَ بجانب أمّه، مريحًا رأسَه على صدرها.

ثمّ قام، فخرج، وصادف خادمًا على الدّرج فسأله: - أين السيّد دو فيلفور؟

ومن غير أن يجيبَه الخادمُ، أشار باتّجاه الحديقة. نزل مونت كريستو درجات العتبة، وتقدّم صوبَ الموضع الذي عيّنه الخادمُ، فرأى فيلفور في الحديقة، وقد تحلّق حولَه خدمه، ينبش الأرض بمعولٍ بغضبٍ، ويقول: «كلّا، ليس هنا، ليس هنا أيضًا». ثمّ ينبش أبعد.

اقتربَ منه مونت كريستو، وهمس له بصوت شبه وديع: - سيّدي، لقد فقدت ابنًا، لكنّك...

قاطعه فيلفور، ولم يكن يسمع ولا ينصت: - أوه! قُل ما شئتَ، لكنّني سأجده، حتّى لو اضطررت إلى أن أواصل البحث حتّى يوم الحساب.

تراجع مونت كريستو مرعوبًا. وقال: «أوه! لقد جُنَّ!».

ثمّ كأنّما يخشى أن تنهار عليه جدران البيت الملعون، انطلق إلى الشّارع، وفي نفسه، لأوّل مرّةٍ، ريبةٌ من صحّة ما يفعل.

قال: «أوه! كفى! لننقذ الأخير!».

ثمّ لمّا عاد إلى منزله بالشانزيليزيه، وجد موريل هائمًا في البيت، صامتًا كأنه ميّتٌ ينتظر الموعد الذي حدّده له الرّب ليعود إلى قبره.

قال الكونت مبتسمًا: «حضّر نفسك يا موريل، سوف نترك باريس غدًا.

سأله موريل: - لم يعد لديك ما تفعله هنا؟

أجابه مونت كريستو: - كلّا، وأسأل الرّبَ ألاّ أكون قد فعلت أكثرَ ممّا ينبغي!

112

الرّحيل

شغلت الحوادث التي وقعت باريسَ بأكملها. وكان إيمانويل وزوجته يتحدّثان فيها بدهشةٍ طبيعية، في صالونهما الصّغير بشارع مِسلاي؛ كانا يقرّبان بين الكوارث الثلاث التي وقعت بطريقة غير متوقّعة: مصيبة مورسيرف، ومصيبة دانغلار، ومصيبة فيلفور. وماكسيميليان الذي أتاهما في زيارة، يصغي إليهما، أو بالأحرى يجالسهما غارقًا في فتوره المعتاد.

تقول جولي: - الحقّ يا إيمانويل أنّ كلّ هؤلاء النّاس الأغنياء، الذين كانوا بالأمس القريب سعداء جدًا، قد تناسوا، حين أرسوا قواعد سعادتهم وثروتهم ومكانتهم، أنّ جنّيًا يترصّدهم، جنيًا شبيهًا بالجنيّات في حكايات بيرو[1]، الجنيّات اللاتي يغفل المرء دعوة إحداهنّ إلى عرسٍ أو حفل تعميدٍ، فتطلع عليه فجأةً لتنتقم لنسيانها!

قال إيمانويل وهو يفكّر في مورسيرف ودانغلار: - مصائب!

قالت جولي وهي تفكّر في فالانتين التي حدست بغريزتها الأنثوية أنّها لا ينبغي تذكر اسمها أمام أخيها: - آلام!

قال إيمانويل: - إن كان الرّب هو من أصابهم، فلا بدَّ أنّه، وهو الخير الأسمى، لم يجد في ماضيهم ما يشفع لهم، فيخفف عنهم المصاب. إنّهم إذًا أناسٌ ملعونون.

---

(1) شارل بيرو، أشهر من كتب الحكايات في اللّغة الفرنسية، أشهر أعماله ذات الرّداء الأحمر.

قالت جولي: - أليس هذا حكمًا متطرّفًا منك يا إيمانويل؟ عندما كان أبي يحمل مسدّسه جاهزًا ليطلقه على رأسه، لو أنّ أحدًا قال، مثل قولك الآن: «إنّ هذا الرّجل يستحقّ ما لحق به» أفلن يكون مخطئًا في حكمه؟

- بلى، لكنّ الرّب لم يسمح بأن يقتل أبونا نفسَه، مثلما لم يسمح بأن يذبح إبراهيم ابنَه. لقد بعث إلينا، كما بعث إلى إبراهيم، ملاكًا قصَّ في منتصف الطّريق جناحَي ملك الموت.

وما كاد إيمانويل يتمّ كلامه حتّى انطلق صوت الجرس. وتلك الإشارةُ التي يستعملها البوّابُ إخبارًا بقدوم زائر. وفي اللّحظة نفسها تقريبًا، فُتح باب الصّالون، وأطلّ الكونت مونت كريستو عند العتبة. أطلق الزّوجان معًا صيحة فرح، بينما رفع ماكسيميليان رأسَه، ثمّ تركه يهوي.

قال الكونتُ من غير أن يبدو عليه أنّه لاحظ الأثر الذي خلّفه في مضيفيه: - ماكسيميليان، لقد أتيت آخُذك.

قال موريل كأنّما يخرج من حلم: - تأخذني؟

قال مونت كريستو: - بلى؛ ألم نتّفق على أن أصطحبك معي، وطلبت منك أن تتحضّر؟

قال ماكسيميليان: - ها أنا ذا جاهزٌ، لقد أتيت أودّعهما.

سألته جولي: - إلى أين ذاهب يا سيّدي؟

- إلى مارسيليا بدايةً يا سيّدتي.

ردّد الزّوجان معًا: - إلى مارسيليا؟

- نعم، وسوف آخُذ معي أخاكُما.

قالت جولي: - رجاءً يا سيّدي! رجاءً، أعده إلينا معافىً!

أدار ماكسيميليان وجهه ليخفيَ حمرتَه.

قال الكونت: - انتبهتِ إذًا إلى أنّه عليل؟

أجابت الشّابة: - نعم، وأخشى أن يضجر إن بقيَ معنا.

قال الكونت: - سأذهب عنه الحزن!

قال ماكسيميليان: – أنا جاهزٌ يا سيّدي. وداعًا يا صديقيَّ! وداعًا يا إيمانويل! وداعًا يا جولي!

صاحت جولي: – ماذا! وداعًا؟ هل ستسافر من فورك، من غير تحضيرات، من غير جواز سفر؟

قال مونت كريستو: – إنّ التّأجيل هو ما يزيد في حزن الفراق؛ ولا شكّ عندي في أنّ ماكسيميليان قد حضّر كلّ شيء، فقد أوصيتُه.

قال موريل بهدوئه الرّتيب: – جواز سفري معي، وحقائبي جاهزة.

قال مونت كريستو: ممتاز: إنّها دقّةُ الجنديّ.

قالت جولي: – وتتركنا الآن، من لحظتِك؟ لا تمنحنا يومًا، أو حتّى ساعة؟

قال الكونت: – إنّ عربتي بالباب يا سيّدتي؛ وينبغي أن أكون في روما في غضون خمسة أيّام.

قال إيمانويل: – لكنّ ماكسيميليان لن يذهب إلى روما؟

أجاب ماكسيميليان بابتسامة حزينة: – سأذهب حيث يشاء لي سيّدي الكونت أن أذهب؛ ما زال يملك زمام أمري لمدة شهرٍ.

– أوه! أرأيت كيف يقول هذا يا سيّدي الكونت!

قال الكونت بنبرته الودود المقنعة: – إنّ ماكسيميليان بصحبتي، فاطمئنّي يا سيّدتي!

كرّر موريل: – وداعًا يا أختاه! وداعًا يا إيمانويل!

قالت جولي: – إنّه يدمي قلبي بلامبالاته. آه يا ماكسيميليان! إنّك تخفي عنّا شيئًا.

قال مونت كريستو: – باه! سوف ترينَه يعود فرحًا، ضاحكًا، مرِحًا.

قذف ماكسيميليان الكونتَ بنظرةٍ تكاد تكون هازئةً، تكاد تكون مهتاجة.

رد الكونت عليها بالقول: – هيّا، لنذهب!

قالت جولي: - قبل أن تذهبا، هل تسمح لي يا سيّدي الكونت بأن أقول لك كلّ...

أجابها الكونت وهو يمسك بيديها: - كلّ ما ستقولينه يا سيّدتي، لن يعادل ما أقرأه في عينيك، ما فكّرَ فيه قلبك، وما أحسّ به قلبي. لقد انصرفتُ من غير أن أراك، مثلما يفعل الأخيارُ في الرّوايات؛ كانت فضيلةً أعلى من أن تتحمّلها قوايَ، لأنّني رجلٌ ضعيفٌ وهيّنٌ، وأجدُ راحتي في نظرة بني جلدتي البليلة والفرحة والعذبة. والآن قد أدفع بأنانيّتي حدّ أن أقول: لا تنسياني يا صديقايَ، لأنّكما على الأرجح لن ترياني مرّةً أخرى.

صاح إيمانويل، بينما تسيل على خدّي جولي دمعتان كبيرتان: - لن نراك مرّةً أخرى! لا يودّعنا إذًا رجلٌ، إنّما إلهٌ، إله يصعدُ عائدًا إلى السّماء، بعدما تجلّى في الأرض ونشر فيها الخير!

أجابه مونت كريستو بحدّة: - لا تقولا هذا الكلام يا صديقايَ، لا تقولاه أبدًا. إنّ الآلهة لا ترتكب الشرّ بالمطلق، والآلهة تستطيع أن تتوقّف متى أرادت؛ الحظُّ ليس أقوى منها، بل إنّها هي من يسيّرُ الحظَّ. كلاّ يا إيمانويل، ما أنا إلا بشرٌ، وإنّك مخطئ في تقديرك لي.

وطبع الكونت شفتيه على يد جولي التي هرعت إلى أحضانه، بينما يمدّ يدًا ثانيةً إلى إيمانويل مصافحًا؛ ثمّ انتزع الكونت نفسه من المنزل، من العشّ الطيّبِ الذي كانَ ضيفَه، وبإشارةٍ منه سحب خلفَه ماكسيميليان الذي لم تغادره حالة البرود والجمود والفزع التي ألمّت به منذ أن ماتت فالانتين.

همست جولي في أذن مونت كريستو: - أعد إلى أخي الفرحة.

شدّ مونت كريستو على يدها، كما سبق أن فعل على الدّرج المفضي إلى مكتب موريل.

سألها باسمًا: - هل تثقين في السندباد البحريّ؟

- أوه!كل الثقة!

- وإذًا، فلتنامي هانئةً يرعاك الربُّ.

وكما أسلفنا، كانت عربة المراسلة تنتظرهما؛ أربعة أحصنةٍ شدادٍ تصلِّبُ شعرَ أعرافها، وتضرب الأرض بحوافرها نافدةَ الصّبر. وأسفل عتبة المدخل، عَليٌّ ينتظر، ووجهه يلمع من العرق؛ يبدو أنّه قد أتى من مشوار بعيد.

سأله الكونت بالعربية: - وإذًا، هل ذهبت عند الشّيخ؟

أشار له عليّ أنْ نعم.

- وهل عرضت عليه الرّسالة كما أمرتك؟

أشار العبدُ مجدّدًا باحترام: - نعم!

- وماذا قال، أو بالأحرى ماذا فعل؟

تحرّك عليٌّ أسفل النّور، بحيث يستطيع سيّدُه أن يراه، وبحذقٍ بارع حاكى هيئةَ نوارتييه، فأغمض عينيه كما يفعل الشّيخ حين يريد أن يقول: نعم.

قال مونت كريستو: - حسنًا، إنّه يقبل، هيّا!

وما كاد ينطق «هيّا!» حتّى كانت العربة قد انخرطت في المسير، والأحصنة تضربُ الأرض مطلقةً في الجوّ غبارًا بارقًا. واتّخذ ماكسيميليان موضعه من غير أن ينطق بكلمة.

مرّت نصف ساعةٍ، فتوقّفت العربة فجأةً. لقد سحب الكونت خيط الحرير المربوط إلى إصبع عليّ. نزل النّوبيّ ففتح الباب. كان اللّيل يبرق نجومًا. وكانوا قد صعدوا طريق فيلجويف، على النّجد الذي تُحرّك باريس منه، مثلَ بحرٍ مظلم، أنوارَها الملايينَ التي تبدو مثل لجج فسفورية؛ إنّها حقًّا لُججٌ، لَججٌ أشدُّ صخبًا، وحركةً وغضبًا ونهمًا من لجج المحيط الهائج، لججٌ، على خلاف لجج البحر الشّاسع، لا تعرف لحظةَ هدوءٍ، لججٌ ما تنفكّ تضربُ وتزبد وتغمر!

نزل الكونت، ووقف وحيدًا، وبإشارةٍ من يده ابتعدت العربة خطواتٍ

إلى الأمام. وإذّاك جعل يتأمّلُ، شابكًا ذراعيه، هذا الفرن الذي تذوب فيه الأفكار وتتلوّى وتتشكّلُ قبل أن تنطلق من القعر الذي يغلي، لتهزّ العالمَ. ثمّ إذ أمعن نظرهُ القويَّ في هذه البابل التي تداعب أحلامَ الشعراء الورعين، كما أحلامَ الهازئين المادّيين، غمغم محنيًا رأسَه وضامًّا ذراعيه كأنّما يصلّي: «منذ أقل من ستّة شهور طرقت أبوابك. وأحسبُ أنّ الرّب قادني إليك، ومنك يعيدني مظفّرًا؛ إنّ سرّ حضوري بين جدرانك قد سلّمته إلى الربّ الذي وحده قادرٌ على قراءة ما في قلبي؛ وحده يعلم أنّني أتركك من غير كراهية أو غرور، لكن ليس بغير أسفٍ؛ وحده يعلم أنّني لم أسخّر القوّة التي رزقني، لأغراض شخصيّة أو في أمور باطلة؛ أيّتها المدينة العظيمة! في صدرك النّابض وجدتُ ما كنت أبحثُ عنه؛ نقّبت في أحشائك، كمنجميٍّ صبورٍ، حتّى أخرجت الشرَّ؛ والآن أتممت غايتي، وأنهيتُ مهمّتي؛ الآن ما عدت تستطيعين أن تقدّمي لي مباهجَ ولا آلامًا. وداعًا يا باريس! وداعًا!

سرّح بصره مرّةً أخرى في السّهل الممتدّ، مثل جنيٍّ ليليّ؛ ثمّ مسح بيده على جبينه، وصعد العربة فانغلق بابُها خلفَه، وانطلقت من فورها، فاختفت في الجانب الآخر من النّجد وسط زوبعة من غبارٍ وضجيج.

قطعوا فرسخين من غير أن ينطقا بكلمة. موريل يجلسُ حالمًا، ومونت كريستو يتأمّله. ثمّ ما لبث الكونت أن قال:

– هل أنت نادمُ لأنّك تبعتني يا موريل؟

– كلّا يا سيّدي الكونت، لكنّ فراق باريس...

– لو علمتُ أنّ السّعادة تنتظرك في باريس لتركتك فيها يا موريل.

– في باريس ترقدُ فالانتين، وأن أترك باريس معناه أن أفقدها مرّتين.

– إنّ الأعزّاء الذين نفقدهم يا ماكسيميليان، لا يرقدون في التّراب، وإنّما يسكنون قلوبنا؛ هكذا أراد الربُّ، لكي يجعلهم معنا إلى الأبد. أنا عندي عزيزان يرافقاني دائمًا على هذا النّحو: أحدهما منحني الحياة،

والثاني منحني العلم. فيَّ يعيشان معًا. وكلّما اعتراني الشّكُّ، استفتيتُهما، فإن أحسنتُ الاختيار كان ذلك من فضلهما عليَّ. استفتِ قلبَك يا موريل، واسأله هل يليق بي هذا الوجه المسيءُ الذي تواجهني به.

قال ماكسيميليان: - إنّ صوت قلبي يا صديقي، حزينٌ، ولا يهمس لي إلا بالشّقاء.

- تلك خاصّية القلوب التي أوهنها النّظر إلى كلّ شيءٍ من زاوية ضيّقة؛ إنّ النَّفس هي التي تصنع لنفسِها آفاقَها؛ إنّ نفسَك كئيبةٌ، فتصنع لك سماءً عاصفًا.

قال ماكسيميليان: - قد تكون محقًّا.

ثمّ عاد يهوي في أحلامه.

تمّ السّفر بتلك السّرعة المذهلة التي تشهد على نفوذ الكونت؛ على طريقهم كانت المدن تعبرُ كالأشباح؛ وتستقبلهم الأشجارُ التي هزّتها أولى رياح الخريف، كأنّها وحوش شعثاء، ثمّ لا تلبث أن تفرّ مسرعةً ما إن يبلغوها. وفي اليوم التّالي بلغوا شالون حيث كانت تنتظرهم باخرة الكونت؛ ومن غير أن يضيعوا لحظةً، حُمّلت العربةُ على متنها، بعدما صعد المسافران.

وكان المركب قد عُدّلَ ليناسب الرّحلة، فصار يبدو كقارب هنديّ؛ وعجلتاه أشبهَ بجناحين يمخر بهما البحر مثل طائرٍ مهاجر. حتّى إنّ موريل نفسه أبدى شيئًا من الافتتان بالسّرعة؛ وأحيانًا تبدو الرّيح التي تماوِجُ شعرَه كأنّها على وشك أن تبدّد الغيوم التي تغطّي جبينَه؛ أمّا الكونت، فبقدر ما كان يبتعد عن باريس، بقدر ما كانت تلفّه هالةٌ من سلام يكاد يتجاوز ما يعرفه البشر: كأنّه منفيٌّ عائدٌ إلى وطنه.

ثمَّ ما لبثت أن لاحت مارسيليا، بيضاءَ، دافئةً، حيّةً؛ مارسيليا الأخت الصّغرى التي خَلفت أُختَيها، صُورَ وقرطاجَ، في حكم إمبراطورية البحر الأبيض المتوسّط؛ مارسيليا التي كلّما تقدّم بها العمر بدت في عينيهما

أصغَر وأشبَّ. مواضعُ حبلى بالذّكريات تلوح لهما معًا: البرج الدّائريّ، قلعة سان نيكولا، قصر البلدية الذي صمّمه بوجيه، والميناء برصيفه الآجر الذي لعب فيه كلّ منهما طفلًا.

تواطآ على الوقوف في شارع كانبيير. كانت ثمّة سفينةٌ تبحر إلى مدينة الجزائر؛ على جسرها تراكمت البضائع والمسافرونَ، وحشدٌ من الأقارب والأصدقاء مودِّعين، صائحين، باكين، وإنّه لمنظرٌ مؤثّرٌ حتّى بالنّسبة إلى أولئك الذين يشهدونه كلّ يوم؛ ولم تفلح كلّ تلك الجلبة في أن تسلّي ماكسيميليان عن فكرةٍ استحوذت عليه ما إن وضع قدمه على رصيف الميناء.

قال للكونت وهو يمسك بذراعه: - انظر، هنا كان يقف والدي حين تدخل **الفرعونُ** الميناءَ؛ هنا كان يعانقني الرّجل الشّهمُ الذي أنقذتَه من الموت والعار؛ ما زلت أشعر بدموعه على خديَّ، وما كنّا وحدنا من نبكي، إنّما يبكي كثيرٌ من النّاس حين يرونَنا.

ابتسم مونت كريستو، ثمّ قال لموريل وهو يشير إلى زاوية شارع:
-هناك كنتُ.

وبينما يقول الكونت ذلك، وفي الاتّجاه نفسه الذي عيّنَه، كانت امرأةٌ تنتحبُ مودّعةً شابًّا على متن السّفينة المُبحرة. كانت المرأة محجّبةً، وقد تابعها مونت كريستو بعينيه في انفعالٍ كان ليسهل على موريل الانتباه إليه، لولا أنّ عينيه هو، على خلاف عينيّ الكونت، كانتا مسمّرتين في السّفينة.

صاح موريل: - أوه! يا إلهي! لستُ مخطئًا! إنّ هذا الرّجل المرتديَ بدلة عسكريّةً، الملوّحَ مُودّعًا هو ألبير دو مورسيرف!

قال الكونت: - نعم، لقد عرفتُه.

- كيف عرفتَه، وأنت تنظر في الاتّجاه المعاكس؟

ابتسم الكونت على عادته حين لا يريد أن يجيب. ثمّ عادت عيناه تشيّعان المرأة المحجّبة وهي تختفي عند ركن الشّارع.

استدار الكونت إلى ماكسيميليان قائلًا: - أليس لديك ما تفعله في هذا البلد يا صديقي العزيز؟

أجابه موريل بصوتٍ مكتوم: - عندي البكاءُ على قبر والدي.

- حسنًا، فاذهب، وانتظرني هناك؛ سألحق بك.

- سوف تتركني؟

- أنا أيضًا لي زيارةٌ ورعةٌ أقوم بها.

سلّم موريل يده إلى اليد التي مدّها إليه الكونت؛ ثمّ أدار رأسَه في حركة يصعب وصف كآبتها، ثمّ فارق الكونت قاصدًا شرق المدينة.

وانتظر الكونت حتّى اختفى ماكسيميليان، ثمّ سلك طريق مييون، ليوافي البيت الصّغير الذي ألفَه قرّاؤنا من بداياتِ قصّتِنا.

كان المنزل المعلوم لا يزال قائمًا في ممشى تيّول الذي يقصده للتّنزه المارسيليون العاطلون، وتغطّيه فُرشُ كروم تنمو على الحجر المصفرِّ من وقع شمس الجنوب الحارقة، وقد تقادمَ العهدُ على فروعها فاسودّت وتمزّقت. درجتانِ من حجرٍ، أبلاهما طولُ الدَّوس بالأقدام، يقودان إلى باب المدخل المصنوع من ثلاثة ألواح لم تعرف قطّ التلميع أو الطّلاء، على الرّغم من إصلاحها سنويًا، فظلّت على حالها متباعدةً، تنتظر فصل الرّطوبة لتتقاربَ. وهذا المنزلُ الجميلُ، وإن تداعى، المرحُ وإن غلب على مظهره البؤس، كان هو المنزل نفسَه الذي كان يسكن فيه قديمًا دانتِس الأب. على أنّ الشّيخ دانتِس كان يسكن العليّة، بينما جعل الكونت البيت بأكمله في تصرّف مرسيدس.

وهناك، في ذلك البيت، دخلت تلك المرأةُ المحجّبة التي رآها الكونت تودّع السّفينة الرّاحلة؛ وقد أغلقت البابَ في اللّحظة نفسها التي ظهر فيها هو عند زاوية شارعٍ، بحيث أضاعها ما إن وجدها. وبالنّسبة

إليه كانت الدّرجات البالية معارفَ قديمة؛ كما كان يعرف أفضل من أيِّ شخص آخرَ كيف يفتح الباب القديم الذي يرفع مزلاجه الدّاخليّ مسمارٌ عريضُ الرّأس. لذا فقد دخل، من غير أن يدقَّ البابَ أو يستأذن، كصديقٍ أو ضيف.

أقصى ممرٍّ مبلّطٍ بالآجر توجد حديقةٌ غامرة بالحرارة والشّمس والنور؛ هي نفسها الحديقة التي عيّنها الكونت مونت كريستو لمرسيدس، فوجدت فيها الوديعة التي ادّعى الكونت بشهامةٍ أنّه قد أخفاها منذ أربعٍ وعشرين سنةً؛ ومن مدخل الشّارع تُرى أولى أشجار الحديقة.

ولمّا بلغ الكونت العتبة، سمع تنهيدةً تشبه شهقةً: تبعت نظرتُه التّنهيدة، وتحت تعريشة من ياسمين فرجينية، أوراقُها كثيفةٌ وزهورُها القرمزيةُ واسعةٌ، لمح مرسيدس جالسةً، محنيةً تبكي. كانت قد نضَت عن وجهها الحجاب، وجلست وحيدةً، تحت السّماءَ، دافنةً وجهها بين راحتيها، مطلقةً العنان لدموعها وشهقاتها التي أطالت حبسها مراعاةً لولدها.

تقدّم مونت كريستو خطواتٍ؛ هسَّ الرّملُ تحت قدميه. رفعت مرسيدس رأسَها، فلمّا رأت هيئة رجلٍ أمامَها أطلقت صيحةً.

قال الكونت: - سيّدتي، لم يعد بمقدوري أن أمنحك السّعادة، لكنّ لي أن أمنحك العزاء، فهل تبخلين عليّ بواجب الصديق للصّديق؟

أجابت مرسيدس: - الحقّ أنّني تعيسة، ووحيدةٌ في هذا العالم... لم يكن لي إلا ابني، وقد تركني!

أجابها الكونت: - خيرًا فعل يا سيّدتي، إنّه قلبٌ نبيل. لقد أدرك أنّ على المرء لوطنه حقًّا. فالبعض يؤدّون الحقَّ بمواهبهم، والبعض بعملهم، وهؤلاء بسهرهم، وأولئك بدمائهم. لو بقي معك لاستهلك نفسَه في حياةٍ عديمةِ الجدوى، ولمَا استطاع أن يتعايش مع آلامك. سيشعل فيه العجزُ الكراهيةَ؛ أمّا وقد رحلَ، فسوف يكبر ويتقوّى بينَ

خصومه، ويحوّل الصّراعَ إلى سَعدٍ. دعيه يبني مستقبلك ومستقبله يا سيّدتي؛ وأجرؤ على أن أعدك بأنّه بين أيادٍ أمينة.

قالت المرأة المسكينة وهي تهزّ رأسَها: - أوه! إنّ هذا السّعدَ الذي تتحدّثُ عنه، والذّي أتمنى أن يحوزَه، لن أتمتّع به أنا. لقد انكسرت فيّ، وحولي، الكثيرُ من الأشياء حتّى غدوتُ أحسُّني قريبةً من القبر. خيرًا فعلتَ يا سيّدي الكونت إذ رددتني إلى المكان الذي كنتُ فيه سعيدةً جدًا: على المرء أن يموت حيثُ عرف السّعادةَ.

قال مونت كريستو: - واأسفًا يا سيّدتي، إنّ كلماتك كلّها تنزل في قلبي مُرّةً حارقةً، خاصّةً وأنّي أرى أنّ لك كلَّ الأسباب لتكرهينني؛ أنا من تسببّ بكلّ آلامك، فلمَ تشفقين عليّ بدلًا من أن تلوميني؟ شفقتك تجعلني أكثر تعاسةً...

قالت مرسيدس: - أكرهك؟ ألومك، أنت يا دانتِس؟أنت الذي أنقذت حياة ابني، بعدما كانت نيّتك أن تقتل للسيّد دو مورسيرف ابنه الفخورَ به؟ أوه! انظر إليّ وسوف ترى هل فيَّ ذرّةً من لوم.

رفع الكونت نظرَه وحدّق في مرسيدس التي مدّت إليه يديها وهي نصفُ واقفةٍ.

واصلت بنبرة حزنٍ عميق: - أوه! انظُر إليَّ؛ صار من اليسير الآن تحمّلُ بريقَ عينيّ، أين منّي تلك الأيام التي كنت آتي فيها ضاحكةً إلى إدمون دانتِس، وهو ينتظرني في الغرفة العلوية حيث يسكن والدُه... مرّت أيّامٌ أليمةٌ منذ ذاك الزّمان، أيّامٌ حفرت هاويةً بيني وبينه. فهل ألومك يا إدمون، أكرهك يا صديقي؟ كلّا، إنّما أكره وألوم نفسي! (صاحت وهي تشبك يديها وترفع عينيها إلى السّماء) أنا البائسة! نلت عقابي!.. كنت أملك الإيمان والبراءة والحبّ، النِّعَمُ الثلاث التي تجعل الإنسان ملاكًا، لكنّني يا ويلي، شككتُ في الربّ!

تقدّم مونت كريستو خطوةً، ومدّ إليها يده صامتًا.

قالت وهي تسحب يدها برفق: - كلّا، كلّا يا صديقي، لا تلمسني. لقد جنّبتني انتقامكَ، مع أنّني أشدُّهم ذنبًا. كلّهم فعلوا ما فعلوه بدافع الكراهية أو الجشع أو الأنانية؛ أمّا أنا فتصرّفت بدافع من جبن. هم كانت تحرّكهم الرّغبة، وأنا كان يحرّكني الخوف. كلّا ياً إدمون لا تشدّ على يدي. أنت تحضّر كلماتٍ لطيفةً، أشعرُ بذلك: رجاءً لا تقُلها. احتفظ بها لأخرى غيري، أمّا أنا فلا أستحقها... (كشفت عن وجهها تمامًا)، انظُر لقد شابَ من الشّقاء شعري؛ ولفرط ما سكبت عينيَّ من الدّموع غدت تحوطُها هالات بنفسجية؛ وجبيني يتغضّنُ. أمّا أنت يا إدمون، فلا تزال شابًا، ووسيمًا، وفخورًا. لأنّك وُهبتَ الإيمانَ، ووُهبت القوّةَ؛ لأنّك اعتمدت على الربّ، فأعانك؛ أمّا أنا فجبنتُ، وجحدتُ الرّبَّ، فتخلّى عنّي، وها أنا ذي.

غرقت مرسيدس في الدّموع؛ انكسر قلبها لمّا اصطدم بالذّكريات. أمسك مونت كريستو بيدها وقبّلها باحترام، لكنّها هي نفسها أحسّت أنّ القبلة باردةٌ لا حرارة فيها، قبلة شبيهة بأيّ قبلة قد يطبعها الكونت على تمثال قدّيسة.

واصلت: - هناك مصائرُ مكتوبةٌ سلفًا، مصائر يتحكّم فيها خطأٌ واحدٌ، خطأٌ واحدٌ يحطّمُ المستقبل بأكمله. كنت أحسبُك ميّتًا، فكان عليّ أن أموت؛ فيم نفعني أن أحمل حدادي عليك في قلبي إلى الأبد؟ نفعني في أن أكون امرأةً تبلغ التاسعة والثلاثين، أو الخمسين، وهذا كلّ ما في الأمر. وفيمَ نفعني، حين عرفتُك، أن أنقذ ولدي فقط؟ أما كان حريًّا بي أيضًا أن أنقذ الرّجل المذنبَ، ما دمتُ قد اتّخذتُه زوجًا؟ لكنّني تركتُه يموتُ؛ ما أقول يا إلهي! لقد اشتركت في موته بجبني وبرودي، واحتقاري، إذ لم أتذكّر، أو لم أرد أن أتذكّر، أنّه إنّما لأجلي أنا اختار أن يكون جاحدًا وخائنًا! وفيم ينفعني أن أرافق ابني حتّى هنا، ما دمتُ أفارقه، ما دمتُ أتركه يرحل وحيدًا، ما دمتُ أسلّمه إلى تلك الأرض

المفترسة المسمّاة إفريقيا؟ أوه! أقول لك إنّني كنت جبانة؛ لقد جحدتُ بحبّي، ومثل المرتدّين أحمل المصائبَ حيثما حللتُ!

قال مونت كريستو: - كلّا يا مرسيدس؛ عليك أن تستعيدي تقدير نفسك. كلّا؛ أنت امرأةٌ نبيلةٌ وتقيّةٌ، امرأةٌ جرّدني ألمُها من أسلحتي؛ لكن خلفي أنا، الكائنُ الخفيُّ، الغريب، الثائر، كان الربُّ، ولم أكن أنا إلّا وكيلًا له، وكيلًا لم يرد أن يوقف الصّاعقة التي أطلقها من عقالها. آه! أُشهد الرّبّ الذي كنت أنحني كلّ صباح عند قدمَيه، أُشهده على أنّي ضحّيتُ بحياتي لأجلك، وضحيتُ معها بالمشاريع التي وضعتُها لنفسي. لكنّني أقولها، وبكِبَرٍ، يا مرسيدس: كان الربُّ يحتاجني، فتركني أعيش. افحصي الماضي، افحصي الحاضر، وخمّني المستقبل، وانظري إن لم أكن أداةً للربّ؛ أفظع المصائب، وأقسى الآلام، وفراقُ الأحبابِ، واضطهادُ الغرباء: ذلكم كان قِسمَ حياتي الأوّلَ؛ ثمّ فجأةً، بعد الأَسرِ والوحدةِ، والبؤس، أتى الهواءُ والحريّةُ، وثروةٌ مذهاةٌ، هائلةٌ إلى درجة أنّه كان ينبغي أن أَكون أعمى كيلا أرى فيها عطيّةً [illegible]ب لأجل غايات أسمى. ومُذّاك بدت لي الثروةُ أداةً إلهية؛ مُذّاك لم تتعلّق نفسي، ولا لمرّةٍ واحدةٍ، بتلك الحياة التي عرض لك أنت أيّتها المرأةُ المسكينة أن استطعمتِ عذوبتها؛ لم أعرف ساعة هدوء. كنت أحسُّ نفسي مثل سحابةِ النّار التي تعبر السّماءَ لتحرقَ المدن الملعونة. ومثل القباطنة المغامرين الذين يركبون البحر في سفرٍ خطير، ويحضّرون لحملةٍ مُهلكة، كنتُ أعدُّ المؤنَ، وأعبّئُ الأسلحة، وأحضّر وسائلَ الهجوم والدّفاع، وأمرّنُ جسدي على أعنف التّمارين، وروحي على أقسى الصّدمات، أعلّمُ ذراعي كيف تقتل، وعينيَّ كيف تألفان رؤية الألم، وفمي أن يبتسم للمناظر الأشدّ رعبًا؛ انقلبت من الرّجل الطيّب، الواثق، الخليّ البال، إلى رجلٍ حاقدٍ، متخفٍ، شريرٍ، أو بالأحرى لا مبالٍ، مثلي مثل القدر

الأعمى الأصمّ. ثمّ انطلقت في الطّريق التي انفتحت أمامي، اخترقت الفضاءَ، وأصبتُ غايتي. والويل لمن يضعهم القدر في طريقي!

قالت مرسيدس: - كفى! كفى يا إدمون! ثِق أنّ من عرفَتك، وحدَها استطاعت أن تفهمك. وأنّ المرأة التي عرفتك يا إدمون، واستطاعت أن تفهمك، المرأة التي إن قيّض لها أن تقف في طريقك لسُحِقت كالزّجاج، تلك المرأة، قدَّرتك، وأُعجبت بك! مثلما يفصلني عن الماضي هوّةٌ؛ ثمّةَ هوّة بينك وبين غيرك من الرّجال، وأقول إنّ أقسى عذاباتي هي أن أقارِنَ؛ لأنّ لا شيء يضاهيك، ولا شيء يشبهك. والآن، قُل لي وداعًا، ولنفترق يا إدمون.

سألها مونت كريستو: - قبل أن أتركك يا مرسيدس، أخبريني ماذا تشتهين؟

- لا أشتهي إلاّ شيئًا واحدًا يا إدمون: أن يكون ابني سعيدًا.

- صلّي للربّ الذي وحده يمسك أنفُسَ النّاس في يديه، صلّي له أن يجنّبه الموتَ، واتركي الباقي كلّه عليّ!

- شكرًا يا إدمون.

- وأنت يا مرسيدس؟

- أنا لا أحتاج شيئًا، أعيش بين قبرَين: قبر إدمون دانتِس، وقد مات منذ زمنٍ بعيد؛ كنت أحبّه! لقد صارت هذه الكلمة غريبةً في شفتيّ الذّابلتين، لكنَّ قلبِي لا يزال يذكرها، ولا شيءَ يمحو ذكرَها من قلبي. والثاني قبر رجلٍ قتلَه إدمون دانتس؛ أؤيّد القتلَ، لكن ينبغي أن أصلّي للميّت.

ردّد الكونت: - سيكون ابنك سعيدًا يا سيّدتي.

- سأكون إذن أنا أيضًا سعيدةً ما استطعتُ.

- لكن... ماذا... ماذا ستفعلين؟

ابتسمت مرسيدس بحزن.

- إن قُلتُ لك إنّني سأعيش هنا كما كانت تعيش مرسيدس القديمة،

أي أشتغلُ، فلن تصدّقني؛ فأنا لم أعد أستطيع إلّا الصّلاة، لكنّني لم أعد أحتاج العمل؛ لقد وجدتُ الكنزَ الصّغير مدفونًا في المكان الذي عيّنتَه لي؛ سيبحثون من أكون، ويتساءلون عمّا أفعله، ويتجاهلون كيف أعيش. وليكن! إنّها مسألةٌ بين ثلاثة: أنا وأنت والربّ!

قال الكونت: – مرسيدس، لا تحسبي أنّي ألومك، لكنّك بالغتِ في التّضحية حين تخلّيت عن كلّ الثروة التي تركها السيّد دو مورسيرف، والتي يعود نصفها إلى تدبيرك وعنايتك.

– أرى ما ترمي إليه إدمون، لكنّني لا أستطيع أن أقبل منك، لأنّ ابني سيمنعني.

– لذا لن أفعل أيّ شيءٍ لا يرضاه سيّدي ألبير دو مورسيرف. سوف أعرف مقاصدَه، وأنصاع لها. لكن إن قبِلَ هو ما أنوي القيام به، فهل تقبلين مثله من غير نفور؟

– أنت تعرف يا إدمون أنّني لم أعد مخلوقةً تقرّرُ. لا قرار أستطيع أن أتّخذه، إلا ربّما قرارَ ألاّ أتّخذ أيّ قرار. لقد هزّتني عواصفُ الرّب حتّى فقدتُ الإرادةَ. أنا بين يديه كالعصفور بين مخالب النّسر. ما دمتُ حيّةً فإنّه لم يرد لي أن أموت. وإن أرسلَ إليّ نجدةً، فإنّما لأنّه أراد ذلك، وسوف أنفّذ إرادته.

قال مونت كريستو: – حذار يا سيّدتي، ما هكذا يعبدُ الربُّ! إنّما يريد لنا الربُّ أن نفهمه ونجادل قوّتَه. لذا أعطانا الحريّة.

صاحت مرسيدس: – أيّها الشّقي! لا تحدّثني على هذا النّحو؛ فإن آمنتُ بأنّ الرّبَ قد منحني الحريّة، ماذا يبقى لي لأنجو من اليأس؟

شحب مونت كريستو شحوبًا خفيفًا، وخفض رأسَه، وقد سحقته شدّة الوجع الذي يواجهه.

قال وهو يمدّ لها يده: – ألن تقولي لي وداعًا؟

أجابته مرسيدس وهي تشير إلى السّماء بمهابة: - بالعكس، أقول لك «إلى اللّقاء» لكي أبرهن لك أنّني ما أزال أحملُ أملًا.

وبعدما لامست يدها الرّاجفةُ يدَ الكونت، انطلقت مرسيدس وغابت عن نظره.

وإذّاك خرج مونت كريستو من المنزل ببطءٍ، وسلك طريق الميناء. لكنّ مرسيدس لم ترَه يبتعد، وإن كانت واقفة في نافذة غرفة والد دانتِس الصّغيرة. عيناها كانتا تستكشفان البعيدَ، تبحثان عن المركب الذي يحمل ولَدها صوب البحر الواسع. وإن كان صوتها يهمس، رغمًا عنها: «إدمون، إدمون، إدمون!».

113

الماضي

خرج الكونت كسيرَ النفس من المنزل الذي فارق فيه مرسيدس فراقًا بيّنًا على الأرجح. منذ موت الصغير إدوارد حدث تغيّر كبير في مونت كريستو. إذ بعد أن بلغ قمّة انتقامه، وبعد أن قطع إليها عقبة كأداءَ طويلةً ومؤلمةً، أشرفَ على الجانب الآخر من الجبل، فأبصر هاوية الشكّ. بل أكثر: إن الحديث القصير الذي جمعه بمرسيدس أيقظ في قلبه الكثير من الذكريات التي ينبغي أن يصارعها. على أن رجلًا من طينة الكونت لا يمكنه أن يطيل الإقامة في هذا الحنين الذي قد يحيي النّفوس الصّغيرة إذ يمنحها وهمَ الأصالة، لكنّه يقتل النفوس العظيمة.

كان يقول لنفسه إنّه لكي يشعر بالأسف، ينبغي أن يتسلّل إلى حساباته خطأٌ. يقول: «لا يمكنني أن أكون مخطئًا إلى هذه الدرجة. لا بدّ أنني أرى الماضي من الزاوية الخاطئة. ماذا! أيكون الهدف الذي رسمته لنفسي هدفًا خاطئًا؟ أأكونُ سائرًا، عشر سنين، على الطريق الخطأ؟ ماذا! أتكون ساعةٌ كافيةٌ لتبرهنَ للمهندس أنَّ العمل الذي استهلك فيه كلّ أمانيه، هو عملٌ مستحيلٌ، أو على الأقلّ عملٌ مكروه! لا أريد أن أستسلم إلى هذه الفكرة، وإلا جننتُ. ما ينقص استدلالي اليومَ هو التّقدير المضبوط للماضي، لأنّني أرى هذا الماضي من الطّرف الآخر للأفق. والحالُ أنّ الماضي أشبه شيءٍ بالمنظر الطّبيعي الذي نسير فيه: بقدر ما نتقدّم، يتبدّدُ. إنّما يحدث لي ما يحدثُ للنّائم الذي يحسُّ بنفسه مصابًا في حلمه، يرى جرحَه ويشعر به، لكنّه لا يتذكّر متى أصابَه. هيّا

إذًا، أيّها الرّجلُ المتجدّد؛ هيّا، أيّها الرّجلُ الفاحش الثراء؛ هيّا، أيّها النّائمُ متيقِّظًا؛ هيّا، أيّها الرّائي القديرُ؛ هيّا، أيّها المليونير الذي لا يُهزم؛ هيّا، استعِد للحظةِ الآفاق المهلكة، آفاق حياة الجوع والبؤس؛ اطرُق مرّةً أخرى الطّرقَ التي دفعك فيها القدرُ، الطّرق التي ساقك إليها الشّؤمُ، واستقبلك فيها اليّأسُ؛ إنّ ركامًا من الألماس والذّهب والسّعادة تشعُّ اليومَ، فيحجبُ انعكاسُها المرآةَ التي يرى فيها مونت كريستو دانتِسَ؛ اخفِ إذًا هذا الألماس، غطِّ الذّهبَ، امسح البريق؛ استعِدِ الفقيرَ أيّها الغنيُّ، والأسيرَ أيّها الحرُّ، والجثّةَ أيّها المنبعثُ».

وهو يقول لنفسه كلّ ما سبق، ظلَّ مونت كريستو يتابع بعينيه شارع لاكيسريه. إنّه الشّارع نفسه الذي سيق عبرَه، منذ أربع وعشرين سنةً، يقتادُه حرسٌ ليليٌّ صامتٌ، وكانت هذه المنازل الضّاحكةُ الضّاجّةُ، يومَها كئيبةً وصامتةً ومقفلة.

غمغم الكونت: «مع أنّها المنازلُ نفسها؛ لكن يومها كان الوقتُ ليلًا، أمّا الآن فنحن في عزّ النّهار؛ إنّ الشّمس هي ما يضيءُ كلّ هذا المنظر ويجعلُه مرحًا».

نزل إلى الرّصيف عبر شارع سان لوران، وتقدّم صوب كونسِيني. وكانت تلك النّقطة التي أُركب فيها من الميناء، يومَ اعتُقل. قاربُ نزهةٍ يعبرُ بمظلّته النّسيجِيّة؛ نادى مونت كريستو ربّانَه، فلبّى الرّجلُ النّداء بسرعةِ ملّاح شمَّ رائحة الفائدة. كان الجوُّ رائقًا، والرّحلةُ بهجةً. وفي الأفق تهبطُ الشّمسُ، حمراءَ متوهّجةً، صوبَ اللّجة التي تشتعل لاقترابها منها؛ البحرُ صقيلٌ كمرآةٍ، ترجّهُ أحيانًا سمكاتٌ تقفزُ فرارًا من عدوٍ خفيٍّ، طالبةً الخلاصَ لدى عنصرٍ آخر غير الماء؛ ثمّ أخيرًا في الأفقِ تلوحُ، عابرةً وبيضاءَ ورشيقةً مثلَ النّوارس المهاجرة، قواربُ الصّيادينَ وهي تقصدُ مارتيج، أو سفُن التّجار المحمّلة بالبضائع صوب كورسيكا أو إسبانيا. وعلى الرّغم من السّماء الصّافية، والقوارب الرّشيقة، والنّور

الذّهبيّ الذي يغمر المشهد، كان الكونت متلفّعًا بمعطفه، يتذكّر تفاصيل رحلته الرّهيبة، تفصيلًا، تفصيلًا. يتذكّر النّور الوحيد المعزول المشتعل في قرية الكتالان، ومنظر قلعة إيف الذي أخبرَه إلى أين يمضون به، صراعَه مع رجال الدّرك حين أراد أن يقفز إلى البحر، يأسَه حين أحسّ بنفسه هُزِمَ، وإحساسه بفوهة البندقية الباردة وهي توضع على صدغه مثل حلقةٍ من جليد. ومثل تلك الينابيع الجافّةِ التي تستعيدُ حياتها قطرةً قطرةً حين تتجمّعُ الغيومُ فتسقيها، أحسّ الكونت مونت كريستو بتجدّد المرارة التي كانت تغمر فيما مضى صدر إدمون دانتِس. وإذّاك لم يعد يرى جمال السّماءِ، ولا رشاقة القوارب، ولا وهجَ النّور؛ غطّت السّماءَ حُجبٌ جنائزيّةٌ، وظهر الوحشُ المسمّى قلعة إيف فارتجف لرؤيته الكونت، كأنّما تجلّى له طيفُ عدوٍ ميّت.

لقد وصل.

غريزيًا تراجع الكونت، حتّى التصق بطرف القارب. وعبثًا كان الرّبّانُ يقول له بأعذب صوتٍ: – سنرسو يا سيّدي.

كان مونت كريستو يتذكّر أنّ في هذا المكان نفسه، وعلى هذه الصّخرة نفسها، سحبَه حرّاسُه بعنفٍ، وفرضوا عليه تسلّق هذا المنحدر وهم يخِزون كليتيه بحربة بندقية.

في الماضي بدت الطّريق طويلةً بالنّسبة إلى دانتِس، لكنّ مونت كريستو يراها اليومَ قصيرةً؛ كلّ ضربةِ مجدافٍ حرّكت رملَ البحر الرّطبَ، وفي ثناياه ملايينَ الخواطر والذّكريات. منذ ثورة يوليو لم يعُد هناك مسجون في قلعة إيف؛ ولم يعد المكان مأهولًا إلا بنقطة مراقبةٍ لمنع التّهريب؛ وعند باب القلعة بوّابٌ ينتظرُ ليُري من يحملهم فضولُهم، صرحَ الرّعب الذي تحوّل إلى صرحِ فضول. وعلى الرّغم من أنّ الكونت قد اطّلع على كلّ التّفاصيل التي جدَّت، إلا أنّه حين دخل تحت القبّة،

وحين نزل السلّم الأسودَ، وحين دخل الزّنازين التي طلَب أن يراها، اجتاحَ شحوبُ جبينَه الذي غمرَ عرقهُ الباردُ إدمونَ حتّى أعماق قلبه.

استعلم الكونت عن أمر السّجانين القدامى، سجّاني زمن **استعادة الحكم**؛ فعلم أنّهم جميعًا قد تقاعدوا أو امتهنوا وظائفَ أخرى. والبوّابُ الذي يدلُّه لم يلتحق بالقلعة إلا منذ 1830.

قادَه الدّليلُ إلى محبَسِه القديم. رأى ضوء النّهار الشّاحب يتسلّل عبر الكوّةِ الضيّقة؛ رأى موضع السّرير الذي أزيل، وخلفَه لا تزال الحفرة التي أحدثها الأبُ فاريا ظاهرةً، وإن سُدّت بأحجار جديدةٍ مقارنةً بباقي أحجار المبنى.

أحسّ مونت كريستو بقدميه تخوران؛ فأخذ مقعدًا من خشبٍ، وجلس عليه.

سأل الكونت الدّليلَ: - هل تُحكى قصصٌ عجيبةٌ عن هذه القلعة، غير قصّة حبس ميرابو[1]؟ هل من حكاياتٍ حولَ هذه المساكن الكئيبة التي يصعب على المرء تصديق أنّها آوت بشرًا؟

قال البوّابُ: - نعم يا سيّدي؛ أخبرني أنطوان حكايةً عن هذا المحبس نفسِه.

ارتعد مونت كريستو. لقد كان أنطوان سجّانَه. وكان قد نسيَ تقريبًا اسمَه ووجهَه؛ لكن لمّا نُطقَ اسمُه، استعادَه الكونت كما كانَ: وجهُه الذي تحفُّه لحيةٌ، سترتُه السّمراء وحلقة المفاتيح التي لا يزال يخيّل لمونت كريستو أنّه يسمع صليلَها. التفت الكونت، فخيِّل إليه أنّه يراه في ظلام الرواق الذي زادَه حلكةً لهيبُ المشعل في يد الدّليل.

سَأله البوّابُ: - هل يريد سيّدي أن أحكي له القصّة؟

---

(1) أونوري غابريل دو ميرابو (1749-1791)، كاتب وسياسيّ فرنسي، يعدّ وجهًا بارزًا من وجوه الثورة الفرنسية، وكان أبوه هو من طالب بحبسه سنة 1774 في قلعة إيف، بدعوى إعادته إلى الطّريق القويم، ودام حبسه نحو عامٍ.

قال مونت كريستو: - أجل، احكِ.

ثمّ وضع يده على صدره ليكبت نبضًا عنيفًا سينبعث من قلبه وهو يصغي إلى قصّته.

كرّر: - احكِ.

قال الدّليل: - في هذا المحبس كان يقيم، منذ زمنٍ بعيدٍ، سجينٌ. رجلٌ خطيرٌ جدًا، خاصّةً وأنّه، على ما يبدو قد جمع الخطورةَ بالعلم. وكان يقيم في القلعة في الآن نفسِه رجلٌ آخر، رجلٌ غير خطير، راهبٌ مجنون.

أعاد مونت كريستو: - آه! نعم، رجلٌ مجنون! وما كان جنونُه؟

- كان يعرض مليونًا مقابل حريّته.

رفع مونت كريستو عينيه إلى السّماء، لكنّه لم يرَ السّماءَ: حجابٌ من حجرٍ دونَه والأفق. فكّرَ في أنّ حجابًا لا يقلُّ سمكًا عن هذا، كان يفصل أولئكَ الذين يعرض عليهم الرّاهب فاريا المليونَ، عن الكنزِ الفعليّ.

سأله مونت كريستو: - هل كان بوسع المساجين أن يلتقوا؟

- أوه! كلّا يا سيّدي، كان الأمر ممنوعًا منعًا باتًّا؛ لكنّهما تجاوزا المنع، بأن حفرا نفقًا يصلُ محبسًا بآخرَ.

- ومن حفر النّفق؟

قال البوّابُ: - بالطّبع كان الشّاب؛ فقد كان قويًا وذكيًا؛ أمّا الرّاهبُ فكان شيخًا واهنًا، ثمّ إنّه لم يكن يملك عقلًا راجحًا ينظم به فكرةً واحدةً.

غمغم مونت كريستو: - معشر العميان!...

واصل البوّابُ: - قلنا إذًا إنّ الشّابَ قد حفر نفقًا؛ ما كانت وسيلته؟ لا أحد يعلم؛ لكنّه حفرَهُ، والدّليل أنّ أثر النّفق لا يزال موجودًا؛ انظُر، هل تراه؟

ثمّ إنّ الرّجلَ أدنى مشعله من الجدار.

قال الكونت بصوتٍ خنقَه التأثّر: - آه! نعم، بالفعل!

- وكانت النّتيجة أن صار المسجونان يتواصلان. كم دامَ تواصلُهما؟ لا ندري. على أنّ الشّيخَ مرضَ ذات يومٍ فماتَ. خمِّن ماذا فعل الشّاب؟

- قُل.

- أخذ السّجينَ إلى محبسه، مدده على سريره، ووجههُ لجهة الجدار، ثمّ عاد إلى المحبس الفارغ، فأغلق الحفرة وانحشر في كيس الميت. هل سبق لك أن صادفت فكرةً كهذه؟

أغمض مونت كريستو عينيه، وشعر بنفسه يستعيد كلّ الأحاسيس التي كان قد أحسَّ بها حين مسَّ وجهَه خيشُ الكيسِ الخشن، ولامسَت جسمَه البرودة التي لا يزال يحتفظ بها الكيسُ من أثَر الجثّة.

واصل الدّليل: - إليك ما كان يخطّط له: كان يظنُّ أنّ المساجين الموتى في قلعة إيف يُدفَنون، وما دام ليس من الرّاجح أن ينفقوا على المسجون تكاليف تابوتٍ، فقد قدّر أنّه سيرفع التّراب بكتفيه. لكنّه لم يكن يدري أنّ عادةً دُرج عليها في القلعة، تهدّد ترتيبه: لم يكن الموتى يدفنون، إنّما فقط تعلّق في أقدامهم كرة حديدٍ، ويُلقى بهم إلى البحر. وذاك ما فعله السّجانان. لقد ألقيَ بالسّجين من شاهقِ الجزيرة: وفي اليوم التّالي، اكتشفوا الميّت في سرير الحيِّ، فأدركوا كلّ شيء، باح الحفّاران بما لم يجرؤَا على البوح به حتّى تلك اللّحظة. قالا إنّهما ساعة طوّحا بالجثّة في الهواء، سمعا صوت صرخةٍ رهيبةٍ انطفأت من فورها في الماء الذي اختفت فيه الجثّة.

تنفّس الكونت بصعوبةٍ، وكان العرق يسيل على جبينه، والضّيق يعصر قلبه.

غمغم: «كلّا! كلّا! إنّ الشّك الذي خامرني كان بداية النّسيان؛ لكن هنا، ينحفر القلبُ من جديد، ويستعيد لهفة الانتقام».

سأله البوّابُ: - ألم تسمع بالخبر من قبل؟

- كلاّ، بالمطلق؛ ممّا حكيتَه، أستنتجُ نهايتين: إمّا أنّه سقط على

وجهه، وما دام قد ألقوا به من ارتفاع نحو خمسين قدمًا، فلا بدّ أنّه مات من فوره. لكن لمّا قلتَ إنّهم ربطوا إلى قدمه كرة حديد، فلا بدّ أنّه قد سقط واقفًا.

استأنف البوّابُ: - ربما سقط واقفًا، فسحبه ثقل الكرة إلى الأعماق، وظلّ الرّجل المسكين هناك!

- هل تُشفق عليه؟

- الحقُّ أقول، نعم، بغضّ النّظر عمّن يكون.

- ماذا تقصد؟

- كانت الإشاعات آنذاك تقول إنّالمسكين ضابطُ بحريةٍ اعتُقل بسبب انتمائه إلى البونابرتية.

همس الكونت في نفسه: «صدقَت الإشاعات. لقد جعلك الربُّ تطفو فوق اللّجج وفوق النّيران. هكذا يحيا البحّار المسكين في ذكريات بعض الحكّائين؛ يقصّون قصصه عند ركن المدفأة، ويرتجفون حين يبلغون اللحظة التي يخترق فيها البطلُ الفضاء ليبتلعه البحر العميق».

ثمّ سأل الكونت البوّابَ بصوتٍ مرتفع: - وهل يُعرفُ اسمُه؟

قال البوّاب: - آه! كيف؟ كان معروفًا فقط باسم «الرّقم 34».

غمغم مونت كريستو: - فيلفور، فيلفور! هو ذا ما كنتَ تقوله لنفسك حين كان ينغّص عليك طيفي لياليَ أرقك.

سأله البوّابُ: - هل يريد سيّدي أن يواصل الزّيارة؟

- نعم، خاصّة إذا ما أردتَ أن تريني غرفةَ الرّاهب المسكين.

- آه! الرّقم 27.

ردّد الكونت: - نعم الرّقم 27.

وهيّئ له أنّه يسمع صوت الرّاهب حين سأله عن اسمه، فصاح به عبر الجدار.

- تعالَ.

قال مونت كريستو: - انتظر، أريد أن ألقي نظرةً أخيرة على كلّ زوايا هذا المحبس.

- حسنًا، فلتفعل لأنّني نسيت مفتاح المحبس الآخر.

- حسنًا، اذهب لتأتي به.

- سأترك لك الشّعلة.

- كلاّ، خُذها معك.

- وتبقى في الظلام.

- أستطيع أن أبصر في العتمة.

- مثله إذًا.

- مثل من؟

- مثل الرّقم 34، يُقال إنّه تعوّد العتمة، لدرجة أنّه كان يستطيع أن يبصر إبرةً في الرّكن الأحلك من محبسه.

غمغم الكونت: - لقد احتاج عشر سنين ليبلغ ذلك.

ابتعد الدّليلُ حاملًا الشّعلة. وكان الكونت محقًّا في ادّعائه: ما كادت تنقضي بضع ثوانٍ حتّى ميّز في الظّلام كلّ شيءٍ، كأنّما يراه في وضح النّهار. أجال البصر حواليه، فتعرّف على محبسه بالفعل.

قال: - بلى، هذا الحجر الذي كنت أجلس عليه! وها أثر كتفيّ اللّتين حفرتا بصمَتَهُما في الجدار. وها أثر الدّم الذي سال من جبهتي، يومَ قرّرت أن أهشّم رأسي على الجدار... أوه! هذه الأرقام... أتذكّرها... كتبتها يومًا حسبت فيه عمر أبي لأرى هل أجده حيًّا حين أخرج، وعمر مرسيدس لأرى هل أجدها حرّةً... وراودني الأمل للحظةٍ حين فرغت من الحساب... لم أضع في الحساب الجوعَ وغياب الوفاء!

انفلتت من فم الكونت ضحكةٌ مُرّة. رأى، كما لو في حلمٍ، والدَه يُحمَلُ إلى القبر ليُدفنَ... ومرسيدس إلى المذبح لتتزوّج!

على الجانب الآخر من الجدار أثارت انتباهَه كتابةٌ. كانت تبرز بيضاءَ على الحائط المخضرّ.

قرأ مونت كريستو المكتوب: «إلهي! احفظ لي ذاكرتي!».

صاح: «أوه! نعم، تلك كانت دعوتي الوحيدة، في أيّامي الأخيرة. لم أعد أطلب الحريّة، إنّما فقط الذّاكرة، إذ كنت أخشى أن أجنَّ وأفقد ذاكرتي. إلهي! لقد حفظت لي ذاكرتي، وقد تذكّرتُ. شكرًا يا إلهي! شكرًا!».

وفي تلك اللّحظة انعكس نور الشّعلة على الجدران؛ كان الدّليل قد عاد. فتقدّم الكونت نحوه.

فقال: - اتبعني.

ومن غير أن يحتاج أن يصعد إلى النّور، طلب منه أن يتبعه في رواقٍ أرضيّ يفضي إلى مدخلٍ آخر. وهناك أيضًا اجتاح الكونت عالمٌ من الذّكريات. أوّلُ ما استرعى انتباهه خطُّ الطّول الذي كان الرّاهب فاريا يحسب به ساعات اليوم؛ ثمّ بقيّةُ السّرير الذي عليه مات السّجين المسكين.

وهذه المرّةَ بدلًا من الهواجس المرعبة التي هجمت على الكونت في محبسه، امتلأ قلبُه بإحساسٍ عذبٍ حنون، إحساس عرفانٍ، ففاضت من عينيه دمعتان.

قال الدّليل: - هنا كان الرّاهب المجنون؛ ومن هنا كان يأتي إليه الشّابُّ (وأشار إلى مدخل النّفق الذي ظلّ من تلك الجهة مفتوحًا)، ومن لون الحجر قدّر أحد العلماء أنّ السّجينين ظلّا يتواصلان نحو عشر سنين. المسكينان، لا بدَّ أنّهما قضيا عشر سنواتٍ في ضيق.

أخذ دانتِس بضعة لويسيات، ومدّها إلى البوّاب الذي أبدى للمرّة الثانية شفقةً على حاله، رغم أنّه لا يعرفه. فقبل الرّجل العطيّة وهو يظنُّ أنّها من توافِه القطع، فلمّا أضاءها بنور الشّعلة عرف قيمتَها، فقال:

- سيّدي، يبدو أنّك أخطأت.

- كيف؟

- لقد أعطيتني ذهبًا.

- أعلم.

- ماذا! تعلم؟

- نعم.

- قصدتَ إذًا أن تعطيني هذا الذّهب.

- نعم.

- أستطيع أن أحتفظ به إذًا، مرتاحَ الضّمير؟

- نعم.

أخذ البوّابُ ينظر إلى مونت كريستو بدهشةٍ.

قال الكونت مثل قول هاملت: «**الصّدق!**».

واصل البوّاب غير قادر على تصديق سعدِه: - سيّدي، لا أفهمُ كرمَك!

قال الكونت: - مع أنّه بسيط ويسهل فهمه: لقد كنتُ بحارًا، وإنّ قصّتك قد أثّرت فيّ أكثر ممّا تؤثّر في غيري.

قال الدّليل: - ما دمتَ قد أكرمتني كلّ هذا الكرم، فإنّك تستحقُّ منّي أن أهديك شيئًا.

- ماذا عندك لتعطيني يا صديقي؟ أصدافًا؟ مصنوعاتٍ من القش؟ شكرًا.

- كلّا يا سيّدي، كلّا؛ سأهديك شيئًا يتعلّق بالحكاية التي حكيتها لك.

صاح الكونت بحماسة: - صحيح! وما هو؟

قال البوّابُ: - أصغي إليّ يا سيّدي، سأحكي لك ما وقع. لقد قلتُ لنفسي: لا بدّ أن يجد المرء شيئًا في غرفةٍ قضى فيها سجينٌ خمسة عشر عامًا! وبدأت أفحص الجدران.

صاح مونت كريستو وقد تذكّر المخبأ المزدوج الذي كان الرّاهب فاريا يخفي فيه أشياءَه: - آه!

واصل البوّابُ: - وبعد كبير تنقيب، اكتشفتُ صوت فراغٍ، عند رأس السّرير، وتحت موقد المدفأةِ.

قال الكونت: - نعم، نعم.

- فرفعت الأحجار، ووجدتُ...

صاح الكونت: - سلّمًا من الحبال، وأدواتٍ؟

سأله البوّابُ: - كيف عرفت هذا؟

- لم أعرفه، وإنّما خمّنتُه؛ فتلك هي الأشياء التي يُعثر عليها بالعادة في مخابئ المساجين.

قال الدّليل: - نعم يا سيّدي، سُلّمًا من حبالٍ وأدواتٍ.

صاح الكونت: - وهل لا تزال تحتفظ بها؟

- كلاّ يا سيّدي، لقد بعتُ مختلف الأشياء التي كانت عجيبة جدًا، إلى زوّار؛ لكن ما زلتُ أحتفظ بشيء.

سأله الكونت بصبرٍ نافد: - وما هو؟

- لا يزال عندي ما يشبه الكتابَ، مكتوبًا على قطع نسيج.

صاح مونت كريستو: - أوه! لا يزال لديك هذا الكتابُ؟

- لا أدري إذا ما كان يجوز تسميته كتابًا، لكنّه لا يزال لديَّ.

قال الكونت: - اذهب، فآتِني به يا صديقي؛ فإن كان كما أتوقّع، اهنأ بالاً.

- سأركض فورًا يا سيّدي.

ثمّ خرج الدّليل، فجثا الكونت على ركبتيه بورعٍ أمام بقايا السّرير الذي جعله الموتُ بمثابة مذبح بالنّسبة إليه.

ودخل في مناجاة: «أي والدي الثاني، أنت يا من وهبني الحريّةَ والعلمَ والغنى؛ أنت يا من كان يحوز معرفة الخير والشّر، مثل مخلوقٍ

من جوهرٍ يفوق جوهرنا نحن البشر؛ أسألُك، إن كانت تبقى في القبرِ بقيّةٌ تهتزُّ لنداءٍ من خلّفناهم في الأرض؛ أو إن كان الجسد في تحلّله يترك شيئًا حيًّا يطوف بالأمكنة التي أحببناها أو تألّمنا فيها؛ أسألك أيّها القلب النّبيل، أيّها الرّوح الأسمى، أيّها النّفسُ العميقة، أن تدلّني بكلمةٍ أو إشارةٍ أو وحيٍ، أو أيّ شيء؛ أتوسّل إليك باسم الحبِّ الأبويّ الذي أغدقت به عليَّ، وتقديرِ الابنِ الذي نذرتُه لك، أن تنزع من صدري ما بقي فيه من شكٍّ إن لم ينقلب يقينًا، فسوف يتحوّل إلى ندمٍ».

شبك الكونت يديه، خافضًا رأسَه.

قال صوتٌ خلفَه: - تفضّل يا سيّدي!

انتفض الكونت، والتفت. مدّ إليه البوّابُ قطع النّسيج التي دوّن عليها الرّاهب فاريا كل دُرر معارفه. كان ذاك مخطوطَ العملِ الكبير الذي خطّه الأب فاريا للملكية في إيطاليا.

تناوله الكونت بلهفةٍ، وتسمّرت عيناه أوّلًا على شاهدة الكتاب، وقرأ:

«*سوف تنتزع أنيابَ التّنين، وتدوس الأسودَ بقدميك.*

كذلك قال الربّ[1]».

صاح: «آه! هوذا الجوابُ! شكرًا يا أبي، شكرًا!».

ثمّ أخرج من جيبه محفظةً صغيرة تحوي عشر أوراق بنكية قيمة كلّ منها ألف فرنكٍ، وقال:

- هاك، خُذ هذه المحفظة.

- تعطنيها؟

- نعم، لكن شرط ألاّ تنظر فيها إلّا حين أرحل.

ثمّ إذ حفظ الكونت في صدره الرّدّ الذي وجدَه، والذي كان يفوق قيمةً كنوز الدّنيا، انطلقَ خارجًا من القبو، ثمّ صعد القاربَ، وصاح:

---

(1) العبارة على الأرجح تأليف من عند فاريا، جمّع فيه نتفًا من الكتاب المقدّس.

- إلى مارسيليا!

وبينما القاربُ يبتعدُ، حدّق الكونت في السّجن المظلم، قائلًا:

«الويل لمن سجنوني في هذا السّجن المظلم، ولمن نسوا أنّني كنت سجينًا فيه!».

ولمّا اجتازوا من أمام قرية الكتالان، استدار الكونت، وغلّف رأسَه بمعطفه، ثمّ همس باسم امرأة.

لقد تمّ له النّصرُ؛ دفن الشكَّ مرّتين. أمّا الاسم الذي نطقه بنبرة حنان تكاد تضاهي الحبّ، فقد كان اسم هايدي!

ولمّا نزل إلى البرّ، اتّخذ سبيل المقبرة حيث ضرب لموريل موعدًا.

هو أيضًا كان قد بحث، منذ عشر سنين عن قبرٍ بهذه المقبرة، وكان بحثه سدىً. هو العائدُ من فرنسا مثقلًا بالملايين، لم يجد قبرَ والده الذي قضى جوعًا. كان موريل قد وضع على قبر الشّيخ دانتِس صليبًا، لكنّ الحفّار انتزعه ليضرم به نارًا، على عادة ما يفعل الحفّارون بالخشب المتداعي الموضوع فوق القبور. وكان التّاجرُ الشّهم أفضل حظًا من الشّيخ. فقد مات بين أبنائه، فقد حملوا نعشه بأنفسهم، وأراحوه في قبرٍ جنب زوجته التي سبقته بسنتين إلى الأبدية. وثمّة شاهدتان عريضتان من مرمرٍ دوِّنَ فيهما اسماهُما، وجُعلتا واحدةً جنب الأخرى وسط تحويطةٍ مسوّرة بسياج من حديد، وتظلّلها أربع شجرات سرو.

وكان ماكسيميليان مستندًا إلى إحدى الشّجرات، يحدّق في القبرين بعينين مطفأتين. كان ألمه عميقًا، يكاد يبلغ الجنون.

قال الكونت: - ماكسيميليان، ليس إلى هناك ينبغي أن تنظرَ، وإنّما إلى هنا.

وأشار إلى السّماء.

قال موريل: - إنّ الموتى في كلّ مكانٍ؛ ألست أنت من قال لي هذا الكلام، لمّا أردت إقناعي بترك باريس؟

قال الكونت: - ماكسيميليان، لقد طلبت منّي أثناء السّفر أن نتوقّف أيّامًا بمارسيليا. فهل لا تزال تلك رغبتك؟

- لم تعد بي رغبةٌ يا سيّدي الكونت، لكن يبدو لي أنّ الانتظار هنا أخفّ على نفسي من الانتظار في مكانٍ آخرَ.

- خيرٌ إذًا يا ماكسيميليان، لأنّني سأتركك حاملًا معي عهدك، أليس كذلك؟

قال موريل: - آه! سأنساه يا سيّدي الكونت، سأنساه!

- كلّا! لن تنساه، لأنّك يا موريل رجلٌ يضع الشّرف في الصّدر، قبل كلّ شيءٍ؛ لأنّك أقسمت لي يا موريل، ولأنّك ستقسم لي مرّةً أخرى.

- آه يا سيّدي الكونت، ارحمني! أنا تعيسٌ جدًّا!

- أعرف رجلًا كان أتعس منكَ!

- مستحيل.

- واأسفًا! هذه إحدى مظاهر الأنانية فينا نحن البشر المساكين. إنّ الواحد منّا ليحسب نفسَه أتعسَ النّاس، بينما إلى جانبه تعيسٌ آخر يبكي ويصرخ.

- من أتعسُ من رجلٍ فقد الشّيء الوحيد الذي كان يحبّه ويرغب فيه؟

قال مونت كريستو: - أصغي إليّ يا ماكسيميليان، وركّز للحظةٍ فيما سأقوله. أعرف رجلًا مثلك، كان قد وضع آمالَه كلَّها في امرأةٍ. هذا الرّجل كان شابًا، وكان له أبٌ شيخٌ يحبّه، وخطيبةٌ يعشقها؛ وكان على وشك أن يتزوّجها، وإذا بنزوةٍ من نزوات القدر التي تجعل المرء يشكّ في طيبة الربّ، لولا أنّ الربَّ كشف له أنّ كلّ ما وقع إنّما وقع لغايةٍ أسمى؛ قلتُ وإذا بنزوةٍ من نزوات القدر تسلبه حريّتَه، وحبيبتَه، والمستقبلَ الذي كان يحلم به، ويظنّه طوع يده (إذ في غمرة عماه ما كان يستطيع أن يقرأ الحاضرَ)، فتُلقي به في غيابة محبسٍ.

قال موريل: - آه! لكنّ المرء يغادر الزّنزانة بعد ثمانية أيّامٍ، أو شهر، أو حتّى سنة.

قال الكونت وهو يضع يده على كتف الشّابِّ: - لقد بقيَ هناك أربعة عشر عامًا!

ارتجف ماكسيميليان، وغمغم: - أربعة عشر عامًا!

كرّر الكونت: - أربعة عشر عامًا؛ وهو أيضًا تملّكته طيلة الأربعة عشر عامًا لحظاتُ يأسٍ؛ ومثلك تمامًا يا موريل، ظن نفسه أتعس النّاس ورغب في قتل نفسه.

سأله موريل: - ثمّ؟

- ثمّ في لحظةٍ مهيبةٍ، تجلّى له الرب في هيئةٍ بشريّةٍ، إذ إنّ الربَّ ما عاد يتوجّه إلينا بالمعجزات. وربّما لم يدرك صاحبنا من الوهلة الأولى (إذ يلزمُ العيونَ التي حجبتها الدموعُ وقتٌ لترى بوضوح) رحمةَ الربّ الواسعةَ؛ لكن في النّهاية تعلّم الصّبر وانتظرَ. ثمّ ذات يوم خرج من القبر منقلبًا، غنيًا، قويًا، يكاد يكون إلهًا؛ وأوّل صرخةٍ أطلقها كانت لأبيه: لقد مات أبوه!

قال موريل: - أنا أيضًا مات أبي.

- نعم، لكنّ أباك مات في أحضانك، محاطًا بالحبّ، سعيدًا، كريمًا، غنيًّا، راضيًا؛ أمّا والده هو فمات فقيرًا، يائسًا، مرتابًا في الربّ؛ وبعد عشر سنين، حين بحث ابنه عن قبره، كان القبر نفسه قد اختفى، ولم يجد من يقول له: «هنا يرقد القلبُ الذي طالما أحبّكَ».

قال موريل: - أوه!.

كان الرّجل إذًا ابنًا أشدّ يأسًا منك يا موريل، لأنّه لم يكن يعرف حتّى أين يجد قبرَ أبيه.

قال موريل: - لكن بقيت له على الأقلّ المرأة التي أحبّها.

- أنت مخطئٌ يا موريل؛ تلك المرأة...

صاح ماكسيميليان: - ماتت؟

- أسوأ! لقد خانته؛ تزوّجت واحدًا ممّن اضطهدوا خطيبَها وكانوا السبب في سجنه. ترى إذًا يا موريل أنّ الرّجل كان عاشقًا أتعسَ منك!

- وهذا الرّجلُ، هل رزقه الرّبُّ العزاءَ؟

- رزقه الطمأنينة على الأقلّ!

- وهل بوسع هذا الرّجل أن يكون سعيدًا يومًا ما؟

- يرجو ذلك يا ماكسيميليان!

أرخى الشّابُّ رأسَه على صدره، وبعد برهة صمتٍ مدّ يده إلى الكونت وقال: - أعدك يا سيّدي الكونت، لكن تذكّر...

- أضربُ لك موعدًا يوم 5 أكتوبر في جزيرة مونت كريستو. يوم 4 سينتظرك يختٌ في ميناء باستيا؛ واسم اليخت *أوروس*؛ ستفصِح عن نفسك للربّان، فيقودك إليَّ. اتّفقنا، أليس كذلك يا ماكسيميليان؟

- اتّفقنا. وسأفعل ما اتّفقنا عليه، لكن تذكّر أنّ يوم 5 أكتوبر...

- أيّها الطّفل، كأنّك لا تدري ما يعني وعدُ الرّجل... قلت لك ألف مرةٍ، أنّ في اليوم المعلوم، إن كنتَ لا تزال راغبًا في الموت، فسوف أعينك عليه يا موريل. وداعًا.

- هل تتركني؟

- نعم، عندي عمل في إيطاليا؛ أتركك وحيدًا، وحيدًا في قبضة الشّقاء، وحيدًا مع النّسر القويّ الأجنحة الذي يرسله الربُّ إلى من يصطفيهم، ليأتي بهم عند قدميه. إنّ قصّة غانيمادس[1] ليست مجرّد حكاية خرافية يا ماكسيميليان، وإنّما هي أمثولة ذات مغزى.

- متى انطلاقُك؟

---

(1) في الميثولوجيا اليونانية يرفع الإله زيوس الفانيَ غانيماديس، ويجعله ساقيًا للآلهة مكان الإلهة هيبي.

- اللّحظةَ؛ الباخرةُ تنتظرني، وما هي إلا ساعةٌ حتّى أكون بعيدًا عنك. هل ترافقني إلى الميناء يا موريل؟

- أنا طوع أمرك يا سيّدي الكونت.

- عانقني.

رافق موريل الكونت حتّى الميناء؛ وكان الدّخان قد بدأ يخرجُ مثل عمودٍ سميك من أنبوب الباخرة الأسود المندفع في السّماء. ثمّ انطلقت الباخرةُ، وما هي إلا ساعةٌ، كما قال الكونت، حتّى صار الدّخان الأبيضُ نفسه بالكاد يُرى في الأفق الشّرقيّ، وقد بدأت تسوِّدُه أولى قطع اللّيل.

114

بيبينو

في اللّحظة نفسها التي جاوزت فيها باخرة الكونت رأسَ موريجيو، كان رجلٌ آخرُ، على خيل المراسلة في الطّريق من فلورنسا إلى روما، قد جاوز مدينةَ أكوابندنتي الصّغيرةَ. وكان يسير حثيثًا بما يكفي ليقطع الكثير من الطّريق، ولا يثيرَ في الآن نفسه الشّبهات. كان يرتدي ردنجوت، أو بالأحرى معطفًا أبلاه السّفرُ، لكنّه يشفّ عن شريطٍ برّاقٍ هو شريط وسام جوقة الشّرف، وقد ربّطه الرّجلُ مضاعفًا فوق ملابسه؛ ومن وسام الرّجل المزدوج، كما من اللّهجة التي كان يتحدّث بها إلى السّائق، يدركـ المرء أنّه فرنسيّ. ودليلٌ آخر على أنّ الرّجل قد وُلد في بلد اللّغة العالمية، أنّه لم يكن يعرف من الكلمات الإيطالية غير تلك التي تستعمل في ميدان الموسيقى، الكلمات التي على شاكلة كلمة فيغارو goddam[1]، تستطيع أن تحلّ محلّ لطائفَ لغةٍ بأكملها. فكان كلّما بلغوا مرقىً يصيح بالسّائق: «Allegro!»، وكلّما أشرفوا على منحدرٍ قال له «Moderato![2]». والربُّ يعلم كم يصعد المرء من مرقىً وكم ينزل من منحدرٍ في طريقه من فلورنسا إلى روما، عبر أكوابندنتي!

---

(1) في مسرحية زواج فيغارو لبومارشيه، حين يسأل الكونت فيغارو عمّ إذا كان يعرف الإنجليزية، يجيبه إنّه يعرف كلمة *God–dam*، وهي تصلح للتّعبير عن أيّ شيء في الإنجليزية.

(2) أليغرو في لغة الموسيقى، المأخوذة عن الإيطالية، تشير إلى حركة سريعة، وموديراتو إلى حركةٍ أبطأ.

على أنّ الكلمتين المذكورتين كثيرًا ما أضحكتا الرّجال الصّناديدَ الذين كان يتوجّه إليهم بهما.

وفي حضرة المدينة الخالدة، أي لمّا بلغوا ستورتا، المكان الذي يشرفون منه على روما، لم يشعر المسافر بذاك الشّعور الذي يتملّك كلّ من يبلغ تلك النّقطة، أي الرّغبةَ في أن يقوم من مقعده، فيطلَّ على نافذتها ليتأمّل قبّة القديس بطرس الشّهيرة، والتي تظهر قبل أيّ معلمة أخرى غيرها. كلّا، لم يشعر صاحبنا بأيّ شيءٍ، وإنّما فقط أخرج محفظةً من جيبه، ومنها أخرج ورقةً مطويةً إلى أربع، ففردها، ثمّ طواها مرّةً أخرى، بعنايةٍ تضاهي التّبجيل، ثمّ اكتفى بالقول: «حسنًا، لا تزال معي!».

اخترقت العربة باب بوبولو، وانعطفت يسارًا، حتّى توقّفت في فندق إسبانيا. واستقبل المايسترو باستريني، صاحبُنا القديمُ، المسافرَ عند عتبة الباب حاملًا قبعته في يده.

نزل صاحبنا، وطلب عشاءً جيّدًا، واستعلم عن عنوان **طومسون وفرانش**، فعيِّنُ له المكانُ الذي كان معروفًا جدًّا في روما. وكان يقع في نهج دبي بانكي، قرب كنيسة القدّيس بطرس.

وفي روما، كما في كلّ مكانٍ، يعدُّ وصول عربةِ مراسلةٍ حدثًا مثيرًا. عشرةُ فتيان من نسل ماريوس وآل غراشيوس[1]، حفاةٌ، وملابسهم مثقوبة عند المرفق، لكنهم كانوا يقفون واضعين قبضة اليد على الورك، ورافعين اليد الأخرى مائلةً على رؤوسهم في منظرٍ استعراضيّ، يتأمّلون المسافرَ وعربة المراسلة والخيول؛ وإلى هؤلاء الفتية انضمَّ نحو خمسين من متسكّعي دولة البابوية، من أولئك الذين يلهون بالبصق من أعلى جسر سان أنجلو ليصنعوا دوائر في نهر التّيبر حين يرتفع منسوب مياهه. وبما أنّ الصبية والمتسكّعين في روما هم أسعد من أقرانهم في باريس،

---

(1) قادة سياسيون، وأُسر من مؤسّسي روما القديمة.

ويفهمون كلّ اللّغات، خاصّة الفرنسية، فقد سمعوا المسافر يسأل عن محلٍ للإقامة، ولتناول العشاء، ثمّ عنوان مؤسّسة **طومسون وفرانش**. والنّتيجة أنّه، لمّا خرج الواصل الجديد من الفندق برفقة دليل الفندق، انفصل عن زمرة الفضوليّين رجلٌ، ومن غير أن يلحظه المسافرُ أو الدّليل، سار على مسافةٍ من الغريب، يتبعه بنفس القدر من السّداد الذي قد يتبعه به ضابطُ شرطةٍ باريسيّ.

كان الفرنسيُّ مستعجلًا زيارةَ مؤسّسة **طومسون وفرانش**، لدرجة أنّه لم ينتظر أن تجهّز الخيول؛ وطلب من العربة أن تلحق به على الطّريق، أو تنتظره عند باب المصرفيّ. وقد وصل قبل أن تلحق به العربة.

دخل الفرنسيُّ، تاركًا في البهو دليلَه الذي ربط على الفور حديثًا مع بعض من أولئك الصنّاعِ بلا صنعة، أو بالأحرى الصّناع بألفِ صنعة، الذين تراهم في روما، واقفين عند أبواب المصارف أو الكنائس أو الخرائب أو المتاحف أو المسارح.

وفي الوقت نفسه الذي دلف فيه الفرنسيُّ إلى المصرفيّ، دخل أيضًا الرّجلُ الذي انفصل عن زمرة الفضوليّين؛ رنّ الفرنسيُّ جرس شبّاك المكاتب، ثمّ ولج إلى الغرفة الأولى؛ وكذلك فعل الظلُّ الذي يتعقّبه.

سأل الغريبُ: - السيّدان **طومسون وفرانش**؟

وبإشارةٍ من كاتب ثقةٍ، هو الحارسُ المهيبُ للمكتب الأوّلِ، قامَ حاجبٌ يستقبل الغريبَ، وقال وهو يتأهّب لاقتياده: - أيُّ اسمٍ أُعلن عنه يا سيّدي؟

أجابه المسافر: - السيّد البارون دانغلار.

قال الحاجبُ: - تفضَّل.

انفتح البابُ، فدخل منه الحاجبُ يتبعه البارون. وجلس الرّجل الذي يتعقّبُ دانغلار على مقعدٍ في قاعة الانتظار. واصل الكاتب الكتابة مدّة خمس دقائق تقريبًا؛ وطيلة تلك الدّقائق الخمس، لزم الرّجل الجالسُ

أقصى درجات الصّمت والسّكون. ثمّ توقّفت ريشةُ الكاتب عن الصّرير على الورقة؛ رفع رأسَه، وحدّق مليًا حواليه، وحين تيقّن من أنّه كان والرّجل الجالس في غرفة الانتظار وحدهما، قال:

- آه! آه! هذا أنت يا بيبينو؟

أجابَ الرّجُل مختصرًا الكلام: - نعم.

- هل شممت غنيمةً كبيرةً عند هذا الرّجل؟

- لا غنيمة لي فيه، فقد أُعلمنا بشأنه مسبقًا.

- تعرف إذًا الغرض من قدومه إلى هنا؟ عجيب!

- طبعًا، لقد أتى يستحصل نقودًا؛ بقي فقط أن نعرف المبلغ.

- سنخبرك به قريبًا يا صديقي.

- ممتاز، لكنّك لن تعطيني معلومةً خاطئةً كما فعلت في المرّة السّابقة؟

- ماذا تقصد، وعمّن تتحدّث؟ هل تقصد الإنجليزيّ الذي أخذ من هنا في المرّة الماضية ثلاثة آلاف قطعة ذهبية؟

- كلّا، ذاك بالفعل كان يحمل ثلاثة آلاف ذهبيّة، وقد وجدناها معه؛ إنّما أقصد الأمير الرّوسيّ.

- وما به؟

- قلت لنا إنّه يحمل ثلاثين ألف جنيه، ولم نعثر معه إلا على اثنين وعشرين.

- لم تفتّشوا جيّدًا.

- لويجي فامبا هو من فتّشه بنفسه.

- في هذه الحال إمّا أنّه قضى ديونَه...

- روسيٌّ؟

- أو صرف نقودَه.

- جائز.

- بل مؤكّد؛ هيّا دعني أذهب إلى مرصَدي، وإلا لخرج الرّجل من غير أن أعرف المبلغ الذي يحمله.

أشار بيبينو إشارة موافقة، ثمّ أخرج سبحة من جيبه، وجعل يرطن بصلوات، بينما اختفى الكاتب من الباب نفسه الذي ولج منه الحاجب والبارون. ثمّ ما لبث أن عاد بعد نحو عشر دقائق، مشرق الوجه.

سأل بيبينو صديقه: - وإذًا؟

قال الكاتب: - انتباه! انتباه! المبلغ سمين!

- خمسة ملايين أو ستّة، أليس كذلك؟

- بلى؛ تعرف المبلغ إذًا؟

- على وصل من صاحب السّعادة الكونت دو مونت كريستو.

- وتعرف الكًونت؟

- الذي له رصيدٌ في روما والبندقية وفيينا.

صاح الكاتب: - بالضّبط! كيف عرفت كلّ هذا؟

- قلت لك إنّنا أُعلمنا مسبقًا.

- فيمَ إذًا قصدتني؟

- لكي أتأكّد من أنّه بالفعل الرّجل الذي يهمّنا أمره.

- إنّه هو... خمسة ملايين. مبلغ رائع يا بيبينو! أليس كذلك؟

- نعم.

- لن نحصل قطّ على مبلغ مماثل.

أجاب بيبينو متفلسفًا: - سوف ينالنا ولو بعض الفتات.

- صه! ها هو صاحبنا.

استعاد الكاتب ريشتَه، وبيبينو سبحته؛ فلمّا فُتح الباب، كان هذا يكتبُ وذاك يصلّي، وبرز دانغلار مشرقًا يرافقه المصرفيُّ الذي قاده حتّى الباب. وخلف دانغلار نزل بيبينو.

وكما كان متّفقًا عليه، كانت العربة تنتظر دانغلار أمام مؤسّسة

طومسون وفرانش. وكان الدّليل يقف فاتحا بابها: إنّ الدّليلَ كائنٌ شديد الكياسة، ويمكن أن نوظّفه في شتّى المهمّات.

وثب دانغلار في العربة، رشيقًا كشابٍّ في العشرين من عمره. وأقفل الدّليلُ البابَ، واتّخذ مجلسَه جنب الحوذيّ. بينما ركب بيبينو في المقعد الخلفيّ.

سأل الدّليلُ دانغلار: - هل يريد صاحب السّعادة أن يزور كنيسة القدّيس بطرس؟

أجابه البارون: - لمَ؟

- لكي تراها!

أجاب دانغلار بتكبّر: - لم آتِ إلى روما لكي أرى! (ثمّ أضاف همسًا وعلى شفتيه ابتسامته الجشعة) لقد أتيت لأقبض النّقود.

وبالفعل قبض على محفظته التي دسّ فيها رسالة.

- سيّدي البارون إذًا يريد أن يذهب إلى...

- إلى الفندق.

قال الدّليلُ للحوذيّ: - كازا باستريني.

فانطلقت العربةُ مسرعةً، وما هي إلا عشر دقائق حتّى كان البارون في جناحه، بينما استقرّ بيبينو على المقعد الملاصق لواجهة الفندق، وبعدما همس بكلماتٍ في أذن أحد أولئك الفتيان المنحدرين من نسل ماريوس وآل غراشيوس الذين ذكرناهم في بداية هذا الفصل، اتّخذ طريق الكابيتول مسرعًا على قدميه.

كان دانغلار متعَبًا، وراضيًا، ونعسانَ. فوضع محفظته تحت وسادته ونامَ. وأثناء ذلك كان لدى بيبينو فسحةٌ من وقتٍ، فلعب لعبة لامورا[1]

---

(1) لعبة حظّ إيطالية قديمة: يبسط اللاعبان يمينيهما، ثمّ بسرعة يفردان أصبعًا منها أو أكثر ويصيحان برقم من واحد إلى عشرة، والفائز من يخمّن الرّقم الصّحيح.

مع بعض العتّالين، وخسر ثلاث ذهبيّاتٍ، ولكي يسلوَ خسارته شرب دورقًا من نبيذ أورفييتي.

وفي اليوم التّالي استيقظ دانغلار متأخّرًا، وإن نام مبكرًا؛ منذ خمس ليالٍ أو ستٍ لم ينم نومًا جيّدًا، هذا إن نام أصلًا. تناول طعامًا كثيرًا على الفطور؛ ولم يكن يبالي بأن يزور أعاجيبَ المدينةِ الخالدةِ، كما صرّح بنفسه، فطلب أن تجهّز خيول المراسلة لمنتصف النّهار. غير أنّ دانغلار لم يحسب حساب شكليات الشّرطةِ وكسلِ مسؤول المراسلة. فلم تصل الخيول إلا في السّاعة الثانية، ولم يأته الدَّليل بجواز السّفر مختومًا إلا في الثالثة.

وقد جذبت كلّ تلك التحضيرات عددًا من المتسكّعين إلى باب فندق باستريني. ولم يكن الجمع الذي اجتمع يخلو من نسل ماريوس وآل غراشيوس. وقد اخترق البارون مظفّرًا تلك الزُّمرَ التي اجتمعت تناديه يا صاحب السّعادة، لكي تحصل على بقشيش بضعة باجّاكوات[1]. وبما أنّ دانغلار، وهو الرّجل الشّعبيّ كما عرفنا، قد اكتفى حتّى اللّحظة بأن خلع على نفسه لقب بارون، ولم يسبق قطُّ أن نودي بصاحب السّعادة، فقد داعب اللّقبُ غرورَه، فوزّع نحو دستة قطع من فئةٍ بولس على أولئك الأوغاد المستعدّين مقابل دستة أخرى أن ينادوه يا صاحب السموّ.

سأل الحوذيُّ بالإيطالية: - أيّ طريق؟

فأجابه البارون: - طريق أنكونا.

ترجم المايسترو باستريني للسّائل والمجيب، فانطلقت العربة ركضًا. وكان البارون بالفعل يريد أن يعرّج على البندقيّة، فيأخذ منها قسمًا من ثروته، ثمّ منها إلى فيينا، حيث يكمل ما تبقّى. ونيّته الاستقرار في المدينة الأخيرة التي وُصِفت له باعتبارها مدينةَ مُتَع.

---

(1) باجّاكو، عملة إيطالية قديمة بخسة.

وما كاد يقطع ثلاثة فراسخ في ريف روما، حتّى بدأ اللّيل يرخي سدوله؛ ولم يكن دانغلار قد قدّر أنّه انطلق متأخّرًا، وإلاّ لمكث حتّى الغد؛ سأل الحوذيَ كم يلزمه من الوقت ليبلغ المدينة المقبلة، فأجابه الرّجلُ:

« *Non capisco* »[1].

هزّ دانغلار رأسه في إشارة معناها: «حسنًا!»، فواصلت العربة طريقها، وقال دانغلار نفسه: «سأتوقّف عند نقطة المراسلة المقبلة».

وكان دانغلار لا يزال يشعر ببعضٍ من الرّاحة التي أحسها أمس والتي منحته نومًا هانئًا. فكان أن تمطى بخمولٍ في عربته، وهي عربة كاليش إنجليزية جيّدة؛ كان يشعر بركض الحصانين يهدهده، وكان يعلم أنّ المراسلة على بعد سبعة فراسخ. ماذا يسع المرء أن يفعل حين يكون قد أعلن إفلاسه، لحسن حظّه؟

فكّر دانغلار لعشر دقائق في زوجته التي تركها في باريس، وعشر دقائق أُخرَ في ابنته التي تجوب العالم مع صديقتها الآنسة دارميلي، ثمّ عشر دقائق أيضًا لدائنيه وللطّريقة التي ينوي أن يصرف بها أموالَه. ثمّ لمّا لم يعُد لديه ما يفكّر فيه، أغمض عينيه ونامَ. على أنّه أحيانًا، حين تهتزّ العربة هزّةً أقوى من المعتاد، يفتح دانغلار للحظةٍ عينيه؛ فيشعر بنفسه لا يزال يسير بالسّرعة نفسها، وسط ريف روما الذي تملأه القنوات المكسورة الشّبيهة بعمالقةٍ من حجر الصوّان تركضُ مرعبة. لكنّ اللّيل كان باردًا، ومظلمًا، وممطرًا، فكان أفضل لرجلٍ شبه نائم أن يبقى مكوَّمًا داخل عربته، مغمضًا عينيه، من أن يُخرج رأسَه من النّافذة فيسألَ حوذيًّا لا يعرف جوابًا غير: *Non capisco*. واصل إذًا دانغلار نومَه قائلًا لنفسه إنّه سيستيقظ حين يصل نقطة المراسلة.

---

(1) بالإيطالية: لا أفهم.

ثمّ توقّفت العربة؛ فظنَّ دانغلار أنّه قد بلغ غايتَه المنشودةَ. فتح عينيه، ونظر عبر زجاج النّافذة، متوقّعًا أن يجد نفسه وسط مدينةٍ من المدن، أو على الأقلّ وسط قريةٍ؛ لكنّه لم يرَ إلا ما يشبه كوخًا معزولًا، وثلاثة رجالٍ أو أربعة يتحرّكون جيئةً وذهابًا كأشباح.

انتظر دانغلار لحظةً أن ينهي الحوذي إجراءات التسليم، فيأتي ليطالب بالأجرة؛ وكان المصرفيّ ينوي أن يستغلّ الفرصة فيستعلم عن السّائق الجديد، لكنّ الحصانين بُدِّلَا من غير أن يأتيَ من يسأل المسافر نقودًا. فتح دانغلار البوابة مندهشًا؛ لكنّ يدًا قويةً دفعته إلى الداخل، وانطلقت العربة.

مذهولًا، استفاق البارون تمامًا، وصاح بالحوذيّ: - إه! إه! *miocaro*[1] !

وكانت تلك أيضًا كلماتٍ ممّا تعلّمه دانغلار من قاموس الأغاني، أيّامَ كانت ابنته تغنّي في الصّالون مع أندريا كافالكانتي.

لكنّ الـ *miocaro* لم يحر جوابًا. فاكتفى دانغلار بأن فتح النّافذة، وأخرج رأسه منها قائلًا: - هِه، يا صديقي! إلى أين نحن ذاهبون؟

صاح به صوتٌ قويٌّ متسلّطٌ، مشفِعًا صيحته بحركة وعيد: Dentro[2] la testa ! .

فهم دانغلار أنّ Dentro la testa تعني «أدخل رأسَك». وها نحن نرى أنّه يحرز تقدّمًا في معرفته بالإيطالية. أطاع من غير أن يزايله القلق؛ وبما أنّ قلقه ما انفكّ يتعاظم لحظةً عن لحظةٍ، ما هي إلا دقائق حتى كان ذهنه قد فارق حال الفراغ التي ذكرناها من قبلُ، والتي بفضلها استطاع النّومَ طيلة الطّريق؛ قلنا إن ذهنه قد امتلأ بكَمٍّ من الخواطر تنافسُ كلٌّ

---

(1) يا عزيزي!
(2) أدخل رأسَك!

منها الأخرى في سلب النّوم من عين مسافرٍ، خاصّةً إذا ما كان المسافرُ في مثل وضعية دانغلار.

كسبت عيناه في الظّلمة تلك البراعة التي يكسبها المرء في أولى لحظات الانفعال الكبرى، ثمّ ما تلبث أن تخفت بعد أن تستهلك العينان طاقتهما. قبل أن يستولي علينا الخوفُ، نرى بقدراتنا العادية؛ وأثناء الخوف تتضاعفُ قدرتنا على الرّؤية؛ وبعد الخوف يتشوّش فينا البصرُ.

رأى دانغلار من النّافذة اليمنى رجلًا يرتدي معطفًا أزرق، يخبُّ على حصانه.

قال: - يبدو أنّهم رجال درك. فهل بلّغ عنّي التّلغراف الفرنسيّ السّلطات البابوية؟

قرّر أن يخرج من حال القلق، فسأل: - إلى أين تأخذونني؟

أجابه الصّوت نفسه، بالنّبرة المتوعّدة نفسها: Dentro la testa !

استدار دانغلار إلى النّافذة اليسرى: رجلٌ آخر يخبُّ على حصانه محاذيًا البوّابةَ اليسرى.

قال دانغلار والعرق يتفصّد من جبينه: «مؤكّدٌ أنّني وقعتُ».

تكوّم داخل عربته، وهذه المرّة ليس بغاية النّوم، وإنّما ليفكّر. لحظةً بعد ذلك، ارتفع القمر. ومن قعر عربته غاص المصرفيُّ بنظرته في الرّيف؛ فرأى تلك القنوات العظيمة، أشباحَ الحجر، التي كان قد لاحظها من قبل؛ غير أنّه هذه المرّةَ بدلًا من أن يراها عن يمينه، لمحها عن اليسار. أدرك أنّهم قد داروا على أعقابهم، وهم في طريق العودة إلى روما.

غمغم: «أوه! ما أتعسني! لقد وصل الأمر باعتقالي!».

واصلت العربة ركضها بسرعة مخيفة. ومرّت على المسافر ساعةٌ مرعبةٌ، إذ عند كلّ إشارةٍ جديدة يفصح عنها الطّريقُ، كان يستقرّ في نفسه اليقين بأنّهم عائدون به إلى نقطة انطلاقه. ثمّ رأى كتلةً سوداءَ خُيِّل إليه أنّ

العربة ستصطدم بها. لكنّ العربة انعطفت، فحادت الكتلة التي لم تكن إلا شريط الجدار الذي يلفُّ روما.

غمغم دانغلار: «أوه! أوه! لسنا ندخل إلى المدينة، وبالتّالي ليست السّلطة من يقتادني. إلهي! خاطرة أخرى... هل يكون...».

تصلّب شعره فوق رأسه. تذكّر تلك القصص المثيرة للفضول التي كانت تحكى عن العصابات الرومانية، الحكايات التي لا تلقى كبيرَ تصديقٍ عند الفرنسيّين، والتي حكى مغامرةً منها ألبير دو مورسيرف لزوجةِ المصرفيّ وابنته أيّامَ كان يفترض أن تتمّ المصاهرة بينهما. غمغم: «ربّما يكونون لصوصًا!». ثمّ فجأةً سارت العربة على أرضية أصلب من رمل طريق ريفيّة. نظر دانغلار إلى جانبَيّ الطّريق؛ رأى معالم غريبة الهيئةِ، فانشغل ذهنه بحكاية مورسيرف التي صار يتمثّلها الآن في كامل تفاصيلها، هجسَ له ذهنه بأنّه قد يكون على طريق أبيين.

عن شمال العربة، وسط ما يشبه الوادي، كانت حفرةٌ دائرية: إنّه مسرح كاركلّا.

بأمرٍ من الرّجل الذي كان يركب الحصان من جهة اليمين توقّفت العربة. وفي الآن نفسه فُتح بابُ العربة الأيسرُ.

صاح الصّوتُ الآمرُ: «Scendi[1] !».

نزل دانغلار في اللّحظة نفسها؛ ولم يكن قد تعلّم الحديث بالإيطالية بعد، لكنّه بات يفهمها. نظر حواليه، وحالُه أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. أربعةُ رجالٍ يحوطونَه، عدا الحوذيَ.

قال أحدُ الرّجالِ الأربعة: -«Di quà[2]»، وهو ينزل إلى دربٍ صغير يقود من طريق أبيِين وسطَ تضاريس ريف روما المتباينة. وتبعَ دانغلار

---

(1) - انزل!

(2) هنا.

دليلَه من غير اعتراض، ولم يكن يحتاج إلى أن يلتفت ليدرك أنّ ثلاثة رجالٍ يتبعونَه. على أنّه كان يبدو له أنّ أولئك الرّجال كانوا يتوقفون، ليقفوا كالخفر، على مسافات متساوية تقريبًا. وبعد نحو عشر دقائق من المشي، لم ينبس فيها دانغلار بكلمة، ألفى نفسَه بين تلٍّ وحزمة من عشبٍ مرتفع؛ ثلاثة رجالٍ صامتين واقفين في شكل مثلث وهو في مركزه.

أراد أن يتكلّم، لكنّ لسانَه تخشّب. وقال الصّوتُ الآمرُ نفسُه: «Avanti»[1].

وهذه المرّة فهم دانغلار فهمًا مضاعفًا. فهم بالكلام وبالإشارة، لأنّ الرّجل الموجود خلفه، لكزه إلى الأمام لكزةً حتّى كاد يصطدم بدليله. ولم يكن الدّليل غير صاحبنا بيبينو الذي توغّل في العشب العالي بانسيابية لا تقدر عليها إلا السّحالي وحيوانات خزّ الزّان. ثمّ توقّف بيبينو أمام صخرةٍ يعلوها دغل كثيف مرتفع؛ وانفتحت الصّخرة مثل جفن عينٍ، فكشفت عن ممرٍّ سلكه الشّابُّ، فاختفى فيها كما تختفي الشّياطين والعفاريت في سراديبها.

وبالصّوت والحركة دفع الواقفُ خلف دانغلار المصرفيَّ إلى أن يحذو حذو بيبينو. قُطع الشكُّ باليقين: إنّ المفلس الفرنسيّ في قبضة عصابة رومانية.

تصرَّف دانغلار تصرُّفَ الرّجل المحشور بين خطرين رهيبين، الرّجل الذي يصبغ عليه الخوفُ شجاعةً. وعلى الرّغم من بطنه غير الملائمة للتسلّل في تجاويف ريف روما، إلا أنّه دلف خلف بيبينو، وأسلم نفسه للانزلاقِ، مغمضًا عينيه، حتّى سقط على قدميه. فلمّا لامس الأرض، فتح عينيه.

كان الطّريق واسعًا وحالكًا. فلمّا أمِنَ بيبينو على نفسِه، إذ صار في

---

(1) هيّا.

مقرّه، أخرج قدّاحةً وأوقد شعلةً. وخلف دانغلار نزل رجلان آخران، مشكّلين حرسًا خلفيًا، يلكزانه، كلّما سوّلت له نفسه أن يتوقّف، حتّى بلغا به منحدرًا خفيفًا وسط مفترق طرقٍ كئيب المنظر. الحالُ أنّ حوائط الجدران التي حُفرت في شكل توابيت موضوعةٍ بعضها فوق بعض، تبدو وسط الأحجار البيضاء مثل عيونٍ مفتوحة سوداء، غائرةٍ كأعين الموتى.

ضرب خفيرٌ بقربينته ثلاث ضربات على يده، وصاح: - Qui vive؟

قال بيبينو: - صديق، صديق! أين القائد؟

قال الخفير: - إنه هنّا، وهو يشير من فوق كتفه إلى ما يشبه غرفةً واسعة نُحتت في الصّخر، وينعكس نورها في البهو عبر فتحات كبيرة مقوّسة.

قال بيبينو بالإيطالية: - فريسة طيّبة أيّها القائد، فريسة طيّبة.

ثمّ سحب دانغلار من ياقة معطفه، وساقه إلى فتحة شبيهة ببابٍ، ومنها يولج إلى غرفةٍ يبدو أنّ القائد قد اتّخذها مسكنًا.

قال الرّجل المنهمك بقراءة الفصل المخصّص لحياة الإسكندر في حيوات بلوتارك: - أهوَ رجُلُنا؟

- هو بعينه أيّها القائد، هو بعينه.

- حسنًا، أرنيه!

مطيعًا أمر قائده قرَّب بيبينو المشعل بغتةً من وجه دانغلار، حتّى إنّ المصرفيّ تراجع بسرعة مخافةَ أن يُحرق حاجباه. وكان وجهه المصدوم يعكس كلّ أعراض الرّعب الشّاحب الشّنيع.

قال القائد: - إنّ هذا الرّجل متعَبٌ، فخذوه إلى سريره.

غمغم دانغلار: - لا بدّ أنّ هذا السّرير أحد التوابيت المحفورة في الجدار؛ والنّوم المقصود هو الموت الذي سيذيقني إيّاه نصلٌ من الأنصال التي أراها تبرق في الظّلام.

وبالفعل، من الأعماق المظلمة للقاعة الفسيحة، كان يُرى على

مفارش من عشبٍ جافٍّ أو جلود ذئاب، رفاقُ الرّجلِ الذي كان ألبير دو مورسيرف قد وجده يقرأ «تعليقات قيصر»، واليوم يجده دانغلار يقرأ حياة الإسكندر.

أطلق المصرفيّ أنّةً مكتومة، ثمّ تبع دليلَه. لم يحاول أن يصليَ ولا أن يصرخ. إذ لم يكن يحوز لذلك القوّة، ولا الإرادة، ولا الطّاقة، ولا الرّغبة؛ إنّما كان يسير لأنّه كان يُسحبُ. واصطدمت قدمه بدرجةٍ، فأدرك أنّه أمام درج، فأحنى رأسَه غريزيًا لكي لا يتهشّم جبينُه، فألفى نفسه في زنزانةٍ حُفرت في قلب الصّخر. كانت الزّنزانة نظيفةً وإن عاريةً، وجافّةً وإن جُعلت على مسافةٍ غائرةٍ تحت الأرض. وقد مُدَّ في ركن من أركان الزّنزانة سريرٌ من عشبٍ يابسٍ، غُطّيَ بجلود الماعز. فلّما رأى دانغلار السّرير، ظنّ أنّ فيها الإشارةً إلى خلاصه. غمغم: «أوه! حمدًا للربّ، إنّه فعلًا سرير!». وكانت تلك المرّة الثانية التي ينطق فيها اسم الربّ في غضون ساعةٍ واحدةٍ، وهو أمر لم يحدث منذ عشر سنين.

قال الدّليل: «Ecco[1]». ثمّ دفع دانغلار في زنزانته، وأغلق الباب خلفَه. وصرَّ قفلٌ: إنّ دانغلار سجين. وحتّى لو أنّه لم يُقفل عليه بقفل، فإنّه ينبغي أن يكون القدّيس بطرس، ومعه ملاكُ دليلٌ لكي يستطيع أن يخترق كلّ أولئك الحرس الذين يملأون خرائب مقبرة سان سباستيان، ويحرسون قائدهم الذي لا بدّ أن قراءنا قد عرفوا من يكون: لويجي فامبا. وكذلك دانغلار عرف المجرم الذي كان يرفض أن يصدّق في وجوده أيّامَ كان ألبير مورسيرف يحاول التّرويج له في فرنسا. ولم يعرف المصرفيُّ فامبا فحسب، وإنّما أيضًا الزنزانة التي كان قد حُبس فيها مورسيرف، والتي لا بدّ أنّها مقرّ استقبال الغرباء. عدا ذلك، كانت ثمّة ذكريات تعلّق فيها دانغلار بفرح، وأعادت له شيئًا من الطّمأنينة. فما دامت العصابة لم

---

(1) هنا.

تقتله من فوره، فلا بدّ أنّها لا تنوي قتله البتّة. لقد أوقفوه ليسرقوه، فلمّا لم يجدوا عنده إلا بضعة لويسيات، فقد أسروه ليطلبوا به فديةً. ويتذكّر أنّ مورسيرف دفع لهم نحو أربعة آلاف ذهبية؛ وبما أنّ مظهره أشدّ مهابة من مظهر مورسيرف فقد حدّد لنفسه فديةً قدرها ثمانية آلاف ذهبية. ثمانية آلاف ذهبية تساوي ثمانية وأربعين ألف جنيه. ممّا يعني أنّه سيظلّ يملك نحو خمسة ملايين وخمسين ألف فرنك. وبمبلغٍ كهذا سوف تكون أموره على ما يرام، حيثما حلّ.

فلمّا أن استقرّ في نفسه اليقين بأنّ أموره ستكون على ما يرام، إذ لم يسبق أبدًا أن طُلبت فديةً في رجل خمسةُ ملايين وخمسون ألفًا، فقد تمدّد في سريره، وبعدما تقلّب مرّةً أو مرّتين، نام بالهدوء الذي كان ينام به البطلُ الذي يقرأ لويجي حياتَه.

115

قائمة طعام لويجي فامبا

كلّ نوم، عدا ذلك الذي كان يخشاه دانغلار، لا بدّ أن يعقبه استيقاظٌ. وكذلك استيقظ دانغلار. وبالنّسبة إلى باريسيّ اعتاد حياةَ ستائر الحرير، والجدران المنجّدة بالمخمل، والعطور التي تتصاعد من خشب المدفأةِ، فإنّ الاستيقاظ في مغارة من حجر الطّباشير لا بدّ أن يكون بمثابة حلم مزعج. ولا بدّ أنّ دانغلار حين لمس ستائر الحائط المصنوعة من جلدً الماعز ظنَّ نفسَه في حلم وسط قبيلة الساموديك أو اللابيين[1]. لكن في مثل الملابسات التي كانً فيها دانغلار، كانت ثانيةٌ واحدة تكفي لينقلب أصلبُ الشّكوكِ يقينًا.

غمغم: «نعم، نعم، أنا في قبضة المجرم لويجي فامبا الذي حدّثنا عنه ألبير دو مورسيرف».

وكان أوّل ما قام به أن تنفّسَ بعمقٍ ليطمئنّ ما إذا كان مصابًا. وتلك طريقةٌ تعلّمها من دون كيخوته، الكتابَ الوحيد الذي، لن نقول إنّه قرأَه وإنّما، تعلّم منه فائدةً.

قال لنفسه: «كلّا، لم يصيبوني، ولا قتلوني، لكن ربّما سرقوني». فقلّب بسرعةٍ جيوبه. كانت جيوبه سليمةً لم تمسّ: لا تزال المائةُ لويسية التي خصّصها لسفره من روما إلى البندقية في مكانها بجيب سرواله الخلفيّ؛ والمحفظة التي تحوي رسالةَ المليون وخمسين ألف فرنك، لا تزال في مكانها، بجيب معطفه.

---

(1) الأولى قبيلة سيبيرية، والثانية قومية من شمال أوروبا.

«ما أعجبهم من مجرمين! لقد تركوا نقودي، ومحفظتي! يبدو كما قلت أمس، لا بدّ أنّهم سيطلبون فديةً! وقد تركوا أيضًا ساعتي! لننظر كم السّاعة الآن؟».

وكانت ساعة دانغلار، وهي تحفةٌ صنعها بريغي، التي عبّأها بعنايةٍ قبل انطلاقه أمس، تشير إلى الخامسة والنّصف صباحًا، ولولاها لظلّ دانغلار في شكٍّ تامٍّ من التّوقيت، إذ لم يكن النّور يدخل زنزانته.

هل ينبغي أن يستثير العصابة ليحصل على تفسير؟ أم ينتظر أن تأتيَ المبادرة منهم؟ كان الخيار الثاني هو الأسلمَ، فاختارَه دانغلار. انتظر حتّى منتصف النّهار. وأثناء ذلك كان قد وقف خفيرٌ يحرسُ باب زنزانته، وفي الثامنة عوّضه خفيرٌ آخر. وإذّاك انتاب دانغلار الفضول في أن يرى من يحرسُه. وكان قد لاحظ أنّ أشعة النّور، ليس نور الشّمس وإنّما نور المصباح، تتسلّل من شقوق الباب غير المحكمة، فدنا من إحدى تلك الشّقوق في اللحظة التي كان فيها الخفير يعبُّ جرعةً من ماءالحياة الذي فضلًا عن رائحة الزقّ المصنوع من جلد الماعز، كان ينزُّ برائحة أثارت غثيان دانغلار.

أطلق صوت تأفّفٍ وهو يتراجع إلى أقصى زنزانته. وعند منتصف النّهار ترك شاربُ ماء الحياة مكانَه لخفيرٍ آخرَ. وأثار الفضول مرةً أخرى دانغلار لرؤية حارسه، فدنا مجدّدًا من شقّ الباب. وكان الحارس هذه المرّة قاطع طريقٍ عظيمَ البدن، كأنّه جالوت، واسع العينين، غليظ الشّفتين، أفطس الأنف. شعره الأصهب ينسدل على كتفيه في ضفيرة مجدولة كالثعبان.

قال دانغلار: «أوه! أوه! هذا أشبه بالغول منه بالمخلوق البشريّ؛ في جميع الأحوال أنا شيخٌ مسنٌّ ومتصلبٌ؛ لحمٌ أبيض شائخٌ، لا يُستطعَمُ».

وكما نرى كان دانغلار لا يزال حاضر الذّهن ليمزح. ثمّ في اللّحظة نفسها، وكأنّما ليبرهن للمصرفيّ أنّه رجلٌ عاديٌّ كغيره، جلسَ الحارس

مقابل باب الزنزانة، وأخرج خبزًا أسمر وبصلًا وجبنًا، وشرع في التهام طعامه فورًا.

قال دانغلار وهو يلقي نظرةً من شقّ الباب على طعام قاطع الطّريق: «ليأخُذني الشّيطانُ إن كنت أعرف كيف يستطيع هؤلاء البشر تناول هذه القاذورات». ثم ذهب يجلس على جلود الماعز التي تذكّره برائحة ماء الحياة الذي كان يشربه الخفير السّابق. لكن عبثًا حاول دانغلار المقاومة، وإنّ للطّبيعة أسرارها التي لا تُفهمُ: ثمّة بلاغةٌ عجيبةٌ في بعض الدّعوات المادية التي توجّهها الأطعمةُ إلى معدة الجائع، مهما كانت درجة نفوره منها. لقد أحسّ دانغلار فجأةً بمعدته فارغةً، فبدا له الرّجلُ أقلَّ قُبحًا، والخبز أقلّ سمرةً، والجبن أشدَ طراوةً. ثمّ أخيرًا ذاك البصلُ النّيء، طعام المتوحّشينَ الفظيعُ، ذكّرَه بصلصة روبير الرّفيعة، وبعض الأطباق الجانبية التي كان يحضّرها له بإتقانٍ طبّاخُه، حين كان يقول له دانغلار: «سيّدي دينيزو، حضّر لي اليوم طبقًا طيّبًا شهيًّا»».

قام المصرفيُّ، ونقر على الباب. رفع قاطع الطّريق رأسَه. رأى دانغلار أنّ نقرَه يُسمع، فضاعفَه.

سأله الخفير: - Che cosa[1] ?.

قال دانغلار وهو ينقر بأصابعه على الباب: - يا صديق، يبدو لي أنّ الوقت حان لتفكّروا في إطعامي أنا أيضًا!

لكن، إمّا أنّ الماردَ لم يكن يفهم ما يقوله الأسير، أو أنّه لم يُصدر له أمرٌ بخصوص مسألة إطعامه، فلم يعره اهتمامًا وانكبّ مجدّدًا على طعامه. أحسّ دانغلار بكرامته تهانُ، ولم يرد أن يزيد في الاختلاط بالرّجل الفظّ، فعاد يتمدّد على جلود الماعز، ولم ينبس بكلمة بعدها.

مرّت أربع ساعاتٍ؛ واستُبدل الماردُ بخفير آخرَ. قام دانغلار ببطءٍ من

---

(1) ماذا هناك؟

مرقده، وهو يعاني وخزًا فظيعًا في المعدة، ووضع مرّةً أخرى أذنه على شقوق الباب، فتعرّف على وجه دليلِه الفطِن. كان بيبينو هو الخفير الذي يستعدُّ إلى أن يتسلّم مهمّة الحراسة، فجلس مقابلًا البابَ، واضعًا بين قدميه قِدر طينٍ تسطع منها، حارّةً ذكيّةً، رائحة الحمّص المقليّ باللّحم المقدّد. وبجانب القدر وضع بيبينو سلةً جميلةً من عنب فيليتي، ودورقًا من نبيذ أورفييتي. واضحٌ أنّ بيبينو كان ذوّاقةً.

لمّا رأى دانغلار تحضيرات مائدة بيبينو، تحلّبَ فمه. فكّر: «آه! آه! لنرَ ما إذا كان هذا أيسر انقيادًا من الآخر».

وطرق الباب بلطفٍ. فقال قاطع الطّريق الذي لفرط ما تردّدَ على فندق المايسترو باستريني، انتهى به المطاف إلى تعلّم الفرنسية حتى أخصِّ لهجاتِها: - قادمون!

وبالفعل قام الرّجلُ ففتح البابَ. وعرف دانغلار أنّه الرّجل الذي كان قد صاح فيه «أدخِل رأسَك!»، لكنّ الوقت لم يكن وقتَ عتابٍ. لا بل إنّ دانغلار اتّخذ سحنتَه الأشد لُطفًا، وبابتسامةٍ لطيفة قال:

- عفوًا يا سيّدي، لكن، ألن تعطونني أنا أيضًا عشاءً؟

صاح بيبينو: - كيف ذلك! أيكونُ صاحبُ السّعادة جائعًا؟

غمغم دانغلار: «أيكون؟»، سؤالٌ لطيف! الحقُّ أنّني لم أذُق طعامًا منذ أربع وعشرين ساعة! (ثمّ أضاف رافعًا صوتَه) بلى يا سيّدي إنّني جائعٌ، بلّ ميّتٌ من الجوع.

- وهل يريد صاحب السّعادة أن يأكل؟

- في الوقت والحين، إن كان ذلك ممكنًا.

قال بيبينو: - لا شيءَ أيسرُ؛ هنا يحصلُ المرء على ما يريد، شرطَ أن يدفعَ، والحالُ أنّ هذا ما يحدث عند جميع المسيحيّين الشّرفاء!

صاح دانغلار: - هذا من البيّن بنفسه! وإن كان الحقُّ أنّ طعامَ الأسيرِ واجبٌ على من يأسرُه.

استأنف بيبينو: - آه! ليست هذه عادتُنا.

أجاب دانغلار محاولًا التودّد إلى حارسه: - هذا سببٌ غير مقنع، ومع ذلك سأكتفي به. حسنًا، فليُقدّم لي الطّعامُ.

- في الوقت والحين؛ ماذا يشتهي صاحب السّعادة؟

ووضع بيبينو صحنه أرضًا بحيث صعد ريحُه فورًا إلى منخارَي دانغلار. ثمّ أضاف: - مُرنا!

سأله المصرفيّ: - عندكم مطابخ هنا إذًا؟

- مطابخ، وأيّ مطابخ! من أفخم ما يكون.

- وطُهاةٌ؟

- من أرفع الطّهاة!

- حسنًا، دجاجٌ، أو سمك، أو لحم طرائد، أيّ شيء، المهمّ أن آكُل!

- كما تشتهي يا صاحب السّعادة؛ لنقُل دجاجةً إذًا؟

- نعم، دجاجة.

انتصب بيبينو واقفًا، وصاح ملءَ رئتيه:

«دجاجةٌ لصاحب السّعادة!».

وقبل أن ينطفئ صدى صوت بيبينو، ظهر فتىً، حسنُ الوجه، ظريفُ القدّ، نصف عارٍ، شبيه بالتماثيل العتيقة التي تصور حملةَ أسماكٍ؛ وكان يحمل فوق رأسه، دون استعمال يديه، دجاجةً في طبقٍ فضّيّ.

غمغم دانغلار: «إنّ المرءَ ليخالُ نفسَه في **مقهى باريس**».

أخذ بيبينو الدّجاجة من يدَي قاطع الطّريق الصّغير، ووضعها على طاولةٍ قرمزيةٍ تشكّل هي ومقعد صغير والسّرير المصنوع من الجلد كلَّ أثاث الزنزانة.

طلب دانغلار سكّينًا وشوكة.

قال بيبينو: - تفضّل يا صاحب السّعادة!

ومدّ للمصرفيّ سكّينًا ثلمةً وشوكة من خشب.

تناول دانغلار السكّين بيدٍ، والشّوكة بالأخرى، وهمّ بقطع الدّجاجة. لكنّ بيبينو وضع يده على كتفه، وقال: - عذرًا يا صاحب السّعادة؛ هنا ندفع قبل أن نأكل؛ فقد لا يعجبُ الزّبونَ الطّعامُ...

قال دانغلار: «آه! آه! الأمر مختلف عمَّ يحدث في باريس، هذا من دون أن أغفل أنّهم على الأرجح سيسلخون جلدي فيما يتعلّقُ بالسّعر؛ لكن لنفعل الأشياء برفعة. حسنًا، لطالما سمعتُ عن رخص المعيشة في إيطاليا. يُفترض أنّ سعر دجاجةٍ في روما اثني عشر سنتًا». (ثمّ أضاف رافعًا صوتَه وهو يلقي إلى بيبينو بلويسيّة): - هاك!

انحنى بيبينو يلتقط اللويسية، وأدنى دانغلار السكّين من الدّجاجة.

قال بيبينو وهو يرفع رأسَه: - لحظة يا صاحب السّعادة؛ لا تزال مدينًا لي.

غمغم دانغلار: - ألَم أقل إنّهم سيسلخون جلدي!

ثمّ عازمًا على أن يخوض المساومة قال: - حسنًا، بكم أدين لك نظير هذه الدّجاجة المباركة؟

- لقد أعطاني صاحب السّعادة لويسية تحت الحساب!

- لويسية تحت الحسابِ، مقابل دجاجة؟

- بكلّ تأكيد، تحت الحساب.

- حسنًا... هيا! هيا!

- لست مدينًا لي يا صاحب السّعادة إلا بأربعة آلاف وتسعمائة وتسعة وتسعين لويسية.

جحظ دانغلار مذهولًا من هول الدّعابة.

غمغم: «الحقّ أنّها دعابةٌ طريفة!».

وأراد أن يعود إلى تقطيع الدّجاجة؛ لكنّ يد بيبينو اليسرى، أوقفت يدَه اليمنى، وبسط له كفّ يده الأخرى.

قال: - هيّا!

قال دانغلار: - ماذا! ألم تكن تمزح؟

أجابه بيبينو بجدّية كواكر[1]: - نحن لا نمزح هنا!

- كيف! مائة ألف فرنك مقابل دجاجة!

- يا صاحب السّعادة؛ لا تتخيّل حجم الجهد الذي تكلّفنا إيّاهُ تربيةُ الدّواجن في هذه المغاور الملعونة!

قال دانغلار: - حسنًا! أرى أنّك ظريفٌ، وتحسن الدّعابة؛ لكنّني جائعٌ وأريد أن آكُل، فهاك لويسيةً أخرى يا صديقي، ودعني أتناول طعامي.

قال بيبينو بنفس النّبرة الباردة: - هكذا لن تكون مدينًا لي إلا بأربعةِ آلاف وتسعمائة وثمانية وتسعين لويسيّة؛ صبرًا إذًا، لا بدّ أن نصل إلى المبلغ المطلوب.

قال دانغلار متمرّدًا على إصرار الرّجل أن يسخر منه: - أوه! إن كان الأمر هكذا، فاذهب إلى الجحيم! أنت لا تعرفُ مع من تتحدّث!

أشار بيبينو إشارةً، فمد الصبيُّ ذراعيه، وحمل الصّحن بسرعة؛ وارتمى دانغلار على سرير جلد الماعز؛ وأغلق بيبينو الزّنزانة، وانكفأ على قِدره يأكل الحمّصَ واللّحم المقدّد. لم يكن دانغلار يرى ما يفعله بيبينو، لكن من قرقعة أسنانه كان يستطيع أن يتخيّل أيّ نشاطٍ انخرط فيه الرّجل. واضح أنّه يأكل، لا بل يأكلُ بصوتٍ ضاج، مثلما يأكل رجلٌ غير مهذّب.

قال دانغلار: - بهيمٌ! وتظاهر بيبينوٌ بأنّه لم يسمع، وواصل الأكل ببطءٍ، من غير أن يلتفت. أحسّ دانغلار بمعدته مثقوبةً مثل برميل الدينايدات[2]، حتّى إنّه صار يشكّ في أنّها لن تمتلئ أبدًا. ومع ذلك صبر نصف ساعةٍ أخرى؛ لكن والحقُّ يقالُ، مرّت عليه نصف ساعةٍ كأنّها قرن. ثمّ قام مرّةً أخرى وقصد البابَ مجدّدًا.

---

(1) عضو جماعة «مجتمع الأصدقاء الدّيني» وهي طائفةٌ إنجيلية.

(2) في الميثولوجيا اليونانية، هنّ بنات الملك داناووس، وعددهنّ خمسون، حُكم عليهن في الجحيم بأن يقضين الأبدية في ملء برميل مثقوب.

قال: - سيّدي، لا تُطل انتظاري، وقُل لي فورًا ماذا تريدون منّي؟

- بل يا صاحب السّعادة، قُل بالأحرى ماذا تريد منّا أنت... آمِر، ونحنُ نطيع.

- حسنًا، افتح لي البابَ أوّلًا.

فتح بيبينو الباب.

قال دانغلار: - أريد أن آكل بحقّ السّماء!

- هل أنت جائع؟

- أنت تعرف أنني جائع.

- ماذا يشتهي سيّدي؟

- كسرة خُبزٍ يابسة، ما دام سعرُ الدّجاج في هذه الكهوف ليس في المتناول.

قال بيبنو: - خبز! ليكن!

ثمّ صاح: «هِه! هات خبزًا».

أحضر الفتى كسرة خُبز.

قال بيبنو: - تفضّل!

سأله دانغلار: - كم سعره؟

- أربعة آلاف وتسعمائة وثمانية وتسعون لويسية، ما دمتَ قد دفعتَ لويسيّتين مسبقًا.

- ماذا! خبزٌ بمائة ألف فرنك؟

قال بيبينو: - مائة ألف فرنك.

- لكنّ دجاجةً كاملةً تساوي مائة ألف فرنك!

- نحن لا نقدّم لائحة أسعارٍ بحسب الأطعمة، وإنّما وجبةً بسعر ثابت. سواء أكلت القليل أو أكلتَ الكثير، أو طلبت عشرة أطباقٍ أو طبقًا واحدًا: السّعرُ نفسُه دائمًا.

- ما زلت تمزح يا صديقي! أعترف لك أنّه مزاح سخيف، وبليد! قُل لي فورًا إنّك تريدني أن أموت جوعًا، واختصر علينا الطّريق!

- كلاّ يا صاحب السّعادة؛ أنت من تريد أن تنتحر. ادفَع، وكُل.

قال دانغلار يائسًا: - وبمَ أدفعُ أيّها البهيمة؟ هل تظنُّ أنّ المرء يحمل مائة ألف فرنك في جيبه؟

قال بيبينو: - لديك خمسة ملايين وخمسون ألف فرنك في جيبك يا صاحب السّعادة؛ هذا يعني أنّك تستطيع أن تحصل على خمسين دجاجةً، كل منها بمائة ألف فرنك، ونزيدك نصف دجاجة بخمسين ألفًا.

ارتجف دانغلار؛ زالت الغشاوة عن عينيه. إنّها بالفعل مزحة، لكنّه أخيرًا فهمها. والحقّ أنه الآن لا يراها مبتَذَلة.

قال: - حسنًا، حسنًا: إن أعطيتُك المائة ألف فرنك، فهل تتركني على الأقلّ أتناول طعامي هانئًا؟

قال بيبينو: - بكلّ تأكيد.

قال دانغلار وهو يتنفّس براحةٍ أكبر: - لكن، كيف أعطيك النّقود؟

- لا شيء أبسط من ذلك؛ لديك رصيد مفتوح عند مؤسّسة السيّدين **طومسون وفرانش**، الواقع في شاع بانكي بروما. أعطني وصلًا بأربعة آلاف وتسعمائة وثمانية وتسعين لويسية، باسم المؤسّسة المعلومة، وسوف يأخذه من عندنا مصرفيّنا.

أراد دانغلار على الأقلّ أن يبين عن حسن نيّته؛ فتناول القلم الذي مدّه إليه بيبينو، وكتب الوصل ثمّ وقّعه.

قال: - خُذ، هذا وصلٌ لحامله.

- وأنت، تفضّل دجاجتك.

قطّع دانغلار الدّجاجة متنهّدًا: بدت له هزيلةً جدًا، قياسًا إلى ثمنها. أمّا بيبينو، فقرأ الورقة بعناية، ثمّ وضعها في جيبه، وواصل تناول حمّصه.

116

الغفران

في اليومِ التّالي جاعَ دانغلار مجدّدًا، فقد كان جوّ المغارة يفتح الشهيّة؛ وظنَّ السّجين أنّه لن يضطرّ هذه المرّة إلى الإنفاق ليأكل؛ إذ لما عُرف عنه من حرص، فقد أخفى في ركنٍ من زنزانته نصفَ دجاجته، وقطعةً من خُبزه. لكنّه ما كاد يأكلُ، حتّى لحِقه العطش: لم يكن قد حسب حساب هذا الأمر. قاوم العطش حتّى صار يحسّ لسانه الجافَّ يلتصق بأعلى حلقه. فلمّا لم يعد يستطيعُ للنّارِ التي تلتهمُه مقاومةً، فقد نادى الخفير. فتح الخفير الزنزانة وأطلّ بوجه جديد. قدّرَ دانغلار أنّ الأفضل له أن يتعامل مع وجه سبق أن جمعه به تعامُلٌ من قبل، فنادى بيبينو.

لبّى قاطع الطّريق النّداء بسرعةٍ استبشر بها دانغلار. قال بيبينو: - ها أناذا يا صاحب السّعادة، ماذا تشتهي؟

أجاب الأسير: - أريد أن أشرب.

قال بيبينو: يا صاحب السّعادة، أنت تعرف أنّ النبيذ في أرباض روما باهظ الثّمن...

قال دانغلار محاولًا تفاديَ المزيد من الجدال: - أعطِني ماءً إذًا.

- أوه! إنّ الماء يا صاحب السّعادة أغلى من النّبيذ، فقد ضربَنا جفافٌ كبير!

قال دانغلار: - يبدو إذًا أنّنا سنعيد سيرتَنا الأولى!

وعلى الرّغم من ابتسامته التي قصد بها اتّخاذ سحنة الدّعابة، إلاّ أنّ الشقيَّ كان يحسُّ بالعرق ينزل باردًا في قفاه. ولمّا رأى بيبينو جامدًا لا يتحرّك، بادره:

– طيّب يا صديقي، أنا أسألك كأسَ نبيذٍ، فهل تبخل عليّ به؟

أجابه بيبينو بجديّة: – لقد أخبرتك من قبل يا سيّدي، أنّنا نبيع بالجملة لا بالتّقسيط.

– حسنًا إذًا، هات قنينةً.

– من أيّ نبيذٍ؟

– الأرخص.

– كلاهُما بنفس السّعر.

– وكم ثمن القنينة؟

– خمسةٌ وعشرون ألفَ فرنك.

صاح دانغلار بمرارة إن قِيست على سلّم الأصواتِ، فلن تجد من يقدر على تأدية مثلها إلا أرباغون[1]: – قُل إنّكم تريدون سلبي أموالي، وسيكون أيسر من التهامي قطعةً قطعة كما تفعلون الآن.

قال بيبينو: – وارد أن تكون هذه نيّة المعلّم.

– المعلّم! ومن يكون هذا؟

– ذاك الذي اقتدناك إليه أوّل من أمس.

– وأين هو؟

– هنا.

– دعني أقابله.

– أمرك مطاع.

وما هي إلا لحظةٌ حتّى كان لويجي فامبا واقفًا أمام دانغلار.

سأل القائدُ الأسيرَ: – هل طلبتني؟

– هل أنت يا سيّدي قائدُ الجماعة التي اقتادتني إلى هنا؟

– نعم يا صاحب السّعادة.

(1) شخصية البخيل، بطل مسرحية «البخيل» لموليير.

- كم تريد فديةً منّي؟ قُل.
- ببساطة، الخمسة ملايين التي تحملها معك.
أحسّ دانغلار بانقباض رهيب يستولي على قلبه.
قال: - هي كلّ ما أملك يا سيّدي؛ وهي بقيّةٌ من ثروةٍ هائلةٍ، فإن أخذتَها منّي، فالأولى أن تأخُذ معها حياتي.
- محرّمٌ علينا دمُك يا صاحب السّعادة.
- ومن حرّمه.
- حرّمه من ندينُ له بالطّاعة.
- لديكم قائدٌ إذًا؟
- نعم، لدينا رئيس.
- ظننتُك أنت الرّئيس؟
- أنا رئيسُ هؤلاء النّاس، لكن أنا نفسي لي رئيسٌ.
- وهذا الرّئيس، هل فوقَه رئيسٌ؟
- نعم.
- من؟
- الربّ.
ظلّ دانغلار يتفكّرُ لحظةً؛ ثمّ قال: - لا أفهم.
- ممكن.
- وهذا الرّئيس هو من قال لكم أن تعاملوني على هذا النّحو؟
- نعم.
- وما غايته؟
- لا أدري.
- لكن هكذا سأفقد كلّ مالي.
- وارد.
قال دانغلار: - حسنًا، لنرَ، هل تريد مليونًا؟

- لا.

- مليونين؟

- لا.

- ثلاثةً.. أربعة... أعطيك أربعة ملايين شرط أن تتركني أرحل.

- لِمَ تعرض علينا أربعة ملايين مقابل ما يساوي خمسة؟ أليس هذا رِبًا، أم إنّني مخطئٌ يا حضرة المصرفيّ؟

صاح دانغلار: - خذوا كلّ شيء! خذوا كلّ شيء! واقتلوني!

- مهلًا، مهلًا، اهدأ يا صاحب السّعادة؛ ستهيّجُ دمَك، فتنفتح شهيّتك إلى درجة أنّك قد تطلب طعامًا بمليون فرنك في اليوم؛ اقتصد يا ملعون!

صاح دانغلار قانطًا: - وحين لا يبقى لديَّ مالٌ لأدفع!

- آنذاك ستجوع.

قال دانغلار شاحبًا: - سوف أجوع؟

أجابه فامبا ببرودٍ: - مرجّح.

- لكنّك قلت إنّكم لا تريدون قتلي؟

- كلاّ لا نريد.

- وتريدون تركي أموت جوعًا؟

- هذا أمرٌ مختلف.

صاح دانغلار: - حسنًا إذًا أيّها الحقراء! سوف أهدم خطّتكم الشّنيعة! إن كان لا بدّ من الموت، فلننهِ الأمرَ الآن! عذّبوني، نكّلوا بي، اقتلوني، لكن أبدًا لن تحصلوا على توقيعي!

قال فامبا: - كما تشاء يا صاحب السّعادة.

ثمّ غادر الزّنزانة. وارتمى دانغلار على جلود الماعز مزمجرًا.

من هؤلاء النّاس؟ ومن رئيسهم الخفيّ؟ وماذا يحضّرون له؟ ولم هو دونَ الخلق لا يستطيع أن يفتديَ نفسَه؟ أوه! قطعًا إنّ الموتَ، موتًا عنيفًا مباغتًا، أداةٌ جيّدةٌ لخداع أعدائه الألدّاء الذين يبدو أنّهم يتكالبون عليه

بانتقام غير مفهوم. لكن، أن يموت! ربّما تكون هذه المرّة الأولى التي يفكّر فيها دانغلار في الموت بهذا القدر من الرّغبة والرّهبة في آن! لكن المؤكّد أنّ الوقت قد حان ليتفكّر في الطّيف الذي يسكنُ كلًّا منّا، ويقول له مع كلّ نبضةٍ: سوف تموت!

إنّ دانغلار في وضعٍ شبيه بوضع تلك الطرائد التي يحرّكها الصّيادُ، ثمّ ييئّسُها، وبعد اليأسِ يحدثُ أن تنجو. وقد صار دانغلار إلى التفكير في الهروب. لكنّ الزّنزانة قُدّت في الصّخر نفسِه، والباب الوحيد الذي يمكن الخروجُ منه، يحرسُه على الدّوام خفيرٌ، وخلف الخفير تُرى باستمرارٍ أشباحٌ تتحرّكُ مسلّحةً ببنادق.

وقد استمرّ إصراره على عدم التوقيع، يومين، ثمّ في اليوم الثالث، طلب طعامًا، ودفع مليونًا. قدّموا له عشاءً طيّبًا، وأخذوا مليونًا. ومن يومها صارت حياة السّجين التّعيس ذهولًا لا ينقطع. لقد عانى شدّةَ الألم، حتّى ما عاد يريد أن يجرّب المعاناة، فصار ينصاع إلى كلّ مطالب آسريه، من غير اعتراض. وبعد اثنتي عشر يومًا، ظهيرةَ يوم تعشّى فيه عشاءً يشابه ما كان يتناولُه أيّامَ عزّه، قامَ بحساباته، فانتبه إلى أنّه قد أعطى من الوصولات لحامله، حتّى ما عاد يملك غير خمسين ألف فرنك. وإذّاك حدث ردّ فعلٍ غريب: إنّ الرّجل الذي تخلّى عن خمسة ملايين، حاول أن يحافظ على الخمسين ألفًا التي بقيت عندَه؛ وبدلًا من أن يفرّط في الخمسين ألفًا، قرّرَ أن ينهج حياة تقشّفٍ، وكانت تشرقُ عليه لحظاتُ أملٍ تتاخمُ الجنونَ! هو الذي ما عاد يفكّر في الربّ منذ أمد بعيدٍ، صار يفكّر الآن في معجزاته: قد يتهدّم الكهفُ؛ قد تكتشف شرطةُ البابويةِ هذا الملجأ الملعونَ، فينقذونه من بين أيادي العصابة؛ وإذّاك سيكون معه خمسون ألف فرنك؛ وإنّه لمبلغٌ كافٍ ليقيَ المرءَ الجوعَ؛ صلّى للربّ أن يحفظَ له الخمسين ألفَ فرنك، وبكى في الصّلاة.

ومضت عليه ثلاثةُ أيّامٍ لم يفارق فيها اسمُ الربِّ قلبَه، أو على الأقلّ

شفتيه؛ وبين الفينة والأخرى كانت تأتيه حالات هذيانٍ يتوهّم فيها أنّه يرى من النّوافذ، في غرفةٍ فقيرة، شيخًا يحتضر على نقّالةٍ. وكان الشّيخُ أيضًا يموت جوعًا.

ثمّ في اليوم الرّابع، لم يعُد إنسانًا، وإنّما جثّةً حيّةً؛ كان قد التقط كلّ الفتات الذي تساقط عن ولائمه السّابقة، وصار إلى نهش الحصير الذي يغطّي الأرضية. وإذّاك أخذ يتوسّل إلى بيبينو، كما يُتوسَّلُ إلى ملاكٍ، أن يعطيَه قليلًا من الطّعام، وعرض عليه ألف فرنكٍ مقابل لقمةٍ من خبز. لكنّ بيبينو لم يُجب. وفي اليوم الخامس، جرجر نفسَه حتّى مدخل الزنزانة، وقال جاثيًا على ركبتيه: - أنت إذًا لست مسيحيًا مؤمنًا، كيف ترضى أن تقتل أخاك في الدّين؟ ثمّ أضاف مغمغمًا: «أوه! يا أصدقائي القدامى، يا أصدقائي القدامى!». وهوى على وجهه. ثمّ رفع رأسَه في ضرب من القنوط، وصاح: - القائد! أريد القائد!

وبغتةً برز فامبا، قائلًا: - ها أناذا! ماذا تشتهي أيضًا.

تمتم مادًّا محفظته: - خُذوا ما تبقّى من مالي، واتركوني أعيش في هذه المغارة! ما عدتُ أطلب الحريّة، لا أسألكم إلا العيش.

سأله فامبا: - أنت إذًا تتألّم حقًا؟

- أوه! نعم، أتألّم، ألمًا وحشيًا!

- مع أنّ ثمّةَ أناسًا تألّموا أكثر منك.

- لا أظنّ.

- بلى! النّاس الذين ماتوا من الجوع.

فكّر دانغلار في الشّيخ الذي كان يراه، في لحظات هذيانه، من نافذة غرفته يئنُّ على فراشه. فضرب الأرض بجبينه مُطلقًا أنينًا.

قال: - بلى، ثمّة بالفعل من تألموا أكثر منّي، لكن هؤلاء على الأقلّ كانوا شهداء.

قال صوتٌ مهيبٌ اقشعرَّ له شعرُ دانغلار: - هل تتوب على الأقلّ؟

حاول بنظره الواهن أن يميّز الأشياء، فاستطاع أن يبصر في ظلِّ عمودٍ صخريّ خلف فامبا هيئةَ رجلٍ متلفّع في معطف.

تمتم دانغلار: - ممّ ينبغي أن أتوب؟

أجابَه الصّوتُ: - من الشّرّ الذي اقترفتَه.

صاح دانغلار: - أوه! نعم! أتوب! أتوب!

وأخذ يضرب صدره بقبضته المهزولة.

قال الرّجلُ وهو ينضو عن نفسه معطفَه ويتحرّك خطوةً ليبرز في الضوء: - غفرتُ لك، إذًا.

قال دانغلار وقد تضاعف شحوبه بفعل الرّعب، أكثر ممّا كان شاحبًا بفعل الجوع والبؤس: - الكونت مونت كريستو؟

- أنت مخطئٌ؛ لستُ الكونت مونت كريستو.

- ومن أنت إذًا؟

- أنا الرّجل الذي بعتَهُ، الرّجلُ الذي سلّمتَه ولطّختَ شرفه؛ الرّجل الذي دفعت بخطيبته إلى أحضان العهر؛ الرّجل الذي سِرت على جسده لترتفع حتّى قمم ثروتك؛ أنا من قتلتَ أباهُ جوعًا، وحكمت عليه بأن يموت جوعًا، ومع ذلك يغفر لك، لأنّه هو أيضًا يحتاج الغفران: أنا إدمون دانتِس!

لم يطلق دانغلارُ إلا صيحةً وخرّ مسحوقًا.

قال الكونت: - انهض! لا تزالُ حيًّا، وهو حظٌّ لم يصبهُ شريكاك، فأحدهما مات والآخرُ جُنّ! احتفظ بالخمسين ألفًا الباقية، فأنا أهبك إيّاها؛ أمّا الملايين الخمسة التي سرقتها من المؤسّسات الخيرية، فقد قضَتها عنكَ يدٌ مجهولةٌ. والآن، كُل واشرب؛ فاللّيلة أنت ضيفي. (ثمّ توجّه إلى القائد) فامبا! حين يستعيد هذا الرّجلُ انتعاشَه، أطلق سراحه.

ظلّ دانغلار خائرًا، بينما يبتعد الكونت؛ وحين رفع عينيه لم يبصر إلا خيالًا يحتفي في الرّواق، وأمامه ينحني رجال العصابة.

ثمّ كان ما أمرَ به الكونت: قدّم فامبا الطّعام بنفسه لدانغلار، فحمل إليه أرفعَ نبيذ، وأطيب فواكه إيطاليا، ثمّ أركبه في عربة المراسلة، وتركه على الطّريق مستندًا إلى شجرة. وظلّ هناك حتّى مطلع النّهار، لا يدري أين هو. فلمّا أشرق عليه الصّبحُ أبصر جدولًا قريبًا، وكان عطشانَ، فجرّ نفسَه حتّى بلغ الماء. فلمّا انحنى ليشربَ، أبصر صورتَه في الماء، فانتبه إلى أنّ شعره قد ابيضَّ.

117

5 أكتوبر

كانت السّاعةُ تشير إلى السّادسة تقريبًا، مساءَ يوم صافٍ كحجر الأوبال، تشرق عليه شمسٌ خريفيةٌ ساطعةٌ بأشعّتها الذّهبية التي تسقط من السّماء في مياه البحر الزّرقاء. وكانت الحرارةُ قد انخفضت تدريجيًا، وبدأ يهبُّ نسيمٌ خفيفٌ يبدو كأنّه أنفاسُ الطّبيعة، تستعيدُها بعد أن استفاقت من قيلولة الظّهيرة القائظة؛ أنفاسٌ عذبةٌ تنعش سواحل المتوسّط، وتحملُ من ضفّة إلى أخرى عطور الأشجار يخالطُها ريحُ البحر الحرّيفُ.

وعلى هذه البحيرة الواسعة الممتدّة من جبل طارق إلى مضيق الدّردنيل، ومن مدينة تونس إلى البندقية، كان ثمّة يختٌ رشيقٌ، أنيق الشّكل، يخترق أولى أبخرة المساء. حركتُه أشبهُ شيءٍ بالبجعة التي تفتح جناحيها للرّيح، وتبدو كأنّها ستغطس في الماء. كان يتقدّم سريعًا ورشيقًا في آن، تاركًا خلفهُ أخدودًا مشعًا كالفُسفور.

وشيئًا فشيئًا بدأت الشّمسُ التي ودّعنا أشعّتها الأخيرةَ، تميلُ حتّى غابت في الأفق الغربيّ؛ لكن، كأنّما لتضفي مشروعيّةً على أحلام الميثولوجيا البرّاقة، عادت أضواؤها الخافتة لتظهرَ على ذرى كلّ موجةٍ؛ فيبدو كأنّما إله النّيران، أتى يلوذ بحضن إلهة البحر، أمفتريت، وهي تسعى سدىً إلى أن تُخفيَ عشيقَها في تضاعيف معطفها اللازوردي. وكان اليختُ يتقدّمُ سريعًا، مع أنّ الظّاهرَ أنّ الجوَّ كان ساكنًا، وبالكاد ثمّة من الرّيح ما يكفي لرفرفة جديلةِ صبيّةٍ.

على قيدومِ اليختِ، كان رجلٌ طويل القامة، ذو بشرة برونزية، وعينٍ متّسعة، واقفًا يَنظر إلى اليابسة تقترب في شكل كتلةٍ مظلمةٍ مخروطيةٍ، وتبرزُ من وسط اللّجج مثل قبّعةٍ كتالانية هائلة.

- أهذه جزيرةُ مونت كريستو؟.

كان السائلُ مسافرًا يبدو أنّ اليختَ يسيرُ مؤقّتًا تحت إمرته، وقد بدا صوتُه مطبوعًا بحزنٍ عميق.

أجابه الرّبّانُ: - نعم يا صاحب السّعادة، أوشكنا على الوصول.

غمغم المسافرُ بنبرة كآبةٍ لا توصفُ: - نوشك أن نصل!

ثمّ أضاف بصوتٍ خافت: - نعم، هنا سيكون المرسى.

ثمّ عاد للغوص في خواطره التي كانت تترجمُ إلى ابتسامةٍ أشدَّ حزنًا من الدّموع. دقائقَ بعد ذلك، لُمح على البرّ شعاعُ نارٍ، وانطفأ من فوره، وتناهى حتّى اليخت صوتُ عيارٍ ناريّ.

قال الربّان: - هي ذي الإشارةُ يا صاحب السّعادة، فهل ترغب في أن تردّ عليها بنفسك؟

ردّ الشّابُّ بسؤال: - أيّ إشارةٍ؟

مدّ القائد يده صوب الجزيرة التي كان ينبعث من أطرافها عمودُ دخانٍ واسعٌ، ومعزول وأبيض، فيمضي في السّماء، وكلما ارتفع اتّسعَ فتمزّقَ.

قال الشّابُ، كأنّما يخرج من حلم: -آه! هات!

مدّ له القائدُ قربينةً معبّأةً، فأخذها منه المسافر، ورفعها ببطءٍ، ثمّ أطلق النّار في الجوّ. وبعد عشر دقائق، طُويَت الأشرعة، وأُلقيت المرساةُ على بعد خمسمائة قدم من مرسى صغير. وكان القارب جاهزًا في البحر، ينتظر ركّاب اليختَ، وقد اتّخذ فيه أربعةُ مجدّفين، وقائدٌ، مواقعَهم. نزل المسافر، وبدلًا من أن يجلس في مؤخّر المركب الذي فُرش له ببساط أزرق، ظلّ واقفًا شابكًا ذراعيه. وكان المجدّفون ينتظرون، رافعين أذرعهم إلى النّصف، كأنّهم طيورٌ تجفّف أجنحتها.

قال المسافر: - هيّا!
وانطلقت المجاديف الثمانية تضرب دفعةً واحدةً من غير أن ترشّ قطرةَ ماء واحدةً، فاستسلمَ القاربُ للدّفع وانزلق سريعًا. وما كادت تمضي لحظةٌ، حتّى كانوا وسط جونٍ صغير شكّلته فجوةٌ طبيعية؛ فلامس القاربُ قعرًا رمليًا ناعمًا.
قال الربّان: - يا صاحب السّعادة، اصعد على أكتاف رجلين من رجالنا، وسوف يحملونك إلى اليابسة.
أجاب الشّابُّ الدّعوةَ بحركةٍ لا مباليةٍ تمامًا، فأخرج ساقَيه من القارب، وانزلق في الماء الذي غمره حتّى السرّة.
همس الربّان: - آه! ليس جيّدًا ما تفعلُه يا صاحب السّعادة، وسوف يوبّخنا المعلّم.
واصل الشّابُّ التقدّم صوب الشّاطئ، يتبع نوتيَّيْن كانا يختاران الطّريق الأنسبَ عُمقًا. وبعد نحو ثلاثين خطوةً بلغوا البرَّ؛ هزّ الشّابُّ قدميه فوق أرض يابسةٍ، ثمّ أجال عينيه حواليه باحثًا عن الطّريق المحتملة، الطّريق التي كان قد عيّنَها له مسبقًا، لأنّ الظلام كان دامسًا.
وفي اللّحظة التي أدار فيها رأسَه، حطّت على كتفه يدٌ، وسمعَ صوتًا جعله يرتعد.
قال الصوت: - مرحبًا يا ماكسيميليان، أنت سليمٌ، شكرًا!
صاح الشّابُ بحركةٍ تشبه الفرح وهو يشدّ بيده على يد مونت كريستو:
- هذا أنت يا سيّدي الكونت.
- نعم، وكما ترى، أنا سليمٌ مثلك يا صديقي العزيز؛ لكنّك تقطرُ ماءً، عليك أن تبدّلَ ملابسك. تعالَ، إنّ هنا موضعًا قد جُهزَ لك، ستنسى فيه البرد والتّعب!
لاحظ مونت كريستو أنّ موريل يلتفت؛ فتمهّل. والحالُ أنّ الشّابَّ كان يراقب مندهشًا كيف أنّ الرّجال الذين أوصلوه، لم ينطقوا بكلمةٍ،

ولا تلقوا أمرًا، وانصرفوا حتّى من غير أن يأخذوا أجرةً. حتّى إنّه بدأ يسمع صوت المجاديف وهي تضرب مبتعدةً صوبَ اليخت.

قال الكونت: - آه! نعم، أنت تبحث عن نواتيِّي يختك؟

- قطعًا، فأنا لم أعطهم شيئًا، ومع ذلك انصرفوا.

قال مونت كريستو ضاحكًا: - لا تشغل نفسك بهذا يا ماكسيميليان. إنّ ثمّة اتّفاقًا بيني وبين البحرية، تدخل بموجبه المراكب إلى جزيرتي من غير أن تدفع رسومَ نقلٍ ولا سفرٍ. إنّ لي اشتراكًا، كما يُقال في البلدان المتحضّرة.

نظر موريل إلى الكونت بدهشة.

قال: - أنت مختلفٌ عمَّ كنت عليه في باريس؟

- وكيف؟

- أنت هنا تضحك.

اغتمّ جبين مونت كريستو فجأةً.

قال: - أنت محقٌّ إذ تردّني إلى نفسي يا ماكسيميليان؛ كانت رؤيتُك مصدر سعادةٍ لي، وكدت أنسى أنّ كلّ سعادةٍ زائلة.

صاح موريل وهو يمسك مجدّدًا بيدَي صديقه: - أوه! كلّا، كلّا، يا كونت! على العكس، اضحك، واسعد! وأكِّد لي بلامبالاتك أنّ الحياة سيّئةٌ فقط بالنّسبة لمن يتألّم. أوه! أنت العطوف الخيّر، العظيمُ، إنّما تبدي لي كلّ هذه البهجة لتشجّعني.

قال مونت كريستو: - أنت مخطئٌ يا موريل، بل إنّني سعيد برؤيتك بالفعل.

- نسيت أمري إذًا؟ خيرًا!

- كيف؟

- نعم، لأنّي أقول لك يا صديقي، كما يقول المصارع لجلالة الإمبراطور وهو يدخل ساحة المصارعة: إنّ المقبل على الموت يحيّيك.

قال مونت كريستو بنظرةٍ مندهشة: - ألم تسلو؟

أجاب موريل بنبرة تملأها المرارة: - أوه! هل كنت تظنُّ حقًا أن ذلك سيحدث؟

قال الكونت: - أصغِ إليّ، أنت تفهم كلامي حقًا يا ماكسيميليان، أليس كذلك؟ لست تعتبرني مجرّد رجلٍ سوقيّ، دولاب هواء يصدرُ أصواتًا مبهمةً وخاليةً من أيّ معنى. حين سألتك هل سلوتَ، فإنّما كنت أتحدّث بلسان الرّجل الذي لم تعد تخفى عليه أسرار القلوب. حسنًا إذًا، لننزل معًا إلى أعماق قلبك يا موريل، ونفحصه. أما زلت تشعر بالتّحرّق المؤلم الذي جعلك تنتفض مثل الأسد الذي لسعته بعوضة؟ أم تُراه العطش الحارق الذي لا ينطفئ إلا في القبر؟ أم هي مثاليةُ الندم التي تقذف بالحيّ خارج الحياة، فتجعله يلاحقُ الميت؟ أم هو فقط انهيارُ الشّجاعة المنهَكة، والمللُ الذي يخنق أيّ شعاع يريد أن يضيءَ؟ أهو فقدان الذّاكرة الذي يسبب عجز الدّموع؟ أوه! إن كان الأمر كذلك يا صديقي العزيز، إن كنت قد صرت عاجزًا عن البكاء، إن كنت تظنُّ أنّ قلبكَ المخدَّر قد مات، ولم يعد لك من قوّةٍ إلا ما ترجوه من الربّ، ومن نظرةٍ إلا ما ترفعه إلى السّماء، فلنخلِّ عنّا يا صاحبي الكلمات التي تضيق عن المعاني التي يصبغها عليها قلبُنا. لقد وجدتَ العزاء يا مكسيميليان، فلا تشكو.

قال موريل بصوته العذب والصّارم في آنٍ: - عزيزي الكونت، أصغِ إليّ كما تصغي لرجلٍ يتحدّثُ مادًّا إصبعه إلى الأرض، ورافعًا عينيه إلى السّماء: إنّما أتيت إلى جانبك، لكي أموت بين ذراعي صديق. صحيح أنّ ثمّة أناسًا أحبّهم، أحبُّ أختي جولي، أحبُّ زوجها إيمانويل؛ لكنّني أحتاج أن تحتضنني ذراعان قويّتان، أحتاج من يبتسم لي في لحظاتي الأخيرة؛ أختي ستنهار باكية ويغمى عليها؛ سأراها تتألّمُ، وقد تألّمت أنا بما يكفي؛ وإيمانويل سينتزع السلاح من يدي، ويملأ البيت صراخًا؛ أمّا

أنت يا كونت، أنت الذي قطعت لي كلمتَك، أنت الذي تفوق البشر، أنت الذي كنتُ لأسميه إلهًا لو لا أنّه فانٍ، أنت سوف تقودني، بلطفٍ وعذوبة، حتّى الموت، أليس كذلك؟

قال الكونت: - صديقي، لا تزال في نفسي بقيّةٌ من شكّ. هل وهنت قواك لدرجة أنّك صرت تفتخر بآلامك؟

قال موريل وهو يمدّ يده للكونت: - كلّا، انظُر! إنّني بخير، ونبضي ليس أسرع ولا أبطأ من المعتاد. كلّا، إنّما أشعر بأنّني وصلت إلى آخر الطّريق؛ كلّا، لن أذهب أبعدَ. كنتَ قد حدّثتني عن الانتظار والأمل؛ أتدري أنّك بحكمتك تلك قد أتعستني؟ انتظرتُ شهرًا، وهذا يعني أنّني تألّمت شهرًا! لقد أمِلتُ (إنّ الإنسان مخلوق مسكينٌ بئيس)، وفيمَ كنتُ آملُ؟ لا أدري، في شيءٍ مجهولٍ، أحمق، عبثيّ! معجزة... أيّ معجزة؟ الربُّ وحده يستطيع أن يقول، هو الذي جعل عقولنا يخالطها هذا الجنون المسمّى رجاءً. نعم، لقد انتظرت؛ نعم، لقد أمِلتُ يا سيّدي الكونت؛ ومنذُ الربع ساعةٍ الذي تحدّثنا خلالَه، كسرتَني يا سيّدي الكونت مرّاتٍ، وعذّبت قلبي من غير أن تنتبه، لأنّ كلّ كلمةٍ نطقتها كانت تعني أنّه لم يعد ثمّة من أملٍ بالنّسبة إليّ. آه يا كونت! لشدّ ما أطمح إلى رقدة الموت المريحة العذبةً!

نطق موريل كلماته الأخيرة تلك بفيضِ طاقةٍ ارتجف له الكونت.

واصل موريل لمّا رأى الكونت قد صمت: - يا صديقي، لقد حدّدت لي تاريخ 5 أكتوبر كنهاية للمنع الذي فرضتَه عليَّ... واليوم يا صديقي 5 أكتوبر.

وأخرج ساعته.

- السّاعة الآن التاسعة، ولا تزال أمامي ثلاث ساعاتٍ أعيشها.

قال مونت كريستو: - ليكن، تعال!

سار موريل تلقائيًا في إثر الكونت، ودخلا المغارة من غير أن ينتبه

ماكسيميليان. وجد تحت قدميه بسُطًا، وفُتح بابٌ، فلفّته عطورٌ، وغشي عينيه ضوءٌ ساطع. توقّف موريل، متردّدًا في أن يتقدّم؛ كان ينفر من الملذات الفاتنة التي تحيط به.

سحبه مونت كريستو من يده قائلًا: - ألا يجدر بنا أن نقضي ساعاتنا الثلاث الباقيات، مثلما كان يفعل قدماءُ الرّومان الذين حين يحكم عليهم بالموت نيرون، إمبراطورُهم ووريثهم، يجلسون إلى المائدة مكلّلين بالزّهور، فيستنشقون الموتَ مع الورود وزهرِ رقيبِ الشّمس؟

ابتسم موريل، وقال: - كما تشاء يا سيّدي؛ الموتَ هو دائمًا الموتُ، أي النّسيان، أي الرّاحة، أي غياب الحياة، وبالتّالي غيابَ الألم.

جلسَ، وجلس الكونت قبالته. وكانا في ذاك الصالون الرّائع الذي سبق أن وصفناه، حيثُ تماثيل تحملُ على رؤوسها دومًا سلالًا مليئةً بالزّهور والفاكهة. وقد نظر موريل نظرةً مبهمةً، ومؤكّدٌ أنّه لم يلحظ شيئًا.

قال وهو يحدّق في الكونت: - لنتحدّث رجلًا إلى رجل.

أجابه الكونت: - تكلّم.

استأنف موريل الكلام: - سيّدي الكونت، أنت خلاصةُ المعارف البشرية بأكملها، وتشعرني بأنّك قد نزلتَ علينا من عالمٍ آخر، عالمٍ أشدّ تقدّمًا ومعرفةً منّا.

أجاب الكونت بابتسامته الحزينة التي تضفي عليه جمالًا كبيرًا: - في كلامك شيءٌ من الصّواب يا موريل؛ لقد نزلت عليكم من كوكبٍ يسمّى الألم.

- أنا أصدّق كلّ ما تقوله يا سيّدي الكونت، من غير أن أجهد نفسي في تعميق معناه؛ والدّليل أنّك قلت لي أن أعيش، فعشتُ؛ وقلت لي أن آملَ، فأمِلتُ تقريبًا. لذا أجرُؤ على أن أسألك يا سيّدي الكونت، ما دمت قد متّ من قبل: هل الموت مؤلم؟

نظرَ الكونت إلى موريل نظرةً تفيضُ عطفًا.

قال: - نعم، بالتّأكيد، مؤلمٌ جدًا أن تمزّقَ هذا الغشاء الحيَّ الذي يكافح للبقاء حيًّا. إن نهشتَ لحمَك بأسنان السكّين الخفيّة، أو ثقبتَ جمجمتك برصاصةٍ غبيّة، مستعدّةٍ لأن تنزاح عن مسارها في أيّ لحظةٍ؛ فقطعًا سوف تتألّم، وتغادر هذه الحياة بطريقة شنيعة، حتّى إنّك في غمرة احتضارك، ستأسف على الحياة، وتفضّلها على الرّاحة التي أدّيت ثمنها غاليًا.

قال موريل: - أجل، أفهم، إنّ للموت، كما للحياة، أسرارَهُ المتعلّقة باللّذة والألم: المهم أن نعرفها.

- بالضّبط يا ماكسيميليان، لقد نطقتَ الكلمة الأهمَّ. إنّ الموت يعاملنا بحسب العناية التي نأخذها تجاهه، فإمّا يكون صديقًا يُهدهدنا برفقٍ مثل مرضعةٍ، وإمّا عدوًّا ينتزع منّا الرّوح بعنفٍ. ذات يوم، حين يكون عالمنا قد عاش ألف سنةٍ أخرى، ونكون قد صرنا أسيادًا على قوى الطّبيعة المدمِّرة كلّها، فصيّرناها في خدمة مصلحة الإنسانية؛ حين يكون الإنسانُ قد عرف أسرارَ الموت كما قلتَ، آنذاك سيصير الموتُ عذبًا ولذيذًا كالنّوم في أحضان الحبيبة.

- ولو رغبتَ في الموت يا سيّدي الكونت، هل كنت لتموت على هذا النّحو؟

- نعم.

مدّ له موريل يده، وقال: - فهمت الآن، لمَ ضربت لي موعدًا هنا، في هذه الجزيرة الخالية، وسط محيطٍ، وفي هذا القصر الأرضيّ، هذا الضّريح الذي قد يثير غيرة فرعون نفسه.. لأنّك تحبّني، أليس كذلك؟ لأنّك تحبّني لدرجة أنّك أردت أن تمنحني ميتةً من تلك الميتات التي كنت تتحدّث عنها قبل قليل، ميتة من دون نزع، ميتةً تمكّنني من أن أنطفئَ وأنا أنطق باسم فالانتين، وأشدّ على يدك؟

قال الكونت ببساطة: - نعم، لقد أحسنتَ التّخمين، هذا ما قصدتُه.

- شكرًا إنّ قلبي مرتاحٌ لأنّني أعلم أنّ آلامي تنتهي غدًا.

سأله مونت كريستو: - ألا تأسفُ على شيء؟

أجابه موريل: - كلّا.

سأله الكونت بتأثر عميق: - حتّى أنا؟

توقّف موريل، وأظلمتْ عينُه الصّافية فجأةً، ثمّ لمعت ببريقٍ غير معتادٍ؛ وفاضت منها دمعةٌ كبيرةٌ شاقّةً أخدودًا فضيًا على خدّه.

قال الكونت: - ماذا! لا يزال لديك في هذه الأرض شيءٌ تأسف عليه!

صاح موريل بصوت واهنٍ: - أوه! أرجوك يا سيّدي الكونت، لا تزد كلمة، لا تُطِل عذابي.

ظنّ الكونت أنّ موريل قد ضعف. وإنّ هذا الظنَّ الذي لم يدم سوى لحظةٍ، بعث فيه الشكّ الرّهيب الذي سبق أن أرعبه في قلعة إيف. فكّر: «إنّني مشغول بإسعاد هذا الرّجل؛ أعتبر إذًا تردّده بمثابة ثقل يوازن كفّة الأذى الذي ألحقته به. والآن، إن لم أخطئ، إنّ هذا الرّجلَ لم يكن تعيسًا بما يكفي ليستحقّ السّعادة! واأسفًا! ماذا سيكون مصيري إذًا أنا الذي لا أكفّر عن الشّر إلا بفعل الخير؟».

قال: - أصغِ إليّ يا موريل! إنّ ألمك عظيمٌ كما أرى؛ لكنّك في الآن نفسه تؤمنُ بالرّبّ ولا تريد أن تجازف بخلاص روحك.

ابتسم موريل بحزنٍ، وقال: - أنت تعرف يا سيّدي الكونت، أنّني لا أنمّق الكلامَ؛ أقسم لكَ أنّ روحي لم تعد ملكًا لي.

قال مونت كريستو: - أصغ يا موريل، أنت تعرف أنّ لا أقارب لي. وقد درجت على اعتبارك ابنًا لي. وإذًا، لكي أنقذ ابني، أنا مستعدٌ لأن أضحي بحياتي، بلهَ ثروتي.

- ماذا تقصد؟

- أقول يا موريل، إنّك تريد أن تترك الدّنيا لأنّك لا تعرف المباهج التي يمكن أن توفّرها لك ثروةٌ هائلة. موريل، أنا أملك نحو مائة مليونٍ، وسوف أهبها لك؛ بثروة كهذه تستطيع أن تحقّق كلّ ما تصبو إليه. أنت طموح؟ سوف تنفتح أمامك كلّ السّبل. زلزلِ العالمَ، بدِّل وجهَه، قم بأمور مجنونة، كُن مجرمًا إن شئتَ، لكن ابقَ حيًّا.

أجاب موريل ببرود: - لقد قطعت لي عهدًا يا سيّدي، (ثمّ أضاف وهو يُخرج ساعتَه) إنّها الحادية عشرة والنّصف.

- موريل! هل تفكّر في هذا، وأنت في بيتي، وتحت بصري؟

قال ماكسيميليان وقد عمَّته الكآبةُ: - اتركني إذًا أرحل، وإلا لظننتُ أنّك تحبّني لنفسك، وليس لأجلي.

ثمّ هبَّ واقفًا.

قال مونت كريستو وقد أشرق وجهه من كلام موريل: - حسنًا، تريد الموت يا موريل، ولا شيءَ يثنيك عن رغبتك؛ بلى! إنّك حقًّا تعيسٌ، وكما قلتَ بنفسك، لن تشفيك إلا معجزة؛ اجلس يا موريل، وانتظر.

أطاع موريل الأمر. وقام مونت كريستو بدوره وقصد دولابًا مغلقًا بعناية، وكان يحمل مفتاحه معلّقًا في سلسلة؛ ومن الدّولاب أخرج صندوقًا صغيرًا منحوتًا ومنقوشًا بإبداع، وفي زواياه صُوّرَت أربعُ هيئاتٍ مقوّسةٍ، هيئاتُ نساءٍ تشبه تماثيل عذّارى حزيناتٍ، هي رمزٌ لملائكة تصبو إلى السّماء.

وضع الصندوقَ على الطّاولة. فتحه وأخرج منه علبة ذهبيّة صغيرة يرتفع غطاؤها بالضّغط على نابض خفيّ. وكانت العلبة تحوي مادّة شبه صلبةٍ يتعذّرُ تحديد لونها، بسبب انعكاسات الذّهبِ الصّقيل، وأحجارِ الياقوت والزمرّدِ التي تزيّن العلبة. كان وميضًا منَ الألوان، السّماويَّ والأرجوانيّ والذّهبيّ.

أخذ الكونت من المادّة قليلًا بواسطة ملعقةٍ قرمزيّةٍ، وقدّمها لموريل وهو يحدّق فيه بنظرةٍ طويلة. وإذّاك تبيّن أنّ لونَ المّادة أخضر.

قال الكونت: - إليك ما طلبته منّي؛ إليك ما وعدتُك به.

قال الشّاب وهو يتناول الملعقة من يدي الشّابّ: - أغنَمُ أنّني ما أزال حيًا لأشكرك من صميم قلبي.

أخذ الكونت من العلبة ملعقة أخرى.

سأله موريل، وهو يوقف يده: - ماذا تنوي أن تفعل يا صديقي؟

أجابه الكونت باسمًا: - ليسامحني الربّ، لكن الحقّ أظنُّ أنّني أنا أيضًا مللت الحياة، وما دامت الفرصة قد لاحت!

صاح الشّابُّ: - توقّف! أنت الرّجل المحبُّ المحبوبُ، أنت الذي تملك الإيمان والرّجاء، أوه! كلّا لا تفعل ما أنوي أن أفعله؛ لأنّ فعلتك أنت ستكون جريمة. وداعًا يا صاحبي النّبيل الكريم، سوف أخبر فالانتين بكلّ ما فعلته لأجلي.

ثمّ ببطءٍ، ومن غير أيّ تردّد، باستثناء تشنّج في اليد اليسرى التي كان يمدّها للكونت، تناول موريل المادّة الغامضةَ، أو بالأحرى تذوّقها. ثمّ صمتا معًا. وكان عليٌّ يقف منتظرًا صامتًا، فحمل التبغ والنّراجيل وقدّم القهوة وانصرف!

وشيئًا فشيئًا بدأت الأضواء تخفت في أيدي التماثيل التي تمسك بها، وبدأت العطور في أواني الخزف تبدو لموريل أقلّ نفاذًا. وكان الكونت جالسًا، مقابِلَه، يراقبه من الظلّ، فلا يرى منه موريل إلا عينيه تبرقان في الظّلام.

اجتاح الشّابَّ ألمٌ رهيبٌ؛ وشعر بالنرجيلة تفلت من يديه؛ وأخذت الأشياء تفقد أشكالها وألوانها؛ وهيّأت له عيناه المشوّشتان أنّه يرى أبوابًا تُفتح في الجدران والسّتائر.

قال: - صديقي، أشعر أنّني أموت. شكرًا.

وبذل جهدًا ليمدّ يده إلى صديقه للمرّة الأخيرة، لكنّ يده الواهنة هوت بجانبه. إذّاك تهيّأ له أنّ مونت كريستو يبتسم، ليس بتلك الضّحكة

الغريبة المرعبة التي كشفت للشّاب غير ما مرّة عن أسرار الرّوح العظيم، وإنّما ابتسامةَ الآباء العذبةَ الرّؤومَ، ابتسامتهم لأبنائهم حين يخطئونَ. وفي الآن نفسه، وقف الكونت، وقد تعاظم حجمه في عين الشّاب؛ وارتسمت قامته، التي تضاعف حجمها، وسط ستائر الجدران الحمراء، وقد أرسل إلى الخلف شعره الأسود، فبدا واقفًا، فخورًا كملاكٍ من أولئك الملائكة الذين يُتوعّدُ بهم المجرمون يوم الدّينونة.

خائرًا، مستسلمًا، انقلب موريل على مقعده. سرى في عروقه خدرٌ ناعمٌ. وارتسمت على جبينه آثار تغيّرٍ في الفكر، كما تتغيّرُ الصور في المِشكال. راقدًا، منهَكًا، لاهثًا، لم يعد موريل يحسّ بشيء حيٍّ فيه، سوى هذا الحلم: كان يبدو له أنّه قد أرخى قلوع السّفينة، ومضى يمخر عباب المجهولِ المسّمى: الموت. حاول أن يمدّ يده مرّة أخرى إلى الكونت، لكن هذه المرّة لم تتحرّك يده أصلًا؛ وحاول أن ينطق كلمة وداع أخير، لكنّ لسانه تحرّك متثاقلًا في فمه، مثل صخرة تغلق باب قبر. انغلقت عيناه كسلانتين رغمًا عنه. ومع ذلك ظلت ، خلف جفنيه، صورةٌ تبيّنَها رغم الظّلمة الحالكة التي تلفّه: كانت ررة الكونت وهو يفتح الباب. وعلى الفور انطلق دفق نورٍ من غرفة مجاورةٍ، أو بالأحرى من قصرٍ رائع، فغمر الغرفة التي كان فيها موريل يستسلم لاحتضاره العذب. فرأى عند عتبة الباب، في الحدّ الفاصل بين الغرفتين، امرأةً رائعة الجمال تتقدّمُ. كانت شاحبة وعذبة الابتسامة، تبدو كأنّها ملاك الرّحمة أتى يطرد ملاك الانتقام.

فكّر المحتضر: - أهي السّماء تنفتح لي؟ إنّ هذا الملاك يشبه الملاك الذي فقدتُه.

أشار مونت كريستو بإصبعه للصّبيّة، إلى الأريكة التي تمدّد عليها موريل. فتقدّمت الصبيّةُ نحوَه بيدين مضمومتين، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة.

صاح موريل من أعماق روحه: «فالانتين! فالانتين!». لكن من فمه لم يخرج أيّ صوتٍ؛ ثمّ، وكأنّما اجتمعت كلّ ملَكاته في ذاك الانفعال الجوّاني، تنهّدَ وأغمض عينيه.

هرعت إليه فالانتين، فندّت عن شفتيه حركةٌ أخيرة.

قال الكونت: - إنّه ينادي عليك؛ ينادي عليك من أعماق نومه، الرّجلُ الذي وضعتِ مصيركِ في يديه، وأراد الموتُ أن يفرّق بينكما، لولا أنّني كنت حاضرًا، لحسن الحظّ، فهزمتُ الموتَ! من الآن يا فالانتين لم يعد لكما أن تفترقا على هذه الأرض؛ لأنّه لحق بك حتّى القبر. لولايَ لمتُّما معًا؛ أعيد كلًّا منكما إلى الآخر: ليغفر لي الربّ، ويقبل منّي كفّارةً هذين الرّوحين اللذين أنقذتُهما!

أمسكت فالانتين يد مونت كريستو، وفي حماسة فرحٍ طبعت عليها شفتيها.

قال الكونت: - آه! اشكريني ما استطعتِ؛ قولي وكرّري أنّني أسعدتك؛ لا تتخيّلي كم أحتاج إلى هذا اليقين!

- أوه! نعم، نعم، أشكرك من أعماق قلبي، وإن شككتَ لحظةً في صدقِ ما أدّعيه، فاسأل هايدي، اسأل أختي العزيزة هايدي التي مُذ غادرنا فرنسا وهي تكلّمني عنك، وتصبّرني، وتأمّلُني في هذا اليوم السّعيد الذي غدا الآن حقيقةً تتلألأ في عينيَّ.

سألها الكونت بتأثّر لم يفلح في إخفائه: - تحبّين إذًا هايدي؟

- أوه! من كلّ روحي.

قال الكونت: - حسنًا، أصغِ إليّ يا فالانتين، إنّ لي معروفًا أسألك إيّاه.

- تسألني أنا، يا إلهي! تراني محظوظةً لأنال شّرف أن تطلب مني شيئًا؟

- نعم، لقد سمّيتِ هايدي أختَك: فلتكن إذًا أختك حقًّا؛ ردّي إليها

الجميل الذي تدينين إليّ به؛ احميها أنت وموريل لأنّها (وهنا تغيّر صوت الكونت حتّى كاد ينطفئ في حلقه)، لأنّها من الآن ستصير وحيدةً في هذا العالم...

ردّد اسمٌ خلف الكونت: - وحيدةً في العالم! ولمَ؟

التفت الكونت. كانت هايدي واقفةً، شاحبةً ومتجمّدةً من الرّعب، تنظر إلى الكونت في ذهول مميت.

أجابها الكونت: - إنّك يا ابنتي، غدًا ستكونين حرّةً؛ لأنّك سوف تتبوّئين في هذا العالم المكانة التي تستحقّينها؛ لأنّني لا أريد لك مصيري المظلم. يا ابنة الأمير! أعيد إليك اسم والدك وثرواته.

بهتت هايدي، ورفعت يديها النّاصعتين مثل العذراء التي تناشد الربّ، وبصوتٍ تحشرج من الألم قالت: - تتخلّى عنّي إذًا يا مولاي؟

- هايدي! هايدي! أنت شابّةٌ، وجميلة؛ انسَي اسمي وسوف تعيشين حياةً سعيدةً.

قالت هايدي: - حسنًا، سأنفّذ أوامرك يا مولايَ، سوف أنسى حتّى اسمك، وأكون سعيدة!

ثمّ تراجعت إلى الخلف خطوةً لتنصرف.

صاحت فالانتين، وهي تنظر إليه وتسند بكتفها رأس موريل المتصلّب: - أوه! يا إلهي! ألا ترى كم هي شاحبةٌ! ألا تفهم كم تعاني!

قالت هايدي بنبرةٍ مفجعة: - كيف تريدين منه أن يفهمني يا أختي؟ إنّه سيّدي، وأنا جاريةٌ لديه، من حقّه ألا يرى.

ارتجف الكونت للنّبرة التي داعبت أعمق شغاف قلبه؛ التقت عيناه بعينيّ الصبيّة ولم يطقِ بريقهما.

قال: - إلهي! إلهي! أصحيح إذًا ما راودني يا هايدي؟ سيسعدك أن تظلّي بقربي؟

قالت بلطفٍ: - أنا شابّةٌ، وأحبّ حياتي التي جعلتَها أنت عذبةً، وآسفةٌ على الموت.

- هذا يعني يا هايدي أنّني إن تركتك...

- نعم يا مولاي، إن تركتني سوف أموت!

- أنت تحبّينني إذًا؟

- أوه يا فالانتين! إنّه يسألني هل أحبّه؟ قولي له بحقّ حبّك لماكسيميليان!

أحسّ الكونت بصدره يتّسع وقلبه يرتاح؛ فتح ذراعيه، فارتمت هايدي في حضنه.

قالت: - آه! نعم أحبّك! أحبّك كما تحبُّ المرأة أباها، وأخاها، وزوجها! أحبّك كما يحبُ المرء الحياةَ، كما يُحَبّ الرّبُ، لأنّك عندي أجملُ الخلقِ وأكملهم!

قال الكونت: - لتكن إذًا مشيئتك يا ملاكي المحبوب! إنّ الرّب الذي مكّنني من أعدائي، ونصرني عليهم، لا يريدني أن أنهي حياتي كما خطّطتُ؛ أردت أن أكفّر عن ذنبي، لكنّ الربَّ غفر لي. أحبيني إذًا يا هايدي! فمن يعلم؟ فلعلّ حبّك ينسيني ما ينبغي أن أنساه.

سألته الصبيّة: - ماذا تقول يا مولاي؟

- أقول إنّ كلمة منك، أضاءت لي ما لم تضئه عشرون سنةً من الحكمة الرّصينة؛ أنتِ في هذا العالم يا هايدي مِنْ يربطني بهذه الحياة، بك أعرف الألم، وبك أعرف السّعادة!

صاحت هايدي: - أسمعته يا فالانتين؟ يقول إنّه بي أنا يعرف الألم، أنا التي أعطيه حياتي إن طلبها.

تفكّر الكونت برهةً، ثمّ قال: - هل أبصرتُ الحقيقة؟ يا إلهي! لا بأس! أقبلُ هذا المصير، سواء كان جزاءً أو عقابًا. تعالَي يا هايدي، تعالي...

ثمّ إنّ الكونت طوّق خصر هايدي، وصافح فالانتين واختفى...

مرّت تقريبًا ساعةٌ، ظلّت فالانتين أثناءها جالسة بقرب موريل تحدّق فيه، لاهثةً، خرساءَ. ثمّ أحسته يسترجع نبضَ قلبه، وأطلقت شفتاه نفسًا

خفيًا، وسرت في جسده تلك الرّعشة الخفيفة التي تؤكّد أنّ جسده قد استعاد الحياة. ثمّ أخيرًا انفتحت عيناه، وإن ظلّتا في البداية مسمّرتين ذاهليتن، ثمّ استعادتا وضوح الرؤية؛ ومع الرؤية استعاد الشّعور، ومع الشّعور الألـمَ.

صاح بنبرة اليأس: – أوه! ما زلت حيًّا، لقد خدعني الكونت!

ثمّ مد يده إلى الطّاولة، فتناول السّكين.

قالت فالانتين بابتسامتها العذبة: – استيقظ يا صديقي، وانظر ناحيتي!

أطلق موريل صيحةً، ثمّ استولى عليه الهذيان، وجثا على ركبتيه مذهولًا، مفعمًا بالشكّ، كأنّما أبهرته تلك الرؤيا السّماوية...

وفي اليوم التّالي كان موريل وفالانتين يتنزّهان على الشّاطئ، متأبّطيْن ذراعَيّ بعضهما بعضًا؛ تحكي له كيف دخل عليها مونت كريستو الغرفة، وكيف كشف لها كلّ شيء، كيف وضع إصبعها على الجريمة، ثمّ كيف أنقذها من الموت بمعجزةٍ، تاركًا النّاسَ يتوهّمون موتَها.

وكانا قد وجدا باب المغارة مفتوحًا، فخرجا؛ السّماءُ صافيةٌ، لا تزالُ تلمع فيها آخر نجوم اللّيل.

لمح موريل في ظلّ صخورٍ رجلًا ينتظر الإشارة ليتقدّم؛ فأرى فالانتين الرّجلَ.

قالت: – آه! إنّه جاكوبو ربّانُ اليخت.

وبحركة نادته ليأتي إليهما.

سأله موريل: – ماذا؟ هل لديك ما تقوله لنا؟

– عندي لكما هذه الرّسالة من عند الكونت.

غمغم الشّابان معًا: – من عند الكونت!

– نعم، اقرآ!

فتح موريل الرّسالة وقرأ:

«**عزيزي ماكسمليان،**

ثمّة فَلوكة[1] تنتظركما راسيةً. سوف يقودكما جاكوبو إلى ليفورنو، حيث ينتظر نوارتييه حفيدَته، ليمنحها مباركته قبل أن تتبعك إلى المذبح. إنّ كلّ ما في المغارة، بالإضافة إلى منزلي في الشانزيليزيه، وقصري الصّغير في تريبور، هي هديّة عرسٍ من إدمون دانتِس إلى ابن ربِّ سفينته موريل. ولتقبل منّي الآنسة دو فيلَفور نصف الأملاك، لأنّني أرجوها أن تتبرّع للمؤسّسات الخيرية بكلّ ثروتها من جهة أبيها الذي فقد عقلَه، ومن جهة أخيها الذي توفي مع زوجة أبيها في شهر سبتمبر الماضي.

قُل للملاك الذي سيرعى حياتك، ألّا ينسى بالدّعاء رجلًا أغواه الشّيطانُ لوهلةٍ، فتطاولَ حتّى ظنَّ نفسَه يضاهي الربَّ؛ ثمّ أدرَك، بكلّ ما ينبغي في مسيحيّ مؤمنٍ من ذُل، أنّ الربّ وحده يملك مقاليد القدرة الأقوى، والحكمة الأسمى. فلعلَّ دعاءك يخفّفُ شيئًا من المرارة التي يحملها في قلبه.

أمّا أنت يا موريل، فإليك سرّ تصرّفي معك: ما من سعادةٍ في هذه الحياة، ولا شقاء، إنّما فقط مقارنةُ حالٍ بحال. ومن جرّب النّزول إلى أدنى دركات البؤس، وحدهُ يستطيع أن يشعر بأعلى درجات الرّضا. كان عليك أن ترغب في الموت يا موريل، لكي لتدرك طيب الحياة.

عِيشا إذًا يا ابنيَّ العزيزين، وتذكّرا أنّه إلى أن يأتي اليوم الذي يكشف فيه الرّبُ الحُجُب للإنسان، ستظلُّ الحكمة كلّها تتلخّص في هاتين الكلمتين: الانتظار والأمل!

صديقك.

إدمون دانتس

كونت مونت كريستو».

---

(1) الفلوكة، مركب شراعيّ طويلٌ وخفيف، يستخدم في الأنهار والبحار، وما تزال التسمية دارجة في المغرب ومصر.

وأثناء إنصاتها صامتةً لموريل وهو يقرأ الرّسالة التي أخبرتها بجنون أبيها وموت أخيها وزوجة أبيها، وكانت هي تجهل مصيرهم، شحبت فالانتين، وأفلتت من صدرها أنّةٌ موجعة، وسالت على خديها دموعٌ أليمة: إنّ لسعادتها ثمنًا باهظًا.

أجال موريل البصر حواليه قلقًا، وقال لجاكوبو:

- الحقّ يا صديقي أن الكونت يبالغ في كرمه، إنّ فالانتين ستكتفي بثروتي البسيطة. أين هو الكونت يا صديقي؟ خُذني إليه.

مدّ جاكوبو ذراعه صوب الأفق.

سألته فالانتين: - ماذا! ماذا تقصد؟ أين الكونت؟ وأين هايدي؟

قال جاكوبو: - انظرا.

تعلّقت عيون الشّابين بالاتّجاه الذي عيّنه البحّارُ؛ وعند خطّ الأفق الأزرق الدّاكن الذي يفصل بين السّماء وبين البحر المتوسّط، لمحا شراعًا أبيض، في كبر جناح نورس.

صاح موريل: - لقد رحل! رحل! وداعًا يا صاحبي! وداعًا يا أبي!

وغمغمت فالانتين: - رحلَت! وداعًا يا صديقتي! وداعًا يا أختي!

قال موريل وهو يمسح دمعة: - من يدري ما إذا كنّا سنراهما مرّةً أخرى؟

قالت فالانتين: - ألم يقل لنا الكونت يا صديقي إنّ الحكمة البشرية بأكملها تتلخّص في هاتين الكلمتين:

«الانتظار والأمل!».

تمّت

ألكسندر دوما

كونت مونت كريستو

في قصة رومانسية، وعلى خلفية الحقبة النابليونية وانقسامات المجتمع الفرنسي بين أنصار الملكية وأنصار نابليون، كتب ألكسندر دوما رائعته "كونت مونت كريستو"، لتتحول إلى واحدة من الأعمال العظيمة في تاريخ الأدب، وتحظى بشهرة وانتشار واسعَيْن منذ صدورها في العام 1844. وتُعاد طباعتها وترجمتها إلى كل لغات العالم، مرة بعد مرة، لتتكرّس كواحدة من الأعمال الكلاسيكية الكبرى.

إدمون دانتس، الشاب الطموح والمَرِح، يتعرّض لمكيدة تؤدي إلى اعتقاله يوم تحقق فرحته بالزواج من حبيبته الجميلة مرسيدس. ويقع بين يدي قاضٍ يودعه السجن من دون محاكمة ليُسجَن ظلمًا لأربعة عشر عامًا في أشد الظروف قساوةً. لكن الأب فاريا المتهم بالجنون يفتح له باب الأمل من طريق غير متوقَّع.

يفرّ إدمون دانتس من سجنه الانفرادي معرِّضًا نفسه للموت، لكنه ينجو. يخرج ليرى أن الذين أدخلوه السجن ظلمًا صاروا شخصيات كبيرة عن طريق الكذب والغشّ. يبدأ كونت مونت كريستو عملية انتقام متقنة الصنع في سياق رسم صورة للمجتمع الفرنسي في تلك الفترة.

إن دار التنوير لتفخر بتقديم هذا العمل العظيم لأول مرة في ترجمة كاملة إلى اللغة العربية، ترجمة بذل فيها محمد آيت حنا جهدًا كبيرًا لتوضيح الوقائع والشخصيات الكثيرة التي يذكرها دوما في هذه الرواية المليئة بالإحالات على التاريخ والفلسفة والميثولوجيا.

... كتابات دوما هي قمة الفن. لن يستطيع، ولم يستطع أحد من قبل، أن يتجاوز إبداعه في قصصه الرومانسية ومسرحياته.

جورج برنارد شو

لا أعتقد أنه يوجد كتاب تستطيع أن تعيش معه جوًا رومانسيًا صافيًا مثل هذا الكتاب.

روبرت لويس ستيفنسون



daraltanweer.com
بيروت • القاهرة • تونس